الحياة الأدبيّة فى عصر الحروب الصّليبيّة بمصر والشّام

تأليف

الدكتور أحمد أحمد بدوى
المدرس فى كلية دار العلوم بجامعة القاهرة

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
١٨ شارع كامل صدقى « الفجالة »

مطبعة نهضة مصر

الإهداء

إليها

إلى التى شجعتنى على البحث ، وأحاطتنى بعطف أعاننى على مشـــاق الدرس ، وهيأت لى حياة مهدت أمامى طريق العمل وسبيل الإنتاج .

إلى التى محت بيدها الحانية ما كنت أجده فى هـذه الدراسة : من صعاب ، كادت تصرفنى عنها ، وتدفعنى عن المضى فى إتمامها .

إلى التى قدمت لى من وقتها ، بنفس سمحة مخلصة ما أنفقته فى كتابة هذه الرسالة .

إلى زوجتى العزيزة ، أهدى هذا الكتاب .

أحمد أحمد بدوى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

امتد عصر الحروب الصليبية الذى عنيت بدراسة أدبه زهاء قرنين، بدأا يوم وضع الصليبيون أرجلهم بأرض الشام، يريدون الاستيلاء عليه، وأن يفتحوا بيت المقدس، وكان ذلك سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وانتهيا حين استولى الأشرف خليل بن قلاوون على مدينة عكا وآخر ما كان بأيدى الصليبيين، وألقى بهم إلى البحر، عام اثنين وتسعين وستمائة للهجرة.

وكان لهذا العصر الطويل أثره فى حياة المسلمين بمصر والشام، إذ اتجهوا إلى إخراج العدو الذى اغتصب أرضهم، وشتت شمل الأسر فى البلاد التى احتلها بجموعه الحاشدة. ولم تكن الحروب تهدأ بين الفريقين حيناً، إلا لتعود من جديد، بقسوة وعنف شديدين.

وقد حاولت فى هذه الرسالة أن أصور حياة الأدب ومعالم نشاطه فى ذلك العصر، وكان من الضرورى العناية بدراسة ما حول الأدب من حيوات نشأ فيها، وأمدته بألوان من التغذية، جعلته ذا مظهر خاص به، وطعم يميزه عما سواه، ونعنى بما حول الأدب هذا الجو الذى تنفس فيه الأدب، وعاش فى كنفه: من حياة سياسية، كان لرجالها أثرهم فى توجيه الأدب، وفى النهوض به حيناً، أو محاربة بعض ألوانه حيناً آخر، وكان لها أثرها كذلك فى الإنتاج الأدبى من حيث أحداثها وتقلباتها، ومن حياة اجتماعية، واقتصادية، وحربية وغيرها، فلكل ذلك أثره الذى لا ينكر فى الأدب.

وبعض هذه الحيوات التى تحيط بالأدب قد أفردت له دراسة خاصة به مطولة، وهى الحياة العقلية فى ذلك العصر، فقد كانت موضوع الدراسة فى كتاب خاص لى. وباقيها جدير بمثل هذه الدراسة المطولة، لولا أن دراسة للأدب فى ذلك العصر تطول طولا مفرطاً إذا ضمت دراسة مفصلة لألوان هذه الحيوات، ولكن ذلك لا يعنى الكاتب فى أدب عصر أن يلم بها،

ويظهر النواحى البارزة فيها ، حتى يصف فى صورة واضحة ، وإن كانت موجزة ، البيئة التى نبت فيها الأدب ، وترعرع فى ظلها .

ولذلك تفهمت العوامل المؤثرة فى حياة أدب هذه الفترة ، فنية كانت أو غيرها ، ثم عمدت إلى تتبع النتاج الأدبى ، قدر ما وسعنى الجهد ، وقرأت دارساً بقدر استطاعتى ماخلفه لنا هـذا العهد الطويل : من دواوين شعرية ، ورسائل نثرية ، مجموعة ومتفرقة فى المصادر المختلفة ، ومجموعات مختارة من أشعار هذا العصر ، ومكنتنى هذه الدراسة من أن أتبين حياة الفنون الأدبية فى ذلك العصر فنافنا : شعراً وكتابة وخطابة ، من حيث الخصائص التى تميز كل فن ، ومن حيث الغزارة أو القلة ، ومن حيث الاتجاهات والمذاهب الفنية التى جرى فيها كل واحد من هذه الفنون ، وأن أعرف من أدباء العصر ناثريه وشاعريه كل ما يمكننى معرفته ، وكنت أنظر إلى كل شىء من زاوية تلك الحروب الصليبية ، وما يتصل بها من حركات عنيفة ، كالغزو التترى .

وهكذا انقسمت الدراسة فى هذه الرسالة قسمين : أحدهما دراسة ما حول الأدب ، دراسة تطل على العصر بنظرة شاملة تتبين ملامحه السياسية والاجتماعية والعلمية ، لما لذلك كله من صلة وثيقة بالأدب ، وأهمية كبرى فى فهمه وتذوقه ثم تاريخه كما ذكرنا ، وثانيهما دراسة الأدب نفسه ، بتبيين فنونه المختلفة ، ووصفها ، وبحث نتاج كل فن على حدة ، والوقوف عند الرجال الذين أنتجوا هذا الأدب ولونوه ، وتوضيح الأثر الذى تركته الحروب الصليبية فى الأدب العربى .

وعلى هذا النهج سرت فى وضع هذه الرسالة .

هذا وأحب أن أوجه النظر إلى أننى لم أعن فى هذا البحث بناحية هامة من نواحيه ، وهى ناحية الأدب الشعبى ، ذلك لأن هذه الناحية تستحق وحدها أن يفرد لها بحث غير هذا البحث ، وليتنى قصرت جهدى فى هذه الناحية منذ بداية الأمر ، وإذا كنت قادراً على الخوض فى مشكلة من مشكلات الأدب المصرى ، وهى صلته بالشخصية المصرية الخالصة ، أو مقدار تعبيره عن هذه الشخصية ، ذلك لأنى ممن يعتقدون أن الشخصية المصرية لا سبيل إلى ظهورها بقوة ووضوح ، فى غير الميادين الشعبية للأدب ، أما ميـدان الأدب التقليدى

فهو فى نظرى لا يعين كثيراً على التعبير عن الشخصية الإقليمية .

وقدسبقنى إلى معالجة موضوع الأدب المصرى فى تلك الفترة التى نؤرخ لها ، وهى فترة الحروب الصليبية باحثون ، نعد منهم الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه : « أدب مصر الفاطمية » ، والدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتب أشهرها « كتاب الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول » و« كتاب أدب الحروب الصليبية » و« كتاب أدب مصر الأيوبية » ، فكان الدكتور كامل حسين مدفوعاً فى ذلك بفكرته عن العصر الفاطمى ، وما امتاز به عن بقية العصور المصرية أو السورية ، بالعقائد الخاصة ، والأغراض الخاصة ونحوها ، كما كان الدكتور عبد اللطيف حمزة مدفوعاً إلى ذلك بفكرته عن الشخصية المصرية وما لها من أثر فى الأدب المصرى والعقل المصرى ، محاولا فى كل ذلك أن يوازن مااستطاع بين بيئتين هامتين من بيئات الأدب فى ذلك العصر ، وهما بيئة مصر من ناحية ، وبيئة الشام من ناحية ثانية . وقد اخترت لنفسى فى هذا البحث خطة تتفق وسعته وامتداد عصره ، فى البيئتين السابقتين معاً ، وهما البيئة المصرية والبيئة السورية ، وهكذا امتد بحثى هذا إلى بيئتين كبيرتين ، فى قرنين كاملين ، فكان على فى هذه الحالة أن أنظر نظرة عامة إلى تلك العصور والبيئات ، وأن أقف فيها عند المعالم الهامة . وأنا أرجو أن أكون فى ذلك رائداً لطوائف الباحثين بعدى ، ممن سيقفون عند كل جزء من أجزاء هذا البحث ، ويولونه العناية التى تتفق وخطورته .

وفى نيتى إن شاء الله أن أتبع هذا البحث ببحوث أخرى أخص بعضها للحياة السياسية ، وبعضها للحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وبعضها كذلك للحياة الصوفية وما لها من تأثير فى التيارات الأدبية المختلفة .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

القسم الاول

ما حول الأدب

الحروب الصليبية

ما هذه الجموع الحاشدة تقدم من كل فج عميق فى أوربا ، تلمح فيها الشيخ الفانى ، والشاب المكتمل ، والطفل الرضيع ، تحمله أمه الشابة ، وترى فيها أسرا برمتها ، قد تركت وراءها ديارها ، واصطحبت معها حيوانها وأثاث بيوتها ، وما هذه الأصوات تجلجل ، كالرعد القاصف فى أجواز الفضاء ، بهذا الدعاء الذى يربط بين هؤلاء الأقوام المختلفة أوطانهم وجنسياتهم ، إذ يصيحون قائلين : هذه إرادة الله ؟ ! وما هذه الطرق تعج بمرتاديها ، وتضيق بهم ، حتى لكأنهم سيل جارف عجاج ؟ إنه الغرب حشد بنيه من كل جنس ليغزو الشرق بهذه القوة الضخمة ، وإنها لحرب صليبية جمعت تحت راية الصليب تلك الجحافل الجرارة ، ويكاد الناظر إلى هذه الجموع يحس بما يجول فى صدرها من الأمانى والآمال ، فطائفةمنهم ملأ صدرهم الإيمان ، فراحوا مؤمنين بما ألقى عليهم رجال دينهم : من أن المسلمين فى بيت المقدس قد أهانوا قبر المسيح ، وساموا زائريه من حجاج أوربا سوء العذاب ، فأقسموا لينقذن هذا القبر ، وليؤمنن الطريق إليه ، وليقفن زحف الإسلام على بلادهم ، فقد تدفق مد الإسلام حتى أظل برايته آسيا الصغرى ، واستولى على أكثر الجزر فى البحر الأبيض المتوسط ، ووطد أقدامه حينا طويلا من الدهر فى بلاد الأندلس ، وكان جديرا به — لولا عوامل الفرقة والانقسام — أن يظل فى مده يتدفق ، أو أن يأخذ لنفسه الحيطة ، فيجمع قواه ، ويظل راسخا فى مكانه ، محافظا على المدى الذى استطاع أن يصل إليه .

صدق هؤلاء المؤمنون ما أخبرهم به البابا ، من الخطر الماحق الذى يهدد أوطانهم ، بانتشار الإسلام ، وظلم المسلمين وعنتهم فى معاملة المسيحيين ، أو فى إهانة قبر المسيح ، وغالى رجال دينهم فى تصوير ذلك مغالاة أثارتهم . ولم يكن لذلك فى الواقع ظل من

الحقيقة ، فلقد كان حكام فلسطين يعاملون المسيحيين — كما قال المؤرخ الفرنسى Michaud — «كحلفاء وأنصار ، فشجعوا تجارة الأوربيين ، والحج إلى الأماكن المقدسة ، وبنيت من جديد أسواق الفرنج فى مدينة بيت المقدس ، وأقيمت نزل الحجاج ، وأصلحت الكنائس المخربة [١] ، ولما كان المسلمون يقدرون أكثر مما يقدر المسيحيون فريضة الحج كان ذلك هو ما يوحى إليهم بعواطف التسامح ، نحو الحجاج الأتقياء القادمين من الغرب ، وكثيرا ما كانت تفتح أبواب القدس للمسلمين الذين يقصدون زيارة مسجد عمر ، ورجال الإنجيل الذين يذهبون لعبادة المسيح عند قبره ، هؤلاء وأولئك يجدون فى المدينـــة المقدسة حماية متساوية [٢] » .

موه الخطباء الأمر على هذه الجماعة ، ودفعوها إلى الإيمان بظلم المسلمين ، وتدنيسهم قبر المسيح ، فانطلقوا لا يلوون على شىء ، ومن قبل هـذه الجموع الزاخرة خرج أسلاف لهم ، وصدورهم تتأجج رغبة فى الاستيلاء على ما فتحه العرب ، مما كان تحت يد الفرنج ، فعلى يد أباطرة دولة الروم الشرقيـة ، اتسع ما أخذوه ، حتى وصـل أحيـانا إلى الرها وأنطاكيـة ، وفى الجهة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط ، أخذت الحروب الصليبية الطويلة بأسبانيا تدخل فى دور شدة وعنف ، فمضى جيش من النورمانديين يساعد الأسبان الوطنيين ضد العرب ، واستولى الفرنج سنة ٤٧٨ هـ على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس [٣] ، وفى وسط البحر الأبيض استولى أهل بيزة [٤] على سردينيا ، وبعد حرب استمرت ثلاثين عاما ، استولى النورمانديون على صقلية ، ولا شك أن تلك حروب صليبية قبل الحروب الصليبية [٥] .

ويكاد الناظر إلى هـذه السيول المتدفقة تعج بهـا طرقات أوربا ، يحس بما يجول فى صدور أمراء هذه الجيوش : من مطامع فى السيادة والسلطان ، وتأسيس ملك هناك فى بلاد الشرق ، الذى رسمته لهم مخيلتهم ينبوع ثروة ومصدر غنى [٦] . وماذا كان يفعل

---

(١) Histoire des Croisades. P. 21 . (٢) المرجع السابق ص ٢٩ — ٣٠ .
(٣) الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ١١٢ . (٤) بلدة بإيطاليا
(٥) The Crucades. P. 8 . (٦) المرجع السابق ص ١٦ .

هؤلاء الأمراء وقد وجدوا رجال مقاطعاتهم يرحلون من غير أن يستطيعوا منعهم ، فلم يجدوا بدا من الرحيل معهم رؤساء حربيين ، ليحتفظوا بشيء من سلطانهم عليهم (١) .

غير أن كثيرا من هذه الجموع ، خرجت قاصدة إلى الشرق ، لاجئة إليه ، هاربة مما أصاب أوربا : من قحط مخيف منذ عدة سنين ، حتى إن مدنا وقرى صارت خرابا ، لا سكان لها ، وقد أنتج هذا القحط كل أنواع البلايا : من جرائم وقطع طرق ، فلا غرابة إذا هجر الناس أرضا لا تقدم لهم غذاء ، ولا تضمن لهم راحة ولا أمنا (٢) .

لقد عاشت هذه الجموع الجارفة حياة أهلتها لهذا التجمع للحرب والقتال ، فقد كانت أوربا تعج بالفوضى ، وكان السيف هو الحكم فى تلك العصور ، فبه تصان حقوق الأفراد ، ويغسلون عن أنفسهم الإهانات ، ويكاد الناس لا يلتقون إلا وفى يدهم الحديد والنار ، ولم تكن سياسة الملوك والحكومات مؤسسة على غير الحروب (٣) ، فوجدت الدعوة الصليبية نفوسا مهيأة لها ، وقد لمس البابا ذلك ، وأراد أن يحول نشاطهم فى حرب بعضهم بعضا إلى حرب المسلمين .

لقد سرى إلى الشرق نبأ هذه الجموع الزاحفة ، ترتج منها الوديان ، وتعج بها الطرقات ، ولكنك تلق ببصرك على هذا الشرق المهاجم ، فلا تجد إلا جماعة لا يجمع بينها اتحاد ، ولا يؤلف بين قلوبها طاعة لحاكم واحد ، ولم ينظم جموعهم سلطان قوى .

تنظر إلى الشرق فى سوريا والعراق ومصر ، فيروعك أن هذه الأنباء الواردة عليه من أوربا بهذا الهجوم الضخم ، لم تثر فيه رغبة التكاتف والتساند إزاء هذا الخطر الداهم ، ولم تبعثه على أن يعد للأمر عدته ، ولم يهيئ نفسه للقاء تكون له فيه الكفة الراجحة ، بل مضى فى حياته ، وكأن شيئا لا يبيت له فى الغرب .

فقد هدم النظام الإقطاعى أسس إمبراطورية السلاجقة القوية ، فلم يكن لسلاطينهم

(١) Histoire des Croisodes I. P 58

(٢) Hist des Croisades I P. 57. History of the Saracens by Ameer Ali P. 323, The Crucades by Barker P. 12.

(٣) Histoire des Croisades P. 41.

سلطان فعلى على أمراء الجزيرة وسوريا وفلسطين ، وحكم الأمراء المتعددون إقطاعاتهم فى هذه البلاد حكما مستقلا ، فكان فى كل مدينة كبيرة حاكم بأمره ، يحرص على أن يكون مستقلا فى إمارته ، له كل مظاهر الحاكم المستقل ؛ وإننى لأبصر بعين الخيال . فأرى هذه القوى المبعثرة على أرض الشام ، هم كل أمير فيها أن يحتفظ بسلطانه ، وأن يغير على جيرانه ، ثم ألمح هذه الجيوش الفرنجية المحتشدة ، والقوى المعبأة ، فأجد من العسير على هذه القوى الصغيرة أن تقف صادة هذا الحشد الهائل . فلا عجب أن تسقط مدن ساحل الشام ، الواحدة تلو الأخرى ، فى يد العدو المغير ، برغم ما أبدته هذه المدن من بسالة فى الدفاع ، وصلابة فى الجهاد .

ومضى العدو المغتصب ، يبث الرعب فى نفس أبناء البلاد ، وينشر الذعر فى القرى والمدن ، فلاقت المدن المفتوحة على يده أهول ما عرف من ألوان التخريب والتدمير ، ونال سكانها أقسى ما يستطاع من القتل والذبح والإحراق ، فكان الفرنج فى كل بلد يدخلونه يقتلون أهله ، ويخربون عمرانه ، ويحرقون كتبه ومتاعه وآثاره ، فهام الناس على وجوههم فى البرارى ، يقول أمير على : « لقد كانت شوارع أنطاكية الضيقة وميادينها الرحبة ، تجرى بالدماء الإنسانية ، وإن أقل تقدير لمن ذبح فى أنطاكية يبلغ عشرة آلاف نفس ، وفى معرة النعمان ذبحوا مائة ألف من الناس ، جرت دماؤهم فى الشوارع ، ثم أعاد (بوهمند) النظر فى أسراه ، فمن كان منهم قويا جميلا احتفظ به رقيقا يباع فى أسواق أنطاكية ، ومن كان معمرا أو مريضا قتل على مذبح القسوة [(١)] » ، وقال ميشو فى حديثه عن فتح الفرنج بيت المقدس : « سرعان ما صارت المذبحة عامة ، فذبح المسلمون فى الطرقات وفى المنازل ، ولم يعد فى بيت المقدس ملجأ للمغلوبين ، فبعض الذين فروا من الموت ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار ، وآخرون جروا جماعات ، يختبئون فى القصور والأبراج ، وبخاصة المساجد . ولكنهم لم يستطيعوا أن يفروا من أن يتبعهم الصليبيون ، فبعد أن صار هؤلاء سادة مسجد عمر ، الذى دافع المسلمون عن أنفسهم حينا فيه — جددوا فيه المناظر المحزنة ، فدخل المسجد المشاة والفرسان ، واختلطوا بالمنهزمين ، وفى وسط أشنع ضوضاء كنت لا تسمع إلا الأنين وصيحات الموت ، لقد كان المنتصرون يسيرون على أكوام من

---

(١) History of the Saracens. P. 329

الجثث ، ليتبعوا من يحاول الفرار عبثاً ، وقال شاهد عيان : ارتفعت الدماء إلى ركب الخيل وأعنتها فى الهيكل ، وتحت إيوان المسجد ، وكل الذين أبقى عليهم التعب من الذبح ، أو أسروا طمعاً فى أن يفدوا أنفسهم بفدية غالية قتلهم الصليبيون . لقد أكرهوا على أن يلقوا أنفسهم من أعالى البروج والبيوت ، ويكونوا طعاماً للنيران ، وكانوا يخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض ، ويجرونهم فى الميادين العامة ، حيث يذبحونهم فوق أكداس الموتى ، ولم يثنهم دموع النساء ، ولا صيحات الأطفال . لقد كانت المذبحة هائلة ، وكانت الجثث مكدسة ، لا فى القصور ، ولا فى المساجد ، ولا فى الشوارع فحسب ، ولكن فى أخفى الأماكن وأكثرها انفراداً ، وهكذا جنون الانتقام والتعصب ، ولم تنته المذبحة إلا بعد أسبوع ، والمؤرخون الشرقيون واللاتين متفقون على أن عدد القتلى بلغ سبعين ألفاً ، وبعدئذ أمر من بقى من المسلمين الذين لم ينجوا من القتل إلا ليقعوا فى استعباد مخوف — أن يدفنوا الأجسام المشوهة لأصدقائهم وإخوانهم ، فأخذوا ينقلون ، وهم يبكون ، هذه الجثث خارج بيت المقدس ، وساعدهم فى ذلك بعض الصليبيين الذين دخلوا المدينة أخيراً ، فلم يظفروا بكثير من الأسلاب ، وأخذوا يبحثون عن بعض الغنائم بين الموتى[١] » . وقد اقتسم المصير نفسه ما فتحه الفرنج من البلاد ، برغم أن بعضها فتح صلحاً ، فلم يحترم الصليبيون عهداً قطعوه ، كما حدث فى قيسارية[٢] .

كان الصليبيون يريدون بما فعلوا أن يبثوا الرعب فى أفئدة المسلمين ، وينشروا الفزع فى صفوفهم ، ولم يثنهم عن أعمال التدمير والتخريب فى المدن التى فتحوها — أن تلك المدن كانت قد وصلت فى ذلك العهد إلى أوج مجدها . وها هوذا ناصر خسرو فى رحلته ، يصف مدينة طرابلس بأنها بلد جميل ، حوله المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر ، وأشجار النارنج ، والموز ، والليمون ، وبها منازل ذات أربع طبقات ، أو خمس ، أو ست ، وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة ، حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين ، وفى وسط المدينة جامع عظيم ، نظيف ، جميل النقش حصين ، وفى ساحته قبة كبيرة ، تحتها حوض من الرخام ، فى وسطه فوارة من النحاس الأصفر ، وفى السوق مشرعة ذات خمسة صنابير ، يخرج منها

(١) Hist. des Croisades. I. P. 236.
(٢) History of the Saracens. P. 329.

ماء كثير ، يأخذ منه الناس حاجتهم ، ويصنعون بها الورق الجميل[١] . فلما فتحت تلك المدينة نهبت ، وأعمل السيف فى رقاب سكانها ، وصارت مكتبتها ومدرستها ومصنع ورقها رماداً[٢] .

لم يستطع الشام أن ينهض بعبء الدفاع عن أرضه ، فتلفت يمنة ويسرة ، يلتمس العون ، ويستنصر ببغداد والقاهرة ، وخرج المستنفرون من الشام إلى بغداد ، فحضروا فى الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا ، وبكوا ، وأبكوا ، وذكروا ما دهم المسلمين بذلك المكان المعظم : من قتل الرجال ، وسبى النساء والأولاد ، ونهب الأموال[٣] . فأرسل الخليفة على عجل ثلاثة رجال من حاشيته ، إلى السلطان بركياروق وأخيه محمد ؛ فإن الخليفة لم يكن فى يده من الأمر من شىء ، يتوسل إليهما أن ينهيا ما بينهما من النزاع ، وأن يسيرا إلى العدو المشترك ، وكان الأخوان معسكرين عند حلوان يقتتلان ، ولكن هذا النداء لم يجد أذناً مصغية ، وسرعان ما أخذ الأخوان يتحاربان[٤] ، تاركين الفرنج يؤسسون لهم ببلاد الإسلام ملكا .

وأما مصر فإن وزيرها الأفضل يومئذ لم ير من واجبه أن يدافع عن بلاد من واجب غيره أن يدافع عنها ، فقد كان معظم بلاد الشام فى ذلك العهد تحت سلطان السلاجقة ، وكان العداء بينه وبينهم يمنعه من أن يقف إلى جانبهم ، وتلك سياسة قصيرة النظر ، كان من نتائجها أن استولى الفرنج على ما كان للمصريين بفلسطين من مدن . كما أنه مما يلام عليه الأفضل أنه لم يعد للأمر عدته ، وقد كان الواجب يقضى — وقد علم الأفضل أن هدف الصليبيين بيت المقدس — أن يهيء للقاء الفرنج بالقدس كل ما أوتى من جهد ، لا أن يتركه يسقط غنيمة باردة فى أيديهم ، وقد كان لديه الوقت الكافى لتدبير أمره ، وكان يستطيع إعداد المال والرجال . وهكذا استطاع الفرنج أن يثبتوا أقدامهم فى الشام ، بل ملأ الغرور نفوسهم ، وحاولوا أن يضربوا الإسلام فى عاصمتيه : بغداد والقاهرة ، ولكنهم لم يستطيعوا .

ظلت الشام وحدها تكافح هذا العدو الغاصب حيناً طويلا من الزمن ، هو المدة التى

---

(١) سفرنامه ص ١٣ . (٢) The Crucades. P. 28.

(٣) الكامل لابن الأثير جـ ١٠ ص ١١٧ . (٤) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٩٩ .

بقى فيها الخلفاء الفاطميون على عرش مصر ، فلم تقم مصر بدور إيجابى فعال ضد الفرنج فى هذه المدة ، اللهم سوى غارات متقطعة، بجيوش وأساطيل لاتناسب المهمةالموكولة إليها ، فلم تجن منها مصر شيئا يذكر ، بل لقد تعرضت مصر نفسها لغارة الفرنج ، وتمكن هؤلاء بمساعدة بعض وزراء مصر ، من أن يحتلوا عاصمة البلاد ، ويذوق منهم المصريون الخسف والنكال ، فى آخر عهد الخلافة الفاطمية .

والحق أن مصر فى ذلك العهد لم تكن فى حال يسمح لها بأن تنهض بدورفعال فى إنقاذ فلسطين من براثن العدو ، فلقد كان الرأس المدبر فيها ومن بيدهم زمام الامور بين خليفة صغير ليس له من الأمر من شىء ، وقد يحاول أحياناً أن يسترد سلطته الضائعة ، فيدبر مكيدة تطيح برأس الوزير — ووزير كل همه أن يحتفظ بسلطانه ، فيكيد للخليفة يريد عزله أوقتله ، إن أنس منه محاولة استعادة سلطانه المفقود ، ويشرد من البلاد ذوى الرأى حذرا من منافستهم له ، ويحارب منافسيه ، فيضيع فى سبيل ذلك الأموال والرجال ، وقد يدفعه حب السلطة إلى محالفة الفرنج أعداء البلاد ، والتمكين لهم فى أرض مصر ، وبين طامعين فى منصب الوزارة ، يجمعون له من حولهم الأنصار ، ويتربصون الفرصة بالوزير القائم ، فيكيدون له ، ويؤلبون عليه ، حتى إذا واتتهم الظروف وثبوا على كرسيه ، وقتلوه وأهله وشردوا أنصاره ، وبين نساء قصر يتدخلن فى شئون السياسة ، فلم يكن هناك حاكم آمن ، يستطيع أن يوجه جهوده إلى خارج البلاد ، ليستنقذ من يد العدو ما أخذه ، ولا خليفة متصرف، ورث ملكا عن آبائه ، اغتصب العدو بعضه ، فتدفعه الغيرة والحماسة إلى استرداده، وإن حاول بعض وزراء مصر كطلائع أن يضيق الخناق على الفرنج ، فمضى ينشد اتفاقاً مع نور الدين محمود ، الذى جمع بيده السلطان فى بلاد الشام ، كى يطبقا على العدو : أحدهما من الشمال والثانى من الجنوب ، ولكن اختلاف العقيدة بين نورالدين السنى والوزير الفاطمى الشيعى حال دون تحقيق هذا الاتفاق .

ولم تتلق الشام معونةفعالة من مصر ، توقف الصليبيين عند حد ، طوال عصر الفاطميين ، ولم يرد من بغداد معونة ما ؛ فاستطاع الصليبيون أن يوسعوا رقعة أملاكهم ، وأن يمدوا سلطانهم ، من ماردين إلى العريش ، وخضعت حران والرقة لهم ، وانتشر تخريبهم إلى نصيبين ، وقطعوا كل الطرق الموصلة إلى دمشق ، إلا طريق الصحراء ، وضربوا الجزية

على مدن لا عد لها ، وتمكنوا مما تحت أيديهم ، ومضت قوتهم وقسوتهم ونهبهم يزيد فى كل يوم ، وارتكبوا كل الآثام ، غير خائفين على ما قدموا حساباً ولا عقاباً .

ولكن شبحاً مخيفاً ظهر فى الشام ، وبدأ يجمع فى يده أقطار سورية والجزيرة ، واستطاع أن يكون شجى فى صدور الصليبيين ، ذلك هو البطل عماد الدين زنكى ، الذى لم يقف عند حد مقاومة الصليبيين ، ولكنه أخذ يسترجع منهم ما ملكوه شبرا شبرا ، واقتفى أثره من بعده ولده نور الدين محمود ، ولم تلبث الأمور أن تطورت ، فانتهت الخلافة الفاطمية فى مصر ، على يد صلاح الدين الأيوبى ، أحد قواد نور الدين ، واستطاع صلاح الدين أن يوحد مصر والشام والجزيرة وديار بكر تحت لوائه ، وكان ذلك التوحيد فاتحة عهد جديد ، فى سبيل استرداد البلاد المغتصبة ، فإن صلاح الدين لم يكد يوحد البلاد تحت لوائه ، حتى أرسل إلى جميع أجزاء إمبراطوريته ، يستنفر الناس لقتال الفرنج ، ويحثهم على الجهاد ، ويأمرهم بالتجهز له ، وكانت هذه الوحدة بين المسلمين سبباً دفع الحماسة فى صدور الجند ، فأقبلوا من كل حدب ، يريدون أن يستخلصوا وطنا طال اغتصابه ، ومضى صلاح الدين على رأس جيشه ، فالتقى بالفرنج عند حطين ، ودارت عندها معركة لم يذق الفرنج مثلها ، منذ قدموا من ديارهم غازين بلاد الشام ، فقد مضوا بين أسير وقتيل .

لم ينتظر صلاح الدين حتى يجمع العدو شمله المبدد ، بل مضى يتابع انتصاراته ، وأخذت مدن العدو تسقط فى يده ، الواحدة تلو الأخرى ، حتى إذا سقطت البلاد المحيطة بالقدس ، شمر عن ساعد الجد ، وذهب إلى بيت المقدس يريد فتحه ، وهنا رأى العدو أنه لا قبل له بالجيش الزاحف ، فاستكان ، وطلب الأمان ، وفتحت المدينة أبوابها لاستقبال صلاح الدين ، يوم الجمعة ، السابع والعشرين من رجب ، سنة ٥٨٣ ﻫ .

وكان لاستعادة بيت المقدس رنة فرح ، تجاوبت أصداؤها فى أرجاء العالم الإسلامى كله .

كانت وحدة مصر والشام مصدر فزع للفرنج ، ورأوا أن استعادة الشام واستبقاءه لا يتمان لهم إلا إذا أخضعوا مصر لسلطانهم ، فهاجموها عن طريق دمياط مرتين ، صمدت مصر فيهما صموداً ، قذف بالعدو المغير إلى البحر . ولست أنكر ما أبدته المدينة والمدافعون عنها :

من ألوان البسالة والصبر والكفاح، عند ما هوجمت لأول مرة، فلما سقطت المدينة كان لسقوطها أكبر الأثر فى نفوس المصريين، فاستجابوا استجابة سريعة لداعى الجهاد العام، ودفع ذلك بنى أيوب إلى تناسى ما بينهم من خصومات، والوقوف جبهة متحدة أمام العدو المشترك، كما لا أنكر ما بثه قدوم الفرنج إلى دمياط فى المرة الثانية: من فزع واضطراب، دفع الجند الذى وكل إليه أمر الدفاع عن دمياط إلى الهرب، وترك المدينة تقع لقمة سائغة فى أيدى المغيرين، وأمعن الجيش فى الهرب حتى وصل إلى حيث يقيم مليكه، عند مدينة المنصورة، ولما رأى أهل دمياط رحيل الجند، خرجوا هائمين على وجوههم، طول الليل، حفاة، عراة، جياعا، حيارى، لا يدرون ماذا يفعلون بأطفالهم ونسائهم، وأخذ قطاع الطرق ما عليهم من الثياب، ولكن مصر لم تلبث أن استعادت ثباتها وهدوءها، وصمدت أمام العدو، حتى ردته على أعقابه، وألقت به إلى البحر، وكان لرحيل الفرنج عن الديار المصرية من الفرح والبهجة ما احتفظ به التاريخ وسجله الأدب.

ولم يكن انتقال الحكم من الأيوبيين إلى أيدى مماليكهم مضعفا من عزيمة البلاد على تخليص الوطن من أيدى الفرنج، بل إن بعض السلاطين كبيبرس اتخذ صلاح الدين مثله الأعلى، وأخذ يضيق الرقعة التى احتلها العدو، ولعله رأى أن هذا الجهاد يتطلب إعداداً خلقيا، وبث روح الجهاد فى الشعب، فاتسم عصر بيبرس بسمة الوقار، والبعد عن اللهو، فأغلق المواخير، وعاقب البغايا من الأوربيات، وحرم المسكرات والمخدرات، وأراق الخمر، وحرق الحشيش، ولم يكن للغناء فى دولته نصيب، وكان أهم مايشغله فى وقت الفراغ من الحرب التمرن على الحرب، والعناية بالإعداد لها، وسرت منه عدوى ذلك إلى أمرائه وشعبه، فهم جميعا يتمرنون على أنواع من الألعاب الرياضية الشاقة، ويتأهبون لأعمال الجهاد، باللعب، والسباق، والتمرن على إصابة الأهداف، وكثيراً ماقام باستعراض جيوشه البرية والبحرية فى أبهة وجلال. واقتدى به فى منهاجه المنصور قلاوون وابنه الأشرف خليل، الذى أعد العدة لأمر حاسم، فضى لايلوى على شىء، يضيق على العدو الخناق، يريد أن يستخلص منه كل ما بقى فى يده، وأن يلقى به فى البحر، سنة ٦٩٢ ﻫ، بعد قرنين التقى فيهما الشرق بالغرب، فى معارك الحروب. وإذا كان المغيرون قد نجحوا فى أول أمرهم، فذلك لتفتت وحدة المسلمين، واختلاف مذاهبهم الدينية، التى فرقت بين قلوبهم. ولهذا

العدد الضخم ، الذى كانت تقذف به أوربا بلاد الإسلام ، فلما اتحدت مصر وسوريا كان ذلك إيذانا ببدء عهد جديد ، لتخليص البلاد ، وإذا كان عهد التخليص قد طال ، فذلك راجع إلى ما كان يحدث من نزاع على العرش ، كان يشغل المتنازعين عن الهدف من طرد الفرنج ، الذين نظر إليهم فى كل حين على أنهم خطر دائم ، يهدد الشام ومصر ، ولهذا كان الابتهاج بزوال هذا الخطر قويا ، ترك أثره فى الأدب والتاريخ .

الحياة الحربية

لقد كلفت هذه الحروب مصر والشام كثيرا من الأموال ، فى تكوين جيش ضخم ، حتى لقد اضطر صلاح الدين ومن جاء بعده إلى أن يجبى الزكاة ، وبعد أن أنفق منها على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين ، رفع إلى بيت المال السهام الأربعة : وهى سهام العاملين ، والمؤلفة ، وفى سبيل الله ، وفى الرقاب[١] . وذلك لكى ينفق على الجيش من سهم (سبيل الله) . وكانت العناية بالجيش قوية فى تلك العصور ، وبلغت ذروتها فى عهد نور الدين وصلاح الدين وبيبرس ، الذى أشاع فى عصره روح الجندية ، فكان عندما يثوب من الحرب ، لا يدع جيشه للراحة والسأم ، بل يدربه على أعمال الحرب ، ويستعرضه فى الحين بعد الحين ، ليرى أينقصه شىء . وكثيرا ما اشترك هو وابنه الملك السعيد فى مناورات الجيش ، ونالا الإعجاب والتقدير ، وكان عدد الجند ضخما ، فكانوا إذا ركبوا فى ظاهر القاهرة يزيدون على مائتى ألف[٢] ، وفى المعارك الكبرى كان المتطوعون يقدمون من كل فج ، حتى ليزيد عددهم على الجند المقيدين ، قال صاحب النجوم الزاهرة[٣] : « اجتمع مع الأشرف خليل على عكا من الأمم ، ما لا يحصى كثرة ، وكان المطوعة أكثر من الجند ومن فى الخدمة » .

وعنى كذلك بالأسطول ، وبلغت العناية به الغاية فى عهد صلاح الدين ، وبيبرس ، والأشرف خليل ، ففى عهد صلاح الدين أفرد له ديوانا خاصا سلمه إلى أخيه الملك العادل ، وأعطى صلاح الدين صاحب الأسطول سلطة كبرى ، فى تخير رجاله ، وإعداد سلاحه . وفى عهد

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٧٤ . (٢) خطط المقريزى ج ١ ص ١٥٢ .
(٣) ج ٨ ص ٥ .

بيبرس كان يشرف على صنع سفنه بنفسه ، ويجلس بين الأخشاب والعمال ، واقتدى به الأمراء ، فكانوا يحملون بأنفسهم آلات السفن ، ويساعدون فى صنعها ، وفى عهد خليل بن قلاوون زادت العناية بأمر الأسطول ، وملأه بالعدد وآلات الحرب ، وعزم السلطان على الخروج لمشاهدته ؛ فأقبل النــــاس من كل صوب يريدون أن يشهدوا تلك القوى البحرية الضخمة ، واستعدوا لذلك قبل مقدم السلطان بثلاثة أيام ، وصنعوا لهم أخصاصا على شاطىء النيل ، بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا خرج أهله ، أو بعضهم ، لرؤية ذلك . ولما حضر السلطـان برزت السفن ، واحدة بعد واحدة ، وقد عمل فى كل سفينة برج وقلعة تحاصر ، والقتال عليها ملح ، والنفط يرمى عليها ، وعدة من النقابين يعملون الحيلة فى النقب ، وما منهم إلا من أظهر فى سفينته عملا معجبا ، وصناعة غريبة ، يفوق بها صاحبه ، ثم عاد السلطان ، وأقام الناس بقية يومهم ، وتلك الليلة ، على ما هم عليه : من اللهو فى اجتماعهم . وكان شيئا يجل وصفه ، وانفق فيه مال لا يعد ، بحيث بلغت أجرة المركب ستمائة درهم ، ولما بلغ خبر ذلك إلى بلاد الفرنج ، بعثوا رسلهم بالهدايا ، يطلبون الصلح .

وكان للأسطول المصرى دوره فى هذه الحروب ، يخوض لجج البحر الابيض غازيا أو مدافعا ، ولم يقف جهاده عل حرب الفرنج بالبحر الأبيض فقط ، ولكن كانت له وقفات حاسمة فى البحر الاحمر أيضــا ، دفع بها الفرنج عن الأراضى المقدسة بالحجاز . وذلك أن صاحب الكرك ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، فكر فى مهاجمة المسلمين فى البحر الأحمر ، ظنا منه أنهم غير مستعدين فيه ، فبنى سفنا ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، وجمعها فى أسرع وقت ، وشحنها بالمحاربين ، وآلات القتال ، وسارت السفن وقد افترقت فرقتين ، أقامت إحداهما على حصن أيلة يحصرونه ، ويمنعون أهله من ورود الماء ، فأصاب أهله شدة وضيق ، ومضت الثانية إلى عيذاب ، وهى فرقة فدائية ، فأحرقت فى البحر ستة عشر مركبا ، وأفسد جندها فى السواحل ، ونهبوا ، وفاجئوا الناس على حين غفلة منهم ، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا ، لا تاجرا ولا محاربا ، وأرادت أن تقطع طريق الحج ، فقد كانت الغزوة فى شهر شـوال ، سـنة ٥٧٨ هـ ، وأن تمضى إلى المدينة المنورة ، لينبشوا قبر الرسول ، وينقلوا جسده إلى بلادهم ، ويدفنوه عندهم ، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته إلا بجعل ، فسارت الفرقة إلى بلاد الحجاز . وجاء الخبر إلى مصر ، وبهـا الملك العـادل أخو

صلاح الدين ، فأمر قائد الأسطول ، وهو الحاجب لؤلؤ ، أن يتتبع هؤلاء الغزاة ، فانقض على محاصرى أيلة انقضاض العقاب ، وقاتلهم ، فقتل بعضهم وأسر الباقى ، ومضى توا إلى شاطىء الحجاز ، فوجدهم قد أوغلوا فى طريق المدينة ، حتى لم يبق بينهم وبينها إلا مسافة يوم ، فمضى خلفهم على خيل أخذها من الأعراب ، وحاصرهم هناك ، فى شعب لا ماء فيه ، حتى استسلموا [١] .

وكثيرا ما كان رجال الأسطول المصرى يغررون برجال الأسطول الصليبى ، فيتزيون بزيهم ، ليصلوا إلى هدفهم سالمين [٢] ، وقد يغرقون سفنهم ، ويغرقون معها ، إن وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التسليم [٣] .

وكان كلا الفريقين يجتهد فى ابتكار آلات الهلاك والتدمير ، وتفوق المصريون على الفرنج فى معرفة سر النار اليونانية ، وكانت إحدى وسائل النصر عليهم فى معركة المنصورة . وهى نار تثب مستقيمة ، كأنها أسطوانة كبيرة ، ولها ذيل من اللهب قدر الحربة الطويلة ، ودويها يشبه الرعد ، وكأنها جارح يشق الهواء ، ولها نور ساطع جدا ، حتى إنك ترى كل ما فى المعسكر ، كما ترى فى ضوء النهار ، وقد دمرت هذه النار معسكرهم ، وألقت الرعب فى قلوبهم . ولم يستطع الصليبيون يومئذ معرفة سر تركيب هذه النيران [٤] .

واخترع المسلمون كذلك من النيران ما لا يقف فى سبيله شىء : صنع العدو فى حصار عكا ثلاثة أبراج من خشب وحديد ، وألبسها الجلود المسقاة بالخل ، بحيث لا تنفذ فيها النيران . وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال ، عالية على سور البلد ، وهى مركبة على عجل ، يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر ، ويتسع سطحها لأن ينصب عليها منجنيق . وقد ملأ ذلك نفوس المسلمين خوفا ورعبا ، ويئس المحاصرون فى المدينة ، ورأوها وقد تم عملها ، ولم يبق إلا جرها قرب السور . وأعمل صلاح الدين فكره فى إحراقها

---

(١) راجع السلوك جـ١ ص ٩٠ و٩٦ و١٠٢ ، والكامل لابن الأثير جـ١١ ص٢٢١ وجـ١٢ . ورحلة ابن جبير ص٢٩ ، والروضتين جـ٢ ص٣٥و٣٦و١٤٨و٢٤٠ ، وخطط المقريزى جـ٣ ص١٢٨ ، وشذرات الذهب جـ ٤ ص ٣٣٦ . (٢) النوادر السلطانية ص ١١٩ .

(٣) المرجع السابق ١٤٨ . (٤) راجع فى الحديث عنها مواقف حاسمة ص ١٠٤ ، وسفن الأسطول الإسلامى ص ٢٣ ، وتاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٥٨ .

وإهلاكها ، وجمع الصناع وحثهم على الاجتهاد فى إحراقها ، ووعدهم على ذلك بالأموال الطائلة ، ولكن ضاقت حيلهم عن ذلك . وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشق ، ذكر بين يديه أن له صناعة فى إحراقها ، وأنه إن مكن من الدخول إلى عكا ، وحصلت له الأدوية التى يعرفها أحرقها ، فحصل له جميع ما طلبه ، ودخل إلى عكا وطبخ الأدوية مع النفط ، فى قدور نحاس ، حتى صار الجميع كأنه جمرة نار ، ثم ضرب واحدا بقدر ، فلم يكن إلا أن وقعت فيه ، فاشتعل من ساعته ، وصار كالجبل العظيم من النار ، طالعة ذؤابته نحو السماء ، وعلا المسلمين الفرح ، حتى كادت عقولهم تذهب ، وبينما الناس ينظرون ويتعجبون ، رمى البرج الثانى ، بالقدر الثانية ، فما كان إلا أن وصلت إليه ، واشتعلت كالتى قبلها ، فاشتد ضجيج الفئتين ، وما كان إلا ساعة ، حتى ضرب الثالث فالتهب ، وغشى الناس من الفرح والسرور ما حرك ذوى الأحلام [١].

الحياة الاقتصادية والاجتماعية

ولقد ساعد مصر على إعداد هذه الجيوش ، وإنشاء تلك الأساطيل ، والتفوق فى تجهيز الأسلحة ، ما كان يسودها فى ذلك العهد الطويل من رخاء ، وما كان لها من ثروة ضخمة ، فقد كانت تجارة مصر الداخلية والخارجية فى تقدم وازدهار ، وكانت الزراعة ناهضة بفضل النيل ، والصناعة مزدهرة متفوقة . وحسبك أن ترجع إلى رحلة ابن جبير ، وإلى أسواق القاهرة فى خطط المقريزى ، لترى ما كان للصناعة المصرية والتجارة من شأو رفيع ، وإن كان قد تخلل هذه الفترة فى الحين بعد الحين نوبات من القحط ، والمجاعة ، والغلاء ، والوباء ، فقد كانت مصر بعد أن تمر بها النوبة ، تستعيد حياتها العادية ، وتستأنف رفاهيتها ، ويعود إليها الرخاء الشامل . أما الشام فقد أفسد زراعته الحروب المتصلة بين المسلمين والفرنج ، والتى لم تكد تهدأ عاما واحدا ، ولهذا كان اتحاد الشام ومصر ضروريا من الناحية الاقتصادية ، ليكون من المستطاع طرد العدو الغاصب .

وإن رخاء مصر ، وحظها العظيم من الثروة ، مهد لأبنائها — برغم هذه الحروب — أن يأخذوا لأنفسهم بحظ كبير من متع هذه الحياة ، وأن يعنوا أيما عناية بأيام يحتفلون

(١) النوادر السلطانية ص ١٠٣ .

فيها ، وقد تعددت هذه الأيام فى عصر الدولة الفاطمية ، التى وضعت لها نظما وتقاليد تتبع فى دقة ، وسار الأيوبيون على نسقهم ، فى الاحتفال بها ، إلا ما كان خاصا بعقائد الشيعة ، وكان القاهريون يعنون أيما عناية بمشاهدتها ، وإعطاء أنفسهم حظها من اللهو والمرح ، وبحسبك أن تعود إلى أعياد مصر فى خطط المقريزى لترى تنوعها ، ومدى عناية القوم بها ، وما كان لهم من تقاليد فيها ، وكانت نفوس عامة الشعب تجرى على ما تهوى فى هذه الاحتفالات ، ولهذا كثر كلام المؤرخين عما كان يحدث فيها : من فسق ، وفجور ، ولهو ، وشرب خمر .

هذا ، وإنه لمن الحق أن الصلة بين المسلمين والفرنج لم تكن صلة عداء دائم ، طوال هذا العصر ، فلقد استتر هذا العداء فى فترات متقطعة ، واختلط المسلمون والفرنج بعضهم ببعض ، وزار هؤلاء مدن أولئك ، وكانت المناظرات تجرى بين رجال من الصليبيين ورجال من المسلمين ، كل يحبذ دينه ، ويقيم البرهان على صحته ، ومن ذلك مثلا أن صاحب حصن أرنون كان يعرف العربية ، وعنده اطلاع على شىء من التواريخ ، وقد ظل يتردد على صلاح الدين ، ويناظر المسلمين فى صحة دينه ، ويناظرونه فى بطلانه (١) . وعرف المسلمون كثيرا من عوائد الفرنج ، وأثنوا على ما رأوه فيهم : من فضائل ، وعابوا نقائصهم. وتجد فى كتاب الاعتبار لأسامة ، والنوادر السلطانية كثيرا من الحديث عن طباعهم ، وأخلاقهم .

الحياة العلمية

وأغلب الظن أن هذا الاتصال الطويل أوقف الفرنج على ما كان بمصر والشام يومئذ من حركة علمية ناشطة ، فقد شهد هذا العصر حركة مباركة فى تأسيس المدارس ، فى مختلف أرجاء البلاد ، وقد تسابق فى تأسيسها السلاطين ، والملوك ، والأمراء ، والأثرياء ، والعلماء ، وفتحت أبوابها ، تستقبل الوافدين عليها من كافة الأنحاء ، تمهد أمامهم سبيل الحياة ، وتمدهم بأسباب العيش : وتهيىء لهم وسائل الإقامة ، وذلك فضلا عن المساجد التى كانت منتشرة فى كل مكان ، تنشر الضوء ، وتبث وسائل العرفان ، وقد تنوعت ألوان الثقافة فى دور العلم

(١) النوادر السلطانية ص ٨ .

هذه ، بين علوم دينية ، ولغوية ، وفلسفية ، واجتماعية ، وغيرها . ولمع فى كل فرع من هذه الفروع أسماء رجال أعلام ، ألفوا من الكتب ما تفخر به المكتبة العربية ، ويزهو به العصر ، ولا يزال يعد مرجعا إلى وقتنا هذا ، وحسبي أن أذكر من أولئك الشاطبي ولاميته ، والقرطبي ، وتفسيره ، وابن عساكر ، وكتابه : المستقصى ، وكتاب تاريخ مدينة دمشق ، فى ثمانين مجلدا ، وابن الصلاح ، ومقدمته فى علم الحديث ، والنووى ، وكتابه : المنهاج ، وعز الدين بن عبد السلام ، وكتابيه : قواعد الاسلام ، وقواعد الأحكام ، وابن دقيق العيد ، وكتابه : الإلمام الجامع أحاديث الأحكام ، وشهاب الدين القرافى ، وكتابه : الذخيرة فى فقه مالك ، وابن قدامة ، وكتابه : المغنى ، والحصيرى ، وكتابه : التحرير فى فقه أبى حنيفة ، وشمس الدين الأصفهانى ، وشرحه للمحصول ، فى أصول الفقه ، وسيف الدين الآمدى ، وكتابه : منتهى السول فى أصول الدين ، وابن الحاجب ، وكافيته ، وشافيته فى النحو والصرف ، وابن مالك ، وألفيته ، وابن منظور ، ولسان العرب ، وابن الأثير ، وكتابه : المثل السائر ، وأسامة بن منقذ ، وكتابه : الاعتبار ، وعماد الدين الكاتب ، وخريدته ، وأبا شامة المقدسى ، وكتابه : الروضتين ، وذيلهما ، وابن خلكان ، ووفيات أعيانه ، وياقوت الحموى ، ومعجم أدبائه ، ومعجم بلدانه ، وشهاب الدين السهروردى ، وهياكل نوره ، وابن البيطار ، وكتابه : الأدوية المفردة المشهور (١) .

---

(١) يراجع كتاب الحياة العقلية ، فى عصر الحروب الصليبية ، للمؤلف .

حكام العصر والأدب

إن هذا العصر لجدير أن تقوم فيه نهضة أدبية قوية ، وأن يجرى فيه نشاط يغزر به الإنتاج الأدبى ويتنوع ، وذلك لأن الأحداث العنيفة الجارية فيه ، تثير العواطف ، وتبعث مختلف الانفعالات ، وتدفع إلى القول وإجادته : فى قلب بلاد الإسلام ، سكن عدو لا يفتأ يغير على أطراف البلاد العربية وثغورها ، ناشرا الفزع والاضطراب فى نفوس الآمنين ، ومستخدما أشد ألوان القسوة فيما تمتلكه يده من بلاد الإسلام ، ووقف له قوم يدفعون هذا العدو حينا ، ويغيرون عليه حينا آخر ، ويتحرقون غيظا على وطن اغتصب ، ودماء أريقت على أرض هذا الوطن ، ثم يجمعون قواهم ، ويوحدون جهودهم ، لطرد العدو وإلقائه فى البحر ، وتطهير الأرض من آثامه ورجسه .

وشهد هذا العصر فى مصر والشام دولا تسقط وينهض على إثرها أخرى ، وملكا يزول عن قوم ليحل فى آخرين ، ووطنا يفترق بنوه ، ثم يتحدون ، وعقائد دينية تسيطر ، ثم ينهار سلطانها لعقائد أخرى ، تأخذ مكانها ، وكل ذلك له أثره فى إثارة النفوس ، ودفع الأدباء إلى القول ، فرحين تارة ، وباكين تارة أخرى .

أضف إلى هذا أن الحكام يومئذ كانوا يحبون الأدب ، ويجزون عليه ، ويجلسون للشعراء مجالس ، ينصتون فيها إلى شعرهم ، وينقدون إنتاجهم ، ويكافئونهم على مقدار جودتهم ، وكانوا يتأثرون بالشعر ، ويؤثر فيهم ، ويتراسلون به ، ويدخل ضمن ثقافتهم التى لا غنى عنها لهم ، ويتمثلون به كلما عن لهم ما يدعو إلى القول العاطفى المثير . بل مضى كثير منهم يقرض الشعر ، حتى صار له دواوين ، أبقى على بعضها الزمن ، أو يؤلف فى فنون الأدب ، أو يشجع على التأليف فى هذه الفنون ، ولبعضهم مجالس أدبية ممتعة ، تنوع فيها وجه القول ، وتناول طرقا شتى من أفانين الأدب ، كما كان الإعجاب ببطولة بعض السلاطين يدفع الشعراء إلى الالتفاف حولهم ، التفافا يذكرنا بالعهود الزاهرة للشعر العربى .

ويطول بى القول إذا أنا مضيت فى عد شواهد لذلك ، وحسبى أن أذكر أن الخليفة الفاطمى : الآمر بأحكام الله بنى منظرة من خشب ، فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحبش

وصور فيها الشعراء ، كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح ، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة كل منهم رف لطيف بمذهب ، فلما دخل الآمر ، وقرأ الأشعار ، أمر أن يحط على كل رف صرة مختومة ، فيها خمسون دينارا ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ؛ ففعلوا ذلك ، وكانوا عدة شعراء [1] . وذلك يدل على أن الشعراء يومئذ كانوا يطالبون أنفسهم بإجادة القول ، والتبريز فيما ينشئون ، كى يكون المختار لهم رائعا ، لا يقل فى جودته عما ينشئه سواهم ، وكى يظفر الواحد منهم بأن يكون له بين المحسنين فى القول صورة ، وله معهم جائزة .

ويحدثنا عمارة اليمنى أنه قدم إلى مصر ، فى شهر ربيع الأول ، سنة خمسين وخمسمائة ، والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما أحضر للسلام عليهما فى قاعة الذهب فى قصر الخليفة ، أنشدهما قصيدة أولها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم   حمدا يقوم بما أولت من النعم

فأفيضت عليه خلع من ثياب الخلافة مذهبة ، ودفع له الصالح خمسمائة دينار ، وأخرج إليه من عند السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معه إلى منزله ، وأطلق له من دار الضيافة رسوم رفيعة ، وتهادته أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم ، واستحضره الصالح لمجالسته ، وانثالت عليه صلاته ، وغمره بره [2] .

بل لقد أجرى الخلفاء الفاطميون على الشعراء أرزاقا ثابتة ، وجعلوا لهم مرتبات يتقاضونها ، تتراوح بين عشرين دينارا وعشرة دنانير [3] ، وطلبوا إلى الشاعر أبى عبد الله مسلم أن ينظم « السيرة المصرية » ، وجعلوا له خمسة دنانير فى كل شهر [4] .

واقتدى الوزراء والولاة بخلفائهم فى إجازة الشعراء والإغداق عليهم ، ولاسيما أن وزراء الفاطميين فى العصر الذى جرت فيه الحروب الصليبية كانوا هم الحكام الحقيقيين ، فى معظم هذه الحقبة من الزمن . ويحدثنا المقريزى عن دار الملك التى أنشأها الأفضل بن بدر الجمالى ، وحول إليها دواوين الدولة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطاء ، وأمر بتفصيل ثمان ظروف

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٢٩ .
(٢) النكت العصرية ص ٣٢ .
(٣) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٤) الخريدة ورقة ١٠٢ أ .

ديباج أطلس ، من كل لون اثنين ، وجعل فى سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار ، فى كل ظرف خمسة آلاف دينار ، من ذلك ستة ظروف دنانير بالسوية ، عن اليمين والشمال ، فى مجلس العطايا . فإن جميع الشعراء لم يكن لهم فى الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ، ما يسهله الله على حكم الجائزة ، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه ، من الظروف (١) .

وكان مكين الدولة أحد ولاة الإسكندرية يحتذى أفعال البرامكة ، ويغدق على الشعراء ، ولهم فيه أمداح كثيرة (٢) .

ونهج هذا النهج الأيوبيون من بعدهم ، حين آل إليهم الأمر فى مصر والشام . روى ابن خلكان أن أحد الشعراء أنشد صلاح الدين شعراً قال فيه :

الله أكبر ، جاء القوس باريها ورام أسهم دين الله راميها

فأعطاه صلاح الدين ألف دينار (٣) . ومدحه سعادة الأعمى بقصيدة طائية أثابه عليها بألف دينار كذلك (٤) . ومدحه أحمد بن على بن أبى زنبور بقصيدة طويلة ، وصله عليها بخمسمائة دينار (٥) . وقال العماد فى الخريدة : لما خيم السلطان بظاهر حمص ، قصده المهذب ابن أسعد بقصيدة أولها :

ما نام بعد البين يستحلى الكرى إلا ليطرقه الخيال إذا سرى

فقال القاضى الفاضل لصلاح الدين : هذا الذى يقول : «والشعر ما زال عند الترك متروكا» فعجل جائزته ، لتكذيب قوله ، وتصديق ظنه ، فشرفه ، وجمع له بين الخلعة والضيعة . وعنى الفاضل ما قاله المهذب فى قصيدة مدح بها الصالح بن رزيك ، وأولها :

أما كفاك تلافى فى تلافيكا . .

وفيها :

من أرتجى يا كريم الدهر ينعشنى جدواه ، إن خاب سعيى فى رجائيكا

---

(١) خطط المقريزى ٢ : ٢٤٣ .
(٢) خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٧٧ .
(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٠٥ .
(٤) خريدة القصر ١ : ٧٨ .
(٥) بغية الوعاة ص ١٤٨ .

أأمدح الترك أبغى الفضل عندهم والشعر ما زال عند الترك متروكا[١]

ويذكر العماد الكاتب أن صلاح الدين كان يستهديه شعره ونثره[٢].

ويذكر التاريخ أن كثيراً من حكام ذلك العصر قرضوا الشعر. وعنوا بنظمه، فكان للآمر نظم ونظر فى الأدب[٣]. وروى له المقريزى شعرا، منه ما يحدثنا عن عزمه على الجهاد والسفر إلى بغداد، حتى يعيد للدين وحدته، إذ يقول:

دع اللوم عنى، لست منى بموثق فلا بد لى من صدمة المتحقق
وأسق جيادى من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفرق

ويقول:

أما والذى حجت إلى ركن بيته جراثيم ركبان مقلدة شهبا
لأقتحمن الحرب، حتى يقال لى: ملكت زمام الحرب، فاعتزل الحربا
وينزل روح الله؛ عيسى بن مريم فيرضى بنا صحبا، ونرضى به صحبا[٤]

وكان الأفضل بن بدر الجمالى شاعرا، ومن شعره ما قاله فى غلامه تاج المعالى:

أقضيب يميس، أم هو قد أو شقيق يلوح، أم هو خد
أنا مثل الهلال: سقما عليه وهو كالبدر، حين وافاه سعد[٥]

وكذلك كان بهرام وزير الحافظ شاعراً[٦]. أما طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد فكان أعظم وزراء العهد الفاطمى الأخير حظا من الشعر. قال المقريزى: وله شعر كثير يشتمل على مجلدين فى كل فن[٧]. وتجد نماذج كثيرة من شعره فى النجوم الزاهرة[٨]،

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٤٠. (٢) الروضتين ١ : ١٤٦.
(٣) النجوم الزاهرة ج٥ ص١٨٣. (٤) خطط المقريزى ج ٤ ص ٧٨.
(٥) أخبار مصر لابن ميسر ج ٢ ص ٦٠ وفيه نص آخر للشاعر.
(٦) History of Egypt in the Middle Ages. P. 166.
(٧) خطط المقريزى ج ٤ ص ٨٢.
(٨) ج ٥ ص ٣٦٠ و ٣١٤.

ووفيات الأعيان (١) والنكت العصرية (٢) ، والروضتين (٣) ، وديوان أسامة (٤) ، والكامل فى التاريخ لابن الأثير ، (٥) ، وخطط المقريزى (٦) ، وخريدة القصر (٧) . ومن ذلك قوله يتغزل :

وفاتر الطرف فى الخد الأسيل ،له ... ورد جنى جنتيه (٨) أسهم المقل
نهبته بفمى لثمـــا ، وقد غفلت ... عين الرقيب ، وكلت ألسن العذل
وخاف أن يفطن الواشى بنا وبه ... فعاد يخلف ما قد من بالخجـــل
أن مال عنى فقد مال النعيم ، وإن ... يمل إلى أجـــده غاية الأمـــل
هابت سطاى ليوث الغاب عادية ... ورحت من لحظات الظبى فى وجل
فرجت ضنك الوغى فى كل معركة ... بحدسيفى، وضاقت فى الهوى حيلى (٩)

وكان ضرغام وزير العاضد ينظم الموشحات الجيدة (١٠)

وجرى الشعر على ألسنة كثير من أبناء الأسرة الأيوبية . فالأفضل بن صلاح الدين له شعر (١١) روى السلوك بعضه ، مما قاله يشكو فيه سوء حظه . ومن ذلك قوله :

أما آن للسعد الذى أنا طالب ... لإدراكه يوما يرى وهو طالبى
ترى هل يرينى الدهر أيدى شيعتى ... تمكن يوما من نواصى النواصب (١٢)

وأورد شفاء القلوب (ص ٧١) بعض شعره .

ولغازى بن صلاح الدين كذلك شعر حسن ، ولحفيد غازى ، وهو يوسف بن محمد بن غازى صاحب مملكة حلب شعر ، منه قوله لما مرت به التتار على حلب ، وهى خاوية على عروشها ، وقد تهدمت ، والنيران بها تعمل . فقال :

يعز علينا أن ترى ربعكم يبلى ... وكانت به آيات حسنكم تتلى

---

(١) ج ١ ص ٢٣٨ و٢٣٩ (٢) ص ٤٥ .
(٣) ج ١ ص ١٠٦ و١١٥ و١١٦ و١١٧ و١١٨ و١١٩ و١٢٠ و١٢٤ و١٢٥ و١٦٥ .
(٤) ص ٨ و١٦٣ و١٦٨ و١٩٧ و٢١١ و٢٦١ و٢٦٩ و٢٧٢ .
(٥) ج ١١ ص ١٢٣ و١٤٢ . (٦) ج ٤ ص ٨٢ .
(٧) ج ٢ ص ٣٩ . (٨) فى الأصل (حنته) .
(٩) الجريدة المطبوعة ١ : ١٨١ . (١٠) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٠
(١١) صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٠٩ ووفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧١ . (١٢) ج ١ ص ٢١٧ .

وله نماذج فى النجوم الزاهرة[١] وشفاء القلوب (ص ١١٥ و ١١٦) .

وكان بورى بن أيوب أخو صلاح الدين شاعراً بليغاً ، أورد له صاحب النجوم نموذجا[٢] .
وذكر صاحب الوفيات[٣] أن له ديوانا ، قال عنه صاحب كشف الظنون[٤] : إن فيه الغث والسمين ، ولكنه بالنسبة إلى مثله جيد وله نماذج كثيرة فى شفاء القلوب . (ص ١٤ و ١٥) .

وكذلك كان ابن أخيه فروخ شاه بن شاهنشاه أديبا شاعراً [٥] ، جيد الشعر بين أشعار الملوك[٦] . منه قوله :

أنا فى أسر السقام ... من هوى هذا الغلام
رشأ ترشق عينا ... ه فؤادى بسهام
كلما أرشفنى فا ... ه على حر الأوام
ذقت منه الشهد فى الثـ ... ـلج المصفى فى المدام[٧]

وله نماذج أيضا فى شفاء القلوب[٨] (ص ٦٥) .

وأنجب فروخ شاه ابنه بهرام شاه شاعراً مشهور الشعر ، له ديوان كبير[٩] ، كان بين أيدى الناس[١٠] ، وبقى لنا من شعره « دوبيت » هو :

كم يذهب هذا العمر فى الخسران ... يا غفلتى فيه وما أنسانى
ضيعت زمانى كله فى لعب ... يا عمر ، فهل بعدك عمر ثان[١١]

ويقول بعض مؤرخيه : إنه أشعر بنى أيوب[١٢] ، وله نماذج كثيرة فى شفاء القلوب (ص ٩١) .

---

(١) جـ ٧ ص ٢٠٤ (٢) جـ ٦ ص ٩٦ .
(٣) جـ ١ ص ٩٤ . (٤) جـ ٢ نهر ٧٨٠ .
(٥) الروضتين جـ ٢ ص ٣٣ (٦) الكامل جـ ١١ ص ٢٢٢
(٧) الروضتين جـ ٢ ص ٣٤ .
(٨) راجع شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ١٤ ، ١٥ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ففيها نماذج كثيرة من أشعار الأيوبيين .
(٩) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧٦ . (١٠) عيون الأنباء جـ ٢ ص ٢٤٨ .
(١١) النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٧٦ . (١٢) المختصر جـ ٣ ص ١٤٥ .

وكان لعمر بن شاهنشاه [١] ديوان شعر كذلك ، بقى منه قوله :

يا ناظريه ، ترفقـا　　　ما فى الورى لـكما مبارز
هبكم حجبتم أن أرا　　　ه ، فهل لقلب الصب حاجز [٢]

ولابنه ديوان كذلك ، وله نماذج فى كتاب تاريخ الواصلين [٣]

وحفظ شفاء القلوب (ص ٨٨ و ٨٩) شعراً للمظفر غازى بن أبى بكر بن أيوب .

وللناصر داود بن المعظم عيسى ديوان من الشعر ، حفظه الزمان إلى يومنا هذا [٤] . وقد وصل فى بعضه إلى مرتبة قوية من الإجادة كقوله :

عيون عن السحر المبين تبين　　　لها عند تحريك القلوب سكون
إذا ما رأت قلبا خليا من الهوى　　　تقول له: كن مغرما فيكون [٥]

وله نماذج فى كتاب شفاء القلوب (ص ٩٤) .

كما كان لأبيه ديوان من الشعر أيضا [٦] . بقى منه قصيدة فى كتاب بدائع البدائه [٧] . منها قوله يمدح أباه الملك العادل :

والنصر مقرون بهمتك التى　　　قد أصبحت فوق السماك سماكا
فإذا عزمت وجدت من هو طائع　　　وإذا نهضت وجدت من يخشاكا [٨]

وللملك الكامل شعر ، بقى لنا طرف منه فى الغزل والاستنجاد . إذ يقول :

إذا تحققتم ما عند صاحبكم　　　من الغرام ، فذاك القدر يكفيه
أنتم سكنتم فؤادى، وهو منزلكم　　　وصاحب البيت أدرى بالذى فيه [٩]

---

(١) نجد له نماذج فى تاريخ الواصلين ص ٢٧ .　　(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٤ .
(٣) ص ١٧ .　　(٤) مصور بدار الكتب رقم ٢٢٩٣ — أدب. واسمه الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية . وتجد نماذج من شعره فى المختصر فى أخبار البشر ، والنجوم الزاهرة ، وتاريخ الواصلين ، والسلوك ، وفوات الوفيات
(٥) المختصر ج ٣ ص ١٩ .　　(٦) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٢٦٢ .
(٧) ص ١٧٨ .　　(٨) راجع كتاب مأمون بنى أيوب لمؤلف هذا الكتاب .
(٩) السلوك ج ١ ص ٢٦١ .

وأورد له شفاء القلوب (ص ٨٢) نموذجا أيضا .

وكتب إلى أخيه الأشرف موسى رسالة ، يستحثه على الحضور ، حين كان الفرنج على دمياط ، صدرها بأبيات منها :

يا مسعدى إن كنت حقا مسعفى … فانهض بغير تلبث وتوقف
إن تأت عبدك عن قليل تلقه … ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه … بك فى القيامة ، فى عراض الموقف[١]

وكان المعظم توران شاه بن الصالح أيوب أديبا شاعراً[٢] ، وفى كتاب الروضتين[٣] شعر لاسماعيل بن طغتكين بن أيوب . وفى تاريخ الواصلين أن المظفر صاحب حماة لما ماتت زوجته رثاها بمرثية مؤثرة[٤] ، وكان له ديوان شعر رآه صاحب بدائع البدائه[٥] .

ومن كبار الأمراء والوزراء فى عصر الدولة الأيوبية من نظم الشعر أيضا ، نذكر من بينهم القاضى الفاضل ، وله ديوان حفظه الزمن[٦] ، وإبراهيم بن يوسف القفطى وزير حلب ، وله نموذج فى كتاب الطالع السعيد[٧] ، والأمير فخر الدين يوسف بن حمويه ، وكان مرشحا للملك ، وله نموذج فى كتاب طبقات الشافعية[٨] ، وأحمد بن صدر الدين شيخ الشيوخ[٩] ، وعون الدين بن العجمى من كبار الدولة الناصرية[١٠] ، ومن الولاة أحمد بن موسى بن يغمور والى المحلة[١١] ، وكان والده موسى أميراً فى عهد بيبرس شاعراً أيضا[١٢] ، ومنهم جلدك ابن عبد الله المظفرى والى دمياط[١٣] .

وكانوا يدركون ما للشعر من أثر بالغ فى النفس ، فتطرب له ، وتهتز لمعناه ، وتندفع إلى تحقيق أهدافه ، روى العماد الأصبهانى قال : سألنى نور الدين أن أعمل دوبيتيات فى معنى الجهاد على لسانه ، فقلت :

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢١٢ .
(٢) طبقات الشافعية ج ٥ ص ٥١
(٣) ج ١ ص ٢١٠ .
(٤) ج ١ ص ٢٠١ .
(٥) بدائع البدائه ص ١٨١ .
(٦) الديوان مخطوط بمكتبة معهد دمياط وصورته دار الكتب وحققه المؤلف .
(٧) ص ٣٣ .
(٨) ج ٥ ص ١٥٢ .
(٩) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤ .
(١٠) تاريخ الواصلين ج٢ ص ٣٨٧ .
(١١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٤٥ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤ .
(١٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٨
(١٣) فوات الوفيات ج ١ ص ١٠٧ .

أقسمت سوى الجهاد مالى أرب　　　والراحة فى سواه عندى تعب
إلا بالجد لا ينال الطلب　　　والعيش بلا جد جهاد لعب [١]

فنور الدين محمود — وهو أحد أبطال الحروب الصليبية ، يجد فى تغنيه بالشعر معين قوة ، ومصدر إقدام . ويطلب مرة أخرى إلى العماد أن يصف معركة دارت بينه وبين الفرنج ، وشاهدها العماد [٢] ، ليثبت بذلك قلوب المؤمنين ، ويزيدهم إيماناً إلى إيمانهم . ويطلب منه حينا آخر أن يكتب على لسانه رسالة يبعث بها إلى بغداد ، يتحدث فيها عن جهاده للعدو ، وما أصيب به العدو من هزيمة وخذلان [٣] ، ويدعو أسامة بن منقذ أن يرد بالشعر ، على الملك الصالح : طلائع بن رزيك ، فى رسائله التى وجهها إلى نور الدين [٤] .

ومن أثر الشعر فى نفوسهم ما يروى من أن معركة دارت بين صلاح الدين والفرنج بقرب بانياس ، سنة ٥٧٥هـ ، وانتصر فيها صلاح الدين ، وكان ممن أبلى فيها أعظم البلاء عز الدين فروخ شاه ابن أخى صلاح الدين ، متأثراً بالشعر ومدفوعاً به ، فقد حكى أنه قال : ذكرت فى تلك الحال بيتى المتنبى ، وهما :

فإن تكن الدولات قسما فإنها　　　لمن يرد الموت الزؤام تئول
ومن هون الدنيا على النفس ساعة　　　وللبيض فى هام الكماة صليل

فهان الموت فى عينى ، فألقيت نفسى إليه [٥] .

ومن ذلك ما يروى من أن سيف الإسلام طغتكين أخا صلاح الدين ، كانت نفسه تشرئب إلى ولاية اليمن ، بعد موت أخيه شمس الدولة ، ويشتهى أن يصير إليها ، فأوحى إلى ابن سعدان الحلبى أن ينشىء قصيدة ، يضمنها هذه الأمنية ، ويسمعها صلاح الدين ، فأنشأ قصيدة ، قال فيها :

• جرد لها السيف الصقيل فتنة　　　فالسيف لا يذخر إلا للفتن

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٧ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق ص ٢١٨ .
(٤) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٤٦ .
(٥) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٢٠٦ .

شد به أزر العلا ، فإنه نعم فتى من شرع الجود ، ومن
القائل المسمع فى مقاله والصادق الندب الأمين المؤتمن

فلما سمع السلطان هذه القصيدة ، أذن لسيف الإسلام فى المسير إلى اليمن[١] . فأنت ترى طغتكين يعرف ما للشعر من تأثير فى نفس صلاح الدين ، فيلجأ إليه مستعيناً به ، لتحقيق آماله . وكان صلاح الدين يحب الشعر[٢] ، ويستحسن الجيد منه ، ويردده فى مجلسه ، وكان يحفظ ديوان الحماسة[٣] ، ومما كان يعجب به من الشعر ديوان أسامة بن منقذ ، وكان مشغوفا به مستحسناً له[٤] . ومن تقديره لتأثير الأدب ماروى من أنه كان يقول فى ملأ من الناس : لا تظنوا أنى فتحت البلاد بسيوفكم ، ولكنى فتحتها بقلم القاضى الفاضل[٥] .

ومن معرفتهم بتأثير الشعر فى النفوس أنهم كانوا يتراسلون به ، ويبدءون به رسائلهم . قال العماد يتحدث عن صلاح الدين عند ما استقر بمصر : وكثرت كتب صلاح الدين إلى أصدقائه ، مبشرة بطيب أنبائه ، فمنها كتاب ضمنه هذا البيت :

ما كنت بالمنظور أقنع منكم ولقد رضيت اليوم بالمسموع

قال : ووصل أيضاً منه كتاب ضمنه هذا البيت :

وأثر در الدمع من قبل أبيضا وقد حال مذ بنتم فأصبح ياقوتا[٦]

وقال ابن الأثير فى كامله : قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب الذى ملك اليمن إلى دمشق ، ولما سمع أن أخاه صلاح الدين ملكها ، حن إلى الوطن والأتراب ، ففارق اليمن ، وسار إلى الشام ، وأرسل من الطريق إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب فى الكتاب شعراً من قول ابن المنجم المصرى :

وإلى صلاح الدين أشكو أننى من بعده مضنى الجوانح مولع
جزعا لبعد الدار منه ، ولم أكن لولا هواه لبعد دار أجزع .

---

(١) الروضتين ج٢ س ٢٦ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٥٣ .
(٣) السلوك ج ١ ص ١١٣
(٤) الروضتين ج ١ ص ٢٤٧ .
(٥) شذرات الذهب ج ٤ ص ٢٢٧
(٦) الروضتين ج ١ ص ١٧٩ و ١٨٠ وبدائع البداية ص ١٧٨ .

فلأركبن إليه متن عزائمي ويخب بي ركب الغرام ، ويوضع
ولأقطعن من النهار هواجرا قلب النهار بحرها يتقطع
ولأسرين الليل لا يسرى به طيف الخيال ، ولا البروق اللمع
وأقدمن إليه قلبي مخبرا أني بجسمي من قريب أتبع
حتى أشاهد منه أسعد طلعة من أفقها صبح السعادة يطلع[1]

وكانوا يعقدون مجالس يخصصونها للاستماع إلى ما أنشده الشعراء فى الحوادث الجارية ، فى المحافل العامة ، فتجد مكان الشعر واضحاً فى المواسم والحفلات المتنوعة ، التى كانت تقيمها الدولة الفاطمية[2] ، وتجد فى الأحداث الكبرى ، عصر الأيوبيين والمماليك ، مكانة الشعر مرموقة كذلك ، وكانوا يتناولون ما يقال فى هذه المجالس بالنقد ، مستحسنين تارة ، ومستهجنين أخرى .

جلس الخليفة الفاطمى يوم الاحتفال بوفاء النيل ، وأخذ الشعراء ينشدون ما أعدوه ، فتقدم شاعر يقال له ابن جبر ، وأنشأ قصيدة منها :

فتح الخليج ، فسال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا ، فكأنه كف الإمام ، فعرفها الإعطاء

فانتقد الناس عليه فى قوله : فسال منه الماء ، وقالوا : أى شىء يخرج من البحر غير الماء ، فضيع ما قاله بعد هذا المطلع . وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

ما زال هذا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامل معول
فجرى ، كأن قد ديف فيه عنبر يعلوه كافور بطيب المندل

فانتقدوا عليه أيضاً قوله فى البيت الثانى ، وقالوا : أهلك وجه الإمام ، بسطوات المعاول عليه ، وإن كان قصد فتح السد بالمعاول ، لكنه ما نظمه إلا قلقاً ، ثم تقدم له شاعر ، يقال

---

(١) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ (٢) بدائع البدائة ص ٢٢٤

له : كافى الدولة أبو العباس أحمد ، وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضى الأثير بن سنان بأنه عملها بحضوره بديها ، وأولها :

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد للنيل أم لك ؟ يابن بنت محمد
أم لاجتماعكما معا فى مُوطن وافيتما فيه لأصدق موعد

فأمر له على الفور بخمسين دينارا ؛ وخلع عليه ؛ وزيد فى جاريه .

ولما فتح صلاح الدين بيت المقدس ، عقد مجلساً استمع فيه إلى ما قاله الشعراء فى ذلك الفتح المبين [١] .

وإلى جانب هذه المجالس التى كانوا يصغون فيها إلى قصائد الشعراء ، كانوا يعقدون مجالس أدبية متنوعة ، ينشدون الشعر ، ويستجيزون من حضر من الشعراء ، ويطلبون إليهم القول فى معان معينة .

روى صاحب بدائع البدائه [٢] أن الملك الكامل أنشد قول الشاعر :

ترحل مَن حياتى فى يديه فيا أسفى ، وياشوقى إليه

واستجاز الجماعة فقال أحدهم :

ومن هذا يكون عليه مثلى وهذى الريح أخشاها عليه

وقال ثان :

ألا ياليته إن كان يأتى حياتى ، ثم موتى فى يديه

وروى أن الملك [٣] العزيز قد غنى بين يديه دوبيت بالأعجمية ، معناه أنه جعل الليل برد دارا [٤] للحبيب ، ليحجب الشمس وأرسل إلى وزيره : الأجل نجم الدين أبى الفتح يوسف بن المجاور ، يأمره أن يصنع المغنى فى شعر ، وأن يأمر الشعراء بالعمل فى ذلك ، فصنع بديها وأرسله إليه :

قال له الليل: انصرف راشدا فإنه استخدمنى برد دار

---

(١) الروضتين ج ٢ س ٩٦ . (٢) س ٨٦ .
(٣) بدائع البدائه س ١٥٠ . (٤) أى ممسك البرد .

ثم صنعوا بعده، فمن مروز وباده، واشترك فى التحدث عن هذا المعنى القاضى الفاضل، والأسعد بن الخطير، وابن النبيه، وشهاب الدين يعقوب ابن أخت نجم الدين، والقاضى الأسعد عبد الرحيم بن شيث .

وأرسل الملك العزيز إلى وزيره، طالبا إليه أن يصنع غزلا فى جارية، صنعت على خدها بالمسك صورة حية وعقرب، فصنع بديها :

فديتها من غادة مخلوقة من طرب
سألتها فى قبلة فى خدها المذهب
فجاوبت معجبة بكفها المخضب
وابأبى وابأبى من عظم هذا الطلب
وليس هذا ممكنا على ممر الحقب
روضة خدى حرست بحية وعقرب
من رام أن يلثمها فليرقها بالذهب
وليشرب الدرياق من رضاب ثغرى الشنب

وصنع قطعة أخرى فى هذا المعنى أيضا، وأمر الناس بالعمل فأكثروا، وصنع ابن مماتى قطعا كثيرة، تزيد على العشرين، وممن اشترك فى الحديث عن هذا المعنى أيضا ابن سناء الملك، وابن الساعاتى، وشهاب الدين ابن أخت الوزير، والقاضى أبو العباس أحمد بن القطرسى، وابن النبيه، وأبو العباس أحمد ابن بنت الفقيه ابن عوف، والرضى بن أبى حفصة الأحدب، وعلى بن ظافر (١) .

ومن هذه المجالس ما كان يعقده الأشرف بن قلاوون، وكان فيها يطارح الأدباء، بذهن رائق وذكاء مفرط (٢) .

وألف بعض امراء ذلك العصر وملوكه فى الأدب؛ ومن هؤلاء الملك المنصور صاحب حماة محمد بن تقى الدين عمر، فقد وضع كتابا فى طبقات الشعراء (٣) .

---

(١) بدائع البدائه ص ١٥١ وما يليها . (٢) السلوك جـ ١ ص ٧٩١
(٣) المختصر جـ ٣ ص ١٢٥ .

كما شجعوا على التأليف فى الأدب، وها هوذا الملك الكامل، يطلب من ابن دحية تأليف كتاب يجمع شيئا من شعر أهل المغرب فألف له ابن دحية كتاب المطرب [١] .

كان هذا العصر إذاً عصراً مواتيا للأدب : أحبه خلفاؤه ، وسلاطينه ، وملوكه، وأمراؤه ، ووزراؤه ، وولاته ، وعلماؤه ، وحاول كثير من أولئك جميعا أن يكونوا من بين رجاله ، وكانت الدوافع التى حدت بهؤلاء الرجال إلى هذا الحب عديدة متنوعة :

أما خلفاء الفاطميين فكان إنشاد الشعر بين أيديهم مظهرا من مظاهر العظمة التى كانوا عليها جد حريصين ، كما كانوا يتخذون الشعر وسيلة للدعاية ، ونشر مبادئهم ، والترويج لعقائدهم ، كما وجد فيه بعض هؤلاء الخلفاء متنفسا يسرون إليه بأمانيهم وآمالهم .

ولم يستطع عماد الدين زنكى وولده نور الدين محمود ولا سلاطين الأسرة الأيوبية أن يتركوا هذا التقليد ، ففى الشعر دعاية يثبتون بها قواعد عروشهم ، وهم قوم لم يرثوا الملك عن أجدادهم ، ولكنهم بنوه بأيديهم ، فالشعر يغرس فى نفوس رعيتهم الجديدة حبهم ، والولاء لهم ، كما كان هذا الشعر يؤدى الرسالة التى يريدها هؤلاء السلاطين من شعوبهم ، فإن زنكيا ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، قد نصبوا أنفسهم لجهاد الفرنج ، فوجدوا هذا الشعر الذى يتحدث عن الجهاد موقدا للحمية فى نفوس المسلمين ، باعثا لهم على الاستماتة فى استرداد بلادهم المغصوبة ، وأكاد ألمح أن حب الأيوبيين للشعر يعود جزء منه إلى حذرهم من أن ينظر إليهم أنهم أقل تذوقا لهذا الفن الجميل من العرب ، الذين يقومونه ، ويعرفون قدره ، وهم لا يريدون أن يكونوا فى هذا الشأن أقل من العرب قدراً ، ويدل على ذلك ما رويناه من حديث القاضى الفاضل وصلاح الدين مع المهذب بن أسعد [٢] ، وأكاد ألمح أن الأيوبيين فى أعماقهم كانوا يودون أن لو كانوا منحدرين من أصل عربى ؛ وربما كان من الاستجابة لهذه الرغبة الملحة أن حاول بعضهم أن يصل نسبهم بخلفاء بنى أمية [٣]، فلاغرابة إذا حرصوا على أن يحيطوا أنفسهم بما اعتاد حكام العرب أن يحيطوا أنفسهم به، من رجال هذا الفن الرفيع ، وأن يعالجوه ، ويأخذوا أنفسهم بمعاناته وقرضه .

---

(١) راجع مقدمة كتاب المطرب . وقد حققه المؤلف مع زميلين له .

(٢) راجع ص ٢١ . (٣) راجع النجوم الزاهرة جـ٦ ص٣ ومقدمة الفوائد الدوية .

ولعل الأسباب التى دعت سلاطين المماليك إلى تشجيع الأدب هى الأسباب نفسها التى دفعت الأيوبيين إلى هذا التشجيع ، وربما كان لنشأتهم فى الرق أثرها فى الإقبال على الشعراء وتشجيعهم ، ليشيدوا بمآثرهم ، كى ينسى الناس ماضيهم ، ولا يذكروا غير حاضرهم المجيد ، ولهذا شجع بيبرس الشعراء ، فالتفوا حوله ، وتغنوا بإصلاحاته وجهاده ، واقتدى به فى ذلك قلاوون وابنه الأشرف خليل .

أما وزراء الفاطميين فهم يتشبهون بخلفائهم فى التماس هـذا المظهر من مظاهر الأبهة والجلال ، بعد أن استولوا على السلطان الحقيق فى البلاد : وكانوا يتخذون الشعراء لمناصرتهم ومهاجمة أعدائهم ، والدعاية لهم ، وقد أحاط هؤلاء الوزراء أنفسهم بطبقة من المثقفين الممتازين فى الأدب ، فكان من الضرورى أن يأخذ هؤلاء الوزراء أنفسهم بإتقان هـذا اللون من الامتياز اللسانى ، حتى يجمعوا بين ألوان التفوق ، ولا يتخلفوا عمن يجالسهم ، فى ناحية منه ، وأودع بعض هؤلاء الوزراء مفاخرهم فيما أنشئوه من الشعر ، كما فعل ذلك طلائع بن رزيك ؛ ولا سيما تلك القصائد التى كان يرسلها إلى أسامة بن منقذ . وتشبه وزراء الأيوبيين بسلفهم من وزراء الفاطميين ، ولا سيما القاضى الفاضل ؛ وصفى الدين بن شكر ، وكان أولهما بماله من مكانة ممتازة فى الدولة ، وما كان لقلمه من سلطان على معاصريه ، ملجأ عدد كبير من شعراء عصره ، وكان الثانى ينافسه ، ويتأثر خطاه .

العناية بدراسة الأدب

كثرت العناية فى هذا العصر بجمع النصوص الأدبية ، وتخير المنتقى من بينها ، يرمون بذلك حينا إلى التهذيب الخلقى عن طريق التأثير فى النفس بالأدب ، وحينا إلى تقويم اللسان وتهذيب البيان ، بضرب المثل الصالحة الخليقة بالاقتداء ، و حينا إلى التعريف بالأدباء عن طريق آثارهم ، ويرمون إلى أغراض أخرى حينا آخر ، ونستطيع أن نتبين اتجاهات متعددة فى دراسة الأدب لذلك العصر :

فنرى بعضهم قد اتجه إلى لون من ألوان الأدب يتصل بمكارم الأخلاق ، فمضى يجمع الحكم والأمثال ، وأقوال البلغاء والمفكرين ، واضعا النظير بجوار نظيره ، وضاما ما يتصل بالخلق الواحد بعضه إلى جانب بعض ، وسنتحدث عن ذلك فى فصل النثر ، وعن أهم الكتب التى ألفت فى هذا الغرض .

ورأى بعضهم أن يتجه إلى التراث القديم ، يختار منه نماذج رفيعة لصقل اللسان والقلم ، ووقفت طائفة من هؤلاء عند الشعر بعامة تختار منه ، كما فعل عيسى بن العزيز اللخمى فى كتابه : الأزهار فى المختار من الأشعار [١] ، وشميم الحلى فى أرى المشتار فى القريض المختار [٢] ، وابن القطاع فى فرائد الشذور وقلائد النحور فى الأشعار [٣] . وقد بقى لنا من كتب هذا الاتجاه كتاب مؤنس الوحدة لابن الأثير [٤] ، وكتاب الحماسة البصرية لعلى بن أبى الفرج البصرى [٥] .

أما كتاب مؤنس الوحدة فأكثره مختارات من الشعر ، معظمها فى الهجاء ، ويظهر أن صاحبه كان يريد أن يجعله مكونا من عدة أبواب ، ثم وقف عند باب الهجاء . وفى الكتاب أحاديث نثرية قليلة فى هذا الباب أيضا .

وكتاب حماسة البصريين مقسم اثنى عشر قسما : الأول فى الحماسة والشدة ، والثانى

(١) بغية الوعاة ص ٣٦٨ .
(٢) معجم الأدباء ١٣ : ٧٠ .
(٣) المرجع السابق : ١٢ : ٢٨١ .
(٤) مصور بدار الكتب رقم ٥٠٧٠ أدب .
(٥) مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٠ — أدب .

فى المديح والتقريظ، والثالث فى الرثاء، والرابع فى الأدب، والخامس فى النسيب، والسادس فى الأضياف، والسابع فى الهجاء، والثامن فى مذمة النساء، والتاسع فى الصفات، والعاشر فى السير، والحادى عشر فى الأكاذيب والخرافات، والثانى عشر فى الزهد.

وقد اقتدى جامعو شعر التراث القديم فى ذلك العصر بمن سبقهم من الجامعين، منذ القرن الثانى الهجرى، وقد كان هناك اتجاهان فى الاختيار: أحدهما لا يعنى بتبويب معانى ما يختاره من الشعر، كالمفضل الضبى فى مفضلياته، والثانى تبويب معانى الاختيار، كما فعل أبو تمام فى حماستيه: الكبرى والصغرى. وقد اقتدى به البحترى فى حماسته. أرادوا بهذا الجمع ضرب المثل وإقامة النماذج، وقد اقتفى صاحب الحماسة البصرية، أثر حماسة أبى تمام فى عقد أبواب واسعة، يندرج تحتها كثير من المعانى، فباب الأدب مثلا يندرج تحته كثير من ألوان الخلق النبيل: كالحلم والكرم والصبر وغيرها، فيورد الجامعان فى هذا الباب ما يروق لهما من الشعر الذى يمجد خلقا أو فضيلة، من غير أن يجزئا الباب الواحد فصولا كما فعل البحترى، واقتدى صاحب الحماسة البصرية بحماسة أبى تمام كذلك، فى وقوفه عند حد اختيار الجزل القوى البليغ، من غير أن يتعمق فى اختيار الشعر الغريب الألفاظ، ولعل لاختيارها لأحد أمراء الأسرة الأيوبية دخلا فى اختيارها جزلة واضحة معا، فهو ينأى بأميره الذى اختار له هذه النصوص عن الإسفاف، ولا يكلفه دراسة جموع حاشدة من الغريب، فى عصر بعدت الصلة بينه وبين هذا الغريب، لا كما كان الحال فى عصر المفضل الضبى.

ولست أدرى إن كان جامعو المختارات قد نهجوا جميعا منهج صاحب الحماسة، أو أن بعضهم نهج منهج صاحب المفضليات، لأن أغلب المختارات لم يصل إلينا، وإن كنت أرجح أن المنهج المتبع يومئذ هو منهج صاحب الحماسه الذى يبوب المختارات تبعا لمعانيها، فإن عصر اختيار القصيدة لمفرداتها اللغوية قد انقضى بانقضاء المختارين الأولين. وما بقى لدينا يؤيد هذا الذى نرجحه.

ورأى البعض أن يختار ما رآه رائعا من دواوين السابقين، ليكون له ذخيرة أدبية صالحة يستقى منها المعانى والأفكار، فرأينا ابن الأثير كان معجبا بأبى تمام والبحترى والمتنبى،

إذ يرى شعرهم خلاصة الشعر العربى ونموذجه الرفيع يضع كتابا فيه مختار من شعرهم وشعر ديك الجن [١] . ورأينا ابن منجب الصيرفى يختار من ديوان أبى العلاء المعرى [٢] ، ولست أدرى أى ديوان أختار منه ، ولعله سقط الزند ، كما اختار من ديوان ابن السراج [٣] ، واختصر أبو شامة المقدسى جملة من الدواوين [٤] . وقد اقتدى هؤلاء بمن سبقهم ممن اختاروا من دواوين الشعراء كالشريف الرضى الذى اختار جملة من شعر ابن الحجاج وسماه (الحسن من شعر الحسين) .

وعنى بعضهم بجمع ما تفرق من شعر الشاعر فى ديوان ، كما فعل الوزير القفطى الذى جمع ديوان أيدمر المحيوى [٤] ، وكما فعل البديع هبة الله بن الحسن الأسطر لابى الشاعر المتوفى سنة ٥٣٤ ﻫ ، فقد جمع شعر ابن الحجاج ودونه ورتبه على القوافى [٥] ، وقد اقتدى القفطى والبديع فيما قاما به ، بما كان سلفهم يفعله ، من جمع دواوين شعر من لم يجمع ديوانه من الشعراء .

ومضت طائفة إلى ما قيل من الشعر فى مدح شخص بعينه أو أسرة بعينها ، فجمعته ، تخليداً للمفاخر ، وتسجيلا للمآثر ، كما وضع مجد الملك بن شمس الخلافة سيرة لجعفر بن حسان الإسنائى ، جمع فيها مدائحه ، وأسماء من مدحه ، من شعراء بلده وغيرهم ، فى مجلد ضخم ، صدره بقصيدة يمدحه فيها ، ومنها :

تفوح رياح المسك من نفحاتها   كأن سراج الدين أهدى لها عرفا
أبو الفضل من أضحى له الفضل شيمة   كأنهما خلان قد عقدا حلفا
عظيم إذا استنجدته لملمـــة   كفاك ، وكان القلب والسيف والكفا

وسمى مجد الدين كتابه بالأرج الشائق إلى كرم الخلائق [٦]
وصنف الجليس بن الحباب مجموعا فى مدائح شعراء ابن رزيك [٧] ، وكان ابن رزيك وزيراً ممدحا ، شاعرا يتذوق الشعر . ويقرب قائليه ويثيبهم ، وله ديوان شعر .

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ١٥٩ .   (٢) معجم الأدباء ١٥ : ٨٠ .
(٣) ذيل الروضتين س ٤٠ .   (٤) كشف الظنون ٢ : ٧٧٨ .
(٥) المرجع السابق نهر ٧٣٩ .
(٦) الطالع السعيد س ٩٢ .   (٧) جريدة القصر المطبوعة ١ : ٢٤٢ .

وجمع على بن صادق الخزرجى ما مدح به محمد بن إبراهيم بن رفاعة العالم الحاكم بقوص ، فى كتاب رتب قصائده على حروف المعجم ، ووضع له مقدمة مدحه فيها ، والمقدمة بكتاب الطالع السعيد تمزج بين الشعر والنثر (١) .

وكتب السديد بن عرام سيرة لبنى الكنز ، ذكر فيها مناقبهم وأحوالهم ، وجمع فيها أسماء من مدحهم من أهل بلدهم : أسوان ، ومن ورد عليهم ، وسجل فيها هذه المدائح (٢) ، ولا أعلم أحدا سبق هؤلاء إلى جمع مثل ما جمعوه من هذا اللون ، ولو أن هذه الطريقة قد اتبعت عند ترجمة أبطال التاريخ لأفاد من ذلك الأدب والتاريخ معا .

ووقف بعض الجامعين عند حدود ما قيل من الشعر ، وكان ذا صبغة خاصة ، وأظهر ما بقى لنا من هذا اللون كتاب بدائع البدائه ، الذى جمع فيه « أخبار الشعراء فى البدائه والارتجال ، ومحاسن أشعارهم فى مضايق الإسراع والإعجال (٣) » ، وجمع من ذلك قدراً صالحا ، قال : إنه لم يسبق إلى مثله .

ذلك بعض ما قام به الأدباء يومئذ من جهود فى جمع الشعر قديمه وحديثه ، ويضاف إليه جهد الشعراء فى جمع دواوينهم ، وقد عرفت مئات من دواوين الشعراء التى جمعت فى ذلك العصر ، وبقى لنا من هذه المئات عشرات حقق القليل منها ، ولا يزال أكثرها فى انتظار من يحققه ويخرجه .

أما المجموعات النثرية فأهمها هذه التى ضمت رسائل كتاب هذا العصر . وقد بقى القليل منها ، وتبدد أكثر هذه المجموعات ، وانتثر الكثير من هذه الرسائل ، وتفرق فى كتب الأدب والتاريخ .

ومضى بعض رجال هذا العصر يجمع مختارات من الشعر والنثر معا ، تضم إلى الحكمة والمثل بيت الشعر والمقطوعة والقصة والنادرة ، كما فعل القاضى السعيد فى كتاب مصائد الشوارد ، الذى قال فيه ابن الساعاتى :

---

(١) الطالع السعيد ص ٢٦٥ .
(٢) المرجع السابق ص ١٣ .
(٣) بدائع البدائه ص ٣ .

تأملت تصنيف هذا السعيـــد ، وإنى لأمثاله ناقد
فكم ضم بين نهى سائرا وصيد به مثل شارد [١]

وكما فعل ابن العديم وابن مكرم فى تذكرتيهما [٢] ، ونجم الدين الحرانى فى كتاب جامع الفنون وسلوة المحزون [٣] ، الذى يجمع فيه بين الهزل والجد ، وشميم الحلى فى كتابه : بدائه الفكر فى بدائع النظم والنثر [٤] . وجمع ابن ضياء الدين بن الأثير للملك الأشرف بن العادل جملة من نظمه ونثره ورسائل أبيه فى كتاب [٥] ، وألف محمد بن مكرم كتابا ، جمع فيه ما قيل من الشعر والأقوال فى الليل والنهار [٦] ، وجمع ابن سناء الملك الرسائل التى أرسلها القاضى الفاضل مدحا له وثناء عليه أو على شعره — إليه أو إلى أبيه ، وأورد الشعر الذى أشارت إليه هذه الرسائل ،جمع ذلك فى كتاب سماه فصوص الفصول وعقود العقول [٧] . وكتب أسامة بن منقذ كتاب العصا ، أورد فيه الأخبار والأشعار التى يأتى فيها ذكر العصا [٨] ، وكتابا فى الشيب والشباب [٩] ؛ كتبه لأبيه ، وأورد فيه ما قيل فى الشيب . أما التيفاشى فقد وضع كتاب نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب ، وضمنه أوصاف الغلمان المرد ، وأحوال من شغف بهم وما ورد فيهم [١٠] ، وقد يكون من هذا الباب ما جمعه عبد المحسن بن حمود من كتاب فى الأخبار والنوادر [١١] .

وكما عنى بجمع الشعر والنثر فى ذلك العصر ، لتحقيق الأغراض السالفة ، عنى عناية كبرى كذلك بدراسة ما ورثوه من أدب ، وكان أهم كتاب ظفر بالشرح والدراسة فى ذلك العصر كتاب مقامات الحريرى ؛ فقد عرفت لها أكثر من عشرة شروح ، بقى لنا واحد منها

(١) ديوان ابن الساعاتى ١ : ١١٥ .
(٢) تذكرة ابن العديم مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٠٤٢ — أدب وراجع صبح الأعشى ١٣ : ٢١٢ ، ٣٣٩
(٣) مخطوط بدار الكتب رقم ٨٣٢٢ — أدب . (٤) معجم الأدباء ١٣ : ٧١ .
(٥) وفيات الأعيان ٢ : ١٦١ .
(٦) راجع فى وصفه كتاب الحياة العقلية ص ٢٣٠ .
(٧) مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ — أدب .
(٨) مطبوع ضمن نوادر المخطوطات ٢ : ١٧٦ .
(٩) معجم الأدباء ٥ : ٢٠٨ .
(١٠) مخطوط بمكتبة الأزهر رقم ٤٢٣ — أباظة (٧٠١٩ — أدب) .
(١١) فوات الوفيات ٢ : ١٠ .

لسلامة بن عبد الباقى ، المتوفى سنة ٥٩٠ هـ [١] ، وهو شرح لغوى يشرح مفردات الحريرى ، وقد يتطرق إلى مشتقات الكلمة ومعانيها المختلفة ، وقد يورد شواهد من الشعر على معانى الكلمة التى يشرحها ، وقد يستطرد إلى ذكر معان نحوية أو صرفية ، أو إلى ذكر مرادفات الكلمة وأضدادها .

كما كان للخطب النباتية حظ من العناية والشرح كذلك . ومن أعيان شارحيها يومئذ تاج الدين الكندى [٢] ، وعبد اللطيف البغدادى [٣] .

وليس بعجيب أن تظفر المقامات والخطب النباتية بهذا اللون من العناية ، فقد كانتا المثل الأعلى لكتاب ذلك العصر وخطبائه ، وكانتا عكاز أهل ذلك الزمان ، كما اخبر ابن الأثير [٤] ، ولم تقف العناية بهما عند حد الشرح ، بل قاموا بالدفاع عن الحريرى وابن نباتة ، فهذا ابن برى يرد على ما استدركه ابن الخشاب على مقامات الحريرى ، فى كتاب سماه : اللباب فى الرد على ابن الخشاب الذى بين فيه غلط الحريرى فى المقامات ، وقد انتصر ابن برى للحريرى [٥] . وهذا أحمد بن ادريس القرافى يجيب عن الأسئلة الواردة على خطب ابن نباتة [٦] .

وكان لديوان المتنبى كذلك القدح المعلى من العناية بدراسة الدارسين يومئذ ، ووضع الشروح والحواشى والأمالى عليه . وقد استرعت العناية بالمتنبى أنظار ابن الأثير عند ما قدم إلى مصر سنة ٥٩٦ هـ ، قال : رأيت الناس مكبين على شعر أبى الطيب المتنبى دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، وقلت : إن كان لأن أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه ، وهو أبو النواس الحسن بن هانىء ، فلم يذكروا لى فى هذا شيئاً ، ثم إنى فاوضت عبد الرحيم البيسانى فى هذا ، فقال : إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ، ولقد صدق فيما قال [٧] . وكان المتنبى ينظر إليه فى ذلك العصر على أنه شاعر

---

(١) مخطوط بدار الكتب رقم ٧٤٣٧ ـ أدب .
(٢) بغية الوعاة ص ٢٤٩ . (٣) عيون الأنباء ٢ : ٢١١ .
(٤) الوشى المرقوم ص ٦ . (٥) وفيات الأعيان ١ : ٢٦٩
(٦) الديباج المذهب ص ٤٧ . (٧) الوشى المرقوم ص ١٠ .

عبقرى (١) . وكان للمتنبى أثره فى شعراء ذلك العصر ، ولعل للحروب الصليبية أثرها فى ذلك ، فكثير من شعره قيل فى الصدام بين المسلمين والروم .

وطفرت بعض القصائد المشهورة بشرح لبعض علماء هذا العصر ، ومن أهم تلك القصائد مقصورة ابن دريد ، وقصيدة (بانت سعاد) ، ولامية العرب ، وقصيدة ابن عبدون التاريخية التى أولها : الدهر يفجع بعد العين بالأثر ، ومضى شهاب الدين المقدسى إلى قصائد فى مدح الرسول شرحها وسمى شرحه : المقاصد السنية فى شرح القصائد النبوية (٢) . وهى القصيدة اللامية المشهورة بالشقراطيسية فى سير وأخبار النبى لأبى محمد عبد الله الشقراطيسى . وأول القصيدة :

الحمد لله منا باعث الرسل   هدى بأحمد منا أحمد السبل

وشرح هذه القصيدة هو الذى بدار الكتب . أما باقى القصائد المشروحة والتى ليست بدار الكتب ، فسبع قصائد لأبى الحسن السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . وهى : ذات الأصول فى مدح الرسول ، وذات الدرر فى معجزات سيد البشر ، وذات القبول فى مفاخر الرسول ، ومفرجة الغم فى مدح سيد الأمم ، ووداع الزائر للنبى الطاهر ، وشكوى الاشتياق إلى النبى الطاهر الأخلاق .

ومضت طائفة من العلماء تجمع أخبار الشعراء والكتاب ، وإن كان الشعراء فى ذلك أوفر حظا ، وترصد ما يتهيأ لها جمعه من آثارها ، أو ما يروق لها من تلك الآثار ، وقد اقتدوا فى ذلك بمن سبقهم من العلماء الذين جمعوا أخبار الأدباء ووضعوا طبقاتهم ، وقد اتجهت جهود علماء هذا العصر وجهات متنوعة : فمنهم من مضى إلى قطر بعينه يختار من شعره ، ويجمع أخبار شعرائه ، كما فعل ابن القطاع الصقلى فى كتابه : الجوهرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة ، التى اشتملت على مائة وسبعين شاعراً ، وعشرين ألف بيت من شعر شعراء جزيرة صقلية (٣) ، وهو خليق بأن يصور ولا ريب الحياة الأدبية لهذه الجزيرة ،

(١) Un poète arabe du IVe Siècle de l'Hegire P. 287.

(٢) مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤٧ ــ أدب .

(٣) معجم الأدباء ١٢ : ٢٨١ وسماها صاحب شذرات الذهب ٤ : ٤٥ الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة وصاحب الوفيات ١ : ٣٣٩ الدرة الخطيرة فى المختار من شعر شعراء الجزيرة ، وصاحب كشف الظنون ٢ : ٧٣٩ الدرة الخطيرة المختارة من شعر أهل الجزيرة .

تحت الحكم العربى ، وكتاب لمح الملح ، الذى جمع فيه خلقا كثيراً من شعراء الأندلس [١] ، وكما فعل أبو الخطاب عمر بن دحية فى كتاب المطرب من أشعار أهل المغرب [٢] وقد جمع فيه طائفة من أشعار الأندلسيين وأهل شمال أفريقية ، وقدمه إلى الملك الكامل بن العادل ، وعنى بأن تكون مختاراته سهلة دانية القطوف قريبة المعانى ، جرى فيها صاحبها على طريقة أهل الحديث ، الذين يسلسلون الرواية حتى يصلوا بها إلى صاحب النص ، وكما فعل عمارة اليمنى فى كتابه : المجموع فى ذكر شعراء اليمن ، ممن روى له عنه ورآه [٣] ، وقد اتخذه العماد مرجعاً من مراجعه فى كتابه : خريدة القصر ، فى قسم شعراء اليمن ، ومما نقله العماد عنه يبدو أن عمارة كان يتجاوز الحكم على أدب الشاعر إلى الحديث عن الشاعر نفسه ، من حيث خلقه ودينه [٤] ، فيصور الشاعر من نواحيه المختلفة ، مما يسمح بتفهم الشاعر ودراسته ، وكما فعل الرشيد بن الزبير فى كتابه : جنان الجنان وروضة الأذهان ، فقد اشتمل على شعر شعراء مصر ومن طرأ عليهم ، ويظهر أنه كان كتابا ضخما فى أربع مجلدات [٥] ، وقد فقد هذا الكتاب فيما فقد ، ولم يبق منه إلا ما نقله المؤرخون عنه ، وقد كان هذا الكتاب من بين المصادر التى أخذ عنها العماد فى كتابه : الخريدة ، فى القسم المصرى [٦] ، وصاحب الطالع السعيد [٧] ، ولست أدرى إن كان الرشيد عند ما ترجم لشعرائه قد التزم السجع ، فقد نقل عنه صاحب كتاب (المحمدون من الشعراء وأشعارهم) حكما على شاعر قال فيه : « كان عالى المحل فى النحو واللغة وسائر فنون الأدب ، منحطا فى الشعر إلى أدنى الرتب [٨] » وهى جملة مسجوعة لست أدرى إن كان قد سار فى كتابه على نسقها ، ملتزما السجع ، أو أن السجع جاء عرضا ، وإن كنت أرجح التزامه للسجع . وكما جمع ابن بشرون عثمان ابن عبد الرحيم كتابا ، ذكر فيه عدة من الشعراء والكتاب المصريين المعاصرين للمؤلف [٩] ، ودعاه : المختار فى النظم والنثر ، لأفاضل أهل العصر ، وكان هـــذا الكتاب كذلك ،

---

(١) وفيات الأعيان ١ : ٣٣٩ .

(٢) نشره صاحب هذه الرسالة مع زميلين

(٣) النكت العصرية س ٥٦٨ .

(٤) المرجع السابق س ٦٠١ و ٦٤٢ و ٦٤٣ .

(٥) معجم الأدباء : ٥٥ .

(٦) راجع ترجمة المهذب بن الزبير .

(٧) راجع الطالع السعيد س ١٤٥ .

(٨) المحمدون من الشعراء س ٥٩ .

(٩) خريدة القصر ٢ : ٤١ .

وهو مفقود الآن ، من مصادر العماد فى القسم المصرى من كتابه : الخريدة . بينما ذهب آخرون إلى جمع طائفة من الشعراء ، يجمعهم مذهب خاص ، كما فعل يحي بن حميدة حين جمع شعراء الشيعة فى معجم (١) ، أو يجمعهم اسم خاص ، كما فى كتابى على بن يوسف القفطى ، أحدهما أشعار اليزيديين (٢) ، جمع فيه شعر من اسمه يزيد ، وثانيهما المحمدون من الشعراء وأشعارهم (٣) . ترجم فيه لمن اسمه محمد ، ورتبهم على حسب حروف أسماء آبائهم الأبجدية ، ومنهجه أن يذكر الشاعر ، فيعرف به تعريفا يسيرا ، ويورد بعض شعره ، مقلا حينا ، ومكثرا نوعا حينا آخر ، ملتزما دائما جادة الإيجاز ، لا يعنيه قطر معين من أقطار البلاد العربية ، ولا زمن معين ، وقيمة هذا الكتاب أنه يورد لكثير من مقلى الشعراء غير النابهين ، ويتخير الوزير القفطى الشعر لمن يترجم لهم ، وكان القفطى من كبار المثقفين فى عصره ، ومن واسعى الاطلاع ، ومن أجل هذا كان كتابه ذا قيمة كبيرة ، لأنه نقل عن كتب قد فقدت .

ورأى ياقوت الحموى ألا يقف عند قطر بعينه ، أو عند عصر مخصوص ، فترجم للشعراء فى كتاب (٤) ، كما بقى لنا معجم أدبائه ، الذى يعد من أهم المراجع الأدبية التاريخيه إلى عصرنا هذا ، رتب فيه من ترجم له على حسب الحروف الأبجدية ، ومضى يسوق جملا صالحة من أخباره وآثاره فى التأليف ، ويورد نماذج من شعره ونثره ، وهو بما يورده من ذلك كله ، يلقى ضوءا على الشخصية التى يتحدث عنها ، نستطيع أن نستغله فى تفهمها ، وإدراك الجو الذى تنفس فيه أدب صاحبها وإنتاجه .

ووقف بعضهم عند شخصية واحدة ، يجمع ما استطاع من أخبارها ، ويروى ما شاء من أشعارها ، صنع ذلك عثمان البلطى ، وياقوت الحموى ، فى كتابيهما : أخبار المتنبى (٥) ، ولم أعثر على الكتابين ، وكذلك فعل ابن منظور فى كتابه عن أبى نواس (٦) ، ويظهر أن الذى دفعه

---

(١) الفاطميون فى مصر ص ٢٩٩ .

(٢) الطالع السعيد ص ٢٣٨ . (٣) مخطوط بدار الكتب رقم ٤٧٢٢ — أدب .

(٤) معجم الأدباء ١ : ٢٢ وكشف الظنون ٢ : ١٧٣٤ .

(٥) فوات الوفيات ٢ : ٣١ ووفيات الأعيان ٢ : ٢١٠ .

(٦) مخطوط بمكتبة الأزهر ٤١٩ — أباظة (٧٠١٥ — أدب) .

إلى تأليف هذا الكتاب هو إغفال الأصبهانى له فى كتاب الأغانى ، بدأ المؤلف كتابه بذكر اسمه ، وبشيء عن أبيه وأمه وجده ، يروى فى ذلك الروايات المختلفة ، ثم عرض لصفاته الخلقية ، وشيء من نشأته ، واتصاله بأستاذه : والبة بن الحباب ، وما مهر فيه من ألوان العلوم ، ومضى بعدئذ يروى أخبار أبى نواس ، لا يبالى فى سبيل جمعه أن يكون أدبه مكشوفا ، وينقل آراء الناس فى علمه ، وخلقه ، وشعره ، ويروى عيون شعره فى مختلف أغراضه ، ويذكر الظروف التى قيل فيها هذا الشعر ، وأكثر من حديث عشق أبى نواس ، وختم ترجمته بالحديث عن وفاته . وهو ينهج نهج صاحب الأغانى فى رواية الأخبار ، ولكنه لا يذكر أسانيدها كما يفعل الأصفهانى ، وليس ذلك بغريب على رجل اختصر الأغانى ، وحذف منه هذه الأسانيد الطويلة ، وكأن ابن مكرم بذلك يريد أن يكمل كتاب الأغانى .

وتابعوا فى هذا العصر جهود سابقيهم ، فقد بدأ هرون بن على المنجم المتوفى سنة ثمان وثمانين ومائتين ، فصنف كتابه : البارع فى أخبار الشعراء المولدين ، جمع فيه مائة وواحدا وستين شاعرا ، افتتحهم بذكر بشار بن برد ، واختصر فى هذا الكتاب أشعارهم ، وأثبت منها زبدتها ، وترك أهونها شأنا [١] ، ثم جاء الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، فوضع كتابه : يتيمة الدهر ، وجعله ذيلا لكتاب البارع ، وجمع فيه شعراء عصره ، ومن تقدمهم قليلا ، وقسم الكتاب أربعة أقسام ، فقسم لشعراء الشام والموصل والمغرب ، وثان لأشعار أهل العراق والدولة الديلمية ، وثالث لأشعار أهل فارس وما جاورها ، ورابع لأشعار أهل خراسان [٢] ، ومن بعد الثعالبى وضع على بن الحسن الباخرزى ، المتوفى سنة ٤٦٧ هـ ، كتاب دمية القصر وعصرة أهل العصر ، ذيل به يتيمة الدهر ، وجمع فيه خلقا كثيرا ، ووضع البيهقى على هذا الكتاب كتابا ، سماه : وشاح الدمية ، جعله كالذيل لهذا الكتاب [٣] ، ثم جاء أبو المعالى سعد بن على الوراق الحظيرى ، المتوفى ببغداد سنة ٥٦٨ هـ ، فوضع ذيلا على دمية القصر ، سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر ، ذكر فيه

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ١٩٠ .
(٢) يتيمة الدهر — ١ : ٧ .
(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٦٠ .

جماعة كثيرة من أهل عصره ، ومن تقدمهم ، وأورد لكل واحد طرفا من أحواله ، وشيئا من شعره ، وذكر ألطاف شعر عصره [١] ، وصنف العماد الكاتب أحد أعلام عصر الحروب الصليبية ، والمتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ ، ذيلا على كتاب زينة الدهر ، ذكر فيه الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة ، إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجمع شعراء العراق ، والعجم ، والشام ، والجزيرة ، ومصر ، والمغرب ، ولم يترك أحدا إلا النادر ، ولا يزال هذا الكتاب مرجعا قيما إلى عصرنا هذا ، ووضع العماد كذلك على كتابه : خريدة القصر ذيلا ، سماه : السيل على الذيل ، رآه ابن خلكان [٢] ، ولم يجىء بعد العماد فى عصر الحروب الصليبية من قام بتذييل كتابه . وكتاب خريدة القصر للعماد عظيم القيمة ، فقد نقل من دواوين مفقودة ، ومن كتب لم يبق لنا منها سوى أسمائها ، وإن كان اختياره بعض أبيات النص دون بعض ، لا يعطى فكرة سليمة عن فن الشاعر .

والواقع أن كتاب يتيمة الدهر قد فتن كثيرا من الناس فى هذا العصر فتن العماد الكاتب كما رأينا ، وفتن أسامة بن منقذ ، فوضع له ذيلا ، ولست أدرى النهج الذى سار عليه أسامة أخص اختياره بشعراء مصر والشام ، أو جرى على نهج صاحب اليتيمة ؟ . كما رمى صاحب كتاب جنان الجنان ، أن يجعل مؤلفه ذيلا ليتيمة الدهر ، وخصه بشعراء مصر .

وكما تابعوا جهود سابقيهم فى الترجمة للشعراء المعاصرين ، وتخير مايروقهم من شعرهم ، اقتدوا بهم فى ترتيب الشعراء طبقات ، فوضع الملك المنصور محمد بن المظفر عمر كتاب طبقات الشعراء ، فى عشرة مجلدات [٤] ؛ ووضع ابن القطاع كتاب « الملح العصرية فى طبقات الشعراء [٥] ، والكتابان مفقودان ، وقد يكون تقسيمهما الشعراء إلى طبقات قد تبعا فيه منهج ابن سلام فى كتابه : طبقات الشعراء ، إذ قسم الشعراء على حسب جودة شعرهم وغزارته ، وقد يكون فى عنوان (الملح العصرية) لابن القطاع ما يوحى بأنه يضع طبقات لشعراء عصره .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٠٣
(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٧٥
(٣) معجم الأدباء ٥ : ٢٠٨
(٤) فوات الوفيات ٢ : ٢٥٢
(٥) كشف الظنون ٢ : ١١٠٣

أما نقد الأدب فى ذلك العصر ، فقد تحدثنا فى فصل مطول عقدناه للبلاغة والنقد الأدبى فى كتاب الحياة العقلية ، عن اتجاهات دراسة البلاغة ، وعن جهود علمائها فى تلك السبيل ، وعلوم البلاغة كانت كما هى اليوم إحدى دعائم النقد ، وكبريات أسسه ، وأريد أن أبرز هنا أن كتبا فى النقد قد اتجه بها مؤلفوها يومئذ إلى نقد معاصريهم ، كما فعل على بن اسماعيل بن جبارة المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٢ ه‍ ، فقد وضع كتابا سماه : نظم الدر فى نقد الشعر ، قصره على مؤاخذات ابن سناء الملك ، قال صاحب كشف الظنون (١) : وأجاد فى بعضها ، وتعنت تعنتا زائدا فى بعضها ، وكما فعل من قبله الأسعد بن مماتى ، المتوفى سنة ٦٠٦ ه‍ ، فى كتابه : قرقرة الدجاج فى ألفاظ ابن الحجاج (٢) ، فقد كان علم الدين بن الحجاج شريك ابن مماتى فى ديوان الجيش ، وكان بينهما نبوة ، فألف فيه هذا الكتاب وهجاه (٣) ، وأغلب الظن — مادام ذلك هو الهدف — أن ابن مماتى كان متحاملا فى هذا الكتاب على شريكه . ومن هذا الاتجاه الذى ينحو إلى نقد المعاصرين ، تلك الرسالة التى كتبها القاسم بن القاسم الواسطى فيما أخذ على ابن النابلسى الشاعر ، فى قصيدة نظمها فى الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، ويظهر مما حفظ لنا من هذه الرسالة (٤) ، أنه كان يقصد بها إلى الطعن أكثر مما يقصد إلى إظهار وجه الحق ، وأنها نعى على حظ كاتبها ، وغضب من أن ينال هذا الشاعر أكثر مما يستحقه من الجاه والثراء ، تلمس هذا الغضب فى قوله : وبعد فإنه لما أخرت الفضائل عن الرذائل ، وقدمت الأواخر على الأوائل ، ونبذ عهد القدماء ، وجهل قدر العلماء ، وصار عطاء الأموال باعتبار الأحوال ، لا باختيار الأقوال ، وظهر عظيم الإجلال ، بالأسماء لا بالأفعال ، علمت أن الأقدار هى التى تعطى وتمنع ، وتخفض وترفع ، فأخملت عند ذلك من ذكرى وقدرى ، وأخفيت من نظمى ونثرى ، ولأمر ما جدع قصير أنفه ، ومن شعر فقه .

وما إلى العلياء ذنب علمته ولا أنا عن كسب المحامد باعد

وقلت : اصبر على كيد الزمان وكده ، فعسى الله أن يأتى بالفتح ، أو أمر من عنده .. »

---

(١) ٢ : ١٩٦١ .

(٢) معجم الأدباء ٦ : ١١٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١١٨ .

(٤) معجم الأدباء ١٦ : ٢٩٧ .

أما أن رغبته فى الهدم كانت أظهر من رغبته فى الإنصاف فيظهر من قوله : فلو كان النابلى كابن هانىء الأندلسى ، لزلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، فيا لله العجب متى أشرفت الظلمة على الضياء ، أو علت الأرض على السماء ، وأين السها من القمر ، وكيف يضاهى الغمر ، بالغمر ، فإنا لله ، وأفوض أمرى إلى الله . . . . وما ذلك التيه والصلف ، والتجاوز للحد والسرف ... ولا والله ليس الأمر كما زعم ، ولا الشعر كما نظم ... وقصدت قصيدا من شعره ، يزعم أنها من قلائد دره ، قد هذبها فى عدة سنين ، ومدح بها أمير المؤمنين . . .

فكان لعمرى ناظما ، غير أنه   كحاطب ليـــل فاته منه طائل
فواعجبا ! كم يدعى الفضل ناقص   ووا أسفا ! كم يظهر النقص فاضل

وتتبعت ما فيها من غلطاته ، وأظهرت ما خفى فيها من سقطاته ، وليست له جلد النمر ، واندفقت عليه كالسيل المنهمر . . . » وبدأ بعدئذ فى الحديث عن أخطائه فقال : فوجدته قد اخطأ منها فى واحد وعشرين مكانا ، عدم فيها تمكنا من العلم وإمكانا ، فمنها ستة عشر موضعا توضحها الكتابة والنظر ، ومنها خمسة توضحها المجادلة والنظر . . . وخطؤه فى هذه القصيدة ينقسم قسمين : قسم فاته فيه أدب الدرس ، فيقسم أيضا قسمين : قسم لفظى ، وقسم معنوى ، فأما القسم اللفظى فإنه ينقسم أيضا قسمين : قسم لغوى ، وقسم صناعى ، فأما القسم اللغوى فإنه [1] . . . وإلى هنا ينتهى ما ورد من هذه الرسالة ، وكنا نرجو أن لو وردت بتمامها ، لنرى نموذجا من نماذج النقد التفصيلى الجزئى ، فى تلك العصور .

وحينا يتجه النقد إلى الآثار القديمة ، كما فعل مهذب الدين الخيمى فى كتاب ، رد به على المعرى فى مواضع سها فيها [2] ، والكمال بن العديم فى كتابه : رفع الظلم والتجرى ، عن أبى العلاء المعرى [3] .

واتجه بعضهم إلى النقد بعامة ، يؤلف فى أصوله ، كما وضع الأسعد بن مماتى كتابا فى علم

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٣ .   (٢) بغية الوعاة ص ٧٩ .
(٣) فوات الوفيات ٢ : ١٠١ .

النثر ، وآخر فى النقد ، دعاه : ميسور النقد [١] ، وكتب فى نقد الشعر [٢] أبو عبد الله محمد ابن يوسف الكفرطابى ، المتوفى سنة ٥٠٣ هـ ، وشرح عبد اللطيف البغدادى كتاب نقد الشعر لقدامة ، وسمى مؤلفه : كشف الظلامة عن قدامة [٣] ، مما يدل على أن حركة دارت حول أفكار هذا الكتاب ، فانتصر لها بعض الدارسين ، ولم يرض بها آخرون .

ويدل على هذه الحركة التى أثارها ذلك الكتاب ، أن عبد العظيم بن أبى الإصبع ، أحد بلاغيى هذا العصر ، وضع كتابا ، سماه : الميزان بين كلام قدامة وكلام خصومه [٤] .

ورأى بعض علماء ذلك العصر أن يذلل صعاب ما انتهى إليهم من كتب الأقدمين ، فعمد إليها ، فاختصرها وكان لكتاب الأغانى الحظ الأوفى من ذلك ، فقام باختصاره جماعة فى هذا العصر ، وبقى لنا مختصران لهذا الكتاب أحدهما تجريد الأغانى من ذكر المثالث والمثانى ، لابن واصل الحموى [٥] والآخر مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى ، لجمال الدين بن مكرم [٦] ، وفى المقدمة التى قدم بها ابن واصل لكتابه تجريد الأغانى يبدو منهجه الذى انتهجه فى اختصار الأغانى ، فقد رأى أن صاحبه ، قد شانه بذكر الأصوات وما احتوت عليه من أنواع النغم والإيقاعات ، مما لا فائدة فى ذكره إذ كان المباشرون لهذه الصناعة فى زمننا هذا إنما يعرفونها عملا لا علما ، وغيرهم فلا ينتفعون بشىء مما ذكر ، ولا يحيطون به فهما ، فخرج أمره المطاع بأن تجرد من ذلك كله ، ومن الأسانيد والتكرارات ، ومالا فائدة فى ذكره : من الأخبار والأشعار المشتركات ، ويقتصر على غرر فوائده ، ودرر فرائده ، فبادر المملوك إلى امتثال مرسومه العالى وأضاف إليه فوائد أخر ، تتعلق به ، وشرح بعض المستغلق من ألفاظه [٧] . ذلك منهج ابن واصل فى اختصاره لكتاب الأغانى ، وعليه جرى ابن مكرم فى كتابه .

وكان لكتاب الذخيرة فى شعراء الجزيرة يريد شعراء الأندلس لابن بسام نصيب من

---

(١) معجم الأدباء ٦ : ١١٧ و ١١٨ .
(٢) كشف الظنون ٢ : ١٩٧٣ .
(٣) عيون الأنباء ٢ : ٢١١ .
(٤) الحياة العقلية ص ٢٥٠ .
(٥) مصور بدار الكتب رقم ٥٠٧ ـ أدب .
(٦) مصور بدار الكتب رقم ٦ : ٤٦ ـ أدب .
(٧) تجريد الأغانى ١ : ٢ .

ذلك أيضاً، اختصره ابن مكرم [١]، وعلى بن ظافر، وسمى كتابه: نفائس الذخيرة [٢]، والاسعد بن مماتى ودعا مختصره لطائف الذخيرة [٢]. ومن الكتب التى اختصرت فى ذلك العصر كتاب العقد الفريد، لابن عبد ربه، وزهر الآداب، للحصرى، ويتيمة الدهر للثعالبى وكتابا نشوا المحاضرة، وصفوة الصفوة، قام باختصار هذه الكتب جميعها محمد بن مكرم صاحب لسان العرب [٤]، واختصر شهاب الدين الخوبى كتاب مجمع الامثال [٥] للميدانى، وابن سناء الملك كتاب الحيوان للجاحظ [٦]، ودعا مختصره: روح الحيوان، وقد شجعه القاضى الفاضل على هذا الاختصار، وكان يرى فيه تقريبا للأدب لراغبيه [٧]، واختصر عبد اللطيف البغدادى كتاب العمدة لابن رشيق [٨]، واتجاه العلماء إلى اختصار هذه الآثار اعتراف منهم بقيمتها الأدبية، وبأنه قد اعترض تأليفها ما يحول دون الانتفاع الكامل بها ولتذليل الاستفادة أيضا نظم الأسعد بن مماتى كتاب كليلة ودمنة [٩]، ولم يصل إلينا.

ومن أهم الأعمال الأدبية التى تمت فى هذا العصر نقل الشاهنامة أى سفر الملوك وقد كتبها الفردوسى الشاعر الفارسى، باللغة الفارسية سنة ٤٠٠ هـ، وبذل فى سبيل إخراجه جهوداً مضنية استمرت سنوات طوالا، فقد كتبه فى ستين ألف بيت، وتضمن « معظم أساطير البطولة التى تروى عن القدامى، من ملوك فارس فى العصور الأولى... والشاهنامة يمتاز بكبر حجمه، وغزارة مادته، وبتلك الروح الحماسية التى تشع من جوانبه، وتجعله بحق سفراً جامعا لقصة البطولة الايرانية، سواء ما كان منها خياليا أسطوريا، وما كان تاريخيا واقعيا، ولذا يعد من الأشعار القصصية الخالدة، ويحشر فى زمرة الالياذة والأودسى من نظم هوميروس، أشهر شعراء قدامى الاغريق [١٠].

نقل هذا الكتاب القيم الضخم إلى العربية الفتح بن على البندارى الأصبهانى، فى لغة نثرية، للملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب، فكان عملا من أجل الأعمال وأخلدها

(١) بغية الوعاة س ١٠٦.
(٢) كشف الظنون ٢ : ١٣٦٥.
(٣) معجم الأدباء ٦ : ١١٧.
(٤) بغية الوعاة ١٠٦، ونكت الهميان ص ٢٧٦.
(٥) كشف الظنون ٢ : ١٥٩٨.
(٦) وفيات الأعيان ٢ : ١٨٨.
(٧) راجع فصوص الفصول.
(٨) عيون الأنباء ٢ : ٢١١.
(٩) حسن المحاضرة ١ : ٢٧٠.
(١٠) قصة الأدب الفارسى س ٢١٨ و ٢١٩.

وهذه الترجمة هى التى صححها ، وعلق عليها ، ونشرها الدكتور عبد الوهاب عزام[١]

وكان بعض الأدباء فى ذلك العصر يعرف اللغة الفارسية ، نذكر منهم اثنين من كبار الأدباء ، هما العماد الكاتب ، وابن سناء الملك ، ولعل الاكثار من وزن الدوبيت فى ذلك العصر كان أثر هذه المعرفة باللغة الفارسية ، بل إن ابن سناء الملك تأثر فى موشحاته التى نظمها بمذهب الفرس ، فاتفق معهم حينا وخالفهم حينا ، كما اعترف بذلك فى كتابه : فصوص الفصول .

(١) راجع مقدمة الشاهنامه .

القسم الثانى

الادب

ندرس فى هذا القسم ألوان النتاج الأدبى شعره ونثره ، ونقف وقفات قصيرة عند أشهر رجاله وآثارهم الأدبية .

الباب الأول

الشعر

— ١ —

فنـــونه

غزر إنتاج الشعر فى عصر الحروب الصليبية وكثر قائلوه ، وإذا كان قد ضاع كثير منه فقد بقى كثير محفوظ فى مجموعات قد اختيرت من شعراء العصر — كما رأينا — وفى دواوين بقى بعضها ، وفى هذا القدر الكبير المنتثر فى المراجع المختلفة ، وأغلب هذا الشعر لا يزال مخطوطاً أو مصوراً ينتظر من يجمعه ويحققه .

وإذا كان الشعراء قد نهجوا فى شعرهم منهج أسلافهم ، واقتدوا بهم فى الاتجاهات التى اختطها الشعر العربى منذ عصوره الأولى ، فإن الأحداث الجارية فى العصر ، والحياة الاجتماعية التى سادت فيه ، كان لها أثرها فى الشعر فلونته بلون العصر ، ورسمته بميسمه ، ومن أجل هذا يجب أن نتبين الاتجاهات المختلفة للشعر فى هذا العصر ، لنرى الخصائص التى تميز شعر هذا العصر من بين عصور الشعر العربى كله .

السياسة :

وأول ما نلحظ فى هذا الشعر تأثره بالأحداث السياسية الجارية فى عصره ، فكانت روحه متأثرة بها حينا ، ومسجلة لوقائعها حينا آخر ، وملونة لمعانيه بألوانها .

فإنك تكاد تلمس فى الشعر مركز الوزير المصرى القلق ، فى آخر عصر الدولة الفاطمية ، فقد كان الوزير يومئذ يتربص به أعداؤه حوادث الزمن ، ليغتصبوا سلطانه ، ويسلبوا منصبه ، بينما يستخدم الوزير كل ما فى يده من قوة للفتك بأعدائه وإبادتهم ، وهى ظاهرة تخلقها الفردية فى الحكم ، والشعر ناطق بهذه الخصومة القوية بين الوزراء القابضين على زمام السلطان ، وبين الطامعين فيهم والمنافسين لهم ، كما ترى ذلك فى شعر القاضى الفاضل ، حين يمدح بعض وزراء هذه الدولة ، كقوله :

سيقت رءوس أعاديكم بأرجلهم ... مقرب حتفها التقريب والخبب
وما أسدتم على أعداء دولتكم ... هذا التأسد إلا بعد ما كلبوا
بلغتموهم منا هم فى ترفعهم ... والقوم ما ارتفعوا إلا إذا صلبوا
لا يرقبوا فيك أن تنتاب نائبة ... فإن مجدك من أنصاره النوب
لا يحسبوا الملك أمراً أنت كاسبه ... فالملك أمر بأمر الله مكتسب
فليسله كل مغرور ، فليس له ... برغمهم ، فى سوى أربابه أرب(١)

وهذه صورة تدل على منتهى القسوة التى كان يلجأ إليها الوزراء للاحتفاظ بكراسيهم ، والمنافسون لهم ، كى يظفروا بهذه الكراسى .

وألقى الخلاف بين خلفاء الفاطميين ووزرائهم ظلا على الشعر ، فهذا على بن عباد ، وهو شاعر ممتاز ، كان يمدح الوزير أبا على بن الأفضل ، الذى كان مستبدا بالسلطان ، منتزعا لكل السيطرة من الخليفة الفاطمى ، وبلغ من استبداده أن اعتقل الخليفة الحافظ ، فقال الشاعر قصيدة يهنىء بها الوزير ، ويهجو الحافظ ، وفيها يقول :

تبسم الدهر ، لكن بعد تعبيس ... وقوض الدهر ، لكن بعد تعريس

(١) ديوان القاضى الفاضل ص ٤٦ .

إذا دعونا بأن تبق لأنفسنا ... دعاءنا ، فابق يابن السادة السوس
وقد أعاد إليـــه الله خاتمه ... فاسترجع الملك من صخر بن إبليس (١)

ومنها :

... ... ولا ترضون عن نحس المناجيس (٢)

وفى هذه الفتنة التى قتل فيها الخليفة الظافر ، بيد نصر بن عباس الوزير ، يلعب الشعر دوراً فى ذلك الحادث ، فابن أبى أسعد ينعى على نصر سوء فعله ، ويقول :

وأنفق من إنعامهم فى هلاكهم ... وأظهر ما قد كان عنـــه ينافق
ومد يدا قد طولوهـــا إليهم ... وحلت بأهل القصر منه البوائق
سق ربه كأس المنايا . وما انقضى ... له الشهر إلا وهو للكأس ذائق (٣)

و[illegible] الحباب يكتب إلى طلائع بن رزيك ، قصيدة يستنجد به فيها ، على عباس وابنه نصر ، وأولها :

دهتنى عن نظم القريض عوادى ... وشف فؤادى شجوه المتمادى
وأرق عينى ، والعيون هواجع ... هموم اقضت مضجعى ووسادى
بمصرع أبناء الوصى ، وعترة النبى ... وآل الذاريات وصاد

فأين بنو رزيك عنهم ، ونصرهم ... وما لهم : من منعة ، وذياد
أولئك أنصار الهدى ، وبنو الردى ... وسم العدا ، من حاضرين وباد
لقد هد ركن الدين ليلة قتلـه ... بخير دليل للنجاة وهاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره ... حشاشة نفس آذنت بنفاد

---

(١) هو اسم الجن الذى أخذ الخاتم من سليمان بن داود « تفسير الجـلالين ٢/١٣٨ » ، والشاعر يوازن بين الوزير وسليمان .

(٢) الجريدة ورقة ١٩٨ ، وقد استطاع الحافظ أن يتمكن من الوزير ويقتله ، ويقتل كل من له صله به ، ومنهم هذا الشاعر ، لهذه القصيدة ، والقاضى ابن ميسر ، لأنه كان حاضراً إنشاد هذه القصيدة فقام طرباً لهذا البيت « راجع ابن ميسر ص ٨١ » .

(٣) الروضتين جـ ١ ص ٩٨ .

وقد كاد أن يطفى تألق نوره على الحق عاد من بقية عاد
فلو عاينت عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد (١)

ويمدح عمارة اليمنى آل رزيك، الذين قضوا على آل عباس، فيقول من قصيدة :

لكم يا بنى رزيك، لا زال ظلكم مواطن سحب الموت فيها مواطر
سللتم على عباس بيض صوارم قهرتم بها سلطانه، وهو قاهر (٢)

وقال ابن ميسر : دخل الشعراء على الصالح، وهنئوه بالوزارة، بعد حادث قتل نصر للخليفة، وهربه هو وأبيه عباس، وذكروا هذه الحالة والواقعة، وكانوا جماعة منهم أبو على عبد الرحيم بن على البيسانى، والقاضى الأجل الرشيد أحمد بن الزبير، والقاضى الجليل عبد الجليل بن الحسين بن الحباب، والقاضى السعيد جلال الملك أبو الحسن على ابن الأشرف، وأبو محمد يحي بن خير الشاعر، المسمى ديك الكرم (٣).

وكان للأحداث السياسية التى جرت فى أواخر الدولة الفاطمية، حين ولى الوزارة شاور السعدى، صداها فى الشعر يومئذ فهو وزير يريد أن ينفرد بالسلطان فى الدولة، استعان بنور الدين محمود، كى يعيده إلى منصبه، الذى سلبه منه منافسه ضرغام، وما إن استعاد منصبه حتى قلب لمساعده ظهر المجن، وحرك الفرنج، مستعينا بهم على التخلص منه، وانتهى أمره بقتله، وتولى أسد الدين شيركوه وزارة مصر للعاضد، فقال عمارة يتحدث عن وزارتى شاور :

ونزعت ملكك من رجال نازعوا فيه، وكنت به أحق، وأقعدا
جذبوا رداءك غاصبين، فلم تزل حتى كسوت القوم أردية الردى
وبردت قلبك من حرارة حرقة أمرت نسيم الليل ألا يبردا
تاريخ دين نلته فى مثـــله يوما بيوم، عبرة لمن اهتدى

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٩٢.
(٢) الروضتين جـ ١ ص ٩٧.
(٣) تاريخ مصر لابن ميسر جـ٢ص ٩٥

حملت به الأيام تسعة أشهر[1] حتى جعلن له جمادى مولدا[2]

وقال أيضاً :

كانت وزارتك القديمة مشرعا صفوا ، ولكن كدرت غدرانها
غصبت رجال تاجه وسريره من بعد ما سجدت له تيجانها
قد كان أودع فى الرقاب صنائعا كفرت بها ، فأبادها كفرانها[3]

وقال أيضاً :

فنصرت فى الأولى برعب زلزل الأقدام وهى شديدة الإقدام
ونصرت فى الأخرى بضرب صادق أضحى يطير به غراب الهام
أدركت ثأراً ، وارتجعت وزارة نزعاً بسيفك من يدى ضرغام[4]

وقال القاضى الفاضل من قصيدة طويلة[5] ، يصف فيها عودة أسد الدين شيركوه ، بعد أن أقبل الفرنج إلى مصر ، ينصرون شاور :

تلقى العدا بالعدا ، حدث به عجبا أن الهدى خدمت فى نصره الصلب[6]

وقال فى ذلك عمارة :

وأنقذت من مصر عدواً بمثله فلله من ظفر فللت وناب
صدمت جموع الكفر والشام صدمة أقمت بها للقوم سوق ضراب[7]

فلما قتل شاور أقبل بعض الشعراء يهجو شاور ، ويصفه بالغدر والخداع ، وممالأة الفرنج أعداء البلاد ، فقال العرقلة يمدح صلاح الدين ، ويهجو شاور :

هو الأسد الضارى الذى جل خطبه وشاور كلب للرجال عقور
بغى ، وطغى ، حتى لقد قال قائل : على مثلها كان اللعين يدور
فلا رحم الرحمن تربة قبره ولا زال فيها منكر ونكير[8]

---

(١) كانت مدة أخذ الوزارة من شاور الى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء . الروضتين ج ١ ص ١٣١ .
(٢) النكت العصرية ص ٨١ . (٣) النكت العصرية ص ٨٤ .
(٤) النكت العصرية ص ٨٩ . (٥) ديوان القاضى الفاضل ص ٤٦ .
(٦) الروضتين ج ١ ص ١٣٢ . (٧) المرجع السابق ص ١٥٧ .

وقال أسامة بن منقذ فى صلاح الدين :

أقمت عمـــود الدين حين أماله ... لطاغى الفرنج الغتم طاغى بنى سعد[١]
وجاهدت حزب الكفر، حتى رددتهم ... خزايا، عليهم خيبة الذل والرد[٢]

ورحب الشعر بشيركوه وزيراً فى مصر، فالعماد الكاتب يرى فى هذه الوزارة بشيراً بالنصر على الفرنج، واسترداد بيت المقدس، وهذه نظرة صائبة للعماد، فإن اجتماع الكلمة وتوحيد البلاد تحت سلطان حاكم واحد كفيل بالنصر، واسترداد الوطن المغتصب. أنفذ العماد قصيدة طويلة يهنىء بها أسد الدين، وأولها:

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جنيت من دوحة التعب
فتحت مصر، وأرجو أن تصير بها ... ميسراً فتح بيت القدس عن كثب
لقد رفعنا إلى الرحمن أيدينا ... فى شكرنا ما به الإسلام منك حبى
شكا إليك بنو الاسلام يتمهم ... فقمت فيهم مقام الوالد الحدب
فى كل دار من الافرنج نادبة ... بما دهاهم، فقد باتوا على ندب
من شر شاور أنقذت العباد، فكم ... وكم قضيت لحـــزب الله من أرب
هو الذى أطمع الافرنج فى بلد الاســـــلام، حتى سعوا للقصد والطلب
وإن ذلك عنــــد الله محتسب ... فى الحشر من أفضل الطاعات والقرب[٣]

وكان من أهم الأحداث السياسية يومئذ سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر وعودة مصر إلى أحضان الخلافة العباسية، وكان نور الدين محمود يتطلع إلى ذلك فى شوق ولهفة، يدل على ذلك ما قاله العماد لشيركوه فى هذه القصيدة السالفة:

رد الخلافة عباسية، ودع الد ... عى فيها يصادف شر منقلب
« لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها » ... فالحزم عندى قطع الرأس كالذنب

فلما سقطت الخلافة الفاطمية أنشأ العماد قصيدة، يهنىء فيها نور الدين وخلفاء بغداد العباسيين، ومنها :

(١) هو شاور الذى ينتهى نسبة بسعد بن بكر بن هوازن، وكان وزيراً للعاضد الفاطمى.
(٢) الروضتين ج ١ ص ١٥٦ .
(٣) الروضتين ج ١ ص ١٥٩ .

قد خطبنا للمستضيء بمصر نائب المصطفى إمام العصر
وخذلنا لنصرة العضد[١] العاضـــد ، والقاصر الذى بالقصر
وأشعنا بها شعار بنى العبا س ، فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعى يدعو ثبورا وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشمى ، فى أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم اللـــه ، وجلت عن كل عد وحصر
فاغتدى الدين ثابت الركن فى مصـــر ، محوط الحمى مصون الثغر
واستنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الكريم الأغر
عرف الحق أهل مصر وكانوا قبله بين منكر ومقر
والذى يدعى الامامة بالقـــاهرة انحط فى حضيض القهر
ما يقام الامام إلا بحـــق ما تحاز الحسناء إلا بمهر
خلفاء الهدى سراة بنى العبا س ، والطيبون أهل الطهر
بهم الدين ظافر ، مستقيم ظاهر قوة ، قوى الظهر[٢]

حتى إذا توفى العاضد مضى العماد شامتا بالدولة المنقرضة ، فرحا بتوحيد البلاد تحت راية الخلافة العباسية ، قائلا :

توفى العاضد الدعى ، فما يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى ، وغدا يوسفها فى الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة ، وقد باخ من الشرك كل ما اضطرما
وبات داعى التوحيد منتصراً ومن دعاة الاشراك منتقما
وعاد بالمستضىء ممتهـــدا بناء حق قد كان منهدما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا فليقرع الكفر سنه ندما[٣]

وظل الشعراء الموالون للأيوبيين يذمون رجال الدولة الفاطمية وعهدها ، وقد يرد

---

(١) أراد بالعضد وزير بغداد عضـد الدين بن رئيس الرؤساء ، قال العماد فى الخريدة : قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ، ونصرة وزير الخليفة كنصرته .

(٢) الروضتين ج ١ ص ١٩٨ . (٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

عليهم من ظل على الوفاء للفاطميين ، ومن ذلك أن الأحدب بن أبى حصينة أنشد بين يدى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين أبياتاً ، يهنئه فيها بسكنى اللؤلؤة أحد قصور الفاطميين ، ويقول :

يا مالك الأرض ، لا أرضى له طرفا ... منها ، وما كان منها لم يكن طرفا
قد عجل الله هذى الدار تسكنها ... وقد أعد لك الجنات والغرفا
تشرفت بك عمن كان يسكنها ... فالبس بها العز ، ولتلبس بك الشرفا
كانوا بها صدفاً ، والدار لؤلؤة ... وأنت لؤلؤة صارت لها صدفا(١)

فانبرى له عمارة اليمنى يرد عليه ، قائلا :

أنت ، يا من هجا السادات والخلفا ... وقلت ما قلته فى ثلبهم سخفا
جعلتهم صدفا ، حلوا بلؤلؤة ... والعرف مازال سكنى اللؤلؤ الصدفا
وإنما هى دار ، حل جوهرهم ... فيها ، وشف ، فأسفاها الذى وصفا
فقال : لؤلؤة ، عجبا ببهجتها ... وكونها حوت الأشراف والشرفا
فهى بسكانها الآيات إذ سكنوا ... فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
والجوهر الفرد نور ، ليس يعرفه ... من البرية إلا كل من عرفا
لولا تجسمه فيهم لكان على ... ضعف البصائر للأبصار مختطفا
فالكلب ، ياكلب ، أسنى منك معرفة ... لأن فيه حفاظا دائما ، ووفا (٢)

ويطول بى القول إذا أنا مضيت فى وصف ما كان للاحداث السياسية من أثر فى الشعر فهو بين محرض على تغيير حالة سياسية ، أو مسجل لما حدث من تغير ، أو ناقد ، أو مهنىء

الحياة الاجتماعية :

وكما كان للأحداث السياسية صداها فى شعر ذلك العصر كان للحياة الاجتماعبة صداها كذلك ، فهذه الأعياد الفاطمية والاحتفالات التى يملؤها العظمة والجلال ، كان للشعر نصيبه الموفور فيها ، وكان له مكان غير مغمور ، وقد قدمنا نموذجا لما قيل فى احتفال بوفاء النيل

---

(١) مختار من شعر عمارة ص ٢٩٣ (٢) مختار من شعر عمارة ص ٢٩٢ .

وهذا جزء من قصيدة أنشأها عمارة يهنىء بها الخليفة العاضد ، عند ما وفى النيل ، فقال :

شرفت أمير المؤمنين مواسم ... أضحت تؤرخ باسمكم وتسطر
قسمت كما قسم الزمان ، لحاضر ... لم ينصرم ، ومقدم ، ومؤخر
وأجلها يوم الخليج ، فإنه ... من بينها يوم أغر مشهر
يوم خلعت عليه ليل عجاجة ... شهب الأسنة فى دجاها تزهر
يوم كأن الجيش تحت قتامه ... سر بأثناء الجوانح مضمر
وافاك فيه النيل ، وهو من الحيا ... خجل ، يقدم رجله ، ويؤخر
شتان بينكما : أبحر واحد ... كيد أناملها الكريمة أبحر
فتمل موسمه وعمراً خالداً ... تمضى لياليه ، وأنت معمر (١)

وقال من قصيدة يصف فيها خروج الخليفة العاضد إلى صلاة العيد ، ويثنى على قوة خطابته :

لما برزت غداة فطرك خاشعا ... وشعارك التكبير والتحميد
وعليك من شيم النبي وحيدر ... للناظرين أدلة وشهود
شخصت إليك نواظر الأمم التى ... ملكتهم لك بيعة وعهود
حتى صعدت على ذؤابة منبر ... لو كان عود إياد ذاك العود
بشرت ، بل أنذرت بالحكم التى ... فيهن وعد صادق ، ووعيد
ليفت قاسية القلوب بخطبة ... أصغى إليها المجمع المشهود
لا منكر أن تستكين جوارح ... لسماعها أو تقشعر جلود
والوحى ينطق عن لسانك بالذى ... من دونه يصدع الجلمود (٢)

وسجل الشعر ما أغرم به أهل مصر من محبة التنجيم فى ذلك العصر ، وتلك ظاهرة استرعت نظر أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى ، عند ما ورد إلى مصر فى عهد الخليفة الآمر الفاطمى ، فأثبت فى رسالته المصرية أن المصريين أكثر الناس استعمالا لأحكام

---

(١) مختار من شعر عمارة ٢٢٣ . (٢) المرجع السابق ص ١٩٨ .

النجوم ، وتصديقا لها ، وتعويلا عليها ، وشغفاً بها ، وسكونا إليها ، حتى إنه قد بلغ من زيادة أمرهم فى ذلك إلى ألا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التى لا تحصر فنونها ، ولا تحصل أجزاؤها وأنحاؤها ، ولا تضبط جهاتها ، ولا تقيد غاياتها ، ولا تعد ضروبها ، إلا فى طوالع يختارونها ، ونصب يعتمدونها .

ولقد شهدت يوما رجلا من الوقادين فى أتون الحمام يسأل رزق الله(١) . . . . عن ساعة حميدة لقص أظفاره ، فتعجبت من سمو همته ، على خساسة قدره ووضاعة مهنته (٢) .

هذا الولوع بأمر النجوم هو الذى أوحى إلى عمارة اليمنى أحد شعراء هذا العصر أن يمدح شاور وزير العاضد بقوله :

وأرى قرانات الكواكب لم تكن ... إلا وأثر فى عداك قرانها
وإذا رميت معانداً بمكيدة ... وأردت أن يجنى عليه زمانها
هبت عليه من الرياح دبورها ... ومن الكواكب طالعا دبرانها(٣)

ويمدح ابن سناء الملك صلاح الدين ، ويهنئه بالسلامة من اقتران الكواكب بقوله :

سعودك ردت ما ادعاه المنجم ... وقد كذبته فى الذى كان يزعم
وقد قيل: أحكام النجوم على الورى ... وأنت على أحكامها تتحكم

وربما كان من أهم الأحداث الاجتماعية فى ذلك العصر ما قام به بعض الملوك يومئذ من تحريم تناول الخمر والحشيش واقتراف الفسق والفجور ، وقد انقسم الشعراء إزاء هذا الحادث قسمين : فقسم فرح مبتهج ، بانتصار كلمة الدين ، وتدمير ما يدفع إلى انحطاط عزيمة الأمة ، ويهد من بنيانها ، وقسم حزين لتحريم ما كان يبعث فى نفسه البهجة ويثير المسرة .

---

(١) أحد المشتغلين بالتنجيم فى ذلك العصر ، وتحدث عنه أمية فى رسالته المذكورة ، وقال عنه : إن له فى فروع هذه الصناعة بعض دربة وتجربة . راجع الرسالة المصرية ص ٣٨ نوادر المخطوطات .

(٢) الرسالة المصرية ص ٣٩ نوادر المخطوطات (٣) الدبران منزلة للقمر .

قال أبو العباس أحمد بن يوسف لما أمر الصالح أيوب بحرق ما فى الكافورى[١] من الحشيش :

صرف الزمان وحادث المقدور ... تركا تنكير الخطب غير نكير
لهفى وهل يجدى التلهف فى ردى ... طرب الغنى وأنس كل فقير
جمعت محاسن ما اجتمعن لغيرها ... من كل شىء كان فى المعمور
هى روضة إن شئتها ، ورياضة ... يغنى بها عن روضة وخمور
أسفا لدهر غالها ولربما ... ظل الكريم بذلة المأسور
زفوا لها ناراً فخلنا جنة ... برزت لنا قد زوجت بالنور
لله درك ، حية أو ميتة ... من منظر بهج بغير نظير
أوذيت غير ذميمة فسقى الحيا ... تربا تضمن منك ذوب عبير
عندى لذكرك ما بقيت مخلداً ... سح الدموع ونفثة المصدور[٢]

وأمر الظاهر بيبرس سنة خمس وستين وستمائة بحرق الحشيش ، وإراقة الخمور وإغلاق بيوت الفسق ، وكان عصره يتسم بالجد ، و الإعداد للجهاد ، وأرسل مراسيمه بذلك إلى جميع أرجاء مملكته ، فى مصر والشام ، فقال قاضى الإسكندرية ابن المغير لما وردت إليه مراسيم ذلك :

ليس لإبليس عندنا أرب ... غير بلاد الأمير مأواه
حرمته الخمر والحشيش معا ... حرمتــه ماءه ومرعاه[٣]

وقال أبو الحسين الجزار :

قد عطل الكوب من حبابه ... وأخلى الثغر من رضابه
وأصبح الشيخ وهو يبكى ... على الذى فات من شبابه[٤]

---

(١) إحدى الحدائق الكبرى بالقاهرة حينئذ .
(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٤٠ .
(٣) السلوك ج ١ ص ٥٥٤ .
(٤) المرجع السابق نفسه .

ولما أحضروا إلى الظاهر شخصاً يسمى ابن الكازرونى سكران ، أمر بصلبه ، وعلقت الجرة والقدح فى عنقه ، فقال الحكيم شمس الدين بن دانيال :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه ‏ خفيف الأذى ، إذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبي : ‏ ألا تب ، فإن الحد قد جاوز الحدا[١]

وقال :

نهى السلطان عن شرب الحميا ‏ وصير حدها حد اليمانى
فما جسرت ملوك الجن ، خوفا ‏ لأجل الخمر ، تدخل فى القنانى[٢]

وقال ناصر الدين بن النقيب :

منع الظاهر الحشيش مع الخمر ، فولى إبليس من مصر يسعى
قال : مالى وللمقام بأرض ‏ لم أمتع فيها بماء ومرعى[٣]

وقال آخر :

الخمر يا إبليس إن لم تقم ‏ وتوسع الحيلة فى ردها
لانفقت سوق المعاصى ، ولا ‏ أفلحت يا إبليس من بعدها[٤]

وأوفى ما قيل فى ذلك أدله على حالة هذا العصر ، وما كان قبله فى العصور السالفة ، ماقاله شمس الدين بن دانيال ، وقد قدم إلى مصر ، فدعاه بعض أصدقائه ، وبالغ فى إكرامه ، ولكنه اعتذر إليه عن تقصيره فى الإكرام ، إذ لم يأته بمدام ، فأنشا شمس الدين قصيدة ، يرثى بها الخلاعة والمجون ، ومنها :

مات يا قوم شيخنا إبليس ‏ وخلا منه ربعه المأنوس
هو لو لم يكن كما قلت ميتا ‏ لم يغير لأمره ناموس
أين عيناه تنظر الخمر ، إذ عطل ‏ منها الراووق والمحريس[٥]
ومواعينها قد تكسرن ، والخمار ‏ من بعد كسرها محبوس

---

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٩٠ . ‏ (٢) و (٣) و (٤) المرجع السابق ص ٩١ .
(٥) لعلها « المهريس » أى المهراس بمالة .

أين عيناه والحشائش إذ تحرق[1] ... بنار تراع منها المجوس
قلعوها من البساتين إذ ذاك ... صغارا خضراء وهى عروس
أين عيناه تنظر المزر[2] قد ... أوحش منه الماجور والقادوس
والقنانى مكسرات كما قد ... كسرت فى دجى الليالى الكئوس
وذوو القصف ذاهلون وقد كادت ... على سيلها تسيل النفوس
كم خليع يقول : ذا اليوم يوم ... مثل ما قيل ، قمطرير عبوس
وقضيب ، ونرجس ، وسعاد ... باكيات وزينب ، وعروس
ذى تنادى حريفها لوداع ... لاعناق ، لاضم ، لا تبويس
وينادى قوادهم : شه علينا ... نجم ستى قد نكسته العكوس
من لنا منصف لجور زمان ... لاقحاب فيه ، ولا خندريس[3]

وهذه القصيدة تدل على ما صار إليه الأمر فى عهد بيبرس ، وما كان عليه الحال قبل ذلك العهد .

ولم ينس الشعر أن ينتقد تصرف مستخدمى ذلك العصر واستغلالهم مناصبهم فى الإثراء على حساب الشعب ، وضعف الوازع الدينى عند بعضهم ، وإن كان يتظاهر بالدين ، ومن أجمع ماقيل فى ذلك ما انشأه البوصيرى من قصيدة طويلة ، ينتقد فيها أصناف المستخدمين ، ومنها :

نقدت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجلا أمينا
فقد عاشرتهم ، ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال هم جميعا ... فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال ، وما عرفنا ... بهم ، فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ... ولا شربوا خمور الأندرينا
ولا ربوا من المردان مردا ... كأغصان يملن ، وينحنينا

---

(١) سكنها لضرورة الشعر .

(٢) المزر : نبيذ الذرة والشعير .

(٣) بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٥ .

وقد طلعت لبعضهم ذقون ... ولكن بعد ما حلقوا ذقونا
وأقلام الجماعة جائلات ... كأسياف بأيدى لاعبينا
أمولاى الوزير ، غفلت عما ... يتم من اللئام الكاتبينا
تنسك معشر منهم ، وعدوا ... من الزهاد والمتورعينا
وقيل : لهم دعاء مستجاب ... وقد ملئوا من السحت البطونا
تفقهت القضاة فخان كل ... أمانته ، وسموه الأمينا
وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولونا[1]

فالقصيدة تسجل على الكتاب السرقة والخيانة ، فاستطاعوا أن يعيشوا عيشة ترف ورخاء ، وإن كانوا يتظاهرون بالورع والزهد . أما القضاة فيتأولون فى استحلال ما تحت أيديهم من الأموال .

المدح :

وكان المدح من أهم أغراض الشعر فى ذلك العصر ، وسوف نتحدث عن تأثير الحروب الصليبية فى هذا اللون من الشعر ، فى فصل خاص يعقد لذلك ، وحسبي هنا أن أشير إلى أن المدح فى هذا العصر قد تلون بالعقائد الفاطمية ، فى المدة التى كانت فيها مصر محكومة بخلفاء الفاطميين ، فمن عقائدهم أنهم يخلعون على الخليفة صفات العقل[2] كما أنهم يدينون بأن الرسول الكريم نص على أن عليا والد الخلفاء الفاطميين وصية وخليفته من بعده ، وأنه منه بمنزلة هرون من موسى ، وكان ذلك يوم الغدير ، فقد روى الشيعيون أن النبي قال : « على منى بمنزلة هرون من موسى ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، وأخذل من خذله » ، وقالوا : إن ذلك كان فى الثامن عشر من ذى الحجة ، سنة عشر للهجرة ، وهو عام حجة الوداع ، نزل النبي بغدير خم (وهو نقع بين مكة والمدينة) وآخى على بن أبى طالب ، ومن عقائدهم أن الإمامة تنتقل من الأ[ب إ]لى الابن ، ولا تنتقل من

(١) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٠٦ .
(٢) راجع فى ذلك « نظرية المثل والممثول وأثرها فى شعر مصر الفاطمية » ص ٨ .

الأخ إلى أخيه ، بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ، وأن الأب ينص على ابنه فى حياته ، وذلك أصل من أصول مذهبهم كما كان من عقائدهم صوم رمضان ثلاثين يوما ، وكان شعبان عندهم تسعة وعشرين يوما ، وقد اعتمدوا فى ذلك على علم النجوم ، فما كانوا يعنون برؤية الهلال بعيونهم ، مكتفين برؤيته ببصائرهم ، التى استنارت بعلم الفلك ، وكان له فى دولتهم أعظم حظ من العناية والرعاية .

وإنك لتجد ظلا لهذه العقائد وسواها فيما مدح به الشعراء خلفاء الفاطميين .

روى المقريزى أن الخليفة الحافظ لدين الله صعد المنبر يوم عيد ، فوقف الشريف ابن أنس الدولة بإزائه ، وقال مشيراً إلى الحاضرين :

خشوعا ، فان الله هذا مقامه وهمسا ، فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذى فى كل وقت بروزه تحياته من ربنا وسلامه[١]

وقال على بن محمد الأخفش من قصيدة يمدح الخليفة الآمر :

إلى ذروة النور العلائى ، إنه إلى ذروة النور الإلهى ينسب[٢]

ومن أخرى يمدح الخليفة الحافظ :

صرف جريال يرى تحريمها من يرى الحافظ فردا صمدا
بشر فى العين ، إلا أنه من طريق العقل نور وهدى
جل أن تدركه أعيننا وتعالى أن تراه جسدا[٣]

ولم يقف الأمر عند حد الشعراء الذين كانوا يعتنقون التشيع مذهبا ، بل ترى ذلك عند بعض الشعراء السنيين ، فقد تأثروا فى مدحهم بهذه العقائد الفاطمية ، فتجد عمارة اليمنى ، وهو شاعر سنى ، دعى لأن يدخل مذهبهم فأبى ، واكتفى بأن تربطه بهم صلة الود لا العقيدة[٤] ، يقول :

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ س ٣٣٠ . (٢) الجريدة ورقة ١١٨ .
(٣) المرجع السابق ورقة ١٤٢ .
(٤) النكت العصرية س ٤٥ .

ولاؤك دين فى الرقاب ، ودين   وودك حصن فى المعاد حصين
وحبك مفروض على كل مسلم   يقول بحب المصطفى ويدين[1]

ويقول من قصيدة يعزى بالفائز ، ويهنىء العاضد :

لئن عرضت للفائز الطهر نقلة   فأنت أمير المؤمنين مقيم
وإن حسدتنا جنة الخلد قربه   فقربك منا جنة ونعيم
ورثت الهدى بالنص منه ، وقوله :   أخى وابن عمى ، إن عدمت ، يقوم
وقد سن ذاك المصطفى فى ابن عمه   فمن شرفيكم حادث وقديم
حكت بيعة الرضوان بيعتك التى   يصح بها الإيمان وهو سقيم[2]

فأنت تراه يحتج لخلافة العاضد ، ولم يكن أبوه خليفة على غير ما ألف فى خلافة الفاطميين ، بأن الفائز قد نص عليه وريثا للخلافة ، وإن لم يكن هو إبنا للفائز ، واستأنس لذلك بأن الرسول قد نص على أن عليا خليفته من بعده ، وإن لم يكن على إبنا لمحمد .

ويقول مادحا العاضد فى شهر رمضان :

جلت الخلافة منك فوق سريرها   كنز الهدى وذخيرة الإسلام
وبقيـــة الله التى ببقائها   تجرى الأمور على أتم نظام
بالعاضد المهدى قدس ذكره   صحت لنا الأيام بعد سقام[3]

فأنت تراه يدعوه بقية الله ، وأن نظام الأمور ببقائه ، وأنه المهدى المقدس ذكره . وكل ذلك من عقائد الفاطميين . ويقول من أخرى يمدح العاضد :

كذلك وصى المصطفى فى ابن عمه   إلى منجد يوم الغدير ومتهم[4]

وحديث يوم الغدير مما يؤمن به الشيعة ، ومما ينبنى عليه إحدى عقائدهم فى أن علياً خليفة محمد من بعده . ويقول مهنئاً العاضد يوم كسر الخليج :

سجوداً ، فهذا صاحب الركن والحجر   ووارث علم النمل ، والنحل ، والحجر[5]

---

(١) المرجع السابق ص ٣٦٢ .
(٢) المرجع السابق ص ٣٤٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٣٤٣ .
(٤) النكت العصرية ص ٣٢٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

والشيعة يعتقدون أن الخليفة الفاطمى قد أوتى علم الكتاب علماً حقيقيا ، فهو يعرف معناه الظاهرى ، ومعناه الباطنى ، ويسمون ذلك علم التأويل . ويهنئه برمضان ، فيقول :

ولما تراءت للهلال بصائر ... يغطى الهوى أبصارها بضباب
وقفنا ، فهنأنا الصيام بعادل ... سناه مدى الأيام ليس بخاب[1]

ونحن نعلم أن الشيعة لا يوجبون للصوم أن يرى الهلال بالبصر ، ولكنهم يكتفون برؤيته بالبصيرة .

غير أن معظم هذا الشعر الذى تأثر بعقائد الفاطميين قد باد ، ولم يعن بتدوينه من جاء من جامعى الشعر بعد هذا العصر ، بل حاربه الأيوبيون ومن جاء بعدهم ، حتى كان من عمل المحتسب فى عصر الدولة الأيوبية أن يراقب من يقوم على تعليم النشء ، حتى لا يحفظوا ما قيل فى الخلفاء الفاطميين : من مدائح ، بل تمنع دراسة الأشعار التى عملها شعراء الشيعة المغالون فى أهل البيت ، فلا يعرفهم معلمهم شيئا من ذلك ، بل يعلمهم الأشعار التى مدح بها الصحابة ، ليرسخ ذلك فى قلوبهم[2] .

ولم يحرص بعض الشعراء من مخضرمى الفاطمية والأيوبية على ما مدحوا به خلفاء الفاطميين ، فهذا القاضى الفاضل لم يبق من قصيدته التى مدح بها أحدهم سوى مقدمتها الغزلية ، ووقف عند البيت الذى تخلص فيه إلى المدح ، إذ قال :

ترى لحنينى أو حنين الحمائم ... جرت ، فحكت دمعى دموع الغمائم
وهل من ضلوع أو ربوع ترحلوا ... فكل أراها دراسات المعالم
لقد ضعفت ريح الصبا ، فوصلتها ... فنى لا منها هبوب السمائم
دعوا نفس المقروح يحمله الصبا ... وإن كان يهفو بالغصون النواعم
تأخرت فى حمل السلام عليكم ... لديها لما قد حملت من سمائم
فلا تسمعوا إلا حديثا لناظرى ... يعاد بألفاظ الدموع السواجم
فإن فؤادى بعدكم قد فطمته ... عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم[3]

---

(١) النكت العصرية ص ١٦٨ .
(٢) نهاية الرتبة ص ١٠٤ .
(٣) معاهد التنصيص ص ٦٣٧ .

وأغفل جامعو الشعر غالبا ما مدح به هؤلاء الخلفاء، وكان العماد يعد من عيوب الشاعر أن يكون قد مدحهم[١]، ثم لا يورد إلا فى النادر شيئا من هذا المدح، وكان الشعراء يطيلون فى مديح الخلفاء الفاطميين، روى ابن ميسر أن الشعراء فى أيام الحافظ قد أطنبوا فى المديح، وتناهوا فى القصائد، حتى صار الانشاد يؤدى إلى قصر الوقت الذى جرت العادة باستماع أشعارهم، فأمروا لذلك بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار، فقال أحمد بن مفرج، يخاطب الحافظ:

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصراً ... هلا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لا بد أن تجرى سوابقنا ... حتى يبين لها فى مدحك الأثر

فأمروا بما كانوا عليه أولا[٢]. وإذا علمنا ذلك أدركنا ما فقدناه من شعر غزير عمل الأيوبيين على إبادته ونسيانه.

ومما هو جدير بالملاحظة أن وزراء الفاطميين فى تلك الفترة من الزمن كان لهم نصيبهم الموفور من مدح شعراء ذلك العصر، فقد التف حول وزراء ذلك العهد طوائف كثيرة من الشعراء، وأطالوا فى مدحهم، وأشادوا بقوتهم وسلطانهم، وأغرقوا فى الثناء عليهم، فرأينا الشعراء يلتفون حول الأفضل وزير المستعلى والآمر، قال ابن الزيد يمدحه من قصيدة:

لولا وجودك فى الزمان وجودك الـ ... ـمحيى المكارم بعد بعد وفاتها
لم يعرف المعروف فى الدنيا، ولو ... طفنا عليه فى جميع جهاتها[٣]

وقال أمية ابن أبى الصلت يمدحه من قصيدة طويلة:

الله زان بك الأيام من ملك ... لك الحجول من الأيام والغرر
لله بأسك، والأيام طائشة ... والخيل تردى ونار الحرب تستعر
هى السماحة إلا أنها سرف ... هى الشجاعة إلا أنها غرر
الله فى الدين والدنيا، فما لهما ... سواك كهف، ولا ركن، ولا وزر
ملك تبوأ فوق النجم مقعده ... فكيف تطمع فى غاياته البشر

---

(١) خريدة القصر المطبوعة ص ٢٨٥. ونهاية الرتبة ص ١٠٥ و ١١٣.
(٢) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٥ ج ٢.   (٣) الخريدة ورقة ١٢١ ب.

يرجى نداه ، ويخشى عند سطوته كالدهر يوجد فيه النفع والضرر[١]

والتف الشعراء كذلك حول طلائع بن رزيك ، وقرضوا فى مدحه كثيراً من الشعر ، فهذا يحي بن يوسف يقول له من قصيدة :

من ذا يساجلك السيادة فى الورى إلا جحود للعيان يكابر[٢]

وهذا المهذب بن الزبير يقول فيه :

وتلق الدهر منه بليث غاب غدت سمر الرماح له عرينا
تخال سيوفه إما انتضاها جداول ، والرماح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن يرحن مع الظلام ويغتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت سنا ، يغشى عيون الناظرينا
وإن صبحت مع الاصباح عدوا اثارت للعجاج به دجونا

وهذا الشعر الذى مدح به وزراء ذلك العهد يدلنا على ما وصلت إليه سطوة الوزراء ، وماكان لهم من سلطان فعلى ، وسيطرة على شئون الدولة ، بل لقد جمع بعض الشعراء بين الخليفة والوزير ، ووصفهما معا بصفات واحدة ، وأشركهما فى المدح معا ، كما فعل المهذب بن الزبير عندما مدح الصالح طلائع بن رزيك ، إذ قال :

يا واحد الدهر ، لا رد على إذا ما قلت ذلك فى قولى ، ولا درك
ما كان بعد أمير المؤمنين فتى فيه الشجاعة إلا أنت والنسك
فالفعل منه ومنك اليوم متفق والنعت منه ومنك اليوم مشترك
يدعى بصالح أهل الدين كلهم وأنت صالح من بالدين يمتسك[٣]

وكما فعل عمارة إذ قال :

أقسمت بالفائز المعصوم معتقدا فوز النجاة وأجر البر فى القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما وزيره الصالح الفراج للغمم
اللابس الفخر لم تنسج غلائله إلا يد الصنعين : السيف والقلم

---

(١) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٥٦ . (٢) الطالع السعيد ص ٤١٠ .
(٣) خريدة القصر المطبوعة ج ١ ص ٢١٣ .

وجوده أوجد الأيام ما اقترحت   وجوده أعدم الشاكين للعدم
قد ملكته العوالى رق مملكة   تعير أنف الثريا عزة الشمم
خليفة ووزير مد عدلهما   ظلا على مفرق الإسلام والأمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما   فما عسى يتعاطى منه الديم (١)

وكثير من شعر عمارة يجمع بين مدح الخليفة والوزير ، مما يؤكد ما وصل إليه الوزير يومئذ من مكانة يشرك فيها الخليفة .

ولا نكاد نجد حاكما من حكام هذا العصر : خليفة ، أو سلطانا ، أو ملكا ، أو وزيراً ، لم يفسح صدره للشعر ، ويخلد إسمه ممدوحا فى شعر الشعراء ، حتى السلطان المنصور قلاوون الذى كان معجم اللسان ، لا يكاد يفصح بالعربية ، لأنه جاء من بلاد الترك كبيرا (٢) ، فقد مضى الشعراء المعجبون بفتوحاته ، يصوغون له المدح عقوداً ، ومن هؤلاء شهاب الدين محمود الذى يقول فيه :

علينا لمن أولاك نعمته الشكر   لأنك للاسلام ، ياسيفه ، ذخر
ومنا لك الإخلاص فى صالح الدعا   إلى من له فى أمر نصرتك الأمر
ولله فى إعلاء ملكك فى الورى   مراد ، وفى التأييد يوم الوغى سر
ألا هكذا يا وارث الملك فليكن   جهاد العدا لا ما توالى به الدهر (٣)

ومما هو جدير بالذكر أن هؤلاء الذين كافحوا الفرنج كفاحا مجيدا ، واستردوا ما بأيديهم من أجزاء الوطن المغتصب ظفروا من المدح بأوفى نصيب ، وتجمع حولهم طوائف كثيرة من الشعراء ، وهكذا رأينا أبطال الحروب الصليبية يلتف حولهم من يشيد بجهدهم وجهادهم ويخلد فى القصائد مآثرهم ، فنجد مدحا كثيرا قد صيغ فى عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود والظاهر بيبرس ، والأشرف خليل بن قلاوون ، وكان أوفاهم نصيبا من ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فقد عرفت ممن مدحه زهاء خمسين شاعراً ، ولم يضن الشعراء بشعرهم على من كان يمد يده محاربا الفرنج ، ليكسر من شوكتهم ، أميراً كبيراً ، أو صغيراً وزيراً

(١) النكت العصرية ص ٣٧٣ .
(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٢٣ .

نجح ، أو أخفق ، قائدا فى البر أو فى البحر فهؤلاء جميعا أحاطهم الشعر بهالة من التمجيد والإكبار والاجلال ، وسوف نتحدث فى فصل خاص عن المنهج الذى انتهجه الشعراء فى تصوير هؤلاء الأبطال .

الرثاء

وكان الرثاء من بين أغراض الشعر يومئذ ، رثى الشعراء أبطال الحروب الصليبية ، ورثوا ملوكهم وأمراءهم ، ورثوا أحباءهم وأعزاءهم ، وعز سقوط الدولة الفاطمية على بعض من كان له بها صلة وثقى ، فرثاها عمارة بشعر يفيض بالحب والحنين ، فى قصائد منها الطويل والقصير ، فمن ذلك قصيدة قصيرة مطلعها :

لا تندبن ليلى ولا أطلالها — يوما ، وإن ظعنت بها أجمالها
واندب ، هديت ، قصور سادات عفت — قد نالهم ريب الزمان ونالها
درست معالمها ، لدرس ملوكها — وتغيرت من بعدهم أحوالها(١)

ومنها هذه القصيدة الطويلة ، التى بدأها بلوم الدهر على إساءته ، بتحطيم الدولة التى كانت فى جيد المجد حليا ، وله زينة وجمالا ، فقال :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل — وجيده بعد حلى الحسن بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور ، فإن — قدرت من عثرات البغى فاستقل
جدعت ما رنك الأقنى ، فأنفك لا — ينفك ما بين نقص الشين والخجل
هدمت قاعدة المعروف عن عجل — سقيت ، مهلا ، أما تمشى على مهل

ثم حدثنا عن مصابه الشخصى فى هذه الدولة ، وما ناله من السعادة على أيدى رجالها ، إذ قال :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة — على فجيعتنا فى أكرم الدول
قدمت مصر ، فأولتنى خلائفها — من المكارم ما أربى على الأمل

---

(١) مختار ديوان عمارة ص ٣٣٣ .

قوم عرفت بهم كسب الألوف، ومن ... كمالها أنها جاءت ولم أسل
وكنت من وزراء الدست حيث سما ... رأس الحصان بهاديه على الكفل
ونلت من عظماء الجيش تكرمة ... وخلة حرست من عارض الخلل

فليس بعجيب إذا أن يقرح جفنه بالبكاء عليهم ، وألا يقبل فى حبهم لوما ولا عتابا :

يا عاذلى فى هوى أبناء فاطمة ... لك الملامة إن قصرت فى عذلى
بالله زر ساحة القصرين ، وابك معى ... عليهما ، لا على صفين والجمل
وقل لأهلهما : والله ، ما التحمت ... فيكم قروحى، ولا جرحى بمندمل

ثم يعجب مما فعله بهم صلاح الدين الذى جاء إليهم لينقذهم من يد الفرنج أعدائهم :

ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلة ... فى نسل آل أمير المؤمنين على
هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما ... ملكتم بين حكم السبى والنفل

وأخذ يذرف الدمع على آثارهم فيقول :

مررت بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل
قبلت عنها بوجهى ، خوف منتقد ... من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسف دمعى غداة خلت ... رحابكم ، وغدت مهجورة السبل
أبكى على ما تراءت من مكارمكم ... حال الزمان عليها ، وهى لم تحل

ومضى بعدئذ يعدد مآثرهم ، ومواسمهم ، وحفلاتهم ، وجودهم ، فقال :

دار الضيافة كانت أنس وافدكم ... واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إن أصغت مكارمكم ... تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ... ورث منها جديد عنهم ، وبلى
وموسم كان فى كسر الخليج لكم ... يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام ، والعيدان كان لكم ... فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى عيد الغدير بما ... يهتز ما بين قصريكم : من الأسل

والخيل تعرض من وشى ومن شية   مثل العرائس فى حلى وفى حلل
وما حملتم قرى الأضياف من سعة الأطباق إلا على الأعناق والعجل
وما خصصتم ببر أهل ملتكم   حتى عممتم بها الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للوافدين ، وللضيف المقيم ، وللطارى من الرسل
وللجوامع من أحباسكم نعم   لمن تصدر فى علم وفى عمل

ويختم القصيدة بأمل يداعبه فى أن تعود الدولة ، ويعود بعودتها آماله وأمانيه ، فيقول :

وربما عادت الدنيا لمعقلها   منكم ، وأضحت بكم محلولة العقل(١)

وترك لعواطفه العنان فى حديثه عن الخلفاء الفاطميين وحبهم ، إذ قال :

والله ، لا فاز يوم الحشر مبغضكم   ولا نجا من عذاب النار غير ولى
ولا سقى الماء من حر ، ومن ظمأ   من كف خير البرايا ، خاتم الرسل
ولا رأى جنة الله التى خلقت   من خان عهد الإمام العاضد بن على
أئمتى ، وهداتى ، والذخيرة لى   إذا ارتهنت بما قدمت من عملى
تالله لم أوفهم فى المدح حقهم   لأن فضلهم كالوابل الهطل
أئمـة خلقوا نورا ، فنورهم   من نور خالص نور الله لم يفل
والله لا زلت عن وجهى لهم أبدا   ما أخر الله لى فى مدة الأجل
عمارة قالها المسكين ، وهو على   خوف من القتل ، لا خوف من الزلل(٢)

ورثى دولة الفاطميين بقصيدة أخرى قال فيها :

لى بالديار غداة البين وقفات   أبكى رسوما خلت منهن سادات
هى المنازل لى فيها علامات   من بعد سكانها أهل العلا ماتوا
منازل العز تبكينى بسعيهم   منازل لم تزل عندى عزيزات

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ٢٢٣ .   (٢) نقلا عن مفرج الكروب .

شاورت أبله قلبي فى السلو ، وقد يقال : للبله فى الدنيا إصابات
فقال : رأيي ضعيف ، لست أقبله كيف السلو ، ولى فى القوم نيات
قدمات قوم ، وما ماتت مكارمهم وعاش قوم ، وهم فى الناس أموات
يارب ، إن كان لى فى وصلهم طمع عجل على ، فللتأخير آفات[١]

وللقاضى الفاضل بيتان فى الدولة الفاطمية بعد سقوطها ، هما على قصرهما شديد الدلالة على ما كان لها من آثار ، شادتها أيد لها طاقة فوق طاقة البشر ، وعلى ما بدأ ينزل بها من ضربات ، تهد من جوانبها ، إذ قال :

صاحب هذا القصر كم قبلت ساحته أمس ، وكم عظما
وقـدرة القادر فى هدمه أعظم منها فى بناء السما[٢]

ومما يتصل بذلك رثاء القاضى الفاضل لقصر العزيز بن صلاح الدين بعد موته ، ويظهر أن من خلفه على عرش مصر عمل على إبادة آثار العزيز ، فأنشأ القاضى الفاضل وكان صديقاً حميماً للعزيز قصيدة كبيرة ، هى مزيج من الألم والغضب ، والثورة الجامحة على الأيام ، وعلى هذه اليد التى امتدت فدمرته ، والحزن على أن بقى ، حتى رأى آثار الأحبة نهباً بيد البلى ، فقال :

وقفنا على قصر العزيز ، وقد عفا نعيب عليه الدهر ، لما تحكما
سلام عليه ، من مغنى معنف وقل له من صاحب أن يسلما
بكيت له دمعا ولو كنت منصفا بكيت دما ، والدمع ضرب من الدما
تأخرت من بعد الأحبة مدة ولو أن لى أمراً لكنت المقدما
لئن صرت فوق الأرض أرضا فربما عهدناك من فوق السماء لناسما
عزيز علينا أن نراك على البلى ترابا نهى المشغوف أن يتيمما
تصدق له من لا يراقب حرمة ومن ليس يرعى للمكارم محرما

وذلك صريح فى أن الذين ولوا الحكم بعد العزيز عملوا على تعفية آثاره وتدمير قصره ،

---

(١) نقلا عن مفرج الكروب . (٢) التذكرة الصفدية جـ ١٣ س ٣٥ .

وتثور فى نفس الفاضل ذكريات الماضى قوية عنيفة ، فيقول :

وكم قد حججنا فيك للمجد كعبة … وكم قد أقمنا فيك للحج موسما
وكم قد وجدنا فيك راحة راحة … تقبل إذ تعطى حطيما وزمزما
كأن لم تكن فيك السعادة طلقة … ووجه ظباها باسما متجهما
ولا صار ذاك البهو ملكا محجبا … ولاجرذاك الرحب جيشاً عرمرما
ولا كان قصد الوفد غرة كوكب … فلما بدت صلى عليها ، وسلما

ثم اتجه بعدئذ إلى الدار يناجيها ، متحدثا عما فى قلبه من آلام لما أصابها ، وما يضمره من أفكار كان يتمنى تحقيقها ، ليحتفظ البيت الصلاحى بوحدته وتماسكه ، فيقول :

وقل : يا دار الظاعنين ، يرغمنا … وعهدك ، أن أضحى لك الدهر مرغما
خذوا أدمعى عقدا نثيرا ، فطالما … نظمت له النعماء عقدا منظما
وما نظر الإنسان دنيا يحبها … وليس له فيها حبيب سوى العمى
وإنى لملآن الفؤاد عزائما … لو أنى وجدت اليوم للرأى معزما(١)

ولعل السبب فى أن الشعراء لم ترث الدولة الأيوبية عندما قام المماليك بالأمر من بعدهم ، هو أن الحكم الأيوبى لم يبد مرة واحدة ، كما حدث للفاطميين ، بل حكم هؤلاء المماليك باسم الأيوبيين أولا ، وكان لأمراء البيت الأيوبى حكم لا يزال قائما بالشام ، كما أن المماليك لم يعملوا على إبادة آثار الأيوبيين ، بل حافظوا عليها ، وكانوا يعتزون بنسبتهم إليهم ، وعملوا مثلهم على أن يتلقوا التقليد من الخليفة العباسى ، حتى إنه بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد عمل بيبرس على إعادتها بالقاهرة ، ليتولى من قبلها عرش السلطنة .

وأخذ العلماء بحظهم من رثاء الشعراء ، مما يدل على المنزلة السامية التى حل فيها علماء هذا العصر ؛ وما نالوه من تقدير وإجلال ، كقول الصاحب نجم الدين اللبودى ، يرثى شمس الدين الخسروشاهى ، المتوفى سنة ٥٦٢ هـ :

أيا ناعيا عبد الحميد ، تصبرا … على ، فإن العلم أدرج فى كفن

---

(١) ديوان القاضى الفاضل ص ١٤ .

مضى مفرداً ، فى فضله وعلومه وعدت فريدالهم ،والوجد ، والحزن
فيا عين ، سحى بالدموع لفقده فما حسن صبرى بعده اليوم بالحسن
تلقته أصناف الملائك بهجة بمقدمه الأسنى على ذلك السنن
تقول له : أهلا ، وسهلا ، ومرحبا بخير فتى وافى إلى ذلك الوطن (١)

وقد يتجه بعض من رثى هؤلاء العلماء إلى استخدام الاصطلاحات العلمية للمادة ، التى شهر بها المرثى ، كقول شرف الدين الحصنى ، يرثى محمد بن مالك ، صاحب الألفية المشهورة فى النحو ، والمتوفى سنة ٦٧٢ هـ :

يا شتات الأسماء والأفعال بعد موت ابن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط منه فى الانفصال والاتصال
مصدراً كان للعلوم ، بإذن الله ، من غير شبهة ومحال
عدم النعت والتعطف والتوكيد مستبدلا من الأبدال
ألم اعتراه أسكن منه حركات كانت بغير اعتلال
يا لها سكتة لهمز قضاء أورثت طول مدة الانفصال
رفعوه فى نعشه ، فانتصبنا نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه ، يا عظم ما فعلوه وهو عدل معرف بالجمال
أدغموه فى الترب من غير مثل سالما من تغير الانتقال
وقفوا عند قبره ساعة الدفن وقوفا ضرورة الامتثال
ومددنا الأكف نطلب قصرا سكننا للنزيل من ذى الجلال
آخر الآى من سبا حظنا منه حظه جاء أول الأنفال
يا لسان الأعراب ، يا جامع الإعراب ، يا مفهما لكل مقال
يا فريد الزمان فى النظم ، والنثر ، وفى نقل مسندات العوالى
كم علوم بثثتها فى أناس علموا ما بثثت عند الزوال (٢)

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٧٣ .
(٢) بغية الوعاة ص ٥٥ وفيها : قال الصلاح الصفدى : ما رأيت مرثية فى نحوى أحسن من هذه المرثية . وله رأيه الذى لا نوافقه عليه .

ومما يسترعى النظر أن بعض الشعراء لم يقف فى رثائه عند علية القوم ، بل رثى ذوى الحرف الصغيرة ، فهذا حيدرة بن الحسين القاضى النفيس ، الذى كان يعيش بقوص سنة ٥٣٣ هـ يرثى ملاحا ، وقد أجاد فى هذا الرثاء ، وإن كان قد استخدم قليلا من العامية ، إذ قال :

من لجر اللبان فى الثقلين ولإلقا المرسى على الأنبطين
واعتقال المدرى ، وقد سكن الريـ ـح ، برغم السفار ، فى تشرين
والمجاذيف ، من بها مستقل بعدما قد أتاك ريب المنون
من يلالى لصحبه كل وقت بنشيد جزل ، وصوت حزين
يطرب الأروع الحليم ، فيلهو ويسلى بالحسن لب الحزين
يهتدى فى الظلام بالقطب والجد ى ، وفى الصبح بالضياء المبين
فتشق البحار فى الليل شقا حركات تولدت من سكون
كانت المركب التى أنت فيها حرما آمناً ، كحصن حصين
فهى اليوم بعد فقدك عطل بل حطام ملق ليوم الدين (١)

وله قصيدتان رثى بهما قزازاً كذلك (٢) :

ومما يسترعى النظر كذلك أن بعض شعراء ذلك العصر بدأ رثاءه بالغزل ، كقول القاضى الفاضل فى رثاء بنى رزيك ، ومن هذا الغزل :

أستودع الله فى أظعانهم قمرا إليه لو ضلت الأقمار تحتكم (٣)

الهجـــاء :

وكان للهجاء نصيب فى شعر هذا العصر ، هجى الخلفاء ، والأمراء ، والوزراء ، والعلماء ، فمما هجى به خلفاء الفاطميين قول العماد فيهم ، بعد سقوط دولتهم بمصر :

توفى العاضد الدعى ، فما يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى ، وغدا يوسفها فى الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة ، وقد باخ من الشرك كل ما اضطرما

---

(١) الطالع السعيد ص ١٢٤ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) مختار شعر القاضى الفاضل ص ٨ .

وبات داعى التوحيد منتصرا ومن دعاة الإشراك منتقما
وظل أهل الضلال فى ظلل داجيــة من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون فى ظــلم لمــا أضاءت منابر العلما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا فليقرع الكفر سـنه ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الحمــى وفىء الطغاة مقتسما
قصور أهل القصــور أخربها عامر بيت من الكمال سما
أزعج بعــد السكون ساكنها ومات ذلا وأنفــه رغما(١)

ومما هجى به الأمير حسن ابن الخليفة الحافظ قول المعتمد بن الأنصارى :

لم تأت ياحسن بين الورى حسنا ولم تر الحق فى دنيا ولا دين
قتل النفوس بلا جرم ولا سبب والجور فى أخذ أموال المساكين
لقــد جمعت بلا علم ولا أدب تيه الملوك ، وأخلاق المجانين(٢)

ومما هجى به الوزير هبة الله بن صاعد الفائزى قول جمال الدين بن مطروح :

لعن الله صاعـدا وأباه فصاعــدا
وبنيــه فنــازلا واحداً ثم واحداً(٣)

ومضى هبة الله بن البدر يهجو أنف القاضى الجليس بأكثر من ألف مقطوع(٤) . ونبغ بعض شعراء ذلك العصر فى الهجاء ، كابن منير الطرابلسى ، وابن عنين .

وإنك لتلمح فى بعض هذا الهجاء نظرات نقدية ، لبعض أحوال المجتمع ، تناولها شعراء ذلك العصر فى لهجة ساخرة ، ونستطيع إذا تعمقنا هذا الهجاء أن ندرك الكثير مما كان فى هذا العصر ، مما لم يرق لدى الشعراء ، فنرى أن بعضهم قد استثقل هذه الألقاب التى يسمى بها العلماء والقضاة ومن جرى مجراهم ، من مثل شمس الدين ، وبدر الدين ، وتاج الدين ، قال ابن المسجف فى جماعة بدمشق :

---

(١) الروضتين ج ١ ص ١٩٥ .
(٢) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٥٨ .
(٤) فوات الوفيات ج ١ ص ٣٧٨ .

خمس تيجان لا يساوون نعلا رث ، فى قيمة ولا مقدار :
الشخير ، والأعيور ، والتبشار ، وابن المصرى ، وابن الجوازى[١] .

قالوا : ومن العجب سنة ثلاث وستين وستمائة — اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاء فى زمن واحد ، وكل منهم لقبه شمس الدين ، واتفق أن الشافعى منهم استناب من لقبه شمس الدين ، فقال الشعراء فى ذلك ومما قالوه :

قضاتنا كلهم شموس ونحن فى أكثف الظلام[٢]

وقيل أيضا :

أظلم الشام وقد ولى الحكم شموس
ليس فيهم من يبت الحكم علما أو يسوس[٣]

ومن هذا الباب قول ابن عنين يهجو جماعة :

صعد الدين يستغيث إلى الله ، وقال : الأنام قد ظلمونى
يتسمون بى ، وحقك لا أعرف شخصا منهم ، ولا يعرفونى
جعلوا ابن المصرى تاجى ، ولو كان شراكا للنعل لم ينصفونى
ثم قالوا : البكرى صدرى ، كما قالوا ، وقالوا : ووجهى الزنكلونى[٤]

وقوله فى الشهاب فتيان الشاغورى :

يا من يلقب ظلما بالشهاب ، وإن أضحى بظلمته قد أظلم الشهبا[٥]

وهل لنا أن نلمح فى أبيات ابن المسجف ما كان عليه بعض الولاة من شراهة فى أموال الشعب يغتصبونها ، كلما بدا لهم ؟ حتى لقد اضطر الشاعر إلى مدح السلطان ، كى يبقى له ماله ، حين قال :

أنا فى جيل خسيس وقبيل ، وزمان
أمدح السلطان ، كى يصبح مالى فى أمان
أكذا كان أبو تمام قبلى ، وابن هانى[٦]

(١) فوات الوفيات ص ٢٥٩ .
(٢) ذيل الروضتين ص ٢٣٦ .
(٣) ذيل الروضتين ص ٢٣٦ .
(٤) ديوان ابن عنين ص ٢٠٩ .
(٥) المرجع السابق ص ٢١٢ .
(٦) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٥٨ .

كما أغضب أخذ السلطان زكاة المال بعض الشعراء ، ومن هؤلاء ابن عنين ، جاء من اليمن إلى مصر ، فطلبوا منه زكاة ما ورد معه ، فقال يهجو الملك العزيز صاحب مصر :

ما كل من يتسمى بالعزيز لها ... أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين[1] بون فى فعالهما ... هذاك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقه[2]

وهكذا نجد فى هذا الهجاء نقدات ، وانعكاسات لما كان فى هذا المجتمع : من قوانين وعادات وتقاليد .

وخير ألوان الهجاء فى ذلك العصر ما كان على سبيل التهكم والسخرية ، كقول ابن خروف يهجو مهذب الدين الطبيب الدخوار شيخ أطباء دمشق :

لا ترجون من الدخوار منفعة ... ولو شفى علتيه : العجب والعرجا
طُبَيْبٌ إن رأى المطبوب طلعته ... لا يرتجى صحة منها ، ولا فرجا
إذا تأمل فى دستوره سحراً ... وقال : أين فلان ؟ قيل : قد درجا
فشربة دخلت مما يركبه ... جسم العليل ، وروح منه قد خرجا[3]

وقوله فيه أيضا :

أن الأعيرج حاز الطب أجمعه ... استغفر الله ، إلا العلم والعملا
وليس يجهل شيئا من غوامضه ... إلا الدلائل والأمراض والعللا
فى حيلة البرء قلت عنده حيل ... بعد اجتهاد ، ويدرى للردي حيلا
الروح تسكن جثمان العليل على ... علاته ، فإذا ما طبه رحلا[3]

الوصف

وكان لشعر الوصف نصيب فى ذلك العصر ، وقد وصف الشعراء يومئذ ما يحيط بهم من جمال الطبيعة فى مصر ، فوصفوا النيل ، والبرك المنتشرة فى أرجاء القاهرة ، وما بها : من أزهار ورياحين ، ولكن من الواجب أن أقرر أن هذا اللون من الشعر قلة ، بالنسبة إلى غيره من الألوان الأخرى .

(١) يريد بالعزيزين الملك العزيز طغتكين بن أيوب صاحب اليمن ، والملك العزيز عثمان صاحب مصر
(٢) ديوان ابن عنين ص ٢٢٣ . (٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٢٧٢ .

كتب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز إلى الأفضل يصف النيل ليلة المهرجان :

أبدعت للناس منظرا عجبا | لازلت تحي السرور والطربا
ألفت بين الضدين مقتدرا | فن رأى الماء خالط اللهبا
كأنما النيل والشموع به | أفق سماء ، تألقت شهبا
قد كان من فضة ، فصار سما | وتحسب النار فوقه ذهبا[1]

وقال أبو الحسن على بن أبى البشر الكاتب :

شربنا مع غروب الشمس شمسا | مشعشعة إلى وقت الطلوع
وضوء الشمع فوق النيل باد | كأطراف الأسنة فى الدروع[2]

ولأبى الحسن بن الساعاتى يوم كسر خليج النيل :

إن يوم الخليج يوم من الحسـ | ـن بديع المرئى والمسموع
كم لديه من ليث غاب صئول | ومهاة مثل الغزال المروع
وعلى السدّ عزة ، قبل أن تمـ | ـلكه ذلة المحب الخضوع
كسروا جسره هناك ، فحاكى | كسر قلب ، يتلوه فيض دموع[3]

وممن أعجب بالنيل ممن زار مصر على بن محمد بن على بن خروف الأندلسى ، فقال فيه :

ما أعجب النيل ، ما أحلى شمائله | فى ضفتيه من الأشجار أرواح
من جنة الخلد ، فياض على ترع | تهب فيها هبوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء ، كما زعموا | وإنما هى أرزاق وأرواح[4]

وبرغم هذا الجناس التام الذى التزمه الشاعر فى آخر الأبيات ، وفق فى تصوير شعوره المعجب بماء النيل ، فهو ليس ماء ينزل من المطر ، ولكنه ينبع من جنة الخلد ،

(١) الرسالة المصرية ص ٢٢ نوادر المخطوطات المجموعة الأولى .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٤ .
(٤) بغية الوعاة ص ٣٥٤ .

وإنه لأرزاق لمن على شاطئيه ، ومصدر حياتهم .

كما أعجب ابن قلاقس بمنظر الشمس تغرب فى النيل ، ويبدو بعد مغيبها الهلال ، إذ قال :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة ... واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت ، وابدت شعاعا منه يخلفها ... كأنما احترقت بالماء فى الغرق
وللهلال فهل وافى لينقذها ... فى إثرها زورق قد صيغ من ورق(١)

ولكنى آخذ على ابن قلاقس أن هذا المنظر ، وهو غروب الشمس فى ماء النيل ، لا يرى فى مصر ، فليس نهر النيل من الاتساع بحيث يسمح للعين أن ترى الشمس تغرب فيه .

وكان من أشهر برك مصر بركة الحبش ، وكانت فى ظاهر مدينة الفسطاط من قبليها ، فيما بين الجبل والنيل(٢) ، قال أبو الصلت ، وفى هذا الوقت من السنة ، يعنى أيام النيل ، تكون أرض مصر أحسن شىء منظراً ، ولا سيما متنزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة ، كالجزيرة ، والجيزة ، وبركة الحبش ، وما جرى مجراها من المواضع التى يطرقها أهل الخلاعة والقصف ، وينتابها ذوو الآداب والظرف ، واتفق أن خرجنا فى مثل هذا الزمان ، إلى بركة الحبش ، وافترشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق ، فظللنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شموسا فى خلع بدور ، وجسوم نار فى غلائل نور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال بعضهم (وهو أمية المذكور) .

لله يومى ببركة الحبش ... والأفق بين الضياء والغبش
والنيل تحت الرياح مضطرب ... كصارم فى يمين مرتعش
ونحن فى روضة مفوقة ... دبج بالنور عطفها ووشى
قد نسجتها يد الغمام لنا ... فنحن من نسجها على فرش
فعاطنى الراح ، إن تاركها ... من سورة الهم غير منتعش

---

(١) ديوان ابن قلاقس ص ٧٥ .

(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٤٧ .

واسقنى بالكبار مترعة   فهن أروى لشدة العطش
فاثقل الناس كلهم رجل   دعاه داعى الهوى فلم يطش[١]

وتغنى بها كذلك ظافر الحداد فى قوله :

تأملت نهر النيل طولا ، وخلفه   من البركة الغناء شكل مقدر
فكان وقد لاحت بشطأيه خضرة   وكانت وفيها الماء باق موفر
غمامة شرب فى جواشن خضرة   أضيف إليها طيلسان مقور[٢]

وعاد أمية بن أبى الصلت إلى التغنى بهذه البركة ، حين قال :

علل فؤادك باللذات والطرب   وباكر الراح بالنايات والنخب
أما ترى البركة الغناء لابسة   وشيا من النور حاكته يد السحب
وأصبحت من جديد النبت فى حلل   قد أبرز القطر منها كل محتجب
من سوسن شرق بالطل محجره   وأقحوان شهى الظلم والشنب
وانظر إلى الورد ، يحكى خد محتشم   من نرجس ،ظل يبدى لحظ مرتقب
والياسمين ، وقد أربى على درر   والراح ، من درر تطفو على ذهب
كم مرة قد شفينا فيـــه غلتنا   بجاحم من فم الإبريق ملتهب
شمس من الراح ، حيانا بها قمر   موف على غصن ، يهتز فى كثب
أرخى ذوائبـــه ، وانهز منعطفا   كصعدة الرمح فى مسودة العذب
فاطرب ودو نكهافاشرب،فقد بعثت   على التصابى دواعى اللهو والطرب[٣]

والشاعر هنا يدفعه جمال الطبيعة إلى الاستمتاع بها ، والاستمتاع بالحياة ، وكأنما يريد بهذا الاستمتاع أن يشارك الطبيعة فى فرحها وابتهاجها .

وأعجب الشعراء بجزيرة الروضة ، ونظموا فى جمال طبيعتها ، وحسن موقعها فى النيل ، وتغزلوا بمن يسكن مغانيها ، وطلبوا اللهو فى حـــدائقها وبساتينها ، وممن أجاد فى وصفها الأسعد بن مماتى ، حين قال :

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٥٠ .
(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٥ .
(٣) الرسالة المصرية ص ٢١ من نوادر المخطوطات المجموعة الأولى .

جزيرة مصر لا عــدتك مسرة ... ولا زالت اللذات فيك اتصالها
فكم فيك من شمس على غصن بانة ... يميت ويحيي هجرها ووصالها
مغانيك فوق النيل أضحت هوادجا ... ومختلفات الموج فيها جمالهـا
ومن أعجب الأشياء أنك جنة ... ترف على أهل الضلال ظلالها[١]

والأسعد فى هذه الأبيات يعنيه أكثر ما يعنيه أن الجزيرة موطن اللذات، ومكان المجون واللهو، وعناه منها مرة أخرى جمال طبيعتها، عندما قال مادحا الملك الكامل ابن العادل:

جزيرة مصر، أنت أشرف موضع ... على الأرض لما حل فيك محمــد
وفيك علا البحران، لكن كف ذا ... على الناس أندى بالعطاء وأجود
وأصبحت الأغصان من فرح به ... تمايل، والأطيار فيك تغرد
فرق نسيم حين سار، وجدول ... ويشدو هزار، حين يرقص أملد[٢]

عرض ظافر الحداد فيما عرضه علينا صورة للجزيرة والنيل فى قوله:

أنظر إلى الروضة الغراء والنيل ... واسمع بدائع تشبيهى وتمثيلى
وانظر إلى البحر مجموعا ومفترقا ... هناك أشــبه شىء بالسرابيل
والريح تطويه أحيانا، وتنشره ... نسيمها بين تفريق وتعديل[٣]

ولم يوفق ابن قادوس الدمياطى[٤] لغرامه بالجناس فى أن يصور لنا جمال الجزيرة حين قال:

أرى سرح الجزيرة من بعيد ... كأحداق تغازل فى المغازل[٥]
كأن مجرة الجوزاء خطّت ... وأثبتت المنازل[٦] فى المنازل[٧]

وخلد الشعراء ذكرى البستان الكافورى، بما كان يزرع فيه من نبات الحشيشة، وكان يضرب بها المثل فى الحسن، فما قاله فيها جلال الدين أبو المعز، أحمد بن الصائغ:

عاطنى خضراء كافورية ... يكتب الخز لهـــا من جندها

---

(١) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٣. (٢) و (٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) ستأتى ترجمته.
(٥) جمع مغزل: اسم مكان من غزل القطن ولم أفهم قيمة هذه المغازل فى الغزل.
(٦) يريد بها منازل الجوزاء والجوزاء برج فى السماء سميت بذلك لاعتراضها فى وسط السماء ويريد بالمنازل الثانية منازل الجزيرة. (٧) خطط المقريزى ج ٣ ص ٢٩٨.

أسكرتنا فوق ما تسكرنا ... وربحنا أنفسا من حدها[١]

وقال أيضاً :

عاطيت من أهوى وقد زارني ... كالبدر وافى ليلة البدر
والبحر[٢] قد مد على متنه ... شعاعه جسراً من التبر[٣]
خضراء كافورية ، رنحت ... أعطافه من شدة السكر
يفعل منها درهم فوق ما ... تفعل أرطال من الخمر
فراح نشوانا بها غافلا ... لا يعرف الحلو من المر
قال ، وقد نال بها أمره ... فبات مردوداً إلى أمرى :
قتلتنى ، قلت : نعم ، سيدى ... قتلين : بالسكر ، وبالبحر[٤]

ولم يقف الشعراء يومئذ عند حد وصف الطبيعة فى مصر بل تعدى ذلك إلى وصف آثارها الرائعة ، فمن أعجب بأهرام مصر عمارة اليمنى حيث يقول :

خليلى ما تحت السماء بنية ... تماثل فى إتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه ، وكل ما ... على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها ... ولم يتنزه فى المراد بها فكرى[٥]

وعمارة بهذه الأبيات القليلة يعلن إعجابه الذى لا حد له بهذه الأهرام ، وعجزه عن فهم أسرارها ، والمراد بإقامتها ، وما أقوى شعوره بخلودها ، حين وصف بناءها بأن الدهر يخشاه ويخافه .

كما أعجبوا بمنار الإسكندرية ، وكان أحد الأبنية العجيبة فى العالم ، ذكر ابن جبير فى رحلته أن منار الاسكندرية يظهر على أزيد من سبعين ميلا ، وأنه ذرع أحد جوانبه الأربعة فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، فأناف على خمسين ذراعا ، وأن طول المنار أزيد من مائة

---

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ٤٠ .
(٢) يريد بالبحر نهر النيل .
(٣) يشبه ضوء البدر بالتبر ، وليس بصواب ، فالتبر أصفر ، وشعاع البدر أبيض .
(٤) خطط المقريزى ج ٣ ص ٤٠ .
(٥) خطط المقريزى ج ١ ص ١٩٥ .

وخمسين قامة ، وكان ثلاث طبقات : الطبقة الأولى مربعة ، والثانية مثمنة ، والثالثة مدورة .
وقد أبان الوجيه الذروى إعجابه بهذا المنار حيث قال :

وسامية الأرجاء ، تهدى أخا السرى ... ضياء ، إذا ما حندس الليل أظلما
لبست بها برداً من الأنس صافيا ... فكان بتذكار الأحبة معلما
وقد ظللتنى من ذراها بقبة ... ألاحظ فيها من صحابى أنجما
تخيل أن البحر تحتى غمامة ... وأنى قد خيمت فى كبد السما[1]

وقال فيه ابن قلاقس :

ومنزل جاوز الجوزاء مرتقياً ... كأنما فيـــه للنسرين[2] أوكار
راسى القرارة ، سامى الفرع ، فى يده ... للنون والنور أخبار وأخبار[3]
أطلقت فيه عنان النظم ، فاطردت ... خيل لها فى بديع الشعر مضمار

ولا ريب أن ابن الذروى أكثر إجادة من ابن قلاقس : فبينما حدثنا الأول عن شعوره عند ما ارتقاها ، إذا بالثانى يقف فحسب عند الحديث على ارتفاعها ، ورسو قرارها .

ووصف الشعر كذلك ما أنشىء بالقاهرة ودمشق من معاهد للعلم باركها الشعر ، وأثنى على من أنشأها ، وقد أوردنا بعض ما قيل فى مدارس القاهرة فى كتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية[4] . ومما قاله الشعراء فى المدرسة النورية التى أنشأها نور الدين محمود قول العرقلة :

ومدرسة سيدرس كل شىء ... وتبقى فى حمى علم ونسك
تضوع ذكرها شرقا وغرباً ... بنور الدين محمود بن زنكى
يقول وقوله حق وصدق ... بغير كناية وبغـــير شك

---

(١) المرجع السابق خطط المقريزى ج ١ ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .
(٢) النسران : كوكبان واقع وطائر .
(٣) هذا البيت لم يرد فى ديوان ابن قلاقس وأثبته المقريزى فى الخطط ج ١ ص ٢٥٥ وزاد الديوان ص ٥١ بيتين آخرين .
(٤) ص ٣٨ و ٣٩ و ٤١ .

دمشق فی المدائن بیت ملکی ٭ وهذی فی المدارس بیت ملکی[١]

وبما هو جدير بالذكر أن شعر الوصف بجميع ألوانه قليل بالنسبة إلى الأنواع الأخرى، وكثيراً ما يأتى عرضاً بين ثناياها، ولعل ذلك راجع إلى أن الشعر كان يعيش يومئذ فى كنف الأمراء والعظماء، فلم يفرغ الشعراء إلى الطبيعة وجمالها. وقل فى هذا العصر كذلك شعر الطبيعة عند شعراء الشام، وفى الأحداث الجارية فيه فى ذلك الحين والمآسى التى مرت بأهله ما صرف الشعراء عن التغنى بجمال الطبيعة، ولكنه سجل ما أصاب الشام سنة خمس وستين وخمسمائة، من زلزلة كبرى، خربت بلاده، وهدمت أسواره وقلاعه، وأسقطت دوره على أهلها، وأهلكت من سكانه يخرج عن العد والاحصاء، ومع ذلك خف وقع مصيبته عند ما دمرت هذه الزلزلة بلاد الصليبيين، حتى لقد نسى العماد هول ما نزل بما تحت يد المسلمين من بلاد الشام، ومضى يتغنى بمصاب الفرنج فى بلادهم، إذ قال:

جل رزء الفرنج، فاستبدلوا منـــه بلبس الحديد لبس الحداد
أخذتهم بالحق رجفة بأس ٭ تركتهم صرعى صروف العوادى
خفضت من قلاعها كل عال ٭ وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه، فهو ماض ٭ وظهر سر غيبه، فهو باد
آية آثرت ذوى الشرك بالهلك ٭ وأهل التوحيد بالإرشاد
والأعادى جرى عليهم من التدمير ما قد جرى على قوم عاد
ويحق أصيبت الأرض لما اشتكت من مقام أهل الفساد[٢]

أما زلازل سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة فقد توالت عدة مرات، وخربت عدة بلاد، وهلك عدد لا يحصى من الناس، قال ابن الأثير: ولولا أن الله تعالى من على المسلمين بنور الدين، جمع وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الافرنج بغير حصار ولا قتال، وقد أكثر الشعراء من الحديث عن هذه الزلازل، ومن ذلك ما قاله أسامة بن منقذ:

يا أرحم الراحمين ارحم عبادك من ٭ هذى الزلازل، فهى الهلك والعطب

---

(١) الروضتين ج ١ ص ٢٢٩. (٢) المرجع السابق ص ١٨٥.

فماجت بهم أرضهم ، حتى كأنهم ركاب بحر مع الأنفاس يضطرب
فنصفهم هلكوا فيها ، ونصفهم لمصرع السلف الماضين يرتقب
تعوضوا من مشيدات المنازل بالأكواخ ، فهى قبور سقفها خشب
كأنها سفن ، قد أقبلت ، وهم فيها ، فلاملجأ منها ، ولاهرب[1]

الغــزل

وكان للغزل نصيب موفور فى ذلك العصر ، قصد إليه الشعراء قصداً ، ووضعوه فى أول قصائدهم ، ذات الأغراض المختلفة ، حتى جعلوه أول المراثى ، وقد بلغ بعض قصائد الغزل يومئذ أرفع درجات السمو فى تعبيرها عن تلك العاطفة السامية .

وتنوع الغزل يومئذ بين غزل راض سعيد ، وآخر ثائر ساخط ، وغيرهما عاتب ، أو مسترض ، أو شاك ، أو واصف ، أو ناقم ، وهو فى جميع مناحيه لا يقل فى جملته عن أسلوب الغزل فى أرقى عصور العربية شأواً ، ومن ذلك قول أسامة بن منقذ :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مر يوما بفكرى ما يريبهم ولا سعت بى إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهداً ، ولا اطلعت على ودائعهم فى صدرى التهم
فليت شعرى بما استوجبت هجرهم ملوا ، فصدهم عن وصلى السأم
حفظت ماضيعوا ، أغضيت حين جنوا وفيت إذ غدروا ، واصلت إذ صرموا
حرمت ماكنت أرجو من ودادهم ما الرزق إلا الذى تجرى به القسم
محاسنى منـــذ ملونى ، بأعينهم قذى ، وذكرى فى آذانهم صمم
وبعد ، لو قيل لى : ماذا تحب ، وما مناك من زينة الدنيا ؟ لقلت : هم
هم مجال الكرى من مقلتى ، ومن قلبى محل المنى ، جاروا أو اجترموا
تبدلوا بى ، ولا أبغى بهم بدلا حسبى هم ، أنصفوا فى الحكم ، أو ظلموا[2]

بل لقد خص بعض الشعراء معظم شعرهم بالغزل ، كشمس الدين محمد بن سليمان

---

(١) الروضتين جـ١ ص ١٠٥ . (٢) ديوان أسامة ص ٤٤ .

التلمسانى المعروف بالشاب الظريف ، المتوفى سنة ثمان وثمانين وستمائة للهجرة ، فإن أكثر شعره غزل ، كقوله :

لا أسهر الله طرفا نام عن سهرى وعذب القلب بالأشجان والفكر
ولا سق داره يوماً ، إذا سقيت دار بدمعى ، إلا وابل المطر
يا قوم ، قد شفنى وجدى ببدر دجى على قضيب أراك ناعم نضر
ظبى من الإنس ، لولا سحر مقلته ما بت فيه بليل غير ذى سحر
فى حاجبيه ، وعينيه ، ومنطقه شبه من القوس ، والأسهام ، والوتر
روض الجمال ، وأفق الحسن ، فهو لذا قد راح يجمع بين الغصن والقمر[1]

وكان ديوان التلعفرى المتوفى بحماه سنة ٦٧٥ هـ كله غزلا . ولا زلنا إلى اليوم نردد تلك الأغنية الغزلية لابن النبيه أحد شعراء ذلك العصر ، وهى قوله :

أفديه ، إن حفظ الهوى ، أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه عذباً فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل ، تدارك الصبر الجميل ، فقد عفا ، وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم ضمت جوانحه فؤادا موجعا
هل من سبيل أن أبث صبابتى أو أشتكى بلواى ، أو أتوجعا
إنى لأستحيي كما عودتنى بسوى رضاك إليك أن أتشفعا[2]

واستمر شعراء ذلك العصر أيضا يتغزلون بالمذكر ، كأسلافهم من قبل ، كقول التلمسانى :

أيها المودع قلبى نار وجد تتوقد
كيف تستأهل نارا مهجة تهوى محمد
نحم حسن لفؤادى فيه وجد يتجدد

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٤١ .
(٢) ديوان ابن النبيه ص ٦ .

نوءه بالطرف ، والنا ر بقلبي ليس تخمد[١]

بل لقد شبب الشعراء بالملك العادل سلامش ، الذى ولى العرش بعد أبيه الملك الظاهر بيبرس ، لما منحه من جمال ، صار مضرب المثل ، حتى يقول القائل : « ثغر سلامشى[٢] » .

وأرخ بعضهم لحب الغلمان ومن شهر بهذا الحب كما فعل أحمد بن يوسف التيفاشى المتوفى بالقاهرة سنة ٦٥١ هـ . فى كتاب سماه : « نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب[٣] » ضمنه أوصاف الغلمان المرد ، وأحوال من شغف بهم ، وما ورد فيهم .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن بعض الشعراء تغزل فى إفرنجيات . حكى الفقيه عبد الوهاب الدمشقى ببغداد سنة ٥٥٠ هـ ، قال : دخل القيسرانى سنة ٥٤٠ هـ بلد أنطاكية لحاجة عرضت له ، فنظم مقطعات يشبب فيها بإفرنجيات ، فمنها قوله فى إفرنجية يصفها بزرقة العين :

لقد فتنتنى فرنجية نسيم العبير بها يعبق[٤]
فنى ثوبها غصن ناعم وفى تاجها قمر مشرق
وإن تك فى عينها زرقة فإن سنان القنا[٥] أزرق[٦]

وقال فى أخرى :

واحربا فى الثغور من بلد يضحك حسنا ، كأنه ثغر
ترى قصوراً ، كأنها بيع ناطقة فى خلالها الصور
هالات طاقاتهن آهلة يبسم فى كل هالة قمر
سوافر ، كلما شعرن بنا برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته بدر ، ولكن ليله شعر

---

(١) ديوان الشاب الظريف ص ٣٣ . (٢) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٨٩ .
(٣) الكتاب مخطوط فى ٩٧ ورقة بمكتبة الأزهر رقم ٤٢٣ – أباظة (٧٠١٩ / أدب)
(٤) عبق به الطيب عبقا من باب تعب : ظهرت ريحه بثوبه أو بدنه .
(٥) جمع قناة وهى الرمح . (٦) خريدة القصر جـ ١ ص ٨ .

فهو إذا ما السلو حاربه ... كان لتلك الظفائر الظفر
فيا عذولى فيهن ، دع كلفي[١] ... وانظر إلى الشمس هل لها طرر[٢]
وكن معيني على ذوى خدع ... إن سالم القلب حارب النظر
سرت وخلفت فى ديارهم ... قلبا تمنيت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بها ... للقرب حتى غبطت من أسروا[٣]

وقال فى كنيسة السيدة ، وهى قبة شاهقة للنصارى ، بأنطاكية :

متى عجت[٤] يا صاح بالسيدة ... فسل عن فؤادى فى الأفئدة
وقلبك حذره عن أن يصاد ... فإن بها للهوى مصيدة
وجوه تباهى قناديلها ... ببهجة نيرانها الموقدة
ترى كل مستضعف خصره ... إذا ما دعا طرفه أنجده
وذات روادف عند القيام ... تحسبها أنها مقعدة
وبدر من الشعر فى غاسق ... يضاحك أبيضه أسوده
فيالى من ذلك الزبرقان[٥] ... إذا زرفن[٦] الليل[٧] أو جعده
محل جمال[٨] ، إذا ما رأيت ... أمرده ، قلت : ما أمرده[٩]
به كل نشوانة لحظها ... يطرق[١٠] بين يدى عربده
صوارم ، قاطعة فى الجفون ، ... فهى مجردة ، مغمدة
فهل أنا من فى سبيل الغرام ... أورده الحب ما أورده
فهل لدم فات من طالب . ... وهيهات أعجز يوم غده

---

(١) الكلف : العشق . (٢) جمع طرة وهى الناصية .
(٣) الخريدة جـ ١ ص ٨ .
(٤) عاج : أقام ، ووقف ، ووجم ، وعطف رأس البعير بالزمام .
(٥) الزبرقان : القمر .
(٦) زرفن صدغيه : جعلهما كالزرفين وهو حلقة الباب .
(٧) يريد بالليل شعر الحبيب . (٨) فى الأصل « حيال » تحريف .
(٩) مرد : عتا . (١٠) طرق : جعل له طريقا .

وكيف يجازى بقتل النفوس من لم يمد إليها يده(١)

ولم أجد ظاهرة الغزل بالفرنجيات عند غير ابن القيسراني، وربما كان قد هيء له من أسباب الإتصال بالفرنج في أماكن اجتماعهم ما لم يهيأ لغيره من الشعراء.

التصرف:

وشهد هذا العصر شاعرين من أعظم شعراء التصوف هما ابن عربي وابن الفارض وقد كان الشعر والتغني به من أقوى ما ابتدعه الصوفية لتحريك وجدانهم الديني فكثيراً ما كانت تعترى الواحد منهم حالة الجذب عند سماع بضعة أبيات من الشعر تتغنى بها إحدى القيان عرضا أو يغنيها أحدهم قصداً(٢).

وكثيراً ما يشبه الشعر الصوفى الشعر الغزلى فى التغني بالجمال، والحنين إليه، وفى كثير من الأحيان لا تستطيع التمييز بين قصيدتين: إحداهما يتغنى صاحبها بالحب الانسانى، والأخرى بالحب الإلهى(٣). وقد استخدم الصوفية لغة الحب، ورموز المحبين، لأنهم لم يجدوا وسيلة أقوم ولا أقدر فى التعبير عن مواجدهم وأحوالهم من هذه الطريقة وذلك المنهاج، لأن الصوفى يدع قلبه يفيض بالمعانى المتعلقة بالوحدة الوجودية الشاملة، وبذلك الحب القاهر، الذى هو الأساس الحقيق القائم عليه كل شيء(٤). ذلك أن الصوفى يرى الحق وهو الله أصل كل وجود، والحق كما يصوره شعراء الصوفية هو الجمال الأزلى المطلق، المعشوق على الحقيقة فى كل جميل، بل إن ما يسمى بالحب الانساني ليس على الحقيقة إلا حبا إلهيا، وبرزخا موصلا إليه، والنفس الانسانية تشتاق إلى الاتصال بالحق، وتحن إلى الرجوع إليه، وهذا الشوق الذى يدفعها إلى الفناء عن ذاتها هو وحده السبيل إلى عودتها إلى وطنها القديم، والحب غايته الاتحاد. وقد اعتبر الصوفية الحب أساس للأديان جميعها وفى ذلك يقول محي الدين بن عربى:

لقد صار قلبي قابلا كل صورة　　　فمرعى لغزلان، ودير لرهبان

---

(١) خريدة القصر ١ : ٨٠.
(٢) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٩٤.
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) المرجع السابق نفسه ص ٩١.

وبيت لأوثان ، وكعبة طائف　　وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت　　ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى[١]

وكانت قصائد ابن الفارض وابن عربى نتيجة لوحى أحوال الوجد الصوفى ، وتزدان بجمال النظم ، ورقة الأسلوب وأناقته ، وقصائد ابن الفارض فى الطبقة الأولى منه ، وقصائد ابن عربى فيها الشىء الكثير من الجمال ، بالرغم مما فى أسلوبها من الغموض . ومن خصائص هذه القصائد أن أوزانها وأنغامها وما صيغت فيه من الأساليب الرمزية ، كل أولئك عوامل تساعد على انتقال أحوال الوجد التى يشعر بها الشاعر الصوفى ، إلى سامعيه ، ويزداد أثرها فى السامع ، إذا أنشدت كما تنشد عادة فى حفلات الذكر ، مصحوبة بالموسيقى .

وكان ابن عربى من المتصوفة الذين يؤمنون بوحدة الوجود ، أى أن الله وحده هو الوجود الحقيق ، الظاهر فى كل مظهر من مظاهر الخلق المتجلى فى صورة الصوفى عند فنائه عن نفسه ، فى حال وجده[٢] . سمع سائلا فى السوق يكدى الناس ، وهو يقول فى جناب الحق تعالى . يا من هو الكل ، والكل إليه ، فطاب على قوله ، وأنشد :

سمعت من ليس يدرى ما يقول به　　قد قال فى الله ، إن الكل هو وإليه
إن الاله بعين الحق أنطقــه　　بما هو الأمر فيما قال فيه عليه[٣]

وترك ابن عربى عدة دواوين فى الشعر الصوفى ، كما ترك ابن الفارض أثراً فريداً فى بابه عند المتصوفة هو التائية الكبرى ، التى تحدث فيها عن معراجه الروحى ، وهى مصوغة فى قالب شعرى رمزى دقيق بديع فى نظرهم .

يتحدث ابن الفارض فى تائيته الكبرى ، بلسان الصوفى ، الذى وصل إلى مقام (الاتحاد) ويخاطب فى أوائلها أحد أصحابه ، فيذكر عهده الأول بالحب الالهى ، وما عاناه فيه : من شدائد وعقبات ، لأنه قاصر عن درجة الكمال ، ويشرح كيف سعى إلى تفريج الهم عن

---

(١) المرجع السابق ص ٩٢ — ٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٧١ و ٧٣ .
(٣) ديوان ابن عربى ص ٣٢٤ .

نفسه ، ببثه ذلك الحب إلى المحبوب ، إذ يقول (١) :

ولم أحك في حبيك حالي تبرما ... بها لاضطراب، بل لتنفيس كربتي (٢)
ويحسن إظهار التجلد للعدا ... ويقبح غير العجز عند الأحبة
ويمنعني شكواي حسن تبصري ... ولم أشك للأعداء مابي لأشكت (٣)
وعقبى اصطباري في هواك حميدة ... عليك ، ولكن عنك غير حميدة (٤)
وما حل بي من محنة فهو منحة ... وقد سلمت من حل عقد عزيمتي (٥)
وكل أذى في الحب منك إذا بدا ... جعلت له شكري مكان شكيتي
نعم ، وتباريح الصبابة إن عدت ... على من النعماء في الحب عدت (٦)
ومنك شقائي بل بلائي منة ... وفيك لباس البؤس أسبغ نعمة

. . . . .

ومن يتحرش بالجمال إلى الردى ... رأى نفسه من أنفس العيش ردت (٧)
ونفس ترى في الحب ألا ترى عنا ... متى ما تصدت للصبابة صدت ( )

ثم يؤكد بعد لحبيبه أن حبه ثابت على مر الأيام لا يتغير ، فيقول :

ولي نفس حر لو بذلت لها على ... تسليك ما فوق المنى ما تسلت
ولو أبعدت بالصد، والهجر ،والقلى ... وقطع الرجا عن خلتي ما تخلت (٩)

---

(١) التائية الكبرى : الأبيات ٤٢ ــ ٥٩ .

(٢) المعنى لم أتحدث عن حالى فى حبك وما لاقيته من عناء ومشقة تبرماً بهذه الحالة لما أصابنى فيها من اضطراب ولكننى تحدثت عن حالى لأفرج الهم عن نفسى ببث ذلك الحب .

(٣) شكى إليه فأشكاه : أزال شكواه وأرضاه .

(٤) أى أن عقبى صبرى عليك بتحمل الأذى الذى يصيبنى فى هواك محمودة أما إذا تحملت صبرى وبعدى عنك فالعاقبة غير حميدة .

(٥) عزمتى : فاعل سلمت

(٦) أى ان عدت على تباريح الصبابة عددت ذلك من نعم الحب .

(٧) المعنى : من يتعرض لأخطار الجمال رأى نفسه قد ردت من العيش النفيس إلى الموت وفى البيت تقديم وتأخير .

(٨) أى أن نفسى تؤمن بأنها لا ترى عناء فى الحب تصد عنه وتغنم إذا تعرضت له .

(٩) أي ما تخلت نفسي عن خلتها ولو أبعدت بالصد وسواه .

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب(١) ‏ ‏ ‏ ‏ وإن ملت يوما عنه فارقت ملتي(٢)

ثم يشير ابن الفارض إلى قوله تعالى: «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم؟ قالوا: بلى». وتلك الآية يسميها الصوفية (آية العهد)، لأن الله تعالى قد صرح فيها كما يعتقدون بأنه أخذ على بنى آدم عهد المحبة بينه وبينهم، ويقول ابن الفارض: إنه أخذ ذلك العهد قبل أن تتلبس نفسه بطينة جسده، وأنه لم يحنث بذلك أبداً، ويقسم أغلظ القسم بصفات جمال المحبوب وجلاله، أنه يقول فى ذلك قولا لا رجعة فيه:

ومحكم عهـــد لم يخامره بيننا ‏ ‏ ‏ ‏ تخيل نسخ، وهو خير ألية(٣)
وأخذك ميثاق الولا حيث لم أبن ‏ ‏ ‏ ‏ بمظهر لبس النفس فى فى‌ء طينتى(٤)
لأنت منى قلبى، وغاية بغيتى ‏ ‏ ‏ ‏ وأقصى مرادى، واختيارى، وخيرتى

وهنا يجيبه المحبوب بأن دعواه الحب محض ادعاء ورياء، وأن رؤيته المحبوب ليس إلا رؤيته لنفسه، وحبه إياه ليس إلا حبه لنفسه، وأن الحب الخالص ليس إلا الفناء فى المحبوب، يقول على لسان المحبوب:

حليف غرام أنت، لكن بنفسه ‏ ‏ ‏ ‏ وإبقاك وصفا منك بعض أدلتى
فلم تهونى ما لم تكن فى فانيا ‏ ‏ ‏ ‏ ولم تفن ما لم تجتلى فيك صورتى
هو الحب إن لم تقض لم تقض مأربا ‏ ‏ ‏ ‏ من الحب فاختر ذاك أو خل خلتى(٥)

ويرد على المحبوب محتجا بأن الموت أعز أمانيه، ويتضرع إليه أن يسعفه مما كان فيه من الآلام:

فقلت لها: روحى لديك، وقبضها ‏ ‏ ‏ ‏ إليك، ومن لى أن تكون بقبضتى(٦)

---

(١) أى ليس لى منصرف عن مذهبي فى الحب. (٢) التائية الكبرى الأبيات: ٦٢ — ٦٤.
(٣) أى قسما بالعهد المحكم الموثوق به الذى أخذته على «إشارة إلى آية العهد» وهو عهد لم يخالطه بينى وبينك أى وهم فى ابطاله وقسمى بهذا العهد خير قسم.
(٤) أى حيث لم تظهر نفسى فى ظلال جسدى. (٥) التائية الكبرى الأبيات ٩٨ — ١٠٢.
(٦) أى أن روحى بين يديك وقبضها موكول إليك وإنى لأتمنى أن لو كانت فى قبضة يدى فكنت حينئذ أقدمها إليك.

وما أنا بالشانى[1] الوفاة على الهوى ... وشأنى الوفا تأبى سواه سجيتى
وماذا عسى عنى يقال سوى قضى ... فلان هوى ؟ من لى بذا ؟ وهو بغيتى

ثم يصف بعدئذ الفناء ، وهو الحال التى تتجرد فيها النفس عن رغباتها ، وميولها ، وبواعثها ، بحيث تتعطل إرادتها وتموت ، فإذا ماتت الإرادة أصبحت النفس طوع الارادة الالهية ، تحركها كيف تشاء ، وهذا هو حب الله لها ، ولكن المحب والمحبوب شىء واحد هو جوهر النفس وباطنها ، وهكذا نجد العابد ، والمعبود ، والعاشق ، والمعشوق ، متحدين فى شخصية واحدة :

كلانا مصل واحد ، ساجد إلى ... حقيقته بالجمع فى كل سجدة
وما كان لى صلى سواى ، ولم تكن ... صلاتى لغيرى فى أدا كل ركعة[2]

وابن الفارض يستعمل لغة أصحاب وحدة الوجود ، فى وصفه الاتحاد بالذات الالهية المحبوبة ، حيث يقول :

ووصفى ، إذا لم تدع باثنين ، وصفها ... وهيئتها ، إذ واحد نحن ، هيئتى
فإن دعيت كنت المجيب ، وإن أكن ... منادى أجابت من دعانى ولبت
وإن نطقت كنت المناجى ، كذاك إن ... قصصت حديثاً إنما هى قصت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا ... وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى[3]

وكثير من شعر ابن الفارض فيه هذه الرقة ، وإن حوى كثيراً من المحسنات البديعية ، وسيأتى فى ترجمته بعض نماذج له .

ومما يتصل بهذا اللون من الشعر قصائد أنشئت فى طريق الصوفية ، وأخرى فى الدعاء ، والتسبيح ، والابتهال إلى الله ، وغيرها أودع فيها منشئوها عقائدهم ، كما فعل عز الدين بن

---

(١) الشانى : المبغض .
(٢) التائية الكبرى ١٥٣ – ١٥٤ .
(٣) تحليل القصيدة على هذا الوجه مأخوذ من كتاب « فى التصرف الإسلامى وتاريخه » من ص ١٢٠ – ١٢٤ .

عبد السلام[١] ، وطلائع بن رزيك[٢] .

وإلى جانب هذه الأغراض تحدث الشعراء عن عواطفهم الشخصية ، وما مر بهم فى الحياة من أحداث ، لا يأخذها الحصر ، فشكوا حيناً ما ألم بهم من أحداث الدهر ، وابتهجوا إذا نالوا فى الحياة أملا ، أو بلغوا هدفا ، ومن ذلك الشعر الكثير لابن عنين يحن فيه إلى دمشق ، ويتشوق إليها بعد أن أمر صلاح الدين بإخراجه منها ، الى حيث يشاء من البلاد ، ومن ذلك قوله :

حنين الى الأوطان سوف يزول ... وقلب عن الأشواق ليس يحول
أبيت وأسراب النجوم كأنها ... قفول تهادى ، أثرهن قفول
أراقبها فى الليل من كل مطلع ... كأنى برعى السائرات كفيل
فيا لك من ليل نأى عنه صبحه ... فليس له فجر اليه يئول
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... وظلك يا مقرى[٣] على ظليل
وهل أرينى بعد ما شطت النوى ... ولى فى ربا روض هناك مقيل
دمشق ، فبي شوق اليها مبرح ... وإن لج واش ، أو ألح عذول
ديار بها الحصباء در ، وتربها ... عبير ، وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها ، وهو مطلق ... وصح نسيم الروض ، وهو عليل
فلله أيامى ، وغصن الصبا بها ... وريق وإذ وجه الزمان صقيل
هى الغرض الأقصى وإن لم يكن بها ... صديق ، ولم يصف الوداد خليل
فقدت الصبا ، والأهل ، والدار، والهوى ... فلله صبرى ، إنه لجميل
ووالله ما فارقتها عن ملالة ... سواى عن العهد القديم يحول
ولكن أبت أن تحمل الضيم همتى ... ونفس لها فوق السماك حلول
فإن الفتى يلقى المنايا مكرما ... ويكره طول العمر ، وهو ذليل
سألثم ، إن وافيتها ، ذلك الثرى ... وهيهات حالت دون ذاك حئول[٤]

(١) طبقات الشافعية ج ٥ ص ٨٥ .
(٢) خطط المقريزى ج ٤ ص ٨٢ .
(٣) قريه من نواحي دمشق .
(٤) ديوان ابن عنين ص ٦٨ .

والقصيدة طويلة ، وله غيرها قصائد كثيرة فى الحنين إلى دمشق .

ومن ذلك شعر العماد الأصفهانى ، يشتاق إلى دمشق إذا رحل عنها ، وعن مصر إذا فارقها ، وله فى ذلك شعر كثير فى الروضتين ، منه ما قاله فى قصيدة طويلة ، يشتاق إلى دمشق :

أجيران جيرون[1] مالى مجير — سوى عطفكم ، فاعدلوا ، أو فجوروا
ومالى سوى طيفكم زائر — فلا تمنعوه ، إذا لم تزوروا
يعز على بأن الفؤا — د لديكم أسير ، وعنكم أسير
وماكنت أعلم أنى أعيش بعد الأحبة — ، إنى صبور
وفت أدمعى ، غير أن الكرى — وقلبى وصبرى كل غدور
فقدتكم ، ففقدت الحياة — ويوم اللقاء يكون النشور[2]

ومن ذلك قول المبارك بن منقذ يصف ليلة سعيدة قضاها :

لما نزلت الدير قلت لصاحبى : — قم فاخطب الصهباء من شماسه
فأتى ، وفى يمناه كأس خلقها — مقبوسة فى الليل من نبراسه
وكأن ما فى كأسه من خده — وكأن ما فى خده من كاسه
وكأن لذة طعمها من ريقه — وأريجها الفياح من أنفاسه
لم أنس ليلة شربه بغنائه — إذ بات يجلوها على جلاسه
إذ قام يسقينا المدام ، وكلما — عاتبته رد الجواب براسه[3]

ومنه قول أسامة وقد علم وهو بحلب أن أهله وصلوا إلى دمشق ، بعد أن نهب الفرنج كل ماكان معهم ، وهم قادمون من مصر :

إلى الله أشكو فرقة دميت لها — جفونى ، وأذكت بالهموم ضميرى
تمادت، إلى أن لاذت النفس بالمنى — وطارت بها الأشواق كل مطير

---

(١) جيرون : دمشق .

(٢) الروضتين جـ ١ ص ٢٤٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٢١٧ .

فلما قضى الله الفراق تعرضت   مساءة هرى فى طريق سروري[١]

المجون :

وكان للمجون نصيب فى شعر هذا العصر ، عرف به طائفة من الشعراء واقتدوا فيه بمن سبقهم : كأبى نواس ، وأبى الرقعمق ، وتجد نماذج كثيرة لهذا الشعر الماجن فى كتاب خريدة القصر ، وعيون الأنباء ، والطالع السعيد ، وكتب ألفت للخلاعة بخاصة ، كما سنرى . وفى هذا الشعر يمجن الشاعر بنفسه حينا ، كما فى قول يحي بن على الكتبي ، الذى يفتخر بأنه محي مذهب أبى نواس فى المجون فيقول :

أنا نائب الشرع النواسى   دعنى وباطيتى وكاسى
أهوى الغزالة كاعبا   وأهيم بالظبي الخماسى
من كل معتدل ، رشيق القد ، ممشوق خِلاسى[٢]
لكن لإفلاسى حببت السامرى بلا مساس
لى منزل لا شىء فيه ، كأنه كيسى وراسى[٣]

وقول ابن مكنة :

أنا الذى حدثكم   عنه أبو الشمقمق
وقال عنى : إننى   كنت نديم المتقى
حتى متى أبقى كذا   تيسا طويل العنق
بلحية مسبلة   وشارب محلق
يا ليتها قد حلقت   من وجه شيخ خلق[٤]

وحينا يسخر بمنزله وضيقه ، كقول ابن مكنسة أيضا :

لى بيت كأنه بيت شعر   لابن حجاج[٥] من قصيد سخيف

---

(١) الروضتين ص ٩٩ .
(٢) الخلاسى بالكسر : الولد بين أبوين أبيض وأسود .
(٣) الخريدة ج ١ ورقة (١٠) .   (٤) المرجع السابق ورقة ١٩٤ .
(٥) هو الحسين بن الحجاج : شاعر عراقى ماجن .

سابقتنى بنات وردان حتى أنا فيه كفارة فى كنيف
أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله ، وهو مثل عقلى الضعيف
وإذا هب فيه ريح السراويل فسلم على اللحى والأنوف
بقعة صد مطلع الشمس عنها فأنا مذ سكنتها فى الكسوف
وهو لو كان من حجيجى ونسكى صدنى بغضه عن التطويف (١)

وحينا يتماجن فى الهجاء ، كقول أبى على حسن بن إسماعيل فى الشاعر: ابن باقى الجزار :

قالوا : ابن باقى شـاعر مقدم فى الشعرا
قلت : نعم قد قدمو ه عنهم إلى ورا
كأنما يمضغ فى انشا ده الشعر خرا (٢)

وقول أحد الشعراء يهجو الطبيب جرجس الملقب بالفيلسوف :

إن أبا الخير على جهله يخف فى كفته الفاضل
عليله المسكين من شؤمه فى بحر هلك ، ماله ساحل
ثلاثة تدخل فى دفعة : طلعته ، والنعش ، والغاسل (٣)

وقول الباهلى يهجو الطبيب المفشكل اليهودى على سبيل المرثية :

ألا عد عن ذكرى حبيب ومنزل وعرج على قبر الطبيب المفشكل
فيا رحمة الله استهينى بقبره وكونى عن الشيخ الوضيع بمعزل
ويا منكرا جود ، هديت ، قذاله بمقنعة واصقله صقل السجنجل
وكبكبه فى قعر الجحيم بوجهه كجلمود صخر حطه السيل من عل
فلا زال وكاف تزجيه ديمة عليه بمنهل من السلح مسبل
لقد حاز ذاك اللحد أخبث جيفة وأوضع ميت بين ترب وجندل
سأسبل من بطنى عليه مدامعى وأورده من ماثها شر منهل (٤)

---

(١) الخريدة ورقة ١٩٢ .
(٢) المرجع السابق ورقة ١٩٨ .
(٣) المرجع السابق ورقة ١٢٩ .
(٤) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٥٢ .

وقوله يهجو الأديب نصيرا الحلبي على سبيل المرثية ، وكان نصير قد اشتغل بالكتابة وتعرض للشعر ، والطب ، والنجوم :

يا هذه ، قومى اندبى مات نصير الحلبى
يرحمه الله ، لقد كان طويل الذنب
قد ضجت الأموات من لكهته فى الترب
وودهم لو عوضوا منه بكلب أجرب
والقوم بين صارخ ومعن فى الهرب
ومنكر يقول : ذا أوضع ميت مر بى
ما ضم بطن الأرض بين شرقها والمغرب
أخبث منه طينة فى عجمها والعرب[١]

وللباهلى أرجوزة ، وسمها : بمعرة البيت ذكر فيها ما ينال الإنسان إذا عمل دعوة للندماء من المضرة والغرامة ، وهى مذكورة فى عيون الأنباء[٢] ، وفيه كذلك قصيدة طويلة قالها الشيخ أبو الحكم المغربى الطبيب على لسان أبى الفتوح بن الصلاح ، وكان قد ورد من بغداد ، وأراد أن يستعمل له (تمشكا)[٣] بغداديا ، وسأل عن صانع مجيد لعمل ذلك ، فدل على رجل يقال له سعدان الاسكاف ، فاستعمل (التمشك) عنده ، ولما فرغ منه بعد مدة وجده ضيق الصدر ، زائد الطول ، رديء الصنعة ، فبقى فى أكثر أوقاته يعيبه ، ويستقبح صنعته ، ويلوم الذى استعمله فقال أبو الحكم على لسان ابن الصلاح قصيدة على سبيل المجون وذكر فيها أشياء كثيرة من اصطلاحات المنطق ، والألفاظ الحكمية ، والهندسية : ومطلعها :

مصابى مصاب تاه فى وصفه عقلى وأمرى عجيب شرحه يا أبا الفضل[٤]

بل خص بعض الشعراء معظم شعره بهذا اللون من المجون ، فلم يتجاوزه إلى ألوان الجد إلا قليلا كأبى الحكم عبيد الله الباهلى الذى دعا ديوانه نهج الوضاعة[٥] ، لأولى الخلاعه ، وما

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٢) ج ٢ ص ١٤٩ .
(٣) نوع من الأحذية .
(٤) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٦٤ و ص ١٦٥
(٥) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٥٥ .

كان يترك المجون ، حتى فى أشد المواقف حاجة إلى الجد ، كمواقف الرثاء ، فله مرثية فى عماد الدين زنكى ، شاب فيها الجد بالهزل(١) ، وله المقصورة الهزلية التى ضاهى بها مقصورة ابن دريد ومن جملتها :

وكل ملـــوم فلا بد له من فرقة لو لزقوه بالغرا(٢)

ومنهم أحمد بن يوسف ين عبد الله بن شكر المعروف بابن الصاحب ، وكان نادرة زمانه فى المجون ، والهزل ، وإنشاد الأشعار والبليقات(٣) ، وكان اشتغل فى صباه ، وحصـل ، ودرس ، ومن شعره :

يا نفس ميلى إلى التصابى فاللهو منه الفـتى يعيش
ولا تملى من سكر يوم إن أعوز الخمر فالحشيش

وله فى المعنى :

فى خمار الحشيش معنى مرامى يا أهيل العقول والأفهام
حرموها من غـير عقل ونقل وحرام تحريم غير الحرام(٤)

ومنهم الحسن بن هبة الله الأدفوى ، كان شاعراً خليعا ، يعرف شيئا من الموسيقى ، وله نماذج فى كتاب الطالع السعيد(٥) .

وهذه الروح الفكهة المرحة تدل على أن العصر فى جملته لم يكن عصراً متزمتا ، بل وسع صدره هذه الألوان من المجون ، كما وسع هذه الحفلات الأنيقة التى كان يغنى بها الفاطميون ، فى أوائل عصر الحروب الصليبية ، وإن كنت ألحظ أن روح الفكاهة تقل بمرور الزمن ، فبينا هى كثيرة فى أيام الدولة الفاطمية ، إذ بها تأخذ فى القلة أيام الدولة الأيوبية ، وتكاد تبيد فى آخر عصر هذه الحروب ، وأوائل عهد المماليك ، فهل كان لهذه الحروب الدائمة المتصلة أثرها فى إخماد روح المجون والفكاهة ؟ أرجح ذلك ، فقد كانت هـذه الروح قوية عندما كانت مصر بعيدة نوعا ما عن هذه الحروب فى عصر الدولة الفاطمية . بينما لم تكن

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٧٤ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) نوع من التواشيح العامية .
(٤) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٧٨ — ٣٨٠ .
(٥) ص ١١٢ .

هذه الروح واضحة يومئذ فى الشام ، فلما خاضت مصر غمار هذه الحروب ، وحملت أعظم العبء فيها ، وشاركت الشام مشاركة فعالية ، ضعفت هذه الروح وكادت تتلاشى .

الألغاز :

ومن ألوان الفكاهة فى الشعر هذه الألغاز التى كان بعض الشعراء يعنى بها يومئذ ، غير أن هذه الظاهرة لم تكن كثيرة الذيوع ؛ ولكنك تعثر عليها فى الحين بعد الحين ، وهو لون من أدب الكنايات ، كما كتب السراج الوراق إلى الشهاب محمود بن سليمان ملغزاً فى « سجادة » :

يا إماما ، ألفاظه الغر فى الأسما ع تزرى بالدر فى الأسماط
وشهابا تجاوز الشهب قدرا فغدت عن علاه ذات انحطاط
أى أنثى وطئت منها حلالا مستبيحاً ما لا يباح لواطى
لم أحاول تقبيلها غير خمس حال زهدى فيها . وحال اغتباطى
وهى فى صورة خماسية ما . فتهت ، لا ولا دنت للتواطى
وهى مملوكة ، وعند أناس هى ست على اختلاف التعاطى
ونصيب الإيمان يسعى إليها طالب الله ، وهو عبد خاطى
وأرى أن تحلها بيمين ويسار فقد غدت فى رباط

فكتب إليه شهاب الدين الجواب قائلا :

يا سراجا ، لما سمت باسمه الشمس غدا البدر دونها فى انحطاط
أنت بحر ، نداك موج ، وألفاظك در ، وصنع يمناك شاطى
لا تلمنى إذا نظمت معانيك ، فمن در فيك كان التقاطى
أنت ألغزت فى اسم ذات رقاع لم تجاهد ، وكم غدت فى رباط
حازها تابع الجلى ، فحاز السبق من دونه بغير اشتراط
مذ علاها فى أول الصف أضحى كسليمان فوق متن البساط(١)

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٨٧ .

وفى ديوان ابن عنين باب خاص بالألغاز ، يمتاز بالرقة والبعد عن الجفاف ، الذى يمتاز به عادة هذا اللون من الشعر ، واستطاع ابن عنين أن يبعث فى معظمه القوة والحياة ، ومن أجمل هذه الألغاز لغز فى حبل الغسيل ، كتب به إليه عفيف الدين على بن عدلان[١] :

ما ضئيل له الهـواء مقيل مكتس يومه ، وفى الليل عار
ويرى لابساً صنوف ثياب وهو ذو فاقة حليف افتقار
تعتليه الكسى ثقالا ، فيلقيـهـا خفافا فى أخريات النهار

فأجابه ابن عنين بقوله :

أيها السيد الأجـل ، عفيف الـدين ، زين الحجا ، وحلف الوقار
أنت من أسرة عتادهم فى المجـد بذل الندى وحفظ الجار
سادة جمعوا شتات المعالى عظماء الحلوم والأخطار
والمجلى فى كل حلبة سبق وسواك السكيت[٢] غير الجارى
كاسياً من ثياب فضل وفخر عاريا من لباس ذل وعار
لا تخلى بمن يجاريك فى اللغـز ، وقد فر منك كل مجارى
كل يوم تجيئنى بعويص من قوافيك ، متعب أفكارى
كان لى قدرة على اللغز ، إذ حبـلى متين ، وزند فكرى وارى
وحقيق بالثلب ثلب[٣] تصدى لمجاراة بازل[٤] خطار[٥]
غير أنى أظن أنك تكنى عن رفيع محله ذى احتقار
أبدا يكتسى العوارى من النا س ومن يكتسى العوارى عارى
فهو يكسى ، واليوم صحو ويعرى جسمه فى مواقع الأمطار

---

(١) نحوى مترجم ، ولد سنة ٥٨٣ هـ ، وكان علامة فى الأدب ، ذكياً انفرد بالترجمة ، وحل الألغاز ، وله مصنفات فى ذلك ، مات بمصر سنة ٦٦٦ هـ — وترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٥٩ ، وبغية الوعاة ص ٣٤٣ ، والنجوم الزاهرة ج٧ ص ٢٢٦ ، والسلوك ج ١ ص ٥٧٢ .

(٢) السكيت : آخر خيل الحلبة .

(٣) الثلب : البعير انكسرت أنيابه من الهرم وتناثر ذنبه .

(٤) البازل : الجمل فى تاسع سنيه . (٥) خطر الفحل بذنبه : ضرب يميناً وشمالا .

فإذا لم أجب فغير ملوم أن يروم المشيب إطفاء نارى
ولعمرى، لقد نطقت صريحا باسمه فانجلى كضوء النهار[١]

وتجد بعض نماذج من هذه الألغاز فى ترجمة على بن عدلان المذكور .

الشعر والغناء :

ومضى المغنون فى هذا العصر يلحنون شعر معاصريهم، ويتغنون به ، وقد تنوع الغناء يومئذ بين مدح لأبطال الحروب الصليبية، وتشجيع للجند على مجاهة العدو وحربه ، وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد، وبين غزل رقيق . وشهر تقى الدين السروجى بكثرة ما غنى به من شعره[٢] . ومما حفظ لنا من الغزل الذى غنى به يومئذ أبيات لعبد الغفار بن أحمد القوصى ، كتب بها لجعفر المزمزم ، ليلحنها ، فلحنها ، وغناها ، وهى :

أنا أفتى أن ترك الحب ذنب آثم فى مذهبى من لا يحب
ذق على أمرى مرارات الهوى فهو حلو ، وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن صبوة عذرية ما ذاك قلب[٣]

وجمع بعضهم بين معرفة الشعر والموسيقى ، كأحمد بن كامل القوصى المنعوت بالصلاح ، فقد تأدب على أدباء قوص ، وكان يقول الشعر ، ويلحنه ، ويغنى به ، ومن ذلك قوله :

منى إليك تحيـــة وسلام ما ناح قمرى[٤] وفاح خزام[٥]
وتأرجحت[٦] فى أيكها قمرية وشدا على أعلى الغصون حمام
فلئن عداتى عن زيارة داركم عاد وحالت بيننا اللوام
فأنا محبكم الذى ما غيرت عهدى الليالى لا ولا الأيام[٧]

(١) ديوان ابن عنين ص ١٦٨ .
(٢) فوات الوفيات حـ ١ ص ٢٢٠ .
(٣) الطالع السعيد ص ١٧١ .
(٤) القمرى : ضرب من الحمام .
(٥) الذى فى القاموس « الخزامى » وهو خيرى البر .
(٦) فى الأصل « تارجت » ولا معنى لها .
(٧) الطالع السعيد ص ٥٣ .

النظم العلمى :

ووجد العلماء والمؤلفون فى وزن الشعر مساعداً للطلبة على حفظ ما يريدون من قواعد العلوم ، فنظموا معارفهم ، ورأينا جميع مواد هذا العصر يضع فيها المؤلفون منظومات ، حتى فى الطب والتاريخ . وكتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية يلقى ضوءاً على هذه الناحية .

ومما هو جدير بالإضافة هنا أن محمد بن الحسن بن الصائغ النحوى الأديب له قصيدة فى نحو ألف بيت فى الصنائع والفنون ، لعلها كانت تقرأ عليه فى حانوته بالصاغة [١] .

— ٢ —

أسلوبه

وبعد فإن مصر عرفت الأدب العربى ، وافداً عليها مع العرب الفاتحين ، وعاش غريباً عن المصريين الذين لم يعرفوا لغة العرب ، إلا بعد حين طويل من الدهر ، فعاش الأديب العربى بين هؤلاء الوافدين وحدهم شعراً وخطابة وكتابة ، ووفد على مصر فى عصرها الإسلامى الأول جماعة من الشعراء ، زاروا أمراءها ، ونالوا جوائزهم ، وعطاياهم ، من غير أن يشترك المصريون الخلص فى تذوق هذا الأدب وإنتاجه ، ولكن اللغة العربية بمرور الزمن عرفت طريقها إلى ألسنة المصريين ، فنبتت نابتة منهم ، تتذوق الأدب العربى وتشارك فى إنتاجه ، ونشأ أبناء العرب الوافدين فى مصر ، واختلطوا بالمصريين ، وصهرت الطبيعة المصرية من هؤلاء وأولئك جيلا جديداً ، لغته الدارجة العربية المحرفة ، ولغته الرسمية والدينية العربية الفصيحة ، واستطاع أحمد بن طولون حين أسس دولته فى مصر أن ينشىء ديوان إنشاء ، وأن يجد فى عاصمة ملكه طوائف كبيرة من الكتاب والشعراء والخطباء ، وبدأت مصر تكتب تاريخها الأدبى للغتها العربية ، وأخذت تساهم فى الانتاج الأدبى ، وتشارك الأقطار العربية الأخرى ، فى هذا الانتاج ، وتؤثر فيها وتتأثر بها ،

(١) بغية الوعاة ص ٣٤ .

فلما قامت الدولة الفاطمية ، وكانت تريد أن تنافس خلافة بغداد فى كل شىء ، صارت القاهرة مجال حركة أدبية ناشطة ، فلما شبت الحروب الصليبية وجدت بيئة أدبية صالحة ، وتركت هذه الحروب آثاراً كبيرة فى الشعر ، على ما سنرى .

أما فى الشام فلم يأت العرب الفاتحون بلغة جديدة ، ولم يحملوا معهم أدباً جديداً ، فقد كان العرب قبل الإسلام يسكنون هذه البلاد ، ومن أجل هذا كانت الشام أسبق إلى الأدب العربى من مصر ، وازدهر فيها هذا الأدب قبل أن يزدهر فى مصر ، وظل يتابع خطا تاريخ الأدب العربى ، حتى إذا جاءت الحروب الصليبية تأثر بها أدب هذه البلاد ، تأثراً بالغاً نبينه فيما يلى :

ولا أجدنى مغاليا إذا أنا زعمت أن الزعامة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية كانت لمصر والشام ، ففيهما غزر الانتاج العربى ، ونشأ أعظم الأدباء فى ذلك العصر ، ثم انفردتا بحماية الأدب بعد أن غزا هولاكو بغداد ، وحطم عرش الخلافة العباسية .

وقد اقتدى شعراء هذا العصر بأسلافهم فى مناهج الشعر ، ونظام القصيدة ، فلم يتعدوا نطاق الشعر الغنائى ، الذى بينا مظاهره المختلفة فى الفصل الماضى .

وتردد الشعر بين الأسلوب الجزل القوى ، فى الأغراض التى تتطلب هذه الجزالة ، وتلك سمة شعر المديح ، والرثاء ، والفخر . وبين السهولة فى الأغراض الأخرى ، وبخاصة الغزل ، إذ تعد السهولة شرطا فيه ، وفيما أوردناه من قبل أمثلة توضح هذه الصفة من صفات شعر هذا العصر .

وقد يفرط بعض الشعراء فى هذه السهولة حتى لتصبح ألفاظهم عامية خاضعة لقانون النحو ، كما فى قول تقى الدين السروجى .

يا ريس الحب ، أدركنى ، فقد رحلت   مراكب الحب بى فى بحر أشواق
ولى بضاعة صبر ضاع أكثرها   وقد علانا الهوى يستغرق الباقى[1]

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٢٣ .

وقد يعمد بعض الشعراء إلى الجمع بين الفصيح والعامى[١]، بل لقد شاع فى ذلك العصر النظم بالعامية، وتنوعت أوزان هذا النظم، وسمى بليقات، تعددت أوزانها، وهى نوع من التواشيح العامية، يوقف على معظم كلماتها بالسكون، كقول بعضهم هاجيا ومطلع (بليقته):

قاضى القضاة عزل نفسه لما ظهر للناس نحسه[٢]

ولكن شعر هذا العصر حافظ على سلامة العبارة، وإن كان فى جملته سهلا لا يميل إلى غرابة ولا تعقيـــد، ونهج كثير من شعراء ذلك العصر النهج الطبيعى فى شعرهم، فلم يعمدوا فيه إلى محسنات لفظية، أو زينات بديعية، إلا ما جاء فى الطريق عارضا غير مقصود كما تجد ذلك فى شعر أسامة بن منقذ، وعمارة اليمنى، وكثير منهم كذلك عمد إلى ألوان البديع يحشد منها فى شعره ما استطاع ويخضع شعره لقواعدها وقوانينها، كما فى شعر القاضى الفاضل والعماد الكاتب؛ فقـــد أغرما هما ومن لف لفهما بهذه المحسنات: من جناس، وطباق، واقتباس، وتورية، بل لقد قيل: إن الفاضل هو الذى عصر سلافة التورية لأهل عصره، وتقدم على المتقدمين بما أودع منها فى نظمه ونثره، فإنه رحمه الله تعالى كشف بعد طول التحجب ستر حجابها وأنزل الناس بعد تمهيدها بساحاتها ورحابها. وممن شرب من سلافة عصره، وأخذ عنه وانتظم فى سلكه بفرائد دره، القاضى السعيد بن سناء الملك، ولم يزل هو ومن عاصره مجتمعين على درر كأسها، ومتمسكين بطيب أنفاسها، إلى أن جاءت بعدهم حلبة صاروا فرسان ميدانها، والواسطة فى عقد جمانها، كالسراج الوراق[٣]، وأبى الحسين الجزار[٤]، والنصير الحمامى[٥]، وناصر الدين حسن بن النقيب[٦]، والحكيم شمس الدين

---

(١) انظر الأغنية التى كان يتغنى بها فى أسواق دمشق، لما أمر العادل سنة ٦١٠ هـ، بإحداث تركيب سلاسل على أفواه السكك المجاورة للجامع، ومدها فى أيام الجمع ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع وذلك لما ينال الناس من المشقة من زحمة الخيل التى يركبها بعض المصلين إلى الجامع ص ٨٢ ذيل الروضتين.

(٢) الطالع السعيد ص ٣٢٩.

(٣) ولد سنة ٦١٥ وتوفى سنة ٦٩٥.

(٤) ولد سنة ٦٠١ وتوفى سنة ٦٧٢.

(٥) توفى سنة ٧١٢.

(٦) توفى سنة ٦٨٧.

بن دانيال (١) ، والقاضى محي (٢) الدين بن عبد الظاهر (٣) .

واقتدى أهل الشام فى هذا الفن بالمصريين ، وكان إمام جماعتهم شرف الدين عبد العزيز الأنصارى شيخ شيوخ حماه(٤) ، وبعده مجير الدين بن تميم(٥) ، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي(٦) ، ومحيي الدين بن قرناص الحموى(٧) ، وشمس الدين بن العفيف(٨) وسيف الدين ابن المشد(٩)

ومن مستحسن تورية الفاضل قوله عند ما وصل مع صلاح الدين إلى الفرات مشتاقا إلى مصر :

بالله قل للنيـل عنى : إننى   لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فإنه لى شاهد   إن كان طرفى بالبكاء بخيلا
يا قلب ، كم خلفت ثم بثينة   وأعيذ صبرك أن يكون جميلا (١٠)

وقول ابن سناء الملك :

أما والله ، لولا خوف سخطك   لهان على ما ألقى برهطك
ملكت الخافقين ، فتهت عجبا   وليس هما سوى قلبي وقرطك (١١)

ولم يزل ابن سناء الملك يتلاعب فى التورية باختراعاته إلى أن ظهر بعده السراج ، وتعاصر هو وأبو الحسين الجزار ، والنصير الحمامى ، وتطارحوا كثيراً وساعدتهم صنائعهم وألقابهم فى نظم التورية(١٢) ، فمن أظرف ما وقع للسراج قوله :

كم قطع الجود من لسان   قلد من نظمه النحورا

(١) توفى سنة ٧١٠ .
(٢) ولد سنة ٦٢٠ وتوفى سنة ٦٩٢ .
(٣) خزانة الأدب ص ٢٩٨ .
(٤) ولد سنة ٥٨٦ وتوفى سنة ٦٦١ هـ .
(٥) توفى سنة ٦٨١ هـ .
(٦) توفى سنة ٦٨٠ هـ .
(٧) توفى سنة ٦٨٥ هـ .
(٨) ولد سنة ٦٦٢ وتوفى سنة ٦٨٧ هـ .
(٩) ولد سنة ٦٠٢ وتوفى سنة ٦٥٥ هـ .
(١٠) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٨٥ .
(١١) خزانة الأدب جـ ١ ص ٣٠٠ .
(١٢) المرجع السابق نفسه .

فها أنا شاعر ســـراج   فاقطع لسانى أزدك نورا(١)

وكتب إليه الأمير نصير الدين الحمامى ، وهو مقيم بالروضة :

كم قد ترددت للباب الكريم لكى   أبل شوقى وأحيى ميت أشعارى
وأنثنى خائبا مما أؤمله   وأنت فى روضة ، والقلب فى نار(٢)

ومن قول الجزار موريا فى صناعته :

ألا قل للذى يســـأل عن قومى وعن أهلى :
لقد تسأل عن قوم   كرام الفرع والأصل
ترجيهم بنو كلب   وتخشاهم بنو عجل(٣)

ومما ورد من الاقتباس قول ابن النبيه :

قمت ليل الصـــدود إلا قليلا   ثم رتلت ذكرهم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصــل   وهجرت الرقاد هجراً جميلا
مسمعى كلٌّ عن كلام عذول   حين ألقى عليه قولا ثقيلا
وفؤاد قد كان بين ضلوعى   أخذته الأحباب أخذاً وبيلا (٤)
قل لراقى الجفون : إن لعينى   فى بحار الدموع سبحا طويلا
ماس عجبا ، كأنه ما رأى غصـــنا رطيبا ، ولا كثيبا مهيلا
وحمى عن محبــه كأس ثغر   حين أضحى مزاجها زنجبيلا(٥)

ومما يسترعى النظر فى باب الصناعة ، هذه القصيدة التى التزم فيها القاضى الفاضل عد أربعة أشياء فى كل بيت من أبياتها ، من أول القصيدة إلى آخرها ، باستثناء مطلعها إذ يقول :

---

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٠٢ وفيه : « فلد فى نظمه التحورا » ولعله محرف عما ذكرناه .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٠٦ .   (٤) وبيلا : شديداً .
(٥) ديوان ابن النبيه ص ٥٦ ، وذلك غزل قصيدة مدح فى القاضى الفاضل .

الحسن جاد على الأحباب فازدادوا   لكن أحبابنا فى الحسن ما جادوا
فيهن من شبه الغزلان أربعـة   ثغر ، وطيب ، وأحداق، وأجياد
وكيف يبقى على العينين أربعـة   عِداً ، ودمع ، وإطراق ، وتسهاد

وهكذا ينتهى الشطر الأول فى كل بيت بكلمة (أربعـة) تفصل فى الشطر الثانى ، ويظل الحال كذلك إلى انتهاء القصيدة التى تبلغ أربعة وأربعين بيتا [١] .

ولست أنكر ما خلفته هذه الألوان وغيرها من وسم الشعر بسمة التكلف ، الذى أفقده روحه فى كثير من الأحيان ، وجعله أشبه ما يكون بتمرينات ، كتلك التى تطلب من طلبة المدارس ، واستمع إلى قول ابن البارزى ، يريد أن يشبه سبعة أشياء بسبعة أشياء :

يقطع بالسكين بطيخـة ، ضحى   على طبق ، فى مجلس ، لأصحابه
كبرق ، ببـدر ، قد شمسا أهـلة   لدى هالة فى الأفق ، بين كواكبه [٢]

ولعلى بن عمر أبى الحسن الهاشمى قصيدة خلت كلماتها من النقط [٣] .

وسوف نرى نماذج متنوعة عند ما ندرس الشعراء وآثارهم فى الفصل القادم .

وقد حافظ الشعراء على ما ورثوه من أوزان الشعر ، والمحافظة على القافية ، وأضافوا إلى ذلك وإن كان قليلا فى الجملة أوزان الموشح ، والدوبيت ، والمواليا ، والسلسلة . وكانت الموشحات أكثر حظا من أصحابها ، نظم فيها كثيرون ، منهم أبو محمد الواسطى ، وابن دانيال ، وشمس الدين بن الدهان ، وابن الوكيل ، والتلعفرى ، والواعظ الواسطى ، والنصير الحمامى ، وعثمان البلطى [٤] ، ويحيى بن بقى [٥] ، والقاضى الفاضل [٦] ، وابن سناء الملك [٧] ، بل إن ابن سناء الملك ألف كتابا فى ألوان الموشحات ، دعاه دار الطراز ، أتى فيه بأمثلة كثيرة لها ،

---

(١) القصيدة كلها فى شفاء القلوب ورقة ٦٨ .
(٢) أعيان العصر وأعوان النصر ج ٢ قسم ٢ .   (٣) الطالع السعيد س ٢١٠ .
(٤) تجـد لهؤلاء نماذج فى فوات الوفيات ج ٢ س ١٢٩ و ١٩٥ و ٢٤٩ و ٢٥٦ و ٢٨٠ و ٢٦٨ و ٣٠٩ و ٣٢ على التوالى .
(٥) له نموذج فى معجم الأدباء ج ٢٠ س ٢٤ .   (٦) له نموذج بالتذكرة الصفدية ج ١٤ س ٣٢ .
(٧) نماذجها فى ديوانه .

وتحدث فى أول الكتاب عما للموشحات فى الأدب من قيمة كبرى ، دعته لأن يصنف فى أصولها ما يكون للمتعلم مثالا يحتذى وسبيلا يقتفى . . . . ليكون للمنتهى تذكرة ، وللمبتدىء تبصرة [١] . والموشحات قسمان : منها ما جاء على أوزان أشعار العرب ، ومنها ما لا مدخل لشىء منه فى شىء من أوزان العرب ، وهذا القسم منها ، هو الكثير ، والجم الغفير [٢] والموشحات يعمل فيها ما يعمل فى أنواع الشعر : من الغزل ، والمدح ، والرثاء ، والهجاء ، والمجون والزهد [٣] .

ومما يلحظ فى هذه الموشحات أن الشاعر فيها قد يخرج من المدح إلى الغزل ، فيبدأ موشحه بالغزل ، ثم ينتقل منه إلى المدح ، ثم ينتقل من المدح إلى الغزل ، كقول أيدمر المحيوى من موشح مادحا :

كم موقف ليس للسلاح لاحى فى الأروس
وكاتب الموت بالرماح ماحى للأنفس
جنانه ظاهر افتضاح ضاحى لم يرمس
رزنت إذ خفت الحلوم شاهر بجوهراً يفعل ما تشتهى المنون

وهذا جزء من مدح طويل سبق ، ثم انتقل منه إلى الغزل الذى ختم به موشحته وهو :

وشادن بات للتجافى جافى وصده
عاهدنا أنه يوافى وافى لعهده
فورد الأنس والتصافى صافى بوعده
زارك من نحوه النسيم عاطر مخبراً أن اللقا فى غد يكون [٤]

وممن نظموا على وزن الدوبيت ابن العربى ، والتنوخى الشاعر وابن دقيق العيد ،

---

(١) دار الطراز ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) اقتبس الشاعر هذا البيت من شاعر آخر .

وابن مكى القرشى(١) ، والأسعد بن مماتى(٢) ، والفزارى المصرى(٣) ، والعماد الأصبهانى(٤)
ومنه ما قاله ابن مكى القرشى :

ما عذر فتى ما مـــد للهو يدا ... والدوح قد اكتسى ثيابا جددا
مالت طربا أغصانه راقصة ... لما صدح الطير عليها ، وشدا(٥)

ومن المواليا قول عز الدين بن طرخان الأنصارى(٦) :

البدر والسعد ذا شبهك وذا نجمك ... والقد واللحظ ذا رمحك وذا سهمك
والبغض والحب ذا قسمى وذا قسمك ... والمسك والحسن ذا خالك وذا عمك

ومما جاء على بحر السلسلة(٧) هذه القصيدة وهى لحمزة بن على أبى يعلى(٨) :

هل تأمن يبقى لك الخليط إذا بان ... للهم فؤاداً ، وللمدامع أجفان
أتطمع فى سلوة ، وجسمك حال ... بالسقم ، ومن حبهم فؤادك ملآن
تبغى أملا ، دونه حشاشة نفس ... وفى الحشا منى هوى تضاعف أشجان
اعتل لأجفانى القريحـــة أجفان ... إذ بان ركاب من العقيق إلى البان(٩) ... الخ

وحافظ شعراء هذا العصر على وحدة القافية فى القصيدة ، وإن تفنن بعضهم ، فجعل من الممكن أن تكون للقصيدة الواحدة عدة قواف ، لا أنكر أنها متكلفة كما فعل الرشيد ابن بدر النابلسى فقد أنشأ قصيدة لها أربع قواف منها :

كم الحشا معذب موجع ... على المدى صب الفؤاد مغرم

---

(١) تجد نماذج لمن سبقوا فى فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٦٠ و ٢٣٠ و ٢٤٦ و ٢٦٦ و ٣٠٣ .
(٢) له نموذج فى معجم الأدباء جـ ٦ ص ١٢٤ . (٣) له نموذج بالنجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٢ .
(٤) له نماذج فى الروضتين جـ ١ . (٥) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٦٧ .
(٦) طبيب كانت له مشاركة فى العربية والتاريخ وكان له نظم جيد ، توفى سنة ٦٩٠ هـ وترجمته فى معجم الأطباء ص ٥٩ وعيون الأنباء جـ ٢ ص ٢٦٦ وخطط الشام جـ ٤ ص ٤٦ والنجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٨ والسلوك جـ ١ ص ٧٧٧ .
(٧) وزن بحر السلسلة : مستفعلن فاعلن مفاعلتن فل . (٨) توفى سنة ٥٥٦ .
(٩) معجم الأدباء جـ ١١ ص ٥ .

بناره يلتهب ملذع ما خمـــد أواره والضرم

وعلى هذا النسق جرى(١)

وإذا استثنينا ما قيل باللغة العامية من شعر سمى بالبليقات كما سبق أن ذكرنا ، فقد حافظ الشعر فى هذا العصر على الألفاظ العربية الخالصة ، برغم أن اللغة الدارجة بل ولغة التأليف يومئذ قد تسرب إليها كثير جداً من ألفاظ اللغات التى خالطت العربيـة فى ذلك الحين ، من فارسية ، وتركية ، ويونانية ، وفرنجية ، فكان الشعراء آنذاك كشعراء عصرنا الحاضر يتكلمون باللغة العامية الخليط ، ويقرضون شعرهم من لبنات عربية سليمة ، حتى المنصور قلاوون الذى ما كان يتقن العربية ، فإن الشعراء مدحوه بالعربيـة الفصحى ، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن يدخلوا ألفاظا دخيلة حتى من لغته فى قصائدهم ، وهذا قاضى القضاة نجم الدين بن البارزى يكتب إلى المنصور قلاوون مادحا قائلا :

إذا شمت من تلقـاء أرضكم برقا فلا أضلعى تهدا ولا أدمعى ترقا
وإن ناح فوق البان ورق حمائم سحيرا فنوحى فى لدجى علم الورقا
سميرى من سعد خـذا نحو أرضهم يمينا ولا تستبعدا نحوها الطرقا
وعوجا على أفق توشح شيحه بطيب الشذا المسكى، أكرم به أفقا
وقولا : محب بالشآم ، غـدا لقى لفرقة قلب بالحجاز غـدا ملقى
تعلقـكم فى عنفوان شبابه ولم يسل عن ذاك الغرام ، وقد ألقى
وكان يمنى النفس بالقرب ، فاغتدى بلا أمل ، إذ لا يؤمل أن يبقى(٢)

اللهم إلا فلتات يسيرة حين تجد كلمة دخيلة فى الشعر ، كقول بعضهم :

إذا وصلت للرى سلم على حبيبى وانظرهما بعينى تنظرهما شمسا وأى
والبدر بالتركى : أى

وحافظت قصيدة المدح يومئذ على نهجها التقليدى ، فكان من الغالب بدؤها بالغزل ،

---

(١) راجع فوات الوفيات ١ : ٢٥٥ . (٢) أعيان العصر وأعوان النصر جـ ٢ قسم ٢ .

والتخلص منه إلى المدح ، يجيد الشاعر هذا التخلص حيناً ، ويخطئه التوفيق أحياناً ، وقد يبدأ الشاعر بالمدح ، وينتهى بالغزل ، كما فعل ابن سناء الملك ، فى مدحه صلاح الدين فى بعض الأحيان ، مدعياً أن الهيبة دفعته إلى أن يؤخر الغزل عن المدح (١) . كما حوفظ كذلك على وحدة القافية فلم تتعدد فى القصيدة الواحدة .

وبعد فهذا عرض عام لألوان الشعر فى عصر الحروب الصليبية ، أما أثر هذه الحرب فى شعر ذلك العصر فموضوع فصل طويل سيأتى .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن فكرة الوطنية والقومية لم يظهر لها أثر ما فى شعر هذا العصر ، فلم يكن ملوك هذا العصر وسلاطينه يحاربون الفرنج على فكرة أن هناك وطناً لهم مغتصباً ، فمعظمهم لا ينحدر من أصلاب أهل البلاد ، وإنما كانت الفكرة السائدة يومئذ هى الفكرة الدينية ، وهى الفكرة التى سادت نفوس الشعراء فى ذلك العهد ، فلم يكن الخوف من سقوط دمياط مثلا فى يد الفرنج أن جزءاً من أرض الوطن المصرى أو العربى ، سيقع فى يد العدو ، ولكن لأن المصحف سيحل محله الإنجيل ، والأذان سينسى ويأتى بدله الناقوس . وإذا كنا قد رأينا بعض شعراء ذلك العصر يشتاقون إلى دمشق ، أو إلى القاهرة فلم يكن ذلك منبعثاً عن شعور وطنى ، أو فكرة قومية ، ولكن عن عاطفة شخصية مبعثها ما وجده الشاعر من سعادة هنا أو هناك ، تجد ذلك فى شعر البهاء زهير حين يقول :

حبذا دار على النيـــل وكاسات تدور
ومسرات تموج الأرض منهـــا وتمـور
وقصـور ما لعيش نلتـــه فيها قصور
كم بها قد مر لى ، أستغفر الله ، سرور
كل عيش غير ذاك الـــعيش فى العالم زور
منزل ليس على الأرض لـــه عندى نظير (٢)

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ١١٩ .
(٢) ديوان البهاء زهير ص ٦٤ .

وقول القاضى الفاضل وقد مضى مع صلاح الدين حتى وصل إلى الفرات :

بالله قل للنيل عنى : اننى ... لم أشف من ماء الفرات غليلا
وسل الفؤاد فانه لى شاهد ... إن كان جفنى بالبكاء بخيلا
يا قلب ، كم خلفت ثم بثينة ... وأعيذ صبرك أن يكون جميلا[1]

وقول العماد يتشوق إلى دمشق :

أجيران جيرون[2] مالى مجير ... سوى عطفكم ، فاعدلوا أو فجوروا
ومالى سوى طيفكم زائر ... فلا تمنعوه إذا لم تزوروا
يعز على بأن الفؤاد ... لديكم أسير ، وعنكم أسير
وما كنت أعلم أنى أعيـــش بعد الأحبة ، إنى صبور
وفت ادمعى غير أن الكرى ... وقلبى ، وصبرى كل غدور
وما جنة الخلد إلا دمشق ... وفى القلب شوق إليها سعير
ميادينها الخضر فيح الرحاب ، ... وسلسالها العذب صاف نمير
وجامعها الرحب ، والقبة المنيفة ... والفلك المستدير
وباب الفراديس فردوسها ... وسكانها أحسن الناس حور
وكم بت ألهو بقرب الحبيب ، ... فى بيت لهيا ، ونام الغيور
فأين اغتباطى بالغوطتين ... وتلك الليالى ، وتلك العصور
وأين تأملت ، فلك يدور ... وعين تفور ، وبحر يمور
وأين نظرت نسيم يرق ، وزهـــر يروق ، وروض نضير[3]

وقول المهذب بن الزبير :

ومالى إلى ماء سوى النيل غلة ... ولو أنه ــ استغفر الله ــ زمزم[4]

وهذا الشعر فضلا عن ندرته فى عصر الحروب الصليبية لا يدل على شعور بالقومية

---

(١) خزانة الأدب ص ٣٠٠

(٢) جيرون : دمشق .

(٣) الروضتين ١ : ٢٤٥ .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٥١ .

والوطنية ، اكثر من دلالته على تعلق الإنسان بأرض وجد فيها سعادته ، واستمتع فيها بنعيم الحياة وانا لنجد شعراً كهذا الشعر الذى ذكرناه ، فيه حنين إلى مصر ، وشوق إلى معالمها ، من شعراء عبروا بمصر ، واقاموا بها زمنا ، من غير ان يتخذوها لهم وطنا ، ولست أريد أن انفى شعور شعراء ذلك العصر بأوطانهم ، فمن الأمور الطبيعية فى الإنسان حنين المرء إلى وطنه ، ولكن اريد أن اقول إن هذا الشعور كان ضيقاً يكاد يكون مقصوراً على تعلق الشاعر بمدينته من غير أن يشعر أنها جزء من وطن كبير .

وساد الشعور بالدين اكثر من الشعور بالجنس ، فصار اكبر ما يعتز به يومئذ لدى الشعراء انتسابهم إلى الإسلام ، وأخذ يضعف الاعتزاز بالجنس العربى ، وندر التمدح ببعض الخصائص العربية ، كالبلاغة وفصاحة اللسان ، وفهم الجيد من القول ونقد رديئه ، وربما كان من أسباب القضاء على العصبية العربية أن أكثر من ولى زمام الأمر فى ذلك العصر لم ينحدر من أصلاب العرب ، وإذا كان الاعتزاز باللغة العربية قد بقى فى ذلك العصر فمن الممكن إرجاعه إلى أن هذه اللغة العربية هى لغة هذا الدين ، الذى ورث حكم أهله الأكراد والأتراك والسلاجقة . والخلاصة أن التعصب فى هذا العصر كان للدين ، أما ما عدا ذلك من باقى ألوان الاعتزاز فلم يكن لها دخل فى التمجد كبير .

وبعد ، فإلى أى مدى استطاع الشعر أن يرسم الروح المصرية والروح الشامية فى ذلك العصر ، وهل نستطيع أن نميز بين شعر قيل فى مصر وآخر قيل فى الشام أو العراق ؟ وإنى أحب أن أواجه هذه المشكلة فى صراحة ، فأبين أنه بعد أن فسدت اللغة ، وصار هناك لغة عربية يستخدمها الخاصة ، ولغة عامية تعبّر عن مشاعر الشعب وعواطفه ، أفرغ العامة كل ما فى قلوبهم من عواطف ، ورسموا حياتهم ، وقيدوا نقداتهم ونظراتهم فى الحياة ، ووضعوا ذلك كله فى أسلوبهم ، المقتبس من ألفاظهم وعباراتهم ، وصار علينا إذا أردنا أن نعرف روح العصر ، ونفسية الشعب ، أن نتلمس ذلك فى الأدب العامى ، أكثر من تلمسه فى الأدب الفصيح . أما الشعر ذو اللغة الفصيحة فلأن منشئيه كانوا يعتمدون على ثقافة أدبية ، مستمدة من الماضى عاش فى جو خاص ، يتنفس فيه وحده ، هو جو الماضى ، يقتبس منه خياله ، ويستمد منه الأفكار ، ويقتبس منه المعانى ، وينهج نهجه فى بناء القصيدة ونظامها ، وانطبع

أثر القديم فى الجديد ، ولما كان ينبوع الشعر فى هذا العصر واحداً هو الشعر العربى القديم، تشابه الشعر فى ذلك العصر فى أرجاء العالم الإسلامى ، وصار الخلاف بين الشعراء خلافا فى الأسلوب قوة وضعفاً ، أكثر منه خلافا فى الروح والمنهاج ، ولذا تشابه الشعر الشامى والمصرى والعراقى فى ذلك العصر ، ولا نكاد نجد فرقاً فى سمات الشعر بين هذه الأقطار إلا فى بعض الخصائص المحلية التى يختص بها قطر دون آخر ، من صفات طبيعية ، أو مظاهر حضارة ، أو حوادث سياسية ، أما الاتجاه العام للشعر فواحد ، ولهذا قل أن ترى فى الشعر الذى قيل فى مصر يومئذ ما تستطيع به أن تتبين فيه ملامح مصرية خالصة ، إلا حيث يقرب الشعر من اللغة العامية ، فيصبح لغة عامية معربة ، كما فى شعر البهاء زهير ، وليس معنى ذلك أن الشخصية المصرية لا وجود لها ، أو أنها لا تنطبع على أدبها ، فذلك ما لا يمكن أن يكون فإن الشخصية المصرية حقيقة واقعة ، ولكن ظل هذه الشخصية يجب أن نتلمسه فى الأدب المصرى الخالص ، الذى ألف باللغة العامية المصرية . أما هذا الشعر الذى تنفس فى بيئة من الشعر العربى القديم فان التقليد أضعف من وضوح الشخصية المصرية ، ومثل ذلك مثل أديب يلبس غير ثوبه ، ويقلد شاعراً أو كاتباً ، فإن شخصيته لا تبين بياناً واضحاً ، كوضوح شخصية الأديب المتحرر من كل قيد ، والذى ينطلق معبراً عن نفسه ، لا يخضعها لقيد من القيود .

ولا أنكر أن بعض الشعر تبدو عليه المحلية فى وضوح ، وهو ذلك الشعر الذى يتحدث عن مظاهر طبيعية خاصة ، أو عن حكام لبقعة معينة ، كما أن أظهر ألوان الشعر الذى نستطيع أن نتبين فيه مصر والشام هو ذلك الذى كان للحروب الصليبية ذكر فيه .

الشعراء

كثر عدد الشعراء فى ذلك العصر، وتعددت ألوانهم ومذاهبهم، فمن شعراء فنيين اتخذوا الشعر حرفة لهم، يعيشون على ما يدره عليهم من رزق قليل أو كثير، كالقيسرانى وابن منير، والعرقلة، وابن النبيه، ومن شعراء جعلوا الشعر أداة يعبرون بها عما يجول فى أنفسهم، من إحساسات وعواطف، لا يريدون على شعرهم مالا، ولا جزاء، كالشعراء من الملوك، والأمراء، والوزراء، ورجال التصوف، وقد سبق أن سمينا بعض هؤلاء.

ومن علماء رأوا فى التأدب بقول الشعر ما يزيد من أقدارهم، ويرفع من مكانتهم فى أنظار معاصريهم، وهكذا رأينا طوائف كبيرة من رجال الفكر، يقرضون الشعر، ويحرصون على أن يروى لهم، كابن دقيق العيد، وتاج الدين الكندى. ورأينا من شعراء ذلك العصر من ينحدر من العرب الخلص، ومن ينحدر من الأتراك، أو الأكراد، أو القبط، وشاهدنا من بينهم المثقف ثقافة ممتازة، والمطبوع على الشعر من العامة، وذوى الحرف، والجند، فكان من الشعراء حسام الدين خشترين، وهو جندى كردى[1]، ومحمد ابن يعقوب بن على، وهو جندى أيضاً، خدم صاحب حماة[2] ومن شعره فى الشجاعة والإقدام قوله:

دعنى أخاطر فى الحروب بمهجتى ... إما أموت بها، وإما أرزق
فسواد عيشى لا أراه أبيضا ... إلا إذا احمر السنان الأزرق

وعلى بن محمد بن الكلاس، كان جندياً بدمشق، وله نماذج من الشعر فى كتاب فوات الوفيات[3]، وعلم الدين الصوابى، وهو جندى كذلك متأدب له شعر بديع[4]، وإبراهيم ابن أونبا الصوابى أمير جاندار الملك الصالح[5]. ومنهم محمد بن على بن عمر المازنى، «كان

---

(١) المختصر ج ٣ ص ١٢٤.
(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٧٣ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٤٧ و جـ ٧ ص ٣٦٧.
(٣) ٢ : ٨٤. (٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٤.
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٧.

يعمل صناعة الدهان وينظم الشعر الرقيق ، ويدرى الموسيقى ، ويعمل الشعر ويلحنه ، ويغنى به المغنون .... وكان قد ربى مملوكا ، وهذبه ، وأحبه حباً مفرطاً ، فمات ، فأسف عليه أسفاً عظيما ، ورثاه بشعر كثير غنى به ونقله المغنون ، من ذلك :

تيم قلبي ، وزادنى أسفا ... بدر به البدر قد غدا كلفا
مهفهف القد ، لين قامته ... علم غصن الأراكة الهيفا
أيا راحلا ، أودع الحشا حرقا ... كدت بها أن أشارف التلفا
بعدك دمعى قد كاد يغرقنى ... وكلما قلت : قد كفى ، وكفا (١)

ومنهم إبراهيم بن على الحرانى ، كان حائكا عامياً ، أمياً ، مطبوعا على الشعر ، قصده ابن خلكان ، واستنشده من شعره ، فأنشده بديهاً :

وما كل وقت فيه يسمح خاطرى ... بنظم قريض رائق اللفظ والمعنى
وهل يقتضى الشرع الشريف تيمما ... بترب ، وهذا البحر يا صاحبى معنا (٢)

وله نماذج مطولة فى فوات الوفيات (٣)

ومجاهد بن سليمان ، المعروف بالخياط ، كان من كبار أدباء العوام ، لكنه قرأ النحو ، وفهمه ، وأورد له صاحبا الفوات (٤) والنجوم (٥) نماذج ، منها لغز فى إبرة وكستبان ، ومنها قوله :

أعد يا برق ذكر أهيل نجد ... فإن لك اليد البيضاء عندى
أشيمك بارقا ، فيضل عقلى ... فواعجبا تضل ، وأنت تهدى
ويبكيك السحاب ، وأنت ممن ... تحمل بعض أشواقى ووجدى
بعثت مع النسيم لهم سلاما ... فما عطفوا علىّ له برد

---

(١) فوات الوفيات ٢ : ٢٤٩ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٨١ .
(٣) ج ١ ص ٢٨ وقد عمر هذا الشاعر طويلا ومات سنة ٧٠٩ هـ .
(٤) ج ٢ ص ١٤٤ . (٥) ج ٧ ص ٢٤٢ .

وهذا خياط آخر ، كان يقيم بالمحلة ، من أعمال الغربية ، وله مشاركة فى العربية ، وأدب لا بأس به ، هو محمد بن رضوان بن إبراهيم ، ومن شعره ما قاله فى بهاء الدين النحاس :

سلم على المولى البهاء ، وصف له ... شوقى إليه وأننى مملوكه
أبداً يحركنى إليه تشوقى ... جسمى به مشطوره منهوكه
لكن نحلت لبعده ، فكأننى ... ألف وليس بممكن تحريكه[١]

ومن كبار الشعراء ذوى الحرف فى ذلك العصر أبو الحسين الجزار ، وسراج الدين الوراق .

وظهر فى هذا العصر أسر توارث بنوها الشعر ، كأسرة بنى منقذ فى الشام ، وأسرتى بنى عرام ، وابن الزبير ، فى مصر ، فعرفنا كثيراً من بنى منقذ منهم حميد بن مالك بن مغيث[٢] ، وسلطان بن على بن نصر[٣] ، وإسماعيل[٤] ، ويحيى[٥] إبنا أبى العساكر بن سلطان ، ومرشد[٦] ، ونصر[٧] ، ابنا على بن مقلد ، وعلى[٨] بن مرشد ، وأخوه أسامة ، أشهر شعراء بنى منقذ ، وسوف نعقد له ترجمة مفصلة ، ومرهف[٩] بن أسامة .

وعرفنا من بنى عرام ، وكانوا يقيمون بأسوان ، عبد الله[١٠] بن على بن عرام ، وعلى ابن أحمد بن عرام ، الذى قال عنه العماد : سألت عنه بمصر فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، فقيل لى إنه حى بأسوان ، وطلبت شعره ، فأحضر إلى بعض أصدقائى من أهلها ديوانه ،

---

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٣ . وترجمته فى الفوات ٢ : ٢٠٣ و ٢٠٨ . وبغية الوعاة ص ٤١ والدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٤٠ .

(٢) ترجمته ونماذج فى النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٨١ ، ومعجم الأدباء ج ٥ ص ٢٣١ ، و ج ١١ ص ١٦ .

(٣) الكامل لابن الأثير ج ١١ ص ٩٨ ، والمختصر ج ٣ ص ٣٢ .

(٤) تجد نماذج من شعره فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٥) شىء عنه ونماذج من شعره فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٣٨ .

(٦) شىء عنه ونماذج من شعره فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٢٦ .

(٧) شىء عنه ونماذج له فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٣٨ ، والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٤ و ١٦٣

(٨) شىء عنه ونماذج له فى معجم الأدباء ج ٥ ص ٢١٤ .

(٩) معجم الأدباء ج ٥ ص ٤٣ .

(١٠) الطالع السعيد ص ٢٠٠ .

فوجدته حاكياً فى سماء السحر كيوانه ، فجمعت شارد حسنه ، وغبطت عليه أسوانه ... فلابن عرام فى ميدان النظم وابتكار المعانى الحسان غرام[١] ، ومنهم أحمد بن عبد الرحمن بن الحسين[٢] ، وهبة الله بن على بن عرام قاضى أسوان ، وكان هو وابن عمه السديد شاعرين ، وكان أشعر من ابن عمه ، وجمع شعره فى ديوان[٣] ، وفى الطالع السعيد نماذج كثيرة من شعر هؤلاء الشعراء .

وبقى لنا من شعراء أسرة ابن الزبير على بن إبراهيم بن الزبير ، وكان فاضلا رئيساً[٤] وولداه: القاضى الرشيد أحمد[٥] ، والمهذب الحسن[٦] ، وكان المهذب من كبار شعراء عصره ، ذكره العماد فى الخريدة وأثنى عليه ، وقال : إنه لم يكن بمصر فى زمنه أشعر منه . ومن تلك الأسرة على بن أحمد ، وإن لم يبلغ فى الشعر مبلغ والده[٧] .

وإذا كان هذا العصر قد شاهد طائفة من الحكام والملوك والسلاطين أحاطوا أنفسهم أو أحاط بهم جماعة من الشعراء ، كعماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين ، والملك الكامل ، والظاهر بيبرس ، والأشرف ، ممن أسبغوا العرف على الشعراء ، فكثروا بجوارهم ، حتى عرفت لبعض هؤلاء الحكام زهاء خمسين شاعراً — فقد رأى هذا العصر كذلك بعض الأسر ، التى تداول أبناؤها حماية الشعراء وتقريبهم ، والإغداق عليهم ، وأشهر هذه الأسر أسرة بنى الكنز . وهم أمراء أصائل من ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ، ممدحون ، مقصودون من البلاد الشاسعة ، والأماكن المتباعدة ، صنع لهم الفاضل السديد أبو الحسن على بن عرام سيرة ، وذكر مناقبهم ، وحالهم ، وجمع أسماء من مدحهم من أهل الثغر (يريد أسوان) ومن ورد عليهم[٨] . ومما مدح به أحدهم قصيدة للحسن بن الزبير منها فى المدح قوله :

---

(١) الطالع السعيد ص ١٩٨ . وفيه نماذج كثيرة للشاعر .
(٢) المرجع السابق ص ٣٧ . (٣) المرجع السابق ص ٤٠٢ .
(٤) الطالع السعيد ص ١٩٤ .
(٥) خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٠ ، والطالع السعيد ص ٤٧ .
(٦) خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٤ ، والطالع السعيد ص ١٠٠ .
(٧) الطالع السعيد ص ١٩٧ . (٨) المرجع السابق ص ١٣ .

وينجده إن خانه الدهر أو سطا   أناس إذا ما أنجد الذل أتهموا
أجاروا ، فما تحت الكواكب خائف   أجازوا ، فما فوق البسيطة معدم

وقيل إن قائلها أجيز عليها بألف دينار[١] . وقد عرفنا من الشعراء الذين اتصلوا بهذه الأسرة غير ابن الزبير أحمد بن محمد الروزبى[٢] ، وأحمد بن محمد الأسوانى[٣] ، وأبا إسحق ابن شعيب الأسوانى[٤] ، وسهلا الأسوانى[٥] ، وعبد الله بن محمد بن رزيق[٦] ، وعلى بن محمد بن النضر[٧] ، ومحمد بن على بن الغمر[٨] .

ومن الأعيان الذين حموا الأدب ، وأغدقوا على الشعراء ، فالتفوا حولهم ، وأجادوا القول فيهم سراج الدين جعفر بن حسان الاسنوى ، «كان رئيس الذات ، حسن الصفات ، كريم الأخلاق ، طيب الأعراق ، ممدوحا مقصوداً من الآفاق ، صنع له مجد الملك جعفر بن شمس الخلافة سيرة ، وجمع فيها أسماء من مدحه من أهل بلده ، ومن ورد عليها ، وفيه يقول من قصيدة :

فإسنا غدت تحكى العراق ، وقد غدا   أبو الفضل ذو الرأى الرشيد رشيد[٩]

وبرغم أن الحياة الأدبية كانت يومئذ على أشدها فى العاصمتين : القاهرة ، ودمشق ، فقد ظفرت الأقاليم الأخرى بنصيب من الشعراء ، اجتمعوا حول حكام هذه الأقاليم ، الذين كانوا فى كثير من الأحيان يحكمون البلاد حكما إقطاعيا ، ولا سيما الشام ، وكان هؤلاء الحكام يتشبهون ببلاط السلطان ، كما كانت مراكز العلم فى مصر مجالا لذيوع الشعر ، وتربة صالحة ، فكثر الشعراء فيها ، حتى قيل : إنه كان فى إسنا سبعون شاعراً فى وقت واحد[٩]

---

(١) المرجع السابق نفسه الطالع السعيد .   (٢) المرجع السابق ص ٦٥ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٦ ، وفيه قصيدة مدح بها كنز الدولة بن متوج .
(٤) المرجع السابق ص ٤٢٥ ، وفيه مرثية رثى بها بعض بنى الكنز .
(٥) المرجع السابق ص ١٣٤ ، وبه قصيدة مدح بها كنز الدولة .
(٦) المرجع السابق ص ١٤٦ .   (٧) المرجع السابق ص ٢٢٣ .
(٨) المرجع السابق ص ٣٠٩ ، وفيه قصيدة مدح بها كنز الدولة .
(٩) الطالع السعيد ص ١٦ .

لا عجب إذاً إن كثر عدد الشعراء فى ذلك العصر كثرة كبيرة ، وعرفنا منهم عدداً ضخما ، احتفظت مراجع ذلك العصر بالكثير من شعره ، وقد كان لطائفة كبيرة من هؤلاء الشعراء دواوين أثبتها لهم مؤرخوهم ، غير أن أكثر هذه الدواوين قد فقد ، ولكن بقى لنا منها على ما وصل إليه علمى أكثر من خمسة وعشرين ديواناً ، ومجموعات كبيرة من الشعر ، تكفى لأن تلقى ضوءاً ساطعاً على الحركة الأدبية فى ذلك العصر .

وأرى من الخير أن أترجم لبعض شعراء هذا العصر ، مقتصراً فى هذه الترجمة على الخطوط الرئيسية للرجل ، موجها العناية إلى ما كان لأدب الرجل من صلة بالحروب الصليبية ، فليس من أهدافى أن أترجم ترجمة تفصيلية دقيقة لمن أقوم بالترجمة لهم ، ومع قصر هذه الترجمة التى سأقوم بها أراها مكملة لتصوير الحياة الأدبية فى ذلك العصر ، بما تدل على اتجاهات الأدباء ، وتزيد فى وضوح هذه الصورة التى أريد أن أرسمها ، كما أن هذه الشخصيات معالم فى طريق هذه الحياة الأدبية ، فى مدى هذين القرنين ، ونتبين فى أشخاصهم تطور الحياة الأدبية من ناحية الأسلوب .

وقد ذكرت فى كل ترجمة ما استطعت أن أصل إليه من مراجع صاحبها ، ليعود إليها من يريد دراسة أوسع وأشمل .

ورتبت من ترجمت لهم ترتيبا تاريخياً على حسب وفياتهم .

ظافر الحـــداد*

(؟ – ٥٢٨ هـ)

لا أدرى من أمر حياته شيئاً ، ولا أعرف كيف تثقف وتخرج ، وإن كانت صناعته فى الشعر توحى بأنه درس الأدب ، وعرف البديع ، وقد روى السلفى عنه بعض شعره ، ولعله اتخذ الحدادة مهنة له ، كما يدل على ذلك قصته مع حاكم الإسكندرية ، وسنوردها فيما يلى. وكل ما استطعت الوصول إليه هو أنه عاش فى الإسكندرية ، وربما قضى بها معظم حياته ، وزار القاهرة ، ورأى آثار الفراعنة كالأهرام ، وأبى الهول ، ومدح خليفة الفاطميين مدحا، كان سبباً فى لوم العماد له ، فإنه مع إعجابه بظافر ، لامه على هذا المدح ، ونجهل كذلك الخليفة الذى مدحه ظافر .

وربما أراد أن يتخذ الشعر مهنة له ، فيمدح رجالات عصره ، لينال رفدهم ، ولست أدرى إلى أى مدى حقق هـذا الغرض ، وإن حفظ لنا شعره اتصاله بابن أبى حديد قاضى الإسكندرية ونائبها ، فقد رأينا فى شعره قصيدة مدح له . كما اتصل بالأفضل بن بدر الجمالى، وفيما بقى من شعره قصيدة يعزيه فيها بأخ له توفى .

كما حفظ له التاريخ اتصاله بعلم من رجال العلم والأدب فى عصره ، هو أمية بن أبى الصلت

---

* مراجعه :

(١) وفيات الأعيان ١ : ٢٤١ .
(٢) النجوم الزاهرة ٥ : ٣٧٦ ، ٣٧٧ .
(٣) الرسالة المصرية ص ٥٣ .
(٤) معجم الأدباء ١٢ : ٢٧ .
(٥) حسن المحاضرة ١ : ٢٤١ و ٢ : ١٨٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٦) بدائع البدائه ص ١٣٦ .
(٧) مسالك الأبصار ١ : ٢٣٨ .
(٨) خطط المقريزى ١ : ١٩٨ .
(٩) خريدة القصر ٢ : ٨١ .
(١٠) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٣١ ، ١٩٠ .
(١١) شذرات الذهب ٤ : ٩١ .
(١٢) خزانة الأدب للحموى ص ٦٣ ، ٢٤٥ .
(١٣) تاريخ مصر لابن ميسر ٢ : ٧٩ .
(١٤) الأعلام الزركلى ٢ : ٤٥٤ .
(١٥) عيون الأنباء ٢ : ٥٤ .
(١٦) المنهل الصافى ٢ : ٢٥٠ .
(١٧) معجم السلفى ورقة ٨٨ .

صاحب الرسالة المصرية ، عند ما زار مصر ، ويظهر أن الصلة قد توطدت بين الشاعرين ، وأعجب أحدهما بصاحبه ، فكان ظافر بين من أثنى عليهم أمية فى رسالته ، كما أرسل ظافر إلى أمية عند ما غادر هذا الإسكندرية قصيدة تفيض بالشوق والحب والإعجاب ، تأنق فيها فى الصناعة اللفظية ، ليرضى أمية ، ويقنعه برسوخ قدمه ، فى صناعة الشعر ، بدأها بقوله :

ألا هل لدائى من فراقك إفراق ... هو السم لكن فى لقائك درياق
فياشمس فضل ، غربت ، ولضوئها ... على كل قطر بالمشارق إشراق
سقى العهد[1] عهداً[2] منك عمر عهده[3] ... بقلبي عهـــداً[4] لا يضيع وميثاق
يجدده ذكر يطيب ، كما شدت ... ورقاء كنتها[5] من الأيك أوراق
لك الخلق الجـــذل الرفيع طرازه ... وأكثر أخلاق الخليقـــة أخلاق
لقد ضاءلتنى يا أبا الصلت مذنأت ... ديارك عن دارى هموم وأشواق

ويمضى متحدثا عن شوقه وحبه ، ثم يصف فضل أمية وعلمه بقوله :

ألا هــــل لأيامى بك الغرعودة ... كعهدى وثغر الثغر أشنب براق
وما بيننا من حسن لفظك روضة ... بها حسدت منا المسامع أحداق
حديث حديث ، كلما طال موجز ... مفيد إلى قلب المحدث ، سباق
يزجيه بحر من علومك زاخر ... له كل بحر فائض اللج رقراق
معان كأطواد الشوامخ جزلة ... تضمنها عذب من اللفظ غيداق
به حكم مستنبطات غرائب ... لأبكارها الغر الفلاسف عشاق
فلو عاش رسطاليس كان له بها ... غرام وقلب دائم الفكر تواق

كان لظافر ديوان ، وصفه ابن خلكان بأن أكثره جيد ، وقد بقى لنا من شعره قليل رواه لنا العماد فى خريدته ، وبقى لنا فى مراجعه المختلفة ، وقد تفرق هذا القليل الباقى بين مدح ، ورثاء ، وغزل ، ووصف .

---

(١) العهد : أول مطر الربيع .
(٢) عهدا : زمانا .
(٣) عهده : مودته .
(٤) العهد : الذمة .
(٥) كنتها : سترتها .

وليس فى قصيدته التى مدح بها ابن أبى حديد ، وهنأه فيها بشهر رمضان سوى تلمس لمعان وهمية، ومبالغات لا تصور فضيلة ، ولا ترسم صورة حية لإنسان، إذ يقول :

شهر الصيام بك المهنا … إذ كان يشبه منك فنا
ما سار حولا كاملا … إلا ليسرق منك معنى
وينال منك ، كما تنال … ويستفيد ، كما استفدنا
فرأى هلالك من محل هلاله … أعلى وأسنى
بهرت محاسنك الورى … فأعادت الفصحاء لكنا
وإذا مدحناك احتقرنا … ما نقول وإن أجدنا
والفضل أجمع بعض وصفك … فهو غاية ما وجدنا
إن الذى صدح الحمام … به ثناؤك حين غنى
وأظن ذلك موجبا … طرب القضيب إذا تثنى
فتهن شهرك واسترد … بقدومه سعدا ويمنا
فكأنه من عامه … كمكانك المحروس منا

فليس وراء ذلك محصول ذو قيمة من المعانى ، فضلا عن الغموض فى مطلع القطعة ، فما الفن الذى يشبه فيه شهر الصيام الممدوح ، وما المعنى الذى سرقه ، على أنى أجد كلمة السرقة هنا قلقة فى موضعها ، كما أن جملة (ينال منك) غير موفقة فى أداء المعنى ، لأن من معانى النيل منه سبه وهجوه ، وليس ذلك بمراد ، وليس بيت : (فرأى هلالك . .) مترتباً على ما قبله ، ولا نتيجة له ، ولذا قلقت الفاء فى هذا الموضع ، وغالت الأبيات الثلاثة فى المدح ، من غير دلالة على معنى محدد ، أو صورة مرسومة ، وانتقل الشاعر بعد هذه المغالاة إلى تعديلات واهية ، فصدح الحمام حين يغنى ثناء عليه ، وهذا الثناء يدفع القضيب إلى التثنى طربا . ولست فى حاجة إلى القول بأن جملة (أظن ذلك موجبا) ليست من أساليب الشعر .

واتصل ظافر الحداد بأحد أبطال الحروب الصليبية ، ومدحه ، وسجل بعض معاركه مع الفرنج ، ولكنه فى هذا المدح ، برغم الدافع القوى إليه ، لا يرتفع إلى مستوى ممتاز

حين يقول ، وقد ظفر طلائع فى معركة ، قتل فيها أرناط مقدم خيل الفرنج :

عن سيف دين الله سل أرناطا ... حيث المنية كأسها يتعاطى
والمشرفية قد حكت فى جيشه ... فى العل والنهل القطا الفراطا
قد سام طير الكفر منه مذ سرا ... أشق ، وعاين مخلباً عطاطا
هو ملبس، حيث العداة الحرب، من ... حلل النجيع مجاسدا ورباطا
فجياده تشكو مزاحمة القنا ... وترد خرصان الرماح سياطا
هو فارس الإسلام يحفظ بالظبا ... من دينه الأطراف والأوساطا
كم قد أثار من الأسنة أنجما ... لما أثار من العجاج عطاطا
فتخاله ملكا رمى بشهابه ... فى الروع شيطان الحروب فشاطا(١)

وله قصائد أخرى ، يمدح بها طلائع ، ناظراً إليه بطلا من أبطال هذه الحروب ، وبعضها فى خريدة القصر .

ويرتفع ظافر حين يعزى ويرثى ، فيما حفظ لنا من قصيدته التى عزى فيها الأفضل بأخيه المظفر ، وقد بدأها ظافر بقوله :

إذا كان غقبى ما يسوء التصبر ... فتقديمه عند الرزية أجدر
وليس الشجاع الندب من يضرب الطلى ... دراكا ، ونار الحرب تذكى ، وتسعر
ولكنه من يؤلم الثكل قلبه ... وتعروه أحداث الزمان ، فيصبر
لئن عظم الخطب الشديد محله ... فحلمك أعلى منه قدرا وأكبر
وبعض الذى يحويه صدرك همة ... تضيق بها الدنيا جميعاً ، وتصغر
لقد زعزعت شم الجبال رزية ... ألمت ، ولكن طود حلمك أوقر
وحكم التعازى سنة نبوية ... وإلا فنك الحزم يبدو ويصدر

وبرغم ارتفاعها عن مستوى قصيدة مدحه ، يبدو عليها بعض أعراض الضعف ، فمن كلمات مترادفة جىء بها لتكمل البيت ، من غير أن تحمل معنى جديداً ، كقوله تذكى وتسعر ،

(١) خريدة القصر ٢ .

ويبدو ويصدر ، ومن أخرى ليست مستقرة فى مكانها كقوله (الشديد محله) ، ومن غيرها لا معنى لها هنا ، ككون حله أعلى قدراً من الخطب . وفى زعزعة شم الجبال للخطب مبالغة لا تخفى .

أما غزله فيكاد يكون أرق ألوان شعره ، ومنه تلك القصيدة التى عدها مؤرخوه من غرر القصائد ، ومنها :

لو كان بالصبر الجميل ملاذه ... ما سحَّ وابل دمعه ورذاذه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه ... حتى وهى وتقطعت أفلاذه
لم يبق فيه من الغرام بقية ... إلا رسيس يحتويه جذاذه
من كان يرغب فى السلامة فليكن ... أبدا من الحدق المراض عياذه
لا تخدعنك بالفتور ، فإنه ... نظر يضر بقلبك استلذاذه
يأيها الرشأ الذى من طرفه ... سهم إلى حب القلوب نفاذه
درٌّ يلوح بفيك ، مَنْ نَظَّامُهُ ... خمر يجول عليه من نباذه
وقناة ذاك القد كيف تقومت ... وسنان ذاك اللحظ ما فولاذه
هاروت يعجز عن مواقع كره ... وهو الإمام ، فمن ترى أستاذه
تالله ما علقت محاسنك امرأ ... إلا وعز على الورى استنقاذه
أغريت حبك بالقلوب فأذعنت ... طوعا ، وقد أودى بها استحواذه

قال ياقوت وهى نحو عشرين بيتاً كلها غرر ، وليست كما زعم ياقوت ، بل فيها مجال قوى للنقد ، ولا سيما هذا البيت الغامض فى أسلوبه .

من قدر الرزق السنى لك انما ... قد كان ليس يضره انقاذه

ومن غزله ما كان يتغنى به ، كقوله :

عتبت ، ولكننى لم أع ... وأين ملامك من مسمعى
وما قدر عتبك حتى يزيـ ... ـل غراما تمكن من أضلعى
وما دام لومك إلا وأنت ... تقدر أن جنانى معى

مضى كى يودع سكانه غداة الفراق ، فلم يرجع
فؤادى فى غير ما أنت فيه فخذ فى ملامته ، أودع

وإذا كانت العيون تسرق القلوب فليس وصفها بأنها لصوص فى قوله يتغزل :

لهم فى استراق القلب باللحظ عادة فوا عجبا حتى العيون لصوص

مما يباح فى الأدب ذلك أن كلمة (لص) تثير فى النفس معنى بغيضاً وتوحى بفكرة هى أبعد ما تكون مرادة للشاعر ، كما أنه فى هذه القطعة نفسها قد اضطرته القافية إلى كلمة لا تمثل فكرته ، وذلك عند ما قال :

نأوا ، فالأسى يجرى غروب مدامعى على الخد ، حتى كدت فيه أغوص

وأغلب الظن أنه كان يريد (أغرق) مكان (أغوص) لولا القافية التى دفعته إلى هذا التعبير .

وكان ظافر من المولعين بالوصف ، وصف بعض مظاهر الطبيعة فتغنى بالأقحوان ، والرياض ، والصباح ، وسنابل القمح ، ونبات اللوز ، ويوم ممطر ، ووقف أمام النيل وصوره ، وأمام الأهرام ، وأبى الهول ، ونظم فيها مقطوعة أعجبت المقريزى . وهو حينا يجيد الوصف ، وأحيانا يقف عند تلمس شبيه لما يصف ، من غير تصوير يثير العاطفة ، ويبعث البهجة بما يصف ، فما وصفه الأقحوان ، إذ يقول :

أنظر ، فقد أبدى الأقاحى مبسما يفتر ضحكا فوق قد أملد
كفصوص در لطفت أجرامه وتنظمت من فوق شمسة أملد

يصور لنا ما بقى من شعر ظافر أن الرجل كان حذراً من الناس ، لا يرى خيراً فى الإكثار من الاختلاط بهم ، وأنه كان إلى التشاؤم أقرب منه إلى التفاؤل ، تلمس ذلك فى قوله :

أوصيك بالبعد عن الناس فالعز فى الوحدة والياس
ووحدة الصمصام فى غمده خصته بالعزة فى الناس

وقوله :

هى الدنيا ، فلا يحزنك منها   ولا من أهلها سفه وعاب
أتطلب جيفة لتنال منها   وتنكر أن تهارشك الكلاب

وقوله :

كن من الدنيا على وجل   وتوقع سرعة الأجل
آفة الألباب كامنة   فى الهوى والكسب والأمل
تخدع الإنسان لذتها   فهى مثل السم فى العسل

ولعل ذلك راجع إلى فقره الذى ينطق به قوله :

يا رب غانية أضر بقولها   أنى بلفظة معدم منبوز
فأجبتها : ما عاز فى نيل الغنى   لكن مطالبة الحميد يعوز

ويذكر له مؤرخوه مقدرته على قول الشعر بديهة وارتجالا ، ويروون له أن والى الاسكندرية دعاه ، ليبرد خاتما فى يده ، قد ضاق عن خنصره فقال :

قصر فى أوصافك العالم   فاعترف الناثر والناظم
من يكن البحر له راحة   يضيق عن خنصره الخاتم

فأمر له بعطاء ، فقيل له : إن كنت ذا خاطر سمح ، فأنشدنا الآن فى هذا الغزال المستأنس ، يعنى غزالا فى حجر الأمير ، فقال :

عجبت لجرأة هذا الغزال   وأمر تخطى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جاثما   فكيف اطمأن ، وأنت الأسد ؟!

فأمر له بعطاء آخر ، فقال له الرجل ممتحناً : أنظم فى هذه الشبكة المسدولة على هذه الدار شيئا ، فقال :

رأيت ببابك هذا المنيف   شباكا ، فأدركنى بعض شك
وفكرت فيما رأى خاطرى   فقلت : البحار يكون الشبك

فقال الأمير لممتحنه : دعه ، وإلا أخذ ما عليّ .

ويروون له شعرا آخر قاله على البديهة أيضاً .

وبعد فشعر ظافر من النوع المتوسط ، الذى يجد الناقد فيه كثيراً من مظاهر الضعف ، وقل أن تجد فيما بقى له من شعر هذا الأسلوب الجزل الفخم ، وعثر له العماد على بعض اللحن إذ قال : (عازنى) فى البيت : فأجبتها ما عاز فى نيل الغنى والصواب اعوزنى ويعوزنى . وقال : (محروز) فى البيت :

ما خاب من هضم التفضل ماله كرما ، ووافر عرضه محروز

وصوابه محرز . وقد رأيناه فيما مضى يستخدم كلمة (شمسة) والصواب شمس .

وقد بدا لنا مما أوردناه أنه يميل أحياناً إلى الصنعة ، وقد يتكلف فيها ، كما فى بعض الأبيات التى أرسلها إلى أمية .

وكانت وفاته بمصر فى المحرم سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

ابن منـــير*

٤٧٣ — ٥٤٨ هـ

فى سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة ، وفى طرابلس الشام ، ولد لمنير بن أحمد ، الذى اتخذ حرفة له إنشاد الأشعار والغناء فى أسواق طرابلس - طفل دعاه أحمد ، نشأ تنشئة أدبية ، فحفظ القرآن الكريم ، ودرس اللغة ، وحفظ كثيرا من الأدب ، ولابد أن يكون والده قد أمده بكثير من النصوص التى كان يحفظها ، ولعله اتخذ الرفى مهنة له ، فإنه يوصف فى كتب تاريخه بالرفاء .

وبدأ يقول الشعر ، وظهر قويا ممتازا فى الهجاء ، بارعا فيه ، وانتقل من مدينته إلى دمشق، وشهر هناك بخبث اللسان وشدة الهجاء ، وأنه يدين بمذهب الشيعة المتطرفين ، فسجنه صاحب دمشق بورى بن أتابك طغتكين ، وعزم على قطع لسانه ، ثم شفع فيه ، فنفاه ، فمضى إلى البلاد الشمالية .

ومع تشيع ابن منير ، اتصل بأعظم ملوك السنة فى الشام ، وهما عماد الدين زنكى ، وولده نور الدين محمود ، فكان من الشعراء الذين خلدوا ذكر هـــذين البطلين العظيمين ، وسجلوا بالإعجاب معاركهما ضد الصليبيين .

مدح ابن منير عماد الدين زنكى ، وأعجب بما له من سمات البطولة والاقدام ، وصوره لنا سيفا من سيوف الله ، سله الله ليقضى به على الكفرة الطغاة ، وظلا لله فى الأرض ، تأوى إلى عدله الأمة ، وتجد فى حماه الأمن والدعة والاطمئنان ، حتى إذا فتح عماد الدين مدينة

---

* مراجعة :

(١) الروضتين فى مواضع كثيرة .
(٢) الأعلام ١ : ٨١
(٣) النجوم الزاهرة ٥/٢٩٩ .
(٤) وفيات الأعيان ١/٤٩ .
(٥) خطط الشام ٤/٤٢ .
(٦) معجم الأدباء ٨/١٢٦ ، ١٢٧ .
(٧) أعلام النبلاء ٤/٢٣١ .
(٨) خريدة القصر ١/٢ .
(٩) شذرات الذهب ٤/١٤٦ .
(١٠) البداية والنهاية ١٢/٢٣١ .
(١١) حسن المحاضرة ٢/٢١١ .
(١٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٢٠ .
(١٣) أدب الحروب الصليبية فى مواضع كثيرة .

الرها مضى ابن منير يشيد بهذا الفتح ويذكر أثره فى الإسلام والمسلمين، ويوازن بين هذا الفتح وما كان من فتوح عظيمة قبلها فى الإسلام، ومن أرق مدائحه فيه قوله:

صفات مجدك لفظ جل معنـــاه ... فلا أستـــرد الذى أعطاكه الله
يا صارما، بيمين الله قائمـــه ... وفى أعالى أعادى الله حـــداه
أصبحت دون ملوك الأرض منفردا ... بلا شبيه، إذ الأملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته ... جهلا، وقصر عن مسعاك مسعاه
قل للأعادى: ألا موتوا به كمدا ... فالله خيبكم، والله أعطـــاه
ملك تنام عن الفحشاء همته ... تقى، وتسهر للمعروف عينـــاه
مازال(١) يسمك، والأيام تخدمـــه ... فيما ابتـــلاه، يؤدى ما توخاه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره ... قدرا، وجاوزت الجوزاء نعلاه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا ... وأين مما رووه ما رأينـــاه
أين الخلائف عن فتح أتيح له ... مظلل أفق الدنيـــا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج ... مقطوبة بفتيق المســـك رياه
فتح أعاد على الإســـلام بهجته ... فافتر مبسمة، واهتز عطفـــاه
يهـــذى بمعتصم بالله فتكته ... حديثها نسخ الماضى، وأنساه
إن الرها غير عمورية، وكذا ... من رامها، ليس مغزاه كمغزاه
أخت الكواكب عزا، ما بغى أحد ... من الملوك لها وقما(٢)، فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم، يشحذه ... رأى يبيت فويق النجم مسراه
مشمراً، وبنو الإسلام فى شغل ... عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا محيي العدل إذ قامت نواد به ... وعامر الجود، لما مح مغناه
يا نعمة الله يستصفى المزيد بها ... للشاكرين، ويستقفى صفاياه
أبقاك للدين والدنيـــا تحوطهما ... من لم يتوجك هذا التاج إلا هو

وقد وفق ابن منير فى هذه القصيدة، التى صورت البطل من صنع الله، ونعمة منه على

---

(١) سمك: رفعه.

(٢) وقمه: قهره وأذله.

الاسلام ، وبرغم الصناعة اللفظية : من الجناس والطباق لم تضعف المعانى التى أراد الشاعر تصويرها ، إذا استثنينا قوله : تعالت عن الشعرى مشاعره ، لأن الذى يتعالى عن الشعرى هو الهمة ، لا المشاعر .

وتغنى ابن منير بصفات البطولة هذه فيما أنشأه من مدائح فى عماد الدين ، بدت فيها مقدرته اللغوية ، وغرامه بالمحسنات البديعية . ويزداد إعجابه به بعد هذا النصر المبين على الفرنج ، حتى ليراه أجدر الناس بزعامة المسلمين ، وحمل لقب أمير المؤمنين :

ملك أسهر عينا لم تزل — همها تشريد هم الراقدين
كل يوم مر من أيامه — فهو عيد عائد للسلمين
لو جرى الإنصاف فى أوصافه — كان أولاها أمير المؤمنين
ماروى لراوون ، بل ما سطروا — مثل ما خطت له أيدى السنين

ولا جرم أن ينال عمادالدين هذه المكانة من نفس الشاعر، فقد رآه ينهض موفقاً لتحطيم عروش الفرنج ، التى أقاموها فى ديار الاسلام ، على أنقاض المسلمين المشردين .

واتسع المجال أمام ابن منير عندما اعتلى العرش نور الدين محمود ولد عماد الدين ، فقد تعددت معاركه ضد الفرنج ، حتى صار الشبح المخوف أمامهم ، واتسع الوقت أمام نور الدين ، فطالت وكثرت قصائد ابن منير فيه ، وكان هو وابن القيسرانى يتغنيان بوقائع نور الدين ، ويشيدان بجلالها ، فى عقب كل معركة مع الفرنج قصيدة أو قصائد منهما ، تمجد انتصاره، وتذيع حميد جهاده ، وتشدو بخلال البطل ، وتجتهد فى تعرف سماته ومنهجه ، فى قيادة الجيش ، وحكم الرعية ، ولهما فى ذلك قصائد كثيرة طويلة النفس ، ومما أنشأه ابن منير مادحاً به نور الدين قوله :

ما فوق شأوك فى العلا مزداد — فعلام يقلق عزمك الاجهاد
همم ضربن على السماء سرادقا — فالشهب أطناب لها ، وعماد
أنت الذى خطبت له حساده — والفضل ما اعترفت به الحساد
زهرت لدولتك البلاد ، فروحها — أرج المهب ، ودوحها مياد
وإذا العدا زرعوا النفاق ، وأحصدوا — كيدا ، فعزمك ناقض حصاد

بالمقربات كأن فوق متونها ... جن الملا ، وكأنها أطواد
يهدى النواظر فى دجنة نقعها ... بدر بسرجك نيِّرٌ وقاد
ألبست دين محمد يا نوره ... عزاله فوق السها إسئاد (١)
مازلت تسمكه بمياد القنا ... حتى تثقف عوده المياد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونه ... عدد يراع به ، ولا استعداد
ان المنابر لو تطيق تكلما ... حمدتك عن خطبائها الأعواد
ولئن حمت منك الأعادى مهلة ... فلهم إلى المرعى الوبى معاد
ملق باطراف الفرنجة كلكلا ... طرفاه : ضرب صادق ، وجلاد
حاموا ، فلما عاينوا حوض الردى ... حاموا برائش كيدهم أو كادوا
ورجا البرنس ، وقد تبرنس ذلة ... حرما بحارم ، والمصاد مصاد
ضجت ثعالبه ، فأخرس جرسها ... بيض تناسب فى الحديد حداد
وسواعد ضربت بهن وبالقنا ... من دون ملة أحمد الاسداد

وبموت ابن منير والقيسرانى سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ـ فقد نور الدين أعظم شاعرين سجلا وقائعه ، قال صاحب كتاب الروضتين : « ماتا . . . قبل أن يفتح نور الدين دمشق ، وبقى نور الدين حيا بعدهما ، إحدى وعشرين سنة ، يترقى كل عام فى إزدياد ، من جهاد واجتهاد ، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا فى وصفه بعجائب المدائح . »

وقد حدث بين الشاعرين تنافس دفعهما إلى التهاجى ، وكان الهجاء من أهم أغراض ابن منير ، على أن له غزلا وحكمة ووصفا ، وله فى الغزل قصيدة أعجب بها مؤرخوه وعدوها من غرر قصائده ، وربما كان إعجابهم بها مستمدا من كثرة تشبيهاتها ، ومن هذه القافية اليائية المشددة . ومن هذه القصيدة قوله :

من ركب البدر فى صدر الردينى ... وموه السحر فى حد اليمانى
وأنزل النير الأعلى إلى فلكه ... مداره فى القباء الخسروانى

---

(١) الإسئاد : الإغذاذ في السير .

طرف رنا ، أم قراب سل صارمه ؟ وأغيد ماس أم أعطاف خطى ؟
وبرق غادية ، أم برق مبتسم ؟ يفتر من خلل الصدغ الدجوجى

ومنها :

لو قيل للبدر : من فى الأرض تحسده إذا تجلى لقال : ابن الفلانى
أربى على بشتى من محاسنه تألفت بين مسموع ومرئى :
إباء فارس ، مع لين الشآم ، مع الظـــرف العراقى ، فى النطق الحجازى
وما المدامة بالألباب ألعب من فصاحة البدو فى ألفاظ تركى
أشبهته ببعـــادى ، ثم كان له مزية الخلق ، والأخلاق ، والزى
من أين لى لهب يجرى على ذهب من صحن أبيض صافى الماء فضى

أما قصيدته فى الحكمة فدعوة حارة إلى الارتحال فى طلب الغنى ، والمجد ، وعدم الرضا بالعيش الحقير ، فى مكان مهين . وبرغم ما فيها من صناعة لفظية ، لم تضعف قوة أسلوبها ، ولم تخف معناها ، وفيها يقول :

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله فى منزل فالحزم أن يترحلا
كالبدر : لما أن تضاءل جد فى طلب الكمال ، فحازه متنقلا
سفها لحلمك إن رضيت بمشرب رنق ، ورزق الله قد ملأ الملا
ساهمت عيسك مر عيشك قاعدا أفلا فليت بهن ناصية الفلا
فارق ، ترق كالسيف سل ، فبان فى متنيه ما أخفى القراب ، وأخملا
لا تحسبن ذهاب نفسك ميتة ما الموت إلا أن تعيش مذللا
للقفر لا للفقر هبها ، إنما مغناك ما أغناك أن تتوسلا

وقد سار ابن منير على هذا المذهب ، فلم يرض أن يعيش مضيقا عليه فى الرزق ، فى طرابلس ، بل تركها متنقلا ، حتى وجد أمله فى حلب تحت ظلال نور الدين .

معظم شعر ابن منير من النوع الجزل القوى ، لا يترك المحسن البديعى ، إذا أمكنه استخدامه ، وهو فى ذلك أكثر من القيسرانى ، وأشد به غراما .

القيسراني*

(٤٧٨ — ٥٤٨ هـ)

محمد بن نصر بن صغير ، ينحدر من ولد خالد بن الوليد ، كما يروى . ولد بعكا سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، ونشأ بقيسارية وهي بليدة بساحل الشام . قرأ الأدب على ابن الخياط ، أحد شعراء عصره ، ودرس علم الهيئة ، وسمع الحديث ، ومضى إلى دمشق ، فبلغ تاج الملوك بوري أنه هجاه ، فتنكر له ، فهرب إلى حلب ، ومدح نور الدين محمود بن زنكي صاحبها ، وهناك توطدت الصلة بين الملك والشاعر ، وهيأ لهذه الصلة أن تتمكن أن الشاعر كان قد مدح والد نور الدين ، وهنأه بانتصاره على الفرنج سنة ٥٣٤ هـ ، وبفتحه مدينة الرها سنة ٥٣٩ هـ .

كان القيسراني معجبا بعماد الدين زنكي ، وعندما رآه ينتصر على الفرنج ، ويستعيد أرض الوطن المغتصب ، مضى الشاعر مشيداً بانتصاره ، واجدا فيه الأمل المنشود ، الذي تصبو إليه نفوس المسلمين ، لاسترداد بلادهم من أيدي ملوك الصليبيين ، فقال مرة يهنئه :

وأين ينجو ملوك الشرك من ملك　　من خيله النصر ، لا بل جنده القدر
فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة　　فالقوم إن نفروا ألوى بهم نفر

---

* مراجعه :

(١) الروضتين ١ : ١٨و١٩و٢٠و٢١و٣٤و٣٧و٣٨و٤٩و٥٥و٥٦و٥٨و٦٠و٦٦و٦٨و٧٠و٧٢و٧٤و٨٣و٩٩و١١١ .
(٢) الأعلام ٣ : ٩٩٥ .
(٣) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٤و٢٩٩و٣٠٢و٦ : ٣٤٧و٧ : ٢٠٩ .
(٤) وفيات الأعيان ٢ : ١٦ .　(٥) صبح الأعشى ٢ : ٣١ .
(٦) معجم الأدباء ٨ : ١٢٧و١٩ : ٦٤ .　(٧) دائرة المعارف الاسلامية ١ : ٢٦٦ .
(٨) ديوانه .　(٩) خريدة القصر ١ : ٧ .
(١٠) خزانة الأدب ص ١٧٥ .　(١١) أدب الحروب الصليبية في مواضع كثيرة .
(١٢) البداية والنهاية ١٢ : ٢٣١ .　(١٣) أعلام النبلاء ٤ : ٢٣٧ .
(١٤) معجم البلدان ١ : ١٠٥ .

إن قاتلوا قتلوا، أو حاربو حربوا[١] أو طاردوا طردوا، أو حاصروا احصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة كأنما حل فى أكنافهم عمر

ولما فتح زنكى مدينة الرها رأى فى ذلك الفتح نذيرا للفرنج بطردهم من الديار، فقال:

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذل غاويكم وعز رشاده
رويدكم، لا مانع من مظفر يعاند أسباب القضاء عناده
مصيب سهام الرأى، لو أن عزمه رمى سد ذى القرنين أصمى سداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها، إن البلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فلينته الدجى فيا طالما غال الظلام امتداده
ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرض لم ترضها جياده

فإذا حمل راية الجهاد بعد زنكى ولده نور الدين محمود، مضى القيسرانى متتبعا انتصاراته، مسجلا هذه الانتصارات، مشيدا بما امتاز به هذا البطل: من صفات جديرة بأن ترفعه إلى مصاف القديسين، وعظماء القواد معا، وكان ابتهاج القيسرانى بنور الدين لا يقل عن ابتهاجه بأبيه من قبل، وقد أكثر الشاعر من مدح أميره، ووفق إلى مدى بعيد فى تصوير نظرة المسلمين إليه، ولنصغ إليه مصورا هذا البطل الجديد، إذ يقول فيه:

ذو الجهادين: من عدو ونفس فهو طول الحياة فى هيجاء
قد هديت الملوك للعدل، لما سرت فى الناس سيرة الخلفاء
قاسما ما ملكت فى الناس، حتى لقسمت التقى على الأتقياء
أنت حينا تقاس بالأسد الورد وحينا تعد فى الأولياء
رأفة فى شهامة، وعفاف فى اقتدار، وسطوة فى حياء
وجمال ممنطق بجلال وكمال متوج ببهاء
أعجب الناس منك أنك فى الحرب شهاب الكتيبة الشهباء
وكأن السيوف من عزمك الماضى أفادت ما عندها من مضاء
ولعمرى لو استطاع فداك القوم بالأمهات والآباء

(١) حربه: سلبه.

وهكذا نجد فيه صفات القائد المظفر فى الحرب ، وصفات الحاكم العادل الشفيق بالرعية ، وصفات التقى الصالح ، حتى ليدفع الناس إلى التشبه به فى التقوى ، وصفات الشخصية المحبوبة من الناس يرون فيه الجمال والجلال ، ويبهرهم براعته فى القول ، فلا عجب ، وفيه كل هذه الصفات ، أن تتمنى رعيته أن يظل لها حاكما ، وأن يفدوه بآبائهم وأمهاتهم .

وشبهه القيسرانى فى شعره بعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز ، وصور ما كان يهتف به أبناء شعبه : من دعاء له أن يحفظه الله لهم ، لما أقامه فيهم : من العدل ، وما حاطهم به : من الأمن حين قال :

وسرى دعاء الخلق يحرس نفسه   إن الدعاء يعد فى الحراس

أما تمجيده لوقائعه ، وتصويره لها فلا تكاد معركة ينتصر فيها إلا أشاد بها ، ومضى يمجده ، غير ناس ما لجنده : من نصيب فى هذا النصر ، ومصوراً بعض ما كان يحدث يومئذ بعد هزيمة العدو ، وهاهو ذا يتغنى بعد إحدى هذه المعارك ، مؤملا أن يستعيد الاسلام بسيف نور الدين ما فقده ، من بلاد . قال القيسرانى يمدحه ، بعد معركة انتصر فيها ، ولعله أراد أن يعارض أبا تمام فى قصيدته البائية المشهورة ، فجاء بالقصيدة على وزنها وقافيتها ، وإن خالفها فى حركة القافية ، إذ قال :

هذى العزائم ، لا ما تدعى القضب   وذى المكارم ، لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتى متى خطبت   تعثرت خلفها الأشعار والخطب
ما زال جدك يبنى كل شاهقة   حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى ! وهمك ما   أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب !
ياساهد الطرف ، والأجفان هاجعة   وثابت القلب ، والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة   فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة   أودى بها الصلب وانحطت بها الصلب
غضبت للدين ، حتى لم يفتك رضا   وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادى من دمائهم   طهارة كل سيف عندها جنب

ومضى يصف المعركة ثم قال :

من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً من الملوك فنور الدين محتسب

وبعد مدحه أخذ يصف مقتل (برنس) أنطاكية ، فقال :

فلكوا سلب الإبرنس قاتله وهل له غير أنطاكية سلب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة برأسه ، إن إثمار القنا عجب
إذا القناة ابتغت فى رأسه نفقا بدا لثعلبها من نحره سرب

ثم تحدث عن الأمل الذى خلقه نور الدين فى نفوس المسلمين ، وكيف خلق فيهم روحاً معنوية سامية ، إذ قال :

كنا نعد حصى أطرافنا ظفرا فملكتك الظبا ما ليس تحتسب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب يوليك أقصى المنى ، فالقدس مرتقب
وائذن لموجك فى تطهير ساحله فإنما أنت بحـــر لجه لجب

ولم يقف القيسرانى عند حد تسجيل وقائع نور الدين مع الفرنج ، بل سجل سياسته التى كان ينتهجها ، لتوحيد كلمة المسلمين ، تحت لوائه ، حتى يستطيع بهذه القوى المتحدة أن يهاجم العدو ، ويلتقى به خارج الديار ، وها هو ذا يتحدث عن سيطرة نور الدين على دمشق ، ويعد ذلك ، إذا تم ، إنذاراً للفرنج بإبادة ملكهم ، وامتلاك معاقلهم :

إذا ما دمشق ملكتك عنانها تيقن من فى (إيليا) [1] أنه الذبح

وهكذا ظفرت سياسة نور الدين ، وجهاده للفرنج ، بشاعر خلدها ؛ ولذا كانت خسارة الأدب والتاريخ كبيرة بوفاة هـذا الشاعر سنة ٥٤٨ هـ ، فقد بقى بعده نور الدين إحدى وعشرين سنة ، كان الأدب يسعد فيها بإنتاج ضخم قوى ، لو أن الزمن أبقى للأمير شاعره ، يسجل له ما قام به من أعمال البطولة .

كان نور الدين محمود أعظم من اتصل به القيسرانى ، وأكثر من مدحهم ، وقال مدحه

---

(١) إيلياء : بيت المقدس .

فى سواه كقاضى القضاة كمال الدين الشهرزورى ، وجمال الدين وزير الموصل ، ومجد الدين ابن الداية ، وهم من أعيان عصرهم .

والمدح أهم أغراض شعر القيسرانى ، وله فى الهجاء جولات مع ابن منير الذى ترجمنا له ، فقد كان القيسرانى سنياً متورعا ، وابن منير غالياً متشيعا ، فما قاله القيسرانى فى ابن منير وكان قد هجاه :

ابن منير ، هجوت منى　　خيراً أفاد الورى صوابه
ولم تضيق بذاك صدرى　　فإن لى أسوة الصحابة

وممن هجاه القيسرانى ملك النحاة ، عندما قدم إلى الشام . وبرغم ما يرويه المؤرخون من أنه وابن منير كانا يشبهان بجرير والفرزدق ، للمناقضات والوقائع التى جرت بينهما ؛ لم أعثر على هذه المناقضات ، فيما بين يدى من مراجعه .

وله وصف فى ثنايا شعره : وصف المعارك الحربية ، ووصف السمات النفسية للأبطال ، ووصف دمشق بقوله :

أرض تحل الأمانى من أماكنها　　بحيث تجتمع الدنيا وتفترق
إذا شدا الطير فى أغصانها وقفت　　على حدائقها الأسماع والحدق

ومما استحسن وصفه لمغن بقوله :

والله لو أنصف الفتيان أنفسهم　　أعطوك ما ادخروا منها وما صانوا
ما أنت حين تغنى فى مجالسهم　　إلا نسيم الصبا والقوم أغصان

أما غزله فرقيق ؛ وقد مر القيسرانى بالديار التى استولى عليها الفرنج فراقه جمال فتياتها وغمره شعور الإعجاب بهن ، فأنشأ كثيراً من المقطوعات التى تنطق بفيض من الشوق واللهفة والإعجاب ، وكانت الكنائس من أعظم الأماكن التى يسعد فيها بالنظر إلى الحسان ؛ كما كانت مجتمعاتهم فى الأعياد مثاراً لحسه وانفعالاته ، قال عند دخوله أنطاكية :

واحربا فى الثغور من بلد　　يضحك حسنا كأنه ثغر

به قصور ، كأنها بيع ... ناطقة فى خلالها الصور
هالات طاقاتهن آهـلة ... يبسم عن كل هالة قمر
سوافر كلما شعرن بنا ... برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته ... بدر ، ولكن ليله شعر
سرت ، وخلفت فى ديارهم ... قلباً تمنيت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بها ... للقرب ، حتى غبطت من أسروا

وقال فى بربارة ، وهى كنيسة للإفرنج :

بدينك يا قس بربارة ... وما بت تتلوه فى الحندس
أجرنى من الصور الناطقات ... متى قمن حولك فى مدرس
إذا هن أقبلن وقت الصلاة ... فى كل لون من الأطلس
وجالت مناطق أوساطها ... وضاقت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل أردافها ... فيالى من ذلك المجلس
فلولا التحرج فى ملتى ... طلعت عليهن فى برنس
وقمت ألحن قداسهن ... غير بليد ولا أخرس
ولم تك فرسانها فى الطعـــان بأشجع منى ولا أفرس
ترى كل فاتنة وجهها ... معرى بشمس الضحا مكتس
فرنجية ساكن عقدها ... وزُنّارها قلق المجلس
إذا قبلت صورة أقبلت ... عليها بناظرها الأشوس
فيا ليتنى عنـدها دمية ... ترانى ولا ريب فى ملبس
فأقسم لو أننى أستطيع ... تحولت صورة مرجرجس

ويظهر أن النيسرانى كان رقيق القلب ، يهفو إلى الجمال ، ويولع به أينما كان ، ويظهر أنه عندما سافر إلى العراق ، لسبب لا أدريه ، علق قلبه هوى جديداً ، كان مثار شاعريته ، عندما عاد من العراق إلى الشام ، سنة ٥٢٧ هـ ، فكان يتذكر هذا الهوى ، ويحن إليه ، كلما ابتعد عن العراق ، فما قاله ، وقد مر بالأنبار :

أقمت بالأنبار ذا لوعة مقسومة بين حبيبين
أشتاق أهلى بدمشق ، وفى بغداد حظ القلب والعين
ففى لقائى ذا فراق لذا قل لى : متى أخلو من البين

وقال وقد مر بوادى (إبلى) :

أقول لخيلى عند (إبلى) وماؤه يبارى دموعى والرفاق تسير
تجاوزن عن ماء الغدير وشربه فبين جفونى للركاب غدير
ولما ثنى طرفى اشتياق إليكم ولم يركم كاد الفؤاد يطير
وكيف برؤياكم ، وبينى وبينكم مهامه تثنى الطرف وهو حسير
وأعجب ما ألقاه فى الحب أننى أسير وقلبى بالعراق أسير

وقال وقد مر بديار بنى عدى :

مررنا فى ديار بنى عدى يجاذب لوعتى شرق وغرب
يتيمنى بأرض الشام حب ويعطفنى على بغداد حب
غرام طارف ، وهوى تليد لكل صبابة فى القلب شعب
ولا وأبيك ما هومت إلا سرى لهما خيال لا يغب
فكل هوى يطالبنى بقلب وهل لى غير هذا القلب قلب

تلك أهم أغراض شعر القيسرانى ، وشعره يمتاز بأنه من النوع الجزل الفخم ، الذى ينحو فيه منحى شعراء العصر العباسى الأول ، فيختار ألفاظه وعباراته ، من هذا الطراز الذى يجرى على ألسنة المثقفين من الشعراء ، وينأى عن ألفاظ العامة وأساليبها ، وفيما قدمناه من النماذج شاهد على ذلك . ويمتاز أيضاً بطول نفسه فى قصائده ، فهو مطيل فى معظمها .

وأحب القيسرانى الزخارف اللفظية ، وإن لم يغرق فيها ، كما أغرق صاحبه ابن منير ، فنجد من الجناس والطباق قوله فى مدح الكمال الشهر زورى :

وأنت فشمس العدل حكماً وحكمة وظلم بنات الفكر عدل عن العدل

ومن الجناس قوله :

ولما دنا التوديع قلت لصاحبي : حنانيك ، سربي عن ملاحظة السرب
إذا كانت الأحداق نوعا من الظبا فلا شك أن اللحظ ضرب من الضرب

وقد كانت هـذه الصناعة اللفظية أحياناً تبهره ، حتى ينسى ما تخفى وراءها من تفاهة المعنى ، روى أنه كان كثير الإعجاب بقوله من جملة قصيدة .

وأهوى الذي أهوى له البدر ساجداً ألست ترى فى وجهه أثر الترب

فمع أن البيت مأخوذ من قول أبي العلاء فى مرثية :

وما كلفة البدر النضير قديمة ولـكنها فى وجهه أثر اللطم

ـــ له خيال بعيد ، وتعليل ضعيف ، ليس له سند من الواقع .

والقيسرانى مجيد فى أكثر شعره ، واضح الغرض ، لا يستغلق ، ولا يبهم ، ويحفظ له مؤرخوه رسالة نثرية كتبها إلى نور الدين ، جارى فيها أهل عصره الذين التزموا السجع فيما يكتبون ، قال فى هذه الرسالة : « سلام الله وحنانه ، ورأفته وامتنانه ، وروحه وريحانه ، على من عصم بعزه العواصم ، وخصم بحجته الدهر المخاصم ، وألجم بهيبته العائب والواصم ، الذى انتضى فى سبيل الله سيوف الجهاد ، وارتضى بعز سلطانه شعار العباد والزهاد ، واهتدى إلى طاعة الله وليس غير الله من هاد ، ومن أصبحت أطراف البلاد أوطاداً لمملكته ، ومعاقل الكفار فى عقال ملكته ، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته ، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النصر ، وممالك الإسلام متوجة بتيجان الفخر ، وصعاب الأمور منقادة إليه بأزمة القهر ، ومن رأى الحكم دارسة فبنى مدارسها ، ويابسة فسقى منابتها ومغارسها ، والمنابر شامسة فأمكن من صهواتها فوارسها ، ومن عمر ربع السنن بعد ما عفا ، وأنقذ من الفتن من كان منها على شفا ، ومن نشر أعلام الفضل وأنشر بعد الوفاة أيام العدل ، ومن أنار بوجهه الإيمان ، وأخذ الناس به من الزمان توقيع الأمان » والرسالة فى أخيلتها وتشبيهاتها تحمل كثيراً من الإحساسات ، التى رددها القيسرانى فى شعره ، فهى أشبه ما تكون بقصيدة منثورة .

وتوفى القيسرانى فى دمشق ، ليلة الأربعاء الحادى والعشرين من شعبان ، سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

المهذب بن الزبير*

؟ — ٥٦١ هـ

الحسن بن علي ، أحد أخوين أجادا قول الشعر وأحسناه ، ويذكر المؤرخون أن المهذب كان أقوى من أخيه الرشيد شعراً وأن الرشيد أعلم من المهذب فى علوم عصره ، شرعية وعربية ورياضية [١] ، بل ذكر العماد أن المهذب كان أشعر أهل زمانه ، وله شعر كثير ، ومحل فى الفضل أثير [٢] .

ولد فى أسوان فى عام لا يذكره مؤرخوه . ويقول ياقوت : إنه ينحدر من قبيلة غسان [٣] ، وكان أول شعر قاله سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وظل بعد ذلك ربع قرن يعانى نظم القريض وإجادته ، واتصل المهذب ، وهو فى أسوان ، بأسرة بنى الكنز [٤] ، حماة الأدب ، وكعبة الأدباء ، فى هذا البلد ، ومما مدح به أحدهم وهو كنز الدولة بن منوج قصيدة أولها :

بأى بلاد غير أرضى أخيم ... وأى أناس غير أهلى أيمم

ومنها فى المدح :

لئن جهل المداح طرق مديحكم ... فإنى بها من سائر الناس أعلم

---

* مراجعه :

(١) خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٤ (المطبوعة) . (٢) خزانة الأدب للحموى ص ٢٥٤ .
(٣) خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٧٩ . (٤) فى أدب مصر الفاطمية ص ٢٠٣ و ٢٣٠ .
(٥) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٧ . (٦) الطالع السعيد ص ١٣ و ١٠٠ .
(٧) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١٣ . (٨) الروضتين ج ١ ص ١٤٧ .
(٩) فوات الوفيات ج ١ ص ١٢٤ . (١٠) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٤٢ .
(١١) النكت العصرية ص ٣٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٨٦ و ١٢٢ و ١٨٤ و ٢٤٣ و ٤١٥ و ٥٠٤ و ٥١٤ .
(١٢) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٩٧ . (١٣) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١ .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١ . (٢) خريدة القصر ج ١ ص ٢٠٤ .
(٣) معجم الأدباء ص ج ٩ ٤٧ . (٤) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١ .

وإن كتموا ظلماً أحاديث مجدكم   فإنى فى كتم الشهادة أظلم
وهل لى حمد فى الذى قلت فيكم   ونعماكم عندى التى تتكلم (١)

وقد أجازه الممدوح على هذه القصيدة بألف دينار (٢) ، ولكن المهذب ، وقد خلق طموحاً لم يقتع بالمقام فى أسوان ، فشد الرحال إلى عاصمة الدولة ، حيث هيأت له جودة شعره أن يتصل بوزراء الفاطميين ، وأن يجالسهم ، واشتدت صلته بالصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد ، فقد أثنى عليه القاضى الجليس أحد خاصة الصالح ، حتى قدمه ، وقربه إليه ، ولم ينل أحد عند الوزير منزلة تشابه منزلته ، حتى لقد اتهم الوزير بأن أكثر ما فى ديوانه من شعر إنما هو من عمل المهذب (٣) ، وأغدق الوزير معروفه على الشاعر ، حتى حصل له منه مال جم (٤) ، وقد يكون لانحدار الاثنين من قبيلة غسان (٥) أثر فى توثق هذه الصلة بينهما ، وبرغم أن الذى مهد لهذه الصلة هو القاضى الجليس ، فقد حدثت نفرة شديدة بين الجليس والشاعر ، لاندرى ، ولا يبين المؤرخون سببها ، ولكنهم يذكرون أنه لما مات الجليس شمت به ابن الزبير ، ولبس فى جنازته ثياباً مذهبة ، فنُقِّص بهذا السبب ، واستقبحوا فعله (٦) .

وأوفد المهذب إلى بلاد اليمن فى رسالة من بعض ملوك مصر ، وهيأت له هذه الرحلة أن اجتهد هناك فى تحصيل كتب النسب ، وجمع منها ما لم يجتمع عند أحد ، حتى صح له تأليف كتاب الأنساب ، قال عنه ياقوت : « هو كتاب كبير ، أكثر من عشرين مجلداً . . . رأيت بعضه ، فوجدته ، مع تحقق هذا العلم ، وبحثى عن كتبه ، غاية فى معناه لا مزيد عليه يدل على جودة قريحة مؤلفه ، وكثرة اطلاعه . . . إذا ذكر رجلا ممن يقتضى الكتاب ذكره لا يتركه حتى يعرفه بجهده من إيراد شىء من شعره وخبره (٧) » .

---

(١) الطالع السعيد ص ١٠٤ .   (٢) المرجع السابق ص ١٣ .
(٣) معجم الأدباء جـ ٩ ص ٤٧و٤٨ .   (٤) المرجع السابق ص ٤٧ .
(٥) ينسب المؤرخون طلائع بن رزيك إلى غسان ومدحه الشعراء بهذا النسب — راجع ص ٢١٠ الخريدة المطبوعة .
(٦) معجم الأدباء جـ ٩ ص ٤٨ .
(٧) معجم الأدباء جـ ٩ ص ٤٨ — ٤٩ .

وكانت الصلة وثيقة بين المهذب وأخيه الرشيد ، فلما كان هذا فى اليمن وقبض عليه أحد دعاة الفاطميين هناك ، لأنه ادعى الخلافة ، كما يقول ياقوت[١] ، أو لحسد قام فى صدر الداعى ، لماظفر به من مكانة لدى بعض ملوكها ، لشعر قاله فيه[٢] ، فأهانه الداعى وهم بقتله كتب المهذب إلى الداعى بقصيدته المشهورة[٣] يمدحه ، ويستعطفه ، حتى أطلقه ، والقصيدة حقا قوية ، بدأها باللهفة على أخيه الراحل ، كاسياً ذلك ثوب الغزل ، إذ يقول :

ياربع أين ترى الأحبـــة يمموا ... هل أنجدوا من بعدنا أو أتهموا
رحلوا ، وفى القلب المعنَّى بعدهم ... وجد على مر الزمان مخيم
وسروا ، وقد كتموا المسير وإنما ... تسرى إذا جن الظلام الأنجم
وتعوضت بالأنس روحى وحشة ... لا أوحش الله المنازل منهم
لولاهم ما قمت بين ديارهم ... حيران أستاف الديار ، وألثم
أمنازل الأحباب ، أين هم ؟ وأيـــن الصبر من بعد التفرق عنهم

وظل فى هذا الغزل الباكى الحزين ، حتى إذا انتهى منه انتقل إلى الحديث عن أخيه ، يصف لنا ألمه لبعده ، ويتحدث عن أمجاده وفضائله ، فيقول :

ماكان بعـــد أخى الذى فارقته ... ليبوح إلا بالشكاية لى فم
هو ذاك لم يملك علاه مالك ... كلا ، ولا وجدى عليه متمم[٤]

---

(١) معجم الأدباء ص ٤٩ . (٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٢ .

(٣) يرى صاحب الطالع السعيد أن هذه القصيدة أنشأها المهذب لما سافر أخوه الرشيد إلى مكة ، وطالت غيبته ، وقال إن هـذه القصيدة تسمى النواحة ولـكن القصيدة تؤيد رأى صاحب المعجم ، كما سنرى ، وربما أخذ صاحب الطالع ذلك من قول المهذب فى القصيدة :

يا ســاكنى البـلد الحرام ، وإنمـا ... فى الصدر مع شحط المزار سكنتم
يا ليتنى فى النـازلـين عشـية ... بمنى وقـد جمـع الرفاق الموسـم
فأفوز ، إن غفل الرقيب بنظـرة ... منـكم إذا لبى الحجيج وأحـرموا

وليس ذلك بدليل ، لأن ذلك فى معرض الغزل .

(٤) يشير إلى قصة مالك بن نويره وأخيه متمم ، ولما وفد مالك على النبي ولاه صدقات بنى تميم ، فلما قتل مالك سنة إحدى عشرة بكاه متمم بكاء مرا ، فى شعر خالد ، ويريد المهذب فى هذا البيت أن يقول : إن مالـكا لم يبلغ فى العلا شأو الرشيد أخيه ، وإن وجد متمم على أخيه مالك =

أقوت[١] مغانيه ، وعطل ربعه ... ولربما هجر العرين الضيغم
ورمت به الأهوال همة ماجد ... كالسيف ، يمضى عزمه ويصمم[٢]
يا راحلا بالمجد عنا ، والعلا ... أترى يكون لكم إلينا مقدم ؟

وانتقل بعد ذلك إلى وصف الشامتين بأخيه ، الفرحين بغيبته ، وما جازاهم الله به من تبديد الشمل والهلاك :

يفديك قوم كنت واسط عقدهم ... ما إن لهم ، مذ غبت ، شمل ينظم
لك فى رقابهم ، وإن هم انكروا ... منن كأطواق الحمام ، وأنعم
جهلوا ، فظنوا أن بعدك مغنم ... لما رحلت ، وإنما هو مغرم
فلقد أقر العين أن عداك قد ... هلكوا ببغيهم ، وأنت مسلم

وهنا كان الانتقال طبيعيا من وصف هؤلاء الذين فارقهم الرشيد وارتحل عنهم ، إلى وصف أولئك الذين ارتحل إليهم . وعاش بينهم فى اليمن ، فمدحهم المهذب ، وأثنى عليهم ، وخص الداعى من بينهم بخير ثنائه . فيقول :

واعتضت بعدهم بأكرم معشر ... بدءوا لك الفعل الجميل ، وتمموا
أقيال بأس ، خير من حملوا القنا ... وملوك قحطان الذين هم هم
وكفاهم شرفاً ومجدا أنهم ... قد أصبح الداعى المتوج منهم
هو بدر تم ، فى سماء علاهم ... وبنو أبيه بنو زريع أنجم[٣]

ومضت القصيدة إلى غايتها ، تمدح الدعى وتثنى عليه . وكان لهذه القصيدة أثرها فى نفسه فأطلق أسيره .

= لا يبلغ وجده هو على أخيه الرشيد ، وفى (متمم) تورية والمعنى القريب مأخوذ من التمام ، والمعنى أن وجده عليه ليس له تمام يحده ، أو غاية يقف عندها ، والمعنى البعيد المراد هو متمم بن نويرة .

(١) أقوت : أقفرت . (٢) صمم السيف إذا مضى فى العظم وقطعه .

(٣) القصيدة كلها فى معجم الأدباء ج ٩ ص ٥٠ .

وكان لهذه الصلة الوثيقة أثرها فى حياة المهذب ، فإن الرشيد بعد عودته من اليمن أتهمه شاور ، وقد ولى الوزارة بعد ولد الصالح طلائع ، بأنه على إتصال وثيق بصلاح الدين عند ما حاصر الإسكندرية ، وكان الرشيد يومئذ يلى النظر بالثغر فى الدواوين السلطانية ، وكانت نتيجة هذا الاتهام قتل الرشيد ، والقبض على المهذب ، وحبسه ، فأخذ المهذب يقرض شعراً كثيرا ، أرسل به إلى شاور يستعطفه ، فلم يعطف ، فالتجأ إلى ولده الكامل شجاع ، ومدحه بأشعار كثيرة ، وهو فى الحبس ، حتى عنى بشأنه وأخرجه من سجنه ، وجعله ضمن من ضمهم إليه واصطنعهم (١) ، ومما كتب به للكامل بن شاور :

أيا صاحبى سجن الخزانة خليا ... نسيم الصبا يرسل إلى كبدى نفحا
وقولا لضوء الصبح : هل أنت عائد ... إلى نظرى ، أم لا أرى بعدها صبحا ؟
ولا تيأسا من رحمة الله أن أرى ... سريعا بفضل الكامل العفو والصفحا
فإن تحبسانى فى النجوم تجبرا ... فلن تحبسا منى له الشكر والمدحا (٢)

وأطال المهذب مجيدا فى مدح الكامل ، مبالغا فى تمجيده ، وتعظيم أمره ، كقوله من قصيدة طويلة :

ولو لم يجد يوم الندى فى يمينه ... لسائله غير الشبيبة أعطاها
فيا ملك الدنيا وسائس أهلها ... سياسة من قاس الأمور وقاساها
عسى نظرة تجلو بقلبى وناظرى ... صداه فإنى دائماً أتصداها (٣)

ويظهر أن خروجه من السجن لم يضع حدا لمخاوفه من شاور ، حتى ليقال إن سبب موته سنة إحدى وستين وخمسمائة هو ما أصابه من الخوف والهم من شاور (٤) . ولعله قاسى شدائد كثيرة فى السجن ، وكانت صورة هذه الشدائد فى ظلام السجن الدامس الذى أحال الوقت كله ليلا لا صبح له — لا تبرح مخيلته ، فخشى أن يعود إلى السجن ، ليقضى ما بقى من أيامه فيه وملأه هذا الخوف حتى قضى عليه .

---

(١) معجم الأدباء س ٥٨ . (٢) المرجع السابق س ٥٩ وخطط المقريزى ج ٣ س ٧٩ .
(٣) معجم الأدباء ج ٩ س ٦٣ . (٤) الطالع السعيد س ١٠٤ .

ولم يكن المهذب جميل الطلعة ، وقد سجل ذلك مفتخراً بقدرته على إنتاج الشعر البليغ الرائع ، إذ يقول :

إن لم أكن ملء العيون فإننى   فى القول يابن الصيد ، ملء المسمع (١)

وكانت جودة شعره مصدر فخار له ، فهو يزهو على شعراء زمانه بسيرورة شعره ، وذيوعه على ألسنة معاصريه . قال يعرض بأحد شعراء الصالح :

فيا شاعراً قد قال ألف قصيدة   ولكنها من بيته ليس تبرح
ليهنك ، لاهنئت — أن قصائدى   مع النجم تسرى ، أو مع الريح تسرح (٢)

ولعله كان يطمح إلى أن يصل إلى مدى يتفق مع بلاغته وشهرته ، وكان يؤكد بينه وبين نفسه أن سوف يصل إلى ما يشتهى ، وكان هذا الطموح هو الذى دفعه إلى أن يترك مدينته ويرحل إلى عاصمة الدولة . ويتجلى هذا الطموح فى قوله :

تأبى المكارم والمجد المؤثل لى   من أن أقيم وآمالى على سفر
إنى لأشهر فى أهل الفصاحة من   شمس ، وأسير فى الآفاق من قمر
وسوف أرمى بنفسى كل مهلكة   تسرى بها الشهب ، إن سارت ، على خطر
إما العلا وإليها منتهى أملى   أو الردى ، وإليها منتهى البشر (٣)

ولست أدرى منصبا شغله المهذب فى الدولة ، وإن كان يلقب بالقاضى ، فكثير أولئك الذين لقبوا بالقاضى فى ذلك العصر ، من غير أن يشغلوا منصب القضاء كالقاضى الفاضل .

وبرغم أن كثيرا من الشعر الذى تضمن العقائد الفاطمية قد أبيد ، رأينا فى شعر المهذب لمحة من هذه العقائد ، عند ما أشار إلى أرض (فدك) التى كانت ملكا للرسول ، فلما مات أبى أبو بكر أن يورث فاطمة بنت الرسول هذه الأرض ، استنادا إلى ما روى من قوله عليه السلام : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . ويرى الشيعة أن أبا بكر ومن

---

(١) الخريدة ج ١ ص ٢١٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٠٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٤

بعده عمر قد أخطأ فى هذا التصرف ، وأنه كان واجبا عليهما أن يورثاها السيدة فاطمة ، وقد أشار المهذب إلى ذلك فى قوله ، يمدح ابن رزيك :

يقود كل مجن ضغن ذى ترة ... يكاد من حره الماذى ينسبك
حتى أعاد بحد السيف ملك بنى الزهـــراء ، واسترجع الحق الذى تركوا
فلو يكون لهم أمثاله عضدا ... فيما مضى ما غدت مغصوبة فدك (١)

* * *

أثبت ابن خلكان أن القاضى المهذب كان له ديوان شعر ، كما كان لأخيه الرشيد ديوان شعر أيضا ، قال صاحب الوفيات : « وكانا مجيدين فى نظمهما ونثرهما » . غير أن هذين الديوانين قد فقدا ، وبقى لنا من شعر المهذب نماذج فى مراجعه المختلفة ، تنوعت بين أغراض الشعر الغنائى : من مدح ، إلى غزل ، إلى وصف ، وفخر ، وغير ذلك ، وكان طلائع بن رزيك أكثر من خصه المهذب بمدحه ، وكان أهم صفة بارزة فى هذا المدح الثناء على شجاعته فى ميدان القتال ، وإقدامه على حرب الفرنج ، إقداما نال منهم ، وحطم بعض قواهم وبلوغه مرتبة سامية ، فى قرض الشعر وندر مدحه إياه بجمال الطلعة وبهجتها فمما أثنى فيه على شجاعته قوله :

وتلقى الدهر منه بليث غاب ... غدت سمر الرماح له عرينا
تخال سيوفه إما انتضاها ... جداول ، والرماح لها غصونا
وتحسب خيله عقبان دجن ... يرحن مع الظلام ، ويغتدينا
إذا قدحت بجنح الليل أورت ... سنا يعشى عيـون الناظرينا
وإن جنحت مع الإصباح عدوا ... أثارت للعجـاج به دجونا
كأن الشمس حين تشير نقعا ... تحاذر من سطاه أن تبينا
وما كسفت بدور الأفق إلا ... أسى إذ ابصرت منه الجبينا

---

(١) المرجع السابق ص٢١٣ . وقد علق العماد على ذلك بقوله : لقد أبطل فى هذا القول المؤتفك ، وغفل عن سر الشريعة فى فدك ، وفضل ممدوحه على السلف فى الشرف ، وأدت به المبالغة فى الضلال إلى السرف

وما اضطربت رماح الخط إلا مخافة ان يحطمها مبينا (١)
وما تندق يوم الدوع ، حتى يدق بها الكواهل والمتونا
وهل يشفى لها أبدا غليل وقد شربت دماء الكافرينا
إذا لقيت عيون الروم زرقا حسبت نصالها تلك العيونا (٢)

ومما مدحه به على غزو الفرنج قوله :

ولقد بعثت إلى الفرنج كتائباً كالأسد حين تصول فى خفان (٣)
وثللت فى يوم العريش عروشهم بشبا ضراب صادق وطعان
ألجأتهم للبحر لما أن جرى منه ومن دمهم معا بحران
مدح الورى بالبأس إذ خضبوا الظبا فى يوم حربهم من الأقران
ولأنت تخضب كل بحر زاخر من تحارب بالنجيع القانى (٤)

وكان يأمل أن يتحد الصالح ونور الدين محمود على طرد العدو ، ويصبح الشام بينهما قسمين ، حين يقول :

وأعدت رسل ابن القسيم (٥) إليه فى شعبان ، كى يتلاءم الشعبان
والفأل يشهد باسمه أن سوف يغـ ـدو الشام وهو عليكما قسمان (٦)

ومما قاله فى وصف شعر الصالح :

ولنار فطنته تريك لشعره عـذباً يروى غلة الظمآن
وعقود در لو تجسم لفظها ما رصعت إلا على التيجان
من كل رائقة الجمال زهت بها بين القصائد عزة السلطان
سيارة فى الأرض لا يعتاقها فى سيرها قيد من الأوزان (٧)

---

(١) قال محقق الجريدة : هكذا فى الأصل وربما كانت محرفة عن ثبينا أى جماعات .
(٢) الجريدة ص ٢٠٧ .
(٣) مأسدة قرب الكوفة .
(٤) المرجع السابق ص ٢١٠ — ٢١١ .
(٥) القسيم : عماد الدين زنكى . وابنه : نور الدين .
(٦) المرجع السابق ص ٢١١ .
(٧) المرجع السابق ص ٢١٢ .

وغزل المهذب رقيق ، سواء منه ما قصد إليه الشاعر قصداً ، أو جعله مقدمة لمدحه ، وقد يصل إلى مدى كبير فى الرقة ، كقوله :

هم نصب عيني ، أنجدوا ، أو غاروا ومنى فؤادى أنصفوا ، أو جاروا
وهم مكان السر من قلبي ، وإن بعدت نوى بهم ، وشط مزار
فارقتهم ، وكأنهم فى ناظرى مما تمثلهم لى الأفكار
تركوا المنازل والديار ، فما لهم إلا القلوب منازل وديار
أمنازل الأحباب ، غيرك البلى فلنا اعتبار فيك واستعبار
سقياً لدهر مر فيك ، تشابهت أوقاته فجميعها أسحار
قصرت لى الأعوام فيه ، فمذ نأوا طالت بى الأيام وهى قصار
يا دهر ، لا يغررك ضعف تجلدى إنى على غير الهوى صبار(١)

وكان القاضى الفاضل معجباً بغزل هذه القصيدة ، كتبه بيده ، وكان كثيراً ما يترنم به وهو :

بالله يا ريح الشما ل إذا اشتممت الليل بردا
وحملت من نشر الخزا مى ما اغتدى للند ندا
ونسجت ما بين الغصون إذا اعتنقن هوى وودا
وهززت عند الصبح من أعطافها قدا فقدا
ونثرت فوق الماء من أجيادها للزهر عقدا
فملأت صفحة وجهه حتى اكتسى آساً وورداً
مرى على بردى عساه يزيد فى مسراك بردا
أحبابنا ما بالكم فينا من الأعداء أعدى
وحياة حبكم بتربة وصلكم ما خنت عهدا(٢)

كان هذان الغرضان : المدح والغزل أهم الأغراض فيما بقى من شعر المهذب ، أما الهجاء فقد أعلن عن موقفه منه فى قوله للصالح ، وكان يغرى الشعراء بعضهم ببعض :

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٦ .
(٢) خزانة الأدب ص ٢٥٣ — ٢٥٤ .

يأيها الملك الذى أوصــافه ... غرر تجلت للزمان الأسفع[١]
لا تطمع الشعراء فىّ فإننى ... لو شئت لم أجبن ولم أتخشع
فليمسكوا عنى ، فلولا أننى ... أبقى على عرضى إذا لم أجزع
ولو أنه ناجى ضميرى فى الكرى ... طيف الخيال بريبة لم أهجع
وإذا بدا لى الهجر لم أر شخصه ... وإذا يقال لى الخنا لم أسمع
والناس قد علموا بأنى ليس لى ... منذ كنت، فى أعراضهم من مطمع[٢]

فهو يبدى رغبة عن الهجاء ، وانصرافاً عن قوله ، إبقاء على عرضه أن تلوكه ألسن الشعراء ، ثم ينفى عن نفسه أن يكون هدفاً يصلح لهجاء الشعراء ، فهو طاهر الضمير ، نقى القلب ، أبيض الصحيفة ، غير أن هذه الفكرة التى تمكنت منه ، فجعلته عف اللسان فى شعره ، لم تلجم لسانه إلى الأبد عن الهجاء ، فلقد كانت ظروف الحياة تدفعه إليه أحياناً دفعاً عنيفاً ، فها هو ذا قد وضع رجاءه فى قوم فأخلفوا رجاءه ، فأخذ يهجوهم ، ولكن فى غير بذاءة ولا إسفاف ، وكان أشد ما هجاهم به قوله :

ولو كنت أنصفت المدائح فيهم ... لصيرتها للأكرمين مراثيا[٣]

ويؤمل خيراً فى صاحب ذى منصب عال فيخيب فيه أمله ، فيشكو قائلا :

لا ترج ذا نقص ، ولو أصبحت ... من دونه فى الرتبة الشمس
كيوان[٤] أعلى كوكب موضعا ... وهو إذا أنصفته نحس[٥]

وقد سبق أن نقلنا تعريضه بأحد شعراء الصالح وهو ابن المفيد ، مما يدل على أن المهذب لم يستطع أن يتحاشى كل المحاشاة ما كان يبغيه الصالح من تعرض بعض شعرائه لبعض ، وهجاء بعضهم بعضاً ، ولكن هجاء المهذب قليل نادر ، كما ذكرنا .

---

(١) الأسفع : الأسود . (٢) الخريدة ص ٢١٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٤
(٤) كيوان هو زحل ، وهو أشهر الكواكب ، وكان المعتقد أنه نهاية المجموعة الشمسية ، وأنه أعلاها موضعا ، لكنهم جعلوه كوكب النحس ورمز الشؤم .
(٥) معجم الأدباء ج ٩ ص ٦٩ .

ولم يبق لنا من رثائه إلا بيتان ، لا تشعر فيهما بحرارة الحزن ، ولا بشدة وقع المصيبة ، فضلا عما فيهما من ضعف الأسلوب ، والتماس لتعليل غير طبيعي ، إذ يقول :

بنفس من أبكى السموات فقده   بغيث ظنناه نوال يمينه
فما استعبرت إلا أسى وتأسفا   وإلا فماذا القطر فى غير حينه[١]

والشاعر هنا نسى نفسه ، ولم يتجه لغير بكاء السماء .

وبقى للشاعر كذلك قصيدة فى الاستعطاف ، سبق أن حللناها ورأينا فخامة أساليبها ، وقوة معانيها ، وله كذلك فخر منثور فى قصائده ، وأقوى عناصر فخره قوة شعره وبلاغته ، وقد ضربنا لذلك بعض الأمثلة فيما مضى ، كما نجد فى ثنايا قصائده بعض أوصاف للطبيعة وغيرها ، وهو يقف عند تصوير ما تراه العين المجردة ، ويلجأ إلى حسن التعليل عند ما يصف المجرة ، فيقول :

وترى المجرة والنجوم ، كأنما   تسقى الرياض بجدول ملآن
لو لم تكن نهراً لما عامت بها   أبدا نجوم الحوت والسرطان[٢]

ولم يصور لنا المهذب فى شعره حين وصف الأسطول المصرى ضخامته وكثرة عدده ، بل اقتصر على الحديث عن لونه ومهارة هجومه ، ولم ينس وصف وجه البحر فى أثناء المعركة بين المصريين والفرنج ، حين قال :

وكأن بحر الروم خلق[٣] وجهه   وطفت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما   لم يأت فى حين من الأحيان
أحبب إلى بها شوانى[٤] ، أصبحت   من فتكها ولها العداة شوانى
شبهن بالغربان فى ألوانها   وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها[٥] عدد القتال فقد غدت   فيها القنا عوضاً من الأشطان[٦]

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ ص ١٢٥ .   (٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥١ .
(٣) خلقه تخليقا : طيبه .
(٤) هى أكبر السفن الحربية فى مصر ، وأ كثرها استعمالا يومئذ ، كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعا ، للدفاع والهجوم . تاريخ الأسطول العربى ص ٣٢ .
(٥) اوقرتها : حملتها .   (٦) جمع شطن وهو الحبل والنص من الخريدة ص ١١ .

ومن أجمل ما قاله فى الوصف قصيدة أنشأها فى وصف ليلة سعيدة ، قضاها بين خمر وغناء وجمال ، بددوا ظلمتها بشموع تجلو سواد الدجى ، وفى هذه القصيدة يقول :

كأن قدودهم أنبتت — على كثب الرمل قضبانها
حججنا بها كعبة للسرور — ترانا نمسح أركانها
فطوراً أعانق أغصانها — وطوراً أنادم غزلانها
على عاتق[١] إن خبت شمسنا — فضضنا عن الشمس أدنانها
وإن ظهرت لك محجوبة — قرأت بأنفك عنوانها
يطوف بها بابلى[٢] الجفو — ن تفضح خداه ألوانها
بكأس إذا ما علاها المزا — ج أحال إلى التبر مرجانها
كأن الحباب[٣] وقد قلدته — در يفصل عقيانها[٤]
ومسمعة مثل شمس الضحا — أضافت إلى الحسن إحسانها
وراقصة رقصها للحو — ن عروض تقيد أوزانها
ولما طوى الليل ثوب النها — ر ، وجرت دياجيه أدرانها
جلونا عرائس مثل اللجين — صنعنا من النار تيجانها
وصاغت مدامعها حلية — عليها توشح جثمانها
بها ما بأفئدة العاشقين — فليست تفارق نيرانها
وقد أشبهت رقباء الحبيب — فما يدخل الغمض أجفانها[٥]

وإن المهذب كان يقاسى كثيراً من غدر أصحابه ، فامتلأ شكاً فى صداقة الناس ، ورأينا فى شعره شكوى الزمان ، فأعلن أنه لا يثق بأحد ولا يؤمن بما يرى ويسمع ، بل أعلن أن مصدر عيشه النكد هم أصدقاؤه وثقاته ، فقال مرة :

تشابه الناس فى خلق وفى خلق — تشابه الناس والأصنام فى الصور
ولم أبت قط من خلق على ثقة — إلا وأصبحت من عقلى على غرر

(١) العاتق : الخمر حسنت وقدمت .
(٢) منسوب إلى بابل : بلد السحر .
(٣) الحبابة : ما يعلو الخمر من الفقاقيع .
(٤) العقيان : ذهب .
(٥) الخريدة ص ٢١٧ .

لا تخـــدعنى بمرئى ومستمع ... فما أصدق لا سمعى ولا بصرى
وكيف آمن غيرى عند نائبة ... يوماً إذا كنت من نفسى على حذر [١]

وقال أخرى :

ومن نكد الأيام أنى كما ترى ... أكابد عيشاً مثل دهرى أنكدا
أمنت عداتى ، ثم خفت أحبتى ... لقد صدقوا، إن الثقات هم العدا [٢]

هذا ، وأما صلة ابن الزبير بوطنه مصر فينم عنها قوله :

وما لى إلى ماء سوى النيل غلة ... ولو أنه ـ أستغفر الله ـ زمزم [٣]

ويبدو شعر المهذب طبيعيا ، يريد به صاحبه أن يعبر عن إحساسه وشعوره ، ولكنه مع ذلك لا يترك الزينة إذا عرضت له ، ولكنها إذا وردت فى شعره لم تجدها مغتصبة ، ولا قلقة فى مكانها ، وإن شئت فانظر الجناس فى قوله :

حرب عوان حكمتك من العدا ... فى كل بكر عندهم وعوان [٤]

وقوله :

وعيوننا عوض العيون ، أمدها ... ما غادروا فيها من الغدران [٥]

وإلى التورية فى قوله :

لم ترض أسماء قوم أصبحوا رمماً ... كأن ألقابهم من بعدهم ترك [٦]

---

(١) الخريدة ص ٢٣٤ . (٢) المرجع السابق ص ٢٢٥

(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥١ .

(٤) الخريده ص ٢١١ . وعنوان فى الشطر الأول صفة لحرب وهى الحرب التى قوتل فيهـا مرة ، وفى الشطر الثانى هى المرأة التى كان لها زوج .

(٥) معجم الأدباء جـ ٩ ص ٥٨ . والعيون الثانية فى الشطر الأول منابع المياه ، وبينها وبين عيون الأولى جنـاس تام ، والغدران فى آخر البيت : جمع غدير وبينهـا وبين غادروا ، جناس اشتقاق ، ومعنى البيت أن عيونهم أصبحت تنوب عن العيون الجارية ، تمدها غـدران من الدموع لا تنضب .

(٦) الخريدة ص ٢١٣ . وترك جمع تريكة ، ولها عدة معان ، منها المرأة التى تترك لا تتزوج ، والروضة التى يغفل عن رعيها ، وما تركه السيل من الماء ، والبيضة بعد أن يخرج منها الفرخ ، كما أنه من الجائز أن يكون معناها الترك وهم هذا الجنس من النـاس ، وهو بسكون الراء ، ويجوز فى الشعر تحريكها ، بالضم اتباعا لحركة التاء .

وإلى الاقتباس فى قوله :

أقصر فديتك عن لومى وعن عذلى أولا فخذ لى أمانا من يد المقل
من كل طرف مريض الجفن تنشدنا ألحاظه : « رب رام من بنى ثعل »
إن كان فيه لنا وهو السقيم شفا فربما صحت الأجسام بالعلل[١]

وقد سبق أن أوردنا ما تهيأ له أحيانا من حسن التعليل ، وذلك كله لا يدخل المهذب بين شعراء الصنعة ، الذين يجعلون همهم فى التلاعب بالألفاظ من غير أن يكون وراءها سوى معان تافهة .

* * *

هذا وقد ظفر المهذب بمدح بعض شعراء عصره ، فلابن عرام فيه مدائح[٢] ، ومدحه وأخاه عمارة اليمنى ، فقال :

أرى ابنى علىّ ركب الله فيهما سجايا نفوس بينهن شتات
فهذا له فى المكرمات تسرع وهذا له فى النائبات ثبات
وللحسن الفعل الذى هو كاسمه وما كل أسماء الرجال سمات[٣]

---

(١) الخريدة ص ٢٥٦ . والشطر الثانى من البيت الثانى مضمن قول امرىء القيس .
رب رام من بنى ثعل مخرج كفيه من ستره
وبنو ثعل حى من العرب .
والشطر الثانى للبيت الثالث شطر ثان للمتنبى من بيت شطره الأول : لعل عتبك محمود عواقبه .
(٢) الطالع السعيد ص ١٠٥ . (٣) النكت العصرية ص ١٨٤ .

عمـــارة اليمني*

؟ — ٥٦٩ هـ

من تهامة باليمن ، مدينة يقال لها مرطان ، ولد فيها عمارة ، من أسرة توارث بنوها السؤدد والغنى ، وبين قوم من العرب تعصبوا لبداوتهم ، وحافظوا على لغتهم ، ولما شب أرسله أبواه إلى زبيـــد ، حيث لازم الطلب فى مدرسة بها ، وظل بها يدرس الفقه على مذهب الشافعى ، وبدأ يقرض الشعر فى مغتربه حتى إذا زاره والده أنشده شيئا من شعره ، فاستحسنه ، ثم استحلفه ألا يهجو مسلما قط ، ووفى عمارة بما وعد به والده . وحج عمارة سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وأوفده صاحب مكة سفيراً عنه ، ومعـــه رسالة إلى الديار المصرية ، فقدمها ، فى شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة ، والخليفة بها يومئذ الفائز ابن الظافر ، ووزيره الملك الصالح ، طلائع بن رزيك ، فلما أحضر للسلام عليهما فى قاعة الذهب فى قصر الخلافة أنشدهما قصيدته التى أولها :

الحمد للعيس ، بعد العزم ، والهمم ... حمداً يقوم بما أولت من النعم
لا أجحد الحق ، عندى للركاب يد ... تمنت اللجم فيها رتبة الخطم

---

* مراجعه :

(١) الأعلام ٢ : ٧٠٩ . (٢) وفيات الأعيان ١ : ٢٢١ ، ٣٧٦ .
(٣) الروضتين ١ : ٩٧ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ .
(٤) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٩٧ ، ١٦٠ ، ٢١٩ ، ٣٤٨ ، ١٥٦ .
(٥) كتابه : تاريخ اليمن . (٦) صبح الأعشى ٣ : ٥٢٦ و ١٣ : ٣٠٥ .
(٧) السلوك ١ : ٥٣ . (٨) النكت العصرية لعمارة .
(٩) بغية الوعاة ٣٥٩ . (١٠) تاريخ الاسلام للذهبي .
(١١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٤ : ٩٣ .
(١٢) خطط المقريزى ١ : ١٩٥ . و٢ : ٣٥١ ، ٣٩٢ .
(١٣) مفرج الكروب ص ٣٤ . (١٤) الفاطميون فى مصر ص ١٧٤ .
(١٥) البؤساء فى عصور الاسلام ص ١٤٣ .
(١٦) النجوم الزاهرة ٦ : ٧٠ . (١٧) خزانة الأدب للحموى ص ١١ .
(١٨) ديوانه ومختار ديوانه . (١٩) مسالك الأبصار ١٠ : ١٠٧١ .
(٢٠) تاريخ مصر لابن ميسر ٢ : ٩٥ . (٢١) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٢ .
(٢٢) البداية والنهاية ١٢ : ٢٧٤ . (٢٣) شذرات الذهب ٤ : ٢٣٤ .

قربن بعد مزار العز من نظرى | حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم | وفداً إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته | ما سرت من حرم إلا إلى حرم

حتى إذا أتم إنشادها أفيضت عليه الخلع من ثياب الخلافة مذهبة ، ودفع له الصالح خمسمائة دينار ، وأخرجت له السيدة الشريفة بنت الحافظ خمسمائة دينار أخرى ، وأطلق له من دار الضيافة رسوم جليلة ، واستحضره الصالح للمجالسة ، ونظمه فى سلك حاشيته ، وانثالت عليه صلاته ، وغمره بره ، وكان بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبو المعالى بن الحباب ، والموفق بن الخلال ، صاحب ديوان الانشاء ، وأبو الفتح محمود ابن قادوس ، والمهذب أبو محمد الحسن بن الزبير .

وظل عمارة بمصر إلى شوال من هذه السنة ، حين ودع الخليفة والوزير بقصيدة ، جاء فيها :

من لى بأن ترد الحجاز وغيرها | أخبار طيب مواردى ومصادرى
زارت بى الآمال أكرم ساحة | فوق الثرى ، فغدوت أكرم زائر
ووفدت ألتمس الكرامة والغنى | فرجعت من كل بحظ وافر
فكأن مكة قال صادق فألها : | سافر تعد نحوى بوجه سافر

ومضى إلى مكة ومنها إلى زبيد لأمر طلبه منه أمير الحرمين ، حتى إذا عاد إلى مكة فى العام القادم ، ألزمه أمير الحرمين أن يحمل عنه رسالة إلى الصالح طلائع ، فعاد إلى مصر ، وأمره الصالح بملازمته ، وتأكدت بينهما روابط الود وأواصر المحبة ، قال عمارة : « وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذاكرات ، ويأمرنى بالخوض مع الجماعة فيها ، وأنا بمعزل عن ذلك ، لا أنطق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين فى مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل : « فلا تقعد معهم ، حتى يخوضوا فى حديث غيره » ، ونهضت فخرجت ، فأدركنى الغلمان ، فقلت : حصاة يعتاد فى وجعها ، فتركونى وانقطعت فى منزلى أياما ثلاثة ، ورسوله فى كل يوم ، والطبيب معه ، ثم ركبت بالنهار ، فوجدته فى البستان المعروف بالمختص ، فى خلوة من الجلساء ، فاستوحش

من غيبتى ، وقال : خيرا ، فقلت : إنى لم يكن بى وجع ، وإنما كرهت ما جرى فى حق السلف ، وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لى فى الأرض سعة ، وفى الملوك كثرة ، فعجب من هذا ، وقال : سألتك بالله ما الذى تعتقد فى أبى بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاهما لم يبق الاسلام علينا ولا عليكم . وأنه ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه ، ثم قرأت قول الله تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » ، فضحك ، وكان مرتاضا حصيفا ، قد لقى فى ولاياته فقهاء السنة ، وسمع كلامهم » و « لم أشعر فى بعض الأيام حتى جاءتنى منه رقعة ، فيها أبيات بخطه ، ومعها ثلاثة أكياس ذهبا ، والابيات قوله :

قل للفقيه عمارة : يا خير من ... أضحى يؤلف خطبة وخطابا
أقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى ... قل : حطة وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ولا تجد ... إلا لدينا سنة وكتابا
وعلى أن يعلو محلك فى الورى ... وإذا شفعت إلى كنت مجابا
وتعجل الآلاف ، وهى ثلاثة ... صلة ، وحقك ، لا تعد ثوابا

فأجبته مع رسوله بهذه الابيات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا ... يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علماؤكم ... معمور معتقدى ، وصار خرابا
ودعوتم فكرى إلى أقوالكم ... من بعد ذاك أطاعكم وأجابا
فاشدد يديك على صفاء محبتى ... وامنن على ، وسد هذا البابا

وظل عمارة وثيق الصلة بالصالح وبنيه وأهله ، يحسنون إليه كل الاحسان ، تسرهم صحبته ، برغم اختلاف العقيدة ، فقد كان عمارة شافعيا ، شديد التعصب لأهل السنة ، وكان الصالح طلائع إماميا ، شديد التعصب لمذهبه ، فقد حببه إليه جودة شعره ، وبراعة حديثه وإمتاع سمره ، وله فى الصالح وولده مدائح كثيرة ، حتى إذا انقرضت دولة بنى رزيك وقبض على الامر شاور ، جلس حوله جماعة من أصحاب بنى رزيك ، ممن كان لهم عليهم فضل وإحسان ، فأخذوا ينتقدون بنى رزيك ، وينتقصون قدرهم ، ولكن عمارة قام منشدا :

صحت بدولتك الايام من سقم وزال ما يشتكيه الدهر من ألم
زالت ليالى بنى رزيك، وانصرمت والمدح والذم فيها غير منصرم
كأن صالحهم يوما وعاد لهم فى صدرذا الدست لم يقعد ولم يقم
كنا نظن ، وبعض الظن مأثمة بأن ذلك جمع غير منهزم
فمذ وقعت وقوع النسر خانهم ما كان مجتمعا من ذلك الرخم
ولم يكونوا عدواً ذل جانبه وإنما غرقوا فى سيلك العرم
وما قصدت بتعظيمى عداك سوى تعظيم شأنك ، فاعذرنى ولا تلم
ولو فتحت فمى يوماً بذمهم لم يرض فضلك إلا أن يسد فمى
والله يأمر بالاحسان عارفة منه ، وينهى عن الفحشاء فى الكرم

ولم يغضب شاور ، بل شكره على حسن وفائه لبنى رزيك .

وسقطت الدولة الفاطمية ، وهو فى مصر ، وكان لسقوطها رنة أسى فى صدره ، دفعته إلى أن يرثيهم بقصيدة لامية أجاد فيها ، وقد تحدثنا عنها فيما مضى ، كما رثى العاضد رثاء باكياً وتمنى أن لو عادت أيامه ، ورجعت دولته ، ومما قاله فى ذلك :

أسفى لملك عاضدى عطلت حجراته بعد الندى والباس
أخذت بنان الغز من أمواله ورجاله بمخانق الأنفاس
وعسى الليالى أن ترد زمانكم لدناً كعود البانة المياس
أبنى على والبتول وأحمد وكواكب الدنيا وخير الناس

ولعله بعد أن استقر الأمر لصلاح الدين قد حاول أن يجد له مكانا فى الدولة الجديدة ، فمدحه ومدح جماعة من أهل بيته ، فمما قاله يمدح به صلاح الدين :

تركت قلوب المشركين خوافقا وبات لواء النصر فوقك يخفق
لئن سكن الاسلام جأشا فإنه بما قد تركتم خاطر الكفر يقلق
سمت بصلاح الدين ملة أحمد وطائرها فوق السماك محلق
لك الخير ، قد طال انتظارى ، وأطلقت لغيرى أرزاق ، ورزقى معوق
كأنك لم يسمع بجودك مغرب ولم يتحدث عن عطائك مشرق

وانى من تاريخ أيامك التى ... بها سابق التاريخ يمحى ويمحق
صدقتك فيما قلت ، أو أنا قائل ... بأنك خير الناس ، والصدق أوثق
وحسبى أن أنهى إليك ، وأنتهى ... وأحسن من ظنى ، وأنت تحقق

ويبدو من هذا المدح أن صلاح الدين لم يفسح مكانا لعمارة فى دولته ، وأن عمارة قد ضيق عليه فى رزقه ، فمضى يندب أيام الدولة الفاطمية ، ويبكى حظه العاثر لزوالها ، وكتب إلى صلاح الدين قصيدة يشكو فيها حاله ، ويوازن بين عهديه : فى عصر الدولة الفاطمية وفى أيام صلاح الدين ، وسمى القصيدة : شكاية المتظلم ونكاية المتألم ، وبدأها بقوله :

أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعى ... لنفثة مصدور وأنة موجع

ثم وصف حاله فى أيام الفاطميين قائلا :

تقاصر بى خطب الزمان وباعه ... فقصر عن ذرعى ، وقصر أذرعى
فيممت مصرا أطلب الجاه والغنى ... فنلتهما فى ظل عيش ممنع
وزرت ملوك النيل إذ زاد نيلهم ... فأحمد مرتادى ، وأخصب مرتعى
ملوك رعوا لى حرمة ، صار نبتها ... هشيما ، رعته النائبات ، وما رعى
مذاهبهم فى الجود مذهب سنة ... وإن خالفونى فى اعتقاد التشيع

ثم إتجه إلى صلاح الدين يشرح له شكواه قائلا :

فقل لصلاح الدين والعدل شأنه : ... من الحكم المصغى إلى ، فأدعى
سكت ، فقالت ناطقات ضرورتى ... إذا حلقات الباب غلقن فاقرع
وعندى من الآداب ما لو شرحته ... تيقنت أنى قدوة ابن المقفع
إلى الله أشكو من ليالى ضرورة ... رجعنا بها نحو الجناب المرجع
قنعنا ، ولم نسألك صبرا وعفة ... إلى أن عدمنا بلغة المتقنع
ولما أغص الريق مجرى حلوقنا ... أتيناك نشكو غصة المتوجع
فإن كنت ترعى الناس للفقه وحده ... فمنه طرازى بل لثامى وبرقعى
ألم ترعنى للشافعى وأنتم ... أجل شفيع عند أعلى مشفع

أمن حسنات الدهر أم سيئـــاته رضاك عن الدنيا بما فعلت معى ؟ !
ملكت عنان النصر ، ثم خذلتنى وحالى بمرأى من علاك ومسمع

ومضى عمـارة يشرح لصلاح الدين مواهبه وخصاله : من استمساك بمذهب السنة ، ومن انطباع على الشعر ، وإبداع فيه ، ومن مقدرة على النثر المطبوع البليغ ، ومن نفس تشكر الجميل ، ولا تنسى الوفاء ، ولا تنكر المعروف ، ويختم قصيدته الطويلة بأمله فى أن يجد فى صلاح الدين ما يرنو إليه : من الجاه ، والعز ، والغنى .

ولكن هذه القصيدة لم تجده نفعا ، فمضى ليتفق مع جماعة من رؤساء البلد ، على التعصب للفاطميين ، وأن يعيدوا دولتهم ، فعلم بأمرهم صلاح الدين ، وكانوا ثمانية ، وأمر بهم فشنقوا يوم السبت ، ثانى شهر رمضان ، سنة تسع وستين وخمسمائة .

وترك عمارة مؤلفات ، منها فى التاريخ كتاب أخبار اليمن ، والنكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية ، وأخبر أن له فى الفرائض مصنفا ، كان يقرأ فى اليمن .

ولعمارة ديوان شعر ضخم ، معظمه من النوع الجيد الجزل ، الذى يذكرنا بشعراء القرن الثالث الهجرى ، طرق فيه أغراض الشعر الغنائى : من مدح ، ورثاء ، ووصف ، وغزل ، وغيرها ، وندر الهجاء فى شعره عملا بوصية والده . وقد مدح عمارة بشعره خلفاء مصر ، ووزراءها ، كما مدح حكام اليمن .

وله رثاء كذلك لهؤلاء الخلفاء والوزراء ، كما أصيب بفقد بنيه : حسين ، واسماعيل ، وعطيه ، ومحمد ، وكان عمارة يكبر ابنه محمدا هذا بنحو ستة عشر عاما ، فكان الناظر إليهما يظنهما أخوين ، فكان مما قاله فى رثائه :

أيا سفح المقطم ، كم سفحنا على بجراك من دمع هتون
ومنها : لئن أبلت لك الدنيا جبينا فشكلى فيك قــد أبلى جبينى
كأنك يا محمد لم تدافع صدور نوائب الأيام دونى
رزقتك بعد إدراكى بعام فلم تبعـد سنينك عن سنينى
فكنت ، إذا العيون رنت إلينا أخى فى كل عين أو قرينى

وكنت أرى الحنانة ضعف عزم   فآنسنى فراقك بالحنين

كما رثى بعض أزواجه .

وعتاب عمارة فيه قسوة وشدة ، وفيه وعيد وتهديد ، كقوله :

يا أكرم الناس وجها   وأكرم الناس عهدا
لكن إذا رام جودا   أعطى قليلا ، وأكدى
لئن وصلتك سهوا   لقد هجرتك عمدا
وإن هويتك غيا   لقد سلوتك رشدا
وغرنى كل وجه   من البشاشة يندى
وقلت : أصل كريم   وجوهر ليس يصدا
فاردد على مديحى   فلست أكره ردا
والطم به وجه ظن   قد خاب عندك قصدا
وسوف تأتيك عنى   ركائب الذم تحدى
يقطعن بالقول غورا   من البلاد ونجدا
ينشرن فى كل سمع   ذما ، ويطوين حمدا

ولعمارة غزل يبدأ به قصائد مدحه ، وآخر أنشأه للغزل قصدا ، وهو قليل فى شعره .
أما أثر الحروب الصليبية فى شعر عمارة فتمجيده لأحد رجالها الذين كان من أعز أمانيهم فى الحياة أن يقفوا معظم جهودهم على حرب العدو المغتصب ، وهو الوزير المصرى طلائع بن رزيك ، فكثيرا ما اثنى عليه بجهاده للفرنج ، وانتصاره عليهم كقوله :

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد   ديارهم لم ينجهم منك مهرب
وخافتك إن لم تعطها الأمن منعما   فجاءتك ياليث الشرى تتغلب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهم   ومن بعض ما أهدوا مجن ومقضب
وذلك فأل صادق أن عزمهم   بسيفك ياسيف الهدى سوف يسلب
لك الرأى لم تفلل ظباه ، ولم يفل   إذا ظلت الآراء تطفو وترسب
وما شئت فاصنع راشدا فى سؤالهم   فرأيك من رأى البرية أصوب

وله أبيات تدل على ماكانت تشعر به مصر من خوف واضطراب ، حين كان الفرنج يعتزمون الإغارة عليها ، والاستيلاء على ربوعها ، فى هذه الفترة المضطربة فى تاريخ مصر ، وسنورد هذه الأبيات فى حديثنا عن أثر الحروب الصليبية فى الأدب العربى .

هذا ولعمارة اليمنى نثر فنى ، يتجلى فى رسائله التى التزم فيها السجع واستشهد فى ثناياها بأبيات الشعر . وهذا نموذج من كتابته قال من رسالة : « ... وللعبد من موات الحرمات والاعتراف بعوارف المكرمات ، ما يستوجب به اغتفار عظيمات الخطايا ، واحتقار جسيمات العطايا ، وما أحسن قول القائل :

إن كنت قد كسدت لديك بضاعتى ... فبــأى شىء ليت شعرى أنفق
أيروح جيدى عاطلا من أنعم ... جيد الزمان بحليهن مطوق

وقد علم الله أن العبد لم يترك مواصلة الخدمة بالمكاتبة إهمالا وإخلالا ، بل إعظاما وإجلالا ، وحين لم يبق له من الكلام ما يرضيه فى الإبانة عما ينطوى عليه من المودة والموالاة ، والمسابقة والممالاة ، تشاجع العبد على هذا الكلام الغث ، واستمسك بهذا السبب الرث ، وأما النظم فإنه لو كان منظوما من نثر الكواكب الأفراد ، مكتوبا بذوب القرائح والأكباد ، لما رضيه العبد حلية لجيد مجده ، ولا قام ببعض الواجب من شكر مولاه وحمده ، والعبد منتظر من تشريفه بالجواب بخط اليد الكريمة ما ينتظر السارى من ضوء صباحه ، والراكد من هبوب رياحه » .

أســـامة بن منقذ*

٤٤٨ — ٥٨٤ هـ

فى يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة، سنة ٤٨٨ هـ (يولية سنة ١٠٩٥م) ولد أسامة بن منقذ، فى أسرة توارثت إمارة « شيزر »، وهى مدينة فى الشمال الغربى لحماه، وتبعد عنها خمسة عشر ميلا، وتقع على هضبة يحيط بها نهر العاصى من جهات ثلاث، وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة، وكان لهذه القلعة قيمتها فى عصر الحروب الصليبية، لمركزها الحربى الحصين، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين.

وُلد أسامة لأب صالح، يقضى وقته بين تلاوة القرآن، والصيد فى النهار، ونسخ

---

(١) كتبه : (أ) الاعتبار . (ب) لباب الآداب . (حـ) ديوانه « مصور بدار الكتب رقم ٦٩٣٩ ز » ويطبع الآن بالمطبعة الأميرية بتحقيق المؤلف وزميل له . (ى) كتاب العصا ص ١٨١ من « نوادر المخطوطات » المجموعة الأولى ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
(هـ) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب « مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣٣٤ تاريخ » .
(و) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز « مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣٣٤ تاريخ »
(٢) الروضتين فى أخبار الدولتين فى مواضع كثيرة .
(٣) النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة جـ ٥ و جـ ٦ فى واضع عدة .
(٤) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٦٣ و ٣٧٠ و ٣٩٤ و ٤٢٧ .
(٥) ديوان سبط بن التعاويذى ص ١٤٢ و ٣٩٨ .
(٦) تاريخ دمشق لابن عساكر جـ ٢ ص ٤٠٠ .
(٧) معجم الأدباء لياقوت جـ ٥ ص ١٨٨ و ٢١٤ .
(٨) تاريخ الإسلام للذهبى . (٩) خريدة القصر .
(١٠) شذرات الذهب جـ ٤ ص ٢٧٩ .
(١١) الكامل لابن الأثير جـ ١١ ص ٩٨ و ١٢٧ و ١٢٨ .
(١٢) السلوك للمقريزى جـ ١ ص ١٢٥ . (١٣) البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٣١ .
(١٤) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء جـ ٤ ص ٢٨٦ .
(١٥) المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ٢٧ و ٢٨ .
(١٦) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ٧٤ و ٧٥ .
(١٧) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار جـ ١٠ ص ٩٨٩ .
(١٨) دائرة المعارف الإسلامية جـ ٢ ص ٧٩ . (١٩) مرآة الجنان جـ ٦ ص ٤٢٨ .

كتاب الله فى الليل ، ووالدة شهرت بالشجاعة والنخوة والإقدام ، وقد تركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار ، ويركب الصعب من الأمور ، فلا ينهاه عن أن يمضى إلى حية يحز رأسها ، ويلقى بها فى الدار ميتة ، وهو ثابت رابط الجأش ، ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشيزر ، وقتل ما يصرعه منها ، وهكذا شب جريئا لا يهاب ، ومما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه فى رياضته المفضلة عنده وهى الصيد .

إلى جانب هذه النشأة التى تعد للحرب والنضال ، تلقى أسامة الثقافة التى كان يتلقاها الأمراء فى ذلك العصر ، فدرس الحديث، والأدب، والفقه، والنحو، واللغة ، وحفظ الكثير من الشعر ، وأخذ من ذلك بنصيب واف ، تلقاه عن كبار الأساتذة ، كما كانت البيئة التى عاش فيها بيئة أدبية ممتازة ، فقد كان الأمراء من بنى منقذ ممن يقصدهم الشعراء والأدباء ، وكانوا هم علماء شعراء .

كان أسامة أثيرا لدى عمه أبى العساكر سلطان حاكم « شيزر » ، ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة ابنا له ، وكان يرى فيه الأمير المستقبل لشيزر ، ووارث الملك من بعده ، واشترك أسامة فى المعارك التى دارت بين أسرته وبين الصليبيين ، دفاعا عن مدينتهم شيزر ، وعاش فى تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه ، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا فى آخر عمره أن دب الوهن والفتور إلى العلاقة التى تربطه بأسامة ، وبدلا من حبه وعطفه عليه بدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه ، خوفا على أولاده من مكانة أسامة ، وحذرا أن يئول الملك إليه دونهم ، فمضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زنكى الذى صار أكبر أبطال الحروب الصليبية فى وقته ، وأول خطر حقيق داهم للصليبيين ، فانتظم أسامة فى جنده ، وحارب تحت قيادته ، فى عدة معارك ، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر ، عندما هاجمه الفرنج سنة ٥٣٢ﻫ (١١٣٨م)، فقد مضى إليه ، وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عنه ، وربما يكون قد عزم على البقاء فى شيزر ، بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١ﻫ ، غير أن عمه أبى العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر ، فأمره وإخوته بالرحيل ، فتشتتوا فى البلاد ، وكان فى ذلك الخير لهم ، فإنهم نجوا من الزلازل التى هدمت شيزر ، وقضت على بنى منقذ بأسرهم ، وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢ ﻫ .

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق ، واتصل بحاكمها : معين الدين أنر ، واعتمد

هذا الحاكم على أسامة فى تصريف الشئون السياسية ، وقد نجح أسامة فى ذلك نجاحا رفع مكانته فى دمشق ، واستطاع فى تلك الحقبة أن يتصل بالفرنج عن قرب ، وأن يعرف الكثير من عاداتهم وأخلاقهم ، ولكن المقام لم يصف لأسامة بدمشق ، ويظهر من القصيدة التى أرسلها إلى معين الدين أنر يعاتبه فيها — أن السر فى نبو المقام بأسامة ، يعود إلى وشايات حملها الساعون إلى معين الدين ، فصدقها ، فانحرف قلبه عنه ، يدل على ذلك قول أسامة :

بلغ أميرى معين الدين مألكة ... من نازح الدار ، لكن وده أمم
هل فى القضية يامن فضل دولته ... وعدل سيرته بين الورى علم
تضييع واجب حقى بعد ماشهدت ... به النصيحة والإخلاص والخدم
وما ظننتك تنسى حق معرفتى ... إن المعارف فى أهل النهى ذمم
ولا أعتقدت الذى بينى وبينك من ... ود ، وإن أجلب الأعداء ينصرم
لكن ثقاتك مازالوا بغشهم ... حتى استوت عندك الأنوار والظلم
والله ما نصحوا لما استشرتهم ... وكلهم ذو هوى فى الرأى متهم
كم حرفوا من مقال فى سفارتهم ... وكم سعوا بفساد ، ضل سعيهم

ويبدو من تلك القصيدة ، وما فيها : من حياة وحرارة وقوة ، أن أسامة كان يضمر فى قلبه فيضا من الحب لمعين الدين ، وقد ختم قصيدته بعد عتاب طويل بقوله :

فاسلم ، فما عشت لى فالدهر طوع يدى ... وكل ما نالنى من بؤسه نعم

ترك أسامة دمشق ، وسافر إلى القاهرة ، فوصل إليها فى جمادى الثانية سنة ٥٣٩ ﻫ (نوفمبر سنة ١١٤٤ م) ، فى عهد الخليفة الحافظ لدين الله ، وكان معه والدته وزوجه وأخوه محمد نجم الدولة ، فأكرمه الخليفة أيما إكرام ، وأقطعه إقطاعا عاش به فى رغد من الحياة وخفض العيش . ولم يشأ أسامة فى أول الأمر أن يزج بنفسه فى الأحداث السياسية المصرية ، حتى إذا ولى الظافر ألقى بنفسه فى خضم هذه الأحداث ، حتى ليروى المؤرخون أنه اشترك فى المؤامرات التى انتهت بقتل الوزير ابن السلار والخليفة الظافر ، ورأى أسامة أن يعود بعد هذه الخطوب والحوادث إلى دمشق ، برغم أن الصلة كانت وثيقة ، بينه وبين الوزير المصرى الجديد : طلائع بن رزيك .

عاد أسامة إلى دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ، ومضت عشيرته لتلحق به ، ولكن السفينة التى كانت تحملهم أصابها عطب عند عكا ، وكانت فى يد الصليبيين ، فنهب الفرنج ما معهم من المتاع ، وساموهم سوء العذاب ، حتى إذا وصلوا إلى دمشق كانوا قد فقدوا كل ما حملوه معهم من مصر ، وكان لذلك أكبر الأثر الأليم فى نفس أسامة .

واتصل أسامة فى دمشق بحاكمها نور الدين محمود ، أكبر أبطال الحروب الصليبية فى عصره ، وكثيراً ما أرسل إليه الوزير المصرى طلائع قصائد يحثه بها على أن يتوسط لدى نور الدين ، حتى تجتمع كلمة سوريا ومصر ، على جهاد العدو المشترك ، ولكن هذه القصائد لم تثمر ثمرتها ، ويظهر أن كبر سن أسامة قد حال بينه وبين الاشتراك فى الوقائع الحربية التى شنها نور الدين وإن كان قد ساهم فى بعضها ، فقد حدثنا أبو شامة فى كتابه : الروضتين عما أبداه أسامة : من ضروب البسالة ، فى حصار قلعة حارم .

ويظهر أنه وجد بعد زهاء عشر سنين قضاها فى دمشق ، أنه فى حاجة إلى الراحة ، والبعد عن تكاليف السلطان ، وخدمة الملوك ، فمضى إلى حصن كيفا ، وهناك عكف على البحث والدرس والتأليف ، وربما اختار أسامة هذا المكان ، لما كان فيه من مكتبات ضخمة غنية . ولكن هذه العزلة التى ارتضاها أسامة قطعها عودة صلاح الدين إلى دمشق ، وقد رأى فيه أسامة البطل المنقذ للبلاد فمضى إليه ، واستقبله صلاح الدين استقبالا حسنا ، فقد كانت تربطهما صلات وثيقة ، عندما كانا معا فى بلاط نور الدين محمود ، فأعطاه صلاح الدين دارا وإقطاعا دارة ، وجالسه ، وآنسه ، وذاكره فى الأدب ، وكان يستشيره فيما يلم به ، وإذا مضى إلى الغزو كاتبه ، وأخبره بوقائعه ، وكان صلاح الدين معجبا بشعر أسامة ، مشغوفا بقراءة ديوانه ، وتأمل خواطره ، واستحسان روائع قصائده . ومما كان يشتد به إعجاب صلاح الدين من شعره قصيدة طائية مطلعها :

أجيرة قلبى ، إن تدانوا ، وإن شطوا ومنية نفسى ، أنصفونى أو اشتطوا

وكان إعجاب صلاح الدين بتلك القصيدة حافزا للعماد الكاتب أن ينظم قصيدة فى مدح السلطان على وزنها وقافيتها (١) .

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ٢٤٧ .

عاش أسامة فى دمشق يشكو الكبر ، وقد ثقلت عليه الحياة ، لطول عمره ، حتى إذا كان الثالث والعشرون من رمضان سنة ٥٨٤ هـ (نوفمبر سنة ١١٨٨ م) . توفى أسامة بعد أن أربى على التسعين ، ودفن فى سفح جبل قاسيون بدمشق ، وترك عدة كتب أدبية وتاريخية .

وترك أسامة ديوانا جمعه بنفسه ، وعنى به من بعده ابنه مرهف ، ورتب الشاعر ديوانه على حسب الأغراض ، فباب للغزل ، وآخر لشكوى الفراق ، وغيرهما للوصف ، إلى غير ذلك من أغراض الشعر الغنائى ، ولكن ديوانه قد خلا من الهجاء ، ويظهر أنه قد أصر على ألا يكون فى شعره هذا اللون ، برغم الدوافع التى كانت تسوقه إلى أن يهجو ، حتى لقد قال :

ظلمت شعرى ، وليس الظلم من شيمى ... يطيعنى حين أدعوه ، وأعصيه
يهم أن يذكر القوم اللئام بما ... فيهم ، فأزجره عنهم ، وأثنيه
وليس من خلق ثلب الغنى وإن ... جنى ، ولا ذكر ذى نقص بما فيه

وفى ذلك مسحة من ترفع الإمارة التى تحول بينه وبين النزول إلى مستوى الشتائم والمهاترة .

ولما اختار أسامة أن يرتب ديوانه على الأغراض كان يجزىء القصيدة الواحدة ، فيضع غزلها مثلا فى باب الغزل ، ومديحها أو فخرها فى باب المديح أو الفخر ، وكان هو يشير إلى ذلك حين يعرض قصائده ، ولهذا النظام فائدته فى تتبع الدراسة الفنية لكل فن من فنون الشاعر على حدة ، وإن كانت الحاجة تدعو عند دراسة بناء القصيدة إلى دراسة أجزائها كلها ، لمعرفة الجو الذى توحى به ، وإدراك مدى الصلة التى تربط بين عناصرها .

ويبدو لأول ما تقرأ الديوان أن أسامة لم يدون كل ما قاله من الشعر ، لأنه لم يرض عن كل ما صدر منه ، فحذف منه ما لم يرقه ، حيث يقول :

كلما رددت فى شعرى النظر ... بان ضعف العى فيه ، وظهر
ليس يرضينى ، ولا يمكننى ... جحد ما قد شاع منه واشتهر
فأجيل الفكر فى تقليله ... فإذا قل اختصرت المختصر
وبه فقر إلى ذى كرم ... إن رأى ما فيه من عيب ستر

وذاك يدل على تطلع أسامة إلى مثل أعلى كان يبغى أن يصل إليه مستوى شعره ، ولا بد أن كان لذلك أثره فى أخذه إياه بالتقويم والتنقيح حتى ظهر شعره فى هذا الثوب من القوة والجزالة ، مما يذكرنا بشعر الفحول الذين سموا بفنهم عن أن يكون مظهراً للتلاعب بالألفاظ ، أو الجرى وراء محسن لفظى ، من غير أن يكون فى البيت معنى جليل ، أو خاطر سام ، أو شعور صادق ، أما أسامة فلديه ما يقول ، فى أسلوب قوى ، وعبارة رصينة .

وتتدفق خواطر أسامة فى قصيدته ، وترتبط بعضها ببعض ، حتى يصبح البيت لبنة ، فى بناء ملتحم مؤتلف ، خذ مثلا قوله :

لا تجز عن لخطب ... فكل دهرك خطب
وحادثات الليالى ... لة ما تغب
تروح سلما ، وتغدو ... على الفتى ، وهى حرب
ولا تضق باصطبار ... ذرعا إذا اشتد كرب
فصبر يومك مر ... وفى غد هو عذب
كم صابر الدهر قوم ... فأدركوا ما أحبوا
وكل نار حريق ... يخشى لظاها ستخبو

ترى فيه التحام الخواطر وتسلسلها ، لا تجد ذلك فى مقطوعاته القصيرة فحسب ، بل فى قصائده الطويلة أيضا ، حتى ليخيل إليك أحيانا أنك تقرأ قطعة منثورة لا قصيدة منظومة . ويطول نفس أسامة أحيانا ، حتى تبلغ القصيدة تسعين بيتا ، كتلك التى كتبها على لسان نور الدين ، يعدد فيها وقائعه مع الفرنج .

وينهج أسامة فى كثير من الأحيان المنهج التقليدى ، فيبدأ قصائده بالغزل ، حين يفتخر ، أو يمدح ، أو يشكو ، وحينا يبدأ موضوعه من غير مقدمة غزلية ، كهذه القصيدة التى بعث بها إلى معين الدين أنر ، وقد لقى الفرنج وهزمهم ، فقال أسامة :

كل يوم فتح مبين ونصر ... واعتلاء على الأعادى وقهر

ومضى فى قصيدته .

ولكثرة ما أطلع أسامة على الشعر القديم كان يضمنه بعض قصائده ، حتى قد أتهمه

بعض سامعى شعره بالسرقة من غيره ، وليس فيما فعل أسامة سوى التضمين ، الذى تراه فى قوله يخاطب معين الدين أنر :

وأنت أعدل من يشكى إليه ، ولى　　شكية « أنت فيها الخصم والحكم »
وما ظننتك تنسى حق معرفتى　　« إن المعارف فى أهل النهى ذمم »
لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم　　حتى « استوت عندك الأنوار والظلم »

وفى هذه الأبيات تضمين من قصيدة المتنبي : « واحر قلباه ممن قلبه شبم »
أما قصيدة أسامة التى مطلعها :

أطاع الهوى من بعدهم وعصى الصبر　　فليس له نهى عليــه ولا أمر

فقد ضمنها من شعر أبى فراس ، كهذا البيت ، ومن شعر المتنبي ، وأبى صخر الهذلى ، وغيرهم . وليس التضمين بكثير فى شعر أسامة ، وأكثره ما جاء فى هاتين القصيدتين .

تلمس فى شعر أسامة الجلال والوقار ، فلا هزل فيه ولا مزاح ، إلا قليلا نادراً ، فليس فى باب الملح الذى عقده ، فضلا عن قصره ، سوى قليل من الفكاهة ، ولعل من أرقها قوله ، وقد كان له جار من الأمراء ، يعرف بابن طليب ، وقعت فى داره نار فاحترقت ، فقال أسامة :

أنظر إلى الأيام كيف تقودنا　　قسراً إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قط بداره　　ناراً ، وكان هلاكها بالنار

وقد وجدت الأحداث الكبرى التى مرت بأسامة صداها فى شعره ، وصورت أثرها فى نفسه تصويراً قويا ، ولعل من أقوى هذه الآثار فى نفسه اضطراره إلى أن يفارق وطنه الأول : « شيزر » الذى شهد مدارج طفولته ، وملاعب صباه ، وملاهى شبيبته ، وقد وجد أسامة للبقاء فى هذا الوطن شقاء لا يطيقه ، بعد أن جفاه عمه ، وقلب له ظهر المجن ، فكتب إلى أبيه قصيدة يحدثه فيها عما يعتلج فى صدره : من الهم ، ويشكو إليه ما كدر صفاء عيشه : من الغدر ، ويقول له :

أشكو إلى علياك هماً ضاق عن　　كتمانه صدرى ، وما هو ضيق

وطوارقا للهم أقريها (١) الكرى   وتلظ بى صبحا فما تتفرق (٢)

وينبئه بأنه قد صمم على فراق دار الهون ، ما دام الحقد عليه قد وجد سبيله إلى ذوى قرباه ، فيقول :

دعنى وقطع الأرض دون معاشر   كلّ علىّ لغير جـــــ رم محنق
تغلى على صدورهم من غيظهم   فتكاد من غيظ علىّ تحرق
أعيا علىّ رضاهم فيئست من   إدراكه ، ما النجم شيء يلحق
قد أفسدوا عيشى علىّ وعيشهم   فأنا الشقى بهم ، وبى أيضا شقوا
فضل الأقارب برهم وحنوهم   فإذا جفونى فالأباعد أرفق

وكان أسامة راضياً عن نفسه بهذا الارتحال الذى نأى به عن الضيم :

أأسام خسفا ثم لا   آبى ، فلست إذاً أسامه
هيهات لا ترضى المعالى   صاحبا يرضى اهتضامه

وكان موقفه من دمشق حين نبت به كموقفه من وطنه الأول ، فارقها غير راض باحتمال الهوان ، برغم ما ألمسه فى شعره من حب لمعين الدين . يقول له :

ولست آسى على الترحال من بلد   شهب البزاة سواء فيه والرخم
تعلقت بحبال الشمس منه يدى   ثم انثنت وهى صفر ، ملؤها ندم

أما حياته بمصر فقد مر عليه بها : من تقلبات الزمان وعبر الأيام . وتنقل الملك والسلطان ما صح أن يقول معه :

خمسون من عمرى مضت ، لم أتعظ   فيها كأنى كنت عنها غائبا
وأتت على بمصر عشر بعدها   كانت عظات كلها وتجاربا
شاهدت من لعب الزمان بأهله   وتقلب الدنيا الركوب عجائبا

(١) قريت الضيف من باب رمى   (٢) تلظ بى : تلازمنى

ولعل الأزمات السياسية التى مرت به فى مصر كانت تملأ صدره بالهم والنقمة على الزمن الذى رمى به إلى مصر ، فيقول :

يا مصر ما درت فى وهمى ولاخلدى ... ولا أجالتك خلواتى بأفكارى
ما أنت أول أرض مس تربتها ... جسمى، ولافيك أوطانى وأوطارى
لكن إذا حمّت الأقدار كان لها ... قوى تؤلف بين الماء والنار

ولكن أسامة ، برغم هذه الأزمات التى كانت تدفعه حينا إلى الثورة ، والتى لا بد أن تلم بمن يخوض لجة السياسة — وجد فى مصر ما كان يصبو إليه من مال ومجد ، كان شديد الأسف عليه حين أفلت من يده ، تحس بذلك فى قوله :

نلت فى مصر كل ما يرتجى الآمـــل من رفعة ومال وجاه
فاستردت ما خولتنى وما أســـرع نقص الأمور عند التناهى
كنت فيه كأننى فى منام ... زال منه ما سر عند انتباهى

فلا جرم كان شديد الحنين إلى مصر بعد أن فارقها

كان لكثرة الترحال أثر فى شعر أسامة ، فكثيراً ما شكا الفرقة والاغتراب وكثرة جوبه للبلاد ، وتحس فى هذا الشعر لوعة الحرمان ، وألم الشوق إلى الوطن المفارق والآل الغائبين ، وكان لذلك أثر فى مسح شـــعره بمسحة من الحزن والأسى ، وكثرة حديثه عن الوداع والفراق .

كما كان لتبدد ثروته ونهب بعضها ، عقب الحوادث التى جرت بعد مقتل الحافظ ، وغرق بعضها فى البحر ، عند خروج أسرته من مصر — أثره البالغ من نفسه وأثره القوى فى شعره ، شكا ذلك إلى الملك الصالح ، وطلب منه المعونة ، فقال له :

أنا أشكو إليك دهرا لحا[1] عو ... دى ، وأعراه ، فهو يبس سليب
وخطوبا رمى بها حادث الدهـــ ... ـر سوادى[2] ، وكلهن مصيب

---

(١) لحا العود : قشره (٢) السواد: الشخص

أذهبت تالدى وطــــار فى الطــــارى ، فضاع الموروث والمكسوب
فهو شطران : بين مصر وبحر ذا غريق فىء[1] ، وذا منهوب

فإذا نزلت كارثة زلزال شيزر، فذهبت بملك أهله وبأهله ، أخذ يبكيهم ، ويندب حظهم ويرثى منازلهم ، ويسأل الزمن عن ماضى مجدهم ، ويتألم لبقائه من بعدهم ، ويمدح ما اتصفوا به من سامى الخلال وطيب الفعال ، وبرغم ما كان بينه وبينهم : من إحن وبغضاء ، عز عليه فقدهم ، وتمنى أن لو استمرت الحياة واستمر ما بينه وبينهم من فرقة ونفور ، فقد كانوا برغم ذلك مصدر فخاره ، وينبوع قوته واعتزازه . قال أسامة من قصيدة طويلة :

قالوا : تأس ، وما قالوا بمن ، وإذا أفردت بالرزء ما أنفك أسوانا[2]
ما استدرج الموت قومى فى هلاكهم ولا تخرّمهم مثنى ووحـــدانا
فكنت أصبر عنهم صبر محتسب وأحمل الخطب فيهم عزّ أو هانا
واقتدى بالورى قبلى ، فكم فقدوا أخا ، وكم فارقوا أهلا وجيرانا

ويدفع عن نفسه أن يظن به ظان وقوفه من هذه الكارثة وقوف من لا يعنى بها ، ولا يأبه لها ، فيقول :

لعل من يعرف الأمر الذى بعدت بعد التصاقب[3] من جراه دارانا
يقول بالظن ، إذ لم يدر ما خلق ولا محافظتى من حان[4] أو بانا :
أسامة لم يســؤه فقد معشره كم أوغروا صدره ، غيظا وأضغانا
وما درى أن فى قلبى لفقـــدهم نارا تلظى ، وفى الأجفان طوفانا
بنو أبى ، وبنو عمى ، دمى دمهم وإن أرونى منــاواة وشنآنا[5]
كانوا سيوفى إذا نازلت حادثة وجنتى حين ألقى الخطب عريانا

وختم تلك القصيدة الباكية بالدعاء لهم ، فقال :

---

(١) الفىء . الغنيمة
(٢) الأسوان : الحزين
(٣) الصقب : القرب
(٤) الحين : الهلاك
(٥) الشنآن : البغض

سق ثرى أو دعوه رحمة ملأت   مثوى قبورهم روحا وريحانا
وألبس الله هاتيك العظام ، وإن   بلين تحت الثرى ، عفوا وغفرانا

ولما علت سن أسامة أخذ يشكو طول العمر ، وثقل الحياة عليه ، لحينا يجد فى الموت أعظم راحة تنقذه من ضعفه ، وحيناً تنهال عليه ذكريات شبابه وصباه ، وحيناً يأسف على أنه لم ينل فى شبيبته من المتع والملاذ ما كان جديراً أن يظفر به فى عصر الشباب ، إذ يقول :

وما ساءنى أن أحال الزما   ن ليلى نهارا وجهلى وقارا
ولكن يقولون : عصر الشبا   ب يكون لكل سرور قرارا
فوجدى أنى فارقته   ولم أبل ما يزعمون اختبارا

وصور لنا أسامة نفسه محنيا على عصاه ، قد تقوس ظهره ، وصارت العصا وترا لهذا القوس ، يمشى كالمقيد بإساره لا يستطيع أن يلبي داعى الحرب إذا دعاه :

رجلاى والسبعون قد أوهنا   قواى عن سعي إلى الحرب
وكنت إن ثوب داعى الوغى   لبيته بالطعن والضرب

يصور لنا شعر أسامة صلته بأبيه وإخوته قوية وثيقة . ولما شتت إخوته فى البلاد كانت رسائله إليهم تفيض بالحب وشكوى الفراق .

أما صلته بعمه حاكم شيزر وابن عمه فيصورها شعره ، محاولا جهده الإبقاء عليها ، باذلا فى سبيل ذلك ما استطاع أن يبذل ، ولعل خير ما يصور موقفه فى تلك الفترة قوله :

وما أشكو تلون أهل ودى   ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم   فما أرجوهم فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادى   كظمت على أذاهم وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيا   كأنى ما سمعت ولا رأيت
تجنوا لى ذنوبا ماجنتها   يداى ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله ما أضمرت غدرا   كما قد أظهروه ولا نويت
ويوم الحشر موعدنا ، وتبدو   صحيفة ما جنوه وما جنيت

ولما مضى زلزال شيزر بأسرته بكاهم أسامة كما ذكرنا . وهذا يدلنا على ما امتازت به نفس أسامة من حب يضمره لأقاربه ، ورغبة خالصة فى أن يعيش بينهم لو استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولا ذنب عليه إذا هو أخفق ، وأكاد ألمس فى شعره أنه لم يسع يوما إلى فصم عروة مودة بينه وبين قريب أو صديق .

ومن أكبر الدين اتصل بهم أسامة الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ودار بين الاثنين كثير من المراسلات التى تفضح عن ود كمين بين قلبيهما ، وإعجاب كل بصاحبه أكبر الإعجاب ، وكان الصالح معجباً بمواهب أسامة فى الحرب والسلم ، يرى فيه محارباً شجاعا ، وشاعراً مفلقا ، وخطيبا بارعا ، وحكيما فى إبداء الرأى صائبا ، يقول له :

وجهاد العدو بالفعل والقو ل على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية فى الأمـر ين مذ كنت ، إذ تشب حروب
أنت فيها الشجاع مالك فى الطعـ ن ولا فى الضراب يوما ضريب

وهو لذلك يراه خير من يحمل عبء الرسالة إلى نور الدين ، يحرضه على أن يجتمعا معا على حرب الصليبيين فى وقت واحد ، حتى تتشتت وحدتهم ، ولا يستطيعوا الحرب فى جبهتين ، وذلك كان رأى الملك الصالح وطلب من أسامة أن يبلغ ذلك الرأى إلى نور الدين ، إذ قال له ،

والق عنا رسالة عند نور الديـن ما فى إلقائها ما يريب
قصدنا أن يكون منا ومنكم أجـل فى مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضا ق بأدناهم الفضاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشام مكان الغيوث مال صبيب

فهو يعد هنا بالجيوش والمال ، ويرى أن اجتماعهما معا على حرب العدو كفيل بأن يلقى بهم فى البحر . أرسل رسالة إلى أسامة يقول فيها :

فلو ان نور الدين يجعـ ـل فعلنا فيهم مثـ ـالا
ويسير الأجناد جهـ ـرا ، كى تنازلهم نـ ـزالا

لرأيت للإفرنج طـــــــرا في معاقلهـا اعتقـــــالا
وتجهزوا للسير نحـــــو الغرب ، أوقصــــدوا الشمالا

وكان رأى أسامة كرأى الصالح في الاجتماع ووحدة الكلمة ومضى الملكين معا إلى الحرب . وقصائده إلى الملك الصالح تحث على هذا التضامن والاتفاق ، ولكن ذلك لم يخرج عن حد الأماني ، ولو أنه نفذ يومئذ كان قد تغير مجرى التاريخ .

وكانت قصائد أسامة تحمل الثناء على الملك الصالح ، وتشكر أياديه ، وكان الصالح يبره ، ولم يكن أسامة يجد غضاضة في سؤال الصالح ، ولا الشكوى إليه ، كتب مرة إليه يقول :

أشكو زمانا قضى بالجور فيّ ولم يزل يجور على مثلي ويعتسف
لحت نوائبه عودى ، وأنفد موجو دى ، وشتت شملي ، وهو مؤتلف
وقد دعوتك مظلوما ومرتجيا وفي يديك الغنى والعدل والخلف

ومدح أسامة غير الصالح معين الدين أنر ، حاكم دمشق عندما كان في كنفه ، وبعد أن فارقه ، ومدح الوزير عباسا وزير الظافر ، وابنه نصرا . أما رأيه في نور الدين محمود :

فهو المحامى عن بـــلا د الشام أجمع أن تذالا
ومبيد أمــــلاك الفــــر نج وجمعهم حـالا فحالا
ملك يتيـــه الدهـــر والد نيـا بدولتـه اختيـالا

لكنه أخذ عليه شدة زهده ، وحمله الناس على الزهد ، حتى لقد أشبهت أيامه شهر الصوم في طهارتها ، وامتلائها بالجوع والعطش . ومدح أسامة كذلك صلاح الدين ذاكرا فضله عليه وعلى الاسلام .

وكان أسامة شديد الاعتزاز بنفسه في ميادين القتال ، شديد الاعتزاز بأسرته ، شديد الثقة بصبره وثباته وتجربته ، فما قاله مفتخراً بشجاعته :

لخمس عشرة نازلت الكماة إلى ... أن شبت فيها، وخير الخيل ماقرحا[1]
أخوضها كشهاب القذف مبتسما ... طلق المحيا، ووجه الموت قد كلحا
بصارم من رآه فى قتام وغى ... أفرى به الهام ظن البرق قد لمحا
أغدو لنار الوغى فى الحرب إن خمدت ... بالبيض فى البيض والهامات مقتدحا
فسل كماة الوغى عنى، لتعلم كم ... كرب كشفت، وكم ضيق بى انفسحا

ولأسامة نظرات صائبة فى الحياة، أوحى إليه بها تجاربه، وطول عمره، وماتقلب عليه من حوادث الزمن وعبر الأيام.

يرى أسامة لكل شىء فى الحياة نهاية، فلا بقاء لأمر، ولا خلود لحادث، فللسرور غاية ينتهى إليها، وللأحزان حد تقف عنده، وإذا كانت الحياة تجرى على المنوال، فمن الواجب استقبال حوادث الأيام بحسن الصبر، وقلة الاهتمام، فإن الشدائد إذا كانت ستنقضى وتزول، فمن العبث أن يزيد المرء فى آلام نفسه:

خفض عليك، فللأمور نهاية ... وإلى النهاية كل شىء صائر

بل إن هذه النظرة تنتهى بصاحبها إلى قلة الاكتراث بما فى الحياة: من سعادة أوشقاء:

لما رأيت صروف هذا الد ... هر تلعب بالبرايا
يعلوا بها هذا، ويهبط ذا، وقصـ ... ـرهم المنايا
ورأيته مسترجعا ... نزر المواهب والعطايا
متغاير الأحوال مخـ ... ـتلف الضرائب والسجايا
لانعمة فيه تدوم، ... ولا تدوم به البلايا
لم أغتبط فيه بفا ... ئدة ولم أخش الرزايا

(١) قرح الفرس كمنع وخجل: صار قارحاً، وذلك عند إكمال خمس سنين، حين تنتهى أسنانه.

والمرء يتغلب على شدائد الحياة بالصبر :

إذا ما عدا خطب من الدهر فاصطبر فإن الليالى بالخطوب حوامل
فكل الذى يأتى به الدهر زائل سريعا ، فلا تجزع لما هو زائل

وليس الصبر وسيلة لتحمل المكروه ، حتى ينقضى فحسب ، ولكنه الطريق إلى نيل الأمل والظفر بالأمانى :

اصبر تنل ماترجيه ، وتفضل من جاراك شأو العلا ، سبقا وتبريزاً

أستطيع أن أعد أسامة بهذه النظرة إلى الحياة متفائلا ، إذ هو عند الشدة واثق من زوالها ، وإذا كان الأمر على ذلك فلا معنى لليأس ولا خير فيه :

يا آلف الهم ، لاتقنط ، فأياس ما تكون يأتيك لطف الله بالفرج
ثق بالذى يسمع النجوى ، وينجى من البلوى ، ويستنقذ الغرقى من اللجج

وإذا كان كل شىء فى هذه الحياة إلى انقضاء ، فمن الواجب ألا يدع فرصة سعادة تمر ، من غير أن يأخذ منها بالنصيب الأوفى :

وتغنم اللذات إن مرها مر السحائب

وأوحت إليه تجاربه فى الحياة أن القرب من السلطان غير مأمون العواقب ، فنادى بالبعد عنه ، وإيثار العيش فى خمول وهدوء :

أرض الخمول ، تعش به فى نجوة مما تخاف ومن معاندة العدا

أما الحياة فى جوار ذوى السلطان ففى خطر دائم وقلق لايهدأ :

لاتقربن باب سلطان ، وإن ملأت هباته غير ممنون بها الطرقا
فإن أبوابهم كالبحر : راكبه مروع القلب ، يخشى دهره القلقا

وأسامة ممن يؤمنون بالقضاء والقدر ، ويدين بالحظ ، ويرى الرزق مقسوما ، لاحيلة فى تدبيره :

فوض الأمر راضيا جف بالكائن القلم
ليس فى الرزق حيلة إنما الرزق بالقسم
دل رزق الضعيف ، وهو كلحم على وضـــــم
واقتــــارالقوى تر هبه الأسد فى الأجم
إن للخلق خالقـــــا لامرد لما حــــكم

وأفرد أسامة فى ديوانه بابا للرثاء ، خص جزءاً كبيرامنه برثاء ولده أبى بكرعتيق ، وكان قد وصفه بين أترابه قائلا :

عتيق كالهلال إذا تبدى لسارى الليل من تحت الغيوم
تقول إذا به الأتراب حفوا: أهذا البدر مابين النجوم

وأكاد المس فى تشبيه ابنه بالهلال يبدو لسارى الليل أنه كان أملا لأبيه ، طالما تمناه ، ليكون رفيقا لولده الآخر مرهف ، فلا جرم كان لموته لذعة ألم فى قلبه أمضته ، فمضى إلى شعره ، يشكو إليه وقدة الحزن ، ولاسيما أنه نكب به وقد قارب الثمانين من العمر ، لاأمل عنده فى خلف يأتى به ، وأسامة يحدثنا عن شغل فؤاده الدائم بابنه الراحل ، فيقول :

كيف أنساك يا أبا بكر ، أم كيف اصطبارى ، ما عنك صبرى جميل
أنت حيث اتجهت فى اســودى عينى وقلبى ممثـــل ، لاتزول

ويصف لنا انصرافه بعد زيارة قبره يملأ قلبه الأسى والشجن .

أزور قبرك والأشجان تمنعنى أن أهتدى لطريق حين أنصرف
فما أرى غير أحجار منضدة قداحتوتك ومأوى الدرة الصدف
فأننى ، لست أدرى أين منقلبى كأننى حائر فى الليل معتسف

وقد أثار فيه هذا الحادث المؤلم ذكرى من مضى من أهله . فأخذ يندبهم ويتوجع لمصيرهم ، بل أثار فيه الألم خياته القلقة المشردة التى لاتأوى إلى وطنه :

رمتنى فى عشر الثمـــانين نكبة من الثكل يودى حملها من له عشر

على حين أفنى الدهر قومى ولم تزل ... لهم ذروة العلياء والعدد الدثر (١)
فلم يبق إلا ذكرهم وتأسفى ... عليهم ، ولن يبقى التأسف والذكر
وأصبحت لا آل يلبون دعوتى ... ولا وطن آوى إليه ولا وفر
كأنى من غير التراب ، فليس لى ... من الأرض ذات العرض دون الورى فتر

هذا ، وليس فى غزل أسامة هذه الحرارة التى تشعرنا بقلب دلهه الحب ، وأضنته لوعة الغرام ، ولا أكاد أتبين له إحساساً تفرد به ، أو لمحات امتاز بها . وليس معنى ذلك أنه لم يذق الحب ، بل أرجح أنه ذاقه ، وإن كان لم يشغل قلبه كله . وقد استعار أسامة تشبيهات الأقدمين وأساليبهم فى وصف عواطف الحب . ومما يلحظ على غزله أنه شاك حزين ، لا تكاد تلمح فيه ابتسامة سرور ، وقد يرق أسامة أحياناً ، ويتخذ أوزانا مرقصة ، وتحس ببعض نبضات الحياة فى غزله ، كقوله :

قل لمن أوحش بالهجـر جفونى من كراها
والذى أوهم عينى أن فى النوم قذاها
يا ملولا ، قلما استرعى عهودا فرعاها
يا ظلوما كلما استعطفته صد وتاها
زدت فى تيهك ، والشىء إذا زاد تناهى
تنقضى دولة الحسن وإن طال مداها
راحتى لو سمع الشكوى إليه ووعاها
غير أن الصم لا تسمع دعوى من دعاها
وهو لو نادى عظامى رمة لبى صداها

وكان أسامة عند ما يبدأ غرضاً من أغراض شعره يجعل روح غزله مناسبة لهذا الغرض ، واستمع إلى غزله فى مفتتح قصيدة عتاب إذ يقول :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا ... فليتهم حكموا فينا بما علموا

---

(١) الدثر : الكثير .

ما مر يوما بفكرى ما يريبهم ولا سعت بى إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعت لهم عهدا ، ولا أطلعت على ودائعهم فى صـــدرى التهم

وعلى هذا النسق مضى ، حتى قال :

وبعد ، لو قيل لى : ماذا تحب ؟ وما مناك من زينة الدنيا ؟ لقلت : هم
هم مجال الكرى من مقلتى ، ومن قلبى محل المنى ، جاروا ، أو اجترموا

وهاك من غزله فى قصيدة استعطاف :

أطاع ما قاله الواشى وما عـرفا فعاد ينكـر منـا كل ما عرفا

وعتاب أسامة فيه رقة ورفق بالغ ، واستعطاف جدير أن يستل الضغائن من القلوب ، تشعر فيه بحرارة العاطفة وصدقها ، يقول لابن عمه يستعطفه :

هبنى أتيت بجهل ما قذفت به فأين حلمك والفضل الذى عرفا
ولا ، ومن يعلم الأسرار ، حلفة من يبر فيما أتى ، إن قال أو حلفا
ما حدثتنى نفسى عند خلوتها بمـا تعنفنى فيه إذا انكشفا

وبعد فشعر أسامة من النوع الجزل الفخم ، لا تـكاد تجد فيه من الهنات إلا ما يعد ويحصى ، فهو فى عصره يوضع فى مقدمة الشعراء الذين جددوا شباب الشعر ، وكسوه حلة من الفخامة والقوة والجلال .

ابن الســـــاعاتى*

٥٥٣ — ٦٠٤ هـ

على بن رستم بن هردوز ، خراسانى الأصل ، عرف بابن الساعاتى ، لأن والده عندما انتقل إلى الشام عرف بصنع الساعات ، وعلم النجوم ، وهو الذى عمل الساعات التى كانت عند باب الجامع بدمشق ، صنعها أيام نور الدين محمود بن زنكى ، فأنعم عليه إنعاماً كثيراً ، وولد ابنه على فى دمشق ، وفيها نشأ وتثقف ، وقضى الشطر الأكبر من حياته ، غير أنه على مايظهر لم ينل فيها ماكان يصبو إليه من مال ومجد ، فرأى أن يغادر دمشق إلى وادى النيل ، عله يجد فيه مايحقق آماله ، فبعد أكثر من ثلاثين عاماً مضى إلى مصر وأقام فيها ، حتى مات ، وقد أربت سنه على الخمسين ، ويظهر أنه بلغ فى مصر ما كان يرجوه من أهداف وأمان وبرغم ذلك كان دائم الحنين إلى وطنه ، كثير التذكر لربوعه وآثاره ، كثير اللهج بذكرياته فيه ، وذكريات ملاعبه ، وهو فى هذه الناحية قوى فى شعره مبرز فيه .

ويبدو من شعر ابن الساعاتى أنه من أولئك الذين يبغون الاستمتاع بما فى الحياة من

---

* مراجعه : (١) ديوانه . (٢) مقطعات النيل له .
(٣) الأعلام ٢ : ٦٧١ . (٤) مقدمة ديوانه للاستاذ أنيس المقدسى .
(٥) الروضتين ٢ : ١١ و٤٣ و٨٤ و١٠٦ و١٠٧ و٢٩٤ .
(٦) بين البحر والصحراء ص٢٧ و٤٩ و١٠٧ و١١١ . (٧) خطط المقريزى ٣ : ٢٣٤ .
(٨) خزانة الأدب للحموى ص ١٧٤ و ١٧٥ . (٩) حسن المحاضرة ٢ : ١٨٨ و٢٠٨ .
(١٠) النجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ . (١١) تاريخ الأسطول العربى ص ٣٩ .
(١٢) خطط الشام ٤ : ٤٩ (١٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٦٢ و٢ : ٤٠٥ .
(١٤) مرآة الزمان جـ ٨ تحت أخبار سنة ٥٧٩ هـ . (١٥) طبقات الأطباء ٢ : ١٨٣ و١٨٤ .
(١٦) كشف الظنون ٣ : ٢٤٦ . (١٧) شذرات الذهب ٥ : ١٣ .
(١٨) دائرة المعارف لبطرس البستانى . (١٩) دائرة المعارف الإسلامية ٣ : ١٨٧ و١٨٨
(٢٠) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ٢١ .
(٢١) معجم البلدان لياقوت ١ : ٧٢٥ و٢ : ٨٠ و٤٦٠ و٣ : ٢٢٢ و ٣٧٥ و٤٣٩ .
(٢٢) حلبة الكميت للنواجى ص ٢٢٩ و ٢٨٢ .
(٢٣) طراز المجالس للخفاجى ص ٦٧ . (٢٤) فوات الوفيات ١ : ٢٢٠ .
(٢٥) الكامل لابن الأثير ٢٠٧/١١ .

جمال طبيعى ، وبما يسعف به الزمن من أسباب السرور ، ولعل رغبته فى المال كانت ليستطيع أن يستمتع بذلك كله .

نستطيع أن نحس بذلك مما يبدو فى شعره من ولوع بالطبيعة ، يستوحى سهولها ، ووهادها ، وأنهارها ، وبحارها ، وليلها ، ونهارها ، وشمسها ، وبدرها ، ويقف عند مفاتنها كلها ، معجبا بها ، مأخوذاً بجمالها ، وكان لهذه المناظر الطبيعية فى دمشق أثرها فى نفسه ، حتى إذا قدم إلى مصر كان لمناظرها الطبيعية أثرها فى نفسه كذلك ، فمما تغنى به يوم شات وصفه بقوله :

ولرب يوم غاب فيه رقيبنا ... ومزاجنا ماء الغمام المدجن
حيث الغدير ، وقد أجادت نقشه ... كف النسيم ومرها فى جوشن(١)
وغصون دوح النيربين يهزها ... نغم القمارى بالغناء المحسن
من كل لدن كالقوام ، يميل من ... مرح الشباب إلى الدلال فينثنى
ما بين ثغر كالأقاح مفلج ... وجبين نهر بالنسيم مغضن
ووجوه هاتيك الرياض سوافر ... غيد تزان من المياه بأعين
والأرض تجلى فى رداء أخضر ... والجو يبرز فى قناع أدكن

وتغنى بروضة قال فيها :

ولقد نزلت بروضـــة حزنية ... رتعت نواظرنا بها والأنفس
فظللت أعجب حيث يحلف صاحبى(٢) ... والمسك من نفحاتها يتنفس
ما الجو إلا عنبر ، والدوح إلا ... جوهر ، والأرض إلا سندس
سفرت شقائقه ، فهم الأقحوان بلثمـــا ، فرنا إليــه النرجس
فكأن ذا خـــد ، وذا ثغر يحاوله ، وذا أبداً عيون تحرس

ومما تغنى به جمال الطبيعة فى مصر قوله ، وقد نزل بمكان مستحسن من الجزيرة :

ولقد نزلت من الجزيرة منزلا ... شمل السرور بمثــله يتجمع

(١) الجوشن : الدرع .
(٢) البيت الثانى هو ما حلف عليه صاحبه .

خضل الثرى ، نديت ذيول نسيمه   فالمسك من أردانه يتضوع
رقصت على دولابه أغصانه   فلها به ساق هناك ومسمع
والمد مد النيل ذاتب عسجد   يغنى البلاد ، فأهلها لا تخشع
ما ضرها أن السماء جبينها   جهم ، وأن عيونها لا تهمع
يمسى دروعا بالصبا موضونة   ويظل ما سكنت سيوفا تلمع
نزل الشتاء بها ، وهيف غصونها   خضر الملابس ، والحمائم تسجع
وبها لأفواه الأقاحى سع أزاهـ   ـرها حديث بالمناخر يسمع
والعيد قد وافى ، وليس لمثله   إلا بمثل ربوعها مستمتع

ويصف وقتا قضاه فى أسيوط قائلا :

لله يوم فى سيوط ، وليلة   صرف الزمان بأختها لا يغلط
بتنا وعمر الليل فى غلوائه   وله بنور البدر فرع أشمط
والطل فى سلك الغصون كلؤلؤ   رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ ، والغدير صحيفة   والريح يكتب ، والغمام ينقط

ويطول بى القول إذا أنا حاولت عرض نماذج له فى وصف الطبيعة وجمالها . أما وصف متعته بلذات الحياة فمنتثرة فى أرجاء شعره .

شعر ابن الساعاتى منوع النواحى ، فيه المدح ، والهجاء ، والغزل ، والرثاء ، والوصف ، والحكمة فى ثنايا رثائه بوجه خاص ، ومن أجمل أوصافه ما قاله فى وصف الأمانى وقد سمع ذاما لها :

عشت دهرا منعما بالأمانى   أى بيض ينسين سود الخطوب
مدنيات المدى ، ومبعدة الهم ، وزاد الغادى ، وأنس الغريب
والمجيبات إذ دعين ، وكم دا   ع خليلا ما إن له من مجيب
ذات وصل منزه عن صدود   ودنو مكرم عن رقيب
أخوات الشباب حسنا ، وإن أصبح فوداك فى قناع المشيب

محسنات إليك ، والدهر جان　　باسمات الوجوه عند القطوب
وإذا كنت لا تحب الأمانى　　فلماذا تهوى خيال الحبيب

واتصل ابن الساعاتى برجال الدولة الأيوبية من سلاطين ، وملوك ، ووزراء ، وكتاب ، وقادة ، وفقهاء ، وقضاة ، وعلماء . وأشاد بعظمة بعض أبطال الحروب الصليبية كصلاح الدين ، وأخيه العادل ، والمعظم عيسى ، ونال صلاح الدين من ذلك حظاً موفوراً ، وإن كان قد ضاع معظم ماقاله فيه ، ولم يبق إلا أقله ، وهو يبدؤه بالغزل التقليدى غالباً ، وقل إن بدأه بالمدح من غير تمهيد ، وقد صوره لنا ابن الساعاتى قائداً مظفراً فى الحروب ثابت الجأش ، لا يتزعزع ، ولا يضطرب ، أمام خطوب الزمن :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا　　فلقين طـــودا لا تخف أناته

يقود جيشا ضخما ، عرمرما ، كل جنده جرىء شجاع :

وقفت على حصن المخاض وإنه　　لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه　　رجال كآساد الشرى وهى ترجف
وجرداء سلهوب[1] ، ودرع مضاعف　　وأبيض هندى ، ولدن مثقف

يقاتل بهذا الجيش ، لا ليتسع ملكه ، ولا ليزداد شهرة وصيتا ، ولكن ليقوم بفروض الدين ، ويؤدى واجب الله :

يقاتل كل ذى ملك رياء　　وأنت تقاتل الأعداء دينا

كريم لا يقاس بنداه حاتم ، ولا يجوز أن يوازن به :

من حاتم ؟ عند ما كفاك واهبة　　حتى غدا مثلا ناهيك من مثل
وما المئون من الأنعام تنحرها　　لمن تضيف ، وما عشر من الأبل
من يطلق الألف بعد الألف فى طلق　　كم بين طل الندى والوابل الهطل

---

(١) الجرداء السلهوب : الفرس السباقة الطويلة .

وحفظ لنا شعره الحديث عن معركتين كبيرتين لصلاح الدين : إحداهما معركة طبرية ، والثانية فتح القدس . أما الأولى فقد غلبه الفرح فيها فرحا جعل خيالاته وتشبيهاته تصدر عنه ، وتنبع منه ، ولهذا جعل طبرية عروسا ، فكأنما كان المقام مهرجان عرس ، لا ميدان قتال ، فتسمعه يقول :

جلت عزماتك الفتح المبينا　　فقد قرت عيون المسلمينا
وما طبرية إلا هدى[1]　　ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل ، لم تقذف بسوء　　وسل عنها الليالى والسنينا
فضضت ختامها قسراً ، ومن ذا　　يصد الليث أن يلج العرينا
قست حتى رأت كفئاً ، فلانت　　وغاية كل قاس أن يلينا
تخال حماة حوزتها نساء　　يخوضون الحديد مقنعينا
لبيضك فى جماجمهم غناء　　لذيذ علم الطير الحنينا

واتخذ الشاعر هذا النصر وسيلة لتعداد المعارك التى انتصر فيها صلاح الدين على الصليبيين ، ومغريا له بأن يمضى إلى ما بقى بأيديهم من مدن لينتزعها منهم ، ويقضى عليهم القضاء الأخير :

فألمم بالسواحل ، فهى صور[2]　　إليك ، وألحق الهام المتونا

أما فتح صلاح الدين للقدس فقد تحدث عنه ابن الساعاتى فى أكثر من قصيدة ، وأشار إليه أكثر من مرة ، وبقى لنا من شعره قصيدة خصها بالحديث عن هذا الفتح ، ومضى إلى الحديث عنه مباشرة بدون أن يمهد لذلك بغزل ولا سواه ، إذ قال :

أعيا وقد عاينتم الآية العظمى　　لأية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس فى كل منطق　　وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
تحل به الأضداد ، واللفظ واحد　　فكم سر قلبا فى الأنام وكم غما

---

(١) الهدى : العروس　　(٢) صور : مائلة بنظرها إليك .

وتندى مغانيه، وما جادها الحيا　　ولا سحبت ريح الصبا فوقها كما
حبا مكة الحسنى، وثنى بيثرب　　وأطرب ذياك الضريح وما ضما
لقد سكن الدهياء أمنا وغبطة　　فهل كان لفظا سار، أوعسكرا دهما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها　　فيشهد أن السهم من يوسف أصمى
وقد أوتى الفتحين: مالا، وبلدة　　فلم يبق نصراً ما حواه ولا غنما

ولست أنكر أن هذه القصيدة لا تمثل جلال الفتح، ولا تتناسب مع ما له من عظمة وآثار، ولعل مرجع ذلك إلى ما كان يشغل باله يومئذ من هذه الحادثة التى نزلت بماله، والتى أشار إليها فى هذه القصيدة ولعله إنما أنشأها ليتخذها وسيلة للاستعانة بصلاح الدين على هذه الحادثة، ولعل الاستفهام فى أول هذه القصيدة يدل على أنه أخذ نفسه بالقول، وحملها عليه حملا، لأن المقام يتطلب منه أن يقول، مع امتلاء قلبه بما يشجيه ويحزنه، وفى تحويل الخطاب من الجمع فى الشطر الأول إلى المفرد فى الشطر الثانى دلالة على ارتباك نفسى أدى إلى مثل هذا الضعف، فإذا انتقلنا إلى البيت الثانى تساءلنا عن معنى سوغ فتح القدس فى كل منطق، وبدا الضعف فى الشطر الثانى لأن الأسل الصم ليست آخر من يصل إليه نبأ هذا الفتح، بل هى أول من يسمع به، إذ تم على يديها. وفى الشطر الأول من البيت الثالث غموض. أما البيت الرابع فيضم معنى ضعيفاً لا دخل له فى تصوير الفرح بالنصر، فمغانيه يومئذ لا تندى، بل ربما كان وجه الصواب فيها أنها كئيبة يعلوها الغم والكآبة، فإذا وصلنا إلى البيت التالى وجدنا التوفيق قد خانه أيضاً فى الحسنى التى حباها هذا الفتح مكة، فقد دفعه الوزن إلى استخدام كلمة الحسنى، مكان البهجة والسرور مثلا، واستخدم (ما) مكان (من). وتستطيع أن تمضى فى القصيدة بيتا بيتا لتلمس نواحى الضعف فى القصيدة، وتؤمن بأنها لا تصور جلال الفتح، ولا ما كان له فى النفوس من آثار.

وظل لا يمل مدح صلاح الدين بفتحه القدس، فيقول له من قصيدة:

هو منقذ البيت المقدس بعد ما　　طالت فما وجد الشفاء شكاته

ويقول مرة أخرى:

هو الفاتح البيت المقدس، بعد ما　　تحامته سادات الدنا، ومسودها

فضيلة فتح كان ثانى خليفة من القوم مبديها ، وأنت معيدها

ويقول فى ثالثة :

سل عنه قلب الإنكتير[١] ، فإن فى خفقانه ما شئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع وأسال سيل نداه فى بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما لترنم الناقوس فى أفنائه

وبعد فشعر ابن الساعاتى من النوع الفخم الجزل ، وهو كشعراء عصره ، ممن يحرصون على الزخرف والزينة ، مما قد يدفعه أحيانا إلى السقوط فى معان تافهة ، لا تثير عاطفة ، ولا تنبه شعوراً ، بل تدفع إلى الضجر ، والسآمة ، كقوله يخاطب الدار ، ويدعو لها بدوام المطر :

لا ألقيت إلا عليك أجنة السحب الحوامل

فقد جعل السحب نساء حوامل ، وجعل الأمطار أجنة لها ، ودعا أن تلقى تلك الأجنة فوق الدار . ومن استعاراته السخيفة قوله :

وألق الرماح ، فقد حاضت حواملها فى مضائك ما يغنى عن الأسل

وقوله بلسان مدينة حلب مخاطبا صلاح الدين :

غارت وحقك من جاراتها فشكت ما باله باقتضاضى غير محتفل

ولكن ذلك فلتات هنا وهناك . أما جُلُّ شعره فقوى ممتاز ، لم تذهب الصناعة بجماله ورونقه .

---

(١) الانكتير : الانجليز ، وقد كان صلاح الدين يحارب ملكهم فى فلسطين .

ابن سنـــاء الملك*

(٥٥٠ – ٦٠٨ هـ)

فى أسرة غنية مترفة ، ولد هبة الله القاضى السعيد بن جعفر بن سناء الملك ، وهيئت له ثقافة أدبية واسعة أخذها عن كبار علماء عصره ، ويحفظ التاريخ من أسماء أساتذته ابن برى[1] الذى قرأ عليه النحو ، والسلفى[1] الذى أخذ عنه الحديث ، وكان قد أعد نفسه للعمل فى ديوان الإنشاء ، وقد عمل فيه مدة ، ولعله اتصل فيه بالقاضى الفاضل الذى رأى فيه بذرة صالحة تنمو ، إذا تعهدت بالسق والإنماء ، فشجعه بكل ما أوتى من وسائل ، وأخذ بيده حتى اكتمل عوده ، وبلغ أشده ، وقد بدت مقدرته فى الشعر والنثر منذ وقت مبكر ، وسار على مألوف أهل عصره الذين أغرموا بالمحسنات البديعية ، واقتدى بالقاضى الفاضل الذى كان مغرماً بالتورية والاستخدام ، وظهر ذلك كله فى أوائل ما أنشأه من شعر ونثر كهذه القصيدة التى أرسلها إلى الفاضل يمدحه بها ، ولم تكن سنه قد بلغت العشرين ، ومنها قوله :

فراق قضى للهمّ والقلب بالجمع   وهجر تولى صلح عينى مع الدمع
ووصل سعى فى قطعه من أحبه   ولا عجبا ، قد يهلك النجم بالقطع .

---

* مراجعه :

(١) وفيات الأعيان ٢ : ١٨٨ ، ٤٠٥ .   (٢) معجم الأدباء ١٩ : ٢٦٥ .
(٣) الأعـلام ٣ : ١١٨ .   (٤) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٣ .
(٥) الروضتين ٢ : ٤٣ ، ٢٤٣ .   (٦) بدائع البدائه ص ٥٤ ، ٥٨ ، ٦٣ .
(٧) النجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ ، ٢٠٤ و ٧ : ٣٨ .
(٨) السلوك : ١ : ١٣٩ .   (٩) فوات الوفيات : ١ : ٢٢٠ .
(١٠) عيون الأنباء ٢ : ١١٥ ، ١١٧ ، ٢٠٥ :
(١١) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .
(١٢) شذرات الذهب ٥ : ٣٥   (١٣) ديوانه .
(١٤) خزانة الأدب للحموى ص ٦٢ ، ٦٧ ، ١٨٢ ، ٢٥١ ، ٣٠٠ .
(١٥) فصوص الفصول وعقود العقول لابن سناء الملك .   (١٦) دار الطراز .
(١٧) خريدة القصر (المطبوعة) ٦٤/١ .   (١٨) كشف الظنون ١٩٧٣/٢ .

---

(١) له ترجمة بكتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية .

وربع لذات الخال خال ، وربما شغلت بهمى عن مساءلة الربع
فسبحا نربى ، قد سمت همة النوى وطالت إلى أن فرقت ساكنى جمع

ولما وصل إلى الشام فى شهر رمضان ، سنة إحدى وسبعين فى خدمة القاضى الفاضل ، أعجب به العماد الأصبهانى ، ووجده « فى الذكاء آية ، أحرز فى صناعة النثر والنظم غاية ، يتلقى عرابة العربية له باليمين راية ، قد ألحفه الإقبال الفاضلى فى الفضل قبولا ، وجعل طين خاطره فى الفطنة مجبولا ، وأنا أرجو أن تترقى فى الصناعة رتبته ، وتغزر عند تمادى أيامه فى العلم نغبته ، وتصفو من الصبا منقبته وتروى بماء الدرية رويته وستكثر فوائده ، وتؤثر قلائده » .

واشتد إعجاب القاضى الفاضل به ، فجعله وكيله فى مصر ، يكل إليه تصريف شئون الدولة إذا غاب الفاضل عن مصر ، ويعهد إليه بإكرام ضيوف مصر من كبار العلماء ، كعبداللطيف البغدادى مثلا ، وكان هذا المنصب الرفيع الذى وصل إليه بجده وذكائه وأدبه سبباً فى غناه وثروته ، حتى ليذكر له مؤرخوه أنه كان كثير التنعم ، موفور الحظ من السعادة فى الدنيا ، وسببا فى فخر طويل عريض يتجلى هنا وهناك فى ثنايا شعره ، ويتمثل فى هذه القصيدة المشهورة له ، وهى تدل على مدى ثقته بنفسه ، واعتزازه بمكانه ، إذ يقول :

سواى يخاف الدهر ، أو يرهب الردى وغيرى يهوى أن يكون مخلدا
ولكننى لا أرهب الدهر ، إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام ، إذا عدا
ولو مدّ نحوى حادث الدهر طرفه لحدثت نفسى أن أمدّ له يدا
توقد عزمى يترك الماء جمرة وحلية حلمى تترك السيف مبردا
وفرط احتقار للأنام فإننى أرى كل عار من حلى سؤددى سدى
وأظمأ إن أبدى له الماء منة ولو كان لى نهر المجرة موردا
ولو كان إدراك الهدى بتذلل رأيت الهدى ألا أميل إلى الهدى
وإنك عبدى يا زمان ، وإننى على الكره منى أن أرى لك سيدا
وما أنا راض أننى واطىء الثرى ولى همة لا ترتضى الأفق مقعدا
ولو علمت زهر النجوم مكانتى لخرت جميعا نحو وجهى سجدا

ولى قلم فى أنملى لو هززته ... فما ضرنى ألا أهز المهندا
إذا جال فوق الطرس وقع صريره ... فإن صليل المشرفى له صدا

وكان ابن سناء الملك شديد الإعجاب بالقاضى الفاضل ، كثير المدح له ، حتى كان أكبر ممدوحيه حظا من شعره ، وهو مطيل فى قصائد مدحه له ، مجيد فى أكثرها ، تلمس الصدق فيه ، وحرارة العاطفة ، ومما مدح به ولى نعمته قوله :

إنى رأيت الشمس ثم رأيتها ... ماذا علىَّ إذا عشقت الأحسنا
وسألت من أى المعادن ثغرها ... فوجدت من عبد الرحيم المعدنا
أبصرت جوهر ثغرها وكلامه ... فعلمت حقا أن هذا من هنا
ذاك الكلام من الكمال بمنزل ... لا يدرك الساعى إليه سوى العنا
يدنو من الأفهام إلا أنها ... تلقاه أبعد ما يكون إذا دنا
وإذا حواه الطرس فتح أعينا ... من زهره تصبى إليه الأعينا
فالطرس ساحة فضة ، وسطوره ... مسك تفرعه اليراعة أغصنا
ولقد علا بأبى على جد من ... جعل الرجاء إليه أنفس مقتنى
يا ليت قومى يعلمون بأننى ... أدركت من كفيك نادرة المنى
أو ليت حسادى بما أوليتنى ... علموا يقينا أن أيسره الغنى
لا زال رأيك لى يزيدك ضنة ... فى صحبتى ويزيد حسادى ضنى

وكان ابن سناء الملك يعتز برأى القاضى الفاضل فيه ، وبمدحه له وثنائه عليه وعلى كتبه ، وجمع ما كتبه الفاضل إليه أو إلى والده مما فيه ثناء عليه فى كتاب دعاه : « فصوص الفصول وعقود العقول » ، وفى هذه الرسائل ثناء جم من القاضى على سناء الملك ، وإعجاب مفرط من سناء الملك بالقاضى الفاضل ، وفيها آراء للقاضى الفاضل فى شعر ابن سناء الملك ، وفى القصائد التى كان يرسلها إليه ، وفى الكتب التى كان ابن سناء الملك يؤلفها ، ولا تخلو آراء الفاضل من نظرات نقدية وجهها الفاضل إلى الشاعر ، وقد اضطر ابن سناء الملك إلى أن يدافع عن وجهة نظره إزاء هذا النقد ، وفى هذه الرسائل كثير من آراء الرجلين فى الأدب والأدباء .

وملأ صلاح الدين قلب ابن سناء الملك حباً وإعجاباً وتقديراً ، فتغنى الشاعر بمجده ،

ومضى يسجل وقائعه وانتصاراته ، ويشيد بهذه الوحدة بين مصر والشام ، مزيلا فى سبيل هذه الوحدة تلك الإمارات الكثيرة التى فتتت قوى العالم الإسلامى وحطمت وحدته ويرى هذه الدولة التركية قد أعادت للإسلام عزه وشبابه ، فتسمعه يقول :

بدولة الترك عـــزت ملة العرب   وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
وفى زمان ابن أيوب غدت حلب   من أرض مصر ، وعادت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة   بالصفح والصلح ، أو بالحرب والحرب[١]
مظفَّر النصر مبعوث بهمتـــه   إلى العزائم مدلول على الغلب

ويصف جيش صلاح الدين وضخامته بقوله :

أتى إليها يقود البحـــر ملتطما   والبيض كالموج ، والبيضات كالحبب
تبدو الفوارس منه فى سوابغها   بين النقيضين من ماء ومن لهب
مستلئمين ، ولولا أنهم حفظوا   عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب[٢]

ويصفه مرة أخرى بقوله :

إذا ماصلاح الدين قد سار جيشه   فليس الحمى إن أمه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع ، واستلت الظبا   بآفاقه ، حتى أضاء ، وأظلما
طليعته الوحش الضوارى مصيحة   وساقته الطير الجوارح حوما
يقول الذى يلقاه : كم فيـه فارسا   فيخبره المهزوم : كم فيه ضيغما

ويمجد فيه سهره على ملكه ، وتكريسه نفسه على حرب الصليبيين ، إذ يقول :

ملكت أقاليم الملوك ، وإنما   سهرت ، وأملاك الأقاليم نوم
طلعت عليهم بالصباح من الظبا   يحيط به ليل من النقع مظلم
فساء صباح المنذرين ، لأنه   صباح به زرق الأسنة أنجم
وجيش به أسد الكريهة غضب   وإن شئت عقبان المنية حوم

---

(١) حربه حربا : سلب ماله .   (٢) اليلب : الفولاذ .

إذا قاتلوا ، كانوا سكوتا شجاعة ولكن ظباهم فى الرقاب تكلم
ضربت بهم قوما نياما جهالة فلا نائم إلا وأيقظه الدم
ألفت ديار الكفر غزواً ، فقد غدا جوادك إذ يأتى إليها يحمحم
وما يعصم الكفار عنك حصونهم ولا شىء غير الله بعدك يعصم

ويتحدث عن أخذ صلاح الدين لصليب الصلبوت الذى يزعمون أن المسيح صاب عليه ويغريه بإحراقه ، ويتغنى بأسر صلاح الدين لملوك الصليبيين قائلا :

ظل معبودهم لديك أسيرا مستضاما ، فاجعل له النار سجنا
صلبوا ربهم ، فلم يغن عنهم من رتى بعد صلبه قط أغنى
وحوى الأسر كل ملك يظن الدهر يفنى ، وملكه ليس يفنى
كم تمنى اللقاء ، حتى رآه فتمنى لو أنه ما تمنى

ومدح ابن سناء الملك غير صلاح الدين من أبطال الحروب الصليبية الملك العادل ، والكامل ، والعزيز ، يتحدث كذلك فى مديحه لهم عن جهادهم الصليبيين ، وما قدموه للإسلام من جهود مجيدة .

ولم يقف مدح ابن سناء الملك على هؤلاء الأبطال بل مدح أباه ، ومدح موسى بن ميمون الطبيب اليهودى ، ومدح أستاذه السلفى . وكان المدح أكثر فنون ابن سناء الملك ، وكانت الظروف المحيطة به تدفعه إلى غزل يتغنى باللذة ، ويتحدث عن المتعة الحسية . ومعظم غزله من هذا النوع كقوله يذكر ليلة وصال :

ظبى بحسناء حالى الجيد بالعطل لكنه قد جلاه الحسن فى حلل
أتى إلى ، وأهدى خده لفمى فقمت أقطف منه وردة الخجل
أواصل اللثم من فرع إلى قدم وأوصل الضم من صدر إلى كفل
وبات يسمعنى من لفظ منطقه أرق من كلمى فيه ومن غزلى
وددت أعضاى أسماعا ، لتسمعه ولو تحملت فيه وطأة العذل
ونلت ما نلت مما لا أهم به ولا ترقت إليه همة الأمل

ومر والليـل قد غارت كواكبه   لما نوى الصبح تطفيلا على الطفل
لم أسحب الذيل كى أمحو مواطئه   لكننى قمت أمحو الخطو بالقبل
يا ليـــلة قد تولت ، وهى قائلة :   لا تظلمنى مع أيامك الأول

وقل الهجاء فى شعر ابن سناء الملك ، ولعل لمنصبه ومكانته أثراً فى ذلك .

وأغرم ابن سناء الملك بالموشحات اتخذها وسيلة للتعبير عن عواطفه ، ووجد فى أوزانها المتنوعة متنفسا للتعبير عن عواطفه المختلفة ، بل دعاه غرامه بها إلى أن يؤلف فيها كتابا ، دعاه دار الطراز ، قال فى مقدمته : « ... لما كانت الموشحات ... لها فى سوق الأدب هذه القيمة ، ولم أر أحداً صنف فى أصولها ما يكون للمتعلم مثالا يحتذى ، وسبيلا يقتفى ، جمعت فى هذه الأوراق ما لا بد لمن يعانيها ويعنى بها من معرفته ، ولا غناء به عن تفصيله وجملته ، ليكون للمنتهى تذكرة ، وللمبتدئ تبصرة » ، وقد أورد أمثلة كثيرة للموشحات ، وأورد لنفسه موشحات ضربت على مثال الموشحات التى استشهد بها ، ثم جاء بموشحات اخترع أوزانها . وذكر أن الموشحات ، « يعمل فيها ما يعمل من أنواع الشعر ؛ من الغزل ، والمدح ، والرثاء ، والهجو ، والمجون ، والزهد » .

قال من موشح يمدح به أباه :

أخمل ياقوت الشفق   درّ الدرارى
وساح فى أفق الغسق   نهر النهــــــار

وفت كافور الصباح   مســــــك السماء
وفاح من نشر الأقاح   نشر الكبــــاء[1]
وهب من جسم الرياح   مثـــــل الهباء
ولاح من زهر البطاح   ند الهــــــواء[2]

---

(١) الكباء : عود البخور.   (٢) الند : نوع من الطيب.

وقال من موشح يرثى به أمه :

يا ما عرا قلبي وما دهاه مضـــــــى نهاه
لما نهاه الوجد مع من نهاه
ما زال لى مذ دهانى الزمان
أنس شجاع ، واصطبار جبان
وعـــبرة خالعـــة للعنان
لا تقبل الصون وترضى الهوان

ولابن سناء الملك أيضا كتاب روح الحيوان اختصر فيه كتاب الحيوان للجاحظ ، عنى به القاضى الفاضل ، وشجعه على تأليفه ، كما يظهر ذلك من رسائله التى سجلت فى فصوص الفصول .

قال ابن خلكان : « واتفق فى عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجرى بينهم فيها مفاكهات ومحاورات ، يروق سماعها ، ودخـل فى ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين فاحتفلوا به ، وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم . » وكان ذلك ولا ريب عاملا من عوامل تجويده للشعر ، حتى لا يكون ، ومكانته الاجتماعية سامية ، أقل منهم جودة وإتقانا . ويضاف إلى ذلك عامل آخر هو ما كان النقاد يأخذون به شعره من ألوان النقد ، قالوا : لما مدح ابن سناء الملك شمس الدولة تورانشاه أخا السلطان صلاح الدين بقصيدته التى أولها :

تقنعت لكن بالحبيب المعمم وفارقت ، لكن كل عيش مذمم

تعصب عليه جماعة من شعراء مصر ، وعابوا هذا الاستفتاح وهجنوه ، فكتب إليه ابن الذروى الشاعر :

قل للسعيد مقال من هو معجب منه بكل بديهة ما أعجبا
لقصيدك الفضل المبين ، وإنما شعراؤنا جهلوا به المستغربا

عابوا التقنع بالحبيب ، ولو رأى الطـــائى ما قد حكته لتعصّبا

وكتب على بن إسماعيل السخاوى المتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٢ ﻫ فى نقد الشعر كتابا سماه : « نظم الدر فى نقد الشعر » وقصره على مؤاخذات ابن سناء الملك . قال صاحب كشف الظنون : وأجاد فى بعضها ، وتعنت تعنتا زائداً فى بعضها .

وكان هو ومن معه من الأدباء يعرضون الشعر وينقدونه ، قال : تذاكرنا فى بعض الأيام بديوان الإنشاء ، فأفضى بنا الحديث إلى ذكر الناشى الأصغر قوله فى وردة :

وورده فى بنان معطار ... حيّا بها فى خفىّ اسرار
كأنها وجنة الحبيب ، وقد ... نقطها عاشق بدينار

فقلت : تشبيه الصفرة بالدينار فيه بعض تقصير ، وعليه نقد خفى لا يدركه إلا الناقد البصير : وهو كون الصفرة فى رأى العين أصغر من الدينار ، ولو قال :

كمثل وجنة خود ... قـد نقطت برباع

لكان أخصر وأحسن ، فاستحسنته الجماعة .

لكان ذلك كله من العوامل التى جعلت ابن سناء الملك أحد أركان النهضة الأدبية فى عصره : حتى توفى فى العشر الأول من شهر رمضان سنة ثمان وستمائه بالقاهرة .

ابن النبيـــه*

؟ — ٦١٩ هـ

علي بن محمد ، أعد نفسه للعمل فى ديوان الإنشاء ، فنال حظاً كبيراً من الدراسة الأدبية التى تعد لهذا العمل ، وكان معظم الكتاب يومئذ يعد من تمام مجده أن يكون كاتباً شاعراً ، فكان كثير من أدباء هذا العصر يجمع بين الخصلتين ، ولكن يظهر أن ابن النبيه لم يل عملا فى ديوان الإنشاء بمصر ، رغم أنه مدح القاضى الفاضـل ، والعادل ، ومدح وزيره : صفى الدين بن شكر ، ولكنه كتب الإنشاء للملك الأشرف موسى بن العادل ، وفارق من أجله الديار المصرية ، وسكن بنصيبين ، واجداً فى ظلال الأشرف الحياة الهادئة المطمئنة وإن كان يبدو فى شعره الحنين إلى وطنه ، والشوق إلى مهد صباه وشبابه ، فنسمعه يقول :

إن عيناً منكم قد ظميت	قد سقاها الدمع حتى رويت
آه من وجد جديد لم يزل	وعظام ناحلات بليت
أنا والاظعان من شوق معا	نحــوكم أعناقنا قد لويت
أنتم الأنجــم مذ غيبتمو	بسوى أنواركم ماهديت
ساكنى (الفسطاط) لو أبصرتكم	جليت مرآة عين صديت
إن أعاد الله شملى بكـم	سعدت آمال نفس شقيت
إن أرضا أنتم سكانها	غنيت عن أن تقولوا : سقيت
فوجوه كرياض أزهرت	ورياض كوجوه جليت

وظلت صلته بالأشرف وثيقة فى جملتها ، إذا استثنينا بعض أوقات دل شعره على وهن هذه الصلة ، وإن كان ذلك نادراً .

---

* مراجعه :

(١) ديوانه . (٢) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٣ .

(٣) فوات الوفيات ١ : ٢٢٠ و ٢ : ٥٣ و ٧١ .

(٤) خزانة الأدب للحموى ص ٦٢ و ١٩٤ و ٢٥٣ و ٢٦٧ .

(٥) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٣ . (٦) روضات الجنات ص ٤٨٨ .

(٧) الأعلام ١ : ٦٩٣ . (٨) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٦ .

وشعر ابن النبيه فى جملته يدل على نفس فرحة مرحة ، تقبل على الحياة ، تريد أن تستمتع بما فيها ، وأن تنال حظها من لذة الدنيا ، فهو يجد متعته فى روضة غناء ، تصدح أطيارها ، ويعبق فى الجو أريجها ، يستمتع بمرآى أزهارها ، ويشرب على جمال مائها ، من يد ساق بارع الجمال ، وأنت تطالع ذلك المذهب المستمتع بالحياة فى كثير من شعره ، مثل قوله :

باكر صبوحك ، أهنى العيش باكره ... فقد ترنم فوق الأيك طائره
والليل تجرى الدرارى فى مجرته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب على يده ... مخلق تملأ الدنيا بشائره
فانهض إلى ذوب ياقوت ، لها حبب ... فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق ... فابيض خداه ، واسودت غدائره
سود سوالفه ، لعس مراشفه ... نعس نواظره ، خرس أساوره
مفلج الثغر ، معسول اللمى ، غنج ... مؤنث الجفن ، فحل اللحظ ، شاطره
مهفهف القد ، يندى جسمه ترفا ... مختصر الخصر ، عبل الردف ، وافره
تعلمت بانة الوادى شمائله ... وزورت سحر عينيه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس : تستحلى أوائله ... لكنه ربما مجت أواخره
واجسر على فرص اللذات محتقراً ... عظيم ذنبك ، إن الله غافره

وكان لسيطرة هذا المذهب على نفسه أثر فى شعره ، فكثيراً ما يصف متعته بالرياض ، وجمال الربيع ، والساقى ، والخمر ، وله أثره فى مطالع شعره ، فكثيراً ما بدأ مدحه بذكر الخمر ، والساقى ، والربيع ، وله أثر فى غزله ، فهو من النوع الذى يتحدث عن الجمال المحسوس ، أكثر من حديثه عن المتعة الروحية ، واللذة النفسية ، وبرغم ذلك قد يرتفع فى غزله إلى درجة سامية ، من الرقة والإبداع ، وتجعله جديراً بأن يتغنى به ، ويترنم بترديده ، ولا سيما أن ابن النبيه يجيد فى تخير البحر العروضى ، مما يساعد على التغنى به ، ولا زلنا إلى اليوم نتغنى بقوله :

أمانا أيها القمـ ـر المطل ... فمن جفنيك أسياف تسل

يزيد جمال وجهك كل يوم ولى جسد يذوب ويضمحل ... الخ

وقوله :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا ... الخ

كان الأشرف موسى أكبر من اتصل به ابن النبيه ، وأكثر من أثنى عليه ، ومدحه ، بل إنه لم يجمع ديوانه إلا ليخلد مدحه فيه ، وكان أبرز الصفات فى مدحه للأشرف شجاعته ومقدرته على قيادة الجيوش المظفرة ، وهنا تتجلى روح العصر التى تجد مثلها الأعلى فى إجادة أسباب القتال ، والتبريز فى ميادين الحرب ، وتكاد لا تخلو قصيدة من قصائد مدحه من الإشادة بهذه الصفة وتمجيدها ، فكثيراً ما تسمع منه مثل قوله :

لك الجيش الذى إن جاس أرضا دحا الهضبات كالسيل الأتى
تحف به الملوك الصيد فيه إحاطة هالة القمر السنى
إذا عطشت جياد الخيل فيه سقاها من دم البطل الأبى
وكيف ثبت طوداً مشمخراً وأنت أخف من أسد جرى
إذا اشتجر القنا أفناه حطما كملتقف الحبال مع العصى

وقوله :

ملك إذا التطمت أمواج عسكره سبحت والخيل بالأبطال قد سبحت
ريح إذا ركضت ، رعد إذا صهلت برق سنا بكها فى الصخر قد قدحت
جرد إذا لاعبت أطرافها ملئت تيها وإن لمحت أقرانها مرحت
تلقى الأسنة عن فرسانها كرما فكل جارحة منها قد انجرحت

وإذا كان الشاعر حريصا على أن يتحدث بما يرضى ممدوحه ، فإنه يصور لنا فى شعره ذلك الطموح الذى كان يملأ نفس الملك ، فإن الشاعر يتنبأ لممدوحه بأن سوف يملك أرض الروم وبلاد خراسان فى قوله :

سيملك قسطنطينة الروم عنوة ويخطب عن قرب له فى خراسان

وفى قوله :

ستفتح قسطينة عنوة وما كان للروم منها يقارب
كأنى بأبراجها قد هوت وصخر المجانيق فيها ضوارب
وقد زحف البرج زحف العروس إليها يجر ذيول الكتائب
وما لبسه غير نسج الحديـد وما حليه غير بيض القواضب
وأضرمت النار حشو النقوب وثار الدخان بجنح الغياهب
وليس الكهانة من شيمتى ولكن حزبك بالله غالب

وذلك إن دل فإنما يدل على أن هذا الأمل كان يراود المسلمين يومئذ ، وكان أملا من آمال ملوكهم .

ويدل شعر ابن النبيه على أن الخلافة العباسية فى ذلك العصر كان لها مكانتها الروحية ، فى نفوس ملوك مصر والشام يومئذ ، ففضلا عما يحدثنا به التاريخ ، وتدل عليه الرسائل التى كانت توجه إلى الخلفاء يومئذ ، يحدثنا شعر ابن النبيه عن هذه الصلة الوثيقة بين الملوك وخلفائهم ، وحسبنا أن نعلم أن الملوك كانوا يملكون ما تحت أيديهم من الممالك والأقاليم ، ثم لا يقتنعون بهذه السيطرة الروحية ، حتى يتوجوها باعتماد الخليفة لهم هذا السلطان ، وإرساله لهم التقليد بولاية مايلون ، وابن النبيه يمدح خليفة عصره قصداً ، بقصائد ينشئها لهذا الغرض ، ويتحدث عنه فى المدح الذى خص به الأشرف موسى ، فيعتز برأى الخليفة فيه ، وبأنه يراسله ، ويرويه الحديث فى قوله :

لمولانا الخليفة فيه رأى حديد لا يفل ولا يقل
تأمل فى الكنانة منه سهماً سديداً لا يطيش ولا يزل
فهيأه وراسله اختصاصا ورواه الحديث ، وذاك فضل
فدامت هذه النعمى عليه ودام ، فإنه للخير أهل

وابن النبيه يرى هذه الثقة التى يتمتع بها الأشرف نعمة تستحق أن يدعى لها بالدوام ، ويتحدث عن حسن صلة الأشرف بالخليفة مرة أخرى قائلا :

ياعبد مولانا الإمام جلال ... هـذا النعت أشهر
أوتيت في الدنيا به ... شرفا وفي أخراك أكثر
فإن اصطفاك لنفسه ... فليسعدن بمن تخير
فافخر على الدنيا بنفـ ... ـسك أو به، ففكاك مفخر

ولما ورد على الأشرف كتاب الخليفة أمر ابن النبيه أن يجيب عنه فكتب على لسان الأشرف :

سيدي ، سيدي ، كتابك أحلى ... من زلال على فؤادي الصادي
خلت فيه قميص يوسف لما ... ألصقته أناملي بفؤادي
كرر اللثم يا فمي ، وترشف ... منه آثار فضل تلك الأيادي
نعمة سميت كتابا مجازاً ... أنا نبت ، وهي السحاب الغوادي
كثرت حاسدي حتى تخيلت ... جفوني من جملة الحساد
قالت العين وهي تخرج درا ... فاخرا من بحار ذاك المداد :
أنا أفدي بياضه ببياضي ... أنا أفدي سواده بسوادي
أنا عبد الإمام أحمد خير ... لي من نسبتي إلى أجدادي
فعليه السلام ما غرد الطير ... وغنى شاد ورجع حاد

ولكن تقف الصلة بين الملك والخليفة عند هذا الحد ، من المودة والحب وإرسال الرسائل ووصف أثرها في نفس الملك ، من غير أن يكون للخليفة سلطان في العزل ، أو سلطان فعلي في التولية ، ولكنه اعتزاز من الملك بأن يكون على صلة طيبة بالخليفة حائزا رضاه .

وأثرت الحروب الصليبية في ابن النبيه ، عند ما خاض الملك الأشرف إحدى معاركها المشهورة ، مع باقي أبناء الأسرة الأيوبية ، وهي معركة دمياط ، فسجل ابن النبيه الدور الذي قام به مليكه ، كما سجل الشعراء للملك الكامل وأخيه المعظم عيسى دورهما في تلك المعركة .

وقد بدأ ابن النبيه قصيدته في تسجيل معركة دمياط بأن الحديث عنها من أوقات

اللذة والفرح ، وإن كان التوفيق قد خانه فى الشطر الثانى حين طلب إليه أن ينشر لواءه الذى اعتاد الانتصار ، إذ قال :

للذة العيش والأفراح أوقات   فانشر لواء له بالنصر عادات

فلا صلة تربط الشطر الثانى بسابقه .

ومضى ابن النبيه يصف جيش الأشرف ، ثم اتخذ قصة النبي موسى معينا يقتبس منه خيالات فى مدح مليكه موسى الأشرف ، إذ قال :

دمياط طور ، ونار الحرب موقدة   وأنت موسى ، وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا   ولا تخف ، ما حبال القوم حيات

ويجل له دوره ودور جيشه فى القتال :

رأوا جيوش بنى أيوب يقدمها   ليث له فى جيوش الشرك هجمات
فللرماح كلاهم ، أو صدورهم   وللصوارم أعناق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم   والموج ترقصه تلك المسرات

وأغراه هذا النصر المبين فشجعه على أن يحثه على استئصال شأفة الفرنج بعكا وصور :

عكا وصور إلى رؤياك عاطشة   فانهض ، فقد أمكنت منهن خلوات
واستخبر الريح عنها إذ تسيره   إليك فهو سلام ، أو تحيات
الله أكبر أن تمسى مزامرهم   تتلى ، وتنسى من القرآن آيات

وإذا كان الأشرف موسى قد أبلى البلاء الحسن فى الدفاع عن دمياط ، فلا جرم كان ابن النبيه يدعو له بالبقاء ، صيانة للإسلام ، ودفاعا عنه ، كما كان يحرضه على قتال الفرنج .

مدح ابن النبيه تقليدى ، يبدؤه غالباً بالغزل ، محسناً التخلص منه إلى المدح ، مثنياً على ممدوحه بالصفات التقليدية : من كرم ، وشجاعة ، وإقدام ، وذكاء ، ولكنه لا يرضى فى الجود بأقل من أن يخلى الممدوح خزائنه ، حين يعطى مادحيه ، فهو يمدح العادل قائلا :

هو العادل ، الظلام للمال والعدا   خزائنه قد أقفرت ودیارها

ويمدح الأشرف موسى بقوله :

لا يبالى إن خلت أكياسه ... وله الأرض بشكر ملئت

ولعل الأشرف كان يميل إلى الانفراد بالرأى ، وألا يستشير وزيراً ، فمدحه بقوله :

هذا الذى استغنى عن الوزراء فى ... تدبير عقد الرأى والرايات

ومما يحسن أن يوجه النظر إليه أنه يتأنق تأنقاً بالغاً فى الصناعة اللفظية ، عندما مدح القاضى الفاضل ، حتى لقد أنشأ فى مدحه قصيدة اقتبسها كلها من سورة المزمل ، وفيها يقول :

قمت ليل الصدود إلا قليلا ... ثم رتلت ذكركم ترتيلا
ووصلت السهاد أقبح وصل ... وهجرت الرقاد هجراً جميلا

إلى أن قال :

أنا عبد للفاضل بن على ... قد تبتلت بالثنا تبتيلا
لا تسمه وعداً بغير نوال ... إنه كان وعده مفعولا
وإذا كان خصمك الدهر والحكم إلى الله فاتخذه وكيلا

وتغزل ابن النبيه بالمرأة ، وبالغلمان ، وله غزل يفتتح به قصائد مدحه ، وآخر قصد إليه قصداً ، وقد أتينا بنماذج منه فيما مضى .

وليس له رثاء فيما بين يدينا من شعره ، إلا قصيدة واحدة رثى بها علياً ، ولد الخليفة العباسى ، وقد بدأها بدءاً لا يزال يجرى على الألسنة إلى اليوم يعزى فيه الخليفة ، ويسليه بمعنى أن السابق إلى الموت هم الخيار الأكرمون ، وذلك حين يقول :

الناس للموت كخيل الطراد ... فالسابق السابق منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره ... إلا من استصلح من ذى العباد
والموت نقاد على كفه ... جواهر يختار منها الجياد

شعر ابن النبيه يمتاز بالسهولة ، والرقة ، والقصد فى استعمال المحسنات البديعية غالباً ،

ولكنه يجارى الطريقة الغالبة فى عصره حيناً ، فيصبح شعره متكلفاً ، خالياً من الجمال والرونق ، وشعره يجرى على الأوزان العربية ، ويستعمل الأسلوب العربى الصحيح ، ولم يخرج عن ذلك إلا عندما مدح الأشرف بموشح معرب ، وآخر عامى ، كما نجد بعض ألفاظ فارسية فى شعره ، جاءت إليه من البيئة التى عاش فيها ، وكانت قريبة من بلاد الفرس .

وتوفى ابن النبيه بنصيبين ، فى الحادى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦١٩ ﻫ ، وعمره نحو ستين سنة .

علم الدين أيدمر المحيوى *

أبلغ من قرأت له شعراً فى العربية ، من هؤلاء الشعراء الذين ينحدرون من جنس تركى ، بل إنه يقف مع أبرع الشعراء الذين أنجبهم هذا العصر ، لايتخلف عنهم ، ولايقصر دونهم ، ولكن التاريخ يجهل سنة ولادته ووفاته ، غير أن مدحه للسلطان الملك الكامل المتوفى سنة ٦٣٥ هـ مدحاً فيه نضج وقوة ، وحديث ابن القيسرانى الذى التقى به فى مصر سنة ٦٠٤٣ هـ ، وذكر عنه أنه كان شاباً لطيفاً فاضلا ، تجعلنا نرجح أنه ولد فى العقد الثانى من القرن السابع ، ولم أر له شعراً فيمن حكم مصر بعد الصالح نجم الدين أيوب المتوفى سنة ٦٤٧ هـ ، مع أن من جاء بعد الصالح هم من الترك الذين كانوا من بنى جنسه ، وكان جديرا أن يتصل بهم ، وأن يشيد بدولتهم ، وأن يمجد من أمرهم ، بعد أن رأيناه يشيد بالعظمة الحربية للجيش التركى الذى كونه الصالح أيوب ، واعتز به ، ووثق فيه ، واعتمد عليه ، إذ قال أيدمر مشيدا ببسالتهم من قصيدة يمدح بها الصالح :

وجهت سيل المنايا نحوهم ، فغدوا ... غداة سال بهم غرقى بلا بلل
يرمى النحور بهم رام ، بسعدك ، مد ... لول السهام على الأكباد والمقل
جيشا تغص به الأرض الفضاء ، كما ... تراكم الغيم يوم الدجن ذا زجل
من الكماة التى تطوى ضلوعهم ... على العزيمة والإقدام ، لا الفشل
من كل أمضى من الهندى فى يده ... عزماً ، وأنفذ إقداما من الأسل
ليث من القوم ، ما (خفان)[1] موطنه ... رام من الترك لايعزى إلى (ثعل)[2]

---

* مراجعه : (١) فوات الوفيات جـ١ ص ٧٦ . (٢) مختار ديوانه طبعة دار الكتب سنة ١٣٥٠ هـ .
(٣) حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٩١ . (٤) النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٠ .
(٥) خطط المقريزى جـ ٢ ص ١٤٨ . (٦) نفح الطيب (طبع أوربا) جـ١ ص ٦٤١ .
(٧) المغرب فى محاسن أهل المغرب (عند ذكر أهل الفسطاط) .
(٨) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١٠٩ . (٩) المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٨٨ .

---

(١) خفان : أجمة كثيرة الأسود بالكوفة .

(٢) ثعل : قبيلة من العرب مشهورة باصابة المرمى .

يكون أثبت يوم الروع من جبل   راس وأجول فى الصفين من مثل
هم عبيدك من قومى ، ومن جمعت   دعوى ولائك تحت الحادث الجلل
بعدت عنهم ، فلم أشهد مشاهدهم   فجئت بالقول ، إذ جاءوك بالعمل

فهل سكت أيدمر عن مدح الملوك الذين وصلوا إلى عرش مصر وكانوا من بنى جنسه ، لأن المنية أسكتته ، فقضى شابا لم يعمر ؟

ولا يدرى التاريخ من حياة هذا الشاعر إلا أنه كان عتيقاً لمحي الدين محمد بن محمد بن سعيد ، الذى تصفه خطط المقريزى والنجوم الزاهرة بأنه كان وزير الجزيرة ، ولعل الصالح عند ما أراد أن يعمر جزيرة الروضة ، وينشىء فيها قلاعه ، اتخذ لهذه الجزيرة محمد بن محمد هذا وزيراً ، يرعى أمورها ، ويقوم بشئونها ، وشعر أيدمر يصف لنا محي الدين هذا بأنه رجل عظيم :

غنيت علاه عن إشارة مادح   كغنى ذوات الحسن عن تحسين
متفنن فى المكرمات ، محير   فيها الورى بغرائب وفنون
كريم : أعطى فقال القائلون تعجباً   أعطاء جود أم قضاء ديون ؟
سن السبيل إلى السماح ، وعلم الـ   ـناس اقتفاء سبيله المسنون

يلقب بالصاحب ، وكان ذلك من ألقاب الوزراء ، قال أيدمر وهو يقدم إلى محي الدين كتابا هدية منه :

العبد « أيدمر » تطلب تحفة   تكسى القبول لسيد الأصحاب

ذا سلطان قوى فى استطاعته أن يخفض وأن يرفع :

دام له العز والنعيم   قاهراً   مقتدرا   يعز ، إن شاء ، أو يهين

ولعل أيدمر ترقى فى المناصب التى كان يترقى فيها المماليك ، حتى وصل إلى درجة أمير فإن ابن دقماق يصفه بالإمارة ، كما يصفه بأنه عالم ، منشىء ، ناظم ، ناثر ، بليغ ، علامة ، وأرجح أن الرجل كان على حظ كبير من ذلك كله ، فكان مثقفاً ثقافة عربية ممتازة ، لم أعثر له على خطأ نحوى أو صرفى .

ورأيت فى شعره أنه كان واسع الإطلاع على اللغة ، مجيداً فى اختيار الكلمة الدقيقة ، مصيباً فى استخدام الألفاظ اللغوية ، التى يستخدمها خاصة المثقفين ، مترفعاً عن استخدام الألفاظ العامية المبتذلة وفيما نعرضه من شعره أمثلة كثيرة على ذلك . وأجاد علم الدين معرفة البديع ، وأتى فى شعره بكثير من المحسنات البديعية ، فى غير إكراه ولا إكثار ، فتجد هنا وهناك بعض هذه الألوان : من جناس ، وطباق ، وتورية ، وجمع ثم تقسيم ، ولف ثم نشر ، وترصيع ، ومدح بما يشبه الذم ، إلى غير ذلك ، مثل قوله :

ونلت بسطة تمكين قهرت بها   معانديك ، فضع ، وارفع ، وصل ، وطل

وقوله . فرجت من كرب ، آمنت من وجل   قومت من أود ، سددت من خلل

وقوله : من وجهه ويمينه لعفاته   بدر ، وبحر ، يستنير ، وينبع

وقوله : يردون حوض العدل غير مكدر   طال الهيام بهم ، وطاب المشرع

وقوله ، هى السلافة ، إلا أنها شهب   لكنها الروض ، إلا أنها شيم

وقوله يصف حماماً أحمر العين والرجل :

وأليف غصن لا يفارقه   صب الفؤاد به متيمه

يدعو بصوت أستبين به   معنى الحنين ، ولست أفهمه

فيميل بى طربا تمايله   ويهزنى شوقا ترنمه

يبدى أسى الباكى ورقته   فى نوحه ، والدمع يكتمه

نحر الأسى إنسان مقلته   يجرى ، فخضب رجله دمه

وقوله : « ارشيد » الأمر   أضحى « عاضدا »

رأيه « المأمون »   حزما راشدا

ولديه « الفضل »   « يحيا » ، « خالدا »

فدعوا « جعفر » وانسوا « برمكا »   فالندى فى غيره عين الدعى

ويدلنا على ثقافته الواسعة فضلا عن ذلك ما وضعه من كتاب فى الأدب لم يصل إلينا ؛ ولكن وصل إلينا وصف أيدمر له ، حينما أهداه إلى مولاه : محيي الدين ، فقد قدمه إليه مع هذه الأبيات :

العبد «أيدمر» تطلب تحفة ... تكسى القبول لسيد الأصحاب
فرأى أجل هدية تهدى له ... ذوب النهى ونتائج الألباب
فأجال فى روض القرائح فكره ... ثم انتقى منه لباب لباب
من طيب نادرة، ولطف فكاهة ... وبديع بادرة، وحسن خطاب
وسوائر الأمثال قد وشحتها ... فيه بمعجز سنة وكتاب
والجد موصولا بهزل ينشط الـ ... قارى، ويطرب أيما إطراب

ونوادر الحكماء، والبلغاء، والخطباء، والشعراء، والكتاب.

وجمعت فيه إلى سلامة رقة الـ ... حضر اللطيف جزالة الأعراب
فأتاك كالحسناء قد لبست على الـ ... إثراء ثوب نضارة وشباب
والروضة الغناء أهدت نشرها ... ريح الشمال ضحى، غداة سحاب

فهو مجموعة أدبية، حافلة بألوان الجد والهزل، تدل على سعة اطلاع صاحبها، وكثرة ما قرأ. وكم كنت أرجو أن لو حفظ لنا الزمن نماذج من كتابته، لنستطيع وصفه، ومعرفة طرقها واهدافها، ولكنى لم أعثر على شىء من ذلك.

وكانت عقيدته كعقيدة الترك: يدين بمذهب أهل السنة، يؤمن بتفضيل الخلفاء الراشدين، وأن مكانهم فى الفضل كالخلافة، وقد أنشأ فى ذلك قصيدة سماها الوسيلة المشفعة، فى مناقب الخلفاء الأربعة، تبلغ تسعة وسبعين ومائة بيت، أشاد فيها بفضائل كل خليفة، وذكر ما قدمه كل واحد منهم للإسلام من يد، فى فصل خاص به، ودافع عن عثمان فيما نقموا عليه، والقصيدة برغم طولها جيدة السبك، متخيرة العبارة، وتدل معانيها على معرفة أيدمر بتاريخ الرسول وصحبه معرفة عميقة.

على شعر أيدمر مسحة من الجمال، كما سبق أن ذكرنا، ومعظم ما بقى لدينا منه يدور حول المدح: مدح الملك الكامل بن السلطان العادل، ومدح الصالح أيوب، والناصر داود ابن المعظم عيسى، ومولاه: محيى الدين محمد بن سعيد، ومدح أحد كبار الأمراء فى دولة بنى أيوب، وهو فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ بن حمويه، كما مدح الخلفاء الأربعة، فى قصيدته: الوسيلة المشفعة.

وهو يبدأ هذه المدائح بدون غزل غالبا، وبالغزل حينا، وبوصف الطبيعة حينا آخر،

وهو فى وصف الطبيعة أقوى منه فى الغزل ، وألمح وهو يصف الرياض أنه يحب الحياة حبا عميقا ، ويبغى أن يظفر من متعها بالنصيب الأوفى ، تحس ذلك فى قوله :

الروض مقتبل الشبيبة ، مونق — خضل ، يكاد غضارة يتدفق
نثر الندى فيه لآلىء عقده — فالزهر منه متوج ومنطق
وسرى شعاع الشمس فيه ، فالتقى — منها ومنه سنا شموس تشرق
والغصن مياس القوام ، كأنه — نشوان ، يصبح بالنعيم ، ويغبق
والطير ينطق معربا عن شجوه — فيكاد يفهم عنه ذاك المنطق
فتمل أيام الربيع فإنها — ريحانة الزمن التى تستنشق
وسلافة باكرتها فى فتية — من مثلها خلق لهم وتخلق
قد عتقت ، حتى تناهت جدة — وكذاك يصفو التبر حين يحرق
شربت كثافتها الدهور ، فما ترى — فى الكأس إلا جذوة تتألق
يسعى به ساق يهيج به الهوى — ويرى سبيل العشق من لا يعشق
تتنادم الألحاظ منه على سنا — خد ، تكاد العين فيه تغرق
راق العيون غضارة ونضارة — فهو الجديد ، ورق فهو معتق
لا غرو أن ثملت معاطفه ، فما — ينفك فى فيه الرحيق يصفق
وأظله من فرعه وجبينه — ليل تألق فيه صبح مشرق
وكأن مقلته تردد لفظة — لتقولها لكنها لا تنطق

وحينا يرق فى الغزل الذى يبدأ به مدحه ، كقوله :

ذكر الحمى ، فأطال رجع أنين — وغدا يواصل زفرة بحنين
واعتاده وله ، يقسم لبه — ما بين حالة حيرة وجنون
وجرت محاجره دماً ، فكأنما — شرقت بذوب فؤاده المحزون
وتوقدت أنفاسه ، فحسبتها — مرت بنار فى الضلوع معين
ولها يكفكف دمعه بشماله — أسفاً ويمسك قلبه بيمين
يا منزلا قضت الصبابة لى به — ذمم الصبا ومآرب العشرين

أيام ألبس للغواية ثوبهـــا   وأجر ذيل خلاعة ومجون
ليت الذين ولعت من كلف بهم   حفلوا بحـــر تلهفى وحنينى
قد كان يضحكنى الزمان بقربهم   فاليوم عاد ببعدهم يبكينى

ويمضى فى غزله مطيلا ، ثم ينتقل إلى المدح فجاءة ، من غير أن يحسن التخلص إليه غالباً ، وهو فى مدحه لا يخرج عما ألف فى المدح التقليدى : من تمجيد لصفات الكرم ، والكياسة ، وبعد النظر ، والسياسة ، والشجاعة ، كما مجد الصبر ، واحتمال الأحداث بالتجلد والثبات ، من غير يأس ولا هلع .

مستبشر الوجه ، والألوان كاسفة   وباسم الثغر ، والأرواح تصطلم
والحاضر اللب ، والألباب طائشة   والثابت الجأش ، والأبطال تصطدم

ومع ذلك يستطيع فى الحين بعد الحين أن يبرز بعض صفات الممدوح الخاصة به دون سواه ، فهو يمدح الكامل بقوله :

ملك عليم ، أريحى ، مسقع [1]   عراف أعقاب الأمور ، منجد

ويمدح الناصر بقوله :

مليك أديب ، أريحى ، ممجـــد   عفيف ، فصيح حين ينطق ، مصقع

ويمدح الصالح أيوب بقوله :

له خلائق صفتها مكارم نفـــــسانية منه لا التهذيب والحكم

فالكامل عليم ، والناصر أديب ، والصالح مهذب بطبيعته ، لا يعنيه أن يتعب نفسه فى تحصيل العلوم ودراسة الحكم ، وبهذه الصفات يصف التاريخ هؤلاء الملوك .

كما يلحظ فى هذا المدح العناية بإبراز صفة رعاية الملك الدين ، وحياطته له ، وحراسته لأمره ، فكثيراً ما تسمع منه هذه النغمة لممدوحيه :

---

(١) المسقع كالمصقع : الخطيب العالى الصوت أو الفصيح الذى لا يرتج عليه .

فاسلم لدين قد هديت إليه من لا يهتدى ، وجمعت ما لا يجمع
وحميت حوزته ، فأصبح وهو فى أيام دولتك الأعز الأمنع

وهو من أجل ذلك يمدح السلطان الكامل بما بذله من جهد فى الدفاع عن دمياط ، عندما هاجمها الفرنج ، حتى رحلوا عنها ، بعد معركة شرد فيها شمل الفرنج ، وأسر ملكهم وأمراؤه ، فأشاد أيدمر بهذا النصر فى قوله :

كم منة لأبى المعالى الكامل السـلطان فى عنق الهدى لا تجحد
أيام قال الشرك بغياً للهدى : « دمياط » لى ، ولك الغداة الموعد
وأتى بما ملأ البسيطة كثرة والله ربك هادم ما شيدوا
جيش إذا مسحت يداه بقعة جف المياه بها ، وذاب الجلمد
كالسيل ، إلا أنه لا ينقضى والليـل ، إلا أنه يتوقد
وأتى بك الإسلام وحدك موقناً أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى إذا التقيا طلعت عليهما بالنصر تشقى من تشاء ، وتسعد
فرددت شخص الشرك وهو مسربل خزياً ، ودين الله وهو مؤيد
حكمت بأسك فيهم ، فمكلم [1] ومجدل [2] ، ومشرد ، ومصفد [3]

ومما يلحظ أن مدح أيدمر لملوك بنى أيوب تلمح فيه ما دار فى تلك العصور من نزاع حول العرش ، وتنافس على صولجان الملك ، فتراه فى مدحه للكامل وتهنئته له بفتح دمشق يقول :

لما نهدت إلى الذين رمى بهم فى الجهل حلمك ، والتحلم يجهل
نضجت جلودهم بنار أوقدت للخوف بين ضلوعهم تتأكل [4]
لو أيقنوا أن الفرار من الردى ينجيهم فروا إذاً وتسللوا
لكنهم علموا يقيناً أنهم لا يعجزونك أحزنوا أو أسهلوا [5]

---

(١) المكلم : المجرح .
(٢) المجدل : المرمى على الجدالة وهى الأرض
(٣) المصفد : المكبل بالأصفاد وهى القيود .
(٤) تتأكل : تتوهج .
(٥) أى سواء أكانوا بالحزن أم بالسهل .

ولو أنهم ألقوا مقادة أمرهم ... بيديك حين قصدتهم وتوكلوا
لأنلتهم ضعف مناهم راضياً ... عنهم ، ونالوا عاجلا ما أجلوا
لكنهم دهشوا بهيبتك التى ... دهموا بها ، وهى المقام الأهول
فتحصنوا حذراً ، وبأسك لم يكن ... ليصدهم لو شئت باب مقفل
حتى إذا جمعوا شتيت حلومهم ... واستدبروا آراءهم واستقبلوا
وقفوا على أن ليس عنك لهم ، ولا ... لسواهم ، عند الحقيقة ، معدل
فصفحت عما كان غير مؤاخذ ... بخطيئة تعفو ، وعذراً تقبل

وفى مدحه للصالح وتهنئته بفتح دمشق يقول :

نصرت بالرعب قبل البيض [1] والأسل [2] ... ولطف صنع كصنع الله للرسل
ونلت بسطة تمكين قهرت بها ... معانديك ، فضع ، وارفع ، وصل ، وطل
قد قلت ، إذ جاء بالفتح البشير به : ... الله أكبر ، هذا غاية الأمل
اليوم أصبح ملك الأرض مرجعه ... لدولة ، وبنو الدنيا إلى رجل
فتح تقوم له الدنيا وتقعد ، إذ ... ظلت تقسم بين الأمن والوجل
أما العدو فأمسى لا قرار له ... من الحذار ، وقرت عين كل ولى
ما زال حلمك يغريهم بجهلهم ... دهرا ، وما كنت بالوانى ولا الوكل [3]
أهملتهم ، فإذا بالقوم قد رتعوا ... وحاولوا نقل ملك غير منتقل
فجاذبوك رداء أنت وارثه ... بسنة السيف عن آبائك الأول
هيهات هيهات ما كانوا بكيدهم ... لينقضوا مبرم الأحكام فى الأزل
الملك لله ، أنى شاء يجعله ... وهى المقادير قل عنها ولا تسل

وكم صرف هذا النزاع على العرش جهودا كان أولى بها أن تنصرف إلى العدو ولتحطم قواه :

(١) البيض : السيوف .
(٢) الأسل : الرماح
(٣) الوكل : العاجز .

ويعمد أيدمر أحياناً إلى المبالغة فى شعره ، حين يمدح ، ولعل ممدوحى هذا العصر كانوا يحبون هذا اللون من الإغراق الذى تجده فى قوله :

لو قذف النجم بعزم لاغترق   أو ضرب البحر بكف لفرق
أو رجم الطود بحلم لصعق   للجود فى يمينه حوض يثق
يؤمه العافون من كل أفق   صفا لهم مشربه العذب ورق

وبقى لنا من نظم أيدمر موشحان جيدا السبك والأسلوب ، عارض بأحدهما موشح ابن المعتز ، لم يقصر فيه عنه ، فى معظم أجزائه ، ومن أجمل غزله قوله :

هز عطف الغصن من قامته
مطلعاً للشمس من طلعته
ثم نادى البدر فى ليلته :
أيها البدر ، تغيب ، ويحكا   ما احتياج الناس للبدر معى

والموشح الثانى مما يحتاج إلى صناعة دقيقة ، تتجلى فى هذا الجزء الذى نعرضه منه وكله على هذا النسق ، إذ يقول :

بات وسماره النجوم   ساهر   فمن ترى   علمك النوم بأجفون
صب إلى مذهب التصابى   صابى   لا يعدل
بجنبه خافق الجناب   نابى   مبلبل
والطرف من دائم انسكاب   كابى   مخبل
لسانه للهوى كتوم   ساتر   لما جرى   والشأن أن تستر الشئون

والموشحان فى المدح .

وقد خرج أيدمر على النظام التقليدى للقصيدة العربية ، فى قصيدة مدح ، فجاء بها من بحر الرجز ، وتلاعب فى تفاعيله ، وجعل من كل ثمانية أبيات وحدة كقوله :

دع الصبا يمر فى التصابى   قبل تجلى سكرة الشباب

وانتهز اللذات ، فالعيش فرص — رب سرور كامن فيه نغص
قم ياغلام ، هاتها ، وهاكا — واعصى هوى العاذل فى هواكا
أما ترى ظل السرور سابغاً — ومشرب العيش هنيئاً سائغاً
فى روضة قيد النظر — تشكر آلاء المطر
ترنو بأحداق الزهر — تحسبها بعد السحر
قد انتثر — فيها درر
أو انتشر — منها حبر

وتمضى القصيدة على هذا المنوال ، وتلتزم الراء فى الأشطار الثمانية الأخيرة ، وهو حر فيما عداها من القوافى .

وأيدمر طويل النفس فى قصائده ، وقد يكتفى فى توضيح انفعاله ببيتين ، وهو مجيد حين يطيل أو يوجز ، ولم يخطئه التوفيق إلا قليلا ، كما أساء المطلع فى قوله :

لا أهنى مولاى بالعيد إلا — خوف تعطيل سنة تعتاد
فمن الجهل أن يهنا بعيد — من به الدهر كله أعياد

وكما تجد بعض القوافى قلقا مثل قوله : فالندى فى غيره عين الدعى .
أو حسن تعليل غير حسن ، أو مبالغة ، ولكن ذلك قليل فى شعره .

وكان أيدمر فخورا بشعره ، معتزا به ، يعتقد أنه أوتى بنصيب كبير من رونقه وجماله ، بل لقد ادعى أنه وحيد فيه ، لا يدانيه سواه ، كما قال :

أبدى البديع ، ولا يزايل ظله — ظلى ، ومنه ما يسوء ويكمد
إن القريض ، وإن تكاثر ساكنو — أفيائه ، للعبد فيه الأوحد

ابن عنين *

٥٤٩ — ٦٣٢ هـ

شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين ، ولد بدمشق يوم الاثنين، تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وتلقى ثقافته فيها على يدى كبار علمائها ، الذين كانوا يلقون دروسهم بجامعها : أخذ النحو عن أبي الثناء محمود بن نعمة ، والحديث عن الحافظ الكبير أبي القاسم بن عساكر ، ودرس الفقه على قطب الدين النيسابورى ، وكمال الدين الشهرزورى، ونال حظاً وافراً من علوم الثقافة فى عصره : من تفسير ، ومنطق ، وحساب ، وهندسة ، وفلك . وتمكن من اللغة وأتقنها ، حتى كان يحفظ كتاب الجمهرة لابن دريد ، وكان واسع الباع فى رواية الشعر ، ذا حظ موفور من الأدب والعلم بأخبار العرب .

وقد هيأته هذه الثقافة الواسعة مع ما أوتيه من استعداد فطرى قوى لأن يصل إلى درجة كبيرة من إتقان الشعر ، تضعه فى مصاف كبار الشعراء ، فى القرن الثالث الهجرى ، يصارعهم فى جودة الأسلوب ، وقوة التعبير، وجزالة النص ، وسلامة الجملة ، فى الغالبية العظمى لشعره ، ولا ينزل عن هذا المستوى إلا قليلا ، فى مواضع الهزل ، حين يروقه أن يستعمل اللحن ، والألفاظ والتراكيب العامية ، التى كانت تشيع بدمشق فى عصره ، واجدا فى ذلك وسيلة للتأثير حين يتهكم ، ويسخر ، ووسيلة لسيرورة شعره على الألسنة ، كى يبلغ مايريد ممن يتهكم بهم ويسخر .

---

* مراجعه :

(١) ديوانه . (٢) الأعلام ٣ : ٩٩٥ .

(٣) وفيات الأعيان ١ : ٣٩٧ ، ٤٠٨ ، ٤٧٥ ، ٢ : ٢٥ ، ٤٩ ، ١٨٩ .

(٤) معجم الأدباء ١٩ : ٨١ و ١١ : ٢٥٩

(٥) النجوم الزاهرة ٦ : ١١٣ ، ١٦٣ ، ٢٨٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٦) كشف الظنون ٢ : ٦٠٥ . (٧) خطط الشام ٤ : ٤٢ ، ٤٩ .

(٨) فوات الوفيات ١ : ٢٢٠ ، ٢٧٠ . (٩) السلوك ١ : ٢١ ، ٢١١ ، ٢١٢

(١٠) المختصر ٣ ١٥٨ . (١١) ديوان ابن الساعاتي ٢ : ١٠ ، ١١٥ .

(١٢) مفرج الكروب ٢ : ٢٨٦ . (١٣) خزانة الأدب للحموى ص ١٧٤ .

(١٤) شذرات الذهب ٥ : ١٤٠ . (١٥) البداية والنهاية ١٣ : ١٣٧ .

وقد وجدت هذه الثقافة سبيلها إلى شعره ، فكان علمه باللغة وسيلة إلى استخدامه الألفاظ الدقيقة فى مواضعها . قال يصف طفيلياً :

واغل ، وارش ، نمـاه طفيل أرشم ، قد مللت من إبرامه (١)

وهيأت له هذه المعرفة أن يجيب فخر الدين الرازى حين اقترح عليه أن يقول أبياتاً فى كل كلمة منها سين ، فقال قصيدة يمدحه بها ، وختمها بقوله :

آنست من أستار سدته سـنا قبس ، فسقت نفيسـة لنفيس
وسقيتها سلسال سحر مسكر للسامعين ، وسقتها كعروس
فاستحلهـا واستجلها حسنـاء ألبسهـا سنا اسمك أحسن الملبوس

وحين اقترح عليه مرة أخرى أن ينظم أخرى تشتمل كل كلمة منها على الحاء ، فقال :

حيا محل الحاجبية بالحمى والسفح سفح مدلح سحـاح
حتى تصاحب حسله حياته ويضـاحك الحوذان حسن أقاح
سحب يوشحها لموح ملقح ويحف حافلها حفيف رياح

وعلى هذا النسق مضى إلى آخر القصيدة . وهما - وإن كانتا متكلفتان - يدلان على ما أشرنا إليه من سعة اطلاعه على اللغة ، ومعرفته بألفاظها .

ويحسن الاقتباس إذا اقتبس . كتب إلى أخيه من الهند مضمناً بيت أبى العلاء :

سامحت كتبك فى القطيعة ، عالمـاً أن الصحيفة لم تجد من حامل
وعذرت طيفك فى الجفـاء لأنه يسرى ، فيصبح دوننـا بمراحل

ويكثر من التورية باصطلاحات النحو ، قال :

لم أخرتنى وقدمت غيرى أنا حال وغيرى استفهام ؟

---

(١) الواغل : الداخل على القوم فى شرابهم ، والوارش : الداخل عليهم فى طعامهم ولم يدع ، وطفيل رأس الطفيليين الذى ينسبون إليه ، والأرشم : من يتشمم الطعام ويتحين له .

وكتب إلى صفى الدين بن شكر :

ولأنت ، إن رفع امرؤ من غيره   كالمبتدا ، سبب ارتفاعك معنوى

وله :

فداؤك كل من أمسى لبخل   نداه ، كأنه علم منادى

وقال فيمن عزل ، وكانت سيرته غير مشكورة :

فلا تغضبن إذا ماصرفت   فلا عدل فيك ، ولا معرفة

ولما مرض كتب إلى الملك المعظم عيسى :

انظر إلىّ بعين مولى لم يزل   يولى الندى وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى : أحتاج ما تحتاجه   فاغنم دعائى ، والثناء الوافى

فعاده الملك المعظم ، ومعه خمسمائه دينار ، وقال له : أنت الذى ، وأنا العائد ، وهذه الصلة .

ويتحدث عن المنطق ورجاله ، فيقول فى فقيهين تكلما فى المنطق ، يقال لأحدهما : تاج ، وللآخر : كمال :

قيل : إذا التاج على خلا   مع الكمال الجاهل الأحمق
تألفت من خبث فعليهما   قضية من جهة المنطق
موضوعها التاج ، فإن حاولوا   بها طريق العكس لم تصدق

ويقول فى أحد ممدوحيه :

لو أن رسطاليس يسمع لفظة   من لفظه لعرته هزة أفكل (١)
ولحار بطليموس لو لاقاه من   برهانه فى كل شكل مشكل

ابتدأ ابن عنين يقول الشعر وهو ابن ست عشرة سنة ، فى عهد نور الدين محمود

(١) الأفكل كأحمد : الرعدة .

ابن زنكى ، ويظهر أن صغر سنه حال بينه وبين الاتصال بالملك ، ولم يلبث نور الدين أن توفى ، حتى آل أمر ملك دمشق إلى صلاح الدين ، ولم يحاول ابن عنين أن يتقرب من السلطان ، ولا من رجال دولته ، بل وقف موقف الناقد العابث الساخر بالدولة والقائمين على أمورها : من وزراء ، وقواد ، وقضاة ، وكتاب ، ولم يفلت من لسانه علماء دمشق ، وأعيانها ، وكبار رجالاتها . فقد كان ابن عنين شاعراً مولعاً بالهجاء ، هجا صلاح الدين ورجال دولته بقوله :

قد أصبح الرزق ما له سبب ... فى الناس إلا البغاء والكذب
سلطاننا أعرج ، وكاتبه ... ذو عمش ، والوزير منحدب
وصاحب الأمر خلقه شرس ... وعارض الجيش داؤه عجب
يبيت من حكة تؤرقه ... فى دبره كالسعير تلتهب
وحاكم المسلمين ليس له ... فى غير غرمول أسود أرب
والدولعى الخطيب معتكف ... على فساد وريبة يثب
ولابن باقا وعظ يغر به النا ... س ، وعبد اللطيف محتسب
عيوب قوم لو أنها جمعت ... فى فلك ما سرت به شهب

ومضى يهجو الموفق أسعد بن إلياس الطبيب ، وكان رجلا غزير المروءة ، دمث الأخلاق ، كريم العشرة ، يصحبه صبى حسن الصورة اسمه عمر ، كره فى ابن عنين ولعه بالهجاء ، وأخذ يحرض صلاح الدين عليه ، فقال فيه ابن عنين :

قالوا : الموفق شيعى ، فقلت لهم ... هذا خلاف الذى للناس منه ظهر
فكيف يجعل دين الرفض مذهبه ... وما دعاه إلى الإسلام غير عمر

فأمر صلاح الدين بنفيه من دمشق ، فخرج منها ناقماً على خروجه ، مؤمناً بأنه ما انتقد إلا بالحق ، ولا فاه بغير الصدق ، فيما ذكره من عيوب القادة والرؤساء ، فقال :

فعلام أبعدتم أخا ثقة ... لم يجترم ذنباً ولا سرقا
أنفوا المؤذن من بلادكم ... إن كان ينفى كل من صدقا

خرج من دمشق ومضى يطوف البلاد: من الشام، والعراق، الجزيرة وآذربيجان، وخراسان، وغزنة، وخوارزم، وما وراء النهر، والهند، ويظهر أنه لم يطب له المقام فى أى بلد من هذه البلاد. ذم اقامته فى دمشق، وسخر من أحكام الخليفة وقضاته، وهجا بخارى، ووصف أهلها بالبخل، وأنهم يغلقون أبوابهم فى وجه الغريب، ويلحقونه إلى الخان. ليأكلوا طعامه، ويسلبوا ماله، أما فى خوارزم فقد راقته صباحة أوجه أهلها ولكنه نقم على مؤذنها أن يقوم فى سحرة من الليل يقارب نصبه، ثم لا يزال يزعق إلى الفجر، حتى إذا ماصل إلى ما وراء النهر استرجع ذكريات ماضية، فرأى أنه سار فى طريق، كان جديراً به أن يسلك سواء، فقد ألقى به سوء طالعه فى ديار أعاجم، لا يرى أن يمجدهم فى شعره، ولا أن يطمع فى نوالهم، وكان أولى به أن يقف مدحه على ملوك وطنه: بنى أيوب، فلهم من أمجادهم ما يستحقون أن يمدحوا بها، فقد دافعوا عن الإسلام وأذاقوا الصليبيين مر الحروب، ولهم كرم كان يغنيه، ويجعل حياته رغدة سعيدة. تحس بذلك فى قوله:

أحن ومن وراء النهر دارى ... حنين العود أوثقه العراس (١)
بأرض لا الكلاب بها كلاب ... ولا الناس السراة هناك ناس
فكيف تبيت تطمع فى مديحى ... رجاء نوالها العجم الخساس
ولو أنى مدحت ملوك قومى ... تراغت حولى النعم الدخاس (٢)
فإن الناس فى طرق المعالى ... لهم تبع، وهم للناس راس
ملوك دأبهم شرف ومجد ... ودأب سواهم طرب وكاس
فلولا آل أيوب بن شادى ... لكان لمعهد الجود اندراس
هم تركوا صليب الكفر أرضا ... يداس، وكان معبوداً يباس
أولو عدل يموت الليث منه ... طوى، ويجنب مأواه الكناس

أما بلاد الهند فلم يحمد مقامه فيها:

وإذا سقى الله البلاد فلا سقى ... بلد الهنود سوى الصواعق والدما

---

(١) العود: المسن من الإبل. والعراس: الحبل الذى يعرس به البعير، أى يشد من عنقه إلى ذراعه.
(٢) الدخاس: العدد الكثير.

وهكذا مضى فى بلاد الشرق ، يجد السير ، راجياً أن يجد مكانا يجد فيه الهدوء والاستقرار ، ولكنه لم يجد راحة ولا هدوءاً :

اشقق قلب الشرق ، حتى كأننى افقش فى سودائه عن سنا الفجر

ويظهر أنه بعد طول تطوافه عزم على أن يعود إلى بنى أيوب . فمضى إلى اليمن وملكها فى ذلك الحين سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين ، فأكرم مقدمه وجعله من خواصه وندمائه ، وأغدق عليه ولقى عنده الراحة بعد وعثاء السفر ، ومضى ابن عنين ينظم فيه قلائد المدح ، فمن ذلك قوله فيه :

حلبت شطور الدهر يسرا وعسرة وجربت ، حتى حنكتنى التجارب
فكم ليلة قد بت ، لا الليل مشرق يضىء لرائيه ، ولا النجم غارب
شققت دجاها ، لا أرى غير همتى أنيساً ، ولا لى غير عزمى صاحب
إلى بحر جود يخجل البحر كفه فقل عن أياديه ، فهن العجائب
إلى أبلج كالبدر ، يشرق وجهه سناه ، إذا التفت عليه المواكب
تسنم من أعلى المراتب رتبة تقاصر عن أدنى مداها الكواكب
لنا من نداه كل يوم رغائب ومن فعله فى كل مدح غرائب
فتى حصنه ظهر الحصان ، ونثرة[1] تكل لديها المرهفات القواضب
يريه دقيق الفكر فى كل مشكل من الأمر ما تفضى إليه العواقب
أتيت إليه ، والزمان عتاده عنادى ، وقد سدت على المذاهب
فلم أر كفاً عارضاً غير كفه بوجه ، ولم يزور لاسخط حاجب
بقيت ، فكم شرفت باسمك منبرا وكم نال من فخر بذكرك خاطب

وظل فى اليمن مدة طويلة ، كان فيها يتردد على مصر فى الحين بعد الحين ، ويظهر أنه كان يتجر فى أسفاره ، وحدث أنه لما جاء إلى مصر ، بعد وفاة صلاح الدين ، طولب بدفع زكاة ما معه من عروض التجارة ، فقال يهجو الملك العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر :

---

(١) النثرة : الدرع الواسعة .

ما كل من يتسمى بالعزيز لها   أهل ، ولا كل برق سحبه غدقه
بين العزيزين[1] بون فى فعالهما :   هذاك يعطى ، وهذا يأخذ الصدقه

وظل على هذه الحال ، إلى أن توفى صلاح الدين ، واضطربت أمور أولاده بعد وفاته ، ويظهر أنه كان يرجو أن تستقر الأمور فى دمشق ، للأفضل بن صلاح الدين ، وربما كان يطمع فى لين جانبه ، وأن يجد السعادة فى دمشق تحت حكمه ، وربما كان يؤمل أن يجد هو وأن تجد البلاد فى ظله العدالة والأمن والاطمئنان ، يظهر ذلك من هذه القصيدة التى أرسلها إلى أخيه ، رداً على كتاب له يستدعيه فيه إلى دمشق ، فكتب إليه ابن عنين يستمهله ، حتى تنجلى الأمور ، ويعود الحكم إلى صاحبه ، بعد أن استبد الملك العادل به ، وحتى يزول حكام السوء من دمشق ، وفيها يقول :

وتقول : أهل دمشق أكرم معشر   وأجلهم ، ودمشق أفضل منزل
وصدقت : إن دمشق جنة هذه الد   نيا ، ولكن الجحيم ألذ لى
لا الحاكم المصرى ينفذ حكمه   فيها على ، ولا العوانى الموصلى[2]
هيهات أن آوى دمشق وملكها   يعزى إلى غير المليك الأفضل
ومن العجائب أن يقوم بها أبو   بكر ، وقد علم الوصية فى على[3]
مهلا أبا حسن ، فتلك سحابة   صيفية ، عما قليل تنجلى

ولكن هذه السحابة التى كان يظنها صيفية لم تنقشع ، واستقرت قواعد الملك فى الشام ومصر للملك العادل ولبنيه ، ورأى أنه لا بد من الرضا بحكم الملك العادل ، إذا رغب فى العودة إلى دمشق ، بعد هذه الغربة الطويلة ، فكتب إليه قصيدة رائية ، يستعطفه بها ، ويستأذنه فى دخول دمشق ومن الخير أن نقف قليلا عند هذه القصيدة ، فإنها من خير شعره كله .

بدأ ابن عنين قصيدته بغزل مستوحى من الجو العام الذى انشئت من أجله القصيدة ، فهو غزل استعطافى فيه رقة وحنين ، إذ يقول :

---

(١) يريد بالعزيزين : الملك العزيز صاحب اليمن والملك العزيز صاحب مصر .

(٢) الحاكم المصرى : قاضى القضاة فى دمشق جمال الدين يونس بن بدران . والموصلى : هو شحنة دمشق (رئيس شرطتها) المبارز ابراهيم بن موسى .

(٣) أبو بكر : هو الملك العادل . وعلى : الملك الأفضل . يريد بذلك ما حدث من أخذ الملك العادل دمشق من ابن أخيه الملك الافضل سنه ٥٩٢ هـ .

ماذا على طيف الأحبة لو سرى ... وعليهم لو سامحونى بالكرى
جنحوا إلى قول الوشاة ، فأعرضوا ... والله يعلم أن ذلك مفترى
يا معرضاً عنى بغير جناية ... إلا لما رقش الحسود وزورا
هبنى أسأت ، كما تقول ، وافترى ... وأتيت فى حبيك أمراً منكرا
ما بعد بعدك والصدود عقوبة ... يا هاجرى ، قد آن لى أن تغفرا

حتى إذا انتهى من هذا الغزل الاستعطافى المتشوق ، مضى يتحدث عن دمشق ، التى لم ينسها طول غربته ، ويذكر معاهدها ، ويبكى بعده عنها ، وفراقه لها ، وطول ما قام به من رحلات وأسفار ، فقال :

فسقى دمشق ، ووواديها ، والحمى ... متواصل الإرعاد ، منفصم العرى
حتى ترى وجه الرياض بعارض ... أحوى ، وفود الدوح أزهر نيرا
أرض إذا مرت بها ريح الصبا ... حملت على الأغصان مسكا أذفرا
فارقتها لا عن رضا ، وهجرتها ... لا عن قلى ، ورحلت لا متخيرا
أسعى لرزق فى البلاد مفرق ... ومن البلية أن يكون مقترا
ولقد قطعت الأرض ، طوراً سالكا ... نجدا ، وآونة أجد مغورا

وتخلص من الحديث عن سفره إلى مدح العادل ، وتسجيل ما يتصف به : من عدل ، وكرم ، ومن ثبات فى المواقف ، التى تطيش فيها الأحلام ، ومن يقظة ، وسرعة بديهة ، وحلم ، وهى صفات شهر بها العادل :

ملك إذا خفت حلوم ذوى النهى ... فى الروع زاد رزانة وتوقرا
ثبت الجنان تراع من وثباته ... يوم الوغى وثباته أسد الشرى
يقظ يكاد يقول عما فى غد ... ببديهة أغنته أن يتفكرا
حلم تخف له الجبال ، وراءه ... عزم ، ورأى يحقر الإسكندرا

وأثنى ابن عنين الثناء الجم على أولاد العادل :

وله البنون ، بكل أرض منهم ... ملك ، يقود إلى الأعادى عسكرا

من كل وضاح الجبين ، تخاله بدراً ، فإن شهد الوغى فغضنفرا

حتى إذا شفى نفسه من مدح الملك وبنيه ، عرض أمره على العادل ، قائلا :

أشكو إليك نوى تمادى عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهرا
لا عيشتى تصفو ، ولا رسم الهوى يعفو ، ولا جفنى يصافحه الكرى
أضحى عن الأحوى المريع محلا وأبيت عن ورد النمير منفرا
ومن العجائب أن تفيأ ظلكم كل الورى ، ونبذت وحدى بالعرا

وكان لهذه القصيدة أثرها فى نفس العادل ، فأذن له بدخول دمشق ، فدخلها ، وكان القائم بالأمر فيها المعظم عيسى بن العادل ، فإن العادل قسم البلاد بين بنيه ، وكانت دمشق والقدس لابنه المعظم ، الذى أعجب بابن عنين أيما إعجاب ، وجعله من خواص بطانته ، وفى آخر أيام المعظم تولى الوزارة ، وبهذا وصل إلى أسمى مناصب الدولة ، غير أنه ، وكانت قد علت سنه — زهد فى الوزارة ، وتوسل إليه أن يعفيه منها ، والظاهر أن الناس لم يستقبلوا توليه الوزارة بالرضا ، لتاريخه الطويل فى الهجاء ، وما أثر له من شعر ماجن ، ساخر ، فضلا عن سن عالية لا تسمح له بتحمل أعباء الوزارة ، يظهر ذلك فى قوله للمعظم :

أقلنى عثارى ، واحتسبها صنيعة يكون برحماها لك الله جازيا
كفى حزناً أن لست ترضى، ولاأرى فتى راضياً عنى ، ولا الله راضيا
ولست أرجى بعد سبعين حجة حياة ، وقد لاقيت فيها الدواهيا

ولما مات المعظم رثاه ابن عنين رثاء باكياً ، ولم يلبث أن لزم بيته عند ما آل أمر دمشق إلى الملك الأشرف موسى ، وإن كان قد مدحه بشعره .

كان لاغتراب ابن عنين عن دمشق ، وقد طال إلى أكثر من عشرين عاماً — أثر بالغ فى شعره ، فكثر فيه الحنين إلى وطنه ، واتسم هذا الشعر بالقوة فى التعبير ، وجزالة الأسلوب ، يحن إلى أصدقائه ، ويشتاق إلى ملاعب صباه وشبيبته ، ويأسف لجوبه البلاد ، وأنه لا يستقر فى مكان ، وفى ديوانه باب فى الحنين إلى دمشق ، وفى مختلف أغراض شعره حديث عنها ، حينما كان مفارقاً لها ، وحسبى أن أورد هنا بعض ما قاله من شعر فى هذا

الغرض الذى استولى على نفس شاعرنا حيناً من الزمن طويلا . قال فى إحدى قصائده يصف حنينه وغربته :

حنين إلى الأوطان ليس يزول   وقلب عن الأشواق ليس يحول
أبيت ، وأسراب النجوم كأنها   قفول تهادى أثرهن قفول
أراقبها فى الليل من كل مطلع   كأنى برعى السائرات كفيل
فيالك من ليل نأى عنه صبحه   فليس له فجـر إليه يئول
أما لعقود النجم فيه تصرم   أما لخضاب الليل فيه نصول

وبعدئذ يصف شوقه المبرح إلى دمشق ، ويتخيل طبيعتها ، ويسائل نفسه إن كان القدر سيسعفه بالعودة إليها يوماً ما ، فيقول :

ألا ليت شعرى ، هل أبيتن ليلة   وظلك يا مقرى[1] على ظليل
وهل أريني بعد ما شطت النوى   ولى فى ربى روض هناك مقيل
دمشق ، في شوق إليها مبرح   وإن لج واش ، أو ألح عذول
ديار بها الحصباء در ، وتربها   عبير ، وأنفاس الشمال شمول
فياحبذا الروض الذى دون عزتا[1]   سحيرا ، إذا هبت عليه قبول
ويا حبذا الوادى ، إذا ما تدفقت   جـداول باناس[1] إليه تسيل
وفى كبدى من قاسيون[2] حزازة   تزول رواسيه ، وليس تزول
إذا لاح برق من سنير[1] تدافقت   لسحب جفونى فى الخدود سيول
فلله أيامى ، وغصن الصبا بها   وريق ، وإذ وجه الزمان صقيل
هى الغرض الأقصى ، وإن لم يكن بها   صديق ، ولم يصف الوداد خليل
فقدت الصبا ، والأهل ، والدار ، والهوى   فلله صبرى إنه لجميـل

ويمتد به الخيال ، ثم لا يلبث أن تصدمه الحقيقة ، فيقول :

سألتم ان وافيتها ذلك الثرى   وهيهات ، حالت دون ذاك حئول

---

(١) قرية من نواحى دمشق .   (٢) قاسيون : جبل دمشق .

وتنساب الرقة والحنين فى كل شعره الذى يشتاق فيه الى دمشق . وكان ألمه لفراقها يملأ شعاب قلبه ، برغم ما قد يبديه من تجلد وتصبر :

كم أورى عن لوعتى ، وأوارى ما أجنت أضالعى من أوارى
وأرى صاحبى سلواً ، وفى القلـــب زناد من قادح الشوق وارى
جلدا أظهر السرور ، وان أضمرت حزناً بين الحشـا متـوارى

وكان الهجاء الذى سبب نفيه عنها أقوى أغراض ابن عنين فى شعره ، ويلجأ فيه الى التهكم والسخرية ، ولا يبالى بمن يهجوه : سلطاناً كان، أو وزيراً ، أو قائداً . هجا صلاح الدين وأخاه الملك العادل ، وغيرهما ، من كبار رجال الدولة ، بل لقد هجا أباه بقوله :

وجنبنى أن أفعل الخير والد ضئيل ، إذا ما عد أهل المناسب
بعيد عن الحسنى ، قريب من الخنا وضيع مساعى الخير ، جم المعايب
اذا رمت أن أسمو صعوداً الى العلا غدا عرقه نحو الدنية جاذبى

وهاك نموذجاً لهجائه ، قال يهجو الرشيد النابلسى :

قالوا : الرشيد بغاؤه مستحدث كسبوا خطيئته ، وباءوا بإثمه
ما ذاك الا عادة مألوفــة طبعاً له مذ كان فى بطن أمه
كانت غراميل الزناة اذا أتت حرها تلقاها الجنــين بسرمه
فلذاك يشــتاق المنى لأنه منه تركب لحمه مع عظمه

وساعده على اجادة الهجاء مقدرة بارعة على الدعابة والتهكم والسخرية ، وله فى ذلك قدم راسخة ، استطاع جامعو ديوانه أن يجمعوا منها بابا ، فيه جمال ومتعة ، فمن فكاهاته أن الشريف الكحال أهدى اليه خروفاً بعد أن وعده به مدة ، وكان هزيلا جداً ، فكتب اليه :

أبو الفضل ، وابن الفضل أنت ، وتربه فغير بديع أن يكون لك الفضل
أتتنى أياديك التى لا أعدها لكثرتها ، لا كفر عندى ولا جهل
ولكننى أنبيك عنهـا بطرفة تروقك ما وافى لها قبلها مثل

أتانى خروف ما شككت بأنه حليف هوى ، قد شفه الهجر والعذل
اذا قام فى شمس الظهيرة خلته خيالا سرى فى ظلمة ماله ظل
فناشدته : ما تشتهى ؟ قال : قتة وقاسمته : ما شفه ؟ قال لى : الأكل
فأحضرتها خضراء ، مجاجة الثرى مسلمة ، ما حص أوراقها الفتل
فظل يراعيها بعين ضعيفة وينشدها ، والدمع فى الخد منهل :
« أتت ، وحياض الموت بينى وبينها وجادت بوصل ، حين لاينفع الوصل »

وكان شرف الدين يعقوب يسمع الحديث على باب الكلاسة بجامع دمشق ، فقال ابن عنين :

رأيت النبى عليه السلام فقمت إليه ، وقبلته
فقال: أيعقوب يروى الحديث؟ فقلت : نعم ، قال : ما قلته

وجاء رجل من بغداد يلقب بالجدى يدعى الخطابة ، ومعه طومار يأخذ فيه خطوط الناس ، فتناوله وكتب فيه :

حوى قصب السبق أهل العـراق وعطر ذكرهم الأندية
وأى خطيب يجاريهم وقد خطبت فيهم الأجدية

ولانطباعه على الهجاء ، وشدة ملاحظته لما فى الناس من نقائص وعيوب ، وضع قصيدة دعاها : « مقراض الأعراض » ، هجا فيها جماعة من أهل دمشق ، وسخر بهم ، وهى طويلة ، ومنها ما خص به القاضى الفاضل ، اذ قال :

وحين أبصرت دولة الأحدب الفاضـل أربت على علا الشهب
فقلت للمفلسين : ويحكم تحادبوا فهى دولة الحدب

ولابن عنين مديح فى ملوك عصره ووزرائه . مدح الملك العادل ، وبنيه : المعظم ، والكامل ، والأشرف ، وصفى الدين بن شكر ، وطغتكين أخا صلاح الدين باليمن ، ولم يبق من شعره فيمن مدحهم بالمشرق ، سوى الفخر الرازى الذى أعجب ابن عنين بعلمه وخلقه .

وأقوى شعره فى المديح ما قاله فى المعظم عيسى ، وسجل المدح ما كان للملك المعظم

من مواقف مشهودة فى الحروب الصليبية . وخص معركة دمياط التى دارت سنة ٦١٩ هـ والتى كان للمعظم عيسى فيها بلاء حسن — بقصيدة بدأها بدءاً فاخراً بقوله :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتنا والقنـــا اللدنا

وانتقل إلى وصف جحافل الفرنج بقوله :

غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقيناً ولا ظنا
قد اتفقوا رأياً ، وعزماً ، وهمة ... وديناً ، وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت ... جموع كأن الموت كان لهم سفنا
عليهم من الماذى كل مفاضة ... دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا[1]
وأطمعهم فينا غرور ، فأرقلوا ... إلينا سراعا بالجياد ، وأرقلنا

ويصف ابن عنين المعركة التى دارت بين المسلمين والصليبيين ، ويعترف لهم بالصبر ، والشجاعة ، والاستماتة فى الدفاع الذى لم يجد ، ويتحدث عن نهاية المعركة بإلقائهم السلاح ، ويوازن بين خلقهم وخلقنا ، لو أن المعركة انتهت بما انتهت به ، وكانوا هم المنتصرين علينا ، فإنهم ما كانوا يتورعون عن أن يسفكوا دماءنا ، فى أبشع الصور وأقساها ، يصور ذلك ابن عنين فى قوله :

لقد صبروا صبراً جميلا ، ودافعوا ... طويلا ، فما أجدى دفاع ، ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا ... فألقوا بأيديهم إلينا ، فأحسنا
منحنا بقاياهم حيـــاة جديدة ... فعاشوا بأعناق مقـــلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنا ... ولوغا ، ولكنا ملكنا ، فأسجحنا
أسود وغى ، لولا قراع سيوفنا ... لما ركبوا قيداً ، ولا سكنوا سجنا

وانتقل بعدئذ إلى مدح القائد الأيوبى الذى خاض المعركة ضد الصليبيين ، وهو المعظم عيسى ، وقد اشترك مع أخويه فى هذه المعركة التى شهدت الأيوبيين يداً واحدة ضد الفرنج

(١) الماذى : خالص الحديد ، والدرع اللينة السهلة ، والسلاح كله . ودرع دلاص : ملساء لينة . ووضن الشىء : ثنى بعضه على بعض وضاعفه .

الغزاة . كما لم ينس أن يسجل له موقفه هذا فى غير هذه القصيدة ، بل سجله له كذلك بعد وفاته ، عندما رثاه ، كما سجل له موقفه أيضا فى معركة أخرى بفلسطين ، دارت عند قيسارية ، إذ قال فى رثائه :

لولا دفاعك بالصوارم والقنا … عن حوزة الإسلام عاد كما بدا
وديار مصر لو ونت عزماته … عن نصرها لتمكنت فيها العدا
ولأمست البيض الحرائر أسهما … فيها سبايا ، والموالى أعبدا
وبثغر دمياط ، فكم من بيعة … عبد الصليب بها ، وكانت مسجدا
أنقذتها من خطة الخسف التى … كانت أحلتها الحضيض الأوهدا
أجليت نهر الكفر عنها ، فانطوى … وأنرت فى عرصاتها فجر الهدى
ولقد شهدتك يوم قيسارية … والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشرف الأبـ … ـراج ، أحكم بالصفيح وشيدا
فجعلت عاليها مكان أساسها … وألنت للأخشاب فيها الجلمدا

كما سجل للأشرف موسى موقفه من هذه المعركة الخالدة فقال :

لولاك لانفصمت عرا الإسلام فى … مصر ، وأخمل ذكره ، وتبدلا
وتحكمت فيها الفرنج ، وغادرت … أعلاجها محراب (عمرو) هيكلا
حاشا لدين أنت فيه مظفر … أن يستباح حماه ، أو أن يخذلا

وكان جديراً بابن عنين أن يسجل المعارك التى دارت بين جبابرة الحروب الصليبية : صلاح الدين وملوك الفرنج ، لو لم ينف ابن عنين عن دمشق ، فهو شاعر قدير بارع ، حرمت هذه المعارك أبرع شعرائها .

ولم تفارق ابن عنين الدعابة حتى فى الرثاء ، ومن ملحه فى ذلك أن حماراً له مات بالموصل ، فقال يرثيه :

ليس بأول يوم الحشر متصل … ومقلة أبداً إنسانها خضل
وهل ألام وقد لاقيت داهية … ينهد لو حملتها بعضها الجبل

ثوى المصك(١) الذى قد كنت آمله   عوناً ، وخيب فيه ذلك الأمل
لا تبعدن تربة ضمت شمائله   ولا عدا جانبيها العارض الهطل
لقد حوت غير مكسال ، ولا رعش   إن قيد القود(٢) من دون السرى الكسل
قد كان إن سابقته الريح غادرها   كأن أخمصها بالشوك ينتعل
لا عاجزاً عند حمل المثقلات ولا   (يمشى الهوينى، كما يمشى الوجى الوجل(٣))
مكمل الخلق، رحب الصدر، منتفخ الجنبـ   ـين ، لا ضامر ، طاو ، ولا سغل(٤)
يطوى على ظمأ خمساً أضالعه   فى بيضة الصيف ، والرمضاء تشتعل
ويقطع القفرات الموحشات إذا   عن قطعها كلت المهرية البزل(٥)
فى الأباطح هيق ، راعه قنص   وفى الجبال المنيفات الذرى وعل(٦)
يرجع النهق مقروناً ، ويطربنى   لحناً ، كما يطرب المزموم والرمل(٧)
لو كان يفدى بمال ما ضننت به   ولم تصن دونه خيل ولا خول

وهى من القطع الفريدة فى موضوعها فى الأدب العربى .

ولابن عنين رثاء أقواه ما قاله فى المعظم عيسى .

وفى ديوانه باب للألغاز ، تنقصه العاطفة التى هى أساس الشعر ، ولكنه يدل على ذكاء وفطنة ، كان يضع الشعر ملغزاً ، ويجيب عن الألغاز بالشعر . أنشده الملك المعظم هذا البيت لغزاً فى الاسلام :

أى شىء تراه حقاً يقينا   حينما اعوج فى الزمان استقاما

فأجابه بديهاً وصرح بالجواب :

أيها السيد الذى جعل الشـ   ـرك حطاماً ، وشيد الإسلاما

---

(١) المصك : القوى .
(٢) القود : الخيل والابل.
(٣) الوجى : الحفا ، وهو رقة القدم
(٤) السغل : المهزول .
(٥) المهرية : إبل تنسب إلى حى يدعى : مهرة بن حيدان . والبازل من الابل : من بلغ السنة التاسعة.
(٦) الهيق : الظليم وهو ذكر النعام . والوعل : تيس الجبل .
(٧) المزموم والرمل : لحنان .

قد أتاك الجواب لا شك فيه فاتخذنى للمشكلات إماما

هذا ولا يضم ديوان ابن عنين كل شعره ، فإن الرجل ما كان حريصاً على جمع شعره ، ولكن جمع له بعض الدمشقيين بعض شعره فى ديوان هو الذى عنى بنشره وتحقيقه الأستاذ خليل مردم ، وكان ابن خلكان قد رأى هذا المجموع ، وذكر أنه لا يجمع شعر ابن عنين كله. وفيه ما ليس له ، وينسب إليه مقطوعة أولها :

جاءت تودعنى ، والدمع يغلبها عند الرحيل ، وحادى البين منصلت

وهذه القطعة تنسب إلى البهاء زهير .

وفى عشية نهار الاثنين ، لعشرين من شهر ربيع الأول ، سنة ثلاثين وستمائة هجرية ، مات فى مدينة دمشق ، التى شهدت مولده .

ابن الفـــارض*

٥٧٦ — ٦٣٢ ﻫ

من مدينة حماة ، قدم الفقيه على بن مرشد ، حيث أقام بمصر ، مشهوراً بعلم الفرائض ، ثم واليا نيابة الحكم فى مصر ، غالبا عليه التلقيب بالفارض ، وفى رابع ذى القعدة ، سنة ست وسبعين وخمسائة ، ولد له بمصر طفل دعاه عمر نشأ فى رعايته ، وربى فى هذه البيئة العلمية الدينية ، فلما شب اشتغل بفقه الشافعية ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر وغيره ، وسلك طريق الصوفية ، وكان عصر الحروب الصليبية من العصور التى أزدهر فيها التصوف ، وأنشئت لمريديه الدور ، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة ، فراض عمر نفسه على طريقة الصوفية ، والأخذ بمبادئها : من زهد وعبادة ، ثم رأى أن يمضى إلى مكة ، ليتصل بمنابع الوحى والإلهام ، وظل هناك زهاء خمسة عشر عاما ، ثم عاد إلى مصر ، وأقام بالجامع الأزهر ، معظما من أهل عصره ، حتى إن الملك الكامل كان ينزل لزيارته ، وساعده على الظفر بمحبة الناس ما منحه من جمال الخلقة والخلق ، وما سار على ألسنة الناس من شعره ، فقد أخذ الناس يتلقفون ديوانه ، ويترنمون بقصائده ، وقد جرى فيها ابن الفارض على طريقة الحب والغرام ، وليس بعجيب أن ينهج شعراء التصوف منهج الحب ، وأن يعبروا عن عواطفهم كما يعبر العاشقون المغرمون ، فإن التصوف فى حقيقة أمره حب وحنين إلى الذات المقدسة ، وإلى معرفة الحقيقة

---

* مراجعه :

(١) ديوانه . (٢) وفيات الأعيان ١ : ٣٨٣ .

(٣) الأعلام ٢ : ٧١٩ . (٤) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٨٨ و ٧ : ٢٨٣ و ٣٧٠ .

(٥) الحركة الفكرية فى مصر ص ١١٤ و ١٢٣ .

(٦) فى التصوف الإسلامى ص ١٢٠ .

(٧) حسن المحاضرة ١ : ٢٢١ . (٨) تاريخ مصر لابن اياس ١ : ٨١ .

(٩) شذرات الذهب ٥ : ١٤٩ . (١٠) البداية والنهاية ١٣ : ١٤٣ .

(١١) Littérature arabe. P. 116

(١٢) تاريخ ابن الوردى ٢ : ١٦١ .

(١٣) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ٣ : ١٧ .

السافرة ، فلا غرابة أن يستعير الصوفية لغة أهل العشق والغرام ، وأن يعبروا عن عواطفهم وحبهم بتلك العبارات الرقيقة التى اعتدنا سماعها فى الغزل ، وأن يبينوا عن إحساساتهم المختلفة كما يبين المغرمون . وقد أوتى ابن الفارض حظا كبيراً من الرقة والأسر ، عندما يترك نفسه على سجيتها ، ولا يقيدها بألوان المحسنات البديعية ، كقوله :

قلبى يحدثنى بأنك متلفى ... روحى فداك عرفت أم لم تعرف
لم أقض حق هواك إن كنت الذى ... لم أقض فيه أسى ، ومثلى من يفى
مالى سوى روحى ، وباذل نفسه ... فى حب من يهواه ليس بمسرف
فلئن رضيت بها فقد أسعفتنى ... ياخيبة المسعى إذا لم تسعف
يامانعى طيب المنام ، ومانحى ... ثوب السقام به ، ووجدى المتلف
عطفا على رمقى ، وما أبقيت لى : ... من جسمى المضنى ، وقلبى المدنف
لم أخل من حسد عليك ، فلا تضع ... سهرى بتشنيع الخيال المرجف
واسأل نجوم الليل ، هل زار الكرى ... جفنى ، وكيف يزور من لم يعرف
إن لم يكن وصل لديك فعد به ... أملى ؛ وماطل إن وعدت ولا تفى
فالمطل منك لدى ، إن عز الوفا ... يحلو ، كوصل من حبيب مسعف
وحياتكم ، وحياتكم قسما ، وفى ... عمرى بغير حياتكم لم أحلف
لو أن روحى فى يدى ، ووهبتها ... لمبشرى بقدومكم لم أنصف
لا تحسبونى فى الهوى متصنعاً ... كلفى بكم خلق بغير تكلف
قل للعذول : أطلت لومى طامعا ... أن الملام عن الهوى مستوقفى
دع عنك تعنيفى ، وذق طعم الهوى ... فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

وتستطيع أن تلمح فى هذا الغزل الخواطر والإحساسات التى يريد الشاعر تصويرها ، والتعبير عنها ، وإن بعد ادراكها فى كثير من الأحيان . ومن أجل ذلك كثرت وجهات النظر ، عند شرح تائيته الكبرى ، التى اعتنى بشرحها جمع من الرجال ، وقف بعضهم عند حد الشرح الأدبى ، وبيان مافيها من أسرار جمال الأسلوب ، وحاول البعض أن يستشف ماوراء ذلك من أغراض الشاعر . ولم يقف الأمر عند حد هذه القصيدة المطولة ، التى بلغت نحو ستمائة بيت ، بل مضى بعض العلماء يشرح الديوان كله .

ولم يقف ابن الفارض عند استعارة لغة الغزل ، حينما يعبر عن إحساساته وعواطفه ، بل استخدم كذلك لغة الصوفية ، وبخاصة فى تائيته الكبرى ، وقد أوردنا نموذجا منها فيما مضى ، ونورد هنا قوله يبين عن مذهبه :

جلت فى تجليها الوجـود لناظرى ... وفى كل مـرئى أراهـا برؤية
واشهدت عينى ، إذبدت ، فوجدتنى ... هنالك إياها بجـلوة خلوتى
وطاح وجودى فى شهودى ، وغبت عن ... وجود شهودى ماحيا غير مثبت
وعانقت ماشاهدت فى محو شاهدى ... بمشهده للصحو ، من بعد سكرتى
ففى المحو بعد الصحو لم أك غيرها ... وذاتى بذاتى إذ تجلـت تجلت

وهو حينئذ يصبح عسير الفهم ، يحتاج إلى التريث والأناة ، لادراك معانيه وأسراره ، ولست أريد هنا أن أتعرض للمذهب الصوفى لابن الفارض ، ولا أن أبين الأصول التى استقى منها مذهبه ، فذلك إلى حين آخر إن شاء الله .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن معاصرى ابن الفارض أقروا له بمعرفة الشعر وتذوقه ، ومعرفة الأشياء والنظائر ، ومما يذكر له فى ذلك أن نجم الدين بن اسرائيل ، وشهاب الدين الخيمى ، ادعى كل منهما القصيدة البائية التى أولها :

يا مطلبا ، ليس لى فى غيره أرب ... إليك آل التقصى ، وانتهى الطلب

فاحتكما إلى ابن الفارض ، فأمر أن يعمل كل منهما قصيدة على الوزن والقافية فأنشأ الخيمى قصيدة أولها :

لله قوم بجـرعاء الحمى غيب ... جنوا على ، ولما أن جنوا عتبوا

ونظم ابن اسرائيل قصيدة مطلعها :

لم يقض من حبكم بعض الذى يجب ... قلب متى ما جـرى تذكاركم يجب

فوجد ابن الفارض تشـابها فى الروح بين قصيدة الخيمى والقصيدة المدعاة ، فحكم بالقصيدة للخيمى .

وتوفى ابن الفارض فى ثالث جمادى الأولى سنة ٦٣٢ هـ .

البهاء زهـــير *

٥٨١ — ٦٥٦ هـ

بهاء الدين زهير بن محمد بن علي ، ينتهي نسبه بالمهلب بن أبي صفرة ، أحد سادة العرب وشجعانهم ، والقائد الذي أبلى بلاء كبيراً في قتال الخوارج ، أيام الدولة الأموية ، وعد بذلك من أبطال القواد المسلمين ، والبهاء بذلك ينحدر من أصل عربي ، كما أنه قد ولد في أرض عربية هي بلاد الحجاز ، فقد استقبل الحياة في وادي نخلة ، بالقرب من مكة ، في خامس ذي الحجة ، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة ، وقضى زهير في مسقط رأسه حيناً لايحدده التاريخ ، ولكن شعره يحدثنا بأنه مكث هناك حيناً ، ترك في نفسه ذكريات لاتنسى ، وذلك حين يقول :

أحن إلى عهد المحصب من منى ... وعيش به كانت ترف ظلاله
وياحبذا أمواهه ونسيمه ... وياحبذا حصباؤه ورماله

---

* مراجعه :
(١) تاريخ ابن الوردي ٢ : ١٩٩ . (٢) الأعلام ١ : ٣٣٩ .
(٣) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٣ . (٤) صبح الأعشى ١ : ٩٧ .
(٥) النجوم الزاهرة ٥ : ٣٢٠ و ٧ : ٥٨ ، ٦٨ ، ٣٣٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ و ٦ : ٢٣٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ . (٦) ديوانه .
(٧) ذيل الروضتين ص ٢٠١ . (٨) وفيات الاعيان ١ : ١٩٤ .
(٩) السلوك ١ : ٢١٢ ، ٢٤٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٤١٣ . (١٠) البهاء زهير لمصطفى عبد الرازق .
(١١) البهاء زهير للاستاذ أحمد الشايب .
(١٢) History of egypt in the middle ages P. 240
(١٣) Littérature arabe. P. 116 , 118
(١٤) خزانة الأدب للحموي ص ١٠ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٧٩ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٤ .
(١٥) المختصر في أخبار البشر ٣ : ٩٧ .
(١٦) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٨ . (١٧) البداية والنهاية ١٣ : ٢١١ .
(١٨) شذرات الذهب ٥ : ٢٧٦ . (١٩) خطط المقريزي .
(٢٠) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان . (٢١) مرآة الجنان وعبرة اليقظان .
(٢٢) المنهل الصافي ٢ : ١٠٣ .

ويا أسفي إذ شط عني مزاره ... ويا حزني إذ غاب عني غزاله
وكم لي بين المروتين لبانة ... وبدر تمام قد حوته حجاله
مقيم بقلبي ، حيث كنت ، حديثه ... وباد لعيني ، حيث سرت خياله
وأذكر أيام الحجاز ، وأنثني ... كأني صريع يعتريه خبـــاله
ويا صاحبي بالخيف ، كن لي مسعداً ... إذا آن من بين الحجيج ارتحاله
وخذ جانب الوادي ، كذا عن يمينه ... بحيث القنا يهتز منـــه طواله
هناك ترى بيتاً لزينب مشرقاً ... إذا جئت لا يخفى عليك جلاله ...

وحيث يقول :

سقا الله أرضاً لست أنسى عهودها ... ويا طول شوقي نحوها وحنيني
منـــازل كانت لي بهن منـــازل ... وكان الصبا إلفي بها وقريني
تذكرت عهداً بالمحصب من منى ... وما دونه من أبطح وحجون
وأيامنـا بين المقـــام وزمزم ... وإخواننا من وافد وقطين
زمان عهدت الوقت لي فيه واسعاً ... كما شئت من جده ومجون
إذ العيش نضر ، فيه للعين منظر ... وإذ وجهه غض بغير غضون

على أنني أرى هذا الشعر ليس بقاطع الدلالة على أن زهيراً عاش في مسقط رأسه حيناً طويلا من الزمن ، فقد يذكر الطفل النابه الكثير من معالم وطنه الأول ، ويكون لخيال الشاعر أثر في إحياء هذه الذكريات وتكميل صورتها ، فليس من الضروري أن يكون الشاعر قد عاش في الحجاز ، حتى أدرك عهد الحب ، ومرت به في هذا العهد ذكريات لاتنسى . فقد يكون الشاعر مستغلا بعده عن وطنه الأول في تخيل غرام قديم ، لم يجن منه نفعاً ، وكم تخيل الشعراء مواقف للحب لم تمر بهم حتماً .

غادر الشاعر وطنه الأول ، وانتقل مع أسرته إلى مدينة قوص ، لأسباب لايذكرها التاريخ ، وفي زمن غير معروف ، وقد تكون رغبة الأسرة في تثقيف ابنها ، وإعداده للظفر بمنصب من مناصب الدولة ، وكان الحجاز يومئذ جزءاً من إمبراطورية صلاح الدين — هي التي دفعت الأسرة إلى مغادرة مكة إلى قوص ، لينال الفتى فيها ثقافته الأولى ، حتى

إذا أتمها مضى إلى القاهرة ، وكانت قوص يومئذ من أكبر مراكز الثقافة فى البلاد [١] ،

وفى قوص تثقف على أيدى علمائها ، ويظهر أن استعداده دفعه إلى أن يقبل على الأدب وعلومه ، فمضى يقرأ ما أثر من متخير النصوص الأدبية ، ويدرس مايعين على فهم هذه النصوص ، وجد فى دراسة الحديث ، وكان الحديث ولا يزال نموذجاً من نماذج البلاغة العالية .

وقد ظهرت بعض آثار ثقافته فى شعره ، فرأينا بعض المصطلحات الكلامية فى شعره ، حين يقول :

عطلته لما رأيتك معرضاً   عنه ، وما من مذهبى التعطيل

وبعض مصطلحات الحديث فى قوله :

وهوى حفظت حديثه ، وكتمته   فوجدت دمعى قد رواه مسلسلا

وبعض مصطلحات النحو ، حين يقول :

فمت كمداً ياحاسدى ، فأنا الذى   له صلة ممن يحب وعائد

أو حين يقول :

أملى فيك دونه سيف لحظ   ذاك مستقبل ، وهذاك ماض

كما تجد لغة الفقهاء فى قوله :

فدعنى مما يقول الوشا   ة فتلك الأقاويل فيها نظر

ونراه يقتبس من القرآن ، فيقول :

هذه قصتى ، وهذا حديثى   ولك الأمر ، فاقض ماأنت قاض

ومن الشعر ، حين يقول مقتبساً من أبى نواس :

---

(١) رجع الحياة العقلية ص ٥٦ .

« بمن يثق الإنسان فيما ينوبه » لعمرك مطلوب يعـز وقوعه

وقوله مقتبساً من المتنبى :

وقفت على ماجاءنى من كتابكم «وقوف شحيح ضاع فى الترب خاتمه»

وكان لفنون البديع أثرها الواضح فى شعره كما سنرى.

وكثيراً ما كان فى شعره إشارات إلى حوادث تاريخية ، وشخصيات تاريخية كذلك ، تدل على اطلاع واسع فى التاريخ والأدب .

وقال زهير الشعر مبكراً ويحفظ ديوانه قصيدة قصيرة قالها يهنىء بها الملك المنصور على ابن الملك العزيز بعيد النحر ، وقد ولى المنصور هذا عرش مصر سنة ٥٩٥ هـ ، فتكون سن البهـاء فى ذلك الحين أربع عشره سنة ، وفى هذه القصيدة تبدو تباشير المذهب الذى سينهجه البهاء فى الشعر ، من اتخاذه اللغة الدارجة ينبوعاً يستق منها أساليب شعره ، إذ يقول فى تلك القصيدة :

يهنئك المملوك بالعشر ، والشهر وبالعيد عيد النحر يا ملك العصر
وينهى إلى العلم الشريف بأنه على قدم الإخلاص فى السر والجهر
وهأنذا أدعولك الله دائمـا مع الصلوات الخمس والشفع والوتر
وإنى لأرجو أن جودك شـامل قريبا على قدر اهتمامك لا قدرى
وإنك إن أوليتنى منك أنعما فإنى ملىء بالدعاء وبالشكر
تشد بها أزرى ، تقوى بها يدى تعز بها قدرى ، تزيد بها وفرى

ولعله أراد أن يعيش كما كان يعيش من سبقه من الشعراء : على جود الحكام ، يمدحهم، وينـال رفدهم ، فرأيناه يطلب فى صراحة من المنصور أن يشمله بجوده ، ويعمه بنعمه ، ورأيناه يتصل بمجد الدين بن إسماعيل اللمكى حاكم قوص اتصالا وثيقا ، وكان أقدم شعر أهداه إليه فى سنة ٦٠٧ هـ ، حين هناه بولاية قوص ، وأعمالها ، وفيها يقول :

تمليته يالابس العز ملبسـا وهنئته ياغارس الجود مغرسا
قدمت قدوم الغيث للروض ، إنها به أشرقت حسنا وطابت تنفسا

به أصبحت قوص إذا هي فاخرت ... أعز قبيل في الأنام وأنفسا
أمولاي لا زالت معاليك غضة ... وأغصانها ريانة منك ميسا
سما بك مجد الدين مجـــدا ومحتدا ... وعرضا نهاه الدين أن يتدنسا
لقد شرفت منه الصعيد ولاية ... فأصبح واديه به قـــد تقدسا

ومضى زهير يمدح هذا الوالى ، ويهنئه فى المناسبات السعيدة ، ويستقبله إذا غاب ثم آب. ولعل انتساب هذا الأمير إلى اليمن التى ينتسب اليها زهير ، قوت هذه الصلة بين الأمير والشاعر ، وأوجدت مجالا لفخر الشاعر بهذه النسبة ، إذ يقول :

يعزى لقـوم سادة يمنية ... أعلى الورى قدراً، وأزكى محتدا

ويظهر أن الأمير أفاض على الشاعر خيره وبره ، وأن الشاعر أراد أن يستأثر بأكبر نصيب من رفد الأمير وعطائه ، فمضى يشكر نعم الأمير ، ويقرن ذلك بالثناء على شعره وتمجيد بلاغته ، فنسمعه يقول :

بك اهتز لى غصن الأمانى مثمراً ... وراقت لى الدنيا ، وراق نضيرها
وما نالنى من أنعم الله نعمـــة ... وإن عظمت إلا وأنت سفيرها
وإنى وإن كانت أياديك جمة ... لدى فإنى عبـدها وشكورها

ثم يختم هذه القصيدة قائلا :

تخذهـا كما تهوى المعـالى فريدة ... تزف ، عليهـا درها وحريرها
وللناس أشــعار تقال كثيرة ... ولـكن شعرى فى الأمير أميرها

ويظهر أن الأمير اتخذ البهاء كاتبا لديه ، وكان البهاء ممن أتقن صناعة الإنشاء ، ويدلنا شعره على أن الأمير صرفه عن الكتابة ، فتألم لذلك البهاء زهير ، وأرسل إلى الأمير قصائد تفيض بمدحه ، والألم من الانفصال عن خدمته ، ويزين له أن يعيده إلى هذه الخدمة ، ذاكرا مبررات عودته ، مبينا خسارة الأمير حين أعفاه من هذه الخدمة ، ملمحا إلى رغبته فى الرحيل عن هذه المدينة ، إذ يقول :

فيا تاركى أنوى البعيد من النوى إلى أى قوم بعدكم أتيمم
ولى فى بلاد الله مسرى ومسرح ولى من عطاء الله مغنى ومغنم
وأعلم أنى غالط فى فراقكم وأنكم فى ذاك مثلى ، وأعظم
ومثلك لا يأسى على فقد كاتب ولكنه يأسى عليك ويندم
فمن ذا الذى تدنيه منك ، وتصطفى تقول ، فيدرى ، أو تشير ، فيفهم
وما كل أزهار الرياض أريجة وما كل أطيار الفلا تترنم

ووالى البهاء إرسال شعره إلى الأمير مادحا ، مستعطفا ، مجددا الولاء ، مسجلا الشكر ، فأرسل إليه مرة يقول :

مولاى مجد الدين ، عطفا ، إن لى لمحبة فى مثلها لا يمترى
يامن عرفت الناس حين عرفته وجهلتهم لما نبا ، وتنكرا
خلق كماء المزن ؛ منك عهدته ويعز عندى أن يقال : تغيرا
مولاى ، لم أهجر جنابك عن قلى حاشاى من هذا الحديث المفترى
وكفرت بالرحمن إن كنت امرأ يرضى لما أوليته أن يكفرا

وأرسل إليه أخرى يستعطفه قائلا :

مولاى ، دعوة من أطلت جفاءه وعلى جفائك إنه لوصول
أسفى على زمن لديك قطعته وكأننى للفرقدين نزيل
زمن يقل له البكاء لفقده ولو أن دمعى دجلة والنيل
وإذا انتسبت بخدمتى لك سابقا فكأنها لى معشر وقبيل
روض جنيت الفضل منه يانعا وهجرته حتى علاه ذبول
أظمأته لما جفوت ، وطالما أسقته من نعمى يديك سيول
وافاك إن أقصيته متطفلا يا حبذا فى حبك التطفيل

والظاهر أنه ، برغم ذلك كله ، لم يعد الأمير إلى سابق عهده ، ولا يحدثنا التاريخ عن أسباب هذا الجفاء الطارىء ، الذى لم تجد معه قوة المديح ، ولا رقة الإستعطاف ، ففكر البهاء فى ترك قوص نهائيا ، ليتصل فى القاهرة بالأسرة المالكة ، وكان ، وهو بقوص ، يرسل

المدائح إلى أبنائها ، ولعله كان يغادر قوص فى الحين بعد الحين ، ويتصل ببعض حكام هذه الأسرة ، ففى الديوان قصيدة مدح بها الملك العادل ، وأنشدها بقلعة دمشق ، سنة ٦١٢ ﻫ ، وهو فى سن الشباب الناضج ، وفى هذه القصيدة يجرى على نهج أسلافه ، فبعد أن وصفه بقوة السلطان ، وكان العادل يومئذ أقوى ملك اسلامى فى عصره ، تحدث عن جوده ، مثنيا عليه ، مؤكدا أنه قد أصبح به فى حصن حصين من صروف الزمان ، فيقول :

فيا ملك العصر الذى ليس غيره ... يرجى ، ويخشى عفوه وانتقامه
تقدم ذكر الجواد قبلك فى الورى ... وأصبح من ذكراك مسكا ختامه
أمنت بلقياك الزمان صروفه ... فغيرى من يخشى عليه اهتضامه
وأصبحت من كل الخطوب مسلما ... عليك من الله الكريم سلامه

وهزت معركة دمياط التى انتهت بانتصار الكامل شاعرية البهاء ، فأنشأ قصيدة يمدح بها الكامل ، ويسجل هذه المعركة ، وما كان لها من أثر فى نفوس المسلمين ، وكان للشعور الدينى أثره فى هذا المدح ، فمنه اقتبست القصيدة كثيرا من أفكارها وأخيلتها ، ولا غرابة أن تتخذ القصيدة الدين ينبوعا لها ، فالمناسبة التى بعثت على إنشائها مناسبة دينية قوية ، وقد جعلها البهاء خالصة للمدح ، ولم يشبها بطلب رفد أو عطاء .

كان الدين ينبوع البهاء عندما أنشأ هذه القصيدة ، فترى فيها الدين مهز العطف فى حلل النصر ، وأيادى الممدوح تسعى فى الورى على قدم الخضر ، والمقطم ينافس فى القدر طور سيناء ، والكامل له فى الملأ الأعلى أطيب الذكر ، ومواقفه هى المواقف الغر فى موقف الحشر ، إلى غير ذلك من المعانى الدينية التى اقتبس منها تشبيهه فى قوله :

وليلة غزو للعـــــدو كأنها ... بكثرة من أرديته ليلة النحر

إذ يشبه تلك الليلة التى كثر فيها تقتيله للعدو ، بليلة عيد النحر ، فى حين أنه لا يجمع بين الليلتين جامع سوى كثرة سيلان الدماء ، أما الشعور النفسى فلا يجمع بينهما ، وشتان بين ليلة يملأ الفرح فيها النفوس ، وتمتلىء القلوب بهجة ، مستقبلة أيام العيد ، وبين ليلة كان الذعر يملأ فيها النفوس ، خشية حلول كارثة تحيق بالبلاد ، ويفقد فيها الوطن حريته ومجده ، ثم يمضى فى تلمس شبه دينى فيعقد صلة بين هذه الليلة وليلة القدر ، إذ يقول :

فياليلة قد شرف الله قدرها ولا غرو إن سميتها ليلة القدر

وإذا كانت ليلة القدر تبدأ وضيئة ، بينا أمرها ، وتستقبل معروفا قدرها ، بين الأيام ، يبتهل الناس فيها ، راجين تحقيق آمالهم ، بقلوب مطمئنة ، فإن ليلة القتال لم تستقبل بمثل هذه الطمأنينة ، ولم يكن أمرها واضحا بين الناس ، ولا نتيجتها معروفة بينة ، ولكن زهيرا بعد تبين نتيجة الليلة ، وما أعقبته من نصر ، عاد فشبهها بليلة القدر ، وهى لا تشبه ليلة القدر إلا بعد أن انقضت ، وتبين أمر القتال فيها ، أما فى أول أمرها فلا شبه بينهما .

وقد أجاد زهير عندما وصف ما أعده الكامل لهذه المعركة من عدة وعديد ، حين قال :

سددت سبيل البر والبحر عنهم بسابحة دهم وسائحة [1] غر
أساطيل ليست فى أساطير من مضى بكل غراب [2] راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل : هولا ، وهيبة وإن زانه ما فيه من أنجم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله لآل زهير ، لا ، ولا لبنى بدر
وباتت جنود الله فوق ضوامر بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر
فلا زلت حتى أيد الله حزبه وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر

ويظهر أنه كان يعود إلى قوص بعد رحلته ، ومنها كان يرسل إلى بعض أبناء الأسرة الأيوبية بشعره ، وها هوذا يرسل إلى الملك المسعود يوسف بن الكامل ، قصيدة يمدحه بها لما قدم من اليمن سنة ٦٢١ هـ وفيها يقول :

إليك ولم تبعد على عاشق مصر ووافاك مشتاقا لك المدح والشعر
إلى الملك المسعود ذى البأس والندى فأسيافه حمر ، وساحاته خضر
يراعى حمى الاسلام ، لازمن الحمى ويحلوله ثغر المخافة ، لا الثغر
تكنفه من آل أيوب معشر بهم نهض الاسلام ، واندفع الكفر
فياصاحبي ، هب لى بحقك وقفة يكون بها عندى لك الحمد والشكر
لدى ملك ، رحب الخليقة ، قاهر فمجلسه الدنيا ، وخادمه الدهر

(١) يريد الخيل المباركة . (٢) نوع من أنواع السفن فى ذلك الحين .

وخذ جملا هـــذا الثناء ، لأننى　　لأعجز عن تفصيله ولك العذر
على أننى فى عصرى القائل الذى　　إذا قال بذ القائلين ولا فخــر

واعل زهيرا كان يطمع أن يكون شاعر الأمير ، ولعل الأمير وصله ، وشجعه تشجيعا دفعه إلى أن يفكر فى مغادرة قوص نهائياً ، بعد أن لم يجده استعطاف حاكمها ، فولى زهير وجهه شطر القاهرة ، وقد تم نضجه ، إذ كان فى الاربعين ، أو كان قد جاوزهـا ، وأغلب الظن أنه أراد أن يصل حباله بالملك المسعود ، فأنشأ قصيدة طويله يمدحه بها ، وفيها يقول :

لقد كنت أرجو أن أزورك فى الدجى　　وإنى على ما فاتنى منك ندمان
أعلل نفسى بالمواعيــد والمنى　　وقد مر أزمان لذاك وأزمـان
أرى أن عزى من سواك مذلة　　وأن حباتى من سواك لحرمان
وليس غريباً من إليه اغترابه　　له منه أهل حيث كان وأوطـان
وقـد قرب الله المسافة بيننـا　　فها أنـا يحوينى واياه إيوان

ولكن يظهر أنه لم ينل ماكان يؤمل من الملك المسعود ، فاتصل بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فمدحـه بقصيدة طويلة ، يظهر منها أن الملك الصالح هو الذى رغب فى عقد هذه الصلة ، وسعى اليها ، ورغب أن يفرده الشاعر بالمدح والثناء ، نلمح ذلك فى قوله:

لبيك ، يامن لامـرد لأمـره　　واذا دعـا العيوق لايتعـوق
لبيك ياخير الملوك بأسرهم　　وأعز من تحدى اليه الأينق
لبيك ألفاً ، أيها الملك الذى　　جمع القلوب نواله المتفـرق
أنا من دعوت وقد أجابك مسرعاً　　هـذا الثناء له ، وهـذا المنطق

ولعل الشاعر رأى فى ذلك بارقة أمل فى أنه سيظفر بآماله ، وسينال على يدى الأمير أمانيه ، نرى ذلك فى هتاف الشاعر قائلا :

ولقـد سعيت إلى العلاء بهمة　　تقضى لسعيي أنه لا يخفق
وسريت فى ليل كأن نجومه　　من فرط غيرتها الى تحدق
حتى وصلت سرادق الملك الذى　　تقف الملوك ببابه تسترزق

وربما عزم على أن يقف شعره على هذا الممدوح الجديد ، ويريح نفسه من محاولة الاتصال بغيره ، ويلق عنده عصا التسيار ، نحس ذلك فى قوله :

يامن رفضت الناس حين لقيته ... حتى ظننت بأنهم لم يخلقوا
قيدت فى مصر اليك ركائبي ... غيري يغرب تارة ويشرق
وتيقن الأقوام أنى بعدها ... أبداً الى رتب العلا لايسبق
فرزقت مالم يرزقوا ، ونطقت ما ... لم ينطقوا ، ولحقت مالم يلحقوا

ولعل مطامع الصالح من ناحية ، والتنافس بين الإخوة من ناحية ، هى التى هيأت للشاعر مكانة قوية لدى أميره ، وقد صدق ظنه هذه المرة ، فإن الملك الصالح أغدق على شاعره حبه وبره ، ولازم الشاعر أميره ، يسافر معه أنى اتجه ، ويقيم حيث يقيم ، وإن كان دائم الحنين إلى مصر ، موصول القلب بهؤلاء الأصدقاء ، الذين خلفهم بها ، وكلما طالت الغربة اشتد حنينه إلى هذا الوطن ، وازداد شوقه . قال فى صدر كتاب بعث به إلى أصحاب له بمصر ، وقد نزل بآمد :

كتبتها من آمد ... عن فرط شوق زائد
والله مذ فارقتكم ... لم تصف لى مواردى
فهل زمانى بعدها ... بقربكم مساعدى
فكم نذور أصبحت ... على للمساجد
وهبت باقى عمرى ... لكم بيوم واحد

وينطق بألمه من طول اغترابه عن مصر قوله :

ليت شعرى ، ليت شعرى ... أى أرض هى قبرى
ضاع عمرى فى اغتراب ... ورحيل مستمر
ومتى يوم وفاتى ... ليتنى لو كنت أدرى
ليس لى فى كل أرض ... جئتها من مستقر
بعد هذا ليتنى أعرف ... ما آخر عمرى
ومتى أخلص مما ... أنا فيه ليت شعرى

ومما يدل على تلهفه على مصر ورؤية ما يتصل منها بسبب هذه الرسالة التى كتبها إلى صديق له من مصر ، بعث إليه برسالة ، إذ يقول زهير :

ضمنتها حمدا وشكرا وأتتك تطلب منك عذرا
لم أدر كيف أجيب ما حبرته نظما ونثرا
أبصرت وجهك ثم قلـت لمقلتى أبصرت مصرا
أذكرتنى زمنا مضى عى ، وعيشا كان نضرا

فإذا آل ملك دمشق إلى الملك الصالح أقام البهاء هناك فى خدمته ، حتى إذا اضطربت الأمور على الملك الصالح ، وخرجت عليه دمشق ، وخانه عسكره ، وهو على نابلس ، قبض عليه ابن عمه الناصر داود صاحب الكرك ، واعتقله بقلعة الكرك ، فأقام بهاء الدين فى نابلس، مقيما على ود صاحبه ، لم يتغير عليه ، ولم يتصل بسواه ، فلما ابتسم الحظ مرة أخرى للملك الصالح ، وخرج من معتقله ، وصعد إلى عرش مصر ، صحبه البهاء زهير ، وكان ذلك فى أواخر ذى القعدة ، سنة سبع وثلاثين وستمائة ، واشتدت صلة الشاعر بمليكه ، وتمكن منه غاية التمكن ، وزاد قدره لديه ، حتى لا يطلع على سره الخفى سواه ، واتخذه كاتب سره ، ورسوله فى كبار المهام ، فقد سيره رسولا إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، يطلب منه إنفاذ الملك الصالح إسماعيل إليه ، فلم يجب إلى ذلك ، وقد عظم هذا الرد على الصالح أيوب .

وظل بهاء الدين فى خدمة الملك الصالح . حتى كان المحرم سنة ٦٤٧ﻫ ، وقد أقبلت جحافل الصليبيين تبغى الاستيلاء على مصر ، وأخذها ، فسار السلطان من دمشق محمولا فى محفة ، حتى نزل بأشموم طناح ، معدا العدة للدفاع عن دمياط ، فلما وردت جيوش العدو فى صفر أرسل ملكهم إلى السلطان كتابا كله تهديد ووعيد ، يقول فيه : « أما بعد فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية .

وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، وتقتل الرجال وترمل النساء ، ونستأثر بالبنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار ، وأنا قد أبديت لك الكفاية ، وبذلت لك النصيحة إلى الغاية

والنهاية ، فلو حلفت لى بكل الأيمان ، وأدخلت على القسس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، لكنت واصلا إليك ، وقاتلك فى أعز البقاع عليك ، فإما أن تكون البلاد لى، فياهدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلاد لك ، والغلبة على ، فيدك اليمنى ممتدة إلى ، وقد عرفتك وعرفت ماقلت لك ، وحذرتك من عساكر ، حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء » .

فلما قرىء الكتاب على الملك الصالح ، وكان المرض قد اشتد به ، عظم وقعه عليه ، وكتب البهاء جواب رسالة الملك ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين أما بعد فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك، وعدد أبطالك ، ونحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولا بد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسىء الظنون ، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) ، فإذا قرأت كتابى هذا فتكون منه على أول سورة النحل : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » ، وتكون أيضا على آخر سورة ص : «ولتعلمن نبأه بعد حين » ، ونعود إلى قوله تعالى ، وهو أصدق القائلين : « وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين » ، وقول الحكماء : « إن الباغى له مصرع ، وبغيك يصرعك ، وإلى البلاء يسلمك . والسلام » . وتلك الرسالة هى الأثر النثرى الوحيد الذى بقى لنا من آثار البهاء كاتبا .

وبرغم هذه الصلة الوثيقة الطويلة ، وما كان للبهاء من مكانة قوية لدى صاحبه ، تغير الملك الصالح عليه ، قبل موته فى شعبان من تلك السنة ، بمديدة يسيرة . وسبب هذا التغير أنه كتب عن الملك الصالح كتابا إلى الملك الناصر داود ، صاحب الكرك ، وأدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلم عليه على العادة ، فلما وقف عليه الملك الصالح كتب بخطه بين الأسطر : « انت تعرف قلة عقل ابن عمى ، وأنه يحب من يعظمه ويعطيه من يده ، فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه » . وأرسل الكتاب إلى البهاء زهير ، فأعطى الكتاب لفخر الدين ابراهيم ابن لقمان ، وأمره بختمه ، فختمه وجهزه إلى الناصر على يد نجاب ، ولم يتأمله ، فسافر به

النجاب لوقته، واستبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه، ليعلم عليه، ثم سأل عنه بهاء الدين زهيرا بعد ذلك، وقال له: ما وقفت على ماكتبته بخطى بين الأسطر؟ فقال البهاء زهير: ومن يجسر أن يقف على ماكتبه السلطان بخطه إلى ابن عمه؟ وأخبره أنه سير الكتاب مع النجاب فقامت قيامة السلطان وسيروا فى طلب النجاب، فلم يدركوه، ووصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك، فعظم عليه، وتألم له، ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح وهو يعتب فيه العتب المؤلم، ويقول له فيه: «والله ما بى ما يصدر منك فى حق، وإنما بى اطلاع كتابك على مثل هذا»؛ فعز ذلك على الملك الصالح، وغضب على بهاء الدين زهير، وبهاء الدين لكثرة مروءته نسب ذلك إلى نفسه، ولم ينسبه لكاتب الكتاب، وهو فخر الدين ابن لقمان، وكان الملك الصالح شديد الغضب والمؤاخذة على الذنب الصغير، لا يقيل عثرة، ولا يقبل معذرة، ولعل ذلك هو السبب الذى جعل ديوان البهاء زهير يخلو من رثاء الملك الصالح بعد وفاته، وبرغم صرفه عن ديوان الإنشاء كان كبار الدولة يعدونه من بين رجالاتها، الذين يعتمد عليهم، ويوثق بهم، فكان أحد اثنين طلب منهما نائب السلطنة بالقاهرة أن يحلفا الأعيان على الولاء للملك الصالح فى حياته، ولابنه توران شاه بعد وفاته، وكان ذلك بتدبير شجرة الدر، التى خافت على عقد الملك أن يتبدد بعد وفاة الصالح، فأخفت موته على ما هو مشهور فى التاريخ.

ولما قام الأمير فخر الدين بتدبير المملكة بعد وفاة الملك الصالح، سنة ٦٤٧ هـ، أعاد البهاء زهيراً إلى منصبه، ولكن الأحداث السياسية أخذت تجرى فى سرعة، يغلب على الظن أن البهاء أقصى فيها عن عمله مرة أخرى، فمضى الى الشام حيث اتصل بصاحبه الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين، ويظهر أن أولى قصائده فيه هى تلك التى أنشأها لما ملك الناصر دمشق سنة ٦٤٨ هـ، ومطلعها:

لكم منى الود الذى ليس يبرح ولى فيكم الشوق الشديد المبرح

وأطال البهاء زهير فى الحديث عن كرم الممدوح وجوده، وأخذ يفضله حيناً على السحب، وحيناً على من جعلهم التاريخ مثلا فى الكرم، ككعب، وحاتم، وربما كان فى قول زهير:

ولكن سلطانى أقل عبيـده ... يتيه على كسرى الملوك ، ويبجح
وبعض عطاياه المدائن والقرى ... فمن ذا الذى فى ذلك البحر يسبح

كما كان قول المتنبي من قبله فى هذا المعنى بكافور – فيه إغراء الممدوح بأن يمنحه ولاية، أو ينصبه على إمارة . ويبدو زهير مؤملا شديد التفاؤل فى هذا العهد الجديد الذى يستقبله، كما يبدو فيها أيضاً أنه قد قاسى صعاباً فى حياته وأن مشقات وخطوباً قد اعترضته فى تلك الفترة الوجيزة ، قبل أن يتصل بممدوحه الجديد ، ترى ذلك فى قوله :

عرضت على خير الملوك بضاعتى ... فألفيت سوقاً صفقتى فيه تربح
وقـد وثقت نفسى بأنى عنده ... سأزداد عـزاً ما بقيت وأفلح
وأن خطوباً أشتكيها ستنجلى ... وأن أمـوراً أبتغيها ستنجح
وأن صلاح الدين ذا المجد والعلا ... لما أفسدت منى الحوادث يصلح

وأخذ الشاعر يغرى الناصر بأن يقربه منه معتذراً اليه ، وربما كان مبعث هذا الاعتذار سبق اتصاله بالصالح أيوب ، فإن الصلة بين الملكين لم تكن صافية من الشوائب ، وكان من أهم وسائل إغرائه مامنحه البهاء من قدرة على إجادة بليغ القول ، قال البهاء :

أمـولاى سامحنى ، فإنك لم تزل ... تسامح بالذنب العظيم وتسمح
لى العذر ، ما للقول نحوك مرتقى ... مقامك أعلى من مقامى وأرجح
أتتك ، وإن كانت كثيراً تأخرت ... فإنك تعفو عن كثير وتصفح
وهب لى أنيساً منك يذهب وحشتى ... ويبسط قلباً ذا انقباض ، ويشرح
وجد لى بالقرب الذى قد عهدته ... وأرضى ببعض منه إن كنت أصلح
وإنى لديك اليوم فى ألف نعمة ... ولكن عسى ذكرى ببالك يسنح
وقـد يحسن الناس الكلام وإنما ... كلامى هـو الدر المنق المنقح

وفى ديوان البهاء قصيدة مدح أخرى للملك الناصر ، يشكر فيها نعمه وأياديه، إذ يقول :

ثم التفت وجدت حولى أنعما　　ما كان أسرعها إلى وأعجلا
وهصرت أغصان المطالب ميساً　　ومريت أخلاف المواهب حفلا

ولكن برغم هذا الثناء على الناصر بالجود أرجح أنه لم ينل عند هذا الممدوح ما كان يؤمله من حياة رغدة سعيدة، بل رأيناه يتحدث عن شظف العيش، والهوان، ويشكو اليه الفقر، ويطلب منه أن يعينه على حوادث الأيام، مصوراً له ما فيه أسرته من البؤس والهوان، إذ يقول مؤكداً له ولاءه بأغلظ الأيمان:

ووالله، إنى فى ولائك مخلص　　ووالله ما أحتاج أنى أحلف
أجلك أن أنهى إليك شكيتى　　فها أنا فيها مقدم متوقف
ولولا أمور ليس يحسن ذكرها　　لكنت عن الشكوى أصد، وأصرف
تبشرنى الآمال منك بنظرة　　ترق لى الدنيا بها، وتزخرف
اذا كنت فالمال أهون ذاهب　　يعوضه الإحسان منك، ويخلف
ولا أبتغى إلا اقامة حرمتى　　ولست لشيء غيرها أتأسف
ونفسى بحمد الله نفس أبية　　فها هى لاتهفو، ولا تتلهف
ولكن أطفالا صغاراً ونسوة　　ولا أحد غيرى بهم يتلطف
أغار اذا هب النسيم عليهم　　وقلبى لهم من رحمة يترجف
سرورى أن يبدو عليهم تنعم　　وحزنى أن يبدو عليهم تقشف
ذخرت لهم لطف الإله ويوسفا　　ووالله لاضاعوا، ويوسف يوسف
لكلفت شعرى حين أشكو مشقة　　كأنى أدعوه لما ليس يألف
شكوت وما الشكوى اليك مذلة　　وان كنت منها دائما أتأنف
إليك صلاح الدين أنهيت قصتى　　ورأيك يا مولاى أعلى وأشرف

ويظهر أنه آثر أن ينقطع فى داره بالقاهرة بعدئذ، ويروى بعض مؤرخيه أن البؤس قد ألم به فى آخر عمره، حتى باع كتبه، وما يملك، ولعل أسرته الكبيرة ساعدت على افتقاره وعدمه، ولم يرو ابن خلكان الذى كان معاصراً له قصة هذا البؤس، وهو يروى تاريخ حياته.

وفى وباء عظيم حدث بمصر ، توفى البهاء زهير ، يوم الأحد ، رابع ذى القعدة ، سنة ست وخمسين وستمائة هجرية .

ويكاد مؤرخوه يجمعون على ما كان يتمتع به البهاء : من خلق كريم ، ونبل مروءة ، قال ابن خلكان : « كنت أود لو اجتمعت به ، لما كانت أسمع عنه ، فلما وصل اجتمعت به ، ورأيته فوق ما سمعت عنه : من مكارم الأخلاق ، وكثرة الرياضة ، ودماثة السجايا ، وكان متمكنا من صاحبه ، كبير القدر عنده . . . ومع هذا كله فإنه كان لا يتوسط عنده إلا بالخير ، ونفع خلقا كثيرا ، بحسن وساطته ، وجميل سفارته » فلا جرم كان ممدوحاً يثنى عليه صحبه ، ومن اتصل بهم ، ويمدحونه بشعرهم ، مدحه ابن الحلاوى بقصيدة طويلة ، كان من جملتها قوله :

تجيزها ، وتجيـز المادحين بهـا   فقل لنا : أزهير أنت أم هرم

وكتب إليه ابن مطروح يقول له :

أقـول وقد تتابع منك بـر   وجود ، ما برحت لكل خـير :
ألا لا تذكروا هرما بجـود   فما هرم بأكرم من زهـير

وقد ألقى الشاعر على شعره ظلا من أخلاقه ، فرأيناه يبتهج إذا أدى عملا لبعض صحبه ، ويقول له :

وما زلت مذ وافى كتابك واقفـا   على قـدم حتى قضيت مراسمك
ويا شرفى ، إن كنت أهلا لحاجة   تشير بها ، أو كنت أصلح خادمك

ورأيناه يؤكد عنايته بما يوكل إليه من أمور راجيه ، واهتمامه بأن ينفذ بالفعل ما وعد به إذ يقول :

كذلك تلقـانى إذا ما اختبرتنى   يسر حفاظى صاحبى وقريـنى
إذا قلت قولا كنت للقول فاعلا   وكان حيـائى كافلى وضميـنى
تبشر عنى بالوفاء بشاشـتى   وينطق نور الصدق فوق جبينى

ويقول :

ويارب داع قـد دعانى لحـاجـة   فعلت له فوق الذى كان أمـلا

صقلت صداه باهتمامى بكلفة ... أراد ، ولم أحوجه أن يتمهلا
وأوسعته لما أتانى بشاشة ... ولطفاً ، وترحيباً ، وخلقاً ، ومنزلا
بسطت له وجها حفيا ، ومنطقا ... وفيا ، ومعروفا هنيا معجلا
وراح يرانى منعما متفضلا ... ورحت أراه المنعم المتفضلا

وينضح شعره بأنه كان ألوفا ، يحب الناس ، ويكلف نفسه لين الجانب ، ومراعاة ما اعتاده الناس وما ألفوه ، لا يشذ عنه ، ولا يخرج على قواعده :

وللناس عادات ، وقد أولفوا بها ... لها سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم ... فذاك ثقيل بينهم وبغيض

ولهذا كان البهاء يكره أن يكون ثقيلا ، يخرج على مألوف الناس ، ويثقل على صاحبه :

والله لولا خيفة التثقيل ... زرتك فى الضحا وفى الأصيل
وبين ذاك ساعة المقيل ... وكنت قد ضجرت من تطفيلى
لكن أرى التخفيف عن خليلى ... ولست فى العشرة بالثقيل

ولهذا أيضاً كثر فى شعره هجاء الثقلاء ، وهذه الكثرة فى هجائهم تدل على إحساس مرهف وشعور دقيق بأصول اللياقة ، وجميل العشرة ، يبغض فى الثقيل جهله معنى ما يقول ، وفضول كلامه ، وتفاهة معناه ، فلا غرابة إذا قال فيه :

وجملة الأمر ولا أطيل ... هو الرصاص : بارد ، ثقيل

ويكره من الثقيل إطالته للعيادة ، وغباوته حين لا يفهم بالإشارة ، ولا الصراحة . أنه غير مرغوب فى بقائه ، فيراه جالباً لثقل المريض ، ويجأر بالشكوى منه قائلا :

وعائد هو سقم ... لكل جسم صحيح
لا بالإشارة يدرى ... ولا الكلام الصريح
وليس يخرج حتى ... تكاد تخرج روحى

ويشتد فى طلب البعد عن الثقيل والدعاء عليه ، فيقول :

بحق الله متغنى من وجهك بالبعد
فما أشوقنى منك إلى الهجران والصد
فما تصلح للهزل ولا تصلح للجد
وماذا فيك من ثقل وماذا فيك من برد
فلا صبحت بالخير ولا مسيت بالسعد

وإلى جانب حبه لأن يكون مع الناس خفيف الظل، رقيق المعاملة، كان يحب الأنس بأصدقائه، ومشاركتهم له، فيما يناله من متع الحياة، ولهذا أكثر فى شعره دعوة أصدقائه إلى مجلس تزهو فيه الطبيعة بجمالها، أو إلى أن يشاركوه لذة السماع، أو الشراب، أو الطعام، ومن أرق هذه الدعوات أو أشدها دلالة قوله :

يومنا يوم مطير ولنا كأس يدور
ومقام تحسب الأر ض بنا فيه تسير
أخذت منا عقار أخذت منها الدهور
لطفت بالدن حتى قيل : سر وضمير
فنيت إلا يسير كلها ذاك اليسير
وهى فى الأجساد نار وهى فى الكاسات نور
ومن الريحان والأزهار غض ونضير
وندامى بهم العيش كما قيل قصير
وسقاة مثل ما تهوى شموس وبدور
ومغن هو فيما يحسب الناس أمير
ماله فيما يدانيه من الظرف نظير
وهو إن شئت غنى وهو إن شئت فقير
وإذا غنى تموج الأر ض منه وتمور
ويغيب القوم فى المجلس والقوم حضور
ولنا طاه لطيف وظريف وخبير
وقدور هدرت، فهى على الجمر تفور

مجلس إن زرتنا فيـ ـه ، وقد تم السرور
كل ما تطلبه فيـ ـه ، مليح وكثير

ومن أكبر الأصدقاء الذين اتصل بهم البهاء الشاعر المعروف ابن مطروح ، نشأت الصداقة بينهما عند ما كانا يدرسان العلم فى قوص ، وقد توطدت بينهما هذه الصحبة حتى صارا كالأخوين ، ليس بينهما فرق فى أمور الدنيا ، واتصلا بخدمة الملك الصالح ، وهما على تلك المودة ، ولم يكن الصالح قد تولى الملك يوم اتصلا به ، واستمرا فى خدمته ، بعد أن تولى الملك ، وحفظ شعرهما صورة لهذا الود المكين ، كتب إليه جمال الدين بن مطروح كتابا ، يذكر له فيه أنه مريض ، فكتب إليه البهاء :

أيا من جاءنى منه كتاب يشتكى الوصبا
بعيد عنك ما تشكو وبالواشين والرقبا
لقد ضاعفت يا روحى لروحى الهم والنصبا
وقلت : لعله ألم يكون له الهوى سببا
ورحت أظنه قولا يعابثنى به لعبا
فليت الله يجعله وحاشا سيدى — كذبا

فأجابه ابن مطروح بقوله :

أيا من راح عن حالى يسائل مشفقا حدبا
ومن أضحى أخا لى فى الـ ـوداد وفى الحنو أبا
وحقك لو نظرت إلى كنت تشاهد العجبا
جفون تشتكى غرقا وقلب يشتكى لهبا
وجسم جالت الأسقام فيه ، فراح منتهبا
تسائل أعين الواشين عنى أعين الرقبا
فتذكر أنها لمحت خيالا فى خلال هبا
فبالود الذى أمسى وأصبح بيننا نسبا
إذا ما مت فاندبنى فرب أخ أخا ندبا

وقل : مات الغريب ، فأين من يبكى على الغربا
قضى أسفا كما شاء الـغرام وما قضى أربـا

ويصوره لنا شعره وادا لأصدقائه ، وفيا لهم ، يشتاق إليهم إذا بعدوا عنه ، ويفرح بكتبهم إذا وردت إليه ، إننا لنلمس فى زوايا قلبه حنينا إلى ما سكن فيه من بلاد ، وما أقام فيه من أوطان . وقد أشاد البهاء بهذا الخلق فى قوله :

ومن خلقى أنى ألوف ، وأنـه يطول التفاتى للذين أفارق
وأقسم مافارقت فى الأرض منزلا ويذكر إلا والدموع سوابق

فهو يشتاق إلى المكان وسكانه ويطول التفاته إليهما ، إذا غاب عنهما وقد رأيناه فيما مضى يشتاق إلى الحجاز ، وها هوذا يحي عهده بالصعيد ، ويستروح إلى ذكرياته فيه ، إذ يقول :

ويرتاح قلبي للصعيد وأهلـه وعيش مضى لى عندكم ومقام
وأهوى ورود النيـل من أجل أنه يمـر على قوم على كرام

أما حنينه عنه إلى مصر إذا غاب عنها ، وشوقه إليها وإلى اصدقائه فيها ، فقد عبر عنه بشعر رقيق تبدو عليه مسحة الصدق ، وتلمح فيه صدق العاطفة وقوة حياتها ، فتسمعه يقول :

فرعى الله عهد مصر ، وحيـا ما مضى لى بمصر من أوقات
حبذا النيل والمـراكب فيه مصعـدات بنا ومنحدرات
هات زدنى من الحديث عن النيـل ودعنى من دجلة والفرات
وليالى بالجـزيرة ، والجـيزة ، فيما اشتهيت من لـذات
بين روض حكى زهور الطواويـس وجو حكى بطون البزاة
حيث مجرى الخليج كالحيـة الرقطـاء بين الرياض والجنـات
يازمـانى الذى مضى يازمانى لك منى تواتر الزفرات

ويقول :

ولم أر مصرا مثل مصر تروقنى ولا مثل مافيها من العيش والخفض

ويقول :

سقى واديا بين العريش وبرقة من الغيث هطال الشآبيب هتان
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى هنالك أوطانا إذا قيل أوطان
بلاد إذا ماجئتها جئت جنة لعينك منها كلما شئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فياساكنى مصر تراكم علمتم بأنى مالى عنكم الدهر سلوان
وما فى فؤادى موضع لسواكم ومن أين فيه ، وهو بالشوق ملآن
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا فتهدأ أحشاء ، وترقأ أجفان
على بذاك اليوم صوم نذرته وعندى على رأى التصوف شكران

ويقول :

حبذا دار على النيـــل وكاسات تدور
ومسرات تموج الأر ض منها وتمور
وقصــور مالعيـــش نلته فيها قصور
كم بها قد مرلى أستغـــفـــر الله سرور
كل عيش غير ذاك الـــعيش فى العـــالم زور
منزل ليس على الأر ض لـه عندى نظير

والحق أن هتاف البهاء زهير بوطنه وأصدقائه يرجح ما وصفناه به من الوفاء والود ، للوطن والصديق .

شعر البهاء عليه مسحة من التفاؤل ، فهو قليل الغضب على الحياة والدهر ، يستقبل صروف الأيام استقبال الواثق من انقضائها ، بل يرى أن نعم الحياة أكثر من شدائدها :

لا تعتب الدهر فى خطب رماك به إن استرد فقدماً طالما وهبا
حاسب زمانك فى حالى تصرفه تجده أعطاك أضعاف الذى سلبا
والله قد جعل الأيام دائرة فلا ترى راحة تبقى ولا تعبا

ورأس مالك ، وهى الروح قد سلمت لا تأسفن لشىء بعدها ذهبا
ما كنت أول مفدوح بحادثة كذا مضى الدهر ، لابدعا ولاعجبا
ورب مال نما من بعد مرزئة أما ترى الشمع بعد القط ملتهبا

ويقول :

أيها الحامل هماً إن هذا لا يدوم
مثل ما تفنى المسـ ـرات كذا تفنى الهموم
إن قسا الدهر فإن الله بالنـاس رحيم
أو ترى الخطب عظيما فلك الأجر العظيم

بل إنك تراه ، وهو ثائر على حظه ، ناقم على نصيبه ، متفائلا مؤمنا بأن سوف ينال آماله ، مادامت له همة عالية ، ونفس طموح ، نحس بذلك فى قوله :

إلى كم مقامى فى بلاد معاشر تساوى بها آسادها وكلابها
وقلدتها الدر الثمين وإنه لعمرك شىء أنكرته رقابها
وماضاقت الدنيا على ذى مروءة ولا هو مسدود عليه رحابها
فقد بشرتنى بالسعادة همتى وجاء من العلياء نحوى كتابها

ولهذا قلت الشكوى فى شعر البهاء ، ورآها البهاء غريبة عليه ، وعلى شعره حين اضطر إليها ، ودفعته إلى قولها قسوة الزمان ، كما سبق أن رأيناه عندما شكا حاله إلى الناصر يوسف.

والواقع أن شعر البهاء يصوره لنا مبتسما للحياة ، مغتبطا بها ، بل يرسمه لنا رجلا مثله الأعلى أن يظفر من الحياة بأوفى نصيب من المتع واللذائذ ، فلم يكن البهاء من المتزمتين ، ولا من أولئك الذين يذهبون مذهب التقشف والزهد . أما مذهبه فقد أفصح عنه فى قوله :

وعاذلة باتت تلوم على الهوى وبالنسك فى شرخ الشباب تشير
أتتنى وقالت : يازهير ، أصبوة وانت حقيق بالعفاف جدير
فقلت : دعينى ، أغتنمها مرة فما كل وقت يستقيم سرور
دعينى واللذات فى زمن الصبا فإن لامنى الأقوام قيل : صغير
وعيشك ، هذا وقت لهوى وصبوتى ، وغصنى ، كما قد تعلمين ، نضير

يوله عقلى قامة ورشاقة ... ويخلب قلبى أعين وثغور

ولهذا كثر فى شعره وصف مجالس المتعة ، ودعوة صحبه إلى مشاركته فى هذه المجالس ، ومن تلك المجالس الحبيبة إليه والتى وصفها ذلك المجلس الذى يقول فيه :

خذ فارغا ، وهاته ملآنا ... من قهوة قد عتقت أزمانا
ذخيرة الراهب ،كى يجعلها ... إذا أتت أعياده قربانا
مدامة ما ذكرت أوصافها ... إلا انثنى سامعها سكرانا
تكاد من لألائها إذا بدت ... تهدى إلى مكانها العميانا
كالنار، إلا أنها ما أوقدت ... فى الكأس إلا أطفأت نيرانا
ما الملك الأعظم فى سلطانه ... إلا الذى أضحى بها سلطانا
كم رفعت متضعا ، وكرمت ... مبخلا ، وشجعت جبانا
بت أعاطيها فتاة جمعت ... لعاشقيها الحسن والاجسانا
مخضوبة البنان فى يمينها ... كأس مدام تخضب البنانا
ولى نديم ماجد ما أرتضى ... عنه بديلا كائناً من كانا
حلو الأحاديث ، وإن غناك لم ... تجده فى ألحانه لحانا
لايعرف الهم فتى يعرفه ... ولا ترى نديمه ندمانا

وربما أعنى رمضان من هذه المجالس المليئة بأنواع اللذائذ من خمر وساق وغناء :

وإن عشنا لشوال ... أعدنا ذلك العهدا

وكان البهاء فى مذهبه هذا يعتمد على أن يجد فى عفو الله ما يستر خطيئته، ويغفر ذنبه :

أروح ولى فى نشوة الحب هزة ... ولست أبالى أن يقال : طروب
محب ، خليع ، عاشق ، متهتك ... يلذ لقلبى كل ذا ، ويطيب
خلعت عذارى بل ، لبست خلاعتى ... وصرحت ، حتى لايقال : مريب
وفى لى من أهوى ، وأنعم بالرضا ... يموت بغيظ عاذل ورقيب
فلا عيش إلا أن تدور مدامة ... ولا أنس إلا أن يزور حبيب

وإنى ليدعونى الهوى فأجيبه ... وإنى ليثنينى التقى فأنيب
رجوت كريما قد وثقت بصنعه ... وما كان من يرجو الكريم يخيب
فيا من يحب العفو ، إنى مذنب ... ولا عفو إلا أن تكون ذنوب

ولحبه للمتعة ولذائذ الحياة ، رأيناه يصف الأماكن الطبيعية لهذه الجلسات السارة الممتعة .

ولم يكن هذا المذهب بجاعل البهاء يستسلم للمتعة ، لا يفكر فى غيرها من شئون الحياة ، بل كان الطموح يملأ نفسه ، والهمة العالية تدفعه إلى أن يتقن عمله ، كاتبا وشاعرا ، حتى يصل إلى أسمى مناصب الدولة . وقد استطاع أن يصل إليها بجده ، وعمله ، فقد بلغ رتبة تنافس الوزارة فى جاهها ، أو تزيد عليها ، وهى رياسته لديوان الانشاء .

ومن الغريب أنه لم يبق لنا مما كتبه فى ذلك العهد سوى هذه الرسالة التى كتبها ، ردا على رسالة ملك فرنسا ، عندما هاجم دمياط ، وقد أوردناها فيما مضى ، وإذا اتخذنا هذه الرسالة نموذجا لكتابته رأينا البهاء يميل فى نثره ، كما كان يميل فى شعره ، إلى الوضوح ، والسهولة ، وإلى ترك قلمه يجرى على سجيته ، لا يخضعه لمحسن لفظى ، ولا إلى زينة بديعية ، وإذا كان السجع قد جرى على لسانه فإنه لم يكن مغتصبا قسرا ، كما نرى فيها اقتباسا من القرآن ، وكان البهاء كذلك يقتبس منه فى شعره .

وشعر البهاء قد تناول ما تناوله شعراء العربية من فنون الشعر : كالمديح ، والرثاء ، والهجاء ، والعتاب ، والغزل ، والوصف ، والخمريات ، والفخر .

وقد تحدثنا عن أهم الشخصيات التى مدحها البهاء ، وهو فى مدحه ينهج نهج سلفه من الشعراء ، فى معانيهم ، وأساليبهم ، فيختار ما سبقه الشعراء إليه : من مدح بالكرم ، والشجاعة ، وأصالة الرأى ، وشرف الحسب ، واضعا ذلك فى أساليب الشعر لعصور العربية الراقية ، مستخدما ما استطاع من الزخارف ، والمحسنات ، وقد أتينا بأمثلة لذلك فيما مضى ، ونورد هنا قوله مادحا :

صفحا لهذا الدهر عن هفواته ... إذ كان هذا اليوم من حسناته
يوم يسطر فى الكتاب مكانه ... كمكان باسم الله فى ختماته

يامعجز الأيام قرع صفاته ومجمل الدنيا بحسن صفاته
قوم هم فى البيد خير سراتها حسبا ، وهم فى الدهر خير سراته
شرف الزمان بكل ندب منهم متيقظ وهب العلا غفلاته
يامنسك المعروف ، أحرم منطق زمنا ، وقد لباك من ميقاته
هذا زهيرك ، لا زهير مزينة وافاك ، لا هرما على علاته
دعه وحولياته ، ثم استمع لزهير عصرك حسن ليلياته
لو أنشدت فى آل جفنة أضربوا عن ذكر حسان وعن جفناته

ويبدأ مدحه كسابقيه بالغزل حينا ، وبدون تمهيد بغزل حينا آخر .

أما رثاؤه فقليل ، وهو حينا دمعة يذرفها على قبر عزيز ، واراه التراب وخلفه وحده ، إذ يقول :

أمسيت فى قعر لحـــد ورحت منـــك بوحدى
وعشت بعدك يامـــن وددت لو عشت بعـــدى

وحينا رثاء لعزيز عليه ، أثير لديه ، وهو حينئذ يضفى على الرثاء روح الغزل ، فتجده أشبه ما يكون بشكوى الهجر ، وألم البعد ، فهو غزل باك ، كقوله :

أراك هجرتنى هجرا طويـــلا وما عودتنى من قبـــل ذاكا
عهدتك لاتطيق الصبر عنى وتعصى فى ودادى من نهاكا
فكيف تغيرت تلك السجايا ومن هذا الذى عنى ثنـــاكا
فلا والله ما حاولت غدرا فكل الناس يغدر ما خـــلاكا
وما فارقتنى طوعا ، ولكـــن دهاك من المنية مادهـــاكا
فيـــا من غاب عنى وهو روحى وكيف أطيق من روحى انفكاكا
لقد حكمت بفرقتنا الليالـــى ولم يك عن رضاى ولا رضاكا

على أن له رثاء نهج فيه نهج السالفين ، فى المعانى ، والأساليب ، كهذه القصيدة التى رثى بها صديقه والى الإسكندرية التى بدأها بقوله :

عليك سلام الله ، يا قبر عثمان . وحياك عنى كل روح وريحان
ومازال منهلا على تربك الحيا يغاديك منه كل أوطف هتان
لقد خنته فى الود إذ عشت بعده وما كنت فى ود الصديق بخوان
وعهدى بصبرى فى الخطوب يطيعنى فمالى أراه اليوم أظهر عصيانى
فيا ثاويا قد طيب الله ذكره فأضحى وطيب الذكر عمر له ثانى
وجدت الذى أسلاك عنى وإنه وحقك ما حدثت نفسى بسلوان
وعوضت عن دار بأكناف جنة وعوضت عن أهل بحور وولدان

ومما يسترعى النظر فى هذه القصيدة أنه جعل ابتسام المرثى فضيلة تذكر له بالثناء بعد وفاته ، مما يدل على أن البهاء كان يقدر هذه الصفة حق قدرها ، ومما يؤكد لنا ما وصفنا به البهاء من أنه رجل يبتسم للحياة ويتفاءل أنه قال فى تلك القصيدة :

كريم المحيا ، باسم ، متهلل متى جئته لم تلقه غير جذلان

بل إن صفة الابتسام ، والنظرة الفرحة إلى الحياة ، هى التى جعلت البهاء قليل الرثاء ، بل جعلته يستسلم إلى القدر ، واجدا فى ذلك طبيعة الحياة التى لا يجدى معها حزن ، ولا ينفع بكاء :

كذلك مازال الزمان وأهله فمن قبلنا كم قد تفرق إلفان
وما الناس إلا راحل بعد راحل إلى العالم الباقى من العالم الفانى

أما هجاء البهاء ، فمع قصره أحيانا ، من أرق ألوان شعره وكان لاستعماله اللغة الدارجة بعد تعريبها ، واتجاهه التهكمى ، أثر فى هذه الرقة المؤثرة فى النفس ، ومن أكبر الصفات التى كانت تثير البهاء إلى الهجاء ما يشعر به فى بعض الناس من ثقل ، وقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ، ومن ضعف عقل يتهكم بصاحبه قائلا :

ما العقـــل إلا زينة سبحان من أخلاك منه
قسمت على الناس العقو ل وكان أمرا غبـــت عنه

ويهجو متهكما بطائفة أخرى ، بلى بها ، بعضها منافق ، والبعض غبى مدع ، فيقول :

أرى قوما بليت بهـم نصيبي منهـم نصبي
فمنهم من ينافقـنى فيحلف لى ويكذب بى
ويلزمنى بتصديق الـذى قد قال من كذب
وذو عجب إذا حدثـت عنه جئت بالعجـب
وما يدرى بحمـد الله ماشعبان من رجب
وما أبصرت أحمق منـه فى عجم ولا عرب
وأحمق قد شجيت به بلا عقل ولا أدب
فلا ينفك يتبعـنى وإن أمعنت فى الهرب
كأنى قد قتلت لـه قتيلا وهو فى طلبى

وأثارته لحية على رجل أحمق ، فمضى يصفها متهكما بها وبصاحبها ، إذ قال :

وأحمق ذى لحية كبيرة منتشـرة
طلبت فيها وجهه بشدة ، فلم أره
ثور غدا أعجوبة بلحيـة مدورة
تبا لها من لحية كبيرة محتقـرة
عظيـمة لكنها ليسـت تساوى بعره
كم قرية للنمل فى حافاتهـا ومقبرة
يقسم عشر عشرها يكفى رجالا عشـره
يحسدها الخنزير إن أبصرهـا منتشرة
ويشتهى لو أنـه يملك منها شعره
قد نبتت فى وجهه فوق عظام نخـرة
باردة ثقيلة مظلمـة منكـدرة
ما كان قط ربها من الكرام البررة
قد تركت حاملها منها بحال منكـرة
إذا خطت أقدامـه كانت بهـا معثـرة
وإن مشى رأيت فـوق الأرض منها غـبره

مضحكة ما كان قط مثلهـــــا لمسخرة

وغاظه تصابى امرأة أدبر عنها الشباب ، فقال يهجوها :

كم ذا التصاغر والتصـــابى غالطت نفسك فى الحساب
لم يبق فيـــك بقية إلا التعلل بالخضاب
لا أقتضيك مـــودة رفع الخراج عن الخراب
ما العيش إلا فى الشباب وفى معاشرة الشباب
ولقد رأيتك فى النقـــا ب وذاك عنوان الكتاب
وسألت عما تحتـه قالوا : عظام فى جراب
وسمعت عنك فضائحا سارت بها أيدى الركاب
هذا وكم من وقفـــة لك فى الأزقة للعتـــاب
واليوم قالوا : حرة ست الحرائر فى الحجاب
وأردت أنطق بالجوا ب فلم يكن وقت الجواب
يا هذه ذهب الصبا فإلى متى هذا التصابى
ما هذه شيم الحـــرا ئر لا ولا شيم القحاب
فإذا عددتك فى الـــكلا ب حططت من قدر الكلاب !

وكان أكثر عتاب البهاء غزلا سوف نتحدث عنه ، وله فضلا عن ذلك عتاب قليل لأصدقائه ، وحينئذ يرتفع بأسلوبه إلى مستوى أساليب الشعر القوية الرصينة ، كهذه القصيدة التى كتبها إلى قاضى داريا ، يشكو إليه سوء بعض غلمانه ، وفيها يقول :

فمالى ألقى دون بابك جفوة لغيرك تعزى ، لا إليك ، وتنسب
أرد برد الباب ، إن جئت زائرا فياليت شعرى أين أهل ومرحب

أما غزل البهاء فأكثر شعره ، وبه شهر ، وهو الذى كان أكثر شيوعا على ألسنة الناس ، وقد اقتدى فى منهجه الذى سلكه بشعر الحاجرى والتلعفرى ، فقد نهجا من قبله هذا النهج ، ومما يدلنا على ذلك ، ويرجح عندنا إعجابه بالشاعرين ماروواه صاحب خزانة الأدب

من أن على بن سعيد الأندلسى عند ما ورد إلى مصر اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير، ورغب أن يسلك مسلكه فى الغزل، فسأله أن يرشده إلى الطريق فقال له البهاء: طالع ديوان الحاجرى، والتلعفرى، وأكثر المطالعة فيهما، وراجعنى بعد ذلك. فغاب عنه مدة وأكثر من مطالعة الديوانين إلى أن حفظ غالبهما، ثم اجتمع به بعد ذلك، وتذاكرا فى الغراميات، فأنشده الصاحب بهاء الدين زهير فى غضون المحاضرة: يابان وادى الأجرع. وقال: أشتهى أن تكمل لى هذا المطلع ففكر قليلا وقال: سقيت غيث الأدمع، فقال: والله حسن، لكن الأقرب إلى الطريق الغرامى أن تقول: هل ملت من طرب معى (١)

آثر البهاء فى غزله أن يستخدم لغة البيت والشارع، بعد أن جعلها خاضعة لقواعد النحو، ورأى ذلك أسهل طريق للتعبير به عن عواطف الحب، يصور مشاعره بها، وينقل هذه المشاعر إلى الحبيب الحقيق أو المتخيل، ليستطيع الحبيب فى يسر أن يدرك قرارة قلبه.

وألم البهاء فى غزله بكثير من العواطف التى تلم بالمحب، ومن هنا كانت سيرورة شعره على الألسنة، وليس يعنينى كثيرا أن يكون البهاء قد عشق، أو لم يعشق، فلست أطالب الأديب بأن تمر التجربة الشعورية بنفسه حقيقة، بل قد يتخيل التجربة، ويصفها، وكل ما أعنى به فى الشاعر هو مقدرته على وصف التجربة الحقيقية أو المتخيلة، وصدقه الشعورى فى هذه التجربة، بمعنى أنه لا يتخيل تجربة كاذبة لا تمر بالشعور.

وقبل الحديث عن عواطف الحب التى وصفها زهير، أريد أن أشير إلى رأى البهاء فى الحب، فهو يراه فضيلة فى الإنسان، يرقق من خلقه، ويكسبه كثيرا من الآداب، كى يرتفع فى عين من يحبه ويعظم:

لحى الله قلبا بات خلوا من الهوى	وعينا على ذكر الهوى ليس تذرف
وإنى لأهوى كل من قيل: عاشق	ويزداد فى عينى جلا لا ويشرف
وما العشق فى الإنسان إلا فضيلة	تدمث من أخلاقه وتظرف

---

(١) لعل وجهة نظر البهاء أن اختيار كلمة (البان) وهو غصن قويم يضرب به المثل فى الرشاقة، وتداعبه الرياح، وتميل به، يناسب أن يذكره الشاعر مقترنا بالميلان الذى يعجب به العاشق من غصن رشيق، ولولا ذلك ما كان لاختيار (البان) فائدة، وكان الأولى أن يقال (يانبت ...) مثلا.

يعظم من يهوى ويطلب قربـــه   فتكثر آداب له وتلطـــف

بل يرى العاشق الانسان المثالى :

لام فى الحب أناس   وهو أخلاق الكرام
مارأى الناس سوى العشـــاق من كل الأنــام

ويصرح بأثر الحب فى دفع المحب إلى المجد فى قوله :

جزى الله عنى الحب خيرا فإنه   به ازداد مجدى فى الأنام وعليائى
وصير لى ذكرا جميلا ، لأننى   أحسن أفعالى لتسمع أسمائى

تحدث البهاء عن انفعالات الحب فى حالى الرضا والسخط ، والقرب والبعد ، فهو فى حال الرضا فرح بالحبيب ، طرب بزيارته ، تملؤه الغبطة بهذه الزيارة ، ويسجلها قائلا:

وزائرة زارت وقد هجم الدجى   وكنت لميعــاد لهـا مترقبا
فما راعنى إلا رخيم كلامهـا   تقول : حبيبى ، قلت : أهلاومرحبا
فقبلت أقداما لغيرى مامشت   ووجهـا مصونا عن سواى محجبـا
ولم ترعينى ليـلة مثل ليلتى   فيا سهرى فيها ، لقد كنت طيبـا
سأشكر كل الشكر إحسان محسن   تحيل ، حتى زارنى ، وتسببا
حبيب لأجلى قد تعنى ، وزارنى   وما قيمتى حتى مشى وتعذبا

ويصور منظرا سارا بينه وبين من يهوى : فقد مضى الحبيب يعدو فى رشاقة ولين ، ومضى المحب يعدو خلفه ، حتى استطاع أن يصل إليه ، وقد أثار هذا العدو عواطف راقدة ، تمنى الشاعر أن يحققها إذ قال :

لو ترانى وحبيبى عند مـــا   فر مثل الظبى من بين يـــدى
ومضى يعدو ، وأعدو خلفـه   وترانا قد طوينا الأرض طى

قال :

ما ترجع عنى ؟ قلت : لا   قال : ما تطلب منى ؟ قلت شى

فانثنى يحمر منى خجــلا وثناه التيــــه عنى لا إلى
كدت بين الناس أن ألثمه آه لو أفعل ، ما كان على ؟

فإذا رآه مرتين فى يوم سجل سعادة هذا اليوم قائلا :

إن ذا يوم سعيد بك ياقرة عينى
حيث أبصرتك فيه ياحبيبى مرتــــين

ولا يخشى الرقيب إذا كان الحبيب راضيا ، فللعيون لغة يتفاهمان بها :

أنا لا أبالى بالرقيب ولا بمنظره القبيح
غمز الحواجب بيننـا أحلى من القول الصريح

وأكثر البهاء مجيدا فى وصف رسول الحبيب ، يصف مادار بينه وبين هذا الرسول ، فيقول :

جاء الرسول مبشرى منها بميعـاد الزيارة
أهدى إلى سـلامها وأتى بخاتمها إمارة
وأشار عن بعض الحديــــــــث وحبذا تلك الإشارة
إن صح ماقال الرســـــــــول وهبته روحى بشاره

كما يصور لنا البهاء نفسه معشوقا يرد إليه رسول الحبيب ، مذكراً له بالعهد القديم ، معتذرا عن إخلاله باللقاء ، بما فى الدهر من شغل :

شغل الدهر عن لقاء حبيب هات قل لى : متى ؟ وكيف ؟ واين

وأجاد البهاء فى وصف الحيرة التى تنتاب المحب إذا أراد أن يرسل رسالة إلى حبيبه ، فلا يدرى ما يشرح من عواطفه ، وما يختصر من وصف هذه العواطف ، فيرى الكتاب عاجزا عن أن يفى بالشرح والتفسير ، فيشكو قائلا :

ما احتيالى فى كتاب ضاق عما فى ضميرى
حرت ما أعرف ما أشــــرح فيهما أمــــورى

كاد أن يحـترق القرطـاس من نـار زفـيرى
ليس يشفى ما بقلـبى منـكم غير حضـور

أما فى حال السخط فهو حينا يستعطف حبيبه، بأرق ألوان الاستعطاف، طالبا منه نسيان الماضى، واستقبال عهد جديد، كله حب ووصال، فيقول:

من اليوم تعارفنـا ونطوى ما جرى منا
ولا كان، ولا صار ولا قلتم، ولا قلنا
وإن كان ولا بـد من العتب فبالحسنى
فقد قيل لنا عنكم كما قيل لـكم عنـا
كفى ما كان من هجـر وقد ذقتم وقد ذقنا
وما أحسن أن نرجـع للوصل كما كنـا

وحينا يؤكد وفاءه واخلاصه ثم حيرته فى أمر هذا الهجر فيقول:

إلى كم ذا الدلال وذا التجنى شفيت، وحقك، الحساد منى
أردد فيك طول الليل فكرى فأبنى، ثم أهدم، ثم أبنى
لعلى قد أسأت، ولست أدرى فقل لى: ما الذى بلغت عنى
مرادى لو خبأتك يا حبيبى مكان النور من عينى وجفنى
ولى فى الحب أخـلاق كرام فسل من شئت عنى، وامتحنى
وحيث يكون فى الدنيا وفاء هنالك إن تسل عنى تجدنى

وحينا يرسل إليه رسولا يستعطفه، ويؤكد له حبه، فيقول:

اقرأ سلامى على من لا أسميه ومن بروحى من الأدواء أفديه
ومن أعرض عنه حين أذكره فان ذكرت سواه كنت أعنيه
أشر بذكرى فى وسط الحديث له إن الاشارة فى معناى تكفيه
واسأله، إن كان يرضيه ضنى جسدى فحبذا كل شىء كان يرضيه
فليت عين حبيبى فى البعاد ترى حالى وما بى من ضر أقاسيه

أحببت كل سمى فى الأنام له ... وكل من فيه معنى من معانيه
يغيب عنى ، وأفكارى تمثله ... حتى يخيل لى أنى أناجيه
يا أحسن الناس يا من لا أبوح به ... يا من تجنى وما أحلى تجنيه
قد أنعش الله عينا صرت توحشها ... وأسعد الله قلبا صرت تأويه
فيا رسولى تضرع فى السؤال له ... عساك تعطفه نحوى وتثنيه

ويؤكد له عمق حبه ونفاد صبره ، إذ يقول :

إن شكا القلب هجركم ... مهد الحب عذركم
لو علتم محلكم ... بفؤادى لسركم
لو أمرتم بما قسا ... ما تعديت أمركم
قصروا عمر ذا الجفا ... طول الله عمركم
ونسيتم وإنما ... أنا لم أنس ذكركم
وصبرتم فليتنى ... كنت أعطيت صبركم
لو وصلتم محبكم ... ما الذى كان ضركم

وحينا يثور على الحب ، ولا يرى الوفاء لهاجر أو غادر ، فيؤكد أنه سينصرف عن الحب إلى غير رجعة ، وأنه سلا هذا الغرام الذى يجلب له المهانة والذلة ، فيقول :

هو حظى قد عرفته ... لم يحل عما عهدته
فإذا قصر من أهـواه فى الود عذرته
غير أنى لى فى الحـب طريق قد سلكته
لو أراد البعد عنى نور عينى ما تبعته
إن قلبى وهو قلبى لو تجنى ما صحبته
كل شىء من حبيبى ما خلا الغدر احتملته
أنا فى الحب غيور ذاك خلق ، لا عدمته
أبصـر الموت إذا أبـصر غيرى من عشقته
قد شكرت الله فيما كان لى منكم طلبته
حين خلصت فؤادى من يديكم ، وملكته

فلو أن القرب يحيي منكم لى ما طلبته

وحينا يعز عليه أن يبدو ممن يحب دلائل الغدر ، فيثور متألما مغضبا ، ويقول :

تراكم قد بدا منكم أمور ما عهدناها
وعرضتم بأقوال وما نجهل معناها
كشفتم بيننا أشيا ء قد كنا سترناها
وطرقتم إلى الغدر طريقا ما سلكناها
وكم جاءت لنا عنكم أحاديث رددناها
وأشياء رأيناها وقلنا : ما رأيناها
قرأنا سورة السلوا ن عنكم ، بل حفظناها
فرجل تطلب السعى إليكم قد منعناها
وعين تتمنى أن تراكم قد غمضناها
ونفس كلما اشتاقت للقياكم زجرناها
وكانت بيننا طاق فها نحن سددناها
ولو أنكم جنا ت عدن ما دخلناها

ولكن يظهر لى فرق بين ثورة هذه الأبيات وثورة الأبيات الماضية ، فهو فى السابقة مصمم لا ينثنى له عزم ، فقد دفعته الغيرة إلى هذا التصميم ، بينما هو فى الثانية يمضى فى هجره إلى الأمام متلفتا إلى الخلف ، وكأنما هو يود أن تعود الأمور إلى مجاريها ، وهى تدل على الغضب أكثر من دلالتها على الثورة والسلوة .

أما إذا بعد عن الحبيب فزهير يصف الوداع ، تذرف الحبيبة عليه دموعها ، ويذرف هو دموعه ، ويقول :

جاءت تودعنى ، والدمع يغلبها يوم الرحيل وحادى البين منصلت
وأقبلت وهى من خوف، ومن دهش مثل الغزال من الأشراك تنفلت
فلم تطق خيفة الواشى تودعنى ويح الوشاة ، لقد قالوا ، وقد شمتوا
وقفت أبكى ، وراحت وهى باكية تسير عنى قليلا ، ثم تلتفت
فيا فؤادى كم وجد ، وكم حرق ويا زمانى ذا جور ، وذا عنت

ويجد فى الكتب والرسل بعض ما يخفف ألم البعاد ، ولذلك يعتب إذا انقطعت الرسل ، أو لم يجب الحبيب على كتبه ، فيقول :

ترى هل علمتم ما لقيت من الوجد لقدجل ماأخفيه منكم ، وما أبدى
فراق ، ووجد، واشتياق ، ولوعة تعددت البلوى على واحد فرد
رعى الله أياما تقضت بقربكم كأنى بها قدكنت فى جنة الخلد
وما بال كتبى لا يرد جوابها فهل أكرمت ألا تقابل بالرد
فأين حلاوات الرسائل بيننا وأين أمارات المحبة والود
وما لى ذنب يستحق عقوبة ويا ليتها كانت بشىء سوى الصد
ويا ليت عندى كل يوم رسولكم فأسكنه عينى ، وأفرشه خدى
وإنى لأرعاكم على كل حالة وحقكم أنتم أعز الورى عندى
عليكم سلام الله ، والبعد بيننا وبالرغم منى أن أسلم من بعد

ويقف على دار الحبيب ، مستعيداً ذكريات حبه ، واجداً فى آثارها ما يثير غرامه ، متمنيا عودة أيام سالفة قائلا :

سقاك صوب الحيا المدرار يا دار فكم تقضت لقلبى فيك أوطار
وحبذا فيك آثار أشاهدها من الحبيب لها فى القلب آثار
عهدت ربعك مأنوسا يغازلنى فيه شموس منيرات وأقمار
متى تعود ليال فيك لى سلفت فهم يقولون : إن الدهر دوار

ولم يكن للبهاء فتاة أحلام واحدة ، يجدها مثله الأعلى ، لا يحيد عنها ، ولا يجد جمالا فى سواها ، بل تنقل قلبه فى الحب ، ووجد الجمال فى صور كثيرة ، فحينا يراه فى ذات القوام المعتدل ، التى توسطت بين الطول والقصر ، إذ يقول :

كلفت بها ، وقد نمت حلاها وزينتها الملاحة والوقار
فما طالت وما قصرت ولكن مكملة يضيق بها الإزار
قوام بين ذلك باعتدال فلا طول يعاب ولا اختصار

وشعر واصــل الخلخال منها فأضحى قرطها قلقـا يغار
حكت فصل الربيع بحسن قد تساوى الليـل فيها والنهار

وحينا يجد فى الطول ملاحة وجمالا ، فيقول :

نعم أنا أشكو طولها ، ويحق لى لقد طال فيها لوعتى وسهادى
وما عابها القد الطويل ، وإنه لأول حسن للمليحة بادى
رأيت الحصون الشم تحرس أهلها فأعددت حصنا حافظا لودادى

ويشيد بالسمراء فى قوله :

لا تلح فى السمر الملا ح فهم من الدنيـــــا نصيبى
والبيض أنفـــــــــرعنهم لا أشتهى لون المشيب

وحينا يجد البيضاء أولى بالحب ، وأجـدر بالمودة ، وعشق السمراء خطأ وضلالا إذ يقول :

ألا إن عندى عاشق السمر غالط وإن الملاح البيض أبهى وأبهج
وإنى لأهوى كل بيضاء غادة يضىء لها وجـه ، وثغر مفلج
وحسبى أنى أتبع الحق فى الهوى ولا شك أن الحق أبيض أبلج

وقد استرعى هذا التقلب فى نظرته إلى الجمال نظر معاصريه ، فعابوه عليه ، ولكنه رضى بذلك ، ولم يتحول عنه ، وهو فى كل حال يحب القد الممشوق ، والقوام الممتلىء .

صور البهاء الحبيبة ماكرة ساخرة عابثة ممنعة :

يعاهدنى لا خاننى ثم ينـكـث وأحلف لا كلمتـه ، ثم أحنث
أقول له : صلنى،يقول : نعم، غداً ويكسر جفنا هازئا بى ويعبث

أما مناعة الحبيبة وتحفظها فقد تحدث البهاء عن غيرة قاسية لا تكاد تسمح للحبيبـة أن يراها سواه ، وقد رأينا صورة لثورته عند ماسمحت الحبيبة لنفسها أن يبصرها غيره ، وهذه صورة أخرى لهذه الغيرة العنيفة إذ يقول :

أغار على حرف يكون من اسمها إذا ما رأته العين فى خط كاتب

هذا ، وبرغم أن البهاء سفه رأى من يحب الغلمان ، واقتبس من القرآن الكريم ما لامهم به ، وعد مذهبهم مذهبا غير حميد ، إذ قال :

أيا معشر الأصحاب مالى أراكم على مذهب ، والله ، غير حميد
فهل أنتم من قوم لوط بقيــة فما منكم من فعـــله برشيد
فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيـــد

برغم ذلك تغزل فى الغلمان إذ قال :

طلع العذار عليه حارس قمر تضىء به الحنادس
كالرمح ممشوق القوام وكالقضيب اللدن مائس
ويروح يقظان الجفون بحالة كالظبي ناعس
يامطمعى فى وصله لا رحت يوما منك آيس

ولكنه كان مقلا فى هذا الغزل ، وتدل هذه القلة على انحراف فى طريقه ، لم يلبث أن تركه إلى الجادة التى اعتاد سلوكها ، وهى الاشادة بجمال المرأة .

هذا وقد تتلمذ البهاء لعمر بن أبى ربيعة فى هذا اللون من الشعر ، فهو يلجأ إلى الأسلوب القصصى أحيانا كثيرة ، يصف فيه ما دار : من أحاديث وأعمال ، وأشبه البهاء كذلك فى أنه يتغزل بنفسه أحيانا ، ويصور نفسه معشوقا يخطب وده ، ويسعى إلى محبته ، فتسمعه يقول :

لست سمحا بودادى كل من نادى أجبته
طالما تهت على خا طب ودى ، ورددته

ويقول :

وقائلة لما أردت وداعهـــــــا : حبيبى ، حقا أنت بالبين فاجعى
فيارب لا يصدق حديث سمعته لقد راع قلبى ما جرى فى مسامعى
وقامت وراء الستر تبكى حزينة وقد نقبتـــه بيننا بالأصابع

فلما رأت أن الفراق حقيقة وأنى عليه مكره غير طائع
تبدت ، فلا والله ما الشمس مثلها إذا أشرقت أنوارها فى المطالع
تسلم باليمنى على إشـــــارة وتمسح باليسرى مجارى المدامع
وما برحت تبكى ، وأبكى صبابة إلى أن تركنا الأرض ذات بدائع

وحدثنا البهاء عن شباب القلب الدائم الذى لا يؤثر فيه مرور الأيام ، ولا يأخذ منه الكبر ، فهو قلب يخفق بالحب وعواطفه الرقيقة ، حين قال :

قالوا : كبرت عن الصبا وقطعت تلك الناحيـــة
فدع الصـــبا لرجاله واخلع ثيـــاب العارية
ونعم كبرت وإنما تلك الشمائل باقيـــة
ويفوح من عطفى أنفـــا س الشباب كما هيـــه
ويميل بى نحو الصـــبا قلب رقيـــق الحاشية
فيه من الطرب القديم بقيـــة فى الزاوية

وكان أهم ماوصفه البهاء مواقف الحب ، ولكنه وصف أشياء أخرى : كالنيل ، والشيب ، والشباب ، والمرأة ، والرياض ، وغيرها ، ومما قاله فى وصف روضة :

لله بســـتانى وما قضيت فيه من المآرب
لهـــفى على زمنى به والعيش مخضر الجوانب
ولكم بكرت له وقد بكرت له أيدى السحائب
فيروقنى ، والجو منــه ساكن ، والقطر ساكب
والطل فى أغصـــانه يحكى عقودا فى ترائب
وتفتحت أزهـــاره فتأرجت من كل جانب
وبدا علــى دوحاته ثمر كأذناب الثعالب
وكأنما آصـــاله ذهب على الأوراق ذائب

وقد ذكرنا نماذج مما قاله فى الخمريات عند الحديث عن مذهبه فى الحياة . أما نثره فكان أكثره برقة شعره ، كقوله :

وقد يحسن الناس الكلام وإنما　　كلامى هو الدر المنقى المنقح
كلام يسر السامعين كأنما　　لسامعه فيه الشراب المفرح

* * *

للبهاء زهير أسلوبان فى شعره : أحدهما ، وهو القليل فى شعره ، هذا الذى يقوله عندما يريد إرضاء غيره من الناس ، فيتكلف حينئذ أن يستعير لغة أسلافه من الشعراء ، فى عصور العربية الرفيعة ، حتى لا يخرج على ما سنه القدماء من أساليب ، لا يرضى أن يخرج عليها من يريد إرضاءهم ، كما رأينا ذلك فى شعر المدح وبعض شعر الرثاء .

وثانيهما ، وهو الغالب عليه ، هذا الذى يقوله ليرضى نفسه ، وليعبر عن عواطفه ، لا يعنيه رضا ممدوح ، لا يرى الشعر إلا هذا الذى يجرى على نسق القدماء ، وهو حينئذ يترك نفسه على سجيتها كما نرى ذلك فى الغزل والخمريات والهجاء ، فيستعمل البهاء لذلك أساليب اللغة العامية ، بعد أن يجعلها معربة ، وقد أوردنا نماذج كثيرة لهذا اللون من الأسلوب ، ونورد هنا بعض ما اشتدت قرابته إلى اللغة العامية المصرية الدارجة ، كقوله :

سيدى ، قلبى عندك　　سيدى ، أوحشت عبدك
سيدى ، قل لى ، وحدثنى　　متى تنجز وعدك
أترى تذكر عهدى　　مثلما أذكر عهدك
أم ترى تحفظ ودى　　مثلما أحفظ ودك
قم بنا ، إن شئت ، عندى　　أو أكن ، إن شئت ، عندك
أنا فى دارى وحدى　　فتفضل أنت وحدك

وقوله :

وكل ما ترتجيه　　تناله وزياده

وقوله :

إن كان ذلك عن رضا　　أو قد علمت به فأمرك

وقوله : والله　　إنى بخير　　ما دمت أنت بخير

وقوله : فإن تتفضل يا رسول فقل له ... بحبك فى ضيق ، وحلمك واسع
فوالله ما ابتلت لقلبي غلة ... ولا نشفت منى عليه المدامع

وقوله : تسائل عن وجدى بها وصبابتى ... فقلت : أما يكفيك موتى فيك

وقوله : كل شىء منك مقبول ... وعلى العينين محمول

وقوله : عساها إذا ما مر ذكرى بسمعها ... تقول: فلان عندكم ،كيف حاله

وقوله : لا تسلنى كيف حالى ... فـلـه شرح يطـول

وقوله : فالناس بالناس ، والدنيا مكافأة ... والخير يشكر ، والأخبار تنتقل

وقوله : فإذا غبت وجاء النـــاس طرا لا يهمه

وقوله : يحق لكم هذا التصلف كله ... لعلمكم وجدى بكم وغرامى

وقوله : وأسأله ، فليس يرد حرفاً ... كأن جواب مسألتى حرام

وقوله : أأصـون دمعى فى الهوى ... لأعز عنـدى منكم

وقوله : ولى نديم ماجد ما ارتضى ... عنه بديلا كائناً من كانا

وقوله : نحن لا نسأل عنـه ... ما له يسأل عنـــا

وقوله : كل ما يرضيك عندى ... فعـلى رأسى وعينى

وقوله : ولا كان ، ولا صار ، ولا قلتـــم ... ، ولا قلنــــا

وقوله : تميل إلى الدنيا ، وتبدى تزهداً ... ولا أنت معدود ، هناك ولاهنا

وقوله : إياك يدرى حديثاً بيننا أحد ... فهم يقولون : للحيطان آذان
من لى بنومى ، أشكو ذا السهاد له ... فهم يقولون : إن النوم سلطان

وقوله : ما العقل إلا زينـة ... سبحان من أخلاك منـــه

وقوله : دع انتظـارك قوما ... لهم أمور بطيـــــة
ولا تكن كعجوز ... مقيمة فى حنيـــــة

وقوله : واليـوم لى يومان لم ... أره ، وهـذا اليوم ثالث

وقوله : بحق الله متعـــــنى ... من وجــــهك بالبعد

وقوله : طالت ، فأما صبحها فقد فقد ... فتحبل المرأة فيها ، وتلد

وقوله : هـــذه أول حاجاتى إليك ... وبها أعرف مقدارى لديك

وقوله: أيهـا الزائرون أهـلا وسهلا ومرحبا

وقوله: لقد ضاعفت يا روحى لروحى الهم والنصبا

وقلت المحسنات البديعية فى شعر البهاء، وإن كنت تعثر عليها أحياناً هنا وهناك، فى شعر المدح، كقوله فى غزل قصيدة مدح:

وبى رشأ ما فيه قدح لقادح سوى أنه من خده النار تقدح
قتلت به حلواً مليحاً، وإنه لأعجب شىء كيف يحلو بملح
وحسبى ذاك الخال لى منه شاهد ولكن أراه باللواحظ يجرح

ويمتاز شعر البهاء فضلا عن ذلك بوحدة الفكرة فى قصيدته، فالأبيات ملتحمة النسج، يرتبط سابقها بلاحقها، من غير أن تجد استطراداً، أو فكرة نابية عن زميلاتها، وفى قصائد المدح يحسن التخلص من الغزل إلى المدح.

كما يمتاز فى غير المديح والرثاء، باختيار البحور ذات الحظ الوافر من الموسيقى، ليكون لها حظها من التأثير. وما سبق أن أوردناه من شعره شاهد على ما نقول، وللبهاء دوبيت جارى فيه شعراء عصره، وهو وزن فارسى أكثر منه الشعراء الذين يعرفون الفارسية كالعماد الأصبهانى ومنه قول البهاء:

قد راح عذولى، ومثل ماراح أتى بالله متى نقضتم العهـد متى
ماذا ظنى بكم، وماذا أملى قد أدرك فىّ سؤله من شمتا

وذكر مترجموه أنه اخترع وزنا جديداً لا عهد للعروض به من قبل، وذلك قوله:

يا من لعبت به شمول ما ألطف هـذه الشمائل
نشوان يهزه دلال كالغصن، مع النسيم مائل
لا يمكنه الكلام، لكن قد حمل طرفه رسائل

هذا وقد وقع البهاء على بعض المعانى الطريفة، كقوله يخاطب رسول حبيبه:

ودعنى أفز من مقلتيك بنظرة فعهدهما بمن أحب قريب

وقوله فى الشيب :

فقد انجلى ليـــل الشبا ب وقد بدا صبح المشيب
ورأيت فى أنـــواره ما كان يخفى من عيوبى

وقوله :

أشتهى أن أفوز منك بوعد ودع العمر ينقضى فى التقاضى

وقوله فى الغيرة :

وأنزه اسمك أن تمر حروفه من غيرتى بمسامع الجلاس
فأقول: بعض الناس عنك كناية خوف الوشاة ، وأنت كل الناس
وأغار إن هب النسيم لأنه مغرى بهز قوامك المياس
ويروعنى ساقى المدام إذا بدا فأظن خدك مشرقا فى الكاس

وقوله :

صدق الواشون فيما زعموا أنا مغرى بهواها مغرم
فليقل ماشـــاء عنى لائمى أنا أهـواها ولا أحتشم
غلب الوجد فلا أكتمه إنما أكتم ما ينكتم
أين من يرحمنى أشكو له إنما الشكوى إلى من يرحم
أيها السائل عن وجدى بها إنه أعظـــم مما تزعم
ظن خيراً بيننا أو غـــيره لحبيبى فيـــه تحلو التهم

وانعكس فى شعر البهاء بعض صور حياة عصره ، فكان علم الرمل مما شاع فى عصره ، ومما كان يلجأ إليه الناس لسؤاله عن الغيب ، حتى قال زهير :

تعلمت علم الرمل ، لما هجرتم لعلى أرى فيه دليلا على الوصل
فرغبنى فيـــه بياض وحمرة عهدتهما فى وجنة سلبت عقلى
وقالوا: طريقا، قلت: يارب، للقا وقالوا: اجتماعا، قلت: يارب، للشمل

فأصبحت فيكم مثل مجنون عامر فلا تنكروا أنى أخط على الرمل

وهذه طائفة من الناس يصفها البهاء بقوله :

كم أناس أظهروا الزهد لنا فتجافوا عن حلال وحرام
قللوا الأكل ، وأبدوا ورعا واجتهاداً فى صيام وقيام
ثم لما أمكنتهم فرصة أكلوا الحرام وعربدوا جنح الظلام

فكان الورع وإظهار التقوى يومئذ من الوسائل التى يتخذها بعض الناس للوصول إلى آمالهم فى الحياة الدنيا .

وهذا صنف آخر من الناس يدعى معرفة الفلسفة ، ويرى من تمام هـذا الادعاء أن ينكر وجود الله ، مدعيا أنه يعتمد على المعقول لا المنقول ، وقد سفه البهاء رأى هذا الدعى بقوله :

وجاهل يدعى فى العـــلم فلسفة قد راح يكفر بالرحمن تقليـــدا
وقال: أعرف معقولا ، فقلت له : عنيت نفسك معقولا ، ومعقودا
من أين أنت وهذا الشىء تذكره أراك تقرع بابا عنك مسدودا
فقـال : إن كلامى لست تفهمه فقلت : لست سليمان بن داودا

أما الحركة الصوفية فقد ارتسمت فى شعره حينا باستخدام ألفاظها ، كما فى قوله :

فأنا اليوم صاحب الوقت حقا والمحبـــــون شيعتى ودعاتى
ضربت فيهم طبولى ، وسارت خافقات عليهـــــم راياتى

وقوله :

تكهنت فى الأمر الذى قد لقيته ولى خطرات كلهن فتـــــوح

ويرد على رجل قدح فى أحد الصوفية ، مكبراً من شأن هذا القدح ، معظما من شأن الصوفى ، قائلا :

أتقدح فيمن شرف الله قدره وما زال مخصوصا به طيب الثنا

لعمرك ما أحسنت فيما فعلته ... وليس قبيح القول فى الناس هينا
فيا قائلا قولا يسوء سماعه ... بحقك نزهنا عن الفحش والخنا
نطقت ولم تحسن ولم تبق ساكتا ... لقد فاتك الأمر الذى كان أحسنا
دع القوم إن القوم عنك بمعزل ... وإنك عن هذا الحديث لفى غنا
تميل إلى الدنيا ، وتبدى تزهدا ... ولا أنت معدود هناك ولا هنا

وتستطيع أن ترى الكثير من عادات عصره وتقاليده منطبعة فى شعره .

هذا ويقول الديوان إن أول ما قاله من الشعر هو هذا الذى قاله فى أرمد وهو :

حبيبى عينه قالوا تشكت ... وذلك لو رأوا عين المحال
أتشكو عينه ألما ، وفيها ... يقال : أصح من عين الغزال
ولكن أشبهت لون الحيا ... كما قد أشبهتها فى الفعال

وبرغم ما يبدو فيه من الضعف والتفكك ينبىء بما سيكون للشاعر من قدم راسخة فى فن الغزل ، الذى كان الشاعر أكثر نبوغه فيه .

الجزار*

(٦٠١ — ٦٧٩ ﻫ)

أبو الحسين يحي بن عبد العظيم ، ولد بعد سنة ستمائة هجرية بعام أو ثلاثة أعوام ، لأب لا أدرى من أمره شيئا . وأغلب الظن أنه كان جاهلا ، رقيق الحال ، دفع بابنه إلى مهنة الجزارة التى لم تدر على الفتى رزقا يكفل له مطالب الحياة ، فقد ضيق عليه رزقه ، حتى ليبيع اللحم ولا يستطيع أن يذوقه :

حسبي حرافا بحرفتى حسبى ‏ ‏ ‏ أصبحت منها معذب القلب
موسخ الثوب والصحيفة من ‏ ‏ ‏ طول اكتسابى ذنبا بلا كسب
أعمل فى اللحم للعشاء ، ولا ‏ ‏ ‏ أنال منه العشا ، فما ذنبى ؟
خلا فؤادى ، وفى فمى وسخ ‏ ‏ ‏ كأننى فى جزارتى كلبى

ولعل ضيق رزقه فى حرفته ناشىء من انصرافه عنها ، وعن محاولته النجاح فيها ، ذلك أنه فى غالب الأمر رأى فى نفسه استعداداً للشعر ، فمضى يتثقف ليقوم من لسانه ، ويشق له طريقا آخر ، يظنه أكثر ربحا ، وأوفر رزقا ، وقد شجعه والده على هذا الاتجاه ، وغمر الفرح قلبه أن يرى ابنه (صبي الجزار) تبشر مخايله بمستقبل زاهر ، قيل إنه لما كان يحي

---

* مراجعه :

١ — فوات الوفيات : ٢ : ٩٠ ، ١٠١ ، ١٤٥ ، ٣١٩ .
٢ — النجوم الزاهرة ٧ : ٢٨ ، ٢٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٦٩ .
٣ — وفيات الأعيان ٢ : — ٦٢٠ .
٤ — حسن المحاضرة ١ : ٢٤٤ و ٢ : ٣٦ ، ٩٨ ، ١٤٢ .
٥ — السلوك ١ : ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥٥٤ ، ٦٨٤ .
٦ — طبقات الشافعية ٥ : ١٠٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ .
٧ — خزانة الأدب للحموى ص ٩٠ ، ١٩٥ ، ٣٠٦ .
٨ — الطالع السعيد ص ٣٣٤ ، ٣٩٠ .
٩ — الكامل لابن الأثير ١١ : ١٠٨ ، ١٠٩ .
١٠ — البداية والنهاية ١٣ : ٢٩٣ . ‏ ‏ ١١ — الأعلام ٣ : ١١٥٠ .
١٢ — المنهل الصافى ٣ : ٤٠٤ ب . و ٢ : ٤٢٧ ب .
١٣ — عيون التواريخ — القسم الثانى ٣ : ٢١٧ .

صغيراً نظم أبياتا قلائل ، وكان أديب ذلك الزمان ابن أبى الإصبع[1] . فأخذه أبوه ، وتوجه به إليه ، وقال : يا سيدى قد نظم هذا الولد شعراً ، وأشتهى أن يعرضه عليك ، فقال : قل ، فلما أنشده قال له : أحسنت ، والله إنك عوام مليح ، فراح هو ووالده ، وبعد أيام عمل والده طعاما وحمله إلى ابن أبى الإصبع ، فقال له : لأى شىء فعلت ؟ فقال لشكرك ولد المملوك ، فقال : أنا ما شكرته ، فقال : ألم تقل بأنك عوام مليح ، فقال : ما أريد بذلك إلا أنه خرج من بحر إلى بحر .

قرض يحيى الشعر بسليقته فشعر فى نفسه بأن مستقبلا آخر غير مستقبل الجزارة ينتظره ، فكان ذلك من عوامل انصرافه عن مهنته ، فلم تدر عليه ربحاً ، وذهب يستكمل ثقافته ، ولعله أخذ من كل فن بطرف فإن مؤرخيه يذكرون أنه قد كان له مشاركة فى العلوم ، وبخاصة الحديث الذى رواه عنه الدمياطى . ويستطيع شعره أن يلقى شيئا من النور على بعض ما تثقف به ، فقد حفظ جزءاً من القرآن ، مهد له سبيل الاقتباس منه ، كما عرف البيان وأبوابه : من مجاز واستعارة ، وكان يورى باصطلاحاته ، ودرس فنون البديع ، ودخلت صناعته شعره ، كما سنرى ، وكانت معرفتـــه بالنحو ضرورية ، وقد يستخدم اصطلاحاته موريا بها ، كما قرأ طرفا من الشعر القديم ، مهد له أحيانا أن يعارضه ، وشغف بتاريخ مصر شغفا هيأ له أن ينظم أرجوزة فى ولاة مصر ، سوف نتحدث عنها .

نظر الجزار إلى الشعر مورداً من موارد الرزق ، فمضى ينشئه فى المديح ، مرتزقا به ، طالبا عليه الثواب والعطاء ، يقول لأحد ممدوحيه :

يا أميراً يرجى ، ويخشى لبأس ونوال فى يوم حرب وسلم
أنت موسى ، وقد تفرعن ذا الخطب ، فغرقه من نداك بـــيم
لا تكلنى إلى سواك ، فما أصنـــع إلا لديك نثرى ونظمى

ويكتب إلى قاضى القضاة ابن خلكان فى عيد الأضحى :

مولاى شمس الدين ، يا من سمت أخمصـــه فى الرتب العالية

---

(١) ترجمته بكتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٢٤٩ .

يا منعما ، راحتــه بالندى   لم تبق من أمواله باقيــة
قد أصبح المملوك لا يشتهى   شيئا سوى لقياك والعــافية
والعيد عيــد النحر قد جاءه   وهو من الأمرين فى ناحية
لم يلف جزاراً ، ولا شاعراً   لا الحرفة الأولى ، ولا الثانية

ومضى يعرض بضاعته على الملوك ، والوزراء ، والأمراء ، وأعيان عصره ، فرأيناه يمدح العادل بن الكامل بن العادل ، ويقول :

هو الليث يخشى بأسه كل مجتر   هو الغيث يرجو جوده كل مجتدى
لقد شاد ملكا أسسته جــدوده   فأصبح ذا ملك أثيــل مشيد
وصح به الاسلام حتى لقد غدت   بسلطانه أهل الحقائق تقتدى
فقل للذى قد شك فى الحق : إنما   أطعنا أبا بكر بأمر محمــد

يشير بذلك إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فإن أباهما الكامل محمدا أقام العادل هذا بمصر ، وبعث الصالح أيوب إلى الشرق .

ومدح الملك المعز أيبك ، وها هو ذا يثنى عليه عند ما أمر المعز ألا تخرج امرأة من بيتها ، ولا يمشى رجل بلا سراويل :

حنا الملك المعــز على الرعايا   وألزمهم قوانــين المروة
وصان حريمهم من كل عار   وألبسهم سراويل الفتــوة

ومدح الظاهر بيبرس ، وكان من الشعراء الذين دعوا إلى حفــل افتتاح المدرسة الظاهرية(١) ، وكان مما أنشده يومئذ قوله :

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى   ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك همــة   بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى

(١) الحديث عن هذه المدرسة فى كتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ص ٤٥.

تجمع فيهـــا كل حسن مفرق فراقت قلوبا للأنام وأعينا

كما مدح ابن مطروح ، وكان فى منصب وزير بالشام ، وتأنق فى مدحه ، فقد كان ابن مطروح شاعرا ، بصيرا بجيد القول ورديئه ، وقد استحسن مؤرخوه هذه القصيدة ورأوها بديعة ، وحفظوا لنا منها ، وكانت طويلة ، مقدمتها الغزلية ، وهى :

هو ذا الربع ، ولى نفس مشوقة فاحبس الركب ، عسى أقضى حقوقه
فقبيح بى فى شرع الهـــوى بعد ذاك البر أن أرضى عقوقه
لست أنسى فيه ليلات مضت فغرامى فيـــه ما زال حقيقة
يا صديق ، والكريم الحرّ فى مثل هذا الوقت لا ينسى صديقه
ضع يدا منك على قلبى عسى أن تهدى بين جنبى خفوقه
فاض دمعى مذ رأى ربع الهوى ولكم فاض ، وقد شام بروقه
نفذ اللؤلؤ من أدمعـــه فغـــدا ينثر فى الترب عقيقه
قف معى ، واستوقف الركب ، فإن لم يقف فاتركه يمضى وطريقه
فهى أرض قلما يلحقها أمل والركب لم أعـــدم لحوقه
طالما استجليت فى أرجائها من يتيه البدر إذ يدعى شقيقـه
يفضح الورد احمرارا خـــده وتود الخمـــر لو تشبه ريقه
فبـــه الحسن خليق لم يزل والمعالى بابن مطروح خليقـة

وعرف طائفة من أعيان عصره وعلمائه ، اتصل بهم ، ومدحهم ، كابن دقيق العيد وعز الدين بن عبد السلام ، وتاج الدين ابن بنت الأعز ، والكمال بن العديم .

قال يمدح ابن دقيق العيد بعد أن سمعه يخطب بقوص :

يا سيد العلماء ، والأدباء ، والبـــلغاء ، والخطبـــاء ، والحفاظ
شنفت أسماع الأنام بخطبـــة كست المعانى رونق الألفاظ
أبكت عيون السامعين فصولها فزكت على الخطباء والوعاظ
وعجبت منها كيف حازت رقة مع أنها فى غاية الإغلاظ
ستقول مصر إذ رأتك لغيرها : ما الدهر إلا قسمة وأحاظ

ويقول قوم إذ رأوك خطيبهم : أنسيتنا قسا بسوق عكاظ

ومدح نصر الدين بن بصاقة بقصيدة يقول فيها :

أقول لقلبي كلما اشتقت للغنى إذا جاء نصر الله تبت يدا الفقرا

ومما مدح به ابن عبد السلام قوله :

سار عبد العزيز فى الحكم سيراً لم يسره سوى ابن عبد العزيز
عمنا حكمه بعـــدل وسيط شامل للورى ، ولفظ وجيز

واشتدت صلته بالكمال بن العديم ، حتى كان الصاحب إذا قدم إلى مصر لازمه الجزار ، وأهدى إليه مرة سجادة خضراء ، وكتب معها : « المملوكة سجادة أبي الحسين الجزار ،

أيها الصاحب الأجل ، كمال الد ين ، لا زلت ملجأ للغريب
كن مجيرى ، لأنى قد تغربـــت ، لكونى وقعت عند الأديب
أنا سجادة سئمت من الطــــى ، فهب لى نشراً فنشرك طيبى
طال شوقى إلى السجود ، وكم لى من شروق فى بيته وغـــروب
وإذا ما أتاه ضيـــف أرانى منه عند الصلاة وجه مريب
لم يرعه اخضرار لونى ، وهيها ت ، وما راعه اسوداد الذنوب
فأقل عثرتى ، ووفر بإحسا نك من وجهك الكريم نصيبي
وأجبر اليوم كسر قلبي ، فلا زلت مدى الدهر جابراً للقلوب

إن حسن فى الآراء العالية الصاحبية الكمالية ، أسعدها الله ، أن ينصب محرابى إلى القبلة بعد رفعه ، ويخفض عيشى بالتسبيح والتقديس بعد جزمه وقطعه ، ويجعلنى مؤهلة بين يديه لصالح الأعمال ، ويؤمننى العث الذى يعترى الصوف لعدم الاستعمال ، فعل جاريا على عوائد اصطناعه ، سالكا سبل أخلاقه وطباعه » ، والسلام .

وكانت صلة الجزار بعظماء رجال عصره ، وارتفاعه من مهنة الجزارة ، إلى حيث أصبح ذائع الشعر محبوباً من أعيان زمانه ، وتركه زى مهنته الأولى وارتداءه زى الكتاب مثار حقد بعض الشعراء عليه ، فهجاه ، وكانت مهنة الجزارة معيناً استق منه هجاءه وتهكمهم به ، واستهزاءهم بفنه ، فمن ذلك ما قاله فيه مجاهد بن سليمان :

إن تاه جـــزاركم علينا بفطنة عنــــده وكيس
فليس يرجوه غـــير كلب وليس يخشاه غير تيس

وهجاه مرة أخرى بتفاهة شعره ، وأنه لم ينل منه حظاً يستحق أن يفخر به ، فإذا وقع له بيت جميل كان سرقة من غيره :

أبا الحسين تأدب ما الفخـــــر بالشعر فخر
وما تبللت منــــه بقطرة وهو بحـــــر
وإن أتيت ببيت وما لبيتـــــك قدر
لم تأت للبـــيت إلا عليه للناس حـــكر

وحاول بعضهم أن يدس له عند قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، فدس له ورقة بخط الجزار ، يدعو فيها شخصاً إلى مجلس أنس ، ووصف المجلس ، ولكن تاج الدين لم يعر ذلك أذناً واعية ، كما حاولوا أن يفسدوا بينه وبين ابن العديم ، فقد قال بعضهم :

يا ابن العديم ، عدمت كل فضيلة وغدوت تحمـــل راية الإدبار
ما إن رأيت ولا سمعت بمثلها تيساً يلوذ بصحبة الجـــزار

ولكن يظهر أن الجزار لم يكن يميل كثيرا إلى مقابلة الهجاء بمثله ، وربما كان رجاؤه أن يترك الناس ذكر ماضيه سبباً فى أنه كف عن الهجاء ، ما وجد إلى ذلك سبيلا ، وقد تشتد ثورته أحياناً ، فيقابل الهجاء بمثله ، ويقول :

ليت شعرى ماذا تقول إذا ما رمت شتمى ، قل لى : بأى طريق
عـــلم الله ما مضيت رسولا قط من عند ابنتى لعشيق
لا ولا بت فى مكان طفيليا كغــــيرى ، فى طاعة وفسوق
لا ولا جئت بالرجال إلى بيتى ، وكاشرت عنهم فى الســـــوق

وهو هجاء تهكمى لاذع كما ترى . وروى له أيضا فى بعض شيوخ الأدب ، وقد جرب وادهن بالكبريت ، ولعله كان من أولئك الذين لا يرضون عن الجزار — تهكم بارع فى قوله :

أيها الســـيد الأديب دعاء من محب خال من التنكيت
أنت شيخ وقد قربت من النا ر ، فكيف ادهنت بالكبريت

ومع قلة ماروى للجزار من الهجاء لم ينس ، وقد تزوج أبوه بامرأة عجوز ، أن يسجل هجاءها فى شعره ، وقد سلبها من كل فضيلة جسمية ، وعقلية :

تزوج الشيخ أبى شيخة ليس لها عقل ولا ذهن
لو برزت صورتها فى الدجى ما جسرت تنظرها الجن
كأنها فى فرشها رمة وشعرها من حولها قطن
وقائل : قل لى : ما سنها ؟ فقلت : ما فى فمها سن

فلما مات أبوه قال يهجوها أيضاً :

أذابت كلى شيخ تلك العجوز وأردته أنفاسها المردية
وقد كان أوصى لها بالصدا ق ، فما فى مصيبته تعـزيه
لأنى ما خلت أن القتيـل يوصى لقاتله بالديه

وللجزار غزل رقيق ، ينشئه قصداً فى بعض الأحيان ، أو يبدأ به قصائد مدحه ، ولكنك لاتحس فيه بعمق العاطفة ، ولا بلوغة الحب ، ولا بطرافة المعانى ، ولعل من أجمل ما قاله فى الغزل قوله :

سر القلوب تذيعه الأجفان هيهات ينفع مغرماً كتمان
طرف المحب فم يذاع به الجوى والدمع إن صمت اللسان لسان
تبكى الجفون على الكرى ، فاعجب لمن تبكى عليه إذا نأى الأوطان
أتلفت روحى فى رضاك ، وإننى راض بذلك أيها الغضبان
يا مسقمى ، مهلا على جسدى الذى لم يبق فيه للسقام مكان
حاشا معاليك التى أنا عبدها ألا يكون لحسنها احسان

وليس له فيما بين يدى شعر فى الوصف ، اللهم إلا وصف ملابسه الحقيرة ، وجزءاً من قصيدة يصف بها البحر ، اتجه فيها إلى تصوير خوفه منه .

وللجزار أرجوزة فى مائة بيت واثنين ، سماها : العقود الدرية ، فى الأمراء المصرية ، ضمنها أمراء مصر من عمرو بن العاص ، إلى الملك الظاهر بيبرس ، بدأها بقوله :

الحمـد لله العلى ذكره ومن يفوق كل أمر أمره
أحمده ، وهو ولى الحمد على توالى بره والرفد
ثم الصلاة بعد هذا كله على أجل خلقه ورسله :
محمد خير بنى عدنان ومن أتاه الوحى بالتبيان
دامت عليه صلوات ربه ثم على عترته وصحبه
يا سائلى عن أمراء مصر منذ حباها عمر لعمرو
خذ من جوابى ما يزيل اللبسا واحفظه حفظ ذاكر لا ينسى

ومضى يسرد من حكم مصر والياً والياً ، وهى أرجوزة أشبه ماتكون بالمتون ليس فيها من الشعر سوى وزنه . غير أنه مما يلحظ فى هذه الأرجوزة أن منشئها عند ما ذكر خلفاء الفاطميين أثنى عليهم ، وذكرهم بالخير ، مما يدل على أن حدة البغضاء لهم قد هدأت وقدتها ، ويكفى أن نذكر لتأييد ذلك أنه فى عهد الظاهر بيبرس أعيدت خطبة الجمعة إلى الأزهر ، وعاودته حياة قوية نشيطة .

وبعد فماذا كان حظ الجزار من حرفة الأدب التى أقبل عليها راجياً ـ فى أغلب الظن ـ أن تدر عليه أخلاف الرزق وأن تمنحه الحياة الرغدة السعيدة ؟

أرجح أنه لم ينل ماكان يرنو إليه من النجاح وأنه لم يكن موسعاً عليه فى الرزق ، وأنه عاش فى كثير من الأحيان يائساً فقيراً ، وإذا كان قد نال عطاء وافراً فى بعض الأحيان فإن تبذيره قد عصف بهذا العطاء ، ولعله بهذا التبذير كان يريد أن يشعر نفسه بأنه ارتفع عن مهنة الجزارة ، إلى مكان الأعيان ، ووجهاء عصره ، ولهذا قال مؤرخوه : إنه كان دائم الاحتياج لا تكاد خلته تستد أبداً ، ولا يكاد طلبه يغفل . ومن أجل ذلك رأينا فى شعره كثيراً من سمات البؤس ، وشكوى الفاقة ، ووصف ثيابه الممزقة ، وشدة تأثير البرد فيه ، فنسمعه يقول :

لبست بيتى ، وقد زررت أبوابى على ، حتى غسلت اليوم أثوابى
وقد أزال الشتا ما كان من حمق دعنى ، فمستوقد الحمام أولى بى
ماكنت أعرف ماضرب المقارع ، أو قاسيت وقع الندى من فوق أجنابى

وما تراقصت الأعضاء فى جسدى إلا وقد صفقت بالبرد أنيابى

ويقول: أدركونى فبى من البرد هم ليس ينسى، وفى حشاى التهاب
ألبستنى الأطماع وهما ، فها جسمى عار، ولى فـرا وثياب
كلما ازرق لون جسمى من البر د تخيلت أنه سنجاب

وأرجح أنه اضطر أن يعود إلى حرفته الأولى، يلتمس فيها رزقه، حين لم يكف حاجته مدحه لعظماء الرجال . أرجح ذلك لقوله :

لا تلمنى يا سيدى شرف الد ين إذا ما رأيتنى قصابا
كيف لا أشكر القصابة ماعشـ ت حياتى وأهجر الآدابا
وبها صارت الكلاب ترجيـ نى وبالشعر كنت أرجو الكلابا

وهى أبيات تدل على ثروة عنيفة ، لاخفاقه فيما كان يعلق عليه كبار الآمال . قال مؤرخوه : واحتاج فى آخر عمره إلى الاستجداء بغير شعر ، لكثرة تبذيره وإسرافه .

نهج الجزار فى شعره منهج شعراء عصره ، المولعين بالصناعة اللفظية : من جناس ، وطباق ، وتورية ، وغيرها ، وتجد أمثلة لذلك فى خزانة الأدب ، وقد أكثر من التورية بصناعته كقوله :

ألا قل للذى يسأل عن قومى وعن أهلى
لقد تسأل عن قوم كرام الفرع والأصل
ترجيهم بنو كلب وتخشاهم بنو عجل .

وقوله :

إنى لمن معشر سفك الدماء لهم دأب وسل عنهم إن رمت تصديق
تضىء بالدم إشراقاً عراصهم فكل أيامهم أيام تشريق

وكتب إليه الشيخ نصير الدين الحمامى موريا عن صناعته :

ومذ لزمت الحمام صرت بها خلا يدارى من لا يداريه

أعرف حر الأشيا وباردها   وآخذ الماء من مجاريه

فأجابه الجزار بقوله :

حسن التأنى مما يعين على   رزق الفتى ، والحظوظ تختلف
والعبد مذ صار فى جزارته   يعرف من أين تؤكل الكتف

وقد عرض الجزار لامية امرىء القيس ، واقتبس منها ، بأخرى هزلية ، قال فيها :

ترى هل يرانى الناس فى فرجية   أجرها تيها على الأرض أذيالى
ويمسى عدوى غير خال من الأسى   إذا بات من أمثالها بيته خالى
ولو أننى أسعى لتفصيل جية   (كفانى، ولم أطلب ، قليل من المال)
ولكنما أسعى لمجد بجوخة   (وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى)

وبرغم أن شعر الجزار لا يرتق إلى صف الفحول من شعراء العربية ، وأن كثيراً من مظاهر الضعف يبدو عليه ، « فلم يكن فى عصره من يقاربه فى جودة النظم غير السراج الورّاق ، وهو كان فارس تلك الحلبة ، ومنه أخذوا ، وعلى نمطه نسجوا » كما قال الصفدى . وقدره معاصروه من الأدباء ، وقدروا أدبه ، وأعجبهم أخلاقه ، فقد ذكروا أنه كان حلو النادرة ، دمث الأخلاق ، لطيف المجون ، حسن المحاضرة ، وكان أكبر شاعر اتصل به الجزار فى شعره السراج الوراق ، فقد كان بينهما تراسل بالشعر والنثر ، ولما مات الجزار يوم الثلاثاء، ثانى عشر شوال سنة ٦٧٩ هـ ، رثاه السراج بقصيدة طويلة ، بدأها بتأمل فى هذه الحياة وغايتها ، وإن لم يأت فيه بجديد ، إذ قال :

أغايتنا لهذا يا فلان   تأمل ، ليس كالخبر العيان
أمانى النفوس لها خداع   وليس من الحتوف لها أمان
ومن بعد الحراك لها سكون   وصمت بعد ما مرح اللسان
أيا من جد فى الآمال ركضا   تأن ، ففى يد الأجل العنان

ومضى فى تأمله ، ثم انتقل إلى رثاء صاحبه ، فعزى فيه القوافى ، واستخدم فى ذلك مصطلحات علمها ، ثم تحدث عن ألم علم النحو لفراقه ، موريا كذلك باصطلاحاته حين قال :

وناح النحو بعـــدك ، فالمعانى لهـــا مع كل نائحـة حنان
فلا بدل بخـــل عنك يرجى ولا عطف لمن غـدروا ، وخانوا
فلا تجنح إلى تمـــييز حال لنا خفضت ، فقد لحن الزمان

وتحدث عن حزن بحور الشعر عليه ، وعن بلاغته ، وتفننه فى أبواب البديع ، وعن شعره فى مدح الرسول ، وهذا لون من شعره لم يصل إلينا ، وختم رثاءه بقوله :

جمـال الدين ، أنت جميل ظن بربك ، جل ديانا يدان
وعفو الله أكـثر من ذنوب لنـا ، وعلى الشفيع لنا ضمان

وللجزار تصانيف ، منها كتاب فوائد الموائد ، وعمل بعض الناس عليه علائم الولائم ، ولست أدرى موضوع هذا الكتاب ، ولعله اختيارات شعرية. وجمع قطعة من شعره سماها: تقاطيف الجزار ، وهو فى عنوان كتابه هنا لم ينس مصطلحات مهنته الأولى .

البوصيرى*

(٦٠٨ — ٦٩٦هـ)

شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد ، شاعر مصرى تدل نسبته إلى صنهاجة . على أنه ربما كان ينحدر من أصل بربرى . ولد فى أول شوال سنة ٦٠٨هـ (٧مارس سنة ١٢١٣م) ، ولا نعرف من تاريخ حياته إلا القليل . ولعله عانى معرفة الكتابة والحساب ، مما هيأه لأحد مناصب الحكومة فى مدينة بلبيس . ويدل شعره على تعمقه فى دراسة أصول الدين ، كما نرى ذلك فى القصيدة التى عنى فيها بتوضيح عقيدة الاسلام ، والرد على النصارى ، كما يذكر له تعمقه فى دراسة الحديث ، وأخذه التصوف عن أبى العباس المرسى ، أحد قادة التصوف فى ذلك العصر . وبدأ أثر دراسته فى شعره ، فظهر فيه الطابع الدينى واضحا جلياً ، يتجلى فى هذه القصائد الكثيرة التى مدح بها الرسول . وأشهر هذه القصائد البردة ، التى نالت شهرة واسعة فى العالم الإسلامى ، فشطرت حينا ، وخمست حيناً ، وسبعت حيناً آخر ، وشرحت مرة ثالثة ، وترجمها إلى الفرنسية R. Basset ، كما ترجمت إلى الألمانية والانجليزية . ومدح الرسول على نهجها من نظم البديعيات ، تجمع فنون البديع ، موجهة إلى الثناء على الرسول ، وعارضها فى عصرنا الحديث المغفور له شوقى ، فى قصيدته : نهج البردة .

وله قصيدة همزية أخرى مدح بها الرسول ، وأطال نفس القول ، حتى بلغت قصيدته ستين وأربعمائة بيت ، بدأها بقوله :

---

* مراجعه :

(١) الأعلام ٣ : ٩٠١.

(٢) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٥ ، ٢ : ١٤٣.

(٣) فوات الوفيات: ٢: ٢٠٥ .

(٤) خطط المقريزى ٤ : ٩٠و٢٦٣.

(٥) المنهل الصافى ٣ : ١٥٨ ب .

(٦) الخطط الجديدة: ١٠ : ٨ .

(٧) تاريخ مصر لابن إياس : ١ : ١٢٤.

(٨) دائرة المعارف الاسلامية : ١ : ٣٢٨ .

(٩) شفاء القلب الجريح ص ١٠.

(١٠) بروكلمان Brockelmann . ١ : ٢٦٤ — ٢٦٥.

(١١) دائرة معارف البستانى ٥ : ٦٩٤ .

(١٢) شذرات الذهب : ٥ : ٤٣٢ .

(١٣) تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ١٢٠ .

(١٤) Littérature Arabe P. 116

(١٥) معجم المطبوعات لسركيس ١ : ٦٠٣.

(١٦) الوسيط ص ٣٠٥ .

كيف ترقى رقيـــك الأنبياء   يا سماء ما طاولتهـــا سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا   ل سنا منك دونهم ، وسناء
إنما مثلوا صفاتك للنا   س ، كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصـ   ـدر إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيـ   ـب ومنها لآدم الأسمـــاء
لم تزل فى ضمائر الكون يخـ   ـتار لك الأمهات والآباء

وقد عارضها شوقى كذلك . كما عارض البوصيرى قصيدة بانت سعاد : بقصيدة أولها

إلى متى أنت باللذات مشغول   وأنت عن كل ما قدمت مسئول

ولم يقف عند حدود هذه القصائد الثلاث المطولة ، بل له قصائد كثيرة ومقطوعات فى مدحه . وهو فى كل ما مدح به الرسول يصدر عن عقيـــدة المسلمين الذين يرون النبوة هبة لا كسبا :

خلائقه مواهب دون كسب   وشتان المواهب والكسوب
مهذبة بنور الله ليست   كأخـــلاق يهذبها اللبيب

ومن المرجح أن العصر كان له أثره فى مدح الرسول ، إذ كان عصر صدام بين عقيدتى الاسلام والمسيحية ، فلا عجب حين ترى من شعراء الاسلام تمجيداً لصاحب رسالته ، وإشادة بفضائله وأمجاده .

ومدح البوصيرى كذلك أهل البيت ، وجعل حبهم عقيدة من عقائد الاسلام ، ورأى أن مدحهم وسيلة من وسائل النجاة عند الحساب ، وتوجع لما أصابهم فى تاريخهم الطويل من مصائب ، ومحن قاسية ، ومما قاله فى مدحهم :

فقل لبنى الزهراء ، والقول قربة   لـكل لسان فيهم أو حصائد :
أحبكم قلـــبى فأصبح منطقى   يجادل عنكم حسبة ، ويجالد
وهـــل حبكم للناس إلا عقيدة   على أسها فى الله تبنى القواعد

وإن اعتقادا خالياً من محبة ... وود لكم آل النبي لفاسد
فدتكم أناس نازعوكم سيادة ... فلم أدر سادات هم أم أساود
إذا ما تذكرت القضايا التي جرت ... أقضت على جنبي منها المراقد
وجددت الذكرى على بلابلا ... أكابد منها فى الدجى ما أكابد

كان هذا الاتجاه فى مدح الرسول وآله بهذه الغزارة من آثار العصر ، وكان كثير من المعانى التى وردت فى هذا المدح مستقاة كذلك من العصر . ففيها رد على ما ادعاه النصارى ، وتخلص من غلوهم الذى ألصقوه بعيسى . فتارة يقول البوصيرى :

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم ... واحكم بما شئت مدحا فيه،واحتكم

وطورا يقول :

يا حبيبا ، وشفيعا مطاعا ... حسبنا أن إليك الإيابا
لم نقل فيك مقال النصارى ... إذ أضلوا فى المسيح الصوابا
إنما أنت نذير مبين ... أنزل الله عليك الكتابا

وحينا ينشىء قصيدة طويلة ، يرد بها على النصارى واليهود ، ويرى أن ما فيها من أفكار يحتاج إلى شرح وإيضاح ، فشرحها فى ديوانه ، وبدأها بقوله :

جاء المسيح من الإله رسولا ... فأبى أقل العالمين عقولا
قوم رأوا بشراً كريما فادعوا ... من جهلهم لله فيه حلولا
وعصابة ما صدقته وأكثرت ... بالإفك والبهتان فيه القيلا
فكأنما جاء المسيح إليهم ... ليكذبوا التوراة والانجيلا
فأعجب لأمته التى قد صيرت ... تنويهها بالهها التنكيلا
هم بجلوه بباطل ، فابتزه ... أعداؤه بالباطل التبجيلا
وتقطعوا أمر العقائد بينهم ... زمرا ألم تر عقدها محلولا

قال الناظم : لما رأيت كتب النصارى واليهود الآن مشحونة بما ينكرونه من بعث النبي صلى الله عليه وسلم . وفيها القول بخلاف ما يدعونه من ألوهية المسيح ، ومن صلبه ،

وإثبات رسالته إلى النصارى واليهود ، وما لايخفى ، تعرضت فى هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نظمه من ذلك ، وأردت أن أورد تحت كل أبيات منها ما أشارت إليـــه : من النصوص التى لا يستطيع النظم ذكرها .

ومضى البوصيرى يورد من أقوال التوراة والانجيل ما يرد به على الطائفتين . ويورد من القصيدة جزءا جزءا ، شارحا كل جزء .

أثر عصر الحروب الصليبية فيه هـذا الأثر البالغ ؛ فأكثر من مدح الرسول وناقش النصارى فى معتقداتهم .

ومن أكبر ما ملك عليه قلبه تلك الحملة التى كان يريد أن يقوم بها الأشرف خليل ، لانتزاع عكا من يد الصليبيين . وإذا صح ما يقوله علماء النفس من أن جزءاً من الأحلام تنفيس لما فى النفس من آمال مكبوتة ، ورغبات تريد أن تتحقق ، فإننا نستطيع أن نتبين شغل البوصيرى بتطهير أرض الشام من آخر صليبى فيها — من هذا الحلم الذى رآه ، وكأن قائلا ينشد هذه الأبيات :

قد أخـــذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم خيلا تدك الجبال دكا
وأقسم الترك منذ سارت لن يتركوا للفرنج ملكا

كان العمل الحكومى للبوصيرى فى بلبيس مهيئاً له الاتصال بطوائف كثيرة من المستخدمين . ويظهر من شعره أنه لم يكن راضياً عن تصرفهم . بل كان شديد السخط عليهم، حتى لا يخلى واحداً منهم من سخطه ، ويراهم نكبة على البلاد ، قد أحالوها جحيما وشقاء ، إذ يقول :

أرى المستخدمين مشوا جميعا على غير الصراط المستقيم
معاشر لو ولوا جنات عدن لصـــارت منهم نار الجحيم
فما من بلدة إلا ومنهم عليها كل شيطان رجيم
فلو كان النجوم لهم رجوما إذاً خلت السماء من النجوم

والبيت الأخير يدل على كثرتهم وكثرة مساوئهم . وفى قصيدة أخرى مطولة شرح كثيراً مما يأخذه عليهم ، وأهم ما أسخطه عليهم جميعا انصرافهم إلى المال وجمعه ، انصرافا شغلهم عن واجبهم ، وجعلهم يتكالبون على جمع الثروة من غير طرقها المشروعة . ولم يخل من سخطه جماعة الكتاب ، ولا القضاة ، ولا الفقهاء ، ولا جماعة النظار . فكلهم فى السعى وراء المال سواء :

ثكلت طوائف المستخدمينا ... فلم أر فيهم رجـلا أمينا
فخذ أخبارهم منى شفاها ... وانظرنى لأخبرك اليقينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم ... مع التجريب من عمرى سنينا
حوت بلبيس طائفـة لصوصا ... عدلت بواحد منهم مئينا
وكيف يلام فتيان النصارى ... إذا خانت عدول المسلمين
وجل الناس خوان ، ولكن ... أناس منهم لا يسترون
ولولا ذاك ما لبسوا حريراً ... ولا شربوا خمور الأندرين
ولا ربوا من المردان قوما ... كأغصان يقمن ، وينحنين
أقاموا فى البلاد لهم جباة ... لقبض مغلها كالمقطعين
تحيلت القضاة ، فخان كل ... أمانته ، وسموه الأمين
وكم جعل الفقيه العدل ظلما ... وصير باطلا حقا مبينا
وما أخشى على أموال مصر ... سوى من معشر يتأولون
فلا تقبل من النواب عذراً ... ولا النظار فيما يهملون
تورع معشر منهم وعدّوا ... من الزهاد والمتورعين
وقيل : لهم دعاء مستجاب ... وقد ملئوا من السحت البطون
ومن ألف الخيانة كيف يرجى ... له أن يحفظ اللص الخئون

وإذا أسقطنا بعض ما قد يكون فى هذا الشعر من المبالغة فإنه بلا ريب يعطينا صورة لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية لبعض طوائف الشعب . وتلك ومضات نقدية قل أن

نراها فى شعر هذا العصر ، وهى جديرة بأن تكشف لنا عن صورة هذا العصر وحياته الاجتماعية ، لو أن الشعراء عنوا بتسجيل إحساساتهم نحو ما يرونه حولهم .

ويظهر أن موقفه من المستخدمين وانتقاده لهم جعلهم يقفون منه موقف العداء ، بل تصدى بعضهم لمرتبه فحاول أن يقطعه عنه ، مما دفعه إلى الاستنجاد بالرؤساء كى يوصلوا إليه مرتبه . واتصل البوصيرى ببعض رجالات عصره ، كالمنصور قلاوون ، ويحفظ له من شعره فيه ما أنشأه فى مدحه بعد أن بنى المنصور مدرسته الكبرى ، إذ قال :

ومدرسة ود الخورنق أنه ... لديها خطير والسدير غدير[1]
مدينة علم ، والمدارس حولها ... قرى ، أو نجوم بدرهن منير
تبدت فأخفى الظاهرية[2] نورها ... وليس بظهر للنجوم ظهور
بناء كأن النحل هندس شكله ... ولانت له كالشمع فيه صخور
بناها سعيد فى بقاع سعيدة ... بها سعدت قبل المدارس دور
ومن حيثما وجهت وجهك نحوها ... تلقتك منها نضرة وسرور
إذا قام يدعو الله فيها مؤذن ... فما هو إلا للنجوم سمير

كما اتصل من قبل بالأمير فخر الدين ، أحد كبار الأمراء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكما اتصل ببعض وزراء الدولة ، ومنهم الصاحب بهاء الدين بن حنا ، الذى يروى صاحب الفوات أنه أرسل إلى البوصيرى يسأله أن يعطيه قصيدته البردة ، وحلف ألا يسمعها إلا قائما حافيا مكشوف الرأس .

وللبوصيرى شعر تهكمى أجاد فى معظمه ، ومن ذلك مارواه تقى الدين بن سيد الناس ، من أنه كانت له حمارة استعارها منه ناظر الشرقية ، فأعجبته فأخذها ، وجهز له ثمنها مائتى درهم فكتب على لسانها إلى الناظر : المملوكة حمارة البوصيرى :

يا أيها السيد الذى شهدت ... أخلاقه لى بأنه فاضل
ما كان ظنى يبيعنى أحد ... قط ، ولكن صاحبى جاهل
لو جرسوه على من سفه ... لقلت غيظا عليه : « يستاهل »

---

(١) الخورنق . قصر للنعمان الأكبر . والخطيرة : المحيط بالشىء خشبا أو قصبا . السدير : نهر بناحية الحيرة . (٢) الظاهرية : المدرسة التى بناها الظاهر بيبرس .

أقصى مرادى لو كنت فى بلدى   أرعى به فى جوانب الساحل
وبعـــد هذا فما يحل لكم   أخذى ، لأنى من سيدى حامل

ويستخدم البوصيرى أحيانا اللغة العامية . وأجود شعره ماقاله فى مدح الرسول . وإن شعره التهكمى وشعره فى الهجاء ، وشعره النقدى ، يدلنا على نفسية حساسة لطيفة العشرة ، غير متزمتة ، برغم ما أخذته من دروس التصوف .

وعاش البوصيرى سنوات بعد أن سقطت عكا آخر ما كان بيد الفرنج فى يد المسلمين ، واختلف مؤرخوه فى سنة وفاته بين سنة ٦٩٤و٦٩٦هـ (١٢٩٤-١٢٩٦م) ودفن بالإسكندرية حيث قبره بها مشهور يزار .

الباب الثانى

الكتابة

١ - فنونها

تعددت ألوانها فى عصر الحروب الصليبية بين كتابة سلطانية ، ورسائل إخوانية ، وأدب خلق سياسى ، وأدب تاريخى ، وأدب قصة ، وأدب شعبى ، وأدب تأليفى ، صدرت به الكتب .

الكتابة السلطانية

ونعنى بالكتابة السلطانية هذه التى تتناول شئون الدولة وأمور السلطان ، فى الداخل وفى الخارج ، فتشمل بيعات الخلفاء ، وتقاليد الملوك وولاة العهود ، ومراسيم إسناد الوزارة ، والنيابة ، والقيادة ، والقضاء ، والتعليم ، والخطابة ، وغير ذلك من شئون إدارة الدولة ، والتوقيعات ، وبلاغات القصر ، والمنشورات السياسية والاقتصادية وغيرها ، ونسخ الأمان والأيمان ، وكتابة التقارير ، وشئون السفارات بين بعض ملوك الإسلام وبعض ، وبينهم وبين ملوك الفرنج ، وكتابة المعاهدات ، والرسائل الديوانية .

وقد وفى النثر بهذه الأغراض السلطانية حق الوفاء ، واسبغ عليها حلة من الأناقة ، متوخياً الجمال والتأثير ، فإذا كتب بيعة لخليفة ، كما كان يفعل فى عهد الخلفاء الفاطميين (١) ، تأنق الكاتب فى انتقاء الألفاظ واختيار الأسلوب ، ومضى على سنة أهل عصره : فى التزام السجع ، لا يحيد عنه ، يطرزه بآى من القرآن ، يستشهد به ، ويقتبس منه ، وكان من رسومهم فى كتابتها أن يبدءوها بحمد الله والثناء عليه ، مطيلين فى تعداد أوصافه ، وبالصلاة على محمد ، وعلى ، واصفين الأول بأنه جدهم ، والثانى بأنه أبوهم ، يطنبون فى أوصاف الإثنين ، ماشاء لهم الإطناب ، قائلين : « وصلى الله على جدنا محمد ورسوله . . وعلى أبينا أمير المؤمنين

---

(١) فى صبح الأعشى (٢٩١:٩) نسخة بيعة كتب بها للخليفة الحافظ لدين الله .

على بن أبي طالب . . » ومن رسومهم كذلك الاطناب فى بيان أهمية الخلافة لنظام المسلمين ، وضرورة قيامها لنفعهم وصلاحهم ، كما كان العهد لا يمل من تكرير عقائد الفاطميين ، فى أنهم الخلفاء حقاً ، وأنهم أولى الناس بالخلافه ، ويطنب ويطيل ، فى وصف الخليفة والثناء عليه .

ويبدو أثر الحروب الصليبية فى هذه البيعات فى حديثها عن محمد رسول الله . ناصة على أنه « الذى أخبر الأنبياء والمرسلون بصفته ونعته ، وتداولوا البشرى بما يستقبل من زمانه وبعثه ، وذكروه فيما أتوا به من كل كتاب أوحاه الله وأنزله ، واعترفوا بأنه أفضل من كل من نبأه الله وأرسله[1] » . وفى وصفها الخليفة من بين الأوصاف المشرفة له بأنه كان « عاملا فى سياسة الأمة عمل المجتهد المصيب ، مستقصياً حرصه فى المحافظة على إعزاز الملة ، مستنفداً جهده فى الجهاد فيمن خالف أهل القبلة[2] » .

وكان من رسومها كذلك التحدث فى سعة عن الوزير وخلاله ونواحى مجده .

وكل هذه المعانى تعرضها البيعة فى سعة وإطناب ، كى تثبت فى النفس وتتضح لديها ، وهو ما كان الخلفاء يرمون إليه ، وتعبر عنها البيعة فى أسلوب مسجوع متأنق فيه ، لأنها تتعلق برأس الدولة وأكبر رجالاتها .

وقد اختفى هذا اللون من نثر هذا العصر بسقوط الخلافة الفاطمية ، وعاد إليها فى عهد بيبرس عندما حييت الخلافة العباسية فى القاهرة ، بعد سقوط بغداد فى يد التتار .

ومن النثر الذى يتعلق برأس الدولة كذلك كتب تقاليد الملوك والسلاطين من هؤلاء الخلفاء العباسيين بالقاهرة ، وكانت التقاليد تأتى قبل ذلك من بغداد[3] منذ سقوط الدولة الفاطمية ، إلى أن عادت الخلافة العباسية بالقاهرة ، فلما استقر الخلفاء العباسيون بمصر ، كتبوا التقاليد لسلاطين مصر ، وتحتوى هذه العهود ، بعد حمد الله والصلاة على رسوله تمجيداً للملك الذى أنشىء العهد لأجله ، وتسجيلا ليده على الخلافة العباسية ، بإقامة أركانها ، وإعادة بنائها ، ويضفى العهد الذى أنشىء للسلطان بيبرس عليه ثوباً من التقدير والاجلال ، إذ يقول :

---

(١) من البيعة السابقة .

(٢) من البيعة السابقة .

(٣) راجع تقليد الخليفة المستضىء بأمر الله لصلاح الدين فى حسن المحاضرة ٢ : ١٩ ، وتقليد الخليفة المنصور للملك الكامل فى حسن المحاضرة أيضا ٢ : ٢٩ ، وتقليد الملك العادل فى صبح الأعشى ١٠ : ٩٩ .

«... وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم ساجداً وراكعاً فى تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدما، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصما، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً وأجراه دماً .. وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان ...»

ويمضى عهد التقليد فى هذا الثناء والتمجيد، ثم يبين له حدود سلطانه التى فوض إليه أمرها، وهى: الديار المصرية، والشامية، والديار البكرية، والحجازية، واليمنية، والفراتية، وما يتجدد من الفتوح فى كل مكان. ويبدو من هذا التقليد أن الخليفة يضع فى يد السلطان كل سلطة، حين يفوض إليه تفويضاً مطلقاً أمر الجند والرعية. ويمضى العهد موصياً السلطان فى عبارة بليغة بالتقوى، والعدل، والإحسان، واختيار أعوانه بدقة، ومحو سيء السنن. ويخص الجهاد بحديث طويل، مبينا قيمته فى حياة الإسلام. ويختم العهد [1] بالدعاء للسلطان. وعلى هذا النسق جرى تقليد [2] الخليفة العباسى للمنصور قلاوون، وزاد هذا التقليد أن نص فيه مفصلا على التفويض المطلق فى كل الأمور من الخليفة للسلطان.

وكما بلغ التأنق فى الكتابة الإنشائية منتهاه فى كتب البيعات وتقاليد الملوك، بلغ كذلك منتهاه فى كتب ولاة العهود، وكانت تبدأ عادة بحمد الله حمداً فيه براعة الاستهلال، ثم يذكر الشهادتين، والصلاة على الرسول الكريم، وعلى آله وصحبه، كل ذلك مغمور بجو الغرض الذى أنشىء له الكتاب، وبعدئذ يأخذ فى الثناء على ولى العهد، وحكمة تنصيبه، ثم يذكر هدف الكتاب، وهو تنصيب ولى العهد، مبيناً حدود مملكته التى صار ولى عهدها، حتى إذا عين ذلك وبينه أوصاه بما يناسب المقام من وصايا، مجملا فى ذلك حيناً، ومفصلا حيناً آخر. ونستطيع بهذه الكتب أن نعرف إلى أى مدى اتسعت الامبراطورية المصرية فى ذلك الحين، وأن نتبين الحاكم المثالى فى ذلك العصر، ولعل خير ما يمثله لنا هو تقليد الملك المنصور قلاوون ولاية العهد لابنه الملك الأشرف، فالحاكم المثالى الذى كان يدور بأذهانهم يومئذ هو من يتق الله، ويتبع قانون الشرع الشريف، «فهو قانون الحق المتبع، ومأمون الأمر المستمع، وبه يتمسك من أشار وامتار، وهو جنة والباطل نار»، «فمن زحزح عن النار، وأدخل

(١) العهد كله فى صبح الأعشى ٩ : ١١٠.
(٢) التقليد فى صبح الأعشى ١٠ : ١١٤.

الجنة فقد فاز » ، ويعدل، فالعدل « مثمر غروس الأموال ، ومعمر بيوت الرجاء والرجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال » . يحمى الثغور ، ويعنى أكبر العناية بالجيش والأسطول . وأطال التقليد فى الحديث عن ذلك ، مما يدل على أن الناحية الحربية فى ذلك العصر كان لها جلالها وخطرها ، وأن مصر والشام كانا فى أشد الحاجة إلى حاكم يصون حماهما ، ويحمى ذمارهما .

هذه أهم النقط البارزة التى وصف بها النثر الحاكم المثالى كما تخيله أهل ذلك العصر . ولست أدعى أن حكام هذا العصر قد حققوها ، ولكننى ألتمس فيها ما كان الشعب يتخيله يومئذ عن حاكمه المثالى ، ونستطيع بالموازنة بين هذه المثل أن نتبين الفروق بين العصور فيما ترجوه من حاكمها ، وفيما يبغيه الحاكم ويضعه من خطة يحكم بها شعبه ، ونلتمس أهم ما كان يسود العصر من رغبات ، كما نتلمس هذه الرغبات أيضاً فيما كتب من تقاليد للوزراء والنواب ، ويبدو فيما كتب من سجلات الوزراء فى عهد الدولة الفاطمية عقيدة الفاطميين فى أحقية علىّ للخلافة ، وأحقية بنيه فى الإمامة ، وفى أن هذه الإمامة ركن من أركان الدين . ولا يمل كتاب الفاطميين من تكرير هذه العقيدة وترديدها ، تمكيناً لها فى النفس .

ففى سجل(١) كتبه ابن الخلال بتولية طلائع الوزارة يقول : « . . . والحمد لله الذى أوضح أنوار الحقائق بأنبيائه . . . وختمهم بأفضلهم نفساً ومحتداً محمد هادى الأنام . . . وأورث أخاه وابن عمه باهر شرفه وبارع علمه ، وأفرده بإمامة البشر وخص ، وأقرها فيه وفى عقبه إلى يوم القيامة بجلى النص ، فأصبحت الإمامة للملة الحنيفية قواماً ، ولأسباب الشريعة بأسرها نظاماً ، ونقل الله نورها فى أئمة الهدى من نسله ، فتناولها الآخر من الأول ، وتلقاها الأكمل عن الأكمل . . . » وعقيدتهم فى أن الخليفة الفاطمى قد ورث عن آبائه معرفة أسرار الدين ، « وأنه وارث غوامض الحكم التى لا يعقلها إلا أعيان العالمين » .

ومما يدل على ما وصل إليه الوزير من قوة وسلطان أن سجل إنشائه يضفى عليه من الصفات ما لا يكاد يضفى على بشر من الناس ، ويطنب فى ذلك كثيراً ، « فلا رتبة علا إلا وقد قرعتها منزلا ، ولا منزلة سنا إلا وقد سموت إليها متنقلا ، ولا مزية فضل إلا احتويت عليها وحزتها ، ولا منزلة فخر إلا طلتها بفضائلك وجزتها ، ولا مأثرة إلا وكنت فاتح بابها ...

(١) السجل كله فى حسن المحاضرة ٢ : ١٢٠ ومنه أخذنا هذه الاقتباسات .

ولا سما مجد إلا وخصائلك طالعة فى آفاقها أقماراً ، ولا موقف فضل إلا ولك فيه تقدم لاتنازع فيه ولاتمارى ... فمايبلغ التعداد ماجمعته من المناقب والفضائل ، ولا يستولى الإحصاء على مالك من المفاخر التى لا يحيط بها أحد من الملوك الأوائل ... فأنت البر ، التقى ، النقى ، الحسيب ، الطاهر ، المبرأ من كل دنس وعيب . . . » ويمضى السجل مسهباً فى هذا الثناء والإطراء ، حتى إذا جاء إلى الحديث عن تقليده الوزارة رأيته يفوض إليه كل شىء ، إذ يقول : « . . . قلدك من وزارته ، وفوض إليك تدبير مملكته وكفالته ، وجعل لك إمارة جيوشه الميامين ، وكفالة قضاة المسلمين ، وهداية دعاة المؤمنين ، وتدبير ماهو مردود إليهم من الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين ، والنظر فى كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين ، وجنوده وعساكره المؤيدين ، وكافة رعاياه بالحضرة ، وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها ، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها ، وكل ماتنفذ فيه أوامره ويبوح بشعاره منابره ، ورد إليك تدبير ماوراء سرير خلافته ، وسياسة ماتحتوى عليه أقطار مملكته ، وألقى إليك مقاليد البسط والقبض ، والرفع والخفض ، والإبرام والنقض ، والقطع والوصل ، والولاية والعزل ، والتصرف والصرف ، والإمضاء والوقف ، والغض والتنبيه ، والإخمال والتنويه . . فتقلد ماقلدك أمير المؤمنين من هذه الرتب العالية ، والمنزلة التى قرب عليك تناولها أعمالك الزاكية ، والمنصب الذى تحكم فيه بأمر أمير المؤمنين وتنطق بلسانه ، وتبطش بيده وتحب وتبغض بقلبه وجنانه ... » . وبعدئذ يعدد له الوصايا التى يراه جديراً باتباعها ، والتى تصور الحاكم المثالى كما كان يتخيله أهل ذلك العصر ، ولا أريد أن أطيل بعرض صفاته فهى واضحة فى السجل[1] .

ونحا الكتاب الذين جاءوا بعد عصر الدولة الفاطمية فى سجلات تقليد الوزراء منحى كتاب هذه الدولة : فى تمجيد الوزير والثناء عليه ، وتفويض أمر الحل والعقد إليه[2] . وإن لم يفكر الوزراء فى أن ينتزعوا السلطة الفعلية من يد السلاطين . كما ألفوا كذلك فى

---

(١) راجع أيضا تقليد العاضد الوزارة لشاور السعدى فى صبح الأعشى ١٩ : ٣١٠ ، وتقليده الوزارة لأسد الدين شيركوه فى النجوم الزاهرة ٥ : ٣٥٣ ، وصلاح الدين فى الروضتين ١ : ١٦١ .

(٢) راجع عهد تقليد الصاحب بهاء الدين بن حنا للوزارة فى عهد الملك السعيد بن بيبرس ، بقلم محيى الدين بن عبد الظاهر ، فى حسن المحاضرة ٢ : ١٣٨ .

سجلات تقليد أهل المناصب مناصبهم : من نيابة ، وقضاء ، وقيادة ، وتعليم ، وخطابة ، وغيرها ، أن يبينوا قيمة هذا المنصب ، وما فيه من التبعات الجسيمة ، وأهميته فى حياة الأمة ، ويثنوا على من وقع عليه الاختيار ، ويقدموا إليه بعض الوصايا التى يستدعيها منصبه [١].

* * *

أما التوقيعات على القصص فقد قل الاحتفال بإيرادها فى كتب الأدب ، ويظهر أنها وقفت عند حد الفصل فيما يقدم من القصص ، من غير أن يراعى فيها أناقة البرامكة وكتابهم ، ولذلك ندر أن تعثر على توقيع لملوك هذا العصر ووزرائه ، فلم أعثر فيما قرأته من أدب هذا العصر على غير أربعة توقيعات : أحدها للخليفة الفاطمى : الحافظ لدين الله ، وثانيها لنور الدين ، وثالثها والرابع للسلطان صلاح الدين ، أما أولها فقد كتب على (كشف) قدم للخليفة وفيه رواتب المستخدمين ، ويلحظ أن التوقيع طويل ، وقد جرى على منهج التوقيعات القديمة ، إذ تأنق فيه كاتبه ، فقال : « أمير المؤمنين لا يستكثر فى ذات الله كثير الإعطاء ، ولا يكدره بالتأخير له والتسويف والإبطاء ، ولما انتهى إليه ، ما أرباب الرواتب عليه ... شملهم برحمته ورأفته ، وأمنهم مما كانوا وجلين من مخافته ، وجعل التوقيع بذلك بخط يده ، تأكيداً للإنعام والمن ، وتهنئة بصدقة لا تتبع بالأذى والمن ، فليعتمد فى ديوان الجيوش المنصورة إجراء ما تضمنت هذه الأوراق ذكرهم ، على ما ألفوه وعهدوه من رواتبهم ، وإيجابها على سياقها لكافتهم ، من غير تأول ولا تعنت ، ولا استدراك ولا تعقب ، وليجروا فى نسبياتهم على عادتهم ، لا ينقض من أمرهم ما كان مبرماً ، ولا ينفسخ من رسمهم ما كان محكما ، كرماً من أمير المؤمنين وفعلا مبروراً ، وعملا بما أخبر به عز وجل فى قوله تعالى : « إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » ، ولينسخ فى جميع الدواوين بالحضرة إن شاء الله تعالى [٢] » . ولعل الصناعة فيه هى التى حفظته ، بينما أضاع سواه التفريط فى هذه الصناعة .

---

(١) راجع سجل تولية ابن بندار للقضاء بقلم ابن الأثير فى حسن المحاضرة ٢ : ٩٣ ، وتقليد قضاء القضاة لابن بنت الأعز فى نهاية الأرب ٢٨ : ٣٥ ، وسجلا بتولية أحد المدرسين منصب التدريس فى صبح الأعشى ١ : ٤٥٨ ، وسجل قاضى القضاة كمال الدين بن العديم أن يتولى خطابة أحد المساجد فى صبح الأعشى ١٢ : ٤٤٠ .

(٢) خطط المقريزى ٢ : ٢٣٨ .

والتوقيع الثانى لنور الدين ، وقع به على رقعة كتب إليه بها بعض من بحلب ، يذكر له أنه قد مات هاهنا رجل تاجر موسر ، وخلف عشرين ألف دينار أو فوقها ، وله ولد عمره عشر سنين ، وحسن له أن يرفع المال إلى الخزانة ، إلى أن يكبر الصغير فيرضى منه بشىء ، ويمسك الباقى للخزانة، فوقع نور الدين : « أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمره الله ، وأما الساعى فلعنه الله[١] » .

أما التوقيع الثالث فقد كتبه صلاح الدين على ظهر كتاب طلب فيه أحد أمرائه أن يعود إلى بلاده مع جيشه ، والسلطان غير راض عن هذه العودة ، ويريد أن ينتظر ليشاركه فى الجهاد وإبداء الرأى ، وكانت الرسل متواترة بين المسلمين والعدو فى الصلح ، فلما ورد هذا الكتاب كتب عليه : « من ضيع مثلى من يده ، فليت شعرى ما استفاد[٢] » . وهى تشبه توقيعات المتقدمين فى الايجاز وتوضيح الفكرة .

والتوقيع الرابع لصلاح الدين أيضاً ، كتبه بخطه على الرسالة التى كتبها القاضى الفاضل يستأذن من السلطان أن يذهب إلى الحج ، فكتب : «على خيرة الله تعالى ، يا ليتنى كنت معكم فأفوز فوزاً عظيما[٣] » .

* * *

ومن الكتب السلطانية ما كان ينشأ من سجلات فى عهد الخلفاء الفاطميين تصف مواكبهم، وخروجهم إلى الاحتفالات ، وركوبهم وسعيهم إلى الصلوات ، ولابن الصيرفى سجلات كثيرة فى هذا الغرض[٤] ، هى أشبه ماتكون ببلاغات كبير الأمناء ، ولكنها تمتاز عنها بالوصف والإسهاب ، مما جعلها معينا لوصف عادات الخلفاء ، وتقاليدهم ، فى خروجهم ، وركوبهم ، واحتفالاتهم ، وكانت هذه السجلات تكتب وترسل إلى الأقاليم .

---

(١) الروضتين ١ : ١٣ .
(٢) النوادر السلطانية ص ١٣١ .
(٣) الروضتين ٢ : ٧ .
(٤) راجع قانون ديوان الرسائل ص ٣٣ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٩ .

وأغلب الظن أنه قد تشبهت الدولة الأيوبية ودولة المماليك بالدولة الفاطمية ، فى كتابة مثل هذه السجلات وإذاعتها ، فقد كان سلاطين هاتين الدولتين يخرجون للاحتفالات بالأعياد والمواسم الدينية وغيرها(١) ، وإن كانوا قد تركوا الخطابة لغيرهم من العلماء .

* * *

وكانت المنشورات من ألوان النثر السلطانى ، تخرج حاملة أوامر الدولة ونواهيها ، مبينة سياستها ، شارحة أهدافها ، تذاع وتقرأ على الناس فى كل مكان ،حتى يعملوا بمقتضاها ، وكثيرا ماكانت تقرأ على منابر المساجد ، ومنها ماكان يرسله ديوان الخلافة إلى الأقاليم مؤذنا ببدء العام الهجرى ، أو بدء رمضان ، أو يوم العيد ، فقد كانت ترسل هذه المنشورات إلى الولاة ، ويطلب منهم إذاعتها فى الناس . ولعلهم فى ذلك العصر كانوا يكتبون منشوراتهم بهذه اللغة الفنية ، ولا يكتفون فيها بإلقاء المراد صريحا ، غير محوط بالزخرف والزينة — لأنهم كانوا يريدون التأثير فى نفوس شعبهم ، حتى يحدث المنشور أثره المنشود .

كما كانت أوامر الخلفاء والسلاطين ترسل كذلك فى هذا النهج التقليدى الذى رأيناه : من بدء بالحمد لله ، والصلاة على رسوله ، وذكر مقدمة تناسب الموضوع ، وتصل إليه ، ويختم الأمر بالدعاء للسلطان .

* * *

ومن ألوان النثر السلطانى كذلك كتب الأمان ، والتحالف ، وأيمان الاستيثاق ، وعقد المعاهدات ، ونعنى بكتب الأمان ما يكتبه ديوان الحكم أمانا للخارجين على الدولة ، إذا هم ثابوا إلى رشدهم ، ورجعوا إلى حظيرة الطاعة والانقياد ، ونريد بأيمان الاستيثاق مايحلف به أحد الطرفين لصاحبه أن يخلص له ، ولا يخرج عليه . والمعاهدات ما يعقد بين طرفين ، يتفقان على السلم ، وألا يلتجئا إلى الحرب ، ويعرف كل ماله من حقوق ينالها ، وواجبات يؤديها ، وكان يراعى فى ذلك ما روعى فى الألوان السابقة من حسن العرض ، والتأنق فى

---

(١) راجع نهاية الأرب ٢٩ : ١ ففيه رسالة من قلاوون إلى سنقر الأشقر بركوب السلطان .

اختيار العبارة ، فمن كتب الأمان والتحالف ما كتبه المنصور قلاوون إلى ملك اليمن ، يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأماننا لأخينا السلطان الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر صاحب اليمن المحروس ، إنا داعون له ولأولاده ، مسالمون من سالمهم ، معادون من عاداهم ، ناصرون من نصرهم ، خاذلون من خذلهم ، لا نرضى له ولأولاده إلا ما رضيناه لأنفسنا ، وإنا لانقبل فى حقه سعاية ساع ، ولا قول واش ، ولا تناله منا مضرة ، مدى الدهر وأعمارنا ، ما دام ملازماً لشروط مودتنا ، التى شافهنا بها الأمير مجد الدين رسوله ... وهذا خطنا شاهد علينا والله على ما نقول وكيل (١) » .

ومن أيمان الاستيثاق ماحلف به الأمراء للملك الأفضل على ولد صلاح الدين ، عندما تحقق الناس أن والده على حافة الموت ، وكان نص اليمين المحلوف بها : « إنى من وقتى هذا صفيت نيتى ، وأخلصت طويتى ، للملك الناصر مدة حياته ، وإنى لا أزال باذلا جهدى فى الذب عن دولته بنفسى ومالى ، وسيفى ورجالى ، ممتثلا أمره ، واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الأفضل على ووريثه . ووالله إننى فى طاعته ، وأذب عن دولته وبلاده ، بنفسى ومالى ، وسيفى ورجالى ، وأمتثل أمره ونهيه ، وباطنى وظاهرى فى ذلك سواء . والله على ما أقول وكيل (٢) » .

ومن أيمان الاستيثاق ما كان يحلف به ملوك المسلمين والفرنج ، بعد عقد هدنة بينهما ، أن يخلص كل منهما فى صيانة المعاهدة وتنفيذ موادها ، ومما يلحظ فى هذه الأيمان غلظ القسم وتوكيده وتكريره ، فهو لا يكتفى بذكر المقسم به مرة واحدة ، بل يكرره باسمه مراراً ، وبصفاته مرات أخرى ، ثم قسوة ما يترتب على الغدر من واجبات ، تكاد لا تطاق ، ففى اليمين التى حلفها قلاوون للفرنج يقول : « والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، والله العظيم الطالب الغالب ، الضار النافع ، المدرك المهلك ، عالم ما بدا وما خفى ، عالم السر والعلانية ، الرحمن الرحيم ، وحق القرآن ومن أنزله ، ومن أنزل عليه ، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، ومايقال فيه من سورة سورة وآية آية ، وحق شهر رمضان ، إننى أفى بحفظ

---

(١) نهاية الأرب ٢٩/٢٩٨ ب .

(٢) النوادر السلطانية ص ٢٤٩

هذه الهدنة المباركة .. » وجاء فى اليمين التى حلف عليها الفرنج : « والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، وحق المسيح ، وحق المسيح ، وحق المسيح ، وحق الصليب وحق الصليب ، وحق الصليب ، وحق الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد ، المكنى بها عن الأب والابن والروح القدس إله واحد ، وحق اللاهوت المكرم ، الحال فى الناسوت المعظم ، وحق الإنجيل المطهر وما فيه ، وحق الأناجيل الأربعة التى نقلها متى ومرقس ولوقا ويحنا ، وحق صلواتهم وتقديساتهم ، وحق التلاميذ الاثنى عشر ، والاثنين وسبعين ، والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة ، وحق الصوت الذى نزل على نهر الأردن فزجره ، وحق الله منزل الإنجيل على عيسى بن مريم ، روح الله وكلمته ، وحق الست مارية أم النور .. وحق الصوم الكبير ، وحق دينى ومعبودى وما أعتقده من النصرانية ... إننى من وقتى هذا وساعتى هذه قد أخلصت نيتى ، وأصفيت طويتى ، فى الوفاء ... بجميع ماتضمنته هذه الهدنة المباركة .. » أما إذا نكث المنصـــور قلاوون ولم يف بالمعاهدة ، « فيلزمنى الحج إلى بيت الله الحرام بمكة المشرفة ، حافياً حاسراً ثلاثين حجة ، ويلزمنى صوم الدهر كله إلا الأيام المنهى عنها . » والله على مانقول وكيل » . وإذا نقضها الملك الفرنجى « أكون بريئاً من دينى ، واعتقادى ومعبودى ، وأكون مخالفاً للكنيسة ، ويكون على الحج إلى القدس الشريف ثلاثين حجة حافياً حاسراً ، ويكون على فك ألف أسير مسلمين من أسر الفرنج وإطلاقهم ، وأكون بريئاً من اللاهوت الحال فى الناسوت .. والله والمسيح على مانقول وكيل [1] » .

أما المعاهدات فنها ما عقد بين المسلمين بعضهم وبعض ، كهذا الصلح الذى عقد بين صلاح الدين وأهل حلب والموصل وديار بكر ، وكتب فى نسخة الصلح : « أنه إذا غدر منهم واحد وخالف ، ولم يف بما عليه حالف ، كان الباقون عليه يدا واحدة ، وعزيمة متعاقدة ، حتى يفىء إلى الوفاء والوفاق ، ويرجع إلى مرافقة الرفاق [2] » . ومنها معاهدات عقدت بين المسلمين والفرنج سيأتى الحديث عنها .

---

(١) نص اليمينين فى تاريخ الدول والملوك ١٤ : ٩٣ ب وما يليها .

(٢) الروضتين ١ : ٢٦١ .

هذه ألوان من الكتابة السلطانية، عنيت بالشئون العليا فى الدولة، على أنها قلة بالنسبة للرسائل السلطانية التى عنيت بباقى شئون الدولة وتصريف أمورها.

* * *

الرسائل الإخوانية :

وإلى جانب الرسائل السلطانية نجد الرسائل الإخوانية التى تتحدث عن العواطف الشخصية، فى الرضا والسخط والحب والبغض، وما بقى لنا من هذا النوع من الرسائل قليل بالنسبة للنوع السابق، وقد عالج كبار الكتاب يومئذ هذا اللون من الكتابة، يتأنقون فى عبارته، ويتلمسون الجمال والزينة، فللقاضى الفاضل [١]، وابن الأثير [٢]، وابن عبد الظاهر [٣] وغيرهم [٤]، رسائل إخوانية كثيرة، وجمع ابن سناء الملك ما دار بينه وبين أبيه والقاضى الفاضل من رسائل فى مجموع دعاه: فصوص الفصول، وعقود العقول [٥]، وقد تنوعت هذه الرسائل الإخوانية بين شوق، وعتب، ومدح، ورثاء، وبعبارة أخرى تناولت الرسائل ما تناولته أغراض الشعر الغنائى، ولهذا كثر اقتباس الشعر فى هذه الرسائل، لتشابه غرضيهما. كتب القاضى الفاضل مشتاقا عاتبا :

---

(١) قام المستشرق Helbig بإحصاء شامل لرسائل القاضى الفاضل Enphcyclopedie de l'Islam. Tome 11. P. 67. وقد عرفت من رسائله مجموعتين فى دار الكتب. إحداهما باسم الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم (مصور رقم ٢٢٩٤ ـ أدب) والثانية باسم: الفاضل من كلام القاضى الفاضل (مصور رقم ٣٨٨٢ ـ أدب) ومجموعتين فى المكتبة الأزهرية، إحداهما باسم المختار من إنشاء القاضى الفاضل (مخطوط رقم ٤٦٩ — أباظة — ٧٠٦٠ ـ أدب) والثانية باسم: الرسائل الأدبية للقاضى الفاضل (مخطوط بالأزهر رقم ٤٣٩ ـ أباظة — ٧٠٣٥ أدب) وله فى الفاتيكان بعض الرسائل — كما أن له رسائل فى باريس وميونخ (راجع Brockelmann Lyescharab Littiratur G. 1/385 Supl. 1/549).

وله رسائل كثيرة جداً منتثرة فى صبح الأعشى، ونهاية الأرب، والروضتين، ووفيات الأعيان، ومسالك الأبصار، والنجوم الزاهرة، وحسن المحاضرة، والتذكرة الصفدية.

(٢) له رسائل سلطانية وأخوية فى كتاب المثل السائر ص ٤٦ و٤٧ و١٠٥ و١٣١ و١٣٣.

(٣) له رسائل فى صبح الأعشى ورسالة بدار الكتب مخطوطة رقم ٣٩١١ — أدب.

(٤) بدار الكتب (رسائل الوهرانى المتوفى بداريا (قرية قرب دمشق سنة ٥٧٥ هـ) مخطوطة رقم ٢٤ ـ أدب. ورسالة لصفى الدين بن ظافر (مخطوط رقم ٣٣٨ ـ أدب).

(٥) مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ — أدب.

أكذا كل غائب غاب عمن يحبه
غاب عنه بشخصه وسلا عنه قلبه

لو أن لى يدا تكتب ، أو لسانا يسهب ، أو خاطراً يستهل [١] ، أو فؤاداً يستدل ، لوصفت إليه شوقاً إن استمسك بالجفون نثر عقدها ، أو نزل بالجوانح أسعر وقدها ، أوتنفس مشتاق أعان على نفسه ، وظنه استعاره من قبسه ، أو ذكر محب حبيبا خاله خطر فى خلده ، وتفادى من أن يخطر به ذكر جلده .

حتى كأن حبيبا قبل فرقته لا عن أحبته ينأى ولا بلده
بالله لا ترحموا قلبي ، وإن بلغت به الهموم ، فهذا ما جنى بيده

ولولا رجاؤه أن أوقات الفراق سحابة صيف تقشعها الرياح ، وزيارة طيف يخلعها الصباح ، لاستطار فؤاده كمداً ، ولم يجد ليوم مسرته أمداً ، ولكنه يتعلل بميعاد لقياه ، ويدافع ما أعله بلعله أو عساه .

غنى فى يد الأحلام لا أستفيده ودين على الأيام لا أتقاضاه

ومن غرائب هذه الفرقة ، وعوارض هذه الشقة [٢] أن مولاى قد بخل بكتابه ، وهو الذى يداوى به أخوه غليل اكتئابه ، ويستعديه على طارق الهم إذا لج فى انتيابه .

كمثل يعقوب ضل يوسفه فاعتاض عنه بشم أثوابه

وهب أن فلانا عاقه عن الكتب عائق ، واختدع ناظره كمن هو فى ناضر عيش رائق ، فما الذى عرض لمولانا حتى صار جوهر وده عرضا ، وجعل قلبي لسهام إعراضه غرضا .

بى منه ما لوبدا للشمس ما طلعت من المكاره أو للبرق ما ومضا

وما عهدته — أدام الله سعادته — إلا وقد استراحت عواذله ، وعرى به أفراس الصبا ورواحله ، إلا أن يكون قد عاد إلى تلك اللجج ، ومرض قلبه فما على المريض حرج ، وأياما كان ففى فؤادى إليه سريرة شوق لا أذيعها ولا أضيعها ، ونفسى أسيرة غلة لا أطيقها بل أطيعها .

وإنى لمشتاق إليك وعاتب عليك ، ولكن عتبة لا أذيعها

والأخ النظام — أدام الله انتظام السعد ببقائه وأعدانى على الوجد بلقائه ، مخصوص

---

(١) هل المطر واستهل : اشتد انصبابه .
(٢) الشقة بالضم والكسر : البعد .

بالتحية إثر التحية ، ووالهفى على تلك السجية السخية ، وردت منها البابلى معتقا ، وظلت من أسر الهموم بلقائها معتقا .

خـــلائق إما ماء مزن بشهدة أغادى بها ، أو ماء كرم مصفقا

وقد اجتمعت آراء الجماعة على هجرانى ، ونسوا كل عهد غير عهد نسيانى

وما كنتم تعرفون الجفا فبـــالله ممن تعلمـــتم (١)

* * *

الأدب التهذيبي

وإلى جانب الأدب السلطانى والإخوانى ، نرى الأدب يريد أن ينهض بمهمة أخرى تلك هى مهمة الإصلاح الخلقى والتوجيه السياسى ، فرأينا كتبا أدبية تؤلف فى هذا الشأن ، يبوبها كاتبها أبواباً تتناول الأخلاق الكريمة ، كالصدق والصبر والوفاء وغيرذلك ، ثم يوردتحت كل صفة ماورد فيها من أدب رفيع : قرآنا ، أوحديثا ، أو مأثورا ، من كلام الرسول ، والصحابة ، والملوك ، والأمراء ، والبلغاء ، أو حكما وأمثالا . وأكثر هذه الكتب ألفه صاحبه لجمهور الشعب ، وبعضها ألف للملوك ، فزاد فصولا تناسبهم حكاما لشعوبهم .

ومن هذه الكتب التى تهدف إلى تهذيب الأخلاق وتقويم النفوس : كتاب الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة ، ألفه أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة الأفضلى الشاعر المتوفى سنة ٦٢٢هـ ، جمعه حكماً قصيرة ، وأمثالا سائرة ، تتعلق بالآداب الفردية والاجتماعية ، فهذا فصل فى الملوك وأحوالهم ، يكرم المثالى من بينهم ، وهذا فصل آخر فيمن يجيب على من يصحب السلطان ، وذاك فى ذم الحسد ، وغيرها فى ذم الغيبة ، أوالكبر ، أومدح التواضع ، أو الحث على اكتساب الأدب ، وأورد كثيراً من الحكم التى ترتبط بمكارم الأخلاق : من انتظار الفرج ، والحض على اكتساب الإخوان ، وما يجب أن يكون عليه الصديق ، وذم خوان الإخوان ، وذم الضراعة ، ومدح القناعة ، والأمر بالصبر على نوائب الدهر ، ومدح الجود ، والتنقل رجاء بلوغ الآمال ، وكراهية الغلو فى المزاح ، وغير ذلك ، يورد من الحكم والأمثال ما يبين فضل الخلق الكريم ، ونقص الخلق الشائن .

وكتب أسامة بن منقذ كتابه : لبـاب الآداب يرمى به إلى هذا الهدف أيضا ، ورتبه على

---

(١) نهاية الأرب المطبوع ٨ : ٢٢ .

سبعة كتب فكتاب فى الوصايا ، وآخر فى السياسة ، وثالث فى الكرم ، ورابع فى الشجاعة ، وخامس فى الآداب . يشتمل على خمسة عشر فصلا : أولها فى الأدب . وثانيها فى كتمان السر ، وثالثها فى أداء الأمانة ، ورابعها فى التواضع ، وخامسها فى حسن الجوار ، وسادسها فى حفظ اللسان ، وسابعها فى القناعة ، وثامنها فى الصبر ، وتاسعها فى الحياء ، وعاشرها فى ترك الرياء ، والحادى عشر فى الإصلاح بين الناس ، والثانى عشر فى التعفف عن السؤال ، والثالث عشر فى التحذير من الظلم ، والرابع عشر فى الإحسان وفعل الخير ، والخامس عشر فى مداراة الناس والصبر على الأذى . والكتاب السادس فى البلاغة ، والسابع فى الحكمة .

وهو فى هذه الكتب جميعها يورد من القرآن ما يرتبط بالباب ، ثم يثنى بالأحاديث المتعلقة به ، وبعدئذ يأتى بالمرويات الأخرى ، عن العرب والعجم ، فنى كتاب السياسة مثلا يورد من الآيات مثل قوله تعالى : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين » . ثم يورد من الأحاديث مايتعلق بسياسة الرعية ، مثل قوله صلى الله عليه وسلم : « يوم من إمام عدل خير من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى من مطر أربعين صباحا » . ثم يروى ماورد على ألسنة الساسة مثل زياد ، ومعاوية ، والوليد بن عبد الملك . ويورد عهود بعض الملوك ، ووصاياهم ، وبعض أعمالهم ، وينقل بعض آراء الفرس مثل قول بزرجمهر : عاملوا أحرار الناس بصفو المودة ، وعاملوا العامة بالرغبة والرهبة ، وعاملوا السفلة بالمخافة صراحا [1] . ويورد بعض خطب الساسة ، ويروى عن حكماء الهند ، والحكماء بعامة ، ويورد بعض الرسائل السياسية ، كالرسالة التى كتبها أرسطو للإسكندر والرسائل التى تبودلت بين معاوية وزياد ، والشعر الذى يتحدث عن سياسة الرعية ، كقول الشاعر :

تهدى الأمور بأهل الرأى ماصلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد

لايصلح القوم فوضى لا سراة لهم ... ولا سراة إذا جهالهم سادوا [2]

---

(١) لباب الآداب ص ٣٩ .

(٢) لباب الآداب ص ٧٤ .

وهو ينتقل من فكرة إلى فكرة ، ومن حكمة إلى أخرى ، من غير رابط ولا حسن انتقال ، جاعلا هدفه جمع كل مايستطيع جمعه من الحكم ، التى ترتبط بالموضوع الذى يعالجه.

وكتب ابن العربي كتابه : محاضرة الأبرار ، ومسامرة الأخيار ، فى الأدبيات والنوادر والأخبار ، كما كتب ياقوت الرومى كتابه : أسرار الحكماء ، والكتابان يرميان إلى الهدف السابق ، ويقصدان النصيحة ، ويحببان فى التصوف ، وقد جمعا كثيراً من كلام الصحابة والملوك والأمراء والبلغاء ، واشتملا على كثير من الحكمة والمثل .

ومن الكتب التى استخدمت الأدب لتهذيب الحكام كتاب سراج الملوك للطرطوشى ، الذى ألف كتابه للمأمون البطائحى وزير الآمر الفاطمى ، وقد نظر مؤلفه فى سير الأمم الماضية ، والملوك الخالية ، لجمع محاسن ماانطوت عليه سيرتهم ، وخاصة ملوك الطوائف ، وحكماء الدول ، ووجد ذلك فى ست من الأمم : هى العرب ، والفرس ، والروم ، والهند ، والسند ، والسند هند . . . وفنظمت ماألفيت فى كتبهم من الحكم البالغة ، والسير المستحسنة والكلمة اللطيفة ، والتوقيع الجميل ، والأثر النبيل ، إلى ما رويته من سير الأنبياء ، وآثار الأولياء ، وبراعة العلماء ، وحكمة الحكماء ، ونوادر الخلفاء ، وما انطوى عليه القرآن العزيز الذى هو بحر العلوم ، وينبوع الحكم ، ومعدن السياسات ، فانتظم الكتاب غريباً فى بابه ، لم تسبق إلى مثله أقلام العلماء[1] » .وهو يرى العلم بمثل ما فى هذا الكتاب « عصمة الملوك والأمراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية .

وهو مثلا فى الباب الأول الذى وضعه فى مواعظ الملوك يبين لهم حقارة الدنيا ، وأن الموت آت لامحالة ، كى لا يغتروا بالدنيا ، ويروى فى ذلك قصصاً عن الملوك ، والحكماء ، والشعراء ، ويروى كلامهم وأثر فناء الدنيا ، والموت فى نفوسهم ، ويروى قصص من زهدوا فى الدنيا . من أبناء الملوك . والكتاب يقع فى أربعة وستين بابا ، يجرى كله على هذا النسق .

ومن هذه الكتب كتاب (المنهج المسلوك فى سياسة الملوك) ألفه لصلاح الدين

---

(١) سراج الملوك ص ٥ .

أبو الفضائل عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر ، ورتبه على عشرين بابا ، قال فى مقدمته : كان المولى الملك الناصر صلاح الدين والإسلام والمسلمين ... آتاه الله ملكه ... ممن يرى الأدب وفضله ، ويؤثر العلم وأهله ، جمعت له ... هـذا الكتاب وهو يحتوى على طرائف من الحكمة ، و ... من الأدب ، وأصول من السياسة ، وتدبير الرعية ، ومعرفة ... المملكة ، وقواعد التدبير ، وقسمة الفىء ، والغنيمة ... و [ما] يلزم الجيش من حقوق الجهاد ، ونبهت فيه على الشيم الكريمة ، والخلال الذميمة ، وأشرت فيه إلى فضل المشورة والحث عليها ، وكيفية مصابرة الأعداء ، وسياسة الجيش ، وأودعته من الأمثال ما يسبق إلى الذهن شواهد صحتها ، ومعالم أدلتها ، مع نوادر من الأخبار ، وشواهد من الأشعار ، وضمنته أبوابا تتضمن حكايات لائقة ، ومواعظ شائقة ، وحكما بالغة ، وسلكت فى ذلك كله طريق الاختصار ، ومذهب الإيجاز ، لئلا تمجه الخواطر وترفضه الأسماع » . ومن أبواب الكتاب: فضل الأدب وافتقار الملك إليه ، معرفة الأوصاف الكريمة . والحث عليها، معرفة الصفات الذميمة والنهى عنها ، بيان فضل المشورة والحث عليها ، معرفة أصول السياسة والتدبير ، أوصاف أهل المشورة وحكايات لائقة ، ما ينبغى للملك من سياسة الجيش وتدبير الجنود ، مصابرة المشركين ، الحث على استماع المواعظ وقبولها من النساك .

ومنهجه فى ذلك كله أنه يشرح الفكرة بقلمه ، ثم يؤيد فكرته بما قاله فيها السابقون ، ويمتاز الكتاب بأن له منهجاً فى العرض ، وخطة واضحة فى ترتيب الباب ، وإيراد مسائله ، وليس جمعاً لحكم وأمثال فحسب ، كما رأينا فى الكتب السالفة .

وأغلب الظن أن الكتاب الذى ألفه لصلاح الدين أيضاً شيث بن إبراهيم القناوى، وسماه تهذيب ذهن الواعى ، فى إصلاح الرعية والراعى (١) ، ينهج هذا النهج فى جمع الحكم والقصص التى تتعلق بسياسة الدولة ، وربما كان هذا منهجه أيضاً فى كتابه الثانى : لطائف السياسة فى أحكام الرياسة (٢) .

---

(١) نكت الهميان ص ١٦٩ .

(٢) الديباج المذهب ص ١٣١ .

ومن هذه الكتب كتاب العقد الفريد للملك السعيد ، ألفه الوزير أبو سالم محمد بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٢ هـ ، يرمى إلى تهذيب الخلق عن طريق الأدب ، فمؤلفه يرى أن الصفات منها حسن مرغوب فيه ، كالسرور ، والشجاعة ، والجود ، ومنها مذموم تنفر منه النفس كالحزن ، والجبن ، والبخل . ومن أراد أن يحصل له شيء من الحالات المرغوب فيها سعى فى تحصيل السبب المقتضى لذلك ، فلا جرم كانت مطالعة هذا الكتاب تؤدى إلى تحصيل المطلوب ودفع المرهوب . والكتاب مبنى على أربع قواعد : الأولى فى مهمات الأخلاق والصفات ، والثانية فى السلطنة والولايات ، والثالثة فى الشرائع والديانات ، والرابعة فى تكملة المطلوب بأنواع من الزيادات . ويفصل أبواب كل قاعدة ، فالأولى مثلا تشتمل على عشرة أبواب : فى العقل ، ومدح الصبر ، وذم الجزع ، ومدح الشكر ، وذم الكفران ، والمشورة وبركتها ، وذم تركها ، والعدل ، وذم الظلم ، والاتفاق ، وذم الشقاق ، والوفاء ، وذم الغدر ، والتيقظ ، وانتهاز الفرصة ، وذم التوانى والغفلة ، والعفو ، واصطناع المعروف ، والصدق ، وذم الكذب . ويورد فى كل باب ما يتعلق به من آيات وأحاديث ، ويذكر القصص التى تناسبه ، ويختم الباب بالفقر الحكيمة التى تتعلق به .

كان الناس يعدون من رسالة الأدب فى ذلك العصر تهذيب الأخلاق وتقويم النفوس ، فوضعوا هذه الكتب التى عرضناها ، ومما هو جدير بالذكر أن الكتاب يومئذ كانوا مقلدين لمن سبقهم من الكتاب ، كأبى الحسن البصرى ، المتوفى سنة ٤٥٠ هـ ، فى كتابه : أدب الدنيا والدين . وإذا كانت الغاية الأولى للأدب هى التأثير فى النفس فلا مانع من أن تتعدد أهدافه ، وأن يكون من بينها تهذيب الخلق . والقرآن ، وهو كتاب العربية ، ومثالها الأدبى الأعلى ، يرمى إلى هذه الغاية كذلك .

* * *

الأدب التاريخى :

كما أن بعض الكتاب رأى من رسالة الأدب أيضاً أن ينقل إلى الناس تاريخ العصر ، فاختار فى كتابة كتب التاريخ أن يتأنق فى العبارة ، ويجود الأسلوب ، حتى أصبح كتابه نثراً فنياً ، لا يختلف فى شىء عن كتابة الرسائل الفنية ، وأشهر الكتب التى خلفها هذا العصر من

هذا اللون اثنان : ألف أحدهما فى عصر الدولة الفاطمية ، وهو كتاب الإشارة ، إلى من نال الوزارة ، ألفه ابن الصيرفى على بن منجب ـ للمأمون وزير الخليفة الفاطمى، أرخ فيه لوزراء الدولة الفاطمية ، منذ تأسيس دولتهم فى مصر، مبتدئاً بمن استوزره العزيز بالله ، تاركا المعز لدين الله ، لأنه كان يباشر التدبير بنفسه ، ولا يعول فيه على غيره[1]. وانتهى بوزير عصره المأمون . والظاهر أن تأليف الكتاب ، وتقديمه للوزير ، جعل مؤلفه يختار هذه اللغة ، ولكنه لم يلتزمها فى جميع الكتاب ، بل فى بعض فصوله الأخيرة .

أما الكتاب الذى التزم اللغة الفنية السائدة فى هذا العصر من ألفه إلى يائه مع طول الكتاب وضخامته ، إذ يبلغ زهاء أربعمائة صفحة فهو كتاب الفيح القسى ، فى الفتح القدسى ، فهو كتاب التزم فيه صاحبه السجع ، ولم يقصد نقل المعلومات إلى السامع فحسب ، ولكنه أراد نقلها فى صورة مؤثرة جميلة ، وسوف نتحدث عن الكتاب فيما يلى . ولا أريد أن أتحدث عن قيمة هذه الكتب من الناحية التاريخية ، فقد تشمل المبالغة والإغراق ، ولكنها تحدثنا ، ولا ريب ، عن شعور الكاتب إزاء هذه الأحداث ، وقد جعل صاحب الروضتين كتاب الفتح القسى من مصادره التى اعتمد عليها فى كتابه .

* * *

الأدب القصصى :

وندر الأدب القصصى الموروث عن هذا العصر ، فليس فيما بين يدينا ما نعده من هذا اللون بتوسع ، سوى كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، وفى إطلاق أدب القصة على هـــذا الكتاب تسامح ، فليس هو بالكتاب ذى الخطة الموضوعة المهيأة ، فهو مع بسطه للحقائق بدون أدنى تصنع أو إعداد يقص ما رآه أو سمعه فى حياته ـــ ليس فيه أية وحدة ، سوى وحدة مؤلفه التى تظهر شخصيته دائماً ، برغم تغير المناظر ، وإذ يجد القارىء نفسه حيناً فى شيزر ، وأخرى فى دمشق ، وثالثة فى مصر ، ورابعة فى الموصل ، فكانت إحدى الذكريات تستدعى أخرى عند هذا الشيخ الهرم ، الذى أناف على التسعين ، والذى أمهل أن يكتب

(١) الإشارة ص ١٩ .

بدقة ، وأولا بأول ، حوادث حياته ، ولهذا يجب ألا نبحث فى كتاب الاعتبار عن الخطة الموضوعة ، ولكن أن نخلى أنفسنا للذة محادثة لا تصنع فيها ، حيث يجد المحدث لذته فى أن يروى قصص ماضيه ، ولا يتبع نظاما ، سوى ما يقوده إليه تخيله ، ولعله كان يلتمس العزاء لضعفه فى هرمه ، بأن يستعيد صور قوته الماضية ، ولقد قال :

فاعجب لضعف يدى عن حملها قلما من بعد حطم القنا فى لبة الأسد

ترك أسامة نفسه لذكرياته يرويها ، فى عبارة سهلة لازخرف فيها ، ولا أناقة ، بل يكاد يكون فى عامية معربة ، ولم يتورع عن استخدام العامية ، وكلمات إفرنجية ، وفارسية ، ويونانية ، وتركية .

قص علينا أسامة فى كتاب الاعتبار ماشاهده : من المعارك الحربية ، بينه وبين العرب ، أو بين الفرنج ، ورحلاته إلى دمشق ومصر ، وما رآه من أحداث فى مصر ، شارك فيها ، واتصل بها ، وماشاهده من الفرنج ، وصلته بهم ، ويصف وصفا قصصيا ما دار من معارك بين المسلمين والفرنج ، ويصــور الوقائع تصويراً حياً ، ويشيد بالشجاعة أنى رآها ، من المسلمين ، ومن الفرنج ، ويروى تربيته الأولى ، ويذكر عجائب ما رأى ، ويصف طباع بعض الوحوش ، ويسجل ما دار من أحداث سياسية وحربية ، رآها فى عصره ، ويقدر المرأة ويروى بعض ألوان شجاعتها ، ويصور بعض ألوان الحياة الاجتماعية ، وصلة الفرنج بالمسلمين ، فى السلم والحرب ، ويصور الفرنج ، ويرسم بعض سماتهم ، وعاداتهم الفردية والاجتماعية ، ويتحدث عن تأملات أوحى إليه بها طول عمره ، وركونه للأخطار ، ويلحق بالكتاب نكتا ، ونوادر شاهدها ، أوسمع بعضها ، من ثقة . وهاك إحدى ذكرياته ، قال : « كنت مغرى بالصيد ، فخرجت أتصيد ، فوقع بى قوم من الإفرنج ، فأخذونى ، ومضوا بى إلى بيت جبريل ، فحبسونى فيه فى جب وحدى ، وقطع على صاحب بيت جبريل ألفى دينار ، فبقيت فى الجب سنة ، لا يسأل عنى أحد ، فأنا فى بعض الأيام فى الجب ، وإذا قد رفع عنه الغطاء ، ودلى إلى رجل بدوى ، فقلت من أين أخذوك ؟ قال : من الطريق ، فأقام عندى .... وقطعوا عليه خمسين ديناراً . فقال لى يوما من الأيام : تريد تعلم أن مايخلصك من هذا الجب إلا أنا ، فخلصنى حتى أخلصك ، فقلت فى نفسى : رجل قد وقع فى شدة يريد لروحه الخلاص ، فما جاوبته . ثم بعد أيام أعاد على ذلك القول ، فقلت فى نفسى : والله لأسعين فى خلاصه ،

لعل الله يخلصنى بثوابه ، فصحت بالسجان ، فقلت له : قل للصاحب ، اشتهى أتحدث معك ، فمضى ، وعاد أطلعنى من الجب ، وأحضرنى عند الصاحب ، فقلت له : لى فى حبسك سنة ، ما سأل أحد عنى ، ولا يدرى أنا حى أو ميت ، وقد حبست عندى هذا البدوى ، وقطعت عليه خمسين ديناراً ، اجعلها زيادة على قطيعتى ، ودعنى أسيره إلى أبى ، حتى يفكنى . قال : أفعل . فرجعت عرفت البدوى ، وخرج ودعنى ، ومضى ، فانتظرت ما يكون منه شهرين ، فما رأيت له أثراً ، ولا سمعت له خبراً ، فيئست منه ، فما راعنى ليلة من الليالى إلا وهو قد خرج على من نقب فى جانب الجب ، وقال : قم والله لى خمسة أشهر ، أحفر هذا السرب من قرية خربة ، حتى وصلت إليك فقمت معه ، وخرجنا من ذلك السرب ، وكسر قيدى ، وأوصلنى إلى بيتى ، فما أدرى مم أعجب ؟ من حسن وفائه ، أو من هدايته ، حتى طلع نقبه من جانب الجب ، وإذا قضى الله سبحانه بالفرج فما أسهل أسبابه»[1] . ويجرى الكتاب كله على هذا النسق : ذكريات يستدعى بعضها بعضاً ، وهى لنا ذات فائدة كبرى ، لأنها تصور لنا كثيراً من نواحى العصر ، تصويراً حياً ، لشاهد عيان ، عاش حقبة طويلة من الزمن ، وشارك فى الحياة العامة بمقدار كبير .

وإلى جانب هذا القصص الشخصى ، ظهر القصص الشعبى ، يردده القاص على الشعب ، فى المقاهى ، يرفه على الناس فى أوقات فراغهم ، وقد دخل هذا اللون من القصص فى كتاب (ألف ليلة وليلة) فإن جزءاً من هذا الكتاب كان مما وضعه القصاصون المصريون فى ذلك العصر[2] ، وتأثروا فى أسلوبهم بالأسلوب الشائع يومئذ ، بين الكتاب ، وهو أسلوب السجع ، الذى يعنى بالزخرف ، والزينة ، والاقتباس .

ولعل قلة الأدب القصصى فى ذلك العصر ، تعود إلى قلة ابتكار أدباء هذا العصر ، الذين نسجوا على منوال من سبقهم ، ووجدوا فى القصائد والرسائل ما يغنيهم عن الالتجاء إلى القصص . ومما يلحظ أن المثل الأعلى للكتابة فى ذلك العصر كان مقامات الحريرى ، وهو كتاب قصصى ، كان جديراً أن يقتدى به فى إنتاج أدب قصصى ، إلا أن أثره لم يتعد

---

(١) الاعتبار ص ٦٠ .

(٢) راجع تاريخ حياة ألف ليلة من كتاب (فى أصول الأدب) ص ٤٨ و ٥٤ و ٦١ .

الاقتداء به فى الأسلوب السجعى ، والجرى وراءه فى صنع مقامات خيالية .

* * *

النثر الوصفى :

وخلف هذا العصر نثراً وصفياً ، وإن كان قليلا بالنسبة إلى الألوان السالفة ، فقلما انصرف الكتاب إلى وصف الطبيعة ، أو وصف مظاهر الحضارة التى يرونها بأعينهم ، وإنما يأتى ذلك كله عرضاً غير مقصود ، فرأينا مثلا رسائل للقاضى الفاضل وغيره ، فيها وصف لمصر ، ووصف للشام ، ووصف لدمشق[١] ، وزار العماد الكاتب مصر وتحدث عن مشاهدها ، وآثارها ، فقال : وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى ، لاستماع الأغانى ، والتنزه فى الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ، ودار الملك ، والنيل ، والمقياس ، ومرامى السفن ، ومجارى الفلك ، والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة فى المسائل الفقهية ، والمعانى الأدبية ، قال : واقترحنا على القاضى ضياء الدين الشهرزورى أن يفرجنا فى الأهرام ، فقد شغفنا بأخبارها فى الشام ، فخرج بنا إليها ، ودار بنا حواليها ، ودرنا تلك البرابى والبرارى ، والرمال والصحارى ، وأحمدنا المقار والمقارى ، وهالنا أبو الهول ، وضاق فى وصفه مجال القول ، ورأينا العجائب ، وروينا الغرائب ، واستصغرنا فى جنب الهرمين كل ما استعظمناه ، وتداولنا الحديث فى الهرم ومن بناه ، فكل يأتى فى وصفهما بما نقله لا بما عقله ، واجتهدوا فى الصعود إليه فلم يوجد من توقله ، وحارت العقول فى عقوده ، وطارت الأفكار عن توهم حدوده ، فياله من مولود للدهر قبل الطوفان ، انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده ، وسمار الأخبار بذكر حديث أجداث عاده وثموده ، ويدل إحكامه وعلوه على همة بانيه فى بأسه وجوده ، وإن فى الأرض الهرمين ، كما أن فى السماء الفرقدين ، وهما كالطودين الراسخين ، وكالجبلين الشامخين ، قد فنيت الدهور وهما باقيان ، وتقاصرت القصور وهما راقيان ، وكأنهما لأم الأرض ثديان ، وعلى ترائب التراب نهدان ، ولسلطان العالم علمان ، وإلى مراقى الأملاك سلمان ، وهما لليل والنهار رقيبان ، ولرضوى ولشمام نسيبان ، ومن زحل والمريخ قريبان ، ولعوادى الخطوب خطيبان ، ولثور الفلك روقان ، ولشخص الكرة الترابية ساقان[٢] ، . وهو

---

(١) الروضتين ٢ : ٥٨ و ٥٩ .
(٢) الروضتين ١ : ٢٦٧ .

وصف يدل على امتلاء قلبه بالإعجاب والتقدير لهذه الآثار الشامخة .

* * *

مقدمات الكتب :

وعنى بعض المؤلفين أن يضع لكتابه مقدمة ، يتأنق فيها ، ويسير على نسق الرسائل الفنية ، فيسجع ويجانس ويطابق ، حتى ولو أن المقدمة كانت لغير كتاب أدبى ، كما كان يفعل ابن دقيق العيد ، وكثير غيره ، فقد كانوا يرون من الواجب أن يكون للمقدمة جمالها الأدبى ، وأن تكون لغتها غير اللغة العلمية الخالصة فى بقية أجزاء الكتاب ، ومن أمثلة ذلك مقدمة ابن دقيق العيد فى شرحه لكتاب الإلمام فى أحاديث الأحكام ، إذ قال : « أما بعد حمد الله فإن للفقه فى الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاها ، ولا تحتجب عن العقول طوالعها وأضواها ، وأرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل ، البحث عن معانى حديث نبيه المرسل ، إذ بذاك تثبت القواعد ، ويستقر الأساس ، وعنه يقوم الإجماع ويصدر القياس ، وما تعين شرعا تعين تقديمه شروعاً ، وما يكون محمولا على الرأس لا يحسن أن يجعل موضوعا . . . » واستمر على هذا المنوال إلى آخر المقدمة [1] .

* * *

٢ — أسلوب الكتابة :

كان المثل الأعلى للكتابة الفنية فى ذلك العصر مقامات الحريرى ، اتخذوها إمامهم ، وقلدوها ، وهى كتابة تلتزم السجع ، ولا تحيد عنه ، وتعنى بألوان المحسنات البديعية عناية كبرى ، تجد ذلك النهج فى أول عصر الحروب الصليبية ، وتجده فى آخره ، وكان حاملو لوائها فى ذلك العصر كله ممن اقتفى تلك السبيل ولم يكد يحيد عنها ، ومما ينبغى أن يوجه النظر إليه أن القاضى الفاضل وهو من زعماء الأدب فى ذلك العصر لم يبتكر طريقة جديدة ، بل سار فى الطريق الذى مهد له من قبل ولم يخالفه ، وكان يتخذ مثله الأعلى الكتابة فى عصر الدولة الفاطمية التى ربى فى أحضانها ، وكان يرى فنها يومئذ غضا طريا [2] .

---

(١) طبقات الشافعية ٦ : ١٢ .   (٢) الروضتين ١ : ١٩٢ .

ولكنه لمكانته الاجتماعية، ومركزه فى الدولة، ولكثرة ما أنتجه قيل لأسلوبه فى الكتابة: الطريقة الفاضلية. وإن لم يأت الفاضل فيها بجديد، اللهم إلا زيادة الصنعة، والتمسك بها، والإلحاح عليها.

كانت طريقة السجع والعناية بالمحسنات هى الطريقة المثالية فى ذلك العصر، فى مختلف ألوان الكتابة: من سلطانية، وإخوانية، وقد رأينا نماذج مختلفة لذلك فيما أوردناه من هذه الألوان، بل رأينا أن القصص الشعبى تأثر بهذه الطريقة، عندما كتب بعض أقاصيص ألف ليلة وليلة، ورأينا أن التأنق فى الكتابة لم يتخل عنه الكتاب، حتى عندما كانوا يكتبون منشورات تذاع على الشعب، كما وجدنا ذلك فيما أوردناه من نصوص، بل تعدى التأنق إلى عقود الزواج، فصارت تستخدم فيها هذه اللغة الفنية المزخرفة كما كتب محي الدين بن عبدالظاهر عقد زواج الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس، على بنت سيف الدين قلاوون. بدأه بحمد لله مقرون ببراعة استهلال، وبعد مقدمة تحدث فيها عن فضيلة السعيد بركة، ومكانته الرفيعة، قال: «والمرتب على هذه القاعدة نور يستمده الوجود، وتقرير أمر يقارن سعد الأخبية منه سعد السعود، وإظهار خطبة تقول للثريا لانتظام عقودها: كيف، وإبراز وصلة يتجمل بترصيع جوهرها متن السيف، الذى يغبطه على إبداع هذا الجوهر به كل سيف، ونسج صهارة يتم بها — إن شاء الله — كل أمر سديد، ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختارها أبرك طالع، وكيف لا تكون البركة فى ذلك الطالع وهو السعيد[1]؟ . . . ويمضى الكتاب مباركا هذا الزواج مثنيا عليه، ممجدا له بهذا الأسلوب المتجمل الأنيق.

بل رأينا التأنق فيما يمنحه الطلبة من إجازات، يتولون بمقتضاها مناصبهم فى الدولة، فلا يكتفى حينئذ ببيان ما درسه الطالب من علوم صار جديرا أن يكون مرجعاً فيها، بل تسجع الإجازة وتطيل فيما يتعلق بالموضوع، كما أجاز ابن دقيق العيد تلميذه عمر بن المفضل، فكتب له: أستخير الله تعالى فى الإيراد والإصدار، وأعتصم به من آفتى التقصير والإكثار، وأستغفر الله فيما فرط فى الجهر والإسرار، وأقول: إنى ذاكرت فلانا زينه الله بالتقوى، وحرسه فى السر والنجوى، فى فنون من العلوم الشرعية: العقلية والنقلية، فألفيته يرجع إلى

(١) صبح الأعشى ١٤: ٣٠١.

معقول صحيح ، ومنقول صريح ، واطلاع على المشكلات ، واضطلاع بحل المعضلات ، لاسيما فى فقه المذهب ، فإنه أصبح فيه كالعلم المذهب ، وقام بعلم العربية والتفسير ، فصار فيهما الفاضل النحرير . وقد أجبته إلى ما التمس ، وإن كان غنيا بما حصل واقتبس ، فليدرس مذهب الشافعى لطالبيه ، وليجب المستفتى بقلمه وفيه ، ثقة بفضله الباهر ، وورعه الوافر ، وفطرته الوقادة ، وألمعيته النقادة[١] ... » .

طغى هذا التكلف على جميع ألوان الكتابة الفنية يومئذ ، ومضى أعلام الكتاب يشيدون بهذا النهج فى الكتابة ، ويجعلون السجع أعلى درجات الكلام ، وإذا تهيأ للكاتب أن يأتى به فى كتابته فإنه يكون قد ملك رقاب الكلم ، يستعبد كرائمها ، ويستولد عقائمها ، واحتجوا للسجع بأن القرآن قد أتى منه بالكثير ، حتى إنه ليأتى بالسورة جميعها مسجوعة ، ثم شرطوا فى هذا السجع الاعتدال فى مقاطع الكلام ، وحتموا أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى تابعا للفظ ، وإلا فإنه يجىء كظاهر مموه ، على باطن مشوه ، ويكون مثله كغمد من ذهب ، على نصل من خشب[٢] ، وأوجبوا أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة ، حادة ، طنانة ، رنانة ، لاغثة ، ولاباردة ، وتأتى الغثاثة والبرودة من أن يوجه الكاتب عنايته إلى السجع نفسه . من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الجمال ، ولا إلى تركيبها ، وما يشترط له من الحسن[٣] . كما شرطوا أن تكون كل واحدة من السجعتين مشتملة على معنى غير المعنى الذى اشتملت عليه أختها ، فان كان المعنى فيهما سواء فذلك هو التطويل بعينه[٤] . ولما كانت هذه الشروط لاتلين إلا فى أيد ماهرة قديرة ، كان كثير مما كتب فى هذا العصر مليئا بالثقل والتكلف ، وربما كان هذا هو السبب الذى جعل ابن شيث يرى الكتابة فى عصره قد انحطت عن مكانها ، وتدهورت منزلتها[٥] .

ولغرام أهل هذا العصر بمقامات الحريرى ، نسجوا على منوالها ، فوضعوا مقامات على نسقها حينا ، وشرحوها حينا آخر ، وحفظ لنا التاريخ أسماء كثيرين ممن ألفوا مقامات فى هذا العصر ، فمنهم الحسن بن صافى الذى حذا حذو الحريرى[٦] ، وكان يقول : مقاماتى جد وصدق ، ومقامات الحريرى هزل وكذب ، وعلق صاحب النجوم على هذا بقوله : « ولكن دون ذلك

(١) الطالع السعيد ص ٢٣٥ .
(٢) المثل السائر ص ٧٥ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) المرجع السابق ص ٧٦ .
(٥) معالم الكتابة ص ٦ .
(٦) معجم الأدباء ٨ : ١٢٤ .

أهوال[١] » ، رفعا لشأن مقامات الحريرى . ووضع محمد بن يوسف بن نحرير مقامة كتبها لبعض الأمراء ، يصف فيها الجوارح والخيل ، حفظ لنا الطالع السعيد[٢] جزءاً منها ، فى وصف الأمير الممدوح ، وآخر فى وصف الخروج إلى الصيد ، وثالثا فى وصف كلب . ومنها أنه خرج يوماً مع أناس ، قد وصلوا برهم بإيناس ، كل منهم يهتز للأكرومة ، ويأوى إلى شرف أرومة ، على خيل مسومة ، مثقفة مقومة .... » . ومنهم محمد بن الحسن بن سباع المصرى وضع المقامة الشهابية[٣] ، وأحمد بن على بن الزبير الغسانى ، صنف كتابه المقامات[٤] . وبقى لنا من هذا العصر مقامة الشاب الظريف ، وفيها يتحدث عن حبه وزيارته لأحد الرياض مرة حيث يرى عاشقين يصفون له قصة غرامهم ، ويتحدثون عمن يعشقون . وهو يمزج فيها الشعر بالنثر . وقد نسج على منواله[٥] شهاب الدين محمود الحلبى ، فوضع مقامة العشاق[٦] .

وظفرت المقامات كذلك بشروح كثيرة فى ذلك العصر ، فمنها المطول فى شرح المقامات لابن ظفر الصقلى[٧] ، ومنها شرح لصفى الدين عبد الكريم البعلبكى ، وصفه صاحب كشف الظنون بأنه جيد للغاية[٨] . ومنها شرحان لأبى محمد الواسطى : أحدهما على حروف المعجم ، والثانى على ترتيب المقامات[٩] . ومنها شرح المسعودى الذى قال عنه ابن خلكان : اعتنى بالمقامات الحريرية فشرحها ، وأطال شرحها واستوعب فيه مالم يستوعبه غيره ، رأيته فى خمس مجلدات كبار ، لم يبلغ أحد من شراح هذا الكتاب إلى هذا القدر ، ولا إلى نصفه وهو كتاب مشهور كثير الوجود بأيدى الناس، ... حصل ... كتبا كثيرة نفيسة غريبة ، وبها استعان على شرح المقامات[١٠] » . وبقى لنا من شروح هذا العصر شرح سلامة بن عبد الباقى ابن سلامة[١١] .

وذلك كله يدلنا على مدى ماظفرت به المقامات من عناية ، وما كان لها من مكانة . ولكنه مما يجب التنبيه عليه أنه إلى جانب هذه الغالبية الكبرى من الكتاب الذين ولعوا بالسجع ، وأكبروه ـ كانت هناك طائفة أخرى لاترى السجع فى الكلام جمالا ، بل تعاديه

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٦٨
(٢) ص ٣٦٧ . (٣) بغية الوعاة ص ٣٤ .
(٤) المصدر السابق . (٥) كشف الظنون جـ ٢ نهر ١٧٨٦ . (٦) فوات الوفيات ٢ : ٨٧ .
(٧) بغية الوعاة ص ٦٠ . (٨) كشف الظنون جـ ٢ نهر ١٧٨٩ . (٩) فوات الوفيات ٢ : ٢٨ .
(١٠) وفيات الأعيان ١ : ٥٢٠ . (١١) مخطوط بدار الكتب رقم ٧٤٣٧ ـ أدب .

وتقف له بالمرصاد ، وعد المتعصبون للسجع ذلك منهم ضعفا ، وعدم قدرة على الاتيان بالسجع(١).

ومن الرسائل التي لم يراع فيها السجع ، رسائل يحي النووى ، التي كان يكتبها للسلطان الظاهر بيبرس ، ينصحه فيها بالتزام جانب الشرع . كتب إليه مرة يطلب منه أن يعدل فى الرعية ، وأن يزيل المكوس المفروضة على أهل الشام ؛ لأن العام كان ممحلا ، بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار ، وقلة الغلات والنبات ، وهلاك المواشى ، وكتب معه جماعة من العلماء . فلما وقف السلطان على الرسالة غضب ، وهدد جماعة الكاتبين ، فكتب إليه محي الدين النووى :

« بسم الله الرحمن الرحيم — الحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آل محمد . من عبد الله يحي النووى ، ينهى أن خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره ، فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد ، . وقد أوجب الله الكلام عند الحكام عند الحاجة إليه ، فقال تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ، ولا تكتمونه » ، فوجب علينا حينئذ بيانه ، وحرم علينا السكوت ... وكان الجهاد فرض كفاية ، فإذا قرر السلطان له أجناداً مخصوصين ، ولهم أخباز معلومة من بيت المال ، كما هو الواقع ، تفرغ باقى الرعية لمصالحهم ، ومصالح السلطان ، والأجناد ، وغيرهم ، من الزراعة والصنائع وغيرها ، مما يحتاج الناس كلهم إليه ، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم ، ولا يحل أن يؤخذ من الرعية شيء ، ما دام فى بيت المال شيء : من نقد ، أو متاع ، أو أرض ، أو ضياع تباع ، أو غير ذلك . وهؤلاء علماء المسلمين فى بلاد السلطان ، أعز الله أنصاره ، متفقون على هذا ، وبيت المال بحمد الله معمور ، زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة فى حياة السلطان ، المقرونة بكمال السعادة والتوفيق والتسديد ، والظهور على أعداء الدين . . . وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة العلماء ، فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه . . . وأما أنا فى نفسى فلا يضرنى التهديد ولا أكثر منه ، ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فإنى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ، وإنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار ، وأفوض

---

(١) المثل السائر ص ٧٤ .

أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقول الحق حيثما كنا ، وألا نخاف فى الله لومة لائم[١] . . . ، وكذلك الرسائل التى كان يكتبها نور الدين بخطه ومن إنشائه[٢] ، أو التى كتبها صلاح الدين من إنشائه[٣] . ويظهر أن هؤلاء الذين كانوا يكتبون كتابة مطلقة لا تقيد فيها بالسجع ، هم أولئك الذين ماكانوا يتخذون الكتابة حرفة لهم . أما أولئك الذين كانوا يتخذونها مهنة لهم فما كانوا يرون المجد الفنى فى غير السجع ، والزخارف البديعية ، وأكاد لا أذكر أنى قرأت لواحد من أولئك رسالة مطلقة ، مما كان يعد أناقة فى تلك العصور . ويظهر أن بعض الكتاب ، حتى أولئك الذين كانوا يكتبون للسلاطين ، قد أدى التزامهم للسجع إلى هبوط فى الأسلوب وضعف فى العبارة ، كهذه الرسالة التى أمر بيبرس بكتابتها إلى صاحب قبرص ، لما حطمت سفن مصر على سواحلها ومنها .. . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب ، وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح ، واتكل واتكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه ، كمن اتكل على الريح ، وما النصر بالهواء مليح ، إنما النصر بالسيف هو المليح ، ونحن ننشىء فى يوم واحد عدة قطائع ، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة ، ونجهز مائة قلع ، ولا تجهز لكم فى مائة عام قلعة ، وما كل من أعطى مقذافا قذف ، وما كل من أعطى سيفا أحسن الضرب به أو عرف ...[٤] » .

ومما هو جدير بالإشارة إليه أن الأناقة والزخرف ما كانا يطلبان إلا إذا كان المرسل إليه يعرف اللسان العربى . أما غير هؤلاء ، فإنه لاينبغى أن يلم . . . بالألفاظ المسجوعة ، ولاضرب الأمثال والتشبيهات والاستعارات ، فإن ذلك إنما يستحسن مادام مفهوما فى تلك اللغة ، وغير منقول إلى غيرها ، وأكثر هذه الضروب إذا نقلت من لغة إلى لغة فسدت معانيها ، وعاد حسنها قبيحاً ، ومنها مالا يفهم بعد نقله ، ومنها ما إن فهم كان له معنى غير ماقصد ، لاسيما إن كان الناقل لها مقصرا فى العلم باللغتين : المنقول منها ، والمنقول إليها ، و ... ، الأفضل فى هذا الباب أن يتولى هذا الكاتب نقل مايكاتب به ، إن كان عارفاً بلغة من يكاتبه بنفسه ، وإن لم يكن عارفاً بها فيتطلب من يكون عارفا بها ، فينقل مايكتب به ، ويكتبه

---

(١) حسن المحاضرة ٢ : ٦٨ .

(٢) الروضتين ١ : ٦ و١٣ و١٧٤ .

(٣) المرجع السابق ٢ : ٧ .

(٤) السلوك .

بخط أصل تلك اللغة ولسانهم ، إما فى ذيل الكتاب ، أوفى كتاب طيه . . . وليس يحتاج فى مكاتبة أهل اللغات المخالفة ، لغير المعانى السديدة ، البريئة من الاستعارات ، والكتابات الصائبة لمواضع الحجج ، التى تبق جزالتها ، ونضارة معانيها وبهجتها ، مع النقل والترجمة[1] » .
وهكذا سلمت الكتابة التى يخاطب بها غير من يعرف العربية من أناقة البديع وزخارفه ، ولعل خير مثال لذلك كثير من المعاهدات ، التى عقدت بين المسلمين والفرنج ، فقد كان القصد الأول منها وضوح المعانى من أقرب سبيل . وسوف نتحدث عن ذلك فى فصل مقبل .

بل لقد يتدلى أسلوب الرسالة فيصبح أقرب إلى العامية المعرب آخر كلماتها ، كهذه الرسالة التى تصف حادثة غريبة جرت بالشام ، قال صاحب نهاية الأدب : وفى هذه السنة (سنة ٦٨٠) فى سابع عشر صفر ، ورد إلى الأمير حسام الدين لاجين المنصورى نائب السلطنة بالشام ، كتاب من الأمير بدر الدين بكتوت العلائى ، مضمونه بعد البسملة : يقبل الأرض ، وينهى أنه لما كان فى يوم الخميس رابع عشر صفر ، وقت العصر ، حصل بالغسولة إلى جهة عيون القصب ، غمامة سوداء إلى الغاية ، وأرعدت رعداً كثيراً زائداً ، وظهر من الغمامة شبه دخان أسود من السماء ، ومتصل بالأرض ، وصور من الدخان صورة هائلة مقدار العمود الكبير ، الذى لايحضنه جماعة من الرجال ، وهى متصلة بعنان السماء ، تلعب بذنبها ، فيتصل بالأرض شبه الزوبعة الهائلة ، وصارت تحمل الحجارة الكبار المقادير ، وترفعها فى الهواء كرمية سهم نشاب وأكثر ، وصار وقعها ، وتلاطم الحجارة بعضها ببعض يسمع له صوت هائل ، من المكان البعيد ، ومابرح ذلك مستمراً فى قوته ، واتصل بأطراف المعسكر المنصور ، وما صادف شيئاً إلا دفعه فى الهواء ، كرمية نشاب وأكثر ، وما صادف شيئاً من الأشياء: من السروج ، والجواشن ، والعدد ، والسيوف ، والتراكيش ، والقسى ، والقماش ، والشاسات ، والكلوتات ، والنحاس ، والأسطال ، إلا صار طائراً فى الهواء ، كشبه الطيور . ومن جملة ذلك أنه كان فى اسطبل المملوك خرج آدم ملآن تطابيق نعال بيطارية ، حمله فى الهواء . والجو ، كرمية نشاب ، ودفع من جملة مادفعه عدة من الجمال بأحمالها قدر رمح وأكثر ، وحمل جماعة من الجند ، والغلمان ، وأهلك شيئاً كثيراً من السروج التى صادفها ، والرماح ، وطحن ذلك إلى أن بقى لا ينتفع به ، وأتلف شيئاً كثيرا ، مما صادفه فى طريقه ، وضاع شىء كثير من العدد ، والقماش ، لمقدار مائتى نفر من الجند وأصحاب الأمراء إلى

---

(١) قانون ديوان الرسائل ص ١٢٩ .

أن صاروا بغير عدة ولا قماش ، وغابت تلك الحية عن العين ، فى عنان السماء ، فتوجهت فى البرية صوب الشرق ، والذى عدم من قماش الجند منه ما راح فى الغمامة السوداء ، ومنه ما أخذه بعض الجند ، مع أن المملوك ركب بنفسه ، ودار فى العسكر المنصور ، واستعاد كثيرا مما عدم ، وبعد هذا عدم ما تقدم ذكره. وهذه الوقعة ما سمع بمثلها أبداً ، ثم وقع بعد هذا يسير من مطر ، ثم إن (اللواجيق) الكبار حملها الهواء ، وهى منصوبة ، وصارت مرتفعة فى الجو ، وحسبنا الله ونعم الوكيل [1] .

---

(١) نهاية الأرب ٢٩ : ٣٦ . مصور بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة.

ديوان الإنشـــاء

عنيت الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء عناية كبرى، ووجهوا إليه مزيد اهتمامهم، اتخذوه وسيلة لرفعة قدرهم، ونشر ذكرهم فى الآفاق، ذلك أن كتابه يشيدون بمجدهم فيما يكتبون من رسائل وغيرها، فينمون فى قلوب الشعب إجلالهم وتقديسهم، كما ينشرون اسمهم محاطا بهالة من التعظيم فى أنحاء العالم، ولهذا كان لا يرأس هذا الديوان إلا أجل كتاب البلاغة، ويخاطب بالشيخ الأجل، ويدعى بكاتب الدست الشريف، ويستشيره الخليفة فى أكثر أموره، ولا يحجب عنه، متى قصد المثول بين يديه، وربما بات عند الخليفة ليالى، وكان جاريه مائة وخمسين دينارا فى الشهر، وهو أول أرباب الإقطاعات، وأرباب الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر أحد، ولا يجتمع بكتابه أحد إلا الخواص، وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وفراشون، وله المرتبة الهائلة والدواة، وهى من أخص الدوى، ويحملها أستاذ من أستاذى الخليفة(١).

وقال صاحب صبح الأعشى: ولم يزل صاحب هذا الديوان معظما عند الملوك فى كل زمن، مقدما لديهم على من عداه، يلقون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم ويطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء، والأهل، والولد(٢).

واستمرت العناية بهذا الديوان فى عهد الدولة الأيوبية، وعصر المماليك، ينظر إلى صاحبه تلك النظرة السامية، ويختار من أسمى الحائزين على صفات الكمال، ولذا صح القول بأن ديوان الإنشاء ظل طول عصر الحروب الصليبية رفيع المكانة، معتنى به أشد العناية.

وكان رئيس ديوان الإنشاء يلقب فى عهد الدولة الفاطمية (بكاتب الدست)، وظل الأمر من بعد هذه الدولة إلى أوائل دولة المماليك وديوان الإنشاء يليه كاتب واحد، يعبر عنه بكاتب الدست، وربما عبر عنه بكاتب الدرج، وحينا يليه جماعة يعبر عنهم بكتاب الدست، ويقال إنهم كانوا فى أيام الظاهر بيبرس ثلاثة، أرفعهم درجة القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وظل الحال على ذلك إلى أن ولى الديوان القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون، فلقب بكاتب السر، ونقل لقب كاتب الدست إلى طبقة دونه من كتاب الديوان(٣)، واستمر الحال على ذلك إلى آخر عصر الحروب الصليبية.

(١) خطط المقريزى ٢ : ٢٤٤، ٣ : ٢.
(٢) صبح الأعشى ١ : ١٠١.
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٣.

أما أعمال رئيس ديوان الإنشاء فالتوقيع على الرقاع والقصص ، بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات ، والمكاتبات فى الأمور المتعلقة بالمملكة ، والتحدث فى المظالم : من إطلاق ، ومنع ، وولاية ،وعزل ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة ، كما ينظر فى الكتب الواردة على الديوان ، من داخل المملكة وخارجها ، ويبدى رأيه فى الأمور الواردة بها ، وقد كانت الرسائل تسلم إليه مختومة ، وهوالذى يعرضها على الخليفة ، ويأمر بالإجابة عنها ، وهوالذى يعنى بالنظر فيما تتفاوت به المراتب فى المكاتبات والولايات ، من الافتتاح ، والدعاء ، والألقاب ، خصوصا فى زمن خلفاء الفاطميين ، كى لا يزاد أحد فى الألقاب على ما لقبه به الخليفة ، كما يتصفح ما يكتب فى الديوان قبل خروجه منه حتى يكون كامل الفضيلة : خطا ، ولفظاً ،ومعنى،وإعرابا ، ويعنى بأمر البريدورجاله ، وأمرأبراج الحمام ومتعلقاته ، وأمرالعيون والجواسيس ، وغير ذلك من الأمور التى يعود نفعها إلى المملكة (١) .

ولما كانت هذه الأعمال كثيرة متشعبةالنواحى احتاج رئيس الديوان إلى كتاب يعاونونه ، يختص كل كاتب بناحية منها ، فهذا يكتب العهود ، وتقاليد الولايات ، والكتب فى الحوادث الكبار ، والمهمات العظيمة ، التى تتلى فيها الكتب على المنابر ورءوس الأشهاد . وذاك يكتب مكاتبـات الملوك . وغيرهما ينشىء مكاتبات أهل الدولة وكبرائها وولاتهـا ، من النواب ، والقضاة ،والكتاب، والمشارفين ، والعمال وغيرهم ، ورابع يكتب المناشير ، والكتب اللطاف ، وخامس جيد الخط يبيض ماينشئه المنشىء . وسادس يتصفح ما يكتب فى الديوان : من جميع الإنشاءات ، والتقليدات ، والمكاتبات ، حتى لا يكون فيها خطأ فى الخط ، أو اللفظ ، أو المعنى ، أو الإعراب ، ولذا وجب أن يكون هذا المتصفح عالى المنزلة فى اللغة والنحو وحفظ كتاب الله ، وسابع يعرف لغة أجنبية من فارسية ، ورومية ، وفرنجية ، كى يترجم ما يرد إلى الديوان بغير اللسان العربى (٢) .

---

(١) راجع أعمال صاحب ديوان الإنشاء بالتفصيل فى صبح الأعشى ١ : ١١٠ وما يليها .

(٢) راجع هؤلاء الكتاب بالتفصيل فى صبح الأعشى ١ : ١٣٠ وما يليها .

كان ديوان الانشاء يومئذ رأس الدولة المفكر ، ووسيلة اتصال الحكومة بفروعها فى داخل البلاد ، وبغيرها من الحكومات فى خارج حدودها ، وقد استطاع النثر أن يفى بحاجة الأمة ، وأن يعبر عن مشاعرها وإحساساتها ، وقد أدرك صاحب صبح الأعشى قيمة ما يسجله ديوان الإنشاء ، فقال : إنه لو جمعت بعض دفاتره لاجتمع منها تاريخ كامل (١) .

وإلى جانب هذا العمل الضخم كان ديوان الإنشاء يتخذ كمعهد علمى ، يتخرج فيه من يريد أن يشغل منصبا من مناصبه ، فيلتحق به من يتثقف ثقافة تعينه على مواصلة السير حتى يتخرج فى الكتابة .

وتولى الكتابة فى ديوان الإنشاء فى عصر الحروب الصليبية طائفة من أعلام الكتابة فى الأدب العربى كله ، فمنهم فى عصر الدولة الفاطمية على بن أبى أسامة الحلبى المتوفى سنة ٥٢٢ هـ ، وتاج الرئاسة أبو القاسم على بن سليمان المعروف بابن الصيرفى ، والقاضى محمود بن أسعد بن قادوس ، والقاضى الموفق بن الخلال ، والقاضى الفاضل ، الذى رأس ديوان الإنشاء ، وضم إليه الوزارة فى عهد صلاح الدين ، وكان هو والعماد أشهر كتاب الدولة الأيوبية . وتوالى كتاب الإنشاء فى هذه الدولة ، فمنهم أمين الدين سليمان ، وأمين الدين عبد المحسن الحلبى اللذان كتبا للكامل بن العادل ، ولما ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب ولى ديوان الإنشاء الصاحب بهاء الدين زهيرا ، ثم صرفه ، وولى بعده الصاحب فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، الذى ظل فى ديوان الإنشاء إلى آخر الدولة الأيوبية ، وظل فيه إلى أوائل عصر دولة المماليك فى أيام المنصور قلاوون الذى نقله إلى الوزارة ، وولى مكانه القاضى فتح الدين بن القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، ولما مات ولى الأشرف خليل بن قلاوون القاضى تاج الدين أحمد بن الأثير (٢) ولعله آخر من عرفنا من الكتاب فى عصر الحروب الصليبية .

* * *

ولما كان لهذا الديوان أهمية كبرى فى هذا العصر ألفت كتب تتحدث عن نظمه ، وما يجب أن يتوفر فى رجاله ، وتقدم لهم بعض ما يعينهم فى أعمالهم ، ومن هذه الكتب : قانون ديوان الرسائل لأبى القاسم بن الصيرفى أحد رؤساء الكتاب فى عهد الدولة الفاطمية ، والمتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، وقد ألفه ليكون دستورا يختار بمقتضاه من يعمل فى ديوان الرسائل ، رئيسا كان أو مرءوسا ، وقدمه إلى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش أحد كبار

---

(١) صبح الأعشى ١ : ١٣٥ .

(٢) راجع المرجع السابق ص ٩٦ ، ٩٧ .

وزراء هذا العصر . ويبدو فى فاتحته أثر المذهب الشيعى واضحا ، ففيها صلاة على أخى محمد وصفيه ، وهو على أبى طالب .

يأخذ الكتاب بعدئذ فى بيان ما يجب أن يكون عليه رئيس ديوان الانشاء : من العلم والأخلاق : كالدين ، والورع ، والأمانة ، والإسلام ، وأن يكون على مذهب الإمام الفاطمى عاقلا ، بليغاً ، عالماً بفنون الكتابة ، حافظاً للقرآن ، والحديث ، والتاريخ ، والفقه ، والشعر ، وعلوم اللغة ، كما يجب أن يكون صبيح الوجه ، طلق اللسان ، وقوراً ، حسن اللقاء ، شديد الذكاء ، سريع الرضا ، بطىء الغضب ، ويكون من كتمان السر بالمنزلة التى لايدانيه فيها أحد ، حتى يقرر فى نفسه أمانة كل حديث يعلمه ، وتناسى كل خبر يسمعه .

أما ما يختص به متولى ديوان الرسائل من الأعمال فلازمة الملك ، وتأمل الكتب ، وتصفح ما يكتب من السجلات والمنشورات ، وبذل ما يراه من الآراء الصائبة . ويمضى الكتاب متحدثا عن شروط كل كاتب من الكتاب العاملين فى الديوان .

ومما هو جدير بالإشارة إليه هذه الدقة التى كانت تطلب فى ترجمة الكتب الواردة إلى ديوان الإنشاء ، بالخط الأرمنى أو الرومى أو الفرنجى أو غيره من الخطوط المخالفة للخط العربى ، فقد كان يطلب ممن يترجم أن يشهد على نفسه اثنين أن هذا الذى ترجمه تفسير لما ورد فى هذه الكتب بلا زيادة ولا نقص[1] . كما أن الأفضل لمن يكتب إلى غير من يتكلم العربية أن ينقل ما يكتبه إلى لغة المرسل إليه بنفسه ، أو بغيره ممن يجيد معرفة هذه اللغة إما فى ذيل الكتاب ، أو فى كتاب طيه ، فكأن الرسالة كانت تكتب بلغتين : العربية والأجنبية معا ، فقد لا يجد الملك الذى يصل إليه الكتاب ناقلا ماهرا عالما باللغتين ، فربما أفسد الناقل المعنى ، فعاد الكتاب المصلح مفسداً[2] .

أما كتاب معالم الكتابة ومغانم الإصابة فيعنى كذلك بديوان الإنشاء ، ومؤلفه عبدالرحمن ابن على بن شيث غامض التاريخ . ويظهر أنه كان كاتبا فى ديوان الإنشاء ، وأنه عاش فى أيام صلاح الدين ، والملك العادل ، كما يمكن أن يفهم ذلك من ذكره لهما فى كتابه (ص ٣٤) . كما أنه يستفاد من هذا الكتاب أيضاً أنه كان شيعياً ، فاكتفى فى المقدمة بالصلاة على محمد وآله دون ذكر صحبه . ولما جاء ذكر على قال : صلوات الله عليه ، مما لا يقوله إلا الشيعة .

---

(١) قانون ديوان الرسائل ص ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٩ .

قسم المؤلف كتابه أبواباً ، جعل الباب الأول لآداب الكاتب ، وجعل ركنيها : التقوى والنصيحة لمن يخدمه ، وقد أطال فى بيان هـذه الآداب ، وما ينبغى أن يكون عليه الكاتب خلقاً وعقلا ، وخص كتاب الملوك وأركان الدولة بفصل خاص ، ذكر فيه آدابهم ، وما يجب عليهم من أعمال ؛ وهنا تحدث عن الدواوين وكتابها ، كديوان الجيش ، وديوان الإقطاع ، وديوان المال ، وعن موظفى هذا الديوان .

أما الباب الثانى فقد تحدث فيه عن أوائل الكتب ، وما يكون به التخاطب بين المتكاتبين على مقدارهما ، وقد صدر المؤلف هذا الباب بمقدمة تاريخية ، تحدث فيها عما كانت تصدر به الكتب ، وما كان فيها من البساطة ، وعدم التصنع ، والتملق ، وما كانت تتسم به الكتب من الايجاز البليغ ، برغم اشتمالها على المعانى الكثيرة ، وعما آل إليه أمر هذه الكتب : من زيادات فى صدرها ، ودعاء فى أولها ، وزخرف وزينة ، ومضى الباب بعدئذ يصف ماسنه الكتاب أن يخاطبوا به المرسل إليهم : خلفاء ، وملوكا ، وغيرهم ، ومايدعى به لهؤلاء وسواهم وما ينعت به المكتوب إليه . ويتحدث عن شكل الكتاب ، ونقطه ، وعنوانه ، والتحميد فى أوائل الكتب ، وذكر الآيات فى صدرها ، والتزام السجع فيها ، والدعاء على الأعداء فى مفتتحها ، وما يكنى به عن المرسل إليه .

وتحدث الكتاب بعدئذ عن أواخر الكتب ، وبم تختم ، وكيف تؤرخ .

ويصف الباب الثالث الخط وبرى القلم وإمساكه .

وأما الباب الرابع فيتحدث فيه عن البلاغة ، وما يتصل بها ، قال المؤلف: « هذا الباب هو الذى عليه المعول فى الكتابة ، وفيه تتفاوت أقدار الكتاب ، وهو الذى فضل الله به من آتاه من عباده فصل الخطاب »[1] . والبلاغة المثالية عنده أن يكون اللفظ قليلا ، وأن يكون الكلام منطبقاً على المعنى ، لا يفضل عنه ، وأطال فى إيراد أمثلة توضح هذه البلاغة المثالية ، وأورد المؤلف بعدئذ نظرية فى النثر ، يظهر أنها وجدت رواجا فى ذلك العصر ، تلك هى أن الحذاق من أهل الصناعة يرون « أن الكتابة هى حل المنظوم من الشعر ، إذ معانى الشعر قد استخدمت لها الألفاظ كلها ، لعناية الناس بها ، فاذا كان الكاتب ماهراً نظر إلى معنى الذى يقصده من الأشعار ، فحل نظامه ، وحلى به كلامه ، ولهذا قلنا : إن نعوت الشعر

---

(١) معالم الكتابة ص ٦١ .

كلها تصلح أن تكون للنثر. ولست أريد هنا تصحيح هذه النظرية أو تخطئها، ولكنى أريد فحسب أن أبين وجهة نظرهم التى كان لها أثرها فى صناعة الكتابة من ناحية، وفى التأليف الأدبى فى ذلك العصر من ناحية أخرى، وفى منهج ثقافة الكتاب من ناحية ثالثة كما سنرى.

ولما كان السجع والتزام ألوان الزينة هو المذهب المثالى للكتابة فى ذلك العصر، تحدث المؤلف عن السجع، وعن أنواعه، وعن سمات ألوان الزخرف ممثلا لكل نوع، وهى أبواب تدخل اليوم عندنا فى علمى البيان والبديع. والمؤلف فى هذا الباب ينهج نهجاً تطبيقياً فى توضيح الأنواع البلاغية التى أوردها.

كما نهج هذا النهج أيضاً فى الباب الخامس الذى أورد فيه عبارات يقوم بعضها مقام بعض، لا يستغنى عنها الكاتب. وقد دفع المؤلف إلى إيراد هذا الباب رغبته فى أن يجدد الكاتب كتابته، ولا يقف عاجزاً عند المأثور من الأساليب، أورد المؤلف من ذلك قدرا كبيراً انتقل منه إلى الباب السادس الذى أورد فيه طائفة صالحة من الأمثال التى يدبجها الكاتب فى كلامه، ويستشهد بها نظما عند توغله فى القول واقتحامه، فإيراد البيت الشعر فى مكانه، والتمثل بالمثل السائر فى موضعه، من أحسن أنواع الكتابة وأعظم فنونها[1]. وهو فى هذا الباب يورد المثل شعراً أو نثراً، ويبين مضربه.

وأورد فى الباب الثامن ما لابد للكاتب من النظر فيه، والتحرز منه، وكثيراً ما يسقط فيه كثير من الكتاب، فمن ذلك معرفة ما يكتب بالياء من الكلمات، وما يكتب بالياء والألف. ومنها ألفاظ يغلط فى استعمالها كثير من الكتاب، يوردها، ويبين وجه الصواب فى استخدامها، ومنها ما يذكر ويؤنث من جسد الإنسان، وأفعال جاءت متعدية كما هى لازمة، وألفاظ أورد معانيها، ويختم الكتاب بذكر كتابة الهمزة وكيف تكتب.

من هذا العرض نتبين أن هذا الكتاب هو إعداد كاتب ديوان الانشاء، وإمداده بالزاد الصالح له فى مهنته، وعرض نماذج بلاغية يقتفيها فيما يكتب، وهو بذلك يعد مكملا لكتاب قانون ديوان الرسائل، الذى تحدثنا عنه فيما مضى.

وينهج نهج الكتاب الثانى الذى يرمى إلى تمرين كاتب الإنشاء وإعداده وإمداده — كتاب المفتاح المنشا فى حديقة الإنشا لابن الأثير، تحدث فى مقدمته مؤلفه عن صناعة الكتابة، وأنها أشرف صناعات الممالك، فهى لها اليد اليمنى التى بها الأخذ والعطاء، والمنع

(١) معالم الكتابة ص ١٠٥.

والإمضاء ، ولهذا يجب أن يختارها من يتصف بصفات عقلية وخلقية وثقافية ، وهنا يعدد المؤلف هذه الصفات ، ولاسيما ما يحتاج إليه من ألوان البلاغة ، ولا يفرق المؤلف فى ذلك بين ما يحتاج إليه فى صناعة النثر أو الشعر ، ورتب ابن الأثير كتابه فى بابين : أولهما فى مراتب الكتب والمخاطبات ، وكيفية وضع الأسماء ، وأين يكون محلها ، والثانى فى بدء الرسائل وختمها ، فيذكر ما تبدأ به الرسائل والألقاب التى يخاطب بها المرسل إليهم ، والدعاء لهم ، ويورد أدعيـة منوعة للمرسل إليهم ، ويذكر فصلا يأتى فيـه بأدعية لأرباب الملل غير الإسلام ، ويأتى بالصيغ التى يقدمها الكاتب بين يدى مراده ، ويشرح كثيراً من أنواع المحسنات البديعية .

أما كتاب قوانين الدواوين الذى وضعه ابن مماتى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ ، فلم يقف عند ديوان الإنشاء ، بل عنى أول ما عنى بديوان الخراج ، والناحية المالية للدولة ، وإن كان قد تحدث عن مكانة الكتابة فى الدولة ، وصفات الكتاب .

الكتاب

أن أهمية ديوان الإنشاء، والمكانة السياسية لرجاله دفعت من يريد الوصول إلى هذا المنصب أن يأخذوا بحظ كبير من الثقافة، يؤهلهم لهذا المنصب الرفيع، فضلا عما يجب أن يتصفوا به من صفات عقلية وخلقية، ولعل ما ألف من كتب تتعلق بديوان الإنشاء تبين لنا الثقافة التى كان من الواجب أن ينالها كاتب الإنشاء فى ذلك العصر، فيجب أن يكون ملما بعلوم الادب، وهى اللغة، والنحو، والصرف، والبلاغة، والعروض، والقوافى، آخذا من كل فن من فنون عصره بطرف، حتى إذا وردت مسألة دينية، أو سياسية، كان مستطيعاً أن يخوض فيها، وأن يتحدث عنها. قال صاحب العقد الفريد للملك السعيد مبينا أهمية كاتب الإنشاء، وما يجب أن يكون عليه من الثقافة: « كتابة الإنشاء من مقومات الدولة وقواعد المملكة، وصاحبها المباشر لها فى خدمة السلطان، معدود من أكبر الأعضاء والأعوان، نازل منه منزلة القلب واللسان من الإنسان، فإنه المطلع على الأسرار، المجتمع لديه خفايا الأخبار ... كم من عصب باغية أراق قلم الإنشاء بشباه دمها، وكتائب جيش قابلها كتاب فردها وهزمها ... فهو يقوم من منآد الدولة ما تقومه المقانب، ويقوم بنصرة الملك فى مواقف لا تصل إليها الكتائب .. هذا إلى غير ذلك من الأغراض المهمة ... التى لا بد للمملكة من إقامة وظائفها ... من تهنئة يعظم بها قدر النعمة الموهوبة، وتعزية يبرد بها حرارة العبرة المسكوبة، وشفاعة يقتاد بها زمام القبول، لحصول المأربة المطلوبة، فلهذا كاتب الإنشاء المعانى، علم هذه المعانى، ضارب فى أعشار العلوم بالقدح المعلى، وراكب من صهوات الفضائل مطا المحل الأعلى، فإن مواد صناعته وأمتعة بضاعته، وشروط براعته معرفة الآيات القرآنية، وأسباب نزولها، وعلم الأحاديث النبوية، وكيفية مدلولها، وفهم سير الملوك الأولى فى أفاعيلها وأقاويلها، والتضلع من الحكمة والأمثال بتفريعها وتأصيلها، والتطلع على وقائع العرب، بجملها وتفاصيلها، والتوسع فى أبحر المعانى الشعرية ما بين متقاربها وطويلها، فبذلك يملك زمام البلاغة والبراعة، ويرقى بقدمه على قمم أهل هذه الصناعة، فإذا أمره السلطان بكتاب تخير له أفصح ألفاظه وأرجح معانيه، وجعل مطلع دعائه مشعراً بالغرض المودع فيه، ويختصر تارة، ويطنب أخرى، ويستعمل فى كل مقام ما هو أليق به وأحرى »[1].

---

(١) العقد الفريد ص ١٤٨.

ولما كانت جودة الأسلوب شرطاً أساسيا للكاتب ، بها يمتاز ، وتعلو مكانته ، عنى بهذه المادة عناية تامة ، فألفت الكتب التى تبين ألوان البلاغة ، وتأتى بالمثل والنماذج ، التى يمكن الاقتداء بها والسير على منوالها ، وقد رأينا ما صنعه صاحب معالم الكتابة ، ليقدم للكتاب ذخيرة صالحة ، يستمدون منها ما يرفع أسلوبهم ، وينهض بنثرهم .

ولا يكاد يؤلف كتاب فيه ذكر لديوان الإنشاء إلا تعرض صاحبه فيه لألوان البلاغة التى يجب أن تكون فى قلم الكاتب ، فنجد صاحب العقد الفريد للملك السعيد يعقد بابا لكتابة الإنشاء ، ويتحدث عن أثر بلاغة الكاتب ، فى استمالة القلوب ، وامتلاك النفوس ، فتنجح المقاصد ، وتتم الأغراض ، ويشرح شعب البلاغة العشرة : من الاستعارة ، والتشبيه ، والكناية والإيجاز ، والإطناب ، وغيرها ، لأنها الأصول ، وما عداها يرجع إليها [(١)] .

ولما كان الكتاب فى تلك الفترة يؤمنون بأن الشعر هو الينبوع الذى يستقون منه معانيهم ، مضوا إلى التراث الشعرى يدرسونه ، ويحفظونه ولعل هذا هو السبب فى كثرة ما أثر عن هذا العصر ، من المجموعات الشعرية ، كما رأينا ، ومضى بعض العلماء يضع نماذج للكتاب ، فى طريقة الاستفادة مما أثر من هذا الشعر بحله نثرا ، فرأينا ابن الأثير يؤلف كتابه : الوشى المرقوم فى حل المنظوم ، يبين بطريقة عملية كيف نستفيد من الشعر معانى ، يوحيها إلينا ، فنعبر عنها ، وكيف نولد معانى جديدة من معانيه . وإن فيما رواه القاضى الفاضل عن نفسه عندما قدم إلى مصر يريد أن يتعلم الكتابة الإنشائية لدلالة على المنهج العلمى الذى كان الكاتب يأخذ به نفسه إذا أراد التبريز فى فن الكتابة . قال القاضى الفاضل : « كان فن الكتابة بمصر فى زمن الدولة المصرية غضا طريا ، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رئيس يرأس مكانا وبيانا ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانا . . . فأرسلنى والدى . . . وأمرنى بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به تلك الأيام ، رجل يقال له ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ، ومثلت بين يديه ، وعرفته من أنا ، وما طلبتى ، رحب بى وسهل ، ثم قال : ماذا أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن وكتاب الحماسة ، فقال : فى هذا بلاغ ، ثم أمرنى بملازمته ، فلما ترددت إليه ، وتدربت بين يديه ، أمرنى بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة ، فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية ، فحللته » [(٢)] .

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٠ وما يليها .

(٢) الوشى المرقوم ص ٩ .

فالمنهج العملى لتكوين الكاتب يومئذ هو أن يعد نفسه بثقافة أدبية قوية ، يحفظ لها القرآن ، وقدرا صالحا من الشعر ، يمرن نفسه على حله ، ونثره ، ويأخذ نفسه فى ديوان الإنشاء ، إذا استطاع ، بالتمرن على الكتابة ، وقراءة ما يدبجه فطاحل رجال النثر فى الديوان ، ثم يتدرج فى مناصبه ، حتى يصل إلى الذروة ، إذا أهله لذلك استعداده . وتلك الخطة المثلى فى التدريب المثمر لذوى المؤهلات .

وقد حفظ التاريخ أسماء طائفة كبيرة من الكتاب يومئذ ، منهم شاكر بن عبد الله ، كاتب الإنشاء لنور الدين محمود ، وابن المنقار الكاتب الدمشقى لملوك دمشق قبل نور الدين ، وعبدالرحمن بن على المخزومى ، وإبراهيم بن محمود الأسوانى ، اللذان كتبا لصلاح الدين ، وسناء الملك الزبيدى كاتب الآمر الفاطمى ، وعلى بن أبى أسامة الحلبى (١) ، كاتب الإنشاء للآمر والحافظ ، وابنه أبو المكارم الذى كتب للحافظ ، وسليمان بن محمود بن أبى غالب الذى كتب للكامل ، وشمس الدين بن قريش ، وأحمد بن عبد العزيز بن العجمى ، وفتح الدين بن القيسرانى ، من كتاب الدرج فى عهد بيبرس ، وإسماعيل بن إبراهيم بن أبى البشر ، وغير هؤلاء ممن سنترجم لهم من كبار كتاب الإنشاء فى ذلك العصر .

ومما ينبغى أن يوجه إليه النظر أن الكتاب كانوا قلة بالنسبة إلى شعراء ذلك العصر ، ولعل ذلك راجع إلى أن مناصب ديوان الانشاء كانت محدودة يومئذ ، وفى هذه المناصب كانت تأتى شهرة الكاتب ، فإنه من النادر أن نرى التاريخ محتفظا بأسماء كتاب غير ديوانيين ، وذلك طبيعى فى عصر ما كان الكاتب يستطيع أن يعيش فيه معتمدا على الشعب وحده ، فقل لذلك عدد الكتاب ، على عكس الشعراء ، الذين لم تقيدهم مناصب محدودة ، بل كان كل من لديه موهبة الشعر يستطيع أن يحمل بضاعته إلى من يشاء : من خلفاء العصر ، وسلاطينه ، وملوكه ، ووزرائه .

كما ينبغى أن يوجه النظر أيضا إلى أن كتاب هذا العصر الذين عملوا فى الديوان ، كانوا جميعا من مدرسة واحدة ، هى مدرسة ابن العميد . التى تعنى أعظم عناية بالسجع ، وتجتهد فى أن تضم إليه ما تستطيع من ألوان المحسنات البديعه ، كالجناس ، والطباق ، والتورية ، واقتباس آيات القرآن ، والأحاديث ، وما أثر من كلام البلغاء ، وحل أبيات الشعر المشهورة ، وتضمين الكلام

---

(١) راجع خطط المقريزى ٣ : ٤٠ ، ومعجم الأدباء لياقوت ١٥ : ٧٩ .

الحكم البالغة ، والأمثال السائرة ، ونوادر التاريخ ، ومسائل العلوم ، مضموما إلى ذلك كله ألوان المجاز ، والتشبيه والاستعارة ، وأكد هذه الطريقة القاضى الفاضل ، الذى ألح فى استخدام هذه الطريقة ، فالتزم السير على منوالها ، لايكاد يفلت نوعا من أنواع الزينة وبخاصة التورية ، والجناس ، والطباق ، والاستخدام ، مسرفا فى ذلك مبالغا فيه .

ويتفاوت كتاب هذا العصر فيما بينهم من حيث قوة الأسلوب وغزارة الإنتاج . ولنذكر أيضا أن حظ الشعر كان أعظم كثيرا من حظ النثر فى ذلك العصر ، إذ بقى لنا كثير من دواوين الشعراء ، ومن مجموعات شعرهم ، بينما لم يبق لنا إلا بعض مجموعات من رسائل القاضى الفاضل ، والحصكفى ، والوهرانى ، وصفى الدين بن ظافر ، وابن عبد الظاهر ، وابن سناء الملك ، ورسائل منتثرة هنا وهناك لكتاب ذلك العصر [١] .

ومما يسترعى النظر أن عظماء الكتاب فى ذلك العصر كانوا بمصر لا الشام ، إذا استثنينا العماد الكاتب الذى كان يزور مصر مع ذلك أحيانا ، ومن السهل تعليل ذلك بوجود ديوان الإنشاء فى مصر ، وقد كان مكانا لتدريب الكتاب ، وتخريجهم ، وبأن الشام كان فى آخر عهد الدولة الفاطمية يحكم حكما إقطاعيا بجزأ أجزاء صغيرة ، لاتستطيع أن تهيء للكتاب جوا ينهض بهم إلى النبوغ فى هذا الفن . أما فى مصر المتحدة ذات الملك الواسع والثروة الكبيرة فلها من سعتها ومواردها ما يمكنها من دفع الكتاب إلى الإجاده والتبريز ، وبأن رأس الدولة منذ العصر الأيوبى كان القاهرة ، فلا عجب إذا تزعم كتابها نائرى عصرهم وكتابه .

ومما يسترعى النظر كذلك أن كبار الكتاب كانوا ممن نشأ فى عهد الدولة الفاطمية ، أو تربى على أيدى رجال هذه الدولة ، مما يزكى قول القاضى الفاضل الذى وصف الكتابة فى ذلك العهد بأنها كانت غضة طرية ، واقتفى من جاء بعد هذه الدولة آثار رجالها ، ولم يحد عنها ، مما يدل على عناية هذه الدوله بالأدب ، واهتمامها بأمر رجاله .

وبعد فمن الخير أن نترجم لبعض الأعيان من كتاب ذلك العصر :

---

(١) راجع مراجع الكتاب ، ففيها أسماء المجموعات وأرقامها فى دار الكتب .

ابن الصيرفى *

ولد بمصر يوم السبت ، لثمان بقين من شعبان ، سنة ثلاث وستين وأربعمائة ، ولكن يذكر المقريزى أنه كان من بين أعيان رجال الدولة ، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فقد كان أحد المدعوين إلى حفل افتتاح جامع الفيلة الذى بناه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكان فى هذا الحفل هو وابنه أبو المجد، فلعل المقريزى أخطأ فى ذكر تاريخ بناء المسجد ، أو لعل افتتاحه تأخر عن ذلك التاريخ .

كان أبوه صيرفياً ، وجده كاتباً ، ومال هو إلى فن الكتابة ، فمهر فيها على طريقة أهل عصره ، وعمل فى ديوان الجيش، وأخذ صناعة الترسل عن صاحب هذا الديوان : أبى العلاء صاعد بن مفرج ، كما اشتغل بكتابة الخراج مدة ، وأعجب بصناعته فى النثر الوزير الأفضل ، فاستخدمه فى ديوان المكاتبات ، ورفع قدره ، وأذاع ذكره ، منذ عهد الخليفة الآمر بأحكام الله سنة ٤٩٥ هـ ، أى فى أوائل عصر الحروب الصليبية ، وكان هو الذى كتب السجل بانتقال المستعلى وولاية الآمر . وقد نال ابن الصيرفى ثقة الأفضل فأراد أن يعزل الشيخ ابن أبى أسامة عن ديوان الإنشاء ، ويفرد به ابن الصيرفى ، واستشار فى ذلك بعض خواصه ومن يأنس برأيه ، فقال له : إن قدرت أن تفـــدى ابن أبى أسامة من الموت يوماً واحداً بنصف مملكتك فافعل ذلك ، ولا تخل الدولة منه ، فإنه جمالها ؛ فأضرب عن ابن الصيرفى ، ويظهر من تلقيب ابن الصيرفى بتاج الرياسة أنه ولى ديوان الإنشاء ، بعد موت الشيخ ابن أبى أسامة ، وربما شاركه فى هذه الرياسة أبو المكارم ولد ابن أبى أسامة ، كما قد يفهم ذلك من السيوطى ، فى حسن المحاضرة ، ثم تفرد به بعدئذ ، فصار فيه بمفرده ، كما نص على ذلك ابن ميسر .

---

* مراجعه :

(١) معجم الأدباء ١٠ : ٧٩. (٢) خطط المقريزى ٢ : ٤٩و٤ : ٧٤ ، ٧٨ .

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٣٥، ٤٠، ٨٧ .

(٤) وفيات الأعيان ١ : ٨٨ ، ١١٢ ، ١٥٧ ، ٣٤٣ .

(٥) صبح الأعشى ١ : ٩٧و٨ : ٣١٦، ٣١٧، ٣١٨ ، ٣٢٠، ٣٢٤، ٣٢٩ : و٢ : ٣٢٦ .

(٦) حسن المحاضرة ٢ : ١٤ ، ١٣١ . (٧) كتاباه : قانون ديوان الرسائل ، والإشارة لمن نال الوزارة (٨) عيون الأنباء ٢ : ٥٣.

وظل يعمل فى هذا الديوان زهاء سبعة وأربعين عاما ، على ما ذهب إليه ابن ميسر ، الذى قال إنه توفى يوم الأحد لعشر بقين من صفر ، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، وزهاء خمسة وخمسين عاما إذا صح ما رواه ياقوت : من أنه مات فى أيام الصالح بن رزيك ، بعد خمسين وخمسمائة ، وليس عندنا ما يرجح إحدى الروايتين . وقد هيأ له طول هـذه المدة شهرة وذكرا .

عاش ابن الصيرفى حياته كلها فى عصر الدولة الفاطمية ، وأنشأ رسائل عن خلفاء مصر تزيد على أربع مجلدات ، بقى لنا منها قدر قليل منشور فى خطط المقريزى ، وصبح الأعشى ، وحسن المحاضرة . وبرغم هذه القلة نرى فيها خصائص النثر الفاطمى، وعقائد الدولة الفاطمية ، وعادات خلفائها . وأقدم ما حفظ من آثاره هذا السجل الذى يؤذن بوفاة المستعلى ، وولاية ابنه الآمر ، والذى قرىء على رءوس كافة الأجناد والأمراء ، وكتابة هذا السجل منه تدل على الثقة التى حباه بها الأفضل ، برغم أن ابن الصيرفى لم يكن يومئذ رئيس ديوان الإنشاء .

بدأ ابن الصيرفى سجله بالحمد لله « الذى استرعى الأئمة هذه الأمة . . . وجعلهم مصابيح الشبه إذا غدت داجية مدلهمة ، لتضىء للمؤمنين سبل الهداية ، ولا يكون أمرهم عليهم غمة ، يحمده أمير المؤمنين حمد شاكر على ما نقله فيه من درج الإنافة ، ونقله إليه من مبرات الخلافة » .

وهو بذلك يسجل نظرة الشيعة إلى الخلفاء، وأنهم مصابيح الهداية فى الأرض ، وعقيدتهم فى أن الخلافة تورث عن الآباء . ثم يصلى على رسول الله ، « وعلى أخيه وابن عمه . أبينا : أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، الذى أكرمه الله بالمنزلة العلية ، وانتخبه للإمامة رأفة بالبرية ، وخصه بغوامض علم التنزيل ، وجعل له ميزة التعظيم ومزية التفضيل، وقطع بسيفه دابر من زل عن القصد وضل سواء السبيل » . وهنا تتجلى عقيدتهم فى على بن أبى طالب ، وأن الرسول قد خصه بتعليم غوامض علم التنزيل . وبعد حديث حزين عن موت المستعلى ، قال : « وقد كان الامام المستعلى بالله ، قدس الله روحه عند نقلته ، جعل لى عقد الخلافة من بعده ، وأودعنى ما حازه من أبيه عن جده ، وعهد إلى أن أخلفه فى العالم ، وأجرى الكافة فى العدل والاحسان على منهجه المتعالم ، وأطلعنى من العلوم على السر المكنون ، وأفضى إلى من الحكمة بالغامض المصون » . والشيعة يعتقدون أن الخليفة يرث فيما يرث عن أبيه علومه ،

وأسرار الشريعة . ثم يصف السجل تفويض الخليفة الجديد للوزير كل أمور الدولة ، وأن ذلك بوصية من الخليفة الراحل ، فقد « أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل . . . خليلا ، ويجعله للإمامة زعيما وكفيلا ، ويعلق به أمر النظر والتقرير ، ويفوض إليه تدبير ما وراء السرير ، وأنه عمل بهذه الوصية ، . . . وأسند إليه أحوال العساكر والرعية ، وناط أمر الكافة بعزمته الماضية ، وهمته العلية » .

وفى ذلك أعظم الدلالات على ما صار لمنصب الوزارة من مكانة ، وما كان فى يد الوزير من سلطان فعلى فى الدولة ، حتى لم يعد الخليفة إلى جانبه شيئاً مذكوراً .

ولابن الصيرفى سجلات كثيرة ، منها ما كتبه خاصاً بنقل السنة الشمسية إلى العربية ، حتى يمكن جمع الخراج فى وقت إنضاج الثمر ، ومنها ما يسجل فيه ركوب الخليفة فى أول السنة ، أو أول رمضان ، أو فى أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان ، وهى الثانية، والثالثة، والرابعة ، أو فى أول أيام عيد الفطر أو عيد النحر ، أو يوم قطع الخليج ، أو يوم عيد النصر ، أو غير ذلك . وفى هذه السجلات التى يشبه بعضها أن يكون بلاغا صادراً من القصر الملكى ، يذاع فى أرجاء المملكة — وصف لكثير من عادات الفاطميين ، وتقاليدهم فى احتفالاتهم .

وكان له ولا ريب فضلا عن الرسائل السلطانية رسائل إخوانية [1]، تنهج نهج الرسائل الديوانية فى أسلوبها من حيث التزامها للسجع ، ولكنه سجع لم يستطع أن يخفى عواطف الكاتب ولا إحساسه ، كما أننا نرى فيها الاستشهاد بالشعر ، فى المواضع التى تقوى فيها الانفعالات النفسية ، وتلك عادة كتاب ذلك العصر فى رسائلهم . وكتب كتابا مهماً ، دعاه : قانون ديوان الرسائل ، تحدثنا عنه فيما مضى . وحفظنا أسماء عدة كتب يظهر أن بعضها مختارات أدبية ، مثل كتاب منائح القرائح ، وكتاب لمح الملح. وقد كان ابن الصيرفى على ما يظهر محباً لجمع اختيارات أدبية ، فله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء : كديوان ابن السراج ، وأبى العلاء المعرى ، وغيرهما ، وبعضها خلق ككتاب عقائل الفضائل ، وكتاب استنزال الرحمة ، وكتاب المظالم ، وبعضها لا يدل عنوان على موضوعه ، ككتاب عمدة المحادثة .

وبقى لنا من آثاره أيضاً كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة ، ترجم فيه لوزراء الدولة الفاطمية ، من عهد العزيز بالله ، إلى أيام الآمر بأحكام الله ، بدأه بمقدمة نهج فيها منهجه فى

(١) راجع عيون الأنباء ٢ : ٥٣ .

أسلوبه الكتابى ، وأهداه إلى الوزير المأمون الآمرى ، اعترافا منه بما نال فى دولته من سؤدد ومجد .

وإن فيما عرضناه من النماذج لابن الصيرفى لما نستطيع به أن نتبين خصائص نثره . فهو من الكتاب الذين يرون المثل الأعلى فى السجع ، يلتزمونه التزاما فى رسائلهم الديوانية والإخوانية ، ولا يخرج إلى ميدان الكتابة الطلقة إلا عند ما كتب تاريخ وزراء الدولة الفاطمية ، فى كتابه : الإشارة ، حيث ترك قلمه يجرى كما يشاء ، لا يقيده سوى الفكرة التى يريد إجلاءها . بل إنه فى هذا اللون من الكتابة التاريخية آثر السجع ، عند ما أرخ للوزير : المأمون الآمرى .

غير أن هذه المدة الطويلة التى قضاها كاتباً فى ديوان الانشاء جعلت قلمه يسيل بالكتابة سيلا ، لا تشعر فيه بتكلف ، ولا اغتصاب كلمة فى موضع لا يصلح لها ، بل تأتى الكلمات فى أماكنها ، مطمئنة مستقرة .

وتدلنا كتبه على ثقافة أدبية واسعة ، واطلاع كبير على التاريخ ، ومعرفة بأمور الدين .

وهيأت له هذه المدة الطويلة وتلك الكتب شهرة وبعد صيت ، غطى بهما حتى على رؤساء ديوان الإنشاء الذين كانوا فى عهده .

وأورد له ياقوت أبياتاً من الشعر ، منها قوله فى المدح ، وقد بالغ فيه :

هـذى مناقب قد أغناه أيسرها ... عن الذى شرعت آباؤه الأول

قد جاوزت مطلع الجوزاء وارتفعت ... بحيث ينحط عنها الحوت والحمل

ومنها قوله وهو يعبر عن روح العصر خير تعبير :

لا يبلغ الغاية القصـوى بهمته ... إلا أخو الحرب والجرا لسلاهيب (١)

يطوى حشاه ، إذا ما الليل عانقه ... على وشيج (٢) من الخطى مخضوب

ولكنه شعر لا يبلغ درجة نثره .

---

(١) السلاهيب : الطوال (٢) الوشيج : الرماح . يريد أنه ينام معلوياً على الرماح المخضبة بالدم

ابن قادوس الدمياطى*

محمود بن إسماعيل ، أصله من دمياط ، ولعل نشأته الأولى كانت بها ، فإن دمياط كانت يومئذ إحدى مواطن الثقافة فى العالم الاسلامى (١) كله ، وإن احتاج الطالب فيها إلى أن يتم ثقافته العالية فى القاهرة أو غيرها من مواطن الثقافة العليا . وربما جاء إلى القاهرة ، والتحق بديوان الإنشاء ، يتدرب فيه ، على أحد رجالاته ، وعمل مع ابن الصيرفى فى هذا الديوان ، وتقدم به قلمه ، وارتقت به بلاغته ، حتى قدره ملوك عصره ، وصار أحد رجال الملك الصالح ، ومن أعيان مجلسه وشعرائه المقربين إليه .

وقد أخذ عنه القاضى الفاضل ، وكان يضمر له فى قلبه التعظيم والإجلال ، ويسميه ذا البلاغتين ، يريد بلاغة النثر وبلاغة الشعر ، ويقتدى به فى الكتابة والشعر ، قالوا : وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالباً إلا فى ركوبه من القصر إلى منزله بمصر ، ومن منزله إلى القصر ، فكان الفاضل يسايره ، ويعرض عليه كتابته وشعره .

وكان ابن قادوس يكره الادعاء والإعجاب ، ويكره من يتصف بهما ، ويدلنا على هذا الخلق فيه أنه اجتمع ليلة عند الصالح بن رزيك ، هو وجماعة من جلسائه ، فألقى عليهم الصالح

---

* مراجعه :

(١) صبح الأعشى ١ : ٩٦ و ٨ : ٢٢٦ ، ٢٢٨ . (٢) الروضتين ١ : ١٠٣ و ٢ : ٢٤٤ .

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ٢ : ٩٧ . (٤) وفيات الأعيان ١ : ٥٢ .

(٥) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٢ و ٢ : ١٦٨ ، ٢٠٢ . (٦) فوات الوفيات ١ : ٢٢٨ .

(٧) كشف الظنون ٢ : ٧٦٧ ، ٧٧٢ . (٨) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٣٧ .

(٩) فى أدب مصر الفاطمية ص ١٨٧ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٦٧ ، ٢٣٨ .

(١٠) خريدة القصر (المطبوعة) ١ : ٢٢٦ والمصورة ٢ : ٨١ .

(١١) النكت العصرية ص ٣٤ ، ٣٥ . (١٢) خطط المقريزى ٢ : ٣٠٦ و ٣ : ٢٧ .

(١٣) الطالع السعيد ص ٤٩ (١٤) الفاطميون فى مصر ص ١٦٧ .

(١٥) معاهد التنصيص ص ٢٢٦ . (١٦) معجم الأدباء ٤ : ٦٠ .

(١٧) الرسالة المصرية ص ٥٦ . (١٨) الأعلام ٣ : ١٠١١ .

(١٩) البداية والنهاية ١٣ : ٢٤ .

(١) راجع كتاب الحياة العقلية للمؤلف .

مسألة فى اللغة ، فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد بن الزبير ، فأعجب به الصالح ، فقال الرشيد : ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتنى أتوقد فهماً . فقال ابن قادوس ، وكان حاضراً :

إن قلتَ : من نار خلقـــــتُ ، وفقتُ كل الناس فهما
قلنا : صـــدقت ، فما الذى أطفاك حتى صـــوت فحما

كما هجاه مرة أخرى بقوله :

يا شـــبه لقمان بلا حكمة وخاسراً فى العــلم لا راسخا
سلخت أشــعار الورى كلهـا فصرت تدعى : الأسود السالخا[1]

وكان الدافع له على هذا الهجاء هو ما لمسه فى ابن الزبير من ادعاء وإعجاب .

بقى حادث نسبه إليه مؤرخوه ظلماً من غير أن يتبينوا حوادث التاريخ ، أو يوازنوا بين أرقام أحداثه ، فنسبوا الرجل إلى الحسد ، وتدبير أمر القتل إلى زميل كبير من رجالات الدولة ، وقد قبل ذلك صاحب (الفاطميون فى مصر) ومؤلف (فى أدب مصر الإسلامية) .

ويدور هذا الحادث حول ابن الزبد ، الذى كان من رجالات الدولة ، وممن نال حظوة لدى الوزير : طلائع بن رزيك ، وكان مغالياً فى الوفاء له حتى خاطر بحياته ، دفاعا عن هذا الوزير ، وقاتل عنه أشد القتال ، ثم ألقى نفسه على الصالح ، ووقاه من الضربات التى انهالت عليه ، حتى هيأ السبيل لنجاة الوزير[2] .

قالوا : إن الحسد ملأ قلب ابن قادوس ، فنظم بيتين من الشعر ، هجا فيهما الحسن ابن الخليفة الحافظ ، ودسهمـا ضمن أوراق لابن الزبد ، وسعى به إلى الحسن فأمر به فقتل .

---

(١) السالخ : اسم الأسود من الحيات .

(٢) الفاطميون فى مصرص ١٦٧ ، وفى أدب مصر الفاطمية ص١٨٨ .

هذا الخبر عار من الصحة كل العراء : ذلك أن ابن الزبد قد عاش إلى أيام الصالح طلائع ، الذى لم يل الوزارة إلا فى عهد الفائز، الذى ارتقى إلى عرش الخلافة الفاطمية سنة ٥٤٩ هـ[١]. بينما قتل الحسن بن الخليفة الحافظ سنة ٥٢٨ هـ[٢]. وبين التاريخين أكثر من عشرين عاما .

وبرغم شهرة ابن قادوس بالكتابة لم يبق التاريخ إلا على القليل مما كتبه ، وكان حظه فى الشعر أسعد منه فى النثر ، برغم قلة ما بقى له من ذلك أيضاً ، فليس لدينا من شعره إلا صفحات من ديوانه الذى قال عنه صاحب كشف الظنون : إنه فى مجلدين ، وتجد هذا الشعر فى الخريدة ، ووفيات الأعيان ، والطالع السعيد ، ومعجم الأدباء ، وحسن المحاضرة، وخطط المقريزى ، وفوات الوفيات ، ومعاهد التنصيص ، والرسالة المصرية . وقد وصف العماد أشعاره بأنها محكمة النسج كالدر فى الدرج .

وما بقى لنا من شعر ابن قادوس يجعلنا نستشف من ورائه نفساً مرحة ، وفماً مبتسما ، وقلباً راضياً عن الحياة ، ورغبة فى الاستمتاع بما فى الوجود ، فلا تجهم ، ولا شكوى ، ولكن بهجة وأمل ، وانتهاز لفرص السعادة والمسرة .

قم قبل تأذين النواقيس — واجل علينا بنت قسيس
عروس دن ، لم يدع عتقها — إلا شعاعا غير ملموس
تجلى علينا باسماً ثغرها — فلا تقابلها بتعبيس
مذهبة اللون ، إذا صفقت[٣] — مذهبة للهم والبوس
فى روضة كانت أزاهيرها — كأنها ريش الطواويس

وهذه ليلة من لياليه يصفها بقوله :

وليلة كاغتماض الطرف ، قصرها — وصل الحبيب ، ولم تقصر عن الأمل
بتنا نجاذب أهداب الظلام بها — كف الملام ، وذكر الصد والملل
وكلما رام نطقا فى معاتبتى — سددت فاه بطيب اللثم والقبل

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٣١٨ (٢) المرجع السابق ص ٢٥٣ .
(٣) التصفيق : تحويل الشراب من إناء إلى إناء ممزوجا ليصفو .

وبات بدر تمام الحسن معتنق والشمس فى فلك الكاسات لم تفل
فبت منها أرى النار التى سجدت لها المجوس من الإبريق تسجد لى
راح إذا سفك الندمان من دمها ظلت تقهقه فى الكاسات من جذل

بل يرى أن اقتراب الموت منه سبب يدفعه إلى النهل من متع الحياة ولذائذها .

ولائم يلومنى يريد منى توبتى
يقول لى . الموت غداً فقلت : هذا حجتى

وإن هذه الابتسامة للحياة ، هى التى جعلته يتلمس الراحة ، حتى فى مواقف الرثاء :

يا لجعة هى فى الجنان مسرة لقدومه تختال فى غرفاتها
إن كان فى الدنيا عليه مأتم فأراه عرس الحور فى جناتها

ولا ريب أن ذكره لنعيم الجنة الذى يتقلب فيه الموتى لما يخفف لوعة المصاب وألم الفجيعة . وهذه النظرة المرحة الباسمة جعلته حين يهجو ينظر إلى الجانب المضحك فى المهجو ، فكان هجاؤه فى أغلبه سخرية وتهكما ، فتجده يقول :

ابن فلان رجل صالح فامتحنوه ، واقبلوا رائى
ارموه فى البحر ، لكى تنظروا فإنه يمشى على الماء

وبقى لنا من شعره ما أنشأه فى مدح بعض الوزراء ، ويدل بعض هذا الشعر على ما كان بين ابن قادوس والوزير من صلة قوية ، لم تدع حجابا بينهما ؛ حتى صح له أن يقول :

يا من يكر على جريح اللحظ منه بجهز
ديباج خديه بسندس عارضيه مفروزز
أبدا بسلطان الجمال وبالهوى يتعزز
ويسومنى ما لا يجوز من الأذى فأجوز
لولا الوزير وعدله لم يغن فيه تحرز
عدل يفيض وهمة تنتهى العذول وتحجز

وبرغم هجاء ابن قادوس للأنف الطويل ، واستعاذته بالله منه ، وقف مدافعا عن أنف صديقه الجليس بن الحباب ، فقد كان كبير الأنف ، وكان الخطيب أبو القاسم هبة الله المعروف بابن الصياد مولعا بأنفه وهجائه ، وذكر أنفه فى أكثر من ألف مقطوع، فانتصر له ابن قادوس ، فقال :

يا من يعيب أنوفنا الشـــم التى ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب

ويظهر أن ابن قادوس كان ، كحكام هذا العصر وعظماء رجاله ، مغرما بالكتب ، معظما أمرها تعظيما أوحى إليه بمعنى شعرى ، أعجب به العماد ، وعده من محاسنه ، التى تعلق بالنفوس ، وذلك قوله فى صفه كتاب :

مداده فى الطرس لما بدا قبله الصب ومن يزهد
كأنما قد حل فيه اللمى أو ذاب فيه الحجر الأسود

وأرجح أن ابن قادوس كان واسع الثقافة ، وأنه عرف علم الهندسة الذى استقى منه فى شعره بعض مصطلحاته ، كقوله :

لقد كان جاهى عريضا بكم فلم صار كالخط لاعرض له

وقوله : . . . وبخده .·. خال لدائرة الملاحة مركز .

ولم يخل شعره مما صبغ هذا العصر من غرام بالمحسنات ، واحتفال بأمرها ، وهى هنا فى يد صناع ، ولذلك لاتحس فيها غالبا بنبوة ، كقوله :

يقـول : طرفى شاك صـدقت . شاكى السلاح

وقوله :

تشيد بناء الحمـد والمجد بيضه وهن لآساس الهوادى هوادم
رقاق الظبا ، تجرى بآجال ذى الورى وأرزاقهم ، فهى القواسى القواسم

ولم يبق لابن قادوس من النثر مثل ما بقى له من الشـعر ، ومن ذلك قوله يصف حمام الزاجل :

«وأما حمام الرسائل فهي من آيات الله ، المستنطقة الألسن بالتسبيح ، العاجز عن وصفها إعجاز البليغ الفصيح ، فيما تحمله من البطائق ، وترد به مسرعة من الأخبار الواضحة الحقائق ، وتعاليه فى الجو محلقاً عند مطاره ، وتهديه إلى الطريق التى (يطير) عليها ، ليأمن من فوت الإدراك وأخطاره ، ونظره إلى المقصد الذى يسرح إليه من عل ، ووصوله فى أقرب الساعات بما يصل به البريد فى أبعد الأيام من الخبر الجلى ، ومجيئه معادلا رءوس السفار مسامتاً ، وإيثاره بالمتجددات فكأنه ناطق وإن كان صامتاً . . . وفى تقدمه بالبشائر ، يكون المعنى بقولهم : أيمن طائر ، ولا غرو إن فاق رسل أهل الأرض وفاتهم ، وهو مرسل العنان [1] عنانه ، والجو ميدانه ، والجناح مركبه ، والرياح موكبه . . . مع أمنه ما يحدث لمنتاب السفار ، ومخبآت القفار ، من مخاوف الطوارق ، وطوارق المخاوف ، ومتلف الغوائل وغوائل المتالف ، إلا ما يشذ من اعتراض جارح وانقضاض كاسب كاسر . . . »

وهذا (بلاغ) كتبه ابن قادوس فى خروج الخليفة الفاطمى فى عيد النحر . بدأه ببراعة استهلال فى فضل الحج ، وبالصلاة على محمد ، وأخيه على ، والأئمة من ذريتهما . ثم تحدث عن حشد الجمهور الكبير أمام القصر ، وكانت جموعه تتوافد منذ الفجر ، لتأخذ مكانها ، بين الصرين ، وابن قادوس يصف ذلك فى قوله : « وإن من الأيام التى كملت محاسنها وتمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد غر صفاتها ، وتعين تسطير تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة كذا ، وكان من قصصه أن الفجر لما سل حسامه ، وأبدى الصباح ابتسامه ، نهض عبيد الدولة فى جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفنيتها ، ومستملين بسعادتها ، وتألفوا صفوفاً تبهر النواظر ، ويخجل تألفها تألف زهر الروض الناضر ، مستصحبين فنوناً من الأزياء تروق ، ومستتبعين أصنافاً من الأسلحة يغض لمعها من لمع اللهب والبروق ، والأعلام خافقة ، والرايات بألسنة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة ، فأقاموا على تشوف لظهوره وتطلع للتبرك بلامع نوره . . . »

---

(١) يريد عنان السماء .

ومضى السجل يصف موكب الخليفة ، وما تبعه من جند حاشد . ويلحظ فى هذا السجل الإطالة فى الثناء على الوزير ، ثناء طغى على صفات الخليفة ، فهو « وزيره السيد الأجل الذى قام بنصر الله فى إنجاد أوليائه ، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه ، وناضل عن حوزة الدين وجاهد ، وناضل أحزاب الكفار وناهد ، يقوم بأحكام الوزارة ، وتدبير الدولة تدبير أولى الإخلاص والطهارة . . . ويحسن السياسة والتدبير ، ويتوخى الإصابة فى كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير ، ويخلص لله جل وعز ولإمامه ، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد فى إعمال لهذمه وحسامه . . .

ووصف الموكب ماضياً إلى المسجد ، والخليفة مصلياً ، وخطيباً ، وعائداً إلى قصوره ، ويظهر أن مثل هذه السجلات كانت تستخدم للدعاية للدولة الفاطمية ، وللخليفة ، والوزير ، فهى لا تمل من الحديث عن أساس عقيدة الفاطميين ، وعن احتشاد الجماهير لرؤية الخليفة وتقديم الولاء له ، وعن الوزير وأعماله .

وظل ابن قادوس فى ديوان الإنشاء حتى مات سنة ٥٥١ﻫ ، أو فى سابع المحرم سنة ٥٥٣ﻫ ، على ما ذهب إليه ابن ميسر . ووهم المقريزى الذى زعم أنه قتل على يد يانس الأرمنى ، وزير الحافظ لدين الله ، فإن ابن قادوس عاش كما سبق أن ذكرنا — إلى أيام طلائع ابن رزيك ، وزير الفائز الذى تولى الخلافة سنة ٥٤٩ . ولما مات حضر الصالح طلائع من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه ، ومشى فى جنازته ، حتى ووري التراب .

ابن الخلال*

يوسف بن محمد، آخر من ولى ديوان الإنشاء فى عصر الدولة الفاطمية، وعليه تخرج القاضى الفاضل، وهو الذى كتب تقليد الوزارة لطلائع بن رزيك وزير الفائز.

وارتفعت مكانة ابن الخلال فى الدولة حتى صار من جلساء الوزير طلائع، الذين أعجب بهم عمارة عند ما قدم إلى مصر، ورآهم قد ضربوا فى الآداب بسهم وافر، بل مدحه عمارة بقصيدة بقى لنا منها غزلها [1]. وعمر ابن الخلال حتى وهن عظمه، وكف بصره، فلزم بيته، ولكن القاضى الفاضل لم ينس جميله الأول، فكان يوليه بالرعاية والعطف، ويجرى عليه ما يحتاج إليه، حتى مات فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، سنة ست وستين وخمسمائة.

وأورد له مؤرخوه شعراً، وكان الكتاب يومئذ حريصين على أن يؤثر لهم إلى جانب نثرهم شعر يذيع عنهم، رأينا ذلك فى ابن قادوس، وابن الخلال، والقاضى الفاضل، والعماد الكاتب. وفى هذا الشعر تلمس منهجهم الفنى، فى العناية بالزخرف، والصنعة، نهجوا ذلك النهج فى نثرهم، وساروا عليه فى شعرهم، والباقى له قليل من الغزل، ووصف الشمعة، وهو حين يتحرر من قيود الصنعة يرق شعره ويجود، ولعل من أجمله ما قاله حديثاً عن تقلبات الأيام، وربما أنشأه بعد أن أدبرت عنه الدنيا، واضطر إلى البقاء ضريراً فى منزله، فقال:

---

* مراجعه:

(١) وفيات الأعيان ٢: ٤٠٧.
(٢) حسن المحاضرة ١: ٢٤٢.
(٣) النجوم الزاهرة ٥: ٢٩٢، ٢٩٤ و ٧: ٣٣٧.
(٤) نكت الهميان ص ٣١٤.
(٥) خطط المقريزى ٢: ٢٤٨.
(٦) صبح الأعشى ١: ٩٦ و ١٠: ٣١٠.
(٧) الروضتين ١: ١٩١، ١٩٢.
(٨) النكت العصرية ص ٣٤، ٣٥، ٩٨، ٤٩٠.
(٩) الكامل لابن الأثير ١١: ١٦٤.
(١٠) تاريخ ابن الوردي ٢: ٧٩.
(١١) خريدة القصر المطبوعة ١: ٢٣٥.
(١٢) المغرب نسخة الجامعة العربية، ورقة ١١٣.
(١٣) شذرات الذهب ٤: ٢١٩.
(١٤) فى أدب مصر الفاطمية ص ٣٤٤.

(١) النكت العصرية ص ٢٩٨.

شيم الأيام صد بعـــد ود والليالى عهـــدها أهون عهد
إن أعانت عدلت، أو خـــذلت سلبت ، أو أوجدت راعت بفقد
أف للدنيا ، فـــكم تخدعنا من حباهـــا بمعار مسترد
ما وفت أعـــوام قرب بالذى جنت اللوعة من ساعة بعـــد
يا أخا العزة ، حسب الدهر من عظـــة المغرور ما أصبح يبدى
تؤثر الدنيا ، فهـــل نلت بها لحظـــة تخلص من هم وكد

وهى قطعة نابضة بالحياة ، تصف ألمه فى آخر أيامه .

القاضى الفاضل*

فى يوم الاثنين الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٣ من أبريل سنة ١١٣٥م) ولد عبدالرحيم بن على بن محمد اللخمى ، ويكاد مؤرخوه يجمعون على أن ولادته كانت بمدينة عسقلان ، وهى إحدى مدن فلسطين .

وينحدر عبد الرحيم من قبيلة عربية ، هى قبيلة لخم ، وإليها ينسب ، وكان والده يدعى القاضى الأشرف ، انتهى أمره بأن ولى قضاء عسقلان ، والنظر فى أمورها . وكان خليقاً بعبد الرحيم أن يتخذ لنفسه الطريق الذى سار فيه أبوه من قبل ، فينتهى أمره بأن يلى قضاء إحدى المدن بالشام ، لولا أن كان بين والده وبين المرتضى الطرابلسى والى عسقلان عداوة ، رأى على بن محمد أن الحياة ستكون فيها عسيرة شاقة على ولده ، فأوصاه أن يمضى إلى مصر ليختط بها طريقه فى الحياة ، وإنما اختار له والده مصر لأن عسقلان وما حولها كانت يومئذ جزءاً منها ، قبل أن يأخذها الفرنج .

قدم عبد الرحيم إلى القاهرة حول سنة ٥٤٣ ﻫ (١١٤٨ م) فى أيام الحافظ لدين الله ، وهو فى نحو الخامسة عشرة من عمره ، وأراد عبد الرحيم أن يتخذ له مهنة الكتابة فى دواوين الدولة ، فمضى إلى ديوان الإنشاء ، وكان يرأسه ابن الخلال ، فلازمه القاضى الفاضل ، وتردد عليه ، وتدرب بين يديه ، كما اتصل بابن قادوس ، وكان القاضى يعظمه ويجل بلاغته .

ولم تطل إقامة الفاضل بالقاهرة ، ولعل ذلك راجع إلى رغبته فى مكان يكون فيه شيئاً مذكوراً ، لا كهذا العمل الثانوى ، بديوان الإنشاء بالقاهرة ، وأكاد أرجح أن الشكوى من مهنة الكتابة التى نجدها فى شعره ، وأن شكواه من حظه البائس الذى انفرد به بين الكتاب ، أرجح أنها كانت فى ذلك العهد ، فتسمعه يقول :

أرى الكتاب كلهـــم جميعاً ... بأرزاق تعمـــهم حبينا
ومالى بينهم رزق ، كأنى ... خلقت من الكرام الكاتبينا

---

* مقتبسة من مقدمة ديوانه الذى قام المؤلف بتحقيقه ، وفى هذه المقدمة ذكر مراجعه التى تربو على الثلاثين .

ترك القاضى القاهرة ، ومضى إلى الاسكندرية ، وهناك اتصل بابن حديد قاضيها والناظر بها ، وعرفه بوالده فعرفه بالسمعة ، فاستكتبه ابن حديد، وقرر له مرتباً يتقاضاه. وظل القاضى الفاضل بالإسكندرية زهاء ثمانى سنوات ، حتى تولى الوزارة فى القاهرة العادل رزيك بن الصالح طلائع ، فإن الرسائل التى كانت ترد من الإسكندرية بقلم الفاضل قد أثارت انتباهه ، فبعث إلى والى الإسكندرية أن يرسل القاضى الفاضل إلى القاهرة ، حيث جعله رئيساً لديوان الجيش .

وتوثقت الصلة بين الفاضل ورزيك ، ويحتفظ ديوانه بأشعار كثيرة قالها فى مدحه ، منها قصيدة طويلة ، أرجح أنها أولى قصائده فيه ، وفيها يقول :

رعى (لى رعاه الله) أكرم صحبة ... وأخطأت ، بدر التم ليس له صحب
وأحضرنى من مجلس الأنس حضرة ... لعيشى بها خفض، وقدرى بها نصب
فتنظر عينى ملك كسرى ودسته ... وتسمع أذنى ثم ما قالت العرب
فراقنى الخلق الجميل ، وزادنى اخـ ... ـتصاصاً ، إلى أن راقنى الخلق العذب
وكان لى الدهر الغشوم محارباً ... وقد وضعت أوزارها عندك الحرب
فياهم ، حرب ، ثم لا صلح بعدها ... ويا دهر ، صلح ، مالنا بعده عتب

ولكن الزمن لم يمهل رزيك ، حتى ينال القاضى آماله على يديه ، فلم يلبث أن قتل على يد شاور ، ودفع الوفاء شاعرنا إلى أن يرثى بنى رزيك ، ولكن لم يكن من الطبيعى لرجل كالقاضى الفاضل ، يعيش من رزق ديوان السلطان ، أن يعيش بعيداً عن أصحاب الدولة الجديدة ، فاتصل بهم ، وتوثقت الصلة بينه وبين شجاع بن شاور ، حتى صار أكبر من اتصل به القاضى الفاضل فى عصر الدولة الفاطمية ، ويحتفظ ديوانه بكثير من القصائد التى مدحه بها ، وقد هيأت له هذه الصلة أن يتصل بالعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وفى ديوانه مفتتح قصيدة مدح بها خليفة فاطمياً ، يقول فيها متخلصاً من الغزل إلى المدح :

فإن فؤادى بعدكم قد فطمته ... عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم

وعن العاضد صدرت سجلات ومكاتبات ، بقلم القاضى الفاضل ، منها تلك الرسالة التى أرسلها العاضد إلى نور الدين محمود ، يطلب أن يقيم عنده أسد الدين شيركوه ، كما كتب سجل تنصيب أسد الدين وزيراً ، فلما مات كتب سجل تنصيب صلاح الدين وزيراً من بعده .

ويظهر أن لاضطراب الدولة الفاطمية فى ذلك العهد أثراً فى تفكير القاضى الفاضل ، ولعله اقتنع بأن مصير البلاد مظلم ، وأن الهاوية تنتظرها ، فكان يغرى نور الدين محمودا بحمايتها ، وبسط سلطانه عليها . وربما كان لذلك أثر فى اختيار القاضى الفاضل كاتباً لأسد الدين شيركوه ، عند ما طلب كاتباً يكتب بين يديه ، وقد سر به أسد الدين ، وأعجبه إتقانه ، وسمته ، ونصحه . فلما ولى صلاح الدين أمر مصر استخلصه لنفسه ، وحسن اعتقاده فيه .

فتح القاضى الفاضل أشرق صفحات حياته يوم اتصل بصلاح الدين ، ففوض إليه الوزارة ، وديوان الإنشاء ، واتخذه ساعده الأيمن فيما أراده من إصلاحات مالية وحربية ، وصار القاضى الفاضل لسان صلاح الدين ، إلى الخلفاء ، والملوك ، والأمراء ، والمسجل فى رسائله لحوادث الدولة ، وأحداث هذه الحقبة من الزمان ، وتمكن من السلطان غاية التمكن ، حتى لم يعد فى الدولة إنسان يعلوه ، فى مكانته ومنزلته ، وصار أعز على السلطان من أهله وأولاده ، يعظمه ، ويرجع إلى قوله ، ويزوره مستشيراً ، إذا سافر إلى الغزو ، ويكتب إليه بخطه طالباً منه وجه الرأى ، وإذا أناب عنه حاكما بمصر كابنه العزيز ، وأخيه العادل ، أو ابن أخيه تقى الدين ، أصحبه القاضى الفاضل ، يحكم معه ، ويدير دفة السياسة ، ويطلع السلطان ، وهو غائب عن البلاد ، بما يجرى فيها ، ويوافيه بأخبارها ، ويشتاق السلطان إليه إن غاب عنه ، ويفرح به إن قدم عليه . وقد صحب القاضى الفاضل السلطان صلاح الدين فى غزواته بسوريا ، بين سنتى ٥٨٠و٥٨٦ هـ ، ثم أقام بمصر ، ليشرف على الإدارة المالية ، ويعمل على تجهيز الجيش والأسطول ، وبعدئذ عاد إلى سوريا ، بجوار صلاح الدين ، وظل بالقرب منه ، حتى مرضه الأخير ، وشاهد وفاته ، فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ ، ولم يذهله موت السلطان عن أن يفكر فى مصير إمبراطورية صلاح الدين ، وأن يدعو بنيه إلى اجتماع الشمل ووحدة الكلمة .

وبقى الفاضل قليلا فى دمشق ، بعد وفاة صلاح الدين ، ولكن لم تطب له الحياة فيها ، فإن سلطانها الأفضل بعد أن استوزر ابن الأثير أعرض عن أصدقاء أبيه ، وأركان دولته ، فترك دمشق ، وعاد إلى القاهرة ، فخرج ملك مصر العزيز إلى لقائه ، وظل الفاضل واداً للعزيز محباً له ، فلما شبت الحرب بين الأخوين : العزيز ، والأفضل ، تقدم الفاضل والعادل ، لإصلاح ذات البين بينهما ، ولكن يظهر أن القاضى الفاضل آثر اعتزال السياسة ، بعد أن

رأى اختلال الأحوال ، وتفرق الكلمة ، فعاش بعيداً عن خضم الحياة العامة ، وإن ظل على وفائه للعزيز ، حتى مات ، ورثاه الفاضل بقصيدة مؤثرة ، وظل الفاضل فى معتزله ، حتى أقبل العادل من الشام إلى مصر ، يريد أخذها من الأفضل ، وكان القاضى يخاف أن يسيء إليه وزيره : صفى الدين بن شكر ، وكانت بينهما وحشة ، وفى ليلة اليوم الذى دخل فيه العادل القاهرة ، توفى الفاضل ، سحر يوم الثلاثاء أو الأربعاء ٦ أو ٧ ربيع الآخر سنة ٥٩٦ ، هـ (٢٦ أو ٢٧ يناير سنة ١٢٠٠ م) . ودخل الملك الأفضل فصلى عليه ، وكان له يوم مشهود .

تعلم القاضى الفاضل الكتابة الانشائية أول ما تعلم بحل أبيات الشعر ، وجعلها منثورة ، وقد أخذ القاضى نفسه بإتقان فن الكتابة ، على الطريقة الشائعة فى عصره ، حتى برع فى هذا اللون من الكتابة ، وصار أبرع أهل زمانه فيه ، وهو يجرى على طريقة ابن العميد ، التى تلتزم السجع ، والطباق ، وتتوسع فى المعانى الخيالية ، ويزيد على ذلك أنه يكثر من استعمال فنون البديع الأخرى ، المستعملة فى الشعر : من تورية ، وجناس ، وتلميح ، واستخدام ، وتوجيه ، ومراعاة نظير ، واقتباس آيات من القرآن ، وكثيراً ما استعان بآيات الكتاب فى رسائله ، وضمنها الأمثال ، ومأثور الأقوال ، ومصطلحات العلوم ؛ وحل أبيات الحكمة ، وبالغ فى صنع ألوان البيان ، حتى ازدحمت رسائله بأفانين البلاغة . ومما يدل على طول باع الفاضل ، وغزارة مادته ، أنه لم يكن يكرر فى رسائله ماسبق أن استعمله . « فما كرر دعاء ذكره فى مكاتبته ، ولا ردد لفظاً فى مخاطبته ، بل تأتى فصوله مبتكرة مبتدعة [1] » ، ولم تحل الصناعة اللفظية بين القاضى الفاضل وبين أن يتناول برسائله جميع ما تتطلبه الدولة من شئون داخلية وخارجية ، فقد صار الفاضل لسان الدولة ، يكتب على لسان صلاح الدين إلى الخلفاء ، والملوك ، والأمراء ، ويسجل أحداث المملكة ، ويذيع المنشورات ، ويصور حوادث الحروب مع الفرنج ، ويكتب رسائل الفتوح ، والاستنهاض ، والاستنفار ، ويصف الحصون ، والمعارك . ولهذا كان لرسائله قيمة تاريخية كبرى ، إلى جانب قيمتها الأدبية .

ولم تقتصر رسائل الفاضل على الشئون الديوانية ، بل له رسائل فى الشوق ، والشكر ،

---

(١) الروضتين ٢ : ٢٤٢ .

والعتاب، والتعزية، ورسائل إخوانية، ووصفية، وغيرها، مما يدل على قوة الفاضل البيانية، وأن الصناعة البلاغية كانت طوع يده، لهذه الأغراض المتنوعة، ولكثرة ما أنشأه. ذكر مؤرخوه أن رسائله لو جمعت فى مجلدات لبلغت مائة.

كان القاضى الفاضل يعنى بما يكتب، ويوجه إليه كل اهتمامه وقوته، حتى لتبدو هذه العناية ظاهرة على وجهه وجسمه، قال عبد اللطيف البغدادى، يصف القاضى الفاضل، عند ما دخل عليه:

« رأيت شيخاً ضئيلا كله رأس وقلب، وهو يكتب، ويملى على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات، لقوة حرصه فى إخراج الكلام، وكأنه كان يكتب بجملة أعضائه [1] ».

ويكاد يكون القاضى الفاضل من بين كتاب هذا العصر الوحيد الذى بقيت له رسائل كثيرة إلى وقتنا هذا.

وإلى جانب رسائل القاضى الفاضل، له مذكرات دعاها المتجددات، يروى فيها حوادث زمنه، بعد صلاح الدين، مؤرخة، وقد نقل منها المقريزى كثيراً فى كتابه، وليس فى هذه المذكرات ملحوظات إعجاب فحسب، ولكنها نظرات تأملية فى الحوادث المهمة للإمبراطورية، والفاضل فى هذه المتجددات لا يلتزم السجع، بل يمضى فى سرد حوادث التاريخ، والتعليق عليها فى طلاقة لا تحدها صناعة.

وذكر بعض مؤرخيه أن له رسالة فى البلاغة كانت بين مراجع صاحب بدائع القرآن [2].

أما موقف القاضى من الشعر فقد كان ممن يؤمنون بمجده، وخلوده، ويرون الدهر أعجز عن أن يقضى عليه ويبيده، إذ يقول:

ولم أر قرنا يعجز الدهر حربه ... سوى الشعر، إن الشعر يبقى على الدهر

ولهذا عد الفاضل من مفاخره أنه ذو شعر خالد على الزمن:

---

(١) عيون الأنباء ٢ : ٢٠٥.
(٢) بدائع القرآن ص ٢.

بقيتم بقاء القول منى ، فإنه على رغم أنف الدهر يبقى على الدهر

وقد تناول القاضى الفاضل فى شعره الأغراض المعروفة للشعر العربى : من غزل ، ومدح ، وفخر ، وغيرها ، ولكن أجود شعره ما قاله فى المدح .

وشعره يمتاز كما يمتاز نثره بجودة سبك الصناعة اللفظية ، فهو لايدع نوعاً منها ، إذا تأتى له استخدامه ، ولكن هذه الصناعة لبراعته فيها لم تذهب بجودة شعره .

ولهذه الناحية من خصائص شعر القاضى الفاضل أعجب رجال الصناعة به ، ومثلوا لألوانها المختلفة بشعره ، مسجلين له أعظم تقدير وإعجاب ، فترى صاحب خزانة الأدب يقول : « وأما سحر البلاغة فقول القاضى الفاضل :

دام صاحى وداده عمر الدهر حبيباً لشكرى النشوان

انظر أيها المتأمل ، ما أبدع ما أبرز المطابقة فى حلل هاتين الاستعارتين الغريبتين ، وما ألطف ما أيد معنى المطابقة بقوله بعدها :

وبنات الصدور أرفع فيما زعم المجد من بنات الدنان[1] »

وقال فى موضع آخر : « ومن تجاهل العارف للمبالغة فى المدح ، قول إمام هــذه الصناعة ، ومالك أزمة البلاغة والبراعة ، القاضى الفاضل فى مديح العادل :

أهذى كفه ، أم غيث غوث ولا بلغ السحاب ولا كرامة

وهــذا بشره ، أم لمح برق ومن للبرق فينا بالإقامة[2] »

وفى باب التورية قال : « وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنهما ... إلا من تأخر من الشعراء والكتاب ، وتضلع من العلوم ، وتطلع من كل باب ، وأظن أن القاضى الفاضل رحمه الله هو الذى ذلل منهما الصعاب ، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب[3] . ومن مخترعات الفاضــل فى التورية قوله من مديح قصيدة طائية ، وهى نكتة لم تختلج فى صدر غيره :

أما الثريا فنعــل تحت أخمصه وكل قافيــة لذلك : طا

---

(١) خزانة الأدب ص ٨٩ . (٢) المرجع السابق ص ١٥٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٧ .

ومثله قوله .

وكنت وكنا ، والزمان مساعد   فصرت وصرنا ، وهو غير مساعد
وزاحمنى فى ورد ريقك شارب   ونفسى تأبى شركها فى الموارد[1] ،

ولما تحدث صاحب معاهد التنصيص عن حسن المطلع فى القصيدة قال : « ولنذكر هنا من مطالع المتأخرين ما يزرى بمطالع البدور ، ويبهر نظمه محاسن الدر المنثور ، فمن ذلك قول القاضى الفاضل :

زار الصباح ، فكيف حالك يا دجى   قم فاستدم بفرعه ، أو فالنجا

وقوله أيضاً يخاطب العاذل :

أخرج حديثك من سمعى ، وما دخلا   لاترم بالقول سهماً ربما قتلا

وما ألطف ما قال بعده :

ولا يخف على قلبى حديثك لى   لا ، والذى خلق الإنسان والجبلا

وقوله :

سمعتك ، والقلب لم يسمع   فكم ذا تقول ، وكم لايعى
يقول وما عنـــده أننى   بغير فؤاد ولا أضـــلع :
أما مع هـــذا الفتى قلبه   فقلت : نعم ، يا فتى ، ما معى[2] ،

ولما تحدث عن حسن التخلص ذكر من المخالص البديعة قول القاضى الفاضل متخلصاً من الغزل إلى مدح الخليفة الفاطمى :

فإن فؤادى بعدكم قد فطمته   عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم[3]

وهكذا وجد رجال الصناعة فى شعر الفاضل معيناً لأمثلة رائعة ، يختارونها ، وقدروا شعره تقديراً رفيعاً . أما هؤلاء الذين لاتعنيهم هذه الصناعة فلا يرتفعون فى تقدير شعره إلى هذا المستوى ، كصاحب قلادة النحر ، فإنه قال : وله فى النظم أشياء حسنة[4] .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٩٩ .
(٢) معاهد التنصيص ص ٦٢٤ .
(٣) المرجع السابق ص ٦٣٢ .
(٤) قلادة النحر ٤ : ٢٧٦ .

وشعر الفاضل لا يسرف فى استعمال الألفاظ الغريبة ، وعبارته محكمة النسج ، ومعانيه واضحة ، إلا فى القليل النادر ، وله ديوان كبير ، منه قوله مادحا :

لقد سالمتنا صروف الزمان   وما برحت قبلها عائدة
وأمطرت نوء الندى دائماً   فهزت به أرضنا الهامدة
وأطفت حرارة آمالنا   مغانم إحسانك الباردة
وبوأك الجود يا بن الكرا   م نجائب أقوالنا الخالدة
فكم نعمة بعدها مثلها   وفائدة بعدها فائدة

العماد الكاتب

محمد بن محمد بن حامد ، ولد بأصبهان يوم الاثنين ثانى جمادى الآخرة ، سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وقدم بغداد فى حداثته ، وانتظم فى سلك طلبة المدرسة النظامية ، فتفقه بها وأتقن الخلاف والنحو والأدب ، وفى بغداد اتصل بالوزير : عون الدين بن هبيرة ، فولاه النظر بالبصرة ، ثم بواسط . فلما مات الوزير تشتت شمل أتباعه ، ونال المكروه بعضهم ، وظل العماد حيناً من الزمن فى عيش تعس ، لم يرق العماد ، فمضى إلى دمشق سنة ٥٦٠ هـ ، وحاكمها الملك العادل نور الدين محمود ، فاتصل به ، ووكل إليه كتابة الإنشاء ، وكان العماد يكتب بالعربية والفارسية ، وارتقت منزلته عند نور الدين ، حتى صار موضع سره ، ووكل إليه التدريس فى المدرسة التى عرفت باسمه ، وجعله مشرفا على الديوان ، وظل فى عيش رخى ، حتى توفى نور الدين ، فرثاه بقصائد ، منها قوله فى إحداها :

لفقـــد الملك العادل　　　يبكى الملك والعدل
وقـــد أظلمت الآفاق　　　لا شمس ، ولا ظـــل
ولمـــا غاب نور الدين　　　عنا أظلم الحفـــل
وزال الخصب ، والخير　　　وزاد الشر والمحل
ومات البأس ، والجـــود　　　وعاش اليأس والبخـــل
وعز النقص لمـــا هان أهل　　　الفضـــل ، والفضل
وهل ينفق ذو العـــلم　　　إذا ما نفق الجهـــل

---

* مراجعه : (١) الروضتين ١ و ٢ فى مواضع كثيرة . (٢) حسن المحاضرة ١ : ٣٤٢ .
(٣) بدائع البدائه ص ٦٢ . (٤) صبح الأعشى ٢ : ٤٤٦ و ٦ : ٥١٧ و ٨ : ١٦٧ .
(٥) وفيات الأعيان ١ : ٦٠ و ٦١ و ٢ : ٧٤ . (٦) معجم الأدباء ١٩ : ١١ .
(٧) خطط المقريزى ٣ : ٢٩ . (٨) النجوم الزاهرة (جـ ٥ و ٦ فى مواضع كثيرة) .
(٩) ذيل الروضتين ص ٢٧ . (١٠) تاريخ دمشق (حرف الميم) .
(١١) السلوك ١ : ٦٠ و ١١٣ و ١١٤ و ١١٧ . (١٢) طبقات الشافعية للسبكى ٤ : ٩٧ .
(١٣) الكامل لابن الأثير ١٢ : ٨٠ . (١٤) ديوان ابن الساعاتى ٢ : ١١٦ و ٢٣٢ و ٣٦٠ .
(١٥) شذرات الذهب ٤ : ٣٣٣ . (١٦) الفتح القسى فى الفتح القدسى . (١٧) خريدة القصر .
(١٨) تاريخ السلجوقية . (١٩) البداية والنهاية ١٣ : ٣٠ . (٢٠) الوافى بالوفيات .

ولما قام ولده الملك الصالح إسماعيل مقامه كان صغيراً ، فاستولى عليه جماعة كانوا يكرهون العماد فضايقوه ، وأخافوه ، فسافر قاصداً بغداد ، ولكنه عند ما وصل إلى الموصل مرض مرضاً شديداً ، وهناك بلغه خروج صلاح الدين من مصر ، لأخذ دمشق . وكان مدة مقامه بدمشق قد اتصل بصلاح الدين وأبيه ، فعزم على العود إلى الشام ، فوصل إلى دمشق سنة ٥٧٠ هـ ، وهناك اتصل بصلاح الدين ، واستكتبه ، وكان القاضي الفاضل كثيراً ما ينقطع عن خدمة السلطان ، ويتوفر على مصالح الديار المصرية ، أما العماد فكان ملازما للسلطان ، وحضر إلى مصر مع صلاح الدين ، وكان لهذه الرحلة أثرها فى نفسه ، فقد ترك دمشق مروع القلب بفراق أهله ، فما نزل منزلا إلا نظم أبياتاً يذكر فيها شوقه إلى دمشق ، ثم نظم قصيدة يشتاق فيها إلى دمشق ، ويقول :

هجرتكم ، لا عن ملال ، ولا غدر ... ولكن لمقدور أتيح من الأمر
وأعلم أنى مخطىء فى فراقكم ... وعذرى فى ذنبى ، وذنبى فى عذرى
أرى نوبا للدهر تحصى ، ولا أرى ... أشد من الهجران فى نوب الدهر
بعينى إلى لقياسواكم غشاوة ... وسمعى عن نجوى سواكم لذو وقر
وقلبى وصبرى فارقانى لبعدكم ... فلا صبر فى قلبى ، ولا قلب فى صدرى
وإنى على العهد الذى تعهدونه ... وسرى لكم سرى ، وجهرى لكم جهرى
تجرعت كأس الهم من كأس شوقكم ... وها أنا فى صحوى تريف من السكر
أسير إلى مصر ، وقلبى أسيركم ... ومن عجب أسرى وقلبى فى أسر
أخلاى قد شط المزار ، فأرسلوا الخيال ... وزوروا فى الكرى ، واربحوا أجرى
تذكرت أحبابى بجلق ، بعد ما ... ترحلت ، والمشتاق يأنس بالذكر
وناديت صبرى مستغيثاً فلم يجب ... فأسبلت دمعى للبكاء على صبرى

ومضى العماد يذكر المنازل التى مر بها من دمشق إلى القاهرة ، ويسجل الأماكن التى نزل بها وارتحل عنها . ولكن العماد عندما نزل القاهرة وجد أهلا بأهل ، ورأى من القاضى الفاضل ما أبدل وحشته أنساً ، وأجله أعضاء الأسرة الأيوبية ، وأكرموه ، ومضى العماد يستمتع بالحياة فى القاهرة ، قال : « وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى ، لاستماع الأغانى ، والتنزه فى الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ، ودار الملك

والنيل ، والمقياس ، ومرامى السفن ، ومجارى الفلك ، والقصور بالقرافة ، وربوع الضيافة، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة فى المسائل الفقهية ، والمعانى الأدبية [١] » .

وصاحب العماد السلطان فى رحلته إلى دمياط والإسكندرية ، وتردد معه إلى أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى ، ولم تلبث مصر أن أسرت العماد ، حتى لقد فكر فى أن يتخلف عن السلطان ، عند ما عزم أن يفارقها إلى الشام ، ولكنه استشار أحد أصحابه ، فأشار عليه بملازمة صلاح الدين ، فخرج العماد كارهاً للخروج ، وكتب إلى من أشار عليه بمبارحة مصر قصيدة منها :

إذا رضيتم بمكروهى فذاك رضا ... لا أبتغى غير ما تبغون لى غرضا
وإن رأيتم شفاء القلب فى مرضى ... فإننى مستطيب ذلك المرضا
أنتم أشرتم بتعذيبى ، فصرت له ... مستعذبا أستلذ الهم والمضضا
لله عيش تقضى عندكم ، ومضى ... وكان مثل سحاب برقه ومضا
العيش دان جناه الغض عندكم ... والقلب محترق منى بجمر غضا
طوبى لكم مصر ، والدار التى قضيت ... فيها المآرب والعيش الذى خفضا

ولما رجع إلى دمشق كان الحنين يهزه إلى مصر ، فيقول :

ساكنى مصر ، هناكم طيبها ... إن عيشى بعدكم لم يطب
لا عدمتم راحة من قربها ... فأنا من بعدها فى تعب
بعد العهد بأخباركم ... فابعثوا أخباركم فى الكتب
ليت مصرا عرفت أنى وإن ... غبت عنها فالهوى لم يغب

ولازم العماد صلاح الدين فى حله وترحاله ، لم يكد يتخلف عنه فى غزواته،وسجل العماد انتصارات صلاح الدين وغزواته شعراً ونثراً ، فكتب فى ذلك الفتح القسى فى الفتح القدسى، يؤرخ بلغة الأدب فتوح صلاح الدين ، كما تغنى فى شعره بهذه الفتوح ، وله قصيدة من قصائده الطوال ضمنها فتح القدس وفلسطين ، ومدح السلطان صلاح الدين ، بدأها بالغزل، حتى إذا انتهى منه قال :

---

(١) الروضتين ١ : ٢٦٧ .

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا | وأشرف من أضحى ، وأكرم من أمسى
وقيل : لنا فى الأرض سبعة أبحر | ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى ، وشيمته الرضا | وبطشته الكبرى ، وعزته القعسا
فلا عدمت أيامنا منه مشرقا | ينير بما يولى لياليناالدمسا
جنودك أملاك السماء ، وظنهم | أعاديك جنا فى المعارك لا إنسا
سحبت على الأردن ردنا من القنا | ردينية ملدا ، وخطية ملسا
ونعم مجال الخيل حطين ، لم تكن | معاركها للجود ضرساً ولا دهسا
غداة أسود الحرب معتقلو القنا | أساود تبغى من نحور العدا نهسا
أتوا شكس الأخلاق ، خشنا ، فلينت | حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا
طردتهم فى الملتقى وعكستهم | مجيداً بحكم العزم طردك والعكسا
فكيف مكست المشركين رءوسهم | ورأيك فى الإحسان أن تطلق المكسا
كسرتهم إذ صح عزمك فيهم | ونكستهم من بعد أعلامهم نكسا
بواقعة رجت بها أرض جيشهم | ومارت ، كما بست جبالهم بسا
بطون ذئاب البر صارت قبورهم | ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

ومنها فى فتح بيت المقدس :

فلا يستحق القدس غيرك فى الورى | فأنت الذى من دونهم فتح القدسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا | فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم | فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها | وألبستها الدين الذى كشف اللبسا
وعادت ببيت الله أحكام دينه | فلا بطركا أبقيت فيها ، ولا قسا

ومن قبل صلاح الدين سجل العماد غزوات نور الدين ، وتغنى بها شعراً ، وكان يكتب الرسائل على لسانهما ، وبيده تكتب بشائر الفتوح ، فلما هزم العدو عند عكا مثلا كتب ثلاثين أو أربعين كتاب بشارة [١] ، ولما فتح القدس كتب سبعين كتاب بشارة [٢] ، منها ذلك

---

(١) الروضتين ٢ : ١٥٩   (٢) المرجع السابق ص ٩٦ .

الكتاب الذى أرسل إلى بغداد وقد بدأه العماد بهذه الآية الكريمة : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ». وهى آية مناسبة تمام المناسبة للمقام الذى وردت فيه ، إذ فتح القدس إنجاز لهذا الوعد الذى وعده الله ، من استخلاف المؤمنين فى الأرض ، والتمكين لهم فى دينهم ، ثم أطال فى حمد الله ، إذ قال : « الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، ومكن دينه المرتضى وبدل الأمن من المخافة ، وذخر هذا الفتح الأسنى ، والنصر الأهنى ، للعصر الإمامى النبوى الناصرى ، على يد الخادم أخلص أوليائه ، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه » ، وأخذ بعدئذ يتحدث عن عظمة هذا الفتح ، فقال : « وهذا الفتح العظيم ، والنجح الكريم ، قد انقرضت الملوك الماضية ، والقرون الخالية ، على حسرة تمنيه ، وحيرة ترجيه ، ووحشة اليأس من تسنيه ، وتقاصرت عنه طوال الهمم ، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم ، فالحمد لله الذى أعاد القدس إلى القدس ، وأعاذه من الرجس ، وحقق من فتحه ما كان فى النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأنس ، وجعل عز يومه ماحيا ذل أمس ، وأسكنه الفقهاء والعلماء ، بعد الجهال والضلال ، من البطرك والقس ، وعبدة الصليب ، ومستقبلى الشمس ، وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين ، وقطع دابر القوم الظالمين ، والحمد لله رب العالمين ، فكأن الله شرف هذه الأمة ، وقال لهم : اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التى بها فضلكم ، وحقق فى حقهم امتثال أمره فى قوله الكريم : « ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم »» ، ثم يصور الفتح قائلا : « وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان ، وجعل ملائكته المسومة له من أعز الأنصار وأظهر الأعوان ، وأخرج من بيته المقدس يوم الجمعة أهل الأحد ، وقمع من كان يقول : إن الله ثالث ثلاثة بمن يقول : هو الله أحد ، وأعان الله بإنزال الملائكة والروح ، وأتى بهذا النصر الممنوح ، الذى هو فتح الفتوح ، وقد تعالى أن يحيط به وصف البليغ نظما ونثراً ، وعبد الله فى البيت المقدس سراً وجهراً ، وملكت بلاد الأردن ، وفلسطين ، غوراً ، ونجداً ، وبراً ، وبحراً ، وملئت إسلاماً وكانت قد ملئت كفراً ، وتقاضى الخادم دين الدين الذى غلق رهنه دهراً ، والحمد لله شكراً ، حمداً يجدد للإسلام كل يوم

تصراً ، ويزيد وجوه أهله بشرى، فتوجه بشراً ، وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم ، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم ، وإنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة من رجس دمائهم ، وقتل رجالهم ، وسبى ذراريهم ، وتسائهم ، ولما أيسوا من النجاة ، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة ، خوفوا بقتل الأسارى المسلمين ، وهم أكثر من ثلاثة آلاف ، وأنهم يفسدون جميع ما فى البلد من مال وبناء ، بهدم ، وإحراق ، وإتلاف ، وعرف أن جهلهم على كل مكر شنيع ، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل أمر فظيع ، وبذلوا إطلاق الأسرى ، وشرطوا حمل مال الفدا ، وما زالوا يبتهلون ، ويضرعون ، ويذلون ويخشعون ، حتى استقر الأمر أنهم يفادون ، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها . . . وغسلت من أوضارها وأوزارها ، بعبرات العيون ، ورجع اضطرابها إلى السكون ، وفديت بنواظر أهل الإيمان ، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالأيمان ، وذكرت فى يوم خلاصها من رجب بليلة المعراج ، وتجلى إظلامها بإنارة سناء السراج، وأعيدت الكنائس مدارس ، أضحت بإحياء رميم التوحيد رسوم الكفر عافية دوارس ، وزالت ضجرة الصخرة ، ونعشها الله من العثرة ، وبدل بالأنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة ، والحمد لله على هذه النصرة ، والمنة له على هذه المبرة ، وقد تسلمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل ، من حد الداروم إلى حد طرابلس ، وكل ما كان جارياً فى مملكة ملك القدس ونابلس ، ولم يبق إلا صور فإنه قد تأخر انتزاعها ، وتقدم امتناعها ، والفرنج فيها قد ضربت بآمالها أطماعها ، وهى بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة [1] » .

وأسلوب العماد لا يختلف عن أسلوب عصره : فى التزام السجع ، والصناعة البديعية ، وقد يبالغ فى ذلك ، ولا سيما حين يكتب إلى شيخ الصناعة فى عصره ، وهو القاضى الفاضل ، وحينئذ تحس بمبلغ العناء الذى كان العماد يتكلفه ، ليرضى زعيم أسلوب الصنعة فى عصره ، كهذه الرسالة التى كتبها إليه عند ما حج سنة ٥٧٤ ﻫ ، فقال فى رسالته : « طوبى للحجر والحجون ، من ذى الحجر والحجا ، منيل الجدا ، ومنير الدجى ، ولندى الكعبة من كعبة الندى ، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى ، وللمقام الكريم من مقام الكريم ، ومن حاطم

---

(١) الروضتين ٢ : ٩٦ .

فقار الفقر للحطيم ، ومتى رثى هرم فى الحرم ، وحاتم ماتح زمزم ، ومتى ركب البحر البحر ، وسلك البر البر ، لقد عاد قس إلى عكاظه ، وعاد قيس لحفاظه ، وياعجباً لكعبة يقصدها كعبة الفضل والإفضال ، ولقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال . والسلام (١) . وهى رسالة مغرقة فى الصناعة ، كما ترى .

وظل العماد رفيع الجانب ، عظيم المكانة ، حتى مات صلاح الدين ، فرثاه العماد ، بقصائد كثيرة منها واحدة بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتاً ، منها قوله :

شمل الهـــدى والملك عم شتاته	والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذى كانت له طاعاتنـــا	مبـــذولة ، ولربه طاعاته
بالله أين النـــاصر الملك الذى	لله خالصة صـــفت نياته
أغلال أعناق العـــدا أسيافه	أطـــواق أجياد الورى مناته
مسعودة غدواته ، محمـــودة	روحاته ، ميمونة ضحواته
فى نصرة الإســـلام يسهر دائماً	ليطول فى روض الجنان سناته

واتصل بعد وفاته بالأفضل ولده ، وهو الذى كتب الرسالة التى أعلن الأفضل ولاءه فيها لبغداد (٢) . ولكن يظهر أن الأفضل بعد أن استوزر ابن الأثير لم يأنس به أعوان أبيه ، فانكمش القاضى الفاضل فى مصر ، والعماد فى دمشق ، فلزم بيته ، وأقبل على الاشتغال بالتأليف ، وقد ترك لنا العماد كتباً عدة : منها كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ، ذكر فيه الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وجمع فيه شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ، وهذا الكتاب ذيل على زينة دمية الدهر ، لأبى المعالى سعد بن على الوراق الخطيرى ، والخطيرى جعل كتابه ذيلا على دمية القصر ، وعصرة أهل العصر ، للباخرزى ، الذى جعل كتابه ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبى ، والثعالبى جعل كتابه ذيلا على كتاب البارع ، لهرون بن على المنجم .

وصنف العماد كذلك كتاب البرق الشامى ، وهو كتاب تاريخى ضخم ، بدأ فيه بذكر نفسه ، وصورة انتقاله من العراق إلى الشام ، وما حدث له فى خدمة نور الدين محمود ،

---

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٧٥ . (٢) الرسالة فى الروضتين ٢ : ٢٢٥ .

وكيف اتصل بخدمة صلاح الدين ، وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام ، قال ابن خلكان : « وهو من الكتب الممتعة ، وإنما سماه : البرق الشامي ، لأنه شبه أوقاته فى تلك الأيام بالبرق الخاطف ، لطيبها وسرعة انقضائها » . ووضع كتاب السيل على الذيل ، جعله ذيلا لكتابه : خريدة القصر .

وصنف كتاب نصرة الفطرة ، وعصرة القطرة ، فى أخبار الدولة السلجوقية .

وألف كتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى ، وهو يؤرخ لحروب صلاح الدين ، فى لغة أدبية رفيعة ، وله رسالة تعرف بالعتبى والعقبى [١] ، أرخ فيها ماجرى بعد وفاة صلاح الدين إلى سنة اثنتين وتسعين . وكتاب آخر سماه نحلة الرحلة [٢] ، أرخ فيه لرحلته إلى مصر بعد وفاة السلطان ، وعودته منها إلى دمشق . وكتاب ثالث دعاه : خطفة البارق ، وعطفة الشارق [٣] ، ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاث وتسعين ، إلى أن توفى العماد فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وللعماد ديوان شعر فى أربعة مجلدات ، ونفسه فى قصائده طويل ، وله ديوان صغير جميعه دوبيت ، وديوان رسائل فى مجلدات ، كما عرب كتاب كيمياء السعادة ، للإمام الغزالى فى مجلدين ، برغبة من القاضى الفاضل [٤] . ولنختم الحديث عن العماد بحكم خليل بن أيبك الصفدى عليه ، لأنه يوافق رأينا إلى مدى بعيد ، قال ، بعد أن ذكر قدرته على كل من النظم والنثر : « أرى أن شعره ألطف من نثره ، لإكثار الجناس فى نثره ، وأما النظم فكان الوزن فيه يضايقه فلا يدعه يتمكن من الجناس » . ثم ذكر من كلام العماد الخالى من الجناس قوله : « فلما أراد الله الساعة التى جلاها لوقتها ، والآية التى لا أخت لها فنقول : هى أكبر من أختها — أفضت الليلة الماطلة إلى فجرها ، ووصلت الدنيا الحامل إلى تمام شهرها ، وجاءت بواحدها الذى يضاف إليه الأعداد ، وملكها الذى له الأرض بساط ، والسماء خيمة ، والحبك أطناب ، والجبال أوتاد ، والشمس دينار ، والقطر دراهم ، والأفلاك خدم ، والنجوم أولاد » . وقال : « هذا لما كان خالياً من الجناس ، عذب فى السمع وقعه ، واتسع فى الأحساب شفعه ، ورشف اللب مدامه وكان عند من له ذوق أطيب من ثغر « حمامة » .

---

(١) الروضتين ٢ : ٢٢٨ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣١ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٣٠ .

ثم ذكر من كلامه المشتمل على الجناس قوله من جواب مكاتبة : « فوقف الخادم عليه ، وأفاض فى شكر فيض فضله المستفيض ، وثلج وجه وجاهته ، وتأرج بناء نباهته ، ماعرفه من عوارفه البيض » . ثم قال : « فانظر إلى قلق هذا التركيب ، وتعسفه فى هذا الترتيب » .

والعماد فى شعره أجود منه فى نثره حقاً ، وإن كان يتلمس فى كليهما المحسنات والزخارف . ومات العماد فى مستهل شهر رمضان ، سنة سبع وتسعين وخمسمائة هجرية .

ابن لقمـــــــان*

إبراهيم ، ولد سنة اثنتى عشرة وستمائة ، تخرج فى ديوان الإنشاء على يد الصاحب بهاء الدين زهير ، الذى كان صاحب ديوان الإنشاء فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولما غضب الصالح على صاحبه قلد ابن لقمان رئاسة الديوان ، فكان آخر من ولى هذا المنصب فى عهد الدولة الأيوبية ، وظل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن انقرضت هذه الدولة ، فكتب لمن ولى العرش من سلاطين المماليك ، كتب للمعز أيبك، ومن بعده للمظفر قطز ، ثم للظاهر بيبرس ، ثم للمنصور قلاوون .

ونال ابن لقمان حظوة كبرى لدى هذين السلطانين ، فهو الذى كتب بقلمه تقليد الظاهر بيبرس ، وفيه يعلن الخليفة العباسى الذى أقامه الظاهر بيبرس خليفة فى القاهرة — أنه فوض السلطنة وأمور المسلمين إلى الظاهر بيبرس ، ففى مستهل شعبان ، سنة تسع وخمسين وستمائة ، تقدم الخليفة بتفصيل خلعة سوداء، وبعمل طوق ذهب ، وقيد ذهب ، وبكتابة تقليد بالسلطنة ، للملك الظاهر بيبرس ، ونصب خيمة ظاهر القاهرة ، فى البستان الكبير . وفى يوم الاثنين رابعه ركب السلطان ، ومعه أهل الدولة ، وأفيضت عليه خلع الخليفة ، كما أفيضت الخلع على كبار رجال الدولة ، وكان منهم ابن لقمان الذى نصب له منبر ، جلل بثوب حرير ، أطلس أصفر ، فصعد عليه ، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان ، وافتتحه بالبسملة بقوله : « الحمد لله الذى أضفى على الإسلام ملابس الشرف ، وأظهر بهجة درره ، وكادت خافية بما استحكم عليها من الصدف ، وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر من سلف ، وقيض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف . . . » وبعد الحمد والشهادتين ، والصلاة على الرسول ، أخذ يثنى على

---

* مراجعه :

(١) صبح الأعشى ١ : ٩٧ ، ٩ : ٦ و ١١١ .

(٢) السلوك ١ : ٤٥٣ و ٦٦٦ و ٥٧٣ و ٤٨٩ و ٦٨٢ و ٣٥٦ و ٤٥٣ و ٥٨٠ .

(٣) حسن المحاضرة ٢ : ٤٥ . (٤) خطط المقريزى ١ : ٣٥٨ .

(٥) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٣٥ و ٣٦٦ و ٣٧٠ ، ٧ : ٢٩٣ و ١١١ و ١٤٤ و ١٤٦ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٨ و ٨ : ٥٠ و ٥١ . (٦) فوات الوفيات ١ : ٨٣ .

(٧) نهاية الأرب ٢٨ : ٦٨ و ٦٩ . (٨) البداية والنهاية ١٣ : ٣٣٧ .

الظاهر بيبرس الذى أحيا الخلافة العباسية قائلا : « وبعد ، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً فى تسطير مناقبه وبره ، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدماً ، ودعا إلى طاعته ، فأجاب من كان منجداً ومتهماً ، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً ، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه ناراً ، وأجراه دماً ، ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى ، شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوى الامامى المستنصرى ، أعز الله سلطانه ، تنويهاً بشريف قدره، واعترافاً بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره ، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان ، وعتب دهرها المسىء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب ، فأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حرباً، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم حنواً وعطفا ، وأظهر من الولاء رغبة فى ثواب الله مالا يخفى ، وأبدى من الاهتمام بأمر البيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه ، ولو تمسك به متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه ، ولكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها فى الميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامة حسابه ، والسعيد من خفف من حسابه ، فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها فى صحيفة صنعه ، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه ، بعد أن حصل الإياس من جمعه ، وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعرف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية ، والبلاد الشامية ، والديار بكرية ، والحجازية ، واليمنية ، والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلداً من البلاد ، ولا حصنا من الحصون يستثنى . . . » ومضى التقليد يوصيه بأمور الرعية ، ويذكر فضل الرفق بها ، والعناية بشأنها ، فى إطناب وتطويل .

وابن لقمان هو الذى كتب تقليد الملك السعيد سنة ٦٦٧ هـ ، بنيابة السلطنة عن أبيه الظاهر بيبرس ، وكان من حاشية السلطان عند ما حج سنة ٦٦٦ هـ .

أما المنصور قلاوون فقد ولاه وزارته كما ولى الوزارة لابنه الأشرف خليل ، قال مؤرخوه عنه : إنه كان فى أيام وزارته مشكور السيرة ، كثير العدل والإحسان إلى الرعية ،

وأنه سعى فى إبطال مظالم كثيرة ، وما كان يتأثر بعزله من الوزارة ، بل كان يمضى بعد عزله للعمل فى ديوان الإنشاء وكأنه ما تغير عليه شىء . بل كان يتقاضى وزيراً مرتبه رئيساً لديوان الإنشاء .

وقد اشتغل ابن لقمان بالتدريس ، وأخذ عنه الطلبة ، وكان ناظماً ناثراً ، ومن شعره :

كن كيف شئت ، فإننى بك مغرم ... راض بما فعل الهوى المتحكم
ولئن كتمت عن الوشاة صبابتى ... بك فالجوانح بالهوى تتكلم
أشتاق من أهوى ، وأعجب أننى ... أشتاق من هو فى الفؤاد مخيم
يا من يصد عن المحب تدللا ... وإذا بكى وجدا غدا يتبسم
أسكنتك القلب الذى أحرقته ... فحذار من نار به تتضرم

وهو فيما أوردنا له من نصوص لا يخرج عن طريقة أبناء عصره فى النثر والشعر .

وقد سجل ابن مطروح دار ابن لقمان فى شعره الذى هدد به ملك فرنسا الذى أسر بالمنصورة ، فى الدار التى كان ينزل بها ابن لقمان إذا جاء إلى المنصورة فى شئون الدولة ، وذلك حين قال ابن مطروح :

دار ابن لقمان على حالها ... والقيد باق ، والطواشى صبيح

وبعد إحدى وثمانين سنة ، توفى ابن لقمان ، فى جمادى الآخرة ، سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

ابن عبد الظاهر *

فتح الدين محمد ، ابن القاضى محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر ، آخر من ولى ديوان الإنشاء فى عصر الحروب الصليبية ، وليه بعد ابن لقمان الذى استوزره المنصور قلاوون ، وكان أول من سمى بكاتب السر ، فقد نفذ المنصور قلاوون فكرة الظاهر بيبرس ، فى ضرورة أن يكون للملك كاتب سر يتلقى المرسوم شفاهاً منه بلا وساطة ، وحظى فتح الدين عند المنصور قلاوون ، وسمت منزلته عنده ، وكان يعتمد عليه ويثق به ، كما حافظ على هذه المكانة عند ما ولى العرش الأشرف خليل بن قلاوون ، وزادت مكانته عنده ، وعظم أعجابه به ، عند ما طلب منه ابن السلعوس أن يعرض عليه كل ما يكتبه عن السلطان ، فقال فتح الدين: هذا لا يمكن ، فإن أسرار الملوك لا يطلع عليها غيرهم ، فإن اخترتم ، وإلا فعينوا عوضى يكون معكم بهذه المثابة . فلما بلغ ذلك الأشرف أعجبه ، وازدادت عنده منزلته .

وكان فتح الدين من بيت تأصل فيه الأدب : كان أبوه محيي الدين من كبار كتاب الإنشاء فى عهد الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، ولعله لم يل ديوان الإنشاء عوضا من ابنه لأن فتح الدين قد أظهر براعة فى إدارة الديوان وتدبير أموره ، جعلته أولى من أبيه بأن يسند إليه أمر الديوان ، كما كان علاء الدين على بن فتح الدين من المجيدين فى كتابة الإنشاء . وبهذا كان هذا البيت ممن توارث بنوه هذا الفن الرفيع .

وقد اتسعت ثقافة ابن عبد الظاهر فشملت الحديث والفقه ، وأغلب الظن أنه تمرن فى ديوان الإنشاء ، وأظهر كياسة ، وحسن سياسة ، وبعد نظر ، ومقدرة عقلية ، هيأته لتولى هذا المنصب الخطير .

وسار فتح الدين كما سار أبوه محيي الدين ، على المنهج الذى أعجب به القاضى الفاضل من قبلهما ، فهما من أخلص تلاميذ الفاضل لطريقته ، وهذا نموذج مما كتب به أماناً عن المنصور قلاوون ، للتجار الذين يصلون إلى مصر ، من الصين والهند ، والسند ، واليمن ، والعراق ، وبلاد الروم ، وهو بذلك يفتح أبواب بلاده أمام التجارة الخارجية ، ويبدأ الأمان ببراعة استهلال ، يدعو فيها للعرش قائلا : رسم ، أعلى الله الأمر العالى ، لا زال عدله يحل الرعايا

---

* مراجعة : (١) حسن المحاضرة ١ : ٢٤٥ .
(٢) النجوم الزهرة ٧ : ٢٩٢ و ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٣٣٤ و ٣٣٨ و ٨ : ٣ و ٤ و ٣٥ .
(٣) صبح الأعشى ١ : ٩٧ و ١٣ : ٣٣٩ . (٤) السلوك ١ : ٥٩٨ و ٧٧٩ و ١٣١ .
(٥) البداية والنهاية ١٣ : ٣٣١ . (٦) خطط المقريزي ٤ : ١٣٠ و ١٣١ .
(٧) شذرات الذهب ٥ : ٤١٩ . (٨) المنهل الصافى جـ٣ ص ١٩١ ب .

من الأمن فى حصن حصين ، ويستخلص الدعاء لدولته الزاهرة من أهل المشارق والمغارب ، فلا أحد إلا وهو من المخلصين ، ويهيىء برحابها للمعتفين جنة عدن ، من أى أبوابها شاء الناس دخولا : من العراق ، من العجم ، من الروم ، من الحجاز ، من الهند ، من الصين — أنه من أراد من الصدور الأجلاء الأكابر التجار ، وأرباب التكسب ، وأهل التسبب ، من أهل هذه الأقاليم التى عددت ، والتى لم تعدد ، ومن يؤثر الورود إلى ممالكنا إن أقام أو تردد ، النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجاؤها ، الظليلة أفياؤها وأفناؤها ، فليعزم عزم من قدر الله له فى ذلك الخير والخيرة ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ، ولا إلى ذخيرة ، لأنها فى الدنيا جنة عدن ، لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ، ونزهة لا يملها بصر ، ولا تهجر للإفراط فى الخصر ، والمقيم بها فى ربيع دائم ، وخير ملازم ، ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله فى أرضه ، وأن بركة الله حاصلة فى رحل من جعل الإحسان فيها من إقراضه والحسنة من قرضه ، ومنها ما إذا أهبط إليها آمل كان له ما سأل ، إذ أصبحت دار إسلام تسبق سيوفهم العذل ، وقد عمر العدل أوطانها ، وكثر سكانها ، واتسعت أبنيتها ، إلى إن صارت ذات المدائن ، وأيسر المعسر فيها ، فلا يخشى سورة المداين ، إذ المطالب بها غير متعسرة ، والنظرة فيها إلى ميسرة ، وسائر الناس وجميع التجار ، لا يخشون فيها من يجور ، فإن العدل قد أجار » .

ويمضى المرسوم مغرياً التجار من جميع الجهات بالحضور إلى مصر ، وليأخذ كل الأهبة للقدوم ليجد الفعال من المقال أكبر . ويرى إحساناً يقابل فى الورى بهذه العهود بالأكثر ، ويحل منها فى بلدة طيبة ورب غفور ، وفى نعمة جزاؤها الشكر ، وهل يجازى إلا الشكور ، وفى سلامة فى النفس والمال ؛ وسعادة تجلى الأحوال ، وتمول الآمال ولهم منا كل ما يؤثرونه : من معدلة تجيب داعيها ، وتحمد عيشتهم دواعيها ، وتبقى أموالهم على مخلفيهم . . . ومن أحضر معه بضائع . . . فلا يخاف عليه فى حق ، ولا يكلف أمراً يشق . . . ومن أحضر معه منهم مماليك وجوارى فله فى قبضتهم ما يزيد ، على ما يريد . . . لأن رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود . . . فليستكثر من يقدر على جلبهم ، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاث على طلبهم . . .

ويحس قارىء هذا النموذج بما كان يبذله فتح الدين من جهد ، ليسير فى الطريق الذى

يجده القاضى الفاضل ، ولم يرتض سواه ، كما نلاحظ طول الجمل المعترضة بين أجزاء الجملة ، مما لم يستسغه القاضى الفاضل كثيراً .

ويظهر أن فتح الدين كان جارى القلم بالكتابة ، ومما يروى له فى ذلك أنه كتب مرة فى يوم وليلة بين يدى السلطان ثمانين كتاباً ، أرسلت إلى أنحاء الإمبراطورية يومئذ .

وعالج فتح الدين قرض الشعر إلى جانب صناعة النثر ، كأغلب كتاب ذلك العصر ، فقد حاولوا أن يجمعوا بين الفنين . ومما يروى من شعره ما كتبه إلى والده وقد توجه إلى دمشق صحبة السلطان ، وحصل له توعك ، فكتب يقول :

إن شئت تنظـــرنى وتبصر حالتى ... قابل إذا هب النسيم قبولا
تلقاه مثـــــلى : رقة ونحافة ... ولأجل قلبك لا أقول : عليلا
فهـو الرسول إليك منى ، ليتنى ... كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

ومن شعره ، وفيه حسن تعليل :

ذو قوام يجـــور منه اعتدال ... كم طعـــــين به من العشاق
سلب القضب لينها ، فهى غيظاً ... واقفـــات تشكوه بالأوراق

ولم يعمر فتح الدين طويلا ، فبعد أربع وخمسين سنة ، توفى بدمشق ، فى ١٥ رمضان ، سنة ٦٩١ هـ ، وكان مولده بالقاهرة سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

الباب الثالث

الخطـــــابة

كان للخطابة فى ذلك العصر شأن مرموق ومكانة سامية ، يمجد العظيم فيقال : من بيت رياسة وخطابة [١]. يتولى الخليفة الفاطمى بنفسه أمرها ، فى مساجد القاهرة ومصر ، فيخطب من إنشائه ، أو يهيء له ديوان الإنشاء خطبة يلقيها ، وأحيانا ينيب عنه وزيره فيها [٢] ، ويختار لكبار المساجد كبار العلماء والقضاة [٣] ، وظلت العناية بأمر الخطابة على حالها بمصر والشام فى عصر الأيوبيين ، وأوائل عصر المماليك . ولما أعيدت الخلافة العباسية فى مصر كان الخليفة العباسى يتولى أحياناً أمر الخطابة [٤]. وكانوا يشترطون فى الخطيب فصاحة اللسان ، وحفظ القرآن ، وربما اشترط فيه فى العصر الفاطمى أن يكون شريفاً [٥] . وقراءة التوقيع الذى كتب به لقاضى القضاة كمال الدين عمر بن العديم بخطابة جامع تدل على ما كان يراعى فى اختيار خطباء المساجد الكبرى يومئذ ، من اتصافهم بصفات تجعل لكلامهم تأثيراً فى النفوس : من العلم والبلاغة ، والأخلاق السامية . إذ جاء فى هذا التوقيع : « . . . لأنه الإمام الذى لو تقدم عصره لكان أحد أئمة الاجتهاد ، والعارف الذى بلغ بولايته مريد الفضل غاية المراد ، والعالم الذى وجدت أخبار علومه نسبة يطابقها فى الخارج صالح العمل ، واتبع سنن الكتاب والسنة ، فلم يتخلل طريقته المثلى خلل ، والمحقق الذى وجد إلى كنه الحقيقة أكمل مجاز ، والمفوه الذى بلغ من البلاغة فى كلام البشر حد الإعجاز ، إن خطب شنف بدرر مواعظه الأسماع ، وشرف بغرر فرائده الأسجاع ، واهتزت أعواد المنابر طربا لكلمه الطيب ، وروى أوام [٦] . القلوب سح فضله الصيب . . . ولو نظر الملكان : هاروت ، وماروت ما ملكه من كتابته الساحرة لأقرا أنه السحر الحلال . . . فليباشر هذه الخطابة

---

(١) الطالع السعيد ص ٢٩٥ . (٢) راجع النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٥ .

(٣) راجع طبقات الشافعية جـ ٥ ص ٦٣ وصبح الأعشى جـ ١٢ ص ٤٤٠ .

(٤) راجع حسن المحاضرة ص ٤٨ جـ ٢ والسلوك ص ٤٧٧ جـ ١ .

(٥) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٧٥ . (٦) الأوام بالضم : العطش .

مباشرة ترشف منها كئوس كلمه الأسماع ، وليكشف لها عن وجوه فضائله القناع ، وليناثر عليهم من درر بلاغته ما تلتقطه أفواه المسامع . . . . . . وليطرب بمواصيل أسجاعه القاطعة بفضائله المكملة . . . ولينفق على الجمع يوم الجمعة مما آتاه الله تعالى من كنوز الفضائل ، وليبلغهم من بلاغته التى أخملت ذكر « قس » و « سحبان وائل » [١] . . . .) . وقد تستقر الخطابة فى بيت من بيوت العلم ، كما استقرت حيناً فى بيت ابن دقيق العيد [٢] .

وكان المسجد غالباً مكان الخطابة فى أيام الجمع ، وأحياناً عند الظروف القاسية ، يجمع الناس فى المسجد للاستماع إلى خطبة استدعاها ذلك الظرف الخاص ، كما حدث بعد موت الملك الصالح ، وتحرك الفرنج من دمياط ، يريدون الاستيلاء على مصر ، فقد ورد من العسكر كتاب إلى القاهرة ، فقرىء على منبر جامعها ، أوله : « انفــروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . وفيه مواعظ بليغة بالحث على الجهاد ؛ فارتجت القاهرة ومصر وظواهرهما بالبكاء والعويل ، لكنهم لم يهنوا ، وخرجوا للجهاد فى عالم عظيم [٣] . وليس هـذا الكتاب الذى قرىء على منبر الجامع سوى خطبة مكتوبة .

وأحياناً لا تكون الخطبة فى الجامع ، ولا تلقى على عامة الشعب ، كهذه الخطب القصيرة التى كانت تلقى فى خيمة صلاح الدين ، إذا حزب الأمر واشتد الضيق ، روى ابن شداد وهو يصف معركة عكا أن صلاح الدين استحضر الأمراء وأرباب المشورة فى خيمته ، وأمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، ثم قال : « بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة على رسول الله . اعلموا أن هذا عدو الله وعدونا ، قد نزل فى بلدنا ، وقد وطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ، إن شاء الله تعالى ، وقد بقى فى هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك . وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ، فليس وراءنا نجدة ننتظرها ، سوى الملك العادل . وهو واصل . وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ، فليخبرنا كل منكم ما عنده فى ذلك [٤] .

وروى وهو يصف حصار العدو للقدس أن جماعة الأمراء حضروا فى خيمة السلطان ،

(١) صبح الأعشى ج ١٢ ص ٤٤٠ وما يليها . (٢) الطالع السعيد ص ٢٩٦ .
(٣) خطط المقريزى ج١ ص ٣٥٦ . (٤) النوادر السلطانية ص ٩٧ .

فأمرنى أن أكلمهم ، وأحثهم على الجهاد ، فذكرت ما يسره الله من ذلك ، وكان مما قلته : « إن النبى صلى الله عليه وسلم لما اشتد به الأمر بايعه الصحابة رضى الله عنهم على الموت ، فى لقاء العدو . ونحن أولى من تأسى به ، صلى الله عليه وسلم ، والمصلحة الاجتماع عند الصخرة ، والتحالف على الموت ، ولعل ببركة هذه النية يندفع هذا العدو » . ثم شرع السلطان بعد أن سكت زمانا فى صورة مفكر ، والناس سكوت ، كأن على رءوسهم الطير . فقال : « الحمد لله ، والصلاة على رسول الله . اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ، ومنعته ، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم معلقة بذممكم ، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه إلا أنتم ، فإن وليتم بأنفسكم ، والعياذ بالله ، طوى البلاد طى السجل للكتاب ، وكان ذلك فى ذمتكم ، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا ، وأكلتم مال بيت المال ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم ، والسلام[١] » . ومما يلحظ أن خطبتى صلاح الدين أريد بهما تبليغ أفكاره إلى سامعيه ، من غير تكلف زخرفة ولا زينة .

وإلى جانب الخطابة ظفر الوعظ بنصيب محمود فى ذلك العصر ، لما فيه من تهيئة النفوس لفعل الخير ، وهدايتها إلى منهج الحق والصواب ، وكان يقوم به من مرنت ألسنتهم على القول البليغ ، وعرفوا كيف يستميلون القلوب إليهم ، وكان بعض سلاطين هذا العصر يعرفون أثرهم فى الشعب ، فيقربهم إليه ، أو يغدق عليهم المنح والهبات ، فهذا صلاح الدين يوزع المنح على الوعاظ ، ويظل أسبوعين يستمع إلى الوعظ ، وذكر الحلال والحرام ، والبعث والحشر ، ويخلع على الواعظين[٢] ، ولما اشتدت وطأة الصليبيين على المصريين فى دمياط ، كتب المعظم عيسى إلى سبط ابن الجوزى ، يحثه على أن يعظ الناس ، ويحرضهم على الجهاد[٣] .

وقد تنوعت أهداف الخطابة يومئذ ، فمن خطابة دينية ، إلى خطابة تحث على الجهاد ، وتذكر بفضله ، وبخاصة فى الأوقات التى كان المسلمون يقاتلون فيها أعداءهم ، إلى أخرى تعلن حمد الله وشكره على ما آتى من نصر ، وأكرم به من فتوح ، وقد يقف بعض الخطباء فى جرأة الحق ، ينتقد تصرف الحاكم ، ويعلن مخالفته للدين ، كما حدث من عز الدين

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٢ .
(٢) الروضتين ج ٢ ص ٧٤ .
(٣) الإسلام والحضارة العربية ج ٢ .

ابن عبد السلام خطيب جامع دمشق ، فإن الصالح لما ملكها ، وأعطى الفرنج صفد والشقيف ذمه ابن عبد السلام على المنبر ، ولم يبال أن الصالح يعزله ويحبسه (١).

وقد أنتج هذا العصر كثيرا من دواوين الخطب التى أنشأها خطباؤه ، مثل نتائج الإخلاص فى الخطب لشميم الحلى (٢)، وديوان خطب ابن المنير السكندرى (٣)، وابن دقيق العيد (٤) ويحي بن سلامه الحصكفى (٥) ، ويحي بن معطى الزواوى (٦) ، ومحمد بن هبة الله البرمكى ، الذى وجد فى تركته خمسون ديوان خطب (٧) ، والقاسم بن القاسم الواسطى (٨) ، والحسن بن الخطير ، وكانت مليئة بحوشى الكلام (٩) ، وأحمد بن المبارك بن نوفل (١٠) وأبى محمد الواسطى (١١) ، وغيرهم . ولو أن هذه الدواوين قد بقيت لاستطعنا أن نقف على الكثير من اتجاهات الخطابة فى ذلك العصر ، وعلى الكثير من ألوان الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والخلقية ، التى كانت سائدة يومئذ ، مما كان الخطباء يعالجون إصلاحه على المنابر . غير أنه لم يبق لنا من هذه الآثار إلا خطب تعد على الأصابع . ولعل أهم نص لخطبة بقيت لنا من ذلك العصر هو الخطبة التى قيلت عقب فتح صلاح الدين بيت المقدس فى رجب سنة ٥٣٨ هـ ، قال ابن خلكان : « لما فتح القدس تطاول إلى الخطابة يوم الجمعة كل واحد من العلماء الذين كانوا فى خدمته حاضرين ، وجهز كل واحد منهم خطبة بليغة ، طمعا فى أن يكون هو الذى يعين لذلك ، فخرج المرسوم إلى القاضى محي الدين أن يخطب هو ، وحضر السلطان وأعيان دولته . وذلك فى أول جمعة صليت بالقدس (١٢)، بعد الفتح» . وقد أجاد محي الدين (١٣) فيما افتتح به خطبته ، فقد بدأها بجميع تحميدات القرآن الكريم .

---

(١) فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٨٨ .

(٢) معجم الأدباء جـ ١٣ ص ٧١ .

(٣) فوات الوفيات جـ ١ ص ٧٢ .

(٤) حسن المحاضرة جـ١ ص١٢٨ .

(٥) وفيات الأعيان جـ١ ص٢٣٨ .

(٦) بغية الوعاة ص٤١٦ .

(٧) طبقات الشافعية جـ٤ ص ١٩٦ .

(٨) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ٢٩٧ .

(٩) المرجع السابق جـ ٨ ص ١٠٨ .

(١٠) بغية الوعاة ص ١٥٤ .

(١١) فوات الوفيات جـ٢ ص ١٢٨ .

(١٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص٤٦٨ .

(١٣) هو أبو المعالى محمد بن على بن محمد كان فقيها أديباً له نظم حسن ، وخطب ، ورسائل ، تولى القضاء بدمشق ، وكذلك أبوه ، وجده ، ووالده ، كانوا قضاتها وكان له عند صلاح الدين منزله عالية ومكانة مكينة . وذكر ابن خلكان نسبه حتى انتهى به إلى عثمان بن عفان . وقد خطب محي الدين هذا أربع خطب متوالية فى أربع جمع ، ولكن لم يبق من خطبه إلا هذه الخطبة التى ندرسها . ولد سنة ٥٥٠ ، وتوفى سنة ٥٩٨ هـ . راجع وفيات الأعيان جـ١ ص ٤٦٧ ، والروضتين جـ٢ ص ١٠٨ ، ومايليهاوص٤٦ والنجوم الزاهرة جـ٦ ص ٩٥ وصبح الأعشى جـ ٦ ص ٧٤ .

استفتح بسورة الفاتحة ، وقرأها إلى آخرها . ثم قال : « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » . ثم تلا ذلك بتحميدات سور القرآن ، وكان المقام يستدعى هذا الحمد الكثير ، فقد فتح بيت المقدس ، بعد أن ظل فى أيدى مغتصبية تسعين عاما ، وكان المسلمون قد يئسوا من استعادته . ولم يكتف بتحميدات القرآن ، بل أنشأ هو حمدا قدمه إلى الله ، ووصفه بما يناسب هذه النعمة العظيمة ، فقال : الحمد لله معز الإسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكفار بمكره ، الذى قدر الأيام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده ، فلا يمانع ، والظاهر على خليقته ، فلا ينازع ، والآمر بما يشاء ، فلا يراجع ، والحاكم بما يريد ، فما يدافع » . ثم عاد مرة ثالثة إلى حمدالله قائلا : «أحمده على إظفاره وإظهاره وإعزازه لأوليائه ، ونصره لأنصاره ، وتطهير بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره » . وبعد ذكر الشهادتين مخاطتين بما يناسب المقام غير ناس عند ذكر محمد أنه أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى — اتجه إلى هؤلاء الذين تم على أيديهم هذا النصر المؤزر ، فأثنى على جهدهم الموفق ، قائلا : أيها الناس أبشروا برضوان الله ، الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم : من استرداد هذه الضالة ؛ من الأمة الضالة ، وردها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها فى أيدى المشركين قريبا من مائة عام » ... ثم أخذ يعدد فضائل المسجد الأقصى « فهو موطن أبيكم إبراهيم ، ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التى كنتم تصلون إليها فى ابتداء الإسلام ، وهو مقر الأنبياء ، ومقصد الأولياء ، ومدفن الرسل ، ومهبط الوحى ، ومنزل به ينزل الأمر والنهى ، وهو فى أرض المحشر ، وصعيد المنشر ..... وهو البلد الذى بعث إليه عبده ورسوله ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم وروحه ، عيسى الذى كرمه برسالته ، وشرفه بنبوته ... وهو أول القبلتين ، وثانى المسجدين ، وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه » . وهو بذلك يبين لهؤلاء الذين كان لهم شرف فتحه مقدار ما قدموه من فضل يحمدون عليه . ولذا قال بعد ذلك « فلولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التى لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم فى شرفها مبار ، فطوبى لكم

من جيش ظهرت على أيديكم من المعجزات النبوية ، والواقعات البدرية ، والعزمات الصديقية والفتوحات العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للإسلام أيام القادسية ، والملاحم اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجزاكم الله عن نبيه : محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم فى مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به إليه من إهراق الدماء وأثابكم الجنة فهى دار السعداء » . وإذا كان الله قد أجرى على أيديهم هذا الفتح المبين فإنه نعمة كبرى يجب أن يقدروها حق قدرها ، ويقوموا لله بواجب شكرها . وهنا يتحدث عن فضل بيت المقدس مرة أخرى ، ليبين نعمة الله عليهم فى فتحه ، فيقول :

« أليس هو البيت الذى ذكره الله فى كتابه ، ونص عليه فى محكم خطابه ، فقال تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . أليس هو البيت الذى عظمته الملل ، وأثنت عليه الرسل . . . فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما نكلت عنه بنو إسرائيل ، وقد فضلت على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه أمم كانت قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم ، وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان ، وقد ، عن سوف ، وحتى . . . . » . وبعدئذ أمرهم بحراسة هذه النعمة بالتقوى ، وترك العجب والغرور ، والاستعداد بإزالة ما بقى من آثار الغاصبين للديار . فقال : « فاحرسوا ، رحمكم الله ، هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التى من تمسك بها سلم ، ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، ومواقعة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدا ، وخذوا فى انتهاز الفرصة ، وإزالة ما بقى من الغصة ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وبيعوا ، عباد الله ، أنفسكم فى رضاه ، إذ جعلكم من خير عباده ، وإياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وخيولكم الجياد ، وبجلادكم فى مواطن الجلاد ، لا والله ، ما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . فاحذروا ، عباد الله ، بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل ، والمنح الجزيل ، وخصكم بنصره المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ، أن تقترفوا كبيراً من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه ، فتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً . . . . والجهاد الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم » . ومضى يزكى فيهم نار الحماسة ، كى يستمروا فى جهادهم ، مهوناً من شأن عدوهم ، شاداً عزائمهم ، مؤملا

أن ينتهزوا هذه الفرصة ، كى يلقوا بعدوهم إلى البحر . وفى الخطبة الثانية مضى يدعو لقائد المسلمين فى هذه المعركة ، وهو صلاح الدين ، دعاء حاراً ولا عجب فقد كانت روحه المعنوية التى بثها فى صدور جنده سبباً لهذا النصر المبين ، فقال الخطيب : « اللهم وأدم سلطان عبدك ، الخاضع لهيبتك ، الشاكر لنعمتك ، المعترف بموهبتك ، سيفك القاطع ، وشهابك اللامع ، والمحامى عن دينك المدافع ، والذاب عن حرمك ، المانع ، السيد ، الأجل ، الملك الناصر ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، مطهر البيت المقدس ، أبى المظفر ، يوسف بن أيوب ، محيى دولة أمير المؤمنين ، اللهم عم بدولته البسيطة ، واجعل ملائكتك براياته محيطة ، وأحسن عن الدين الحنيفى جزاءه ، واشكر عن الملة المحمدية عزمه ومضاءه ، اللهم أبق للإسلام مهجته ، ووق للإيمان حوزته ، وانشر فى المشارق والمغارب دعوته ، اللهم كما فتحت على يديه البيت المقدس بعد أن ظنت الظنون ، وابتلى المؤمنون ، فافتح على يديه دانى الأرض وقاصيها ، وملكه صياصى الكفر ونواصيها ، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مزقها ، ولا جماعة إلا فرقها ، ولا طائفة بعد طائفة إلا ألحقها بمن سبقها ، اللهم اشكر عن محمد صلى الله عليه وسلم سعيه ، وأنفذ فى المشارق والمغارب أمره ونهيه ، وأصلح به أوساط البلاد وأطرافها ، وأرجاء المملكة وأكنافها ، اللهم ذلل به معاطس الكفار ، وأرغم به أنوف الفجار ، وانشر ذوائب ملكه على الأمصار ، وابثث سرايا جنوده فى سبل الأقطار ، اللهم أثبت الملك فيه وفى عقبه إلى يوم الدين ، واحفظه فى بنيه وبنى أبيه الملوك الميامين ، واشدد عضده ببقائهم ، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم . اللهم كما أجريت على يده فى الإسلام ، هذه الحسنة التى تبقى على الأيام ، وتتخلد على مر الشهور والأعوام ، فارزقه الملك الأبدى ، الذى لا ينفد فى دار المتقين ، وأجب دعاءه فى قوله : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين (١) » . وإن هذا الدعاء الحار الصادر من قلب الخطيب ليعبر أصدق تعبير عما كان يشعر به المسلمون فى عصر صلاح الدين من حب وإجلال ، لهذا القائد الموفق ، وما كانوا يحملونه من كبار الآمال فيه . وإن موازنة بين هذا الدعاء الحار المليء بالأمل والقوة والتفاؤل ، وبين ما كان يدعى به لنور الدين محمود ، وهو : « اللهم أصلح عبدك

---

(١) الخطبة بتمامها فى وفيات الأعيان جـ١ ص ٤٦٨ ، والروضتين جـ٢ ص ١١٠ .

الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد فى سبيلك ، المرابط لأعداء دينك : أبا القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر ناصر أمين المؤمنين »[١] . إن هـذه الموازنة لتدل على الخطوة الواسعة التى خطاها المسلمون نحو تحقيق جزء من أهدافها فى إجلاء الصليبيين عن أرضهم ، فبينا نور الدين كان مجاهداً فى سبيل الله ، مرابطاً لأعداء دينه ، إذا بصلاح الدين سيفه القاطع ، وشهابه اللامع ، جامع كلمة الإيمان ، وقامع عبدة الصلبان . كما أن موازنة بين هذين الدعاءين وبين ما كان يدعى به لوزير الحافظ الفاطمى : أحمد بن الأفضل أمير الجيوش وهو : ناصر إمام الحق ، هادى العصاة إلى اتباع الحق ، مولى الأمم ، ومالك فضيلتى السيف والقلم »[٢] — لترينا الفرق فى الاتجاه بين عهدين ، فبينا هى فى أيام الأفضل نزاع على إمامة إمام ينصر الوزير الصادق منهما ، ويهدى العصاة إلى سبيل الصواب ، ونخر بأن الوزير عالم قائد ، إذا بها فى عهد نور الدين رباط فى سبيل الله ، وجهاد لأعدائه ، ثم إذا بها فى عهد صلاح الدين تقليم لأظافر العدو ، وتحطيم لقواه .

وبقى لنا من ذلك العصر أيضاً خطبة خطبها الحاكم بأمر الله العباسى ، وهو الخليفة الذى أقامه الظاهر بيبرس ، بعد سقوط الخلافة ببغداد ، فإن أحد أمراء العباسيين واسمه أحمد ، قدم القاهرة ، ومعه ولده ، وجماعة ، فلما كان يوم الخميس ، ثامن المحرم ، سنة إحدى وستين وستمائة ، جلس السلطان مجلساً عاما ، وجاء الأمير العباسى ، فجلس معه ، ثم قرىء نسبه على الناس ، وأقبل عليه السلطان ، وبايعه بإمرة المؤمنين ، ثم أقبل هو على السلطان ، وقلده الأمور ، ثم بايعه الناس على طبقاتهم ، ولقب الحاكم بأمر الله ، وكان يوماً مشهوداً[٣] ، فلما كان الغد يوم الجمعة ، خطب الخليفة بالناس مشيراً إلى فرضية الإمامة فى الإسلام ، وأن الجهاد فرض على جميع المسلمين ، حتى يردوا التتار الذين هاجموا بلاد الإسلام ، وسفكوا دماء المسلمين ، وصور لهم ما حدث ببغداد : من أنواع المظالم ، وما ارتكبه الغزاة ، من أقسى ألوان الوحشية ، ودعاهم إلى الجهاد حتى يردوا هذا الطغيان ، ثم عرج على جميل فعل بيبرس من إعادته للخلافة ، وعنايته بإقامة منارها . ومما جاء فى هذه الخطبة : « الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركناً وظهيراً ، وجعل لهم من لدنه سلطاناً نصيراً ، أحمده على السراء والضراء ،

---

(١) الروضتين جـ١ ص ١٢ . (٢) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٣٨ .

(٣) حسن المحاضرة جـ٢ ص ٤٧ .

وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء، وأستنصره على الأعداء ...... أيها الناس، اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ... فلو شاهدتم أهل الإسلام حين دخلوا دار السلام، واستباحوا الدماء والأموال، وقتلوا الرجال والأطفال، وهتكوا حرم الخلافة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعلت الضجات من هول ذلك اليوم الطويل، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم من طفل بكى فلم يرحم لبكائه، فشمروا ساق الاجتهاد، فى إحياء فرض الجهاد ... فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا، وأطيعوا، وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون.(١)»

وخطب بالقلعة مرة ثانية، يوم الجمعة، رابع شوال، سنة تسعين، وذكر فى خطبته توليته السلطنة للأشرف خليل. قال المقريزى: «وهى نفس الخطبة التى خطب بها فى أيام الظاهر بيبرس، إلا أنه ذكر فيها الملك الأشرف، وكان بين الخطبتين ثلاثون عاماً، وتسعة أشهر وثلاثة وعشرون يوماً.(٢)»، وخطب مرة ثالثة بالمنصورية، بحضرة السلطان والقضاة. وحض على غزو التتار، واستنقاذ بلاد العراق، من أيديهم، وذلك فى ذى القعدة، سنة تسعين، ثم خطب مرة رابعة، فى التاسع والعشرين من ربيع الأول، سنة إحدى وتسعين، وحث على الجهاد والنفير، وصلى بالناس الجمعة(٣). ولم يبق لنا من خطبه سوى الخطبة الأولى.

وأهم ما نلمسه من الصفات فيما بقى لنا من الخطب والمواعظ:

أولا: التأنق فى اختيار الألفاظ والعبارات، فالخطيب ينثر كنانته، ليختار أجود ما عنده من لفظ.

ثانياً: التزام السجع، وقد تلتزم الفاصلة أكثر من جملتين. والعناية ببعض ألوان المحسنات البديعية كالجناس، والطباق.

ثالثا: الاقتباس من القرآن الكريم، واتخاذه مصدراً من الاستشهاد، والحث والتحريض.

رابعاً: الاستشهاد بالشعر، وقد يطول هذا الاستشهاد، كما فعل سبط ابن الجوزى فى بعض عظاته.

---

(١) الخطبة كلها فى كتاب حسن المحاضرة ج٢ ص ٤٨. (٢) السلوك ج١ ص ٧٧٤.

(٣) حسن المحاضرة ج٢ ص ٤٨

وكان لخطب ابن نباتة[١] فى هذا العصر شأن كبير ، واتخذها الخطباء يومئذ نموذجا يتأثرونه ، ويقتدون به ، حتى صح لابن الأثير أن يقول إنها أعكاز أهل هذا الزمان[٢] . وكانت الخصائص الثلاثة الأولى من خصائص هذه الخطب ، وربما كان من الأسباب التى دفعت إلى هذا الحب ، فضلا عن جمال الأسلوب ، كثرة خطب الجهاد فيها . ولعل من الخير أن نورد هنا جزءاً من خطبه لابن نباتة ، لنبين المثل الأعلى المقتدى به فى ذلك الزمان . قال ابن نباتة يحض على الجهاد : « الحمد لله الكريم الوهاب ، الرحيم التواب ، الشديد العقاب ، العتيد[٣] الثواب ، جل عن الأشكال والأضراب وتعالى عن مشاكلة الخلطاء والأصحاب ، وقصرت عن إدراك صفاته غايات الإسهاب ، وحسرت دون تفسير ذاته عبارات ذوى الإطناب ، فهو الباطن المعبود بلا مواراة حجاب ، والظاهر الموجود فى العقول بلا ارتياب ، أحمده على نعمه الهنيئة العذاب ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة دائمة بلا انقضاب ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله انتخبه من أشرف العرب العراب ، وابتعثه من أظهر أصل ونصاب ، من شجرة عبدمناف بن قصى بن كلاب ، مبرأ من كل دنس وعاب ، مطهر القول عن الخطل والكذاب ، ففرق الله جموع الأحزاب ، وشد أزره بخير صحاب ، صلى الله عليه وعلى آله الخيرة الأطياب ، وصحابته البررة الأنجاب ، صلاة تفيض عليهم بركاتها فيض السحاب ، وسلم تسليما . أيها الناس أن الدنيا قد أدبرت وآذنت بانقلاب ، وإن الآخرة قد أقبلت وأذعنت باقتراب ، فلا نحن لما أدبر من هذه ذوو اجتناب ، ولا لما أنذر من تلك أولو ارتقاب ، كأن قلوبنا من الصم الصلاب ، أوكأن نفوسنا واثقة بحسن المآب ، كلا ، بل وإن عليها خبث الاكتساب ، وأعمى بصائرها طول اللعاب ، فليس ينفعها قرع العتاب ، ولا صدع الكتاب . قد دخلت علينا الفتنة من كل باب ، وأطمعتنا الدنيا إطماع السراب ، نتهارش على حطامها تهارش الكلاب ، ونلبس فيها جلود الضأن على قلوب الذئاب

---

(١) قال عنه ابن خلكان : كان إماماً فى علوم الأدب ، ورزق السعادة فى خطبه ، التى وقع الإجماع على أنه ماعمل مثلها ، وفيها دلالة على غزارة علمه ، وجودة قريحته ، وكان خطيب حلب ، وبها اجتمع بأبى الطيب المتنبى فى خدمة سيف الدولة بن حمدان ، وكان سيف الدولة كثير الغزوات ، فلهذا أكثر الخطيب من خطب الجهاد ، ليحض الناس عليه ، ويحثهم على نصرة سيف الدولة . ولد فى سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وتوفى فى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة ، بميافارقين ودفن بها . وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٢) الوشى المرقوم ص ٦ . (٣) العتيد : الحاضر .

تنظر إلى المعروف نظار الخزر[١] الغضاب ، وتسكن إلى المنكر سكون البانى بالخود الكعاب ، وقد أظلنا من العدو سحاب ممتدة الأطناب ، ودبت فى ديارنا منه عقارب الخراب ، وعم الغلاء والبلاء بقبيح الاكتساب ، فما العجاب الفادح عندنا بعجاب ، ولا نفوسنا تكترث بعظيم المصاب ، وما ذاك إلا لاصول العبيد فيكم على الأرباب ، وعدلكم الهجان بالصريح اللباب ، وانقياد الرءوس فيكم للأذناب ، وارتكاب كل هواه إلى ضد الصواب ، شأنكم بينكم التنابز بالألقاب ، واغتياب أنفذ فى الأعراض من الحراب ، وشهد ملق أقتل من سم الحباب ، وخبث فعال ينقض مبرم الأسباب ، وأرواح عن الانقياد للحق صعاب ، فلا العالم يعمل بما عليه من حكم الكتاب ، ولا يردعه ما أتقنه من السنن والآداب ، فأنيبوا عباد الله إلى ربكم[٢]» فأنت ترى مقدار الصناعة التى جعلت ابن نباتة يلتزم فى السجع حرفا واحداً فى الخطبة كلها ، ولكن ذلك لم يكن منهجه فى كل خطبه ، وإن التزم السجع فيها جميعاً .

ومما يجب أن يشار إليه أن بعض خطباء ذلك العصر آثر العبارة المرسلة ، وترك السجع جانباً ، مثل عز الدين بن عبد السلام ، ولكن يظهر أن الكثرة الساحقة كانت تتبع السجع ولا تحيد عنه .

واشتهر من رجال الخطابة والوعظ فى ذلك العصر عدد كبير ، نذكر منهم إبراهيم ابن منصور العراقى (*) ، المتوفى سنة ٥٩٦ هـ ، إمام الجامع العتيق وخطيبه ، كان فقيها معظما فى القاهرة أخذ عنه فقهاؤها ، وولى الخطابة بعده ولده محمد . قال السبكى : ولولده ديوان خطب مشهور . وأمين الدين هاشم خطيب حلب ، الذى نقل إليه صلاح الدين الخطابة بدل بنى العديم سنة ٥٧٩ هـ[٣] . ومنهم بنو العديم ولى عدد كبير منهم قضاء حلب

---

(١) الخزر : جمع أخزر وهو الذى ينظر بطرف عينه . (٢) ديوان خطب ابن نباته ص ١٧٧ .

(*) مراجعه : ١ ــ طبقات الشافعية للسبكى ج٤ ص ٢٠١ ٢ ــ حسن المحاضرة ج١ ص ١٩٠ .

٣ ــ السلوك ج١ ص ١٥٣ . ٤ ــ شذرات الذهب ج٤ ص ٣٢٣ .

٥ ــ كشف الظنون ج٢ نهر ١٩١٢ .

(٣) الروضتين ج ٢ ص ٤٧ .

وخطابتها[١] ومن هذه الأسرة الكمال بن العديم** أول حنفى خطب بجامع الحاكم ، وخطب فى جامع دمشق . ومنهم ابن زكى الدين صاحب خطبة فتح بيت المقدس التى سبق الحديث عنها . ومنهم ابن دقيق العيد ، فكان له الخطب الصادعة الفصيحة[٢] البليغة ، وقد ساعده على البراعة فى الخطابة لسان طيع ، ومعرفة بالأدب واسعة ، وعلم غزير بالعلوم الشرعية والعقلية ، والمعارف الصوفية ، وذهن لماح ذكى[٣] . ومنهم شمس الدين محمد بن أبى المعضاء أول من خطب بمصر لبنى العباس فى عهد صلاح الدين ، وقد أرسله صلاح الدين إلى الخليفة العباسى يحمل رسالة ، وصفه فيها صلاح الدين بأنه خطيب الخطباء بمصر ، وقد بلغ شمس الدين هذا مكانة سامية فكان مقصد الشعراء ومحط آمالهم[٤] . ولعل جرأته فى الخطابة لبنى العباس هى التى جعلت صلاح الدين يغدق عليه ويرفع من أمره . ومنهم ابن المنير السكندرى عالم الإسكندرية وخطيبها[٥] . ولعل من الخير أن نعرف تعريفا يسيراً بأشهر وعاظ هذا العصر وهم ابن نجا وسبط ابن الجوزى ، وأشهر خطبائه وهو عز الدين بن عبد السلام .

(١) راجع على هذه الأسرة معجم الأدباء ١٦ : ٥ . (٢) الطالع السعيد ص ٣١٧ .
(٣) راجع كتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ١٤٢ . (٤) راجع النجوم الزاهرة ٥ : ٣٤٣ ، والروضتين ١ : ١٩٣ و١٩٥ و٢٤١ و٢٦٤ . (٥) راجع كتاب الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ص ١١٩ .

(**) مراجعه «١» تاريخ الواصلين جـ ٢ ص ٤٠٧ . «٢» السلوك جـ ١ ص٢٧٩ و٤٧٦ . «٤» ذيل الروضتين ص ٢١٧ . المختصر في أخبار البشر جـ٣ ص٢١٥ . «٦» فوات الوفيات جـ ٧٢ . «٧» النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٢ و٢٠٤ و٢٠٥ و٢٠٨ و٢٠٩ و٢١٠ . «٨» أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . «٩» الفوائد البهية ص ١٤٧ . «١٠» حسن المحاضرة جـ١ ص٢٢٠ . «١١» تاج التراجم ص٣٥ . «١٢» معجم المطبوعات ص ١٧١جـ١ . «١٣» معجم الأدباء ١٦ : ٥ .

ابن نجـــا (*)

أبو الحسن علي بن إبراهيم ، ولد بدمشق سنة ثمان وخمسمائة ، ونشأ بها ، من أسرة مثقفة ، كان جده لأمه أبو الفرج الشيرازي الحنبلي أحد أعلام الحنابلة ، ألف كتاب الجواهر ، في ثلاثين مجلداً ، ولعله في الفقه أو التفسير ، وكانت والدته حافظة تعرف التفسير ، وقيل إنها كانت تحفظ كتاب الجواهر لوالدها . وكان خاله شرف الإسلام عبد الوهاب مدرساً ، وعليه تفقه ، وسمع التفسير ، كما درس الحديث أيضا . وشغف بالوعظ منذ صغره ، واشتغل به .

قال أبو الحسن : حفظني خالي مجلس وعظ ، وعمري يومئذ عشر سنين ، ثم نصب لي كرسيا في داره ، وأحضر لي جماعة ، وقال : تكلم ، فتكلمت ، فبكى . وكان يذكر هذا المجلس وهو ابن تسعين سنة ، وظل هذا الأثر الأول عالقا بذهنه ، لا ينمحي فقد كان بطيء النسيان ، ولعل مقدرته في الوعظ ، وجودة رأيه ، ودهاءه ، مهدت أمامه السبيل للاتصال بنور الدين محمود ، ملك الشام ، ونيل ثقته ، وتقديره ، حتى اختاره رسولا إلى بغداد ، سنة أربع وستين. وقد ظفر بحسن التقدير ، فخلع عليه خلعة سوداء كان يلبسها في الأعياد ، وهناك سمع الحديث ، ووعظ بجامع المنصور ، ثم عاد إلى دمشق ، وانتقل إلى مصر ، في عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك ، ولا يذكر التاريخ سبب انتقاله إلى مصر ، ولكن صلته بنور الدين تجعلنا نرجح أن سبب هذا الانتقال سياسي ، وأن نور الدين أراد أن يجعله ، وهو كبير الثقة فيه ، عينا له بمصر ، ولا سيما أن طلائع كان يريد أن يعقد بين مصر ونور الدين اتفاقا ، يتحدان به على مواجهة الصليبيين وحربهم في وقت واحد معاً ، ويظهر أن الصلة قد توثقت بين الوزير والواعظ ، فروى أبو الحسن بعض شعر طلائع ، وكان ينشد على المنبر من شعره ما يصلح الاستشهاد به ، كقوله :

مشيبك قد نضا صبغ الشباب ‌ ‌ ‌ ‌ وحل الباز في وكر الغراب

(*) مراجعه : «١» المنهج الأحمد ٢ : ٣٢٢ . «٢» النجوم الزاهرة ٦ . ١٨٣ . «٣» ذيل الروضتين ص ٣٥ . «٤» خطط المقريزي ٤ : ٨١ . «٥» السلوك ١ : ٥٣ و٩٧ . «٦» وفيات الأعيان : ١ : ٢٣٩ و٢٤٠ و٥٠٨ و٥٩٩ . «٧» حسن المحاضرة ١ : ٢٣٧ «٨» النكت العصرية ٦٢١ و٦٢٣ و٦٥١ . «٩» الروضتين ٢ : ٥٧ و٥٨ و١٠٩ . «١٠» الجريدة المطبوعة ص ١٨٢ . «١١» شذرات الذهب ٤ : ٣٤ . «١٢» الكامل في التاريخ ١١ : ١٧٩ .

تنام ، ومقلة الحدثان يقظى وما ناب النوائب عنك ناب
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد أنفقت منه بلا حساب

بل قد استطاع أن تتوثق الصلة بينه وبين كبار أركان الدولة الفاطمية، لدرجة أن المؤامرة التى دبرت بعد أن أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية ، والتى فكر فيها المؤتمرون أن يقضوا على صلاح الدين ، وأن يعيدوا دولة الفاطميين — كان ابن نجا أحد أركانها . وفى الوقت نفسه كانت صلته شديدة الوثاقة بصلاح الدين ، وزاد من وثاقتها وشدتها أنه وشى لصلاح الدين بنبأ هذه المؤامرة ، فاستطاع السلطان أن يقضى عليها ، وصار بذلك مدينا لابن نجا بالشىء الكثير من سلطانه ، فقربه إليه وصار له عنده وجاهة عظيمة ، ومكانة ممتازة ، وكان صلاح الدين يسميه عمرو بن العاص ، لما لمسه فيه : من الدهاء ، ويعمل برأيه ، ويكاتبه إذا غاب ، ويحضر مجلس وعظه ، هو وأولاده ، ولما فتح السلطان بيت المقدس كان معه ، وفى أول جمعة أقيمت فيه بعد الفتح نصب له كرسى ، فوقف عليه بعد الصلاة ، يعظ فى هذا اليوم المشهود . ويظهر أن الحياة قد طابت له فى مصر ، فلم يفكر فى العودة إلى دمشق ، بل يذكر العماد أنه أرسل إلى صلاح الدين رسالة يشوقه فيها إلى مصر ، ويذكر له ما امتاز به هذا البلد : من طبيعة ساحرة ، وما فيه : من آثار رائعة ، وأورد فى كتابه ما دل به على فضيلته : من الآيات ، والأخبار ، والآداب ، والآثار .

وكان ابن نجا يعظ بجامع القرافة بمصر ، ولما أنشأ الصالح مسجده خارج باب زويله استمر جلوس زين الدين الواعظ به ، وحضور الصالح إليه . وقد وصف وعظه العماد الأصفهانى ، فقال : « هو ذو لهجة فى الوعظ فصيحة ، وبهجة للفضل صحيحة ، وقبول من القلوب ، وفصول فى فصل الخطاب للخطوب » . وذكر صاحب شذرات الذهب أنه كان يعظ بالعربية وغيرها . ولست أدرى المقصود بغير العربية ، أهى العامية ، أم التركية ، أم لغة أخرى .

ومما ينبغى الإشارة اليه أن وعظه لم يحل بينه وبين الاستمتاع بمباهج الحياة ، وحبه للمال . وقد أغدق عليه السلطان صلاح الدين المال والإقطاعات ، حتى اجتمع عنده مال كثير ، وجوار مترفات غاليات الثمن . ويبدو أنه كان يحب مظاهر الفخامة والعظمة ، فكان يعمل فى داره من الأطعمة ما لا يعمل فى دور الملوك ، ويمد له سماط يؤكل عليه . ولعل هذا

الكرم هو الذى بدد هذه الثروة الكبيرة ، ومزق أمواله ، حتى قال مؤرخوه : إنه مات فقيراً ، كفنه بعض أصحابه .

ولم يمنعه وعظه أيضاً من أن تأجج المنافسة بينه وبين واعظ آخر هو الطوسى ، فكانت تجرى بينهما أقذع الخصومات .

كان الوعظ أعظم ما شهر به ابن نجا . ولكنه كان يفسر القرآن ، ويروى الحديث ، وهما ينبوعان يتكىء عليها الواعظ ، ليكسب كلامه القبول ، ويؤثر تأثيرا قويا فى نفوس سامعيه ، وليتخذ منهما أدلته وبراهينه . وقد سمع منه الحديث جماعة كبيرة ، منهم الحافظ عبد الغنى المقدسى ، وأجاز للمنذرى وغيره .

وبعد حياة طويلة أربت على التسعين ، توفى ابن نجا ، يوم الأربعاء ، ثامن رمضان ، سنة تسع وتسعين وخمسمائة بمصر .

سبط ابن الجوزى (*)

يوسف بن قزأوغلى ، وأمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى الواعظ ببغداد[1] ، ولد سنة ٥٨٢ هـ ، ببغداد ونشأ بها ، تحت كنف جده . درس الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والتاريخ ، والأدب ، وكان مفرط الذكاء سريع الخاطر ، اجتمع له من الأسباب ما هيأه لأن يشغل مكانة عظيمة فى الوعظ ، فإنه فضلا عن علمه الغزير ، وذكائه الحاد ، كان حسن الصورة ، طيب الصوت ، طلق الوجه ، دائم البشر ، حسن المجالسة ، مليح المحاورة يحكى الحكايات الحسنة ، وينشد الأشعار المليحة . . نشأ فى بيئة وعظ ، أعجب بها . فأحب أن يسير على سننها . اشتغل بالوعظ فى بغداد ، ويظهر أنه وفق فى ذلك ، منذ رغب أن ينهض بإرشاد الناس ووعظهم ، غير أنه لم يقم فى وطنه بغداد ، بل غادرها إلى الشام ، فى أول سنة ستمائة ولما يبلغ العشرين من عمره ، ولست أدرى الأسباب التى حملته على مغادرة أهله ووطنه ، وكان يستطيع أن يبقى فى بغداد ، ليعظ مكان جده ، الذى توفى سنة ٥٩٧ هـ . ومؤرخوه لا يذكرون عن أسباب رحلته شيئاً .

أخذ يوسف يتنقل فى البلاد ، بعد ترك بغداد ؛ وكان يعقد مجالس الوعظ فى البلاد التى ينزل بها . قال « ثم قدمت الموصل ؛ وجلست بها ؛ وحصل لى القبول التام ؛ بحيث إن الناس كانوا ينامون ليلة المجلس فى الجامع ؛ من كثرة الزحام ». ثم قدم حران ، وحلب ، وبيت المقدس ، ودمشق ، ورزق التوفيق فى مواعظة بدمشق ، قال : « وحضر مجلسى بجامع دمشق فى سنه عشر وستمائة القضاة ؛ والأشراف والأعيان ، والملك المعظم عيسى بن العادل رحمه الله ، وشيوخنا : جمال الدين الحصيرى ، وتاج الدين الكندى ، والقاضى شمس الدين

---

(١) راجع وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٧٩ .

(*) مراجعه : (١) النجوم الزاهرة ٧ : ٣٩ ، وينقل عنه كثيرا . (٢) السلوك ١ : ٢٣٣ و ٤٠١ . (٣) طبقات الشافعية ٥ : ٩٨ . (٤) ذيل الروضتين ص ٤٨ و ٤٩ و ٥٧ و ٥٩ و ٦٩ و ١٠٤ و ١٠٧ و ١٩٥ . (٥) الفوائد البهية ص ٢٣٠ . (٦) البداية والنهاية ١٣ : ١٩٤ . (٧) معجم المطبوعات لسركيس ١ : ٦٧ . (٨) مفتاح السعادة ١ : ٢٠٨ . (٩) مرآة الزمان . (١٠) وفيات الأعيان ٢ : ٢٤٦ . (١١) ديوان ابن عنين ص ٢٢٦ و ٢٢٧ . (١٢) تاج التراجم ص ٦١ . (١٣) المختصر فى أخبار البشر ٣ : ١٩٧ . (١٤) أعلام الأخيار ص ٣٣٧ . (١٥) شذرات الذهب ٥ : ٢٦٦ . (١٦) المنهج الأحمد ٢ : ٣٦٥ .

ابن الشيرازى ، والقاضى شمس الدين بن سنى الدولة ، وكان مجلساً عظيما احتوى على عشرة آلاف وزيادة ، . وقد وصف صاحب ذيل الروضتين مجالس وعظ السبط ، فقال :

« كانت مجالس الوعظ التى للمذكور من محاسن الدنيا ، ولذاتها ، فكأن الله قد جمع له حسن الصورة ، وطيب الصوت ، وظرافة الشمائل فى الإيراد ، والجوابات ، واللباس ، وسائر الحركات ، فكان يزدحم فى مجلسه مالا يحصى من الخلق رجالا ونساء ، والنساء بمعزل عن الرجال ، فى جامع دمشق ، وجامع الجبل ، حضرت مجالسه صغرى وكبرى فى الموضعين مراراً ، وكان لا يفارق أحد مجاسه إذا انفض ، إلا وشوقه مستمر إلى عودته فى الأسبوع الآخر ، فإنه كان يجلس كل سبت ، وتبسط السجادات والحصر والبسط ، فى كل المواضع القريبة من المنبر ما بينه وبين القبة ، فى يوم الجمعة ، ويبيت الناس ليلة كل سبت حلقا ، يقرءون القرآن بالشموع ، كل ذلك فرحا بالمجلس ، مسابقة إلى الأماكن وعادة . الدمشقيين التفرج فى أيام السبت ، ويبطلون عن أشغالهم بالمدينة ، وينقطعون فى بساتينهم ، وكانوا لا يفوتون حضور المجلس ، ثم ينصرفون عنه ، إلى فرجهم ، فلا ينقضى يومهم إلا بالتذاكر لما فيه من المحاسن ، وإنشاد الأشعار ، والتحدث بمن أسلم فيه ، أو تاب ، وإيراد ما كان فيه : من سؤال ، وجواب ، ولم يزل على ذلك مدة سنين ، ثم اقتصر على المجلس فى الأشهر الثلاثة : رجب ، وشعبان ، ورمضان ، كل سبت ، فانقطع بمنزله عند تربته بالجبل ، إلى أن توفى سنة أربع وخمسين وستمائة (١) .

ظل سبط ابن الجوزى إذاً أكثر من نصف قرن يعظ الناس ، وكان لوعظه أثره فى نفوس سامعيه ، فكانوا يحتملون فى سبيله مشقة النوم بالمسجد ، كى يظفروا بمكان يستمعون فيه إلى الوعظ ، وكان ينكر على أرباب الدولة مايقترفونه من الاثم ، وعلى الفساق مايأتونه من المنكرات ، وكان صوته الرطب يؤثر فى سامعيه ، فيقبلون إليه تائبين عن المعاصى والآثام ، ومما يلحظ أن من كان يتوب على يد السبط يقدم إليه جزءاً من شعره ، ولست أدرى سر ذلك اللهم إلا ماقد يكون من رغبة التائبين فى أن يجعلوا من شعورهم مجتمعة قيوداً لأفراس تجاهد فى سبيل الله ، وقد هيأ من بعضها سبط ابن الجوزى ثلاثمائة شكال (٢) .

ولم يكن سبط ابن الجوزى ممن يرغبون فى إثارة الفتنة ، اختصمت جماعة فى أيهما أفضل :

---

(١) ذيل الروضتين ص ٤٩ .

(٢) راجع ذيل الروضتين ص ٦٩ .

أبو بكر أو علي ؟ فسألوه وهو على منبر الوعظ فأجابهم : أفضلهما من كانت ابنته تحته ، فمضى كل فريق منهما ينتصر لمن يفضله، فقال فريق أبي بكر : أفضلهما أبو بكر لأن ابنته كانت تحت رسول الله . وقال فريق علي : أفضلهما علي لأن ابنة رسول الله كانت تحته . وبهذه الإجابة المحتملة لم يوقع الشجار بين الفريقين .

والظاهر أن سبط ابن الجوزي كان يعتمد على إشارته المؤثرة ، فضلا عن طلاقة لسانه وحلاوة بيانه ، بل قد يعتمد على هذه الإشارات وحدها إذ كان في الظروف المحيطة ما يساعد على فهم المراد بهذه الأشارة وحدها ، قالوا . كان يطلع على المنبر في بعض الأيام ويحدق الناس إليه ، وينتحب ، ويبكي ، ويبكي الناس معه ، ويقتلون أنفسهم ؛ ويذهب هائماً على وجهه ، ويذهب الناس من مجلسه وهم سكارى حيارى . وسئل في يوم عاشوراء أن يذكر للناس شيئاً من مقتل الحسين ، فصعد المنبر ، وجلس طويلا ، لا يتكلم، ثم وضع المنديل على وجهه ، وبكى شديداً ، ثم أنشأ يقول ، وهو يبكي :

ويل لمن شفعاؤه خصماؤه　　والصور في نشر الخلائق ينفخ

لا بد أن ترد القيامة فاطم　　وقميصها بدم الحسين ملطخ

ثم نزل عن المنبر ، وهو يبكي .

ومما حفظه التاريخ له من مجالس وعظه المؤثرة أن الملك الكامل لما سلم القدس للفرنج نفرت قلوب الرعية، وجلس الحافظ شمس الدين بجامع دمشق،وذكر فضائل بيت المقدس ، وحزن الناس على استيلاء الفرنج عليه ، وبشع القول في هذا الفصل ، فاجتمع في ذلك المجلس ما لا يحصى عدده ، من الناس ، وعلت أصواتهم بالصراخ ، واشتد بكاؤهم وأنشد الحافظ قصيدة ، أبياتها ثلاثمائة بيت ، منها :

على قبة المعراج والصخرة التي　　تفاخر ما في الأرض من صخرات

مدارس آيات خلت من تلاوة　　ومنزل وحي مقفر العرصات

فلم ير بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم (١) . وقد سبق أن رأينا المعظم عيسى يرسل إليه، ليحرض الناس على الجهاد ، بعد أن أخذ الفرنج دمياط .

---

(١) السلوك ج ٤ س ٣٣ .

وبرغم كثرة مجالس سبط ابن الجوزى لم أر له إلا بعض جمل ، ذكرها صاحب طبقات الشافعية حين قال : دخل على السلطان الملك الأشرف الشيخ شمس الدين سبط ابن الجوزى ، وكان واعظ الزمان ، وكان له قبول عظيم . . . . فناوله السلطان مقاصد الصلاة ، وهو كتاب ألفه عز الدين بن عبد السلام . وقال : اقرأها . فقرأها بين يديه واستحسنها ، وقال : لم يصنف أحد مثلها . فقال له : طرز مجلسك الآتى بذكرها ، وحرض الناس عليها . فلما جاء الميعاد صعد المنبر ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم : وقال : اعلموا أن أفضل العبادات البدنية الصلاة ، وهى صلة بين العبد وربه . فعليكم بمقاصد الصلاة تصنيف ابن عبد السلام ، فاسمعوها ، وعوها ، واحفظوها ، وعلموها أولادكم ، ومن يعز عليكم [1] .

وأغلب ظنى أن مجالس وعظه كانت على هذا النسق : مرسلة لا سجع فيها ، ولا تكلف ، يزينها السهولة والتدفق .

هذا ، ولم يكن سبط ابن الجوزى يرى الترهب فى الحياة ، أو النفور من السلطان ، فتزوج ، واستقبل الملوك ، وأرباب المناصب زائرين ، وبلغ عند الملك المعظم عيسى منزلة سامية ، ولعله كان يرى حب هؤلاء له وسعيهم إليه مما يسهل عليه أن يبلغ أهدافه ، من الوعظ والإرشاد ، فتصلح الرأس ، ويصلح بصلاحيتها الجسد كله . ولذا كان له جاه عريض عند الملوك والعوام ، يحيا حياة طيبة ، ولكنه كان مقتصداً فى ملابسه .

وكان نجاحه فى الوعظ يتطلب منه اطلاعا واسعاً ، ومواظبة على القراءة والدرس ، كى يستطيع أن يتخذ من هذا المعين الفياض مورداً يجيب به عما يوجه إليه من أسئلة ، وينبوعا يستقى منه أمثلته ونماذجه ، وقد أثمرت هذه القراءة الدائمة والاطلاع المستمر ، فضلا عن نجاحه فى الوعظ ، كتباً منها تفسير فى تسعة وعشرين مجلداً ، وشرح الجامع الكبير فى فقه الحنفية ، كما جمع مجلداً فى مناقب أبى حنيفة ، وكتب منتهى السول فى سيرة الرسول . وكتاب اللوامع فى أحاديث المختصر والجامع ، وله أيضاً كتاب مرآة الزمان فى التاريخ ، ابتدأه من أول الزمان إلى أوائل سنة ٦٥٤ ، التى توفى فيها . قال صلاح الدين الصفدى : أنا ممن يحسده على هذه التسمية ، فإنها لائقة بالتاريخ ، كأن الناظر فى التاريخ يعاين من ذكر فيه من مرآة .

---

(١) طبقات الشافعية جـ ٥ ص ٩٨ .

ولم يكن محتاجا إلى الاطلاع الغزير لمجالس وعظه فحسب ، ولكن ليفيد طلبته ، فقد كان مدرسا بالمدرسة العزية البرانية ، التى بناها عز الدين أيبك المعظمى ، أستاذ دار المعظم ، ودرس أيضا بالشبلية التى بالجبل ، وفوض إليه أمر البدرية التى تقع يومئذ تجاهها ، فاتخذ فيها مسكنه إلى أن مات ، وحضر جنازته عالم عظيم : سلطان البلد ، فمن دونه ، وقام مقامه فى التدريس بالعزية ابنه عبد العزيز ، الذى تثقف على أبيه ، وأخذ عنه .

ولست أدرى ما الذى لم يعجب ابن عنين من سبط ابن الجوزى حتى هجاه ، ولقد قرأت هجاءه ، فلم أر شيئا معينا يوجهه ابن عنين إليه ، سوى قوله فيه ، وقد خرج حاجا ، فرماه الهجين عند مسجد القدم ، فرجع ولم يحج ذلك العام ، فقال ابن عنين :

إذا ما ذم فعل النوق يوما فإنى شاكر فعل النياق
أراد الله بالحجاج خيرا فثبط عنهم أهل النفاق

فهو هنا يرميه بالنفاق ، ولعله أخذ عليه ما أخذه بعض أهل عصره عليه : من تحوله عن مذهب ابن حنبل إلى مذهب أبى حنيفة ، ليستدعى بذلك عطف المعظم عليه ، وكان المعظم حنفيا . ومن تقربه إلى الملوك وأرباب الدولة . وقد بينا مذهب السبط فى ذلك ، وأنه يرى التقرب من أولى الأمر وسيلة لنجاح مهمته ، وليس شىء يستحق الرد عليه فى هجاء ابن عنين غير هذه التهمة .

عز الدين بن عبد السلام (*)

لا نريد أن نتعرض للنواحى المختلفة لهذه الشخصية القوية الممتازة ، وحسبى أن أتعرض منه لناحية خطابته ، التى أعانه على النبوغ فيها علم غزير بمختلف علوم عصره ، وجرأة فى قول الحق لا يخشى أن ينطق به ، حتى ولو تعرض لغضب السلطان وسخطه ، وإخلاص فيما يقول ، وإيمان بما يدعو إليه ، ولى فى دمشق سنة ٦٣٧ هـ خطابة جامعها الأموى والإمامة فيه . قال أبو شامة أحد تلامذته : «وكان أحق الناس بالخطابة والإمامة» وقد استن فى خطابته سننا : منها أنه لم يحب السجع فى خطابته ، بل أرسلها إرسالا ، ومنها أنه اجتنب الثناء على الملوك ، واستعاض عن ذلك بالدعاء لهم ، كما أنه أبطل دق السيف على المنبر .

(*) راجع ص ١٦٢ من كتاب الحياة العقلية ففيها ذكر مراجعه وحديث عنه .

وكان عز الدين كسبط ابن الجوزى متصلا بملوك الأسرة المالكة ، راسلوه ، وأحبوا لقاءه ، واستشاروه ، واستنصحوه ، واتخذ هو من هذه الصلة وسيلة لصلاح الشعب ، والنهوض ، بأخلاقه ، وإصلاح الأداة السياسية . مرض الأشرف موسى ، فأرسل إليه يستزيره ، فجاء إليه ، فلما استنصحه الأشرف نصحه العز بأن يولى وجهه ، ويكرس جهوده على حرب التتار ، لا على حرب أخيه الكامل ، وكانت جفوة قد حدثت بينهما ، فقبل الأشرف نصيحته ، ولما استزاده طلب منه العز أن يرسل إلى نوابه يحرم عليهم شرب الخمر ، والفسق ، وفرض ضرائب على المسلمين ، فأطاع أمره . ثم أمر له الأشرف بألف دينار ، فردها قائلا : هذه اجتماعة لله لا أكدرها بشىء من أمور الدنيا . ولم تمنعه صلته بالملوك أن يجهر بالحق ، وينقد تصرفهم ، إن حادوا عن الحق والطريق المستقيم ، حدث أن الصالح إسماعيل لما ملك دمشق صالح الفرنج على أن يساعدوه على الصالح أيوب سلطان مصر ، ويسلم إليهم صيدا والشقيف وغير ذلك من حصون المسلمين ، ودخل الفرنج دمشق لشراء السلاح كى يقاتلوا به عباد الله المؤمنين ، فشق ذلك على الشيخ مشقة عظيمة وعلى المتدينين من بائعى السلاح ، واستفتوا الشيخ فى بيع الفرنج السلاح ، فقال : يحرم عليكم البيع لهم ؛ لأنكم متحققون أنهم يشترونه ، ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين . ويظهر أن عز الدين قد أثاره هذا الأمر ، فنال من الصالح إسماعيل ، ولم يدع له ، ودعا بعد فراغه من الخطبتين ، وقبل نزوله من المنبر ، بقوله : «اللهم أبرم لهذه الأمة أمرا رشدا ، تعز فيه وليك ، وتذل فيه عدوك ، ويعمل فيه بطاعتك ، وينهى فيه عن معصيتك » . والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين ، بالنصر على أعداء الله الملحدين . فأخبر السلطان أعوانه بذلك ، فأصدر أمره بعزل الشيخ واعتقاله ، فبقى مدة معتقلا ، ثم أطلقه على أن يغادر بلاده ، فخرج عبد العزيز من دمشق ، ثم بدا للصالح إسماعيل أن يعيده ، فأرسل خلفه رسولا أخذ يسوسه ، ويلين له القول ، ويقول له : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان ، وتقبل يده ، لا غير ، فقال له : والله يامسكين ما أرضاه أن يقبل يدى ، فضلا أن أقبل يده . ومضى إلى مصر ، فقدمها سنة ٦٣٩ هـ ، فتلقاه الصالح أيوب عدو الصالح إسماعيل ، خير لقاء وأكرمه ، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص ، والقضاء بمصر ، وبالوجه القبلى ، فقام بمنصبه أتم قيام ، وتمكن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يخشى فى الله لومة لائم ، وكان

حينا يسلك فى الإرشاد طريقا عنيفا . قال تلميذه الباجى : طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان ، فى يوم عيد ، إلى القلعة ، فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة ، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة ، وقد خرج على قومه فى زينته ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدى السلطان ، فالتفت الشيخ إلى السلطان ، وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوىء لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال : نعم . الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة . يناديه كذلك بأعلى صوت ، والعساكر واقفون . فقال : يا سيدى ، هذا أنا ما عملته ، هذا من زمان أبى . فقال : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا أباءنا على أمة ؟ فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة . وحدث أن أستاذ دار الصالح عمد إلى مسجد بمصر ، فعمل على ظهره بناء لطبل خانة ، وظلت تضرب هنالك ، فلما ثبت هذا عند الشيخ عز الدين أمر بهدم ذلك البناء ، ومضى بجماعته وهدمه . وعلم أن السلطان والوزير يغضبان ، فعزل نفسه عن القضاء ، وعظم ذلك على السلطان ، وقيل له : اعزله عن الخطابة ، وإلا شنع عليك على المنبر ، كما فعل فى دمشق ، فعزله .

نحن إذاً أمام شخصية واثقة بنفسها ، تعتقد أن عليها رسالة يجب أن تؤديها ، ولا تريد أن تفرط فى شىء من حقوقها ، جريئة لا تخشى صولة سلطان ، ولا تفكر فى عاقبة ما تقدم عليه إذا آمنت به . وكل هذه الصفات يجب أن تكسو الخطابة صفة الوضوح والقوة والصراحة وكم كنا نود أن لو بقيت لنا آثار العز الخطابية ، لتكشف لنا ما كان يدور فى مجتمع هذا العصر : من اتجاهات أجتماعية ، واقتصادية ، وكيف نصب عز الدين نفسه ، لإصلاح الفاسد منها وتقويم المعوج ، ولم يرو مؤرخوه أنه جمع لنفسه ديوان خطب ، مما يجعلنى أميل إلى أنه كان يرتجل خطبته ، ويمضى بها مرسلا ، لا يتقيد بسجع ، ولا يعنى بزخوف ، وثقته بنفسه هى التى دفعته إلى أن يخرج عما ألفه أهل عصره ، من الجرى وراء السجع ، واتخاذ ابن نباتة الفارقى مثلا يقتدى به ، ويتخذه نموذجا وإماما .

ومما لا ريب فيه أن عز الدين كان فصيح اللسان . يؤثر فى نفوس سامعيه ، فينقادون له ويعملون بإشارته ، ويجمع حوله القلوب ، وكان لهذه الخطابة إلى جانب علمه أثرها فى حب الناس له ، وإعجابهم به ، ولقوة البيان فعل السحر فى النفوس ، ولهذا ذكر مؤرخوه

أنه لما مرت جنازته تحت القلعة ، وشاهد الملك الظاهر بيبرس كثرة الخلق الذين معها ، قال لبعض خواصه : اليوم استقر أمرى فى الملك ، لأن هذا الشيخ لو كان قال للناس : اخرجوا عليه ، لانتزع الملك منى .

وإن الحق ليدفعنى إلى أن أقرر أن ما بقى لنا من خطب هذا العصر فى العربية ضعيف إلى جانب ما قرأته من خطبتين أعلن بأولها البابا أوربان الثانى Urban 11 بدء الحروب الصليبية ، وخطب الثانية سان برنار ، بعد أن سقطت الرها فى أيدى المسلمين .

" فنى السادس والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ م [١] ، وفى أكبر ميادين كليرمون Clermont ، بفرنسا اجتمع الناس من كل فج عميق ، ليستمعوا فى شوق ولهفة إلى الخطاب الذى أزمع أوربان الثانى أن يلقيه فيهم . وصعد البابا على منصة أقيمت له ، ووقف إلى جانبه بطرس الراهب الذى أخذ يحدث جمهور السامعين عما شهده : من تدنيس الأماكن المقدسة ببيت المقدس ، وما يقاسيه زوار هذه الأماكن : من العذاب والنكال ، تحت حكم شعب لايؤمن بالله ، وما رآه من مسيحيين يقادون عبيداً فى الأغلال ، مصفدين فى النير كالبهائم ، وآخرين منهم لايسمح لهم بأن يحيوا قبر إلههم إلا إذا سلبهم ظالموهم مايملكون . وبينما كان يقص ما يلاقيه المسيحيون من الشقاء والذل ، كان وجهه كدراً ، مذعوراً ، وصوته تخنقه العبرات . فلما أتم حديثه وقف البابا ، وقال : لقدسمعتم ماقصه عليكم مبعوث مسيحي الشرق ، فحدثكم عن الحظ التعس لبيت المقدس ، وشعب الله ، وكيف اضطرت مدينة ملك الملوك أن تخضع لعبدة الأوثان . لقد نشر الكفر المنتصر ظلمته فوق أغنى بقاع آسيا ، وصارت أنطاكية ونيقية من المدن الإسلامية ، وإن قبائل الترك البرابرة قد ركزوا أعلامهم على شواطىء الدردنيل ، يهددون منها العالم المسيحى ، وإذا لم يسلح الله نفسه أبناءه ، ويوقف نصر هؤلاء القوم فأى بلاد وأى مملكة تستطيع أن تغلق أبواب الغرب فى وجوههم .

إن فضلاء الناس الذين باركهم إلهنا يئنون ، ويرزحون ، تحت ثقل أعظم الإهانات المخجلة ، وأحط أنواع الظلم . وإن الشعب المختار ليحتمل المظالم المهيمنة . وإن غضب العرب الكافر لم يحترم العذراء ولا الكهنة . لقد أثقلوا بالحديد أيدى المرضى والعجزة ، وانتزعوا أطفالا من صدور أمهاتهم ، فنسوا عند البرابرة اسم الله الحق . والمثاوى التى أنشئت لتستقبل الفقراء من حجاج الأماكن المقدسة ضمت تحت سقفها شعباً كافراً .

---

(١) The Crucades by Barker P. 12.

ما أشد بؤسنا ، أى أطفالى وأبنائى ، نحن الذين نعيش فى أيام النكبات ، أجئنا فى هذ القرن المحروم من رحمـــة الله ، لنرى بؤس المدينة المقدسة ، أو نظل نحن فى سلام بينما هى ساقطة فى أيدى أعدائها ؟ أليس الموت فى القتال أفضل من أن نتحمل هذا المشهد المخيف ؟ فلنبك جميعاً على أخطائنـا التى أثارت غضب الرب . فلنبك ، ولكن لا على أن تكون دموعنا كبذور قذف بها فوق الرمال . إن الحرب المقدسة ستشتعل من حرارة توبتنا ، وإن حب إخواننا سيدفعنا إلى المعارك ، وسيكون أقوى من الموت نفسه فى مهاجمة أعداء المسيحيين .

أيها المحاربون الذين تصغون إلى إنكم تبحثون بلا انقطاع عن أسباب تشبون بها نيران الحروب ، هنئوا أنفسكم ، فهذه حرب مشروعة ، لقد دنت الساعة التى تبرهنون فيها على أن الشجاعة الحقة تملأ نفوسكم ، وآن أن تكفروا عما ارتكبتم من قسوة وانتصارات دنسها الظلم ، أنتم الذين طالما نشرتم الرعب فى نفوس بنى وطنكم ، وبعتم أذرعكم بأبخس الأثمان لإخافة غيركم . هيا ، دافعوا عن بيت إسرائيل .

ليس هدفنا أن نأخذ بالثأر لإهانات لحقت المخلوقين ، ولكنها إهانات لحقت الذات الخالدة ، ولا أن نهاجم مدينة أو قصراً ، ولكن أن نستولى على الأماكن المقدسة ، إنكم إذا انتصرتم فبركة السماء وممالك آسيا نصيبكم ، وإذا سقطتم فسيكون لكم شرف الموت حيث مات المسيح .

لا يمسكم فى أوطانكم ميول جبانة ، ولا إحساسات دنسة ، ياجند الله ، لا تستمعوا إلا إلى أنين صهيون ، وافصموا كل صلات الأرض ، وتذكروا دائما قول المسيح : من يحب أباه وأمه أكثر منى ، ليس جديرا بى ، وأى امرىء هجر ، من أجلى بيته أوماله ، سيكافأ مائة ضعف ، وسينال الحياة الخالدة .

(وهنا ملأت الحماسة قلوب السامعين ، وأخذت أرجاء المكان تتجاوب بقولهم : تلك إدارة الله . وعندما عاد الهدوء استمر البابا ، قائلا :

إنكم ترون هنـا تحقيق الوعد الإلهى . لقد أعلن عيسى أنه سيكون بين تلاميذه إذا اجتمعوا من أجله . أجل إن منقذ العالم الآن بينكم ، وهو الذى أوحى إليكم بتلك الجملة التى سمعتها الساعة منكم ، فلتكن تلك فى الحرب صيحتكم ، المنبئة بحضرة ربكم بينكم . إن عيسى

نفسه قد نشر ، ويقدم لكم صليبه ، فليكن الصليب شعار مختلف الشعوب ، واحملوه على أكتافكم ، وفوق صدوركم ، وليضىء على سلاحكم ، وفوق أعلامكم ، وليكن ضامن نصركم أو غار استشهادكم ، وسوف يذكركم دائماً أن عيسى قدمات من أجلكم ، وأن واجبكم أن تموتوا من أجله (١).

تلك كانت الخطبة الأولى ، التى اعلنت قيام الحروب الصليبية ، وفيها نرى كيف استطاع أن يملأ خطبته بالدوافع المثيرة لسامعيه ، كى ينهضوا إلى أكبر حرب بين الإسلام والصليبيين .

فبدأ خطبته ببيان ما يهددهم هم أنفسهم من هجوم أولئك الغزاة من المسلمين ، الذين نصبوا أعلامهم فوق شواطىء الدردنيل ، وصارت أوربا لا تجد قوة على صد هجومهم ، فإذا لم يتضافروا على حربهم وقعوا فريسة فى أيديهم .

ثم أثار نخوتهم على ما أصاب إخوانهم فى زعمه : من ظلم ، ونكال ، وصور لهم الأطفال الصغار ينزعون من صدور أمهاتهم فى قسوة وظلم .

وهذان السببان كافيان لأن يدفعا سامعيه إلى القتال ، لأن الموت فيه أفضل من تحمل هذه المشاهد المؤلمة .

وفضلا عن ذلك يستغل البابا رغبتهم فى القتال ، وشغفهم به ، فأراد أن يوجه هذه الرغبة إلى الناحية التى يريدها من حرب المسلمين ، ثم يظهر لهم أنه يسمو بهم عن أن يكون هدفهم الثأر لما لحق المخلوقين ، من إهانة ، ولكن الثأر لإهانات لحقت ربهم ، ويمضى مبيناً لهم عاقبة النصر ، من ظفر دنيوى وأخروى ، حتى إذا دعاهم جند الله وأسمعهم أنين صهيون ، وذكرهم بقول المسيح ، ثارت حماستهم ، وفاضت عواطفهم ، وأعلنوا استجابتهم لرغبة البابا . وهنا يغتبط الخطيب ، ويسجل هذه الاستجابة ، مثيراً عواطفهم تارة أخرى ، بأن ربهم الآن بينهم ، وأن عيسى قد نشر ، ليقدم لهم صليبه .

تلك أفكار مثيرة دافعة ، استغلها البابا أعظم استغلال . ولست أشك فى أن كثيراً من الخطب التى صيغت بالعربية فى ذلك العصر قد حوت كثيراً من المثيرات والدوافع ، التى تقود العاطفة ، وتدفع إلى الجهاد ، وكان المسلمون ينقادون لها أعظم الانقياد ، فيمضون إلى الحرب جماعات جماعات ، ولكن هذه الخطب لم تصل إلينا ، وربما كان سبب ذلك أن قائليها كانوا

---

(١) Histoire des Croisades. par Michaud. P. 51

من المغمورين . وفى الشعر الذى قاله الهروى بعد سقوط بيت المقدس إلمام بكثير من هذه المعانى ، التى ألمت الخطب بالكثير من أمثالها ، ولا ريب .

وهذه خطبة أخرى ، قيلت بعدسقوط الرها فى أيدى المسلمين سنة ٥٤١ هـ (١١٤٦م) ، فنى مدينة فيزيلاى Vézelay بفرنسا ، عقد اجتماع أقبل عليه المسيحيون من كل مكان ، كما أقبلوا على اجتماع كلير مونت منذ خمسين عاماً ، فاجتمع جم غفير من الأمراء والفرسان والقادة ، والجماهير ، من جميع الطبقات ، وأقيمت منصة كتلك ، ظهر عليها ملك فرنسا ، يرتدى أفخم ملابسه الملكية ، وإلى جانبه سان برنارد فى ملابس راهب فقير ، فبعد أن حيتهما الجماهير المحتشدة أعظم تحية ، أخذ سان برنارد وكان خطيباً مصقعاً يتحدث عن أخذ العرب مدينة الرها ، وعن الحزن الذى عم الأماكن المقدسة لذلك ، وعن الرعب الذى شمل الدنيا عند ما علمت أن الرب بدأ يفقد أرضه العزيزة ، ثم قال :

« إنكم لتعلمون أننا نعيش فى عصر الجريمة والخراب ، فأعداء الإنسانية قد نشروا الفساد فى كل مكان ، وأصبحنا لانرى إلا جرائم لايعاقب مرتكبوها ، إن قوانين الوطن ، وقوانين الدين ، لم يعد لها سيطرة على نزوات النفوس ، ولا سلطان على الأشقياء . فأسرعوا يا من تصغون إلى ، لتخففوا غضب السماء ، ولا تطلبوا الرحمة بتنهدات لا قيمة لها ، ولا ترتدوا بعد اليوم إلا دروعكم . إن ضوضاء السلاح والأخطار ومتاعب الحرب هى التوبة التى يفرضها الله عليكم . هيا كفروا عن خطاياكم ، بانتصاركم على المشركين . وليكن إنقاذ الأماكن المقدسة هو الثمن النبيل لتوبتكم .

وهنا ثارت الحماسة فى نفوس المجتمعين فقاطعوا الخطيب ، كما قوطع أوربان فى اجتماع كليرمونت بقولهم : « تلك إرادة الله » . ومضى الخطيب يقول :

إذا أخبرتم أن عدواً لكم دخل مدنكم ، وسلبكم نساءكم وفتياتكم ، ودنس معابدكم ، فمن منكم لا يطير إلى سلاحه ؟ أجل لقدحدثت هذه المصائب ومصائب أجل منها ، فإن أبناء المسيح قد شتتهم أسياف المشركين ، وإن البرابرة قد هدموا بيت الرب ، واقتسموا ميراثه ؛ فماذا تنتظرون إذاً لإصلاح هذه المآثم ، وللانتقام من تلك الإهانات ؟ أتتركون المشركين يعيشون آمنين ، برغم ما قاموا به ، من التخريب ؟! فكروا فى أن انتصارهم سيكون مصدر

ألم دائم للأجيال المستقبلة، على مر العصور ، وقد كلفني الله الخالد أن أخبركم أنه سيعاقب أولئك الذين لا يردون أعداءه . أسرعوا إذاً إلى أسلحتكم ، وليدفعكم الغضب الشريف إلى المعركة ، وليردد العالم المسيحي قول النبي : ويل لمن لا يخضب سيفه بالدماء[1] .

وفى هذه الخطبة يلقى الخطيب سقوط المدينة فى أيدى المسلمين على كاهل سامعيه ، ويصور لهم غضب الله شديداً عليهم ، وأن ثمن توبتهم هو الانتصار على أعدائهم . ثم ينتقل إلى ما يثير فيهم النخوة والشهامة ، فصور لهم سلب نساء إخوانهم ، وفتياتهم ، وتهديم بيت ربهم ، وبعث فيهم المخاوف على مستقبل أبنائهم من بعدهم ، وبهذا نجح فى دفعهم إلى الحروب . ومما يلاحظ أن تهمة الإشراك قد رمى بها كلا الطرفين صاحبه ، وكانت سلاحا فى يد كل من الفريقين ، يسوق بها الناس إلى الجهاد .

وترى فى هاتين الخطبتين الدافع الدينى قويا ، وأن الخطيبين كانا من رجال الدين ، وقد اصطبغت خطبتاهما بصبغة دينية ، كما كانت الخطب التى أنشئت بالعربية يومئذ مصطبغة بهذه الصبغة الدينية أيضاً .

(١) المرجع السابق ٢ : ١٥٠

الباب الرابع

أثر الحروب الصليبية فى الأدب العربى

تركت الحروب الصليبية التى دامت زهاء قرنين آثاراً ظاهرة فى الأدب بمصر والشام، تتبينها واضحة فيما أنتجه الشعراء والكتاب. وينبغى أن نقول: فى صراحة إن هذه الآثار قامت على أساس من الأدب العربى الموروث، فقد عرف العرب الحروب فى الجاهلية والإسلام، وعرفوا حرب الروم منذ هاجموا بلادهم فى صدر الإسلام، ومنذ تاخمت بلاد الإسلام بلاد الروم، فإن غزو كل واحد منهما لصاحبه لم ينقطع فى عصر من العصور. ولم يقصر الشعراء فى تمجيد أبطال هذه الحروب، ووصف تلك الوقائع. وإذا فنحن واجدون لتلك المظاهر مشابه فى الأدب العربى، الذى كان قبل عصر هذه الحروب، ولكنه برغم أن أسس هذه المظاهر متأصلة فى الأدب العربى، فإن هذه الحروب تمتاز بمظهرها الدينى، الذى طبعها بطابع خاص، وجعل النزاع فيها صراعا بين دينين، لا بين فريقين يتنازعان أرضا، كما أن ضخامة الجيوش التى استخدمت فيها، وماصحب هذه الحروب من جانب الفرنج: من قسوة وتدمير، وإجلاء للمسلمين عن أرضهم، وطول المدة التى استغرقتها هذه الحروب، جعل لهذه المظاهر من البروز والوضوح وفيضان المظهر الدينى عليها، ما ليس لها من ذلك كله فيما سلف، قبل ذلك العصر.

عرف الإسلام معركة عمورية، ومعارك سيف الدولة مع الروم، ولكنه لم يعرف فيما عرف مجازر كمجازر القدس، وأنطاكية، ومعرة النعمان، وكان الإسلام قويا إبان كان يهاجم فى عصر الدولة العباسية، فكان يصمد، ويدفع العدو، ويتوغل فى أرضه، أما فى عهد هذه الحروب فقد كان الإسلام فى أولها شيعا، وبلاده مجزأة، حطم قواها العدو واحدة واحدة، وطمع فى أن يستولى على كل هذه الرقعة الإسلامية، وانحسر الإسلام، ثم أخذ يجتمع، ويقوى، ويشتد ساعده، حتى استعاد بلاده شبرا شبرا.

ويمتاز الأدب الذى أوحت به هذه الحروب بالحماسة المتدفقة فى أرجائه ، وبحرارة العاطفة التى تبعث فى هذا الأدب الحياة والقوة ، وتدل على ما كان يعتمل فى نفوس الشعراء يومئذ : من اضطرام نيران الألم ، لاغتصاب هذه الأرض من المسلمين ، ولما أصاب سكانها من تشريد ، وذبح ، وتقتيل . ويدلنا هذا الأدب على أن سكان مصر والشام لم ينسوا ، برغم مرور الزمن ، وتطاول الأعوام ، هذه البلاد التى اغتصبها العدو منهم ، ولم يفقدوا الأمل فى أنهم سيستردون يوما ما فقدوه ، ويدلنا على ذلك أن من أكبر أهداف الحكومات التى وليت البلاد يومئذ الجهاد فى سبيل الله وإعداد القوة لاستنقاذ بلاد الإسلام من يد أعدائه ، وقد تلون هذا الأدب ألوانا شتى : بين حزن ، وحسرة ، وفرح ، وبهجة ، وبين تمجيد للأبطال ، وحث على النزال ، وبين قوة وإقدام ، أو خوف وذعر ، إلى غير ذلك من ألوان العواطف والانفعالات ، التى ألمت بالأمة فى تلك العصور ، وصورها الأدب وأبقاها على مر الدهور ، وسنحاول أن نصف هذه المظاهر التى استخلصناها من زهاء سبعمائة من النصوص .

١ - استنجاد

كان من الطبيعى أن يستنجد أهل الإسلام بعضهم ببعض ، يطلبون العون ، ويسألون المساعدة ، لرد هذا الخطر الداهم ، والعدو المنقض بكل ما أوتى من قوة ، وأن يرسل بعض ملوك الإسلام إلى بعض عسى أن تتكاتف القوى ، وتتحد الجهود ، لاستخلاص البلاد من يد أعدائها ، وبقى لنا قدر وفير من هذا الأدب الذى يطلب مديد المعونة ، ويستنجد بمن يعتقد أنهم سيسرعون إلى نجدته ، وكثر هذا الأدب فى أوقات المحن التى مرت بمصر والشام ، وهما ينهضان بأعباء هذه الحروب . روى صاحب النجوم الزاهرة أن الفرنج بعد أن استولوا على بيت المقدس ، وأظهروا فيه ما أظهروا : من ضروب الوحشية ، وألوان القسوة والجبروت ، خرج المستنفرون من دمشق ، مع قاضيها : زين الدين أبى سعد الهروى ، فوصلوا بغداد ، وحضروا فى الديوان ، وقطعوا شعورهم ، واستغاثوا ، وبكوا ، وقام القاضى فى الديوان ، وأورد كلاما أبكى الحاضرين ، وأنشأ القاضى الهروى قصيدة مؤثرة أولها :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم (١)

ومنها : وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم

(١) المراجم : جمع مرجمة ، وهى القبيح من الكلام .

وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ظهور المذاكى [1]، أو بطون القشاعم [2]
ومنها: وكاد لهن المستجن بطيبة ينادى بأعلى صوته : يال هاشم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا رماحهم ، والدين واهى الدعائم
ومنها: وليتهم إذ لم يذودا حمية عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وإذ زهدوا فى الأجر إذ حمى الوغى فهلا أتوه رغبة فى الغنائم [3]

وقال آخر .

أحل الكفر بالإسلام ضيما يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع ، وحمى مباح وسيف قاطع ، ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديراً على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل لطفل [4] فى عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر وعيش المسلمين إذا يطيب
أما لله والإسلام حق يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا : أجيبوا الله ، ويحكم أجيبوا

وقال الناس فى هذا المعنى عدة مرات [5] .

ورأينا الاستنجاد ببغداد أيضا أيام الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، فرأينا صلاح الدين وهو عند عكا التى كانت من أشد المعارك قسوة على المسلمين ، يكتب إلى بغداد رسالة بقلم القاضى الفاضل يطلب منها العون ، قائلا : « ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا ، يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج منه للمسلمين ما هو أمر من أجاجه ، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة ، ويرسلوا إليهم من كل سلاح

---

(١) المذاكى : الخيل التى تم سنها ، وكملت قوتها (٢) القشاعم : جمع قشعم ، وهو المسن من النسور .
(٣) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥٠ و ١٥١ . (٤) طفل : أقبل وأظل
(٥) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٥١ و ١٥٢ .

شوكة ، فاذا قتل المسلمون واحداً فى البر ، بعثوا ألفاً عوضه فى البحر ، فالزرع أكثر من الحصاد ، والثمرة أنمى من الجذاذ ، وهذا العدو المقابل ، قاتله الله ، قد زر عليه من الخنادق دروعا متينة ، واستجن من الجنانات بحصون حصينة ، فصار محصوراً ومتمنعا ، حاسراً ومتدرعا ، مواصلا ومنقطعا ، وعددهم الجم قد كاثر القتل ، ورقابهم الغلب قد قطعت النصل ، لشدة ماقطعها النصل ، وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة ، والكلف الثقيلة ، فى استطاعتهم لا فى طاعتهم ، وفى أحوالهم ، لا فى شجاعتهم ، وكل من يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النبوية ، فى الصحبة البدرية ، اللهم إن تهلك هذه العصابة ، ويخلص الدعاء ، ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة . وقد حرم باباهم . . . عليه وعليهم كل مباح ، واستخرج منهم كل مذخور ، وأغلق دونهم الكنائس ، ولبس وألبسهم الحداد ، وحكم عليهم ألا يزالوا كذلك ، أو يستخلصوا المقبرة ، فياعصبة محمد عليه السلام ، اخلفه فى أمته بما تطمئن به مضاجعه ، ووفه الحق فينا ، فإنا والمسلمين عندك ودائعه ، وما مثل الخادم نفسه فى هذا القول إلا بحالة عبد لو أمكنه لوقف بالعتبات ضارعا ، وقبل ترابها خاشعا ، وناجاها بالقول صادعا ، ولو رفعت عنه العوائق لهاجر ، وشافه طبيب الإسلام بل مسيحه بالداء الذى خامر . . . ولولا أن فى التصريح ، ما يعود على العدالة بالتجريح ، لقال مايبكى العيون وينكى القلوب ، ولكنه صابر محتسب ، منتظر لنصر الله مرتقب ، قائم من نفسه بما يجب ، رب إنى لا أملك إلا نفسى وهاهى فى سبيلك مبذولة ، وأخى وقدها جر إليك هجرة يرجوها مقبولة ، وولدى وقد بذلت لعدوك صفحات وجوههم ، وهان على محبوبك بمكروهى فيهم ومكروههم ، ونقف عند هذا الحد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد » (١) .

ومما كتب به استنجادا برجال أطراف المملكة الإسلامية كتاب جاء فيه : « والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك هم المؤمنين فى تسكين ثائرهم ، وتخريب عامرهم ، وما دام البحر يمدهم ، والبر لا يصدهم ، فبلاء البلاد بهم دائم ، ومرض القلوب بأدوائهم ملازم ، فأين حمية المسلمين ، ونخوة أهل الدين ، وغيرة أهل اليمين ، وما ينقضى عجبنا من تضافر المشركين ، وقعود المسلمين ، فلا ملبى منهم لمناد ، ولا مثقف لمناد ، فانظروا إلى الفرنج

---

(١) الروضتين ج ٢ ص ١٥٧ .

أى مورد وردوا ، وأى حشد حشدوا ، وأى ضالة نشدوا ، نجدة أوأية نجدوا ، وأية أموال غرموها ، وأنفقوها ، ونجدات جمعوها ، وتوزعوها ، فيما بينهم وفرقوها ، ولم يبق ملك فى بلادهم وجزائرهم ، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم ، إلا جارى جاره فى مضمار الإنجاد ، وبارى نظيره فى الجد والاجتهاد ، واستقلوا فى صون ملتهم بذل المهج والأرواح ، وأمدوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السلاح ، مع أكفاء الكفاح ، ومافعلوا مافعلوا ، ولابذلوا مابذلوا ، إلا المجهود الحمية لمتعبدهم ، والنخوة لمعتقدهم . . . والمسلمون بخلاف ذلك ، قدوهنوا وفشلوا ، وغفلوا وكسلوا ، ولزموا الحيرة ، وعدموا الغيرة ، ولو انثنى والعياذ بالله للإسلام عنان ، أو خبا سنأ ونبا سنان ، لما وجد فى شرق البلاد وغربها ، وبعد الآفاق وقربها ، من لدين الله يغار ، ومن النصرة للحق على الباطل يختار ، وهذا أوان رفض التوانى ، واستدناء أولى الحمية من الأقاصى والأدانى ، على أنا بحمد الله لنصره راجون ، وله بإخلاص السر وسر الإخلاص مناجون ، والمشركون بإذن الله هالكون ، والمؤمنون آمنون ناجون »(1).

والكتاب كما نرى يصف الفرنج ، ويبين خطر تجمعهم ، ويصف إقبالهم على الحرب فى حماسة وغيرة ، ليكون ذلك حافزاً للمسلمين على الإقبال على الجهاد .

ولم يكتف صلاح الدين ، وهو يخوض غمار هذه المعركة التى دامت طويلا ، والتى ذاق فيها المسلمون المحاصرون فى عكا أعظم الويلات — بأن يستنجد بأمير المؤمنين فى بغداد ، ولا برجال الأطراف ، بل فكر فى أن يستعين بكل من يستطيع أن يمد إليه يد المعونة ، ففكر ، والمعونة إلى الفرنج ترد إليهم من الغرب ، فى أن يستنجد بملك المغرب ، عساه أن يعمل على أن يعوق العون عن الوصول إلى العدو ، وأن يرسل إليه مداداً : من الأسطول ، والرجال ، فكتب القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين كتابا إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أحد خلفائهم ، فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، بدأه بتحية مطنبة إلى الملك ، ثم تحدث إليه فى أنه كان يرغب أن يعقد صلة وثيقة بينه وبينه ، يجتمعان فيها على جهاد العدو ، كل فى ناحيته ، وذكر له ما تم على يده من فتح بيت المقدس ، وما جره ذلك من اجتماع الفرنج ، وحشدهم جموعهم ، يريدون استخلاصه ثانية ، وقدومهم إلى عكا ، وحصارهم لها ، وقدوم طوائف جديدة تتجه إليها ، منضمة إلى الجيوش المتراكمة حولها ، ثم قال : « ولما مخض النظر زبده ، وأعطى الرأى حقيقة ماعنده ، لم نر لمكاثرة البحر إلا بحرا من أساطيله

(1) الروضتين ٢ : ١٤٨ :

المنصورة ، فإن عددها واف ، وشطرها كاف ، ويمكنه أدام الله تمكينه : أن يمد الشام منه بعد كثيف ، وحد رهيف ، ويعهد إلى واليه أن يقيم إلى أن يرتبع ويصيف ، ويمكنه أن يكف شطر الأسطول طاغيه صقيلة ، ليحص[1] جناح قلوعه أن تطير ، ويعقل عباب بحره أن يغير ، ويعتقله فى جزيرته ، ويجرى إليه قبل جريرته ، فيذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لاترد به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة يطلع بها شمس النصر من مغربها . . . » ثم يمضى مبيناً آماله التى يعقدها على هذه النجدة ، وما سيترتب عليها من نصر الإسلام والمسلمين[2] .

ويظهر أن ملك المغرب لم يستجب إلى هذه الدعوة ، ولم يرسل أسطولا إلى الشام ، ولا أسطولا يحول بين الفرنج وبين الذهاب لقتال المسلمين على بيت المقدس ، فكتب إليه صلاح الدين كتابا آخر ، سنة ست وثمانين وخمسمائة ، بعث به مع الأمير عبد الرحمن بن منقذ وأصحبه هدية ثمينة ، وكان الكتاب مطولا ، بدأه القاضى الفاضل بحمد الله ، والثناء عليه والصلاة على رسول الله وآله ، ثم أزجى تحية كلها ثناء وإجلال لملك المغرب ، « رجل الجلالة ، وأصل الأصالة ورأس الرياسة ، ونفس النفاسة ، وحكم الحكم ، وعلم العلم ، وقائم الدين وقيمه ، ومقدم الإسلام ومقدمه ، ومقتضى دين الدين ، ومثبت المتقين على اليقين ، ومعلى الموحدين على الملحدين ، أدام الله له النصرة ، وجهز به تيسير العسرة ، ورد له الكرة ، وبسط له باع القدرة ، وأوثق به حبل الألفة ، ومهد له درجات الغرفة ، وعرفه فى كل مايعتزمه صنعاً جزيلا جميلا ، ولطفاً حفياً جليلا ، ويسر عليه فى سبيله كل ما هو أشد وطأة وأقوم قيلا » . ثم مضى يحدثه عما فتحه الله على المسلمين من بيت المقدس والثغور والمدن والأمصار ، وأخبره أن الذى بقى منها بيد العدو ، ثغرا طرابلس وصور ومدينة أنطاكية ، ثم قال : « ولم يؤخر فتح البلاد بعدها إلا أن فزع الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب ، فأجابوهم رجالا وفرسانا ، وشيباً وشبانا ، وزرافات ووحدانا ، وبراً وبحراً ، ومركبا وظهراً ، وركبوا إليهم سهلا ووعراً ، وبذلوا ماعونا وذخراً ، وما احتاجوا ملوكا ترتادهم ، ولا أرسانا تقتادهم ، بل خرج كل يلبى دعوة بطركه ، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه . . . وجلب الكفار إلى المحصورين بالشام كل مجلوب ، وملئوا عليهم ثغرهم من كل مطلوب ، ما بين أقوات . وأطعمة ، وآلات ، وأسلحة . . . إلى أن شحنوا بلادهم رجالا مقاتلة ، وذخائر للعاجلة

(١) الحص : حلق الشعر .
(٢) الكتاب كله فى صبح الأعشى ٦ : ٥٢٨ .

من حربهم والآجلة ، لاتشرق شارقة إلا طلعت على العدو من البحر طالعة ، تعوض من الرجال من قتل ، وتخلف من الزاد ما أكل ، فهم كل يوم فى حصول زيادة ، ووفور مادة ، وقد هان عليهم موقع الحصر ، وأعطاهم البحر ما منعهم البر ، وبطروا لما كثروا . . . وعقدت عدتهم مائة ألف أو يزيدون ، كلما أفناهم القتل ، أخلفتهم النجدة ، فكأنهم قبل الممات يعودون. وبعد هذا التصوير لقوة العدو التى تزيد فى كل يوم ، والإمدادات التى قوت عزيمته ، حدثه عما قام به المسلمون من جهاد العدو المحاصر لعكا ، وملاقاة إمداداته ، وتوجه إلى ملك المغرب مستنجداً به قائلا : « لما كانت حضرة سلطان الإسلام ، وقائد المجاهدين إلى دار السلام، أولى من توجه إليه الإسلام بشكواه وبثه ، واستعان على حماية نسله وحرثه ، وكانت مساعيه ومساعى سلفه فى الجهاد الغر المحجلة ، المؤمرة الكاشفة لكل معضلة ، الكاشفة لكل مشكلة ، والأخبار بذلك سائره ، والآثار ظاهرة ، والصحف عنه باسمة ، والسير به معلمة وعالمة ، وكل بجهاده قد سكن إلا السيوف فى أغمادها ، وقد أمن إلا كلمة الكفر فى بلادها ، لا يزال فى سبيل الله غاديا ورائحاً ، ومواجها ومكافحا ، وممسياً ومصابحا . . . كان المتوقع من تلك الدولة العالية ، والعزمة الغادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد به غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام ، ومدنا فى اللجاج سوائر كأنها الليالى مقلعة بالأيام ، تطلع علينا معشر الإسلام آمالا ، وتطلع على الكفار آجالا ، وتردنا إما جملة وإما أرسالا مسومة ، تمدها ملائكة مسومة ومعلمة . . . ولما استبطئت ظن أنها توقفت على الاستدعاء ، فصرخنا به فى هذه التحية ، فقد تحفل السحاب ، ولا تمطر إلى أن تحركها أيدى الرياح ، وقد تترك النصرة فلا تظهر إلى أن تضرع إليها ألسنة الصفاح [1] . . . . » وتختم الرسالة بالحديث عن حاملها ، وأنه كفء قدير على أن يجيب عما يوجه إليه من أسئلة استيضاحية ، وبالدعاء إلى الله أن يجعلها رسالة ناجحة ، بالغة هدفها ومبتغاها .

ولما أخذ العدو عكا أرسل صلاح الدين بقلم القاضى الفاضل رسالة إلى ابن منقذ وهو فى المغرب ، يصف له ما جرى على هذه المدينة التعسة ، ويطلب إليه أن يبلغ ذلك إلى من بالمغرب ، وأن يسرع بالعودة مصحوبا « بالنجدة البحرية ، والأساطيل المغربية ، فان عاريتنا

(١) الرسائل كلها فى الروضتين ج ٢ ص ١٧١ .

به ترد ، وعاديتنا بها تشتد [١] . . . . » ولم يستنجد صلاح الدين ببغداد والمغرب فحسب ، ولكنا رأيناه يستنجد بأخيه سيف الإسلام ، ويستقدمه إليه ، ليجتمع شمل الأسرة على قتال الفرنج ، ويتعاون أفرادها جميعاً على لقاء العدو ، الذى أخذ يجمع شمله المبدد ، بعد معركة بيت المقدس ، فكان لابد من الإعداد له ، والتأهب لرده ، ومنازلة ما بقى فى يده من أرض مغتصبة . وفى هذه الرسالة يقول له القاضى الفاضل على لسان صلاح الدين : « فالبدار إلى النجدة البدار ، والمسارعة إلى الجنة فإنها لا تنال إلا بإيقادنا الحرب على أهل النار ، والهمة الهمة فإن البحار لا تلق إلا بالبحار ، والملوك الكبار . . . ونحن فى هذه السنة إن شاء الله تعالى — ننزل على أنطاكية ، وينزل ولدنا الملك المظفر — أظفره الله — على طرابلس ، ويستقر الركاب العادلى — أعلاه الله — بمصر ، فإنها مذكورة عند العدو — خذله الله — بأنها تطرق ، وإن الطلب على الشام ومصر تفرق ، ولا غنى من أن يكون المجلس السيفى — أسماه الله ، بحراً فى بلاد الساحل يزخر سلاحا ، ويجرد سيفاً ، يكون على ما فتحناه قفلا ، ولما لم يفتح بعد مفتاحاً . ليس لأحد ما للأخ من سمعة ، لها فى كل مسمع سعة ، وفى كل روع روعه ، وفى كل محضر محضر ، وفى كل مسجد منبر ، وفى كل مشهد مخبر ، فما يدعى العظيم إلا للعظيم ، ولا يرجى لموقف الصبر الكريم إلا الكريم . . . على علم منا أنه لا يقعد عنا إذا قامت الحرب بنفسه وماله ، فلا نكن به ظنا أحسن منه فعلا ، ولا نرضى وقد جعلنا الله أهلا ، ألا نراه لنصرنا أهلا . وليستشر أهل الرشاد . . . وليعص أهل الغواية ، فإنهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضاً ، ومن بيته يظعن ، وإلى بيته يقفل ، وهو يجيبنا جواب مثله لمثلنا ، وينوى فى هذه الزيارة جمع شمل الإسلام ، قبل نية جمع شملنا [٢] . . . »

هذا وبرغم أن بغداد لم تقدم عونا إلى هؤلاء الذين استنجدوا بها فى أول عصر الحروب الصليبية ، كما أنها لم تقدم عونا إلى صلاح الدين ، رأينا المعظم عيسى يستنجد ببغداد ، ويحذر الخليفة من تمادى الفرنج فى الاستيلاء على البلاد ، فلما حاصر الفرنج الطور بعث المعظم بكتاب إلى الخليفة ، وفى أوله بيتان ، وهما للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبى :

---

(١) جزء كبير من الرسالة فى الروضتين ج ٢ ص ١٨٨ .

(٢) الرسالة كلها فى صبح الأعشى ٧ : ٢٣ .

قل للخليفة ، لا زالت عساكره لها إلى النصر إصدار وإيراد :
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا لا يغفلن ، فحصن الطور بغداد[1]

ولما اشتد الأمر بالملك الكامل عند ما حاصر الفرنج دمياط ، وبلغ الضيق بالنفوس مبلغاً كبيراً ، كتب الملك الكامل إلى أخيه الملك الأشرف موسى ، يستنجد به ، ويحثه على الحضور ، وصدر رسالته بهذه الأبيات .

يا مسعدى ، إن كنت حقا مسعفى فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفاً بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت،ولاتنخ إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له متوقع لقدومه متشوف
وإذا وصلت إلى حماه فقل له عنى بحسن توصل وتلطف :
إن تأت عبدك عن قليل تلقه ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه بك فى القيامة فى عراض الموقف[2]

وقد كان لهذا الخطاب أثره ، فقد أقبل الأشرف موسى على عجل ، وقوى بقدومه أمر الملك الكامل ، حتى ليقال إن بنى أيوب لم يلتئم شملهم منذ عصر صلاح الدين ، ولم تتحد كلمتهم ، مثلما كانوا فى معركة دمياط ، وفى هذه المعركة نفسها ، والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البر والبحر ، وأحدقوا بها ، وحصروها ، وضيقوا على أهلها ، ومنعوا الأقوات أن تصل إليهم ، وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا ، وبنوا عليه سوراً ، قلت الأقوات ، واشتد غلاء الأسعار ، وكان فى دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنانى ، فكتب هذه الأبيات ، وألقاها إلى الملك الكامل فى سهم نشاب ، وهى :

يا مالكى ، دمياط ثغر هدمت شرفاته ، كادت تجث أصوله
يقريك من أزكى السلام تحية كالمسك ، طاب دقيقه ، وجليله
ويقول عن بعد ، وإنك سامع حتى كأنك جاره ونزيله
يأيها الملك الذى ما إن يرى بين الملوك شبيهه وعديله

---

(١) ذيل الروضتين ص ١٠٣ .
(٢) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢١٢ .

هذا كتاب موضح من حالتي ... ما ليس يمكنني لديك أقواله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت ... بجميعه فرسانه وخيوله
فالبر قد منعت إليه طريقه ... والبحر عز لنصره أسطوله
لخضوعه باد على أبراجه ... وحنينه ، وبكاؤه ، وعويله
ولو استطاع لأم بابك لائذا ... لكنه سدت عليه سبيله
فقد انتهت أدواؤه ، وتحكمت ... علاته ، ونحا عليه نحوله
وبقى له رمق يسير ، يرتجى ... أن يشتفى لما دعاك عليله
فاحرس حماه بعزمة تشفى بها ... داء بمثلك يرتجى تعليله
فالله أعطاك الكثير بفضله ... ورضاه من هذا الكثير قليله
فالعذر فى نصر الإله ودينه ... ما ساغ عند المسلمين قبوله
والثغر ناظره إليك محدق ... ما إن يمل من الدموع همولة
ولئن قعدت عن القيام بنصره ... جفت نضارته ، وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ، ورفعت ... صلبانه ، وتلى به إنجيله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه ... وخفى على سمع الورى تهليله
هذا وحقك وصف صورة حاله ... حقا ، وجملته ، وذا تفصيله
وكفاك يابن الأكرمين بأنه ... أضحى عليك من الورى تعويله
حقق رجاه فيك ، يامن لم يخب ... أبدا لراجى جوده تأميله
وادخر ليوم البعث فعلا صالحاً ... الله ضامن أجره وكفيله (١)

وكان لهذه الرسالة من الشعر أثرها فى نفس الكامل ، حتى إنه نادى بالجهاد العام فى مصر والقاهرة . ويبدو مما أوردناه من النصوص أن أدب الاستنجاد يتصف بالغيرة المؤمنة ، والحرارة التى تشع منه ، وتسرى فى جمله وعباراته ، مما يدل على أنه ينبعث عن إيمان قوى ، وانفعال عميق ، وغيرة بالغة ، ويتصف كذلك بتصوير الحال تصويراً يبلغ من نفس السامعين ، ما يبغيه الأدب : من إثارة نفوسهم ، ليسرعوا إلى النجدة والمعونة . ففى النصين :

---

(١) السلوك ج ١ ص ١٩٩ .

الأول والثانى ، صور الشاعران مانزل بالبلادالتى دخلها الفرنج : من ضيم ، وإرغام للإسلام، وترويع للآمنين ، وتحكيم السيف فى رقابهم ، واستباحة كل حقوقهم ، ويضرب على الوتر الحساس ، وهو أعراض المسلمات ، وكيف استبيحت ، ليثير الحمية فى نفوس سامعيه، ويبعث فيهم الغضب ، وحب الانتقام ، ويصور النص الأول رسول الله متألما فى قبره ، يدعو المسلمين إلى الجهاد ، ويحثهم على إنقاذ إخوانهم فى الدين ، ويوحى هذا النص بأن قائله كان يؤمن فى أغوارقلبه ، بأن وحدة المسلمين كفيلة بأن تردهؤلاء المهاجمين مغانم للمسلمين. ويصور استنجاد صلاح الدين لملوك المسلمين تضافر قوى الفرنج ، وكثرة ما يرد إليهم من إمدادات متدفقة ، وكثافة جندهم ، وضخامة عددهم ، وما ينتظر أن يكون لهجماتهم من صدى عميق فى بلاد الإسلام ، وهو من أجل ذلك يطلب النجدة ليعد العدة لملاقاتهم ، كى لا تنزل الكارثة بالإسلام ، ومن أشد ألوان وصف الحال تأثيراً ماجاء على لسان دمياط تشكو حالها إلى الملك الكامل ، فتحدثت عن شرفاتها التى تهدمت ، وضعف قواها المعنوية التى كادت تنهار ، وإحداق عدوها بها بخيله ورجله ، فسد الطريق إليها فى البر والبحر ، حتى لقد امتلأ قلبها ألماً وحنيناً ، وأعولت بالبكاء .

ويشمل هذا الأدب تحذيراً من عاقبة التقاعد عن النصرة ، وما يستتبع ذلك من أوخم العواقب ، وأشد ألوان الأضرار ، وقصيدة الكنانى تصف هذه العواقب فى صراحة ، وتحذر من وقوعها .

كما نرى فيه طلب الإسراع بهذه النجدة ، فالعدو يتقوى فى كل يوم ، والأمداد تتوالى عليه ، وكل تأخر عن النجدة يضعف من قوى الإسلام ، بقدر ما يزيد فى قوى عدوه ، وترى فى رسالة الكامل إلى أخيه الأشرف أن طلب الاسراع فى النجدة أقوى عناصرها ، فهو يريد من رسوله أن يطوى المنازل ماستطاع ؛ حتى يصل مسرعا إلى باب المليك الأشرف ، وكأنه يريد من الرسول أن يعود مسرعا ، وفى صحبته أخوه الملك .

ومن سمات هذا الأدب مدح المستنجد به ، ليثير فيه الشعور بالشهامة ، والنخوة ، والأنفة ، فيدفعه إلى أن يساهم بنصيب فى ميدان الشرف والفخار . هذا ، وبرغم أن كتب الاستنجاد كانت تكتب فى أحلك الظروف وأقساها ، لا تسود هذه الكتب روح التشاؤم

واليأس ، إذا استثنينا النصين الأولين ، بل غمرها التفاؤل ، والأمل ، والإيمان بالنصر ، مهما اشتدت الأمور واستحكمت حلقات المصاعب .

ومما هو جدير بالذكر أن أدب الاستنجاد الذى أنتجته مصر والشام لم يدفع ملوك الإسلام فى بغداد واليمن والمغرب إلى أن يمدوا يد العون إلى هذين القطرين فى أيام محنتهما ، ولم يقف فى وجه هذه الحروب الطويلة سوى ملوك هذين البلدين ، وربما أثمر هذا الأدب ثورة وانفعالا فى نفوس سامعية فى تلك البلاد ، لكن أثره لم يتعد ذلك إلى إعداد الإمدادات وتجهيزها ، لدفاع الفرنج المغيرين .

٢ ـ حث وتحريض

وكثر فى هذا العصر التحريض على قتال الفرنج ، والحث على جهادهم ، كثر تحريض الشعب ، كما فى خطب الجهاد ، التى كانت تلقى فى ذلك العصر ، والتى شغف الخطباء فيها باقتفاء آثار خطب ابن نباته ، والتى كان قد أعدها بعناية ، يحض الناس فيها على الجهاد ، وبخاصة هذه الأوقات الحرجة التى مرت بمصر والشام ، فى هذه السنين الطويلة ، ولم تكن الخطب وحدها هى التى تدعو الشعب إلى الجهاد ، بل كان أبطال الحروب الصليبية من الملوك يكتبون الكتب التى تصف أفعال الفرنج ، وتستنهض همم المسلمين إلى الغزو ، ودفاع العدو ، وكان لهذه الكتب التى ترسل لتقرأ على الشعب أثرها القوى فى النفوس . روى ابن الأثير فى كامله أن نور الدين محمودا لما عاد منهزما من البقيعة سنة ٥٥٩ هـ ، أخذ فى الاستعداد للجهاد ، والأخذ بثأره ، واتفق مسير بعض الفرنج مع ملكهم إلى مصر ، فأراد أن يقصد بلادهم ؛ ليعودوا عن مصر ، فأرسل إلى أخيه قطب الدين مودود ، صاحب الموصل ، وديار الجزيرة ، وإلى فخر الدين قرا أرسلان ، صاحب حصن كيفا ، وغيرهما ، من أصحاب الأطراف يستنجدهم فأما قطب الدين فإنه جمع عسكره وسار مجداً ، وأما فخر الدين صاحب الحصن فبلغنى عنه أنه قال له ندماؤه وخواصه : على أى شىء عزمت ؟ فقال على القعود ، فلما كان الغد أمر بالتجهيز للغداة ، فقال له أولئك : ما عدا مما بدا ؟ فارقناك أمس على حالة ، فذاك اليوم على ضدها ، فقال : إن نور الدين قد سلك معى طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادى عن طاعتى وأخرجوا البلاد عن يدى ، فإنه قد كاتب زهادها ، وعبادها ، والمنقطعين عن الدنيا ، ويذكر لهم ما لقى المسلمون من الفرنج ، وما نالهم : من القتل ، والأسر ، ويستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحثوا المسلمين على الغزاة ، فقد قعد كل واحد من أولئك ، ومعه أصحابه ، وأتباعه وهم يقرءون كتب نور الدين ، ويبكون ، ويلعنوننى ، ويدعون على ، فلا بد من المسير إليه ، ثم تجهز ، وسار بنفسه [1] .

(١) الكامل لابن الأثير جـ ١١ ص ١٣٥

ومن كتب التحريض ما كتبه العماد الكاتب عن صلاح الدين بعد استيلاء الفرنج على عكا وغدرهم بمن أسروهم فى المدينة ، إذ قال : « وللكرام آجال ، والحرب سجال ، ولله من المؤمنين رجال ، والآن فقد ثارت الحميات ، وهبت النخوات ، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام ، ويتدارك ماحدث من الكسر بالجبر والإحكام ، ويعيد ما وهى من عقد الفتوح إلى النظام ، فأين ذوو الأنفة والحمية ، والهمم العلية ، والنفوس الأبية ، أما يهتمون لمصرع من استشهد من إخوانهم ، أما يثورون لثأر إيمانهم ، أما تبكى العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم ، فإن مصابهم عظيم ، ومقامهم عند ربهم الكريم كريم ، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة ، وإثارة العزائم الراكدة (١) » . وفى هذا الكتاب برغم قسوة الظرف الذى أنشىء فيه صلابة وعدم يأس ، فالحرب سجال ، وهذه الهزيمة لتنبيه الهمم الراقدة ، وإثارة العزائم الراكدة ، وبعدئذ نرى التحريض للأخذ بثأر الإيمان ، ومن صرع ممن استشهد فى سبيله .

ومن هذه الأوقات العصيبة التى استدعت تحريض الشعب وحثه على الجهاد ما كان بعد موت الصالح أيوب بالمنصورة ، وخروج الفرنج من دمياط بفارسهم وراجلهم ، وأسطولهم يحاذيهم فى نهر النيل ، فرأى أولو الأمر بالمنصورة أن يرسلوا كتاباً إلى القاهرة يحض الناس على الجهاد ، فورد الكتاب فى يوم الجمعة ، وقرىء على الناس ، فوق منبر جامع القاهرة ، وكان أوله آية قرآنية هى : « انفروا خفافاً وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله ، بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . قال المقريزى : « وكان كتاباً بليغاً ، فيه مواعظ جمة ، ويرجح ابن واصل أن هذا الكتاب كان من إنشاء بهاء الدين زهير (٢) . وأثر هذا الكتاب فى نفوس سامعيه تأثيراً بالغاً ، وحدث عند قراءته من البكاء ، والنحيب ، وارتفاع الأصوات بالضجيج ، ما لا يوصف ، وأقبل الناس أفواجاً على الجهاد ، فارتجت القاهرة ومصر ، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للسير ، وخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم (٣) » .

وأقبل الناس على من يتوسمون فيهم من الملوك حب الجهاد يشدون من عزائمهم ، ويباركون خطواتهم ، وهم يعلمون ما للأدب من التأثير فى النفوس ، فتأنقوا فى الكتابة إليهم ،

(١) الروضتين جـ٢ ص ١٩٠ . (٢) مفرج الكروب ص٣٦٤ ب .
(٣) السلوك جـ١ ص ٣٤٦ — ٣٤٧ .

بالنثر تارة ، وبالشعر تارة أخرى ، ولعل من أكبر الذين عقدت بهم الآمال للقضاء على الفرنج نور الدين محموداً ، وصلاح الدين ، وقد عبر الأدب خير تعبير عن آمال البلاد فيهما ، فأقبل الشعر والنثر إليهما ، حاثاً لهما على مواصلة الجهاد ، حتى الظفر والانتصار ، وها هو ذا الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير المصرى يرسل إلى أسامة بن منقذ ، يرجوه أن يحث نور الدين ، على أن يتفقا معاً على جهاد الفرنج ، أحدهما من الشمال ، والثانى من الجنوب ، فيقضيا عليهما معاً ، وكان الصالح طلائع من المتحمسين لحرب الفرنج ، والداعين إلى وحدة الجهود فى هذا السبيل ، ومما كتبه من ذلك إلى أسامة بن منقذ .

كره الشام أهله فهـــو محقو ق بألا يقيم فيـــه لبيب
إن تجلت عنه الحروب قليلا خلفتها زلازل وخطـــوب
إن ظنى ، والظن مثل سهام الر مــــى : منها المخطى ومنها المصيب
إن هذا لأن غدَت ساحة القد س وما للإسلام فيها نصيب
منزل الوحى قبل بعث رسول اللـــه ، فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وســطه الخنازير والخمـــر ، وبارى الناقوس فيها الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلا زعموا أنه له منســـوب
أبعد الناس عن عبادة رب النـــاس قوم إلههم مصلوب
ولعمرى أن المناصح للدين عـــلى الله أجره محســـوب
وجهاد العدو بالفعل والقول على كل مســـلم مكتوب
ولك الرتبة العلية فى الأمر ـــن مذ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع مالك فى الطعـــن ولا فى الضراب يوما ضريب
وإذا ما حرضت فالشاعر المفـــلق فيما تقـــوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لاينكر أن التدبير منك مصيب
لك رأى مذ قط إن ضعف الـــرأى على حاملى الصليب صليب
فانهض الآن مسرعاً فبأمثالك ما زال يـــدرك المطلوب
والق عنا رسالة عند نور الديـــن ما فى إلقائها ما يريب
قل له ، دام ملكه ، وعليه من لباس الإقبال برد قشيب :

أيها العادل الذى هو للدين شـــباب ، وللحروب شبيب
والذى لم يزل قديماً عن الإسـلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه للفرنج إذا لاقوه يوم من الزمان عصيب
إن ترم نزف حقدهم فلأشـطان قناه فى كل قلب قليب
غيرنا من يقول ما ليس يمضيه بفعل ، وغيرك المكذوب
قد كتبنا إليك فاوضح لنا الآ ن بماذا عن الكتاب تجيب
قصدنا أن يكون منا ومنكم أجل فى مسـيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ماضاق بأدنـاهم الفضـاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشام مكـان الغيوث مال صبيب
أو تراها مثل العروس : ثراها كله من دم العـدا مخضوب
لطعين السيوف فى فلق الصبـح على هام أهلها تطريب
ولجمع الحشود من كل حصن سلب مهمل لهم ونهـوب
وبحول الإله ذاك ومن غالـب ربى فإنه مغلـوب [1]

وكثرت بين الشاعرين القصائد التى تدور حول هذا الهدف .

ولما حدثت الوحشة بين نور الدين محمود وبين قلج أرسلان صاحب الروم ، ووقعت الحرب بينهما ، عز ذلك على الصالح طلائع ، وتألم أن يرى جهود أحدهما تنصرف إلى صاحبه ، وأن تتمزق وحدتهما ، بدلا من أن تتحد جهودهما ، وتتجه إلى عدوهما المشترك ، وهم الفرنج ، فقال يحثهما على الوحدة فى قتال العدو :

نقول ، ولكن أين من يتفهم ويعلم وجه الرأى ، والرأى مبهم
وما كل من قاس الأمور وساسها يوفق للأمر الذى هو أحـزم
وما أحد فى الملك يبقى مخـلدا وما أحد مما قضى الله يسـأم :
أمن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم بفيهم ، وكانت وهى صاب وعلقم
رجعتم إلى حـكم التنافس بينكم وفيكم من الشحناء نار تضـرم

(١) ديوان أسامه ص ١٩٨ .

أما عنــدكم من يتق الله وحـــده ... أما فى رعاياكم من النـاس مسلم
تعالوا ، لعل الله ينصر دينـــه ... إذا ما نصرنا الدين نحن وأنـــتم
وننهض نحو الـــكافرين بعزمة ... بأمثالهـا تحوى البلاد وتقسم (١)

وأكاد ألمح فى هـذا الشعر الرغبة الملحة فى تناسى المنصب الفانى ، والاتجاه إلى أسمى الأهداف ، وأشرف الغايات .

وكانت الأمنية التى تجول بالنفس يومئـذ استرداد بيت المقدس ، وقد عبر الشعر عن هذه الأمنية الغالية ، عند ما قال يحرض نور الدين على استعادته ، بعد أن اتحدت مصر والشام تحت سلطانه ، واجتمع فى يده من الأسباب المادية ما يمهد أمامه السبيل ، وها هوذا على بن الحسن بن هبة الله الدمشقى يقول له :

ولست تعذر فى ترك الجهـاد ، وقد ... أصبحت تملك من مصر إلى حلب
وصاحب الموصـــل الفيحاء ممتثل ... لما تريد ، فبادر فجأة النـــوب
فأحزم النـاس من قوى عزيمته ... حتى ينال بهـا العالى من الرتب
وقد بلغت بحمـــد الله منزلــــة ... علية ، فاقصــد العالى من القرب
فالجد والجـــد مقرونان فى قرن ... والحزم فى العزم،والإدراك فى الطلب
وطهر المسجـــد الأقصى وحوزته ... من النجاسات والإشراك والصلب
عساك تظفر فى الدنيا بحسن ثنـا ... وفى القيامة تلق حسن منقلب (٢)

وجد الشعراء فى صلاح الدين أمنيتهم المنشودة ، فأحاطوا به ، يباركون خطواته ، ويشجعونه على تحقيق أمنياته ، وكان استخلاص القدس كذلك أعز هـذه الأمانى ، وأغلى تلك الرغبات ، وقد أكثر شعراؤه من الحديث عن تلك الغاية ، فرأينا العماد يحثه على تحقيقها فى قوله :

ويوسف مصر بغير التقـــــى ... وبذل الصنائع لم يوصـــف
فسر ، وافتح القدس ، واسفك به ... دماء متى تجرها ينظـــف
وأهـــد إلى الأسبتـــار التبـــار ، وهد السقوف على الأسقف

---

(١) الكامل لابن الأثير ١١ : ١٤٢ . (٢) الخريدة المخطوطة جـ ١ ص ٤٧ .

وخلص من الكفر تلك البـــلا	د يخلصك الله فى الموقف [١]

ويقول له فى قصيدة أخرى :

وما يرتوى الإسلام حتى تغادروا | لكم من دماء الغادرين بها غدرا
فصبوا على الإفرنج سوط عذابها | بأن يقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولا تهملوا البيت المقدس، واعزموا | على فتحه غازين، وافترعوا البكرا [٢]

وليست الفتوح التى يقوم بها صلاح الدين سوى ممهد لهذه الغاية الكبرى ، التى يرنو إليها الجميع ، قال له محي الدين محمد بن على يهنئه ، بعد أن استولى على حلب :

وفتحك القلعة الشبهاء فى صفر | مبشر بفتوح القدس فى رجب [٣]

وللحكيم أبى الفضل كثير من القصائد التى حث بها السلطان ، وبشره فيها بفتح بيت المقدس ، منها تلك التى يقول فيها ، سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة :

فيا ملكا لم يبق للدين غـــيره | وهت عمد الإسلام ، فاشدد لها دعما
فشؤم فريق الشرك فى الشام طائر | فقص جناحيه بأقصى القوى قصما
خصصت بتمكين ، فعم العداردى | فإنهم يأجوج ، أفرغ بها ردماً
إذا صفرت من آل الاصفر ساحة الـ | ـمقدس ضاهت فتح أم القرى قدما
فذا المسجد الأقصى ، وهمتك العلا | وعزمتك القصوى ، ورميتك الصما
فما هو إلا أن تهم ، وقد أتت | فتوح ، كما فاض الخضم الذى طما
وإن أنت لم ترد الفرنج بوقعة | فمن ذا الذى يقوى لبنيانها هدماً
وما كل حين تمكن المرء فرصة | ولا كل حال أمكنت تقتضى غنما
وليس كفتح القدس منية قادر | وما إن تلقاها سوى يوسف جزما

فلما فتح بيت المقدس على يد صلاح الدين مضى الشعراء يحثون صلاح الدين ، على أن يمضى إلى ما بقى تحت يد الفرنج من بلاد ، فينقض عليها ، ويقضى على قواها ، ويستردها إلى أيدى المسلمين ، وممن أنشأ فى ذلك العماد الاصبهانى ، إذ يقول :

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ٢٦٩ . (٢) الروضتين ١ : ١٧٩ .
(٣) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٦٨ .

قل للمليك صلاح الدين أكرم من ... يمشي على الأرض، أو من يركب الفرسا:
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور، فإن فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم أنطرسوس ذا لجب ... وابعث إلى ليل أنطاكية العسسا
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه ... من العداة ومن فى دينه وكسا
ولا تدع منهم نفساً ولا نفساً ... فإنهم يأخذون النفس والنفسا (١)

وكان الأدب إلى جانب الأزمات يحث على اجتيازها، ويهون من أمرها، ويشد العزائم على التغلب عليها، والصبر لها، حتى تمر، وتنقضى. وقد سجل الأدب هذه الشدائد، وصور نبضات القلوب عندها، وارتجاف الأفئدة من شدتها، ثم وقوفه يمسح بيده آثارها، ويداوى كلومها، ويحفز على التغلب عليها، وكان الأدب يطيل فى معرفة أسبابها ليتغلب عليها، ولعل من أشد هذه الأوقات الحرجة ضيقا حصار عكا سنة ٥٨٥ هـ، ورسائل القاضى الفاضل إلى صلاح الدين، وهو على الحصار، ناطقة بشدة ما كان يعانيه الإسلام يومئذ: من الضيق، والحرج، فالعدو يشدد الحصار، ويسدد الضربات، ويتلقى النجدات، وجند الإسلام قد طال بهم المقام، فلفهم الضرر، ويتطلب الجيش مالا تضيق به موارد الدولة، إلى غير ذلك من أسباب الوهن، ويصف الأدب ذلك كله، ثم يضرب الأمثال، مشجعاً على الثبات، حاثا على الصبر، ولننصت إلى القاضى الفاضل، يصور نبضات القلوب المرتجفة يومئذ، حين يقول من كتاب له إلى صلاح الدين: «... بينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدل به على أن قلب المولى قد طاب، وقصد العدو قد خاب، إذ ترد كتب يكون الوقوف عليها قاطعا للأكباد، مفتتا للقلوب، ولو أنها جماد... والعيون ممدودة، والأيدى مرفوعة، بأن يفرج الله عنا وعنكم بوصولها، فمن شبع فى هذه الأيام فما واسى المسلمين، ومن نام ملء عينه فما هو من إخوة المؤمنين... فما المملوك وكل من يعرف الأمر إلا كأهل الصراط: رب، سلم رب، سلم، فنسأل الله سبحانه، ألا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى الناس فنضيع، ومجهود أهل الأرض قد انتهى، وبقى ما يفعله الله ...» وفى هذا الكتاب يصف القاضى الفاضل ما يواجه الإسلام من الصعاب، ويقرنها بالأمل فى التغلب عليها، إذ يقول. «وما

(١) الروضتين ٢ : ١٠٢ .

تجدد للعدو من الشروع فى آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين : الواصلة ، والبعيدة ، وافتراق العساكر فى هذا الوقت للضرورة ، والتماس العسكر الشرقى الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الإنفاق إلى مالا يسعه التدبير ، ويضيق عنه الإمكان . . . وضياع فرصة ، واختلاف رأى ، بين المتشاورين من الجماعة ، وجود الألسنة بالآراء وبخل الأيدى بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس فى الراحة ، وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ، ليكون لهم عذراً فى العقود ، وكتمه المولى على نفسه ، لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الأجر . ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى ، وعروة عزمه أوثق العرى ، لما أهله لأن ينصر ملة لا يعرف المملوك غير الله ينصرها ، وغير مولانا يباشر النصرة ويحضرها . . . ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ، ثم يغلقها . . . ثم معاذ الله أن نغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر . . . فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، «فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم ، وأنتم الأعلون ، والله معكم» . وهذا على دين ما غلب بكثرة ، ولا نصر بثروة ، إنما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوى قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف ، لذلك السلف ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، واشتدى أزمة تنفرجى ، والغمرات تذهب ، ولا تجى ، والله تعالى يسمع الأذن ما يسر القلب ، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكرب [1] . . . » ومن كتاب آخر يقول . « . . . ليس لنا إلا الاستعانة بالله ، فما دلنا الله فى الشدائد إلا على الدعاء له ، على طروق باب كرمه ، وعلى التضرع إليه ، «فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم» ونعوذ بالله من القسوة ، ومن القنوط من الرحمة ، ومن اليأس من الفرج ، فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرشد ، مطرود عن الله ، مقطوع الحظ منه ، ولا حيلة إلا بترك العجز ، قيل للمهلب : أيسرك ظفر ليس فيه تعب ، فقال : أكره عادة العجز . . . ومما يستحسن من وصايا الفرس . إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز ، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة ،

---

(١) المرجع السابق نفسه .

والعياذ بالله ، فلا تجزع . . . وإذا نظر الله إلى قلب مولانا لم يجد فيه ثقة بغيره : ولا تعويلا على قوة إلا على قوته ، فهنالك الفرج ميعاده ، واللطف ميقاته ، فلا يقنط من روح الله ، ولا يقل متى نصر الله ، وليصبر ، فإنما خلق للصبر ، بل ليشكر ، فالشكر فى موضع الصبر أعلى درجات الشكر (١) . . . »

وقام الشعر كذلك بتشجيع صلاح الدين ، وهو على عكا ، فأرسل إليه حكيم الزمان قصيدة مطولة (٢) . وجرى الأدب عن ألسنة بعض أبطال الحروب الصليبية ، يستمدون من معانيه القوة ، ويستلهمون معانى الفداء كما سنرى .

وبعد فهل صور الأدب تصويراً واضحاً قويا نفوس المستنجدين ، وعواطف الحاثين المحرضين . وهل استطاع أن ينقل إلينا ماكان يجده المسلمون يومئذ : من آلام ، وغيظ مكبوت ، وأن يجعلنا نحس بما كانوا يحسون به يومئذ : من انفعال ثائر عنيف ، إن الحق ليدفعنى إلى أن أقر أن بعض أدب هذين اللونين قد اخطأه التوفيق ، فلم يستطع أن يعبر عما كان يجده القائل فى هذا المقام ، ولم يوفق إلى تعبير يبرز المعنى ويبينه ، فى قصيدة الهروى نجد التوفيق قد خانه فى الشطر الثانى من البيت الأول ، لأن مزجهم الدماء بالدموع لا يخليهم من الذم ، ولا يبرئهم من التقصير ، وإنما الذى يخليهم من الذم هو جهادهم العدو بكل ما أوتوا من قوة ، وبذلهم كل مافى طوقهم من أسباب الدفاع ومقاومة الأعداء ، أما أن تمتزج الدماء بالدموع السائلة فلادلالة فيه على جهاد ، ولابذل مجهود . كما خانه التوفيق عندما عبر عن الأحداث التى جرت بالشام ، والتى يشيب من هولها الولدان ، بأنها هفوات ، يعجب كيف تنام عليها العين ملء جفونها ، وفى وصف الرسول بأنه مستعجن بطيبة ضعف ظاهر . ولكن النص إلى جانب ذلك لمس ، كما قلنا ، الوتر الحساس من نفوس المسلمين حين دعاهم إلى الذياد عن المحارم ، غيرة عليهن ، وحين لمس طبائع الناس ، ورغبتهم الكامنة فى نفوسهم ، والتى تدفعهم إلى جلب المغانم ، والسعى وراء الغنائم . وكان النص الثانى أكثر توفيقاً من صاحبه فى اختيار عبارته ، وصنع صوره ، ووفور دلالته على ما كان يجده قائله ، إذ صور الدين باكياً منتحباً ، وصور ما أصاب المسلمين ، حين تحدث عن سبى المسلمات

(١) المرجع السابق ص ١٦٩ .
(٢) القصيدة كلها فى عيون الأنباء ٢ : ١٥٧ .

فى كل ثغر ، وقد واتته العبارة ، ونجح فى تصوير صور تثير الانفعال : من نصب الصلب على المحاريب ، واتخاذ دم الخنزير المحرم لدى المسلمين خلوقا لمساجدهم ، وحرق المصاحف طيباً لها ، مكان تطيبها بذكى الأعواد .

ودلت عبارة الأبيات التى كتبها الكامل إلى أخيه الأشرف على المعنى الذى قصد إليه الكاتب فى قرب وسلامة ووضوح ، ولم تلجأ إلى الخيال تستعين به على تصوير الحال ، بل وجدت فى الحقيقة ما يثير الانفعال ، ويهيج الوجدان ، ودلت فى جلاء على ما كان فى نفس مرسلها : من لهفة بالغة على أن تصل الرسالة فى سرعة خاطفة ، إلى الاشرف أخيه ، فاختياره ألفاظ النهوض ، والحث ، والإرقال ، والإيجاف ، والتجشم ، والتعسف ، وطى المنازل ، يشير فى وضوح إلى هذه اللهفة على الإسراع ، كما دل هذا التعبير على ما يشعر به من خطر بالغ إذا تأخر المدعو عن إنجاده .

وكان أدب الحث والتحريض فى جملته مؤثراً ، فهذا طلائع بن رزيك قد اختار تعبيراً واضح الدلالة ، على ما عنى به من تصوير ما أعده لقتال العدو : من جيش ضخم ، ومال جم ، وإن ضعف أسلوبه فى قوله : مذ قط ، والشعر الذى حث صلاح الدين على فتح القدس قريب الدلالة ، سليم فى تعبيره عن معناه ، قريب واضح .

٣ - تمجيد البطولة

ومضى أدب هذه الحقبة من الزمن يمجد الأبطال الذين خاضوا غمار هذه الحروب، وأبلوا فيها بلاء حسناً، فسجلوا فى الأدب أسماءهم، وأحاطهم الأدب بهالة من التقديس والإعجاب، وخلدهم فى صورة حبيبة إلى النفس، قريبة إلى القلب، يزينها الإيمان، ويجملها اليقين، وصورهم يحيط بهم شعب مطيع لهم، محب، معجب بهم. وترك لنا الشعر كثيراً من صور هؤلاء الأبطال، فصورهم لنا عماد الدين زنكى أول أعاظم أبطال الحروب الصليبية، حين قال أحمد بن منير .

فى ذرا ملك هو الدهر عطاء واستلابا
من له كف تبذ الغيث سحا وانسكابا
ترجف الدنيا إذا حرك للسير الركابا
وتخر المشمخرات اختلالا واضطرابا
وترى الأعداء من هيبته تأوى الشعابا
يا عماد الدين، لا زال على الدين سحابا
جاعلا من دونه سيفك إن ريع حجابا
فالبس النعماء فى الأمن الذى طبت وطابا
واصف عيشاً، إن أعداءك قد صاروا ترابا (١)

والشاعر يصفه ملكا عظيم السطوة، يعطى ويمنع، جواداً، ذا جيش لجب، يخافه الأعداء، ويحمى الدين، ويرعاه. وحين قال فيه :

فدتك الملوك وأيامها ... ودام لنقضك إبرامها
وزلت لعيشك أقدامها ... وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم إليك القلو ... ب هواها لما صح إسلامها
أيا محيى العدل لما نعا ... ه أيامى البرايا وأيتامها

(١) الروضتين ١ : ٤٥ .

ومستنقذ الدين من أمة أزال المحاريب أصنامها
دلفت لها تقتفيك الأسـود ، والبيض ، والسمر آجامها[1]

وفى هذه الأبيات يمجد فيه صفة العدل الذى نسيه الناس زماناً طويلا ، ويتغنى بوقوفه للفرنج ، واستنقاذه بلاد الإسلام من أيديهم ، وتكوينه جيشاً من أبطال صناديد .

وقال أبو المجد المسلم الحموى :

بعزمك أيها الملك العظيم تذل لك الصعاب وتستقيم
أيلتمس الفرنج لديك عفواً وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا بيوم فيه يكتهل الفطيم[2]

وهو هنا يصوره ماضى العزم ، قوى الإرادة ، لا يألو جهداً فى تحطيم الفرنج ، والعمل على سحق قواهم ، ومنازلتهم فى معارك قاسية ، يشيب لها الوليد .

ولنور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، وهو أحد كبار أبطال الحروب الصليبية — صور مشرقة ، تغنى فيها الشعراء بمجده ، وأشادوا ببطولته ، وحفظوا للأجيال تذكاراً من سامى صفاته ، ونبيل خلاله ، وظفر نور الدين بكثير من مدائح الشعراء ، فممن مدحه ابن منير بقوله :

فداك من صـام ، ومن أفطرا ومن سعى سعيك ، أو قصـرا
وما الورى أهلا ، فتفدى بهـم وهل يوازى عرض جوهـرا
عدل تساوى تحت أكنافه مطافل[3] العين[4] ، وأسد الشرى
يا نـور دين الله ، كم حادث دجا ، وأسـفرت له فانشرى
وكم حمى للشرك لا يهتدى الوهـم له غادرته جـزرا
يا ملك العصر الذى صـدره أفسح من أقطارها مصـدرا
لله أصل ، أنت فـرع له ما أطيب المجنى ! وما أطهرا !
لا عدم الإسلام من كفه كهف لمن أرهـق أو أحصرا
كأنما ساحتـه جنـة أجرت بها راحتـه كوثرا

---

(١) الروضتين ١ ص ٣٥ . (٢) المرجع السابق ص ٣٢ . (٣) مطافل جمع مطفل ، وهى ذات الطفل ، من الوحش (٤) العين : بقر الوحش .

تصـرم الشهر الذى كنت فى ... أوقاته من قدره أشهـرا
جهاد ليـل فى نهار غـزا ... إذ كنت فيه الأصبر الأشكرا (١)

والشاعر هنا يصوره إنساناً ممتازاً، ومن الإنسان الممتاز يستمد الشعب حياته وقوته، ويجد فيه العدل الذى يأمن فى ظله الضعيف والقوى، والإقدام على تحطيم قوى الشرك وإباحة حماه، قد سما فوق ملوك عصره، ورحب صدره، فلا يملكه غيظ ولا غضب، قد انتمى إلى أصل زاك، كان هو أطيب ثمره وأطهره، ثم هو ملك جواد، يلجأ إليه الفقير والمضطر، فيجد فيه الأمن والحماية، ويقضى شهر رمضان بين اعتكاف فى الليل، وغزو فى النهار. ويقول فيه ابن القيسرانى :

لك المسـاعى الغر، يا جامعا ... من طرفيهـا بين أضـدادها
يغشى الوغى أفرس فرسـانها ... وفى التقى أزهـد زهادها
فأنت، نسكا، غيث أبدالهـا ... وأنت، فتكا، ليث آسادهـا
فى أمة أنت حمى دينهـا ... حيناً، وحيناً شمس عبادهـا
يطوى بك العمـر إلى غاية ... حسبك تقوى الله من زادهـا

والشاعر يصفه فارساً مغواراً فى ميدان القتال، وتقياً زاهداً، يعبد الله ويتقيه، كما يعبده ويتقيه أزهد الزهاد، وأتقى الأتقياء. ويصفه بعض الشعراء بقوله :

أظنـوا أن نار الحرب تخبـو ... ونور الدين فى يده الزنـاد
وجند كالصقور على صقور ... إذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخفوا مكيدتهم أخافوا ... وإن أبدوا عداوتهم أبادوا (٣)

ويصفه آخر بقوله :

يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة ... وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفـة ... فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منهـا بقاصمة ... أودى بها الصلب، وانحطت بها الصلب
غضبت للدين، حتى لم يفتك رضا ... وكان دين الهدى مرضاته الغضب

---

(١) الروضتين ١ : ٥٧ .
(٢) الروضتين ١ : ٨٣ .
(٣) المرجع السابق ص ٥٦ .

طهرت أرض الأعادى من دمائهم ... طهارة كل سيف عنـــدها جنب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا ... من الملوك فنـــور الدين محتسب
ذو غرة ماسمت ، والليل معتكر ، ... إلا تمزق عن شمس الضحا الحجب
كنا نعد حصى أطرافنا ظفـــرا ... فملكتك الظبا ما ليس نحتسب
عمت فتوحك بالعـــدوى معاقلها ... كأن تسليم هـــذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق ... كما التوى بعـــد رأس الحية الذنب
فانهض إلى المسجد الأقصى بذى لجب ... يوليك أقصى المنى ، فالقدس مرتقب
وائذن لموجك فى تطهير ساحله ... فإنما أنت بحـــر لجه لجب (١)

والشعر هنا يصفه قائداً قديراً ، على رأس جيش قوى مدرب ، وحاكما يسهر على أمن رعيته وخيرها ، بينما هذه الرعية تعيش فى أمن ودعة ، لايعكر صفو حياتها خوف ولاظلم ، ثابت الجنان لا يضطرب أمام صعاب الحياة ، مقداما على حرب الفرنج ، يصيبهم بقاصمة الظهور ، وينالهم بفتك وتدمير،يبلغ أمرهما أذن روما ، فيجب قلبها ، وتمتلىء خوفاً ورهبة ، وذلك كله غضباً لدين الله ، وتلمساً لمرضاته ، واحتسابا فى سبيله ، لا طمعاً فى غنيمة ، ولا رغبة فى كسب مال ، وهو حاكم مجاهد ، كانت كل آمال المسلمين قبله أن يحافظوا على ماتحت أيديهم : من أرض وقف الفرنج عند حدودها ، أما هو فقد كسب بسيفه بلاداً ، ماكان أحد يؤمل فى اكتسابها ، ولذا يضع الإسلام أمله فيه أن يطهر المسجد الأقصى ، وأن يرده إلى أيدى المسلمين .

ويقول فيه بعضهم :

فسر ، واملأ الدنيا ضياء وبهجـــة ... فبالأفق الداجى إلى ذا السنا فقر
كأنى بهذا العزم ، لا فل حـــده ... وأقصاه بالأقصى ، وقد قضى الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهراً ... وليس سوى جارى الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحـــداد فروضها ... فلا عهدة فى عنق سيف ولا نذر (٢)

وهو فى هذا الشعر كسابقه مناط أمل المسلمين ومحط رجائهم فى استرداد بيت المقدس .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٩ .
(٢) الروضتين ١ : ٧٣ .

ويقول أيضاً :

يهب التلاد من البلاد وما حوت ... إن السماحة للبحار بحار
يقظان ، يخشى الله فى خلواته ... لا مترف لاه ، ولا جبار
نصب المراقب للعواقب ناظرا ... فيها ، كذلك ترأب الأبرار
صاف إذا كدر المعادن ، عادل ... إن حاف حكام الملوك وجاروا(١)

والشعر هنا يصفه كريماً سمحاً يقظاً ، يتدبر عواقب الأمور ، ليتبين مواقع الصواب ، حتى يقدم إذا أقدم عن بينة ، وهو يفكر فى هذه العواقب بذهن صاف ، يسبغ على رعيته عدلا ، لا يخشون معه حيفاً ولا جوراً . ويقول أيضاً :

يأيها الملك المنادى جوده ... فى سائر الآفاق : هل من معسر
ولأنت أكرم من أناس نوهوا باسم ابن أوس، واستخصوا البحترى(٢)

فهو إلى جوده يغدق على الشعراء ويرعاهم ، ويقول أيضاً :

لقد أشعرت دين الله عزا ... تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره ، والناس فوضى ... قوى منك فى الجلى أمين
وكم عبر الصليب بهم صليبا ... فردته قناك ، وفيه لين
وما خطرت بدار الشرك إلا ... هوى الناقوس ، وارتفع الأذين(٣)

وهو فى هذا الشعر بطل من أبطال الجهاد فى سبيل إعزاز دين الله . ومن أجمع القصائد التى رست صورة نور الدين هذه التى أنشأها فيه العماد الكاتب ، وهى :

أدركت من أمر الزمان المشتهى ... وبلغت من نيل الأمانى المنتهى
وبقيت فى كنف السلامة آمنا ... متكرماً بالطبع لا متكرها
لا زلت نور الدين فى فلك الهدى ... ذا غرة للعالمين بها إلها
يا محيي العدل الذى فى ظلمه ... من عدله رعت الأسود مع المها
محمود المحمود من أيامه ... لبهائها ضحك الزمان وقهقها

(١) المرجع السابق ص ٧٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٧٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٨٢ .

مولى الورى ، مولى الندى، معلى الهدى … مردى العدا، مسدى الجدا ، معطى اللهى
آراؤه بصـــوابها مقرونة … وبمقتضاها دائر فلك النهى
متلبس بحصافة وحصـانة … متقدس عن ثوب مكر أودهـا
يامن أطاع الله فى خـ ـلواته … متأوباً من خوفه متأوها
يامن تقدم فى المعاش لوجهه … عملا يبيض فى المعاد الأوجها
كل الأمور وهى ، وأمرك مبرم … مستحكم لانقض فيه ولا وها
ماصين عنك الصين لو حاولتها … والمشرقان ، فكيف منبج والرها
ما للملوك لدى ظهورك رونق … وإذا بدت شمس الضحا خفى السها
إن الملوك لهـوا وإنك من غدا … وبماله والملك منـ ـه مالها
شرهت نفوسهم إلى دنيـاهم … وأبى لنفسك زهدها أن تشرهـا
ما نمت عن خير ، ولم يك نائمـاً … من لا يزال على الجميـل منبهـا
أخملت ذكر الجاهلين ، ولم تزل … ملكا بذكر العالمين منـوها
ورأيت إرعاء الرعايا واجـبا … تغنى فقيراً ، أو تجير مدلها
لرضاهم متحفظاً ، ولحالهـم … متفقداً ، ولدينهـم متفقها
وبما به أمر الإله أمرتهـم … من طاعة ، ونهيتهم عمـا نهى
عن رحمـة لصغيرهم لم تشتغل … عن رأفة لكبيرهم لن تشـدها
باليأس عنـدك آمل لم يمتحن … بالرد دونك سائل لن يجبهـا
أتعبت نفسك ، كى تنال رفاهة … من ليس يتعب لا يعيش مرفها
فقت الملوك سماحة وحمـاسة … حتى عدمنا فيهم لك مشبهـا
ولك الفخار على الجميع فدونهـم … أصبحت عن كل العيـوب منزها
وأراك تحلم ، حين تصبح ساخطا … ويكاد غيرك ساخطاً أن يسفها (١)

وهذه القصيدة قد لمست معظم ما لنور الدين من سمات ، جعلته محبباً إلى رعيته ، مطاعا لدى جيشه ، عظيما فى أعين المسلمين . وأول هذه الصفات التى أشاد بها العماد صفة العدل ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٠

الذى عاش الجميع فى ظله فى أمن ودعة ، ضعافاً وأقوياء ، ثم مضى يعدد باقى هـذه الصفات من جمال ساد أيامه ، وإن هذا الجمال مصدره الأمل المشرق فى الانتصار على العدو واستتباب الأمن ، وسيادة العدل والقانون ، وإن كان العماد قد أخطأه التوفيق فى التعبير ، فجعل الزمان يضحك ويقهقه ، ومن تلك الصفات السامية سيادة نور الدين لبنى عصره ، وجود يده ، وقدرته على الانتصار على عدوه ، وصواب آرائه ، وحصافته ، وصراحته ، وبعده عن أساليب المكر والدهاء ، وتقوى الله فى سره وعلانيته ، ومراقبته ، حتى لا يبدر منه ما يسود له الوجه يوم القيامة ، ويثنى على ما ناله من ظفر لا يبعد عليه شىء أراده ، وعلى جده فى الأمور ، وزهده فى الحياة الدنيا ، وسهره على خير رعيته وصوالحهم ، ومد يد العون إليهم ، وتفقد أحوالهم ، وتتبع مواضع رضاهم ، وأخذهم بآداب الدين ، والرحمة بصغيرهم ، والشفقة على كبيرهم ، وبالكرم الذى ينجح أمل الآمل ، ويجبر فؤاد السائل ، ويشتد إعجاب العماد بنور الدين حتى لينزهه عن كل عيب ، ويرفعه عن كل نقيصة ، ويختم قصيدته بالإشادة بحلمه الذى قال عنه بعض مؤرخيه : إنه لم يسمع منه كلمة فحش فى رضاه ، ولا فى ضجره (١).

هكذا مجد الشعراء هذا البطل ، الذى صرف معظم جهوده لإضعاف الصليبيين ، وتقليم أظافرهم ، واسترداد ما استطاع استرداده مما اغتصبوه من البلاد . ورسموا صفاته كذلك نثراً. قال الحافظ أبو القاسم بن عساكر : « جمع الله له من العقل المتين ، والرأى الثاقب الرصين ، والاقتداء بسيرة السلف الماضين ، والتشبه بالعلماء والصالحين ، والاقتفاء لسيرة من سلف منهم ، فى حسن سمتهم ، والاتباع لهم فى حفظ حالهم ووقتهم ، حتى روى حديث المصطفى صلى الله عليه وأسمعه ، وكان قد استجيز له من سمعه وجمعه ، حرصاً منه على الخير فى نشر السنة بالأداء والتحديث ، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء فى الحديث ، فمن رآه شاهد من خلال السلطنة وهيبة الملك ما يبهره ، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيره ، يحب الصالحين ، ويواخيهم ، ويزور مساكنهم ، لحسن ظنه فيهم . . . ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته أمره بالكف عن أذى من تظلم بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل قابله بإسقاط المنزلة والعزل ، فلما جمع الله له من شريف الخصال ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٥١ .

تيسر له جميع ما يقصده من الأعمال ، وسهل على يديه فتح الحصون والقلاع ، ومكن له فى البلدان والبقاع »(١) .

ولعل أعظم بطل فى الحروب الصليبية ظفر بتقدير الشعراء وإعجابهم ، فأحاطوا به ، ينظمون أسباب مجده ، ويشيدون بوقائعه وجهاده ، ويسجلون كل ماقام به من حركات مباركة فى سبيل مجد الإسلام ، هو صلاح الدين ، فقد تضافر على رسم بطولته عدد كبير من شعراء عصره ، عرفت منهم زهاء خمسين شاعراً (٢) . منهم المصرى ، والشامى ، والعراقى ، يقدمون إليه مادحين حيث هو .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢٩ .

(٢) هذه أسماء بعض هؤلاء الشعراء ومراجع مدحهم لصلاح الدين ، وهم :

أسامة بن منقذ . راجع الروضتين ١ : ١٥٦و١٧٧و٢٣٧، والاعتبار لأسامة ص١٦٤، ومعجم الأدباء ٥ : ٢٠٧ .

العماد الكاتب . راجع الروضتين ١ : ١٤٦ و١٧٦و١٧٩ و١٨٠و٢٤٥و٢٤٧و٢٥٢و ٢٥٧و٢٦٩و٢ : ٨٣و٨٨و١٠١و١٠٢ : ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٢ وخطط المقريزى ٣ :٢٩ .

فتيان الشاغورى . راجع الروضتين ١ : ١٨٢و٢ : ٨٤و١١٨و١٣٢ .

ابن الذروى : وجيه الدين على بن الحسن بن الذروى — شاعر مصرى ، راجع الروضتين ١ : ١٥٦و٢٠٩و٢ : ٨٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ . وحسن المحاضرة ١ : ٢٧٠

ابن قلاقس . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ .

الحكيم أبو الفضل الجليانى . راجع الروضتين ٢ : ١٠٣و١١٥ و١١٦ و١١٧ و١٥١ ، وعيون الأنباء ٢ : ١٥٧ وفوات الوفيات ٢ : ١٦ .

حسان العرقلة . راجع الروضتين ١ : ١٠٠ و١٠٧ و١٤٢ و١٥٥ و١٥٧ و١٧٧ ، وخريدة القصر ١ : ٢٦ و ٣٧ .

المهذب بن أسعد بن الدهان الموصلى نزيل حمص . راجع الروضتين ١ : ٢٤٠و٢ : ١٦ و٢٩ ، ووفيات الأعيان ١ : ٢٥٦ .

علم الدين الشاتانى . الحسن بن سعيد . راجع وفيات الأعيان ١ : ١٤٠ ، والروضتين ١ : ٢٧١ .

محمود بن الحسن بن نبهان العراقى . راجع الروضتين ٢ : ١٢ .

الرشيد بن بدر النابلسى . راجع الروضتين ٢ : ١١٨و٢٠٨و٢٢١ .

ابن زكى الدين : محمد بن على . راجع وفيات الأعيان ١ : ٤٦٨ والروضتين ٢ : ٤٦و١٠٨

سبط ابن التعاويذى . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٢٣ وديوانه ص١٨و٢٢و١٠٨و٤٢٠ =

ابن الساعاتى . راجع الروضتين ٢ : ٨٤و١٠٦و١٠٧و٢٩٤ وديوانه ١ : ٦١و٦٢و٩٣ و٦٦و٦٧و٦٨و٧٠و٧١و٧٣و٧٤و٧٥و٧٦و٧٧و٢ : ٢٨٥ و٤٦٠ .

موفق الدين الإربلى . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٢٢ ، والنجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ .

عمارة اليمنى . راجع الروضتين ١ : ١٦٣و١٦٤و١٨٣و١٩٣ ، ومختار ديوان عمارة ص ١٩٢! و٢٦٩و٢٩٩و٤٠٧و٤٠٨ .

محمد بن إسماعيل الخيرانى . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ والنجوم الزاهرة ٦ :٥٩ .

وحيش الأسدى : أبو الوحش سبع بن خلف . راجع الروضتين ١ : ٢٣٧ وخريدة القصر ١ : ٤١ .

ابن سعدان الحلبي : راجع الروضتين ١ : ٢٥و٢٥٦و٢٧٤و٢ : ٢٦و٣٩و٤٤ .

سعيد الحلبي . راجع الروضتين ٢ : ٢٩

سعادة الأعمى : سعيد بن عبدالله : راجع الروضتين ١ : ٢٥٣و٢ : ١٢ ، وخريدة القصر ١ : ٧٨ ، ونكت الهميان ص ١٥٨ .

البهاء السنجارى : أسعد بن يحيي بن موسى . راجع الروضتين ١ : ٢٥٣ .

الأسعد بن مماتى . راجع الروضتين ١ : ٢٧٠ .

ابن جبير . راجع الروضتين ٢: ١٠٥ .

نشو الدولة أحمد الدمشقى . راجع الروضتين ٢ : ١١و٢٠٩ والخريدة ١ :٥٩ والكامل لابن الأثير ١١ : ٢٠٧ .

محمد بن سلطان بن الخطاب . راجع الروضتين ٢ : ١٦ .

ابن سناء الملك . راجع الروضتين ٢ : ٤٣ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ ، والنجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ ، وديوانه ص ٣و٧٦و٨٣و١٠١و١١١ و١٣٤ .

أبو الفضل بن حميد . راجع الروضتين ٢ : ٤٤ .

يوسف البراعى . راجع الروضتين ٢ : ٤٥ .

سعيد بن محمد الحريرى . راجع الروضتين ٢ : ٤٥ .

أبوطى النجار . راجع الروضتين ٢ : ٤٥ .

القاضى الفاضل . راجع الروضتين ٢ : ١٢١ .

يوسف بن الحسين بن المجاور . راجع الروضتين ٢ : ١٠٣و٢٩٤ .

الحسن بن على الجوينى . راجع الروضتين ٢ : ٩ و١٠٤ . =

محمد بن أسعد بن على الجوانى نقيب الأشراف بمصر . راجع الروضتين ٢ : ١٠٥ .
الحسين بن عبد الله بن رواحة . راجع معجم الأدباء ١٠ : ٤٦ ، والروضتين ١ : ٢٧٠ .
على بن المبارك بن الزاهدة . راجع معجم الأدباء ١٤ : ١١٠ .
محمد بن هبة الله البرمكى . راجع طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٤ : ١٩٥ .
على بن أحمد بن الزبير . راجع خريدة القصر ٢ : ٦١ .
محمد بن محمد بن الفراش : راجع خريدة القصر ١ : ٥٣ .
أبو طالب بن الخشاب . عقيل بن يحي . راجع خريدة القصر ١ : ٧٢ .
عمر بن محمد بن الشحنة . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٩٨ و ٤٠٤ ، والروضتين ٢ : ٦١ .
أحمد بن على بن زنبور . راجع بغية الوعاة ص ١٤٨ .
على بن مفرج : ابن المنجم . راجع النجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ ووفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥
أبو الفضل بن حميد الحلبى . راجع الروضتين ٢ : ٤٤ .
علم الدين السخاوى . راجع حسن المحاضرة ٢ : ٢٧ .
رشيد الدين الفارق . راجع حسن المحاضرة ٢ : ٢٧ .
ابن ذهن الموصلى . راجع وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٥ .
تقى الدين عمر بن شاهنشاه . راجع تاريخ الواصلين ص ٢٧ .

ومن ذلك يبدو أن الشعر الذى أنشئ لتمجيد بطولة صلاح الدين مراجعه هى :

١ — كتاب الروضتين ١ : ١٠٠ و ١٠٧ و ١٤٢ و ١٤٦ و ١٥٥ و ١٥٦ و ١٥٧ و ١٥٨ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٩ و ١٨٠ و ١٨١ و ١٨٢ و ١٨٣ و ١٩٣ و ٢٠٩ و ٢٣٧ و ٢٤٠ و ٢٤٥ و ٢٤٧ و ٢٥٠ و ٢٥٢ و ٢٥٣ و ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٦٩ و ٢٧٠ و ٢٧١ و ٢٧٤ و ٢ : ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٦ و ٢٦ و ٢٩ و ٣٩ و ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ و ٦١ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٤ و ٨٨ و ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و ١١٨ و ١٢١ و ١٣٢ و ١٥١ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢٢١ .

٢ — ديوان ابن الساعاتى : ١ : ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ و ٧١ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ و ٢ : ٣٨٥ و ٤٠٦

٣ — ديوان ابن سناء الملك . ص ٣ و ٧٦ و ٨٣ و ١٠١ و ١١١ و ١٣٤ .

٤ — خريدة القصر ١ : ٢٦ و ٣٧ و ٤١ و ٥٣ و ٥٩ و ٧٢ و ٧٥ و ٧٨ و ٢ : ٦١ .

٥ — ديوان سبط ابن التعاويذى ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨ و ٤٢٠ .

٦ — مختار ديوان عمارة ص ١٩٢ و ٢٦٩ و ٢٩٩ و ٤٠٧ و ٤٠٨ .

٧ — معجم الأدباء ٥ : ٢٠٧ و ١٠ : ٤٦ و ١٤ : ١١٠ و ١٩ : ٢٢ .

مقيم فى إحدى المدن [١] ، أو وهو مخيم فى ميدان القتال [٢] ، أو يرسلون إليه بقصائدهم من غير أن ينتقلوا [٣] إليه ، حيث يتولى عرضها عليه أحد المقربين منه ، وبقى لنا مما مدح به من شعر الشعراء زهاء ألفى بيت ، وليس ذلك كل ما مدح به ، ولكن فقد من ذلك قدر كبير ، نتبينه إذا علمنا أن ابن الساعاتى ، قد مدح صلاح الدين بقصائد طويله كثيرة ، ولم يبق من معظمها سوى غزلها ، والبيت الذى تخلص فيه من الغزل إلى المدح [٤]. وأن القصيدة الطويلة قد يبقى منها بيت أو بيتان [٥]، وهذه قصيدة طويلة نسبها ابن خلكان [٦] إلى ابن الشحنة الموصلى ، وذكر أن عدة أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً ، ومع ذلك لم يبق لنا من هذه القصيدة سوى مطلعها ، وهو :

سلام مشوق قد براه التشوق ... على جيرة الحى الذين تفرقوا

وسوى بيتين كانا سائرين وقت إنشائهما ، وهما :

وإنى امرؤ أحببتكم لمكارم ... سمعت بها ، والأذن كالعين تعشق

وقالت لى الآمال : إن كنت لاحقا ... بأبناء أيوب فأنت الموفق

وقد يكون للقصيدة حظ أفضل ، فيبقى خمسة وعشرون بيتاً ، من مائة واثنين وخمسين [٧].

= (٨) وفيات الأعيان ١ : ١٤٠ و ٢٥٦ و ٤٦٨ و ٢ : ٢٣ و ٩٨ و ٤٠٤ و ٤٠٥ .

(٩) الاعتبار لأسامة ص ١٦٤ .

(١٠) حسن المحاضرة ١ : ٢٧٠ و ٢ : ٢٧

(١١) خطط المقريزى ٣ : ٢٩ .

(١٢) طبقات الشافعية ٤ : ١٩٥ .

(١٣) عيون الأنباء ٢ : ١٥٧ .

(١٤) فوات الوفيات ٢ : ١٦ .

(١٥) النجوم الزاهرة ٦ : ٥٩ .

(١٦) نكت الهميان ص ١٥٨ .

(١٧) الكامل لابن الأثير ١١ : ٢٠٧ .

(١٨) بغية الوعاة ص ١٤٨ .

(١٩) تاريخ الواصلين ص ١٧ و ٢٧ و ٦٦ .

(١) راجع الروضتين ١ : ٢٥٢ ٢٥٣ .

(٢) راجع الروضتين ٢ : ١٦ .

(٣) راجع الروضتين ٢ : ٩ و ١٠٢ و ٣ ١ و ١٠٤ وديوان سبط ابن التعاويذى ص ١٨ و ٢٢ و ١٠٨ و ٤٢٠ ووفيات الأعيان ٢ : ٤٠٣ .

(٤) راجع ديوان ابن الساعاتى ١ : ٦١ و ٦٢ و ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ و ٦٨ و ٧٠ و ٧١ و ٧٣ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧ .

(٥) راجع معجم الأدباء ١٤ : ١١٠ .

(٦) راجع وفيات الأعيان ٢ : ٤٠٤ .

(٧) راجع الروضتين ٢ : ١١٧ .

والتاريخ يذكر أن شعراء مدحوه من غير أن يروى من مدحهم شيئاً .

وما بقى لنا من شعر المعجبين ببطولته والمشيدين بمجده يصوره لنا عادلا . قال فيه سبط ابن الجوزى :

الملك العادل الذى كشف الله به هم كل مكروب

وقال عمارة .

يا شبيه الصديق : عدلا ، وحسنا وسميا ، حكاه معنى ومغنى

كريماً قال فيه العماد .

ولما صبت مصر إلى عصر يوسف أعاد إليها الله يوسف والعصرا
فأجرى بها من راحتيه بجوده بحاراً ، فسماها الورى أنملا عشراً

وقال مرة أخرى :

وقيل لنا : فى الأرض سبعة أبحر ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا

وقال سبط ابن الجوزى :

قسما لقد فضل ابن أيوب الحيا بسماح كف بالنضار هتون
مخلوقة من سؤدد وندى ، وقد خلق الأنام سلالة من طين
يامن إذا نزل الوفود ببابه نزلوا بجم من نداه معين

وقال عبيد الله بن أسعد بن الدهان :

يبدى فتى لو أن جود يمينه للغيث لم يك ممسكا عن موضع
فاذا تبسم قال : ياجود اندفق فيضاً ، ويا سحب الندى ، لا تقلعى

وعلل عمارة هذا الكرم بقوله .

ملك تقلد سلك الملك منتظما وقال للمال : هذا منك لى بدل
ففرق المال ، جمعاً للقلوب به وحسبه فيهم إدراك ما سألوا
إن الملوك الذين امتد أمرهم لم يخزنوا المال ، بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة : فالأجناد لو علموا بخل المليك ، وجاءت شدة ، خذلوا

شجاعا قال فيه أسامة .

يعطى الألوف ، ويلتقيها باسما طلق المحيا فى القنا المتشاجر

يقود جيشاً ضخما ، قد اختار أفراده من شجعان الجند الذين يخوضون غمار المعارك ، يستمدون من قوة قلبه قوة لهم ، قال فيه سعادة الضرير :

وقدت إلى الأعداء جيشا عرمرما | إذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
فلم تبق للطغيان شملا مجمعا | ولم تبق للإيمان شملا مبددا
فناهيك من جيش نهضت بعبئه | فأقعدت لما أن نهضت به العدا
حملت ذبالا فى ذوابل سمره | فلما دجا ليل العجاج توقدا
وزرت به الحصن الذى لو تحصنت | فوارسه بالنجم أوردته الردى
وفض بما قد فضه من سهامه | نواجذ ثغر الحنفرى ، وقددا

وقال مهذب الدين الموصلى .

ملأت بلادهم سهلا وحزنا | أسودا تحت غابات الرماح

وقال العماد :

جنودك أملاك السماء ، وظنهم | عداتك جن الأرض فى الفتك ، لا الإنسا

وقال سبط ابن التعاويذى :

تحمل آجام القنا فى الوغى | له أسود الغابة السود
عتاده للرعب عسالة | سمر ، وأبطال مذاويد
ومحكمات النسج موضونة [1] | قدرها فى السرد داود [2]
ومرهفات الحد مطرورة [3] | وضمر [4] أقرابها [5] قود [6]

وهو بهذا الجيش العرمرم يهين الفرنج ، ويذلهم ، ويحطم قواهم ، ويخضد شوكتهم ، قال ابن الساعاتى :

جلت عزماتك الفتح المبينا | فقد قرت عيون المؤمنينا
وهان بك الصليب ، وكان قدما | يعز على العوالى أن يهونا

وقال أسامة بن منقذ :

الناصر الملك الموفى بذمته | ومن ندى كفه يغنى عن الديم
ومن إذا جرد البيض الصوارم فى الهـ | يجاء أغمدها فى البيض والقمم
ورد طاغية الإفرنج يحسب ما | رجاه من ملك مصر كان فى الحلم
ولى ، وراحته صفر ، وقد ملئت | بعد الطاعة ، من يأس ، ومن ندم

---

(١) الموضونة . الدرع المقاربة النسج.
(٢) السرد : نسج الدرع .
(٣) الطر : تحديد السكين .
(٤) فرس ضامر : مهضوم البطن .
(٥) الأقراب : الخاصرة .
(٦) قود : طويلة العنق .

يصعدون عـــلى ما فاتهم نفساً لو صافح البحر أضحى البحر كالحمم
وفى السلامة ، لولا جهلهم ، ظفر لمن أراد نزال الأسد فى الأجم
وهم أسود الشرى ، لكن أذلهم ملك لديه الأسود الغلب كالغنم

وقال أبو الحسن بن الذروى :

ولكم أشمت الروم أشأم بارق أضحت مياه نفوسها من قطرها
وافاك بحر دروعها عن مـــده ومضى ، وقد حكمت ظباك بجزره
ولقيت مريا (١) ، وطعم حياته حلو ، فبدله القتال بمره

وقال العماد :

بنو الأصفر الإفرنج لاقوا ببيضه وسمر عواليه مناياهم حمرا
وما ابيض يوم النصر واخضر روضه من الخصب حتى اسود بالنقع واغبرا

وقال ابن الساعاتى :

أدرت على الفرنج ، وقد تلاقت جموعهم عليك رحى طحونا
لقد جاءتهم الأحداث جمعاً كأن صروفها كانت كمينا
وخانهم الزمان ، ولا مـلام فلست بمبغض زمنا خئونا
لقد أتعبت من طلب المعالى وحاول أن يسوس المسلمينا
وإن تك آخرا ، وخلاك ذم فإن محمداً فى الآخرين

وبجهاده استطاع أن يحافظ على مصر زعيمة بلاد الإسلام وحافظة مجده :

ولو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى بساط الهدى من ساحة البر والبحر

واستطاع أن ينصر الدين الحنيف غاضبا له ، قال سعادة الضرير :

نصرت الهدى ، لما تخاذل حزبه فناداك حزب الله : ياناصر الهدى
غضبت لدين أنت حقا صلاحه فأرضيت ، لما أن غضبت ، محمداً

وصح أن يدعى لذلك والد الدين ، يحنو على بنيه ، ويرحمهم ، قال نجم الدين بن المجاور :

مولى غدا للدين أكرم والد حدب على أبنائه ، مترفرف

وقد وصل صلاح الدين إلى قمة البطولة ، ونظر إليه منقذاً للإسلام ، ومحيياً لمجده القديم ، بعد فتحه لبيت المقدس ، قال أبو الفضل عبد المنعم الجليانى :

---

(١) الملك Amary أحد ملوك بيت المقدس .

أبا المظفر أنت المجتبى لهدى — أخرى الزمان على خبر بخيرته
أما رأيت معالى يوسف نسقت — حتى رمت كل ذى ملك بحسرته
أضحى لنشر الهدى فى فتح منهجه — وبات يطوى العدى فى سد ثغرته
واستقبح الرجس ممنوا بمشهده — فاستفتح القدس محشوا بزمرته
لكن بأس صلاح الدين أذهلهم — بوقعة التل واستشراء سورته
يعيي الجوارح والفرسان ، وهو على — بدء النشاط عشياً مثل بكرته
يافاتح المسجد الأقصى على بهم — وقانص الجيش لا يحصى بقفزته
أبشر بملك كظهر الشمس ، مطلع — على البسيطة ، فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة — تحكى النبوة فى أيام فترته

وقال نجم الدين بن المجاور :

أحييت دين محمد ، وأقمته — وسترته ، من بعد طول تكشف
خذ الخراج من البسيطة كلها — واستأد فرضى جزية وموظف
واقبض على الدنيا بكف زهادة — وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود الله تطلب ثأرها — وصدورها عما قليل تشتفى
فانهض بها ، وتقاض حقك موقنا — أن الإله بما تؤمله حفى
أنت اصطفيتهم لنصرة ديننا — لله در المصطفى والمصطفى

وقال أيضا :

ومن أحق بملك الأرض من ملك — كأنه ملك فى الخلق حنان

وقال ابن جبير :

فتحت المقدس من أرضه — فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسه المرتضى — فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى — وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذى الفتو — ح من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعد فاروقه — بها لاصطناعك فى الآخر

وصفه الشعر محباً للجهاد ، مؤثراً لحياته الخشنة ، على الترف والدعة ، مرابطاً لحرب الكفار ، مثابراً ، لا يكل ولا ينى . قال ابن جبير :

ثأرت لدين الهدى فى العدا ... فـآثرك الله من ثائر
وقمت بنصر إله الورى ... فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهداً صابراً ... فلله أجـرك من صابر
تبيت الملوك على فرشهم ... وترفل فى الزرد السـابرى (١)
وتؤثر جاهـد عيش الجهاد ... علـى طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك فى حـق من ... سيرضيك فى جفنك السـاهر

وقال الرشيد بن النابلسي :

ما أبهج الدين والدنيا بما لكها الـ ... ـصديق : يوسف ، لالاذت به الغير
ملك تساوى جمادى فى الجهاد وتمـ ... ـوز (٢) لديه وضاهى ناجرا (٣) صفر
فليس يثنيه حر إن توقد عن ... رضا الإله ، ولا إن أغدق المطر
ولا ينهنهـه عمـا يكابده ... ضج ، أعيذ معاليه ، ولا ضجر
ولا يرى الروح إلا ظهر سلهبة (٤) ... فى بطن معركة مركوبها وعر
صبر جميل كطعم الشهـد فى فمه ... وعنـد كل مليك طعمه الصبر

لبي دعوة الإسلام بعد أن خام عنها ملوك المسلمين ، وتركوه نهباً مقسما ، قال الحسن الجوينى :

جنـد السماء لهـذا الملك أعوان ... من شك فيـه فهذا الفتح برهان
متى رأى الناس ما نحكيه فى زمن ... وقد مضت قبـل أزمان وأزمان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء . وما ... له سـوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده ... صيداً ، وما ضعفوا يوماً ، وماهانوا
كم من فحول ملوك غودروا ، وهم ... خوف الفرنجة ، ولدان ونسوان
استصرخت بملكشاه طرابلس ... نخام عنها ، وصمت منـه آذان
هذا ، وكم ملك من بعده نظر الإسـ ... ـلام يطوى ، ويحوى ، وهو سكران

---

(١) السابرى : درع دقيقة النسج فى إحكام .

(٢) أحد شهور الصيف : يولية . (٣) ناجر : كل شهر من شهور الصيف . وفى هذا الجزء ضعف إذ صفر ليس من شهور الشتاء . (٤) السلهبة : الفرس الطويلة .

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ، والإسـ ـــلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبي صلاح الدين دعوتهم بأمر من هو للمعوان معوان
للناصر ادخرت هذى الفتوح، وما سمت لها همم الأملاك مذ كانوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز، فقا ل الناس: داود هذا أم سليمان
لو أن ذا الفتح فى عصر النبى لقد تنزلت فيه آيات وقران
فالله يبقيك للإسلام تحرسه من أن يضام، ويلقى وهو حيران
يا جامعاً كلمة الإيمان، قامع من معبوده دون رب العرش صلبان
إذا طوى الله ديوان العباد فما يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وبلغ من شجاعته وإقدامه أن صار اسمه يبعث الرعب فى نفوس العدو، ويثير الخوف فيهم، ويدفعهم إلى الهزيمة، قال أبو الفضل الجليانى:

فكم مليك لهم شق البحار سرى لينصروا القبر، والأقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بفلا إلى الصوامع ألقاه ترحله
استصرخوا الأهل، والعدوى تمزقهم واستكثروا المال، والهيجا تنقله
كم قد أعدوا، وكم قد فل جمعهم من غير ضرب ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر فى جيش العدو، فيسبيهم تخيله

وقال الحسين بن عبد الله بن رواحة:

لقد خبر التجارب منه حزم وقلب دهره ظهراً لبطن
فساق إلى الفرنج الخيل برا وأدركهم على بحر بسفن
يرون خياله كالسيف يسرى فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه، فأمسى مناهم لو يبيتهم بأمن

زمنه جد لا هزل فيه، قال نجم الدين بن المجاور:

الجد فى هذا الزمان مبين والهزل فيه مع الغواية مختف

يتقى الله ويخشاه، قال العماد:

رأى النصر فى تقوى الإله، وكل من تقوى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة أغذ من الأولى مسيراً إلى الأخرى

متواضع ، لا يزهو بما قدم للإسلام من نصر له، ودفاع عنه، قال الشهاب فتيان الشاغوري:

لا يعد منك المسلمون فكم يد أوليتهم ، معروفها لم تنكر
آمنت سربهم ، وصنت حريمهم ودرأت عنهم قاصمات الأظهر
ما إن رآك الله إلا آمراً فيهم بمعروف ، ومنكر منكر
متواضعاً لله جل جلاله وبك اضمحلت سطوة المتكبر

يقاتل عن عقيدة ، لا رياء وسمعة ، قال ابن الساعاتى :

يقاتل كل ذي ملك رياء وأنت تقاتل الأعداء دينا

زاهد ، برغم سعة ملكه وعظمة سلطانه ، قال الحكيم أبو الفضل :

زهدت فيما سبي الأملاك منكدراً علماً بملك نعيم ما به كدر
وطبت نفسا عن الدنيا وزخرفها وجئت تقدم حيث الهول والخطر

عظيم القدرة ، قال ابن سناء الملك :

رقيت إلى أن لم تجد لك مرتقى وأقدمت ، حتى لم تجد متقدما
فما يبرم المقدار ما كنت ناقضاً وما ينقض المقدار ما كنت مبرما

عظيم الهمة بعيد الآمال قال ابن سناء الملك :

حتى أتى من منال النجم مطلبه ياطالب النجم، قد أوغلت فى الطلب

يقرن الرأى بالعزم ، قال أبو الفضل الجليانى:

لتظفرن بما لم يحوه ملك أبا المظفر، حظا خطه الأزل
دليل ذلك آراء لك اقترنت بالحزم والعزم، لم يخصص بها الأول

دائم اليقظة والتنبه ، فلا غرابة إذا ظفر بما لم يظفر به سواه ، قال ابن سناء الملك :

أراد ملوك الأرض سعدك، واشتهوا تعلمه ، والسعد لا يتعلم
ملكت أقاليم الملوك ، وإنما سهرت ، وأملاك الأقاليم نوم

ومما قيل فى تمجيد بطولته قول ابن الساعاتى ، وقد خرب حصنا قرب صفد :

بجدك أعطاف القنا تتعطف وطرف الأعادى دون مجدك يطرف
شهاب هدى فى ظلمة الشك ثاقب وسيف هدى فى طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض ، وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف

فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه ... رجال كآساد الشرى ، وهى ترجف[١]
وجرداء سلهوب[٢] ، ودرع مضاعف ... وأبيض هندى ، ولدن مثقف[٣]
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة ... إلى أن غدت أكبادها ، وهى ترجف
كبا من أعاليه صليب وبيعة ... وساد به دين حنيف ومصحف
أيسكن أوطان النبيين عصبة ... تمين لدى أيمانها ، وهى تحلف
نصحتكم ، والنصح فى الدين واجب ... ذروا بيت يعقوب[٤] ، فقدجاء يوسف[٥]

ويصفه كذلك بطلا حربيا فاتحا البيت المقدس فى قوله :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا ... فلقين طودا لا تخف أناته
هو منقذ البيت المقدس بعدما ... طالت ، فما وجد الشفاء ، شكاته
أمشتت الأعداء ، وهى جحافل ... عن شمل دين جمعت أشتاته
أوتيت عزما فى الحروب مسدداً ... لازيفه يخشى ، ولا هفواته
أحسنت بالبيت العتيق ويثرب ... ولك الفعال ، كثيرة حسناته
هذى سيوفك محرمات دونه ... لبكائهن تبسمت حجراته[٦]

وقول سبط ابن التعاويذى ، وله فيه قصائد مطولة ، منها قوله :

ملك ترفع عن ضريب قدره ... فإليه أكباد الرواحل تضرب
أردى له الأعداء جد غالب ... وحمى الممالك منه ليث أغلب
يرجى ، ويرهب بأسه ، والماجد المـ ... ـفضال من يرجى نداه ، ويرهب
ثبت إذا غشى الوغى ، والزاغبيـ ... ـة[٧] شرع ، والأعوجية[٨] شزب[٩]
مخضرة أكنافه لوفوده ... والعام محمر الذوائب أشهب
أرض بروض المكرمات أريضة ... وثرى بنوار الفضائل معشب
صب بتشديد المآثر متعب ... فيها ، ومن شاد المآثر يتعب
ملكت سجاياه القلوب محبة ... إن الكريم إلى القلوب محبب
كف تكف الحادثات ، وراحة ... ترتاح للجدوى ، وقلب قلب

---

(١) أى والأرض تزلزل : (٢) الجرداء السلهوب : الفرس السباقة الطويلة .
(٣) اللدن المثقف : الرمح .
(٤) يريد ببيت يعقوب : فلسطين ، وبيوسف : صلاح الدين . وفى الكلام تورية .
(٥) ديوان ابن الساعاتى ص ٤٠٩ . (٦) المرجع السابق ص ٤١٠ .
(٧) هكذا فى الأصل . (٨) أعوج : فرس لبنى هلال تنسب إليه الأعوجيات .
(٩) شزب : ضامرة .

وندى يهش إلى العفاة تكرما ومواهب بالطارقين ترحب
وصرامة كالنار شاب ضرامها خلق أرق من المدام وأطيب
تغريه بالعفو الجناة، كأنما الجانى إليه بذنبه يتقرب
فيرى لهم حقاً عليه، ولم يكن ليبين فضل العفو لولا المذنب
بك ياصلاح الدين يوسف أكثب الـ ـنائى، ورف المقشعر المجدب
ذللت أخلاق الزمان لأهله فأطاع، وهو الخالع المتصعب
ونهضت للإسلام نهضة صادق الـ ـعزمات، ترأب من ثأه[1] وتشعب
وغضبت للدين الحنيف، ولم تزل فى الله ترضى منذ كنت، وتغضب
غادرت أهل البغى بين مجدل لقى الحمام، وخائف يترقب
أو هارب ضاقت عليه برحبها الـ ـأرض الفضاء، وأين منك المهرب
فاصبح بلاد الروم منك بغارة للنصر فيها رائد لا يكذب
احسم بحد ظباك داء حسمه ودواؤه بعد التفاقم يصعب
فالعدل ليس بناجع، أو تنثنى وغرار نصلك بالنجيع مخضب
لا تعفون إذا ظفرت بمجرم منهم، فرب جريمة لا توهب
فلتشكرنك أمة تحنو على ضعفائها حدبا كما يحنو الأب[2]

ولم أعثر فى الأدب على شعر هجى به صلاح الدين، إلا ما قاله ابن عنين يهجوه بعاهة خلقية، هى العرج، قائلا:

سلطاننا أعرج، وكاتبه ذو عمش، والوزير منحدب[3]

وبعد فهذه كثير من النصوص التى تعرضت لصلاح الدين، ترسم سماته الخلقية. ولست أنكر ماقى بعض هذه النصوص من ضعف فى التعبير، وفقر فى التصوير، وبعد عن الهدف المقصود فى تمجيد صلاح الدين، وتقدير خلاله، حتى صار بعضها فارغ المعنى، بعيدا عن الصواب، فهذا عمارة اليمنى يشبه صلاح الدين بيوسف بن يعقوب فى العدل والحسن،

---

(١) الثأى الإفساد والجراح.

(٢) ديوان سبط ابن التعاويذى ص ٢٢.

(٣) ديوان ابن عنين ص ٢١٠.

وليس العدل من بين الصفات التى شهر بها يوسف ، ولكنه شهر بحسن تدبير المال ، حتى أنقذ مصر من سنيها المجدبة العجاف . وليس الحسن مما يمدح به أبطال الرجال . كما مدحه بأنه يشبهه فى الاسم ، وليس ذلك مما يوجب المدح والثناء ، ولا فى أنه أشبهه فى أنه مقيم بمصر.

ودفع الاسم الواحد لصلاح الدين ويوسف بن يعقوب — العماد إلى الخطأ فى زعمه أن مصر قد صبت إلى عصر يوسف ، فلم يكن عصره سوى عصر جدب وجوع ، ولم يرد الله إلى مصر عصر يوسف المجدب ، الذى كان كثير التقدير والتقتير ، لا عصراً فاض فيه الجود الذى سماه العماد بحاراً .

كما اخطأ عمارة التوفيق فى تقليده صلاح الدين سلك الملك ، وإنما يقلد الملك تاج الملك أو صولجانه .

وانحرفت الصناعة بالعماد ، ودفعته الرغبة فى جمع أكبر عدد من الألوان ، إلى الخطأ فى أن ينسب إلى يوم النصر روضا قد اخضر من الخصب ، حين قال :

وما ابيض يوم النصر ، واخضر روضه … من الخصب ، حتى اسود بالنقع واغبرا

اذ لا روض هناك ، فلا اخضرار لهذا الروض ، ولا خصب فيه .

وإذا استثنينا هذه الهنات وأمثالها ، رأينا الباقى لنا مما صور به بطولة صلاح الدين ، واضح التعبير ، سليما فى دلالته على معناه ، قريب المأخذ ، لا غموض فى فهمه ، ولا التواء فى دلالته ، ووجدنا الصور التى اختارها الشعراء واضحة بينة ، مما يدل على أن قائلى هذا الشعر كانوا يجدون فى أنفسهم إعجابا قويا بالبطل ، واستطاعوا أن يعبروا عن هذا الإعجاب بخير ما فى وسعهم من الشعر .

ولم يقف تمجيد البطولة فى عهد صلاح الدين عنده وحده ، بل مجد كثير من الأبطال من أبناء أسرته وغيرهم ، ممن خاضوا غمار الحروب ، ضد الفرنج ، وأكبر هؤلاء الأبطال تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، الذى ظفر بإعجاب عمه صلاح الدين ، فكان ينيبه عنه حاكما فى مصر. ولما بلغه نعيه بكى بكاء حاراً ، وأخفى خبر موته عن الجيش ، حتى لا يضعف ذلك من قواه المعنوية ، ولئلا يعلم العدو فيشتد أزره [1] . وممن مجد بطولته فى حرب الفرنج ابن الساعاتى ، إذ يقول فيه :

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٩١ .

لولا بسالتـــه لما ظمئت أسل الفرنج إلى دم بسل [١]
سل عنه إذ لف القناة غداة السـ ـعد منه بساعد عبـل
وأعاد يومهم كأمس ، وليث الغـ ـاب لا يغضى على ذحـل [٢]
أبق لق أسد اللـقاء ، فما أبقى وفلل حدة الفـل [٣]
حتى كأن ديارهم خلقـت مذ كن أطـلالا بلا أهل
كم طعنة لك فيصل حمـدت آثارها ، ومقالة فصـل
يثنى رباط الجيش منك ربيط الـ ـجأش ماضى العقد والحـل
يلـقى أعاديه مجـاهرة ويعيذ سطوته من الختـل
يخشى ، ويرجى ، سطوة ، وندى ويهاب فى جـد وفى هزل [٤]

والشاعر هنا يمجد فى تقى الدين بسالته فى القتال تلك البسالة التى أذاقت الفرنج أقسى ألوان القتال ، فتمنوا أمنيه محالة : أن يظفروا بدمه ، ويمضى الشاعر فى وصف بسالته فى القتال ومكانته فى الجيش ، وثقته بنفسه ، حتى ليجاهر أعداءه ، ولا يأخذهم على غرة . كما يسجل صفة الشخصية القوية التى تكسب صاحبها هيبة ووقاراً ، وكان تقى الدين كذلك كما يقول مؤرخوه . وممن أشاد ببطولة تقى الدين أيضاً العماد الكاتب [٥] .

ومنهم العادل أخو صلاح الدين ، مجد بطولته فى القتال كثير من الشعراء منهم ابن سناء الملك ، حين قال :

إن رام أمراً عظيما ساقه قـدر إليه ، أو جاءه يسعى على قـدر
ويا أعاديه ، لا يغرركم مهـل منه ، فإنـكم منه على غرر
ألم يذقـكم على رغم بواتره وكل درع عليكم قـد من دبر
يرمى الشجاع ، وإن أضحى وبينهما نقع يفرق بين الشخص والبصر
ويعشق الورد ، والأبطال صادرة والموت فى الورد ، والمنجاة فى الصدر
تقلد الدين سيفاً منه ، ما برحت سيوفه البيض حمرا من دم هدر

---

(١) الأسل : الرماح . والبسل : المحرم . أى أن دمه محرم على الفرنج ، فلا يستطيعون الوصول إليه .
(٢) الذحل : الثأر .
(٣) المعنى أنه جعل أسد اللقاء مطروحة ، وفلل حدة المنهزم .
(٤) ديوان ابن الساعاتى ٢ : ٢٠ .
(٥) راجع شعره فيه بالروضتين ٢ : ٧١ و ٢٧٤ .

لله موقف حرب كنت قائمه ... وقائم النصر فيه غير منتظر
صدمت فيه جموع الشرك فانفطروا ... إن الزجاجة لاتقوى على الحجر(١)

وممن ظفر فى أيام صلاح الدين بتقدير ضخم ، وتمجيد سام ، لبطولته فى حرب الفرنج قائد الأسطول المصرى يومئذ : حسام الدين لؤلؤ ، الذى أبلى بلاء حسنا فى حرب أساطيل الفرنج فى البحر الأبيض ، وكان له الفضل فى القضاء على الفرنج الذين مضوا فى البحر الأحمر ، يريدون قبر الرسول ، كما سبق أن ذكرنا ، قال فيه ابن الذروى أشعاراً منها :

ياحاجب المجد الذى ماله ... ليس عليه فى الندى حجبة
ومن دعوه لؤلؤا عندما ... صحت من البحر له نسبة
لله ما تعمل من صالح ... فيه ، وما تظهر من حسبة
كفيت أهل الحرمين العدا ... وذدت عن أحمد والكعبة(٢)

ومنها: قلت وقد سافرت ، يا من غدا ... جهاده يعضد من حجه
إذ قيل : سار الحاجب المرتجى ... فى البحر : يارب السماء نجه(٣)

ومنها: مر يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدى فيه السرور الجماد
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى ... قرنتهم فى طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال ... وعلوج كأنها أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدى : ... هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادى ... وسواه من اللآلى يصاد(٤)

والشاعر هنا يتخذ من اسمه : لؤلؤ أحد ينابيع مدحه ؛ ويسجل له هنا يده التى قدمها للمسلمين ، بدفاعه عن الحرمين ، وما فيهما : من الكعبة وقبر الرسول ، وإن فى دعاء الشاعر للقائد، وقد أزمع السفر للجهاد بقوله : يارب السما نجه، ترجماناً صادقا لما كان يدور فى نفوس المسلمين يومئذ : من تقدير للقائد ، وإشفاق عليه ، وحب له ، ورغبة قوية فى سلامته .

هذا وقد تلقى لواء الجهاد بعد صلاح الدين والملك العادل أولادهما ، فالتف الشعراء حولهم ، يمجدون بطولتهم فى هذه الحروب ، وكان من أكثر أولئك حظاً العزيز بن صلاح الدين

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٤١ .

(٢) و (٣) و (٤) الروضتين ٢ : ٣٦ .

فالكامل ، والمعظم والأشرف أبناء العادل ، وبخاصة بعد أن انتصر هؤلاء على الصليبيين فى معركة دمياط ، فما مجد به الملك العزيز قول ابن سناء الملك :

لله عزمته التى لا ترتقى حتى يكون لها المجرة موردا
ولقد أقام الدين ، بعد قعوده عزم أقام الدهر منه ، وأقعدا
ضرب الرقاب ، وسيفه فى غمده بأساً ، فكيف تظنه لو جردا
أرضيت ربك فى حراسة دينه وسررت عيسى إذ نصرت محمداً(١)

وهذه نظرة جديدة فى هذه الحروب فهى ترضى عيسى لأنها انتصار لمحمد . وهو يثنى على العزيز بأنه ينتصر على عدوه بالرعب ، وكان فى العزيز كثير من صفات أبيه ، فلا غرو كانت له فى نفوس الأعداء هذه المهابة التى تبعث فى صدورهم الخوف والرعب ، وقد صرح ابن سناء الملك بهذا المعنى فى قوله :

وما سمعنا قط فتحا جرى ما فيه ، لا بل ما عليه غبار
يا ملكا يهزم أعداءه بالرعب ، هذا وأبيك الفخار(٢)

ولما جاءت دولة المماليك بعد الدولة الأيوبية نهض بعض سلاطينها بعبء قتال الفرنج ، واسترداد البلاد من أيديهم ، وقد التف الشعراء حول ثلاثة من سلاطين هذه الدولة ، فمجدوا بطولتهم ، وأشادوا بمجدهم ، وسجلوا خطواتهم فى الحرب ، مقترنة بالإكبار والتعظيم والإعجاب ، فمما أثنى به على جهود بيبرس فى حرب الفرنج قول جمال الدين بن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاء فافخر فإن محلك الجوزاء
ملك تزينت الممالك باسمه وتجملت بمديحه الفصحاء
كم للفرنج وللتتار ببابه رسل مناها العفو والإعفاء
وطريقه لبلادهم موطوءة وطريقهم لبلاده عذراء
دامت له الدنيا ودام مخلداً ما أقبل الإصباح والإمساء(٣)

وهو هنا يشير إلى التجاء الخلافة العباسية إلى مصر وإقامة بيبرس خليفة عباسيا ، من

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٤١ . (٢) المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣) خطط المقريزى ج ٤ ص ٢١٧ .

بين الأمراء الذين أفلتوا من ذبح التتار ، كما يشير إلى جهود بيبرس فى حرب التتار . ومما جاء فى وصف جيش الملك الظاهر بيبرس قول أبى محمد الواسطى :

فعلى الأفق للغمام مـلاء   طرزتها البروق بالإيمـاض
وكأن الرعود إرزام نوق   فصلت دونها بنات المخاض (١)
أو صهيل الجيـاد للملك الظا   هر تسرى بالجحفل النهـاض (٢)

ومما قيل فى المنصور قلاوون ، وكان يدعى بالألفى :

تهب الألوف ، ولا تهاب لها   ألفا إذا لاقيت فى الصف
ألف وألف فى ندى ووغى   فلأجل ذا سموك بالألفى (٣)

ويمجده شهاب الدين محمود لما فتح حصن المرقب سنة ٦٧٨ هـ ، وهو من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة ، وكان كبيراً جداً لم يفتحه صلاح الدين فيما فتح ، فلما استولى عليه قلاوون مضى الشعراء يمجدونه ، وأنشئوا فى ذلك قصائد كثيرة ، منها قول الشهاب محمود :

الله أكبر ، هذا النصر والظفر   هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذى كانت الآمال إن طمحت   إلى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض ، وسر ، واملك الدنيا ، فقد نحلت   شوقا منا برها وارتاحت السرر
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك   فطال عنـه ، وما فى باعه قصر
وكيف تمنحه الأيام مملـكة   كانت لدولتك الغـراء تدخر
وكيف يسمو إليها من تأخر عن   إسعاده منجداك : القدر والقدر
غر العدا منك حلم تحته همم   لأشقر البرق من تحجيلها غرر
لها وإن أشبهت لطف النسيم سرى   معنى العواصف لا تبقى ولا تذر (٤)

وأ كبر ما سجله الشاعر هنا لقلاوون حلمه ، وعظم همته .

وظفر ابنه الأشرف خليل بتقدير سام للشعراء ، ومضوا يصورونه في صورة محببة إلى النفوس ، ولا غرابة فعلى يديه تم إلقاء الفرنج فى البحر ، واستولى على آخر ما بقى فى أيديهم من البلاد ، وهو ثغر عكا فمما قيل فيه :

---

(١) أرزم الرعد : اشتد صوته ، والفصل : فطم المولود وبنات المخاض : ما دخلت فى السنة الثانية . والمخاض من النوق : الحامل .   (٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٢٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٣ .   (٤) النجوم الزاهرة ٧ : ٣١٧

لك الراية الصفراء ، يقدمها النصر ... فمن كيقباذ ، إن رآهـا ، وكيخسرو
إذا خفقت فى الأرض هدت بنودها ... هوى الشرك،واستعلى الهدى ، وانجلى الثغر
وإن نشرت مثل الأصائل فى وغى ... جلا النقع من لألاء طلعتها البدر
وإن يممت زرق العدا سار تحتها ... كتائب خضر ، تحتها البيض والسمر
كأن مثار النقع ليـل ، وخفقها ... بروق ، وأنت البدر ، والفلك البحر
لهـا كل يوم أين سار لواؤهـا ... هدية تأييـد يقدمها الدهـر
وفتح بدا فى إثر فتـح ، كأنما ... سماء ، بدت تترى كواكبها الزهر
فإن رمت حصناً سابقتك كتائب ... من الرعب ، أو جيش تقدمه النصر
فنى كل قطر للعدا وحصـونهم ... من الخوف أسياف تجرد أو حضر
فلا حصن إلا وهو حصن لأهله ... ولا خشب إلا لأروحهم قبر (١)

ومما قيل فى الأشرف خليل أيضاً، مما نظر فيه إلى بعض خصاله الأخرى قول بعضهم فيه :

يـداك يا عادل يا منصـف ... أرجى من الغيث الذى يوصـف
أغـن عباد الله عن نيلهـم ... فجـودك البحـر الذى يغرف
أطاعك النـاس اختياراً ، وما ... أذلهـم رمح ولا مرهف
كم ملكت مصر ملوك وكم ... جادوا ، وما حادوا ، ولا أسرفوا
حتى أتى المنصـور أنسى الورى ... بفعـله سائر ما أسـلفوا
ما قـدموا مثل تقـاه ، ولا ... مثـل الذى خلفه خلفـوا
فيـه على الأملاك فخر بما ... نلت ، فأنت الملك الأشرف (٢)

هكذا مجد الأدب العربى أبطال الحروب الصليبية ، ولم يقف ثناؤه عند كبار أبطالهم الذين تحدثنا عنهم فى هذا الفصل ، بل مجد كثيراً ممن مدوا أيديهم لاستنقاذ البلاد المغتصبة ، أو دافعوا عن بلادهم ضد الفرنج ، وإن لم يهيأ لهم من النجاح ما هيىء لهؤلاء الأبطال ، وهذا يدل على مقدار ما كان يتجاوب فى نفوس المسلمين يومئذ : من رغبة ملحة فى استرداد ما فقده الإسلام من بلاد ، ومن أمل فى أن يجدوا البطل الموفق ، الذى يحقق لهم هـذا الحلم المأمول . يدلنا على هذه اللهفة قول بعضهم لإيلغازى بعد أن هزم الفرنج سنة ٥١٣ هـ ، فى معركة دارت بأرض حلب ، بينه وبين الفرنج :

---

(١) فوات الوفيات ١ : ١٥٥ . (٢) نهاية الأرب ٢٩ : ٥٠ .

قل ما تشاء ، فقولك المقبـــول   وعليك بعد الخـــالق التعويل
واستبشر القرآن ، حين نصرتـــه   وبكى لفقد رجاله الإنجيل [١]

وتأمل قوله : وعليك بعد الخالق التعويل ، ففيها اللهفة والأمل معاً .

وتجد كثيراً من الشعر فى تمجيد تاج الملوك بورى ، وحفيده مجير الدين ، ومعين الدين أنر ، الذين دافعوا عن دمشق دفاعاً مجيداً [٢] . ولما كان الصالح طلائع بن رزيك أكبر من تحمس من المصريين للحروب الصليبية فى عهد الفاطميين ، التف حوله كثير من الشعراء ، فأشادوا بهذه الخلة من بين خلاله ، ومجـــدوا أفعاله ، وسجلوا غزواته ، مقرونة بالتشجيع والإعجاب [٣] .

كان لهذه الحروب أثرها فى تمجيد أبطالها ، وفى إبراز سمة الشجاعة والإقدام من بين صفاتهم ، حتى صار الحديث عن الشجاعة والتفنن فى وصفها عنصراً أساسياً من عناصر المدح ، ولم يقتصر المدح بها على من خاضوا غمار الحروب الصليبية وحدهم ، بل وصف بها الشعراء معظم ممدوحيهم ، مما يدل على ما تبوأته هذه الصفة من بين باقى الصفات الإنسانية من مكانة وتقدير ، فى ذلك العصر .

وبعد فإلى أى مدى استطاع الشعر العربى أن يرسم سمات أبطال هـذه الحروب ؟ وأن يميز بين بطل وآخر ، بلمح الفروق الدقيقة بينهما ، حتى يمتاز فى تصورنا أحدهما عن صاحبه ؟ ويبدو على ما يظهر لى — أن تشابه هؤلاء الأبطال فى أهدافهم جعل شعراءنا يخلعون على كل ما يعرفونه : من صفات مثالية ، فهم جميعاً شجعان ، أتقياء ، كرماء ، زينـة العصر ، وجمال الدنيا ، ولولا سمات خارجية مستمدة من التاريخ ، كاختصاص بعض المعارك ببعض الملوك ، وكذكر أسماء بعض الأبطال لاستطعت أن تنقل شعرا قيل فى نور الدين مثلا ، وتزعم أنه قيل فى صلاح الدين مثلا ، فلم يستطع الشعراء برغم كثرة أشعارهم أن يتركوا لنا صورة متبينة المعالم ، واضحة القسمات ، لكل بطل من هؤلاء الأبطال ، وربما كان لتقاليد شعر المدح فى الأدب العربى دخل فى ذلك . ولو أن شعراءنا عرفوا الشعر القصصى ، أو التمثيلى ، لاستطاعوا أن يميزوا بين بطل وبطل ، وأن يرسموا صورة كل واضحة بينة .

---

(١) المختصر ٢ : ٢٣١ . (٢) راجع الروضتين ١ : ٥٤ ، وديوان أسامة بن منقذ ١ : ٢٠٥ .

(٣) راجع الخريدة ١ : ٢٨ و٣٨ و٥٦ و ٥٧ و ٢ : ٢١١ ، وديوان أسامة ص ٢٣١ و٢٤٤و٢٤٥ ، ونكت عمارة ص ١٧٦ ، والروضتين ١ : ٩٧و١٢٥ .

٤ — تسجيل المعارك الكبرى

سجل الأدب فى ذلك العصر ما دار من معارك انتصر فيها المسلمون على الفرنج ، وأشاد بمن شاركوا فى هذه المعارك وكان لهم يد فى الظفر والانتصار ، وتغنى بمجد الإسلام ، واستبشر بتحقيق الآمال ، وإنقاذ البلاد . ولعل أكبر المعارك التى نالت أكبر قدر من أدب ذلك العصر هى معارك الرها ، وحطين ، وبيت المقدس ، ودمياط ، وعكا .

أما معركة الرها فكان بطلها عماد الدين زنكى ، وسقطت فى يده فى جمادى الثانية سنة ٥٣٩ هـ ، من يد صاحبها جوسلين الثانى Jocelin 11 بطل الفرنج وشيطانهم ، وبالاستيلاء عليها استطاع أن يبيد إمارة من إمارات الفرنج . وهى العين المطلة على الجزيرة بالعراق ، وهيأ امتلاكها للفرنج أن يخضعوا ما حولها من الأقاليم . ولقد فكر زنكى عند ما سقطت المدينة فى يده أن ينزل عقوبة مخيفة بالصليبيين فى المدينة ، انتقاماً لمذابح بيت المقدس ، ولكن إنسانيته غلبت غضبه ، فلم يقتل عدا المحاربين أحداً ، ولم يأسر رجلا ولا امرأة ولا طفلا ، ولم يستول على ممتلكات أحد [١].

وترجع أهمية الرها إلى مكانها الجغرافى ، وإلى أن سقوطها استتبع سقوط ما يخضع لها من مدن وقرى ، وإلى أنها أول مدينة كبيرة ذات أهمية تسقط فى يد المسلمين ، فأثار سقوطها فى نفوسهم الآمال فى استعادة ما فقدوه ، والثقة بأنفسهم وقدرتهم على طرد العدو من ديارهم ، فلا جرم أثار سقوطها فى نفوس الشعراء أعظم الآثار ، فأقبلوا يتغنون بهذا النصر المبين . فمن تغنى بهذا النصر القيسرانى إذ قال :

هو السيف لا يغنيك إلا جلاده   وهل طوق الأملاك إلا نجاده
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا   سناها وإن فات العيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله   ولم يك يسمو الدين لولا عماده

وهو فى هذه الأبيات يشيد بالقوة التى ذللت هذا الفتح ، ومهدت إليه السبيل ، ثم يذكر أثر هذا الفتح فى رفع شأن الإسلام وإعلاء مجده ، ثم يقول :

---

(١) Hist. of the Saracens P. 339.

ليهن بنى الإيمـان أمن ترفعت رواسيه عزا ، واطمـأن مهاده
وفتح حديث فى السماع ، حديثه شهى إلى يوم المعاد مغـاده
مدينة إفك منذ خمسين حجة يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الأبصار ، حتى لوانها ترقت إليها خان طرفا سواده
وجامحة عز المـلوك قيادها إلى أن ثناها من يعز قيـاده
فأضرمها نارين : حربا ، وخدعة فما راع إلا سورها وانهداده
فيا ظفرا عم البلاد صـلاحه بما كان قد عم البـلاد فساده
فـلا مطلق إلا وشد وثاقه ولا موثق إلا وحـل صفاده
ولا منبر إلا ترنح عـوده ولا مصحف إلا أنار مداده

أشاد الشاعر أول ما أشاد بما نتج من هذا الفتح : من أمن سابغ ، لهؤلاء الذين كانوا يعيشون خائفين مضطربين إلى جوار إمارة الرها ، فقد كان الفرنج يباكرونهم بالغارات ويغادونهم . أما اليوم فقد زال هذا الخوف إلى غير رجعة ، فقد توطدت دعائم الأمن ، واستقرت أركان السلام، فلا غرو كان لهذا الفتح قيمته، التى تكبر فى العيون، كلما تجدد ذكراه، ثم مضى يتحدث عما كانت تتصف به المدينة من حصانة ومناعة ، ردت آمال الملوك دونها حسرى، حتى جاء هذا البطل ، فأضرم نارين : نار الحرب، ونار الخدعة ، والشعر يسجل أن زنكى استعمل مع الحرب الحيلة والخداع، وإن لم يحدثنا التاريخ عن ألوان هذا الخداع . وبعد كل مرحلة يعود الشاعر إلى التغنى بالنصر فى نغمة جديدة ، ثم يهدد الشاعر الفرنج بهزائم متتالية على يد هذا البطل المظفر ، ويرى عهده فجرا جديداً طوى الظلمة الدامسة التى غمرت البلاد حقبة من الزمان ، فيقول :

إلى أين يا أسرى الضـلالة بعدها لقـد ذل غاويكم ، وعز رشاده
رويدكم، لا مانع من مظفـفر يعاند أسباب القضـاء عناده
مصيب سهام الرأى ، لو أن عزمه رمى سد ذى القرنين أصمى سداده
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها إن البـلاد بلاده
كذا عن طريق الصبح فليلته الدجى فيا طالما غال الظلام امتـداده

ومن كان أملاك السموات جنده ... فأية أرض لم ترضها جياده [١]

أما ابن منير فقد اتجه إلى تمجيد بطل المعركة فى أسلوب قوى ، إذ قال :

صفات مجدك لفظ جل معناه ... فلا استرد الذى أعطاكه الله
يا صارماً بيمين الله قائمه ... وفى أعالى أعادى الله حداه
أصبحت دون ملوك الأرض منفرداً ... بلا شبيه ، إذ الأملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته ... جهلا ، وقصر عن مسعاك مسعاه
قل للأعادى : ألا موتوا به كمدا ... فالله خيبكم ، والله أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته ... تقى ، وتسهر للمعروف عيناه
أين الخلائف عن فتح أتيح له ... مظال أفق الدنيا جناحاه
فتح أعاد على الإسلام بهجته ... فافتر مبسمه ، واهتز عطفاه
يهذى بمعتصم بالله فتكته ... حديثها نسخ الماضى ، وأنساه
إن الرها غير عمورية ، وكذا ... من رامها ، ليس مغزاه كمغزاه
أخت الكواكب عزا ، ما بغا أحد ... من الملوك لها وقما [٢] ، فواتاه
حتى دلفت لها بالعز يشحذه ... رأى يبيت فويق النجم مسراه
مشمراً ، وبنو الإسلام فى شغل ... عن بده غرس ، لهم أثمار عقباه
أبقاك للدين والدنيا تحوطهما ... من لم يتوجك هذا التاج إلا هو [٣]

ولم يقف ابن منير عند حد الإشادة ببطل المعركة الذى يراه جديراً بإمارة المؤمنين ، وأنه أولى بهذا اللقب من الجالس على عرش بغداد . ولم لا ؟ والجالس على عرش بغداد مقيد، لا سلطان له ولا نفوذ ، ولم يقم بأول واجب عليه، من الدفاع عن دين، هو أمير أصحابه. قال ابن منير :

لو جرى الإنصاف فى أوصافه ... كان أولاها أمير المؤمنين [٤]

والواقع أن عماد الدين زنكى كان أول بطل كبير للحروب الصليبية ، شق الطريق أمام

---

(١) الروضتين ١ : ٣٧ .
(٢) وقمه : أذله وأخضعه .
(٣) الروضتين ١ : ٣٩.
(٤) الروضتين ١ : ٣٩ .

خلفه ، وأوضح لهم النهج المستقيم . لم يقف ابن منير عند هذا الحد ، بل مضى فى قصائد أخرى [1] . يحدثنا عن أثر هذه المعركة فى المسلمين والفرنج ، مهدداً الفرنج بما سيلقونه على يده من شر المصير .

أما معركة حطين فكانت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكان بطلها صلاح الدين، وهى أعظم معركة حدثت بين المسلمين والفرنج ، منذ قدم الفرنج إلى بلاد الشام ، اجتمع منهم عدد ضخم ، قدره بعضهم بخمسة وأربعين ألفاً، وزاده بعضهم إلى ثلاثة وستين ألفاً ، بين فارس وراجل ، لم ينج منهم فى رواية بعض المؤرخين سوى ألف ، ومضى باقيهم بين القتل والأسر . أما عسكر الإسلام فكان يبلغ اثنى عشر ألف مقاتل . ومضى الأدب يمجد هذه المعركة ، ويتغنى بهذا النصر المؤزر . فمما كتب إلى بغداد فى وصف هذه الوقعة كتاب من عبد الله بن أحمد المقدسى ، يقول فيه: « ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ، ماوفينا بعشر معشار نعمته التى أنعم بها علينا ، من هذا الفتح العظيم ، فإنا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين ، وتلاحق الأجناد حتى جاء الناس من الموصل ، وديار بكر ، وإربل ، فجمع صلاح الدين الأمراء ، وقال : هذا اليوم الذى كنت أنتظره ، وقد جمع الله لنا العساكر ، وأنا رجل قد كبرت ، ولا أدرى متى أجلى ، فاغتنموا هذا اليوم ، وقاتلوا الله تعالى لا من أجلى . فاختلفوا فى الجواب ، وكان رأى أكثرهم لقاء الكفار ، فعرض جنده ورتبهم ، وجعل تقى الدين فى الميمنة، ومظفر الدين فى الميسرة ، وكان هو فى القلب ، وجعل بقية العسكر فى الجناحين ، ثم ساروا على مراتبهم، حتى نزلوا الأقحوانة ، فتركوا بها أثقالهم، وساروا حتى نزلوا بكفر سبت ، فأقاموا يومين، ينتظرون أن يبرز لهم الكفار ، وكان عسكر الكفار على صفورية ، فلم يبرزوا ، فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية ، فتقدم فرسانه وحماته ورماته والنقابون ، فدخلوا تحت الحصن ، فلما تمكن النقب منه انهال من غير وقود نار ، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس ، وأصبحوا يوم الجمعة ، فشرعوا فى نقب القلعة ، فلما كان وقت الصلاة جاء الخبر أن الكفار قد توجهوا إلينا ؛ فارتحل صلاح الدين على صفوفه ، فلقيهم ، ثم لم يزالوا يتقدمون حتى صار المسلمون محيطين بهم ، وصار قلب المسلمين خلفهم ، فتراموا ساعة ، وبات كل

---

(٢) ارجع إلى هذه القصائد فى الروضتين ١ : ٣٩ و٤٠ .

فريق على مصافهم ، ثم أصبحوا ، فسار الكفار يقصدون طبرية ، والمسلمون حولهم ، يلحون عليهم بالرمى ، فاقتلع المسلمون منهم فوارس ، وقتلوا خيالة ورجالة، فانحاز المشركون إلى تل حطين ، فنزلوا عنده ، ونصبوا الخيام ، وأقام الناس حولهم ، إلى أن انتصف النهار ، وهبت الرياح ، فهجم المسلمون عليهم ، فانهزموا، لا يلوون على شيء ، ولم يفلت منهم إلا نحو من مائتين، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً ، وقيل ثلاثة وعشرين ألفاً، لم يتركوا فى بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلا . . . (١) » . عنى هـذا الكتاب ، بأسلوبه الطبيعى ، الذى لم يقصد فيه صاحبه زخرفة ولا زينة ، بوصف المعركة كما دارت ، متتبعاً مراحلها وخطواتها ، واقفاً عند حد هذا الوصف، الذى نستطيع أن نتبين فيـــه مدى ما تملك الفرنج من خوف واضطراب ، عند ما رأوا هذا الجحفل الضخم من جحافل الإسلام ، وسبقت إليهم أنباء انتصارات صلاح الدين ، فتجنبوا الاشتباك بالمسلمين ، ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فلما وجدوا أنه لا سبيل إلى تجنب القتال لجئوا إلى الفرار ، فعملت فيهم سيوف المسلمين ، ومضوا بين أسير وقتيل .

ويتحدث كتاب آخر عن أسرى الفرنج وما غنم منهم ، فيقول : « . . بلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير. واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والأموال والغنائم، بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك ، وما سلم من معسكر الفرنج سوى قمص طرابلس ، مع أربعة نفر ، وهو مجروح ثلاث جراحات ، وأخذ جميع أمراء الفرنج ، وكم قد سبى من النساء والأطفال ، يباع الرجل وزوجته وأولاده فى المناداة بيعة واحدة ، ولقد بيع بحضورى رجل وامرأته وخمسة أولاد ، ثلاث بنين ، وابنتان ، بثمانين ديناراً ، وأخذ صليب الصلبوت (٢) فعلق ... منكساً ، ودخل به القاضى ابن أبى عصرون إلى دمشق . . . وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال ما لم يجيء من يشتريها من كثرة السبى والغنائم (٣) .

أما القاضى الفاضل فكان غائباً بدمشق ، فلما بلغه نبأ النصر كتب إلى صلاح الدين : ليهن المولى أن الله قد أقام به الدين القيم ، وأنه كما قيل : أصبحت مولاى ومولى كل مسلم ، وأنه قد أسبغ عليه النعمتين : الباطنة والظاهرة ، وأورثه الملكين: ملك الدنيا وملك الآخرة ، كتب المملوك هذه الخدمة ، والرءوس إلى الآن لم ترفع من سجودها ، والدموع لم تمسح من خدودها ، وكلما فكر الخادم أن البيع تعود وهى مساجد ، والمكان الذى كان يقال فيه : إن الله ثالث ثلاثة ، يقال اليوم فيه : إنه الواحد — جدد لله شكراً ، تارة يفيض من لسانه ،

---

(١) الروضتين ٢ : ٨٢

(٢) يعتقدون أن صليب الصلبوت من الخشبة التى صلب عليها المسيح.

(٣) الروضتين ٢: ٨٢ .

وتارة يفيض من جفنه .. تلك المكارم لا قعبان من لبن، وذلك الفتح لا عمان واليمن، وذلك السيف لا سيف ابن ذى يزن . .»[١]. وهذا الكتاب جدير أن يكون وصفاً لحال المسلمين، عند ما بلغتهم أنباء هذا النصر المبين، فقد طغى الفرح على مشاعرهم، حتى فاضت له عيونهم غبطة وشكراً.

ولم يقصر الشعر عن مجاراة النثر، فى الحديث بفخر، عن هذه المعركة الموفقة، فقال ابن الذروى قصيدة، منها يصف ما أصاب الفرنج : من إنهاك أودى بقوتهم، إذ قال :

أسرت ملوك الكفر حتى تركته ... وما فيه عرق عن قوى النفس ينبض[٢]

وقال العماد يخاطب صلاح الدين :

حططت على حطين قدر ملوكهم ... ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
غداة أسود الحرب معتقلو القنا ... أساود تبغى من نحور العدا نهسا
أتوا شكس الأخلاق، خشنا، فلينت ... حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا
بواقعة رجت بها الأرض جيشهم ... دمارا، كما بست جبالهم بسـا
بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ... ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا
وطارت على نار المواضى فراشهم ... صلاء، فزادت من خمودهم قبسا
وقد خشعت أصوات أبطالها، فما ... يعى السمع إلا من صليل الظبى همسا
سبايا، بلاد الله مملوءة بهـا ... وقد شريت بخسا، وقد عرضت نخسا
يطاف بها الأسواق، لا راغب لها ... لكثرتها، كم كثرة توجب الوكسا[٣]

وعندما فاضت أنباء هذا النصر :

لم يخل سمع من هناء مهنىء ... للمسلمين، ومن سماع مبشـر[٤]

كما قال الشهاب فتيان الشاغورى من قصيدة طويلة .

ولم ينتظر صلاح الدين حتى يستفيق الفرنج من كسرتهم، بل مضى يتبع فلولهم المنهزمة، ويفتح بلاد الفرنج، حتى إذا فتح الأماكن المحيطة بالقدس، واجتمعت إليه العساكر التى كانت متفرقة فى الساحل، مضى إلى القدس ففتحه، وكان لهذا الفتح رنة فرح كبيرة فى صدر العالم الإسلامى كله، وظفرت هذه المعركة الخالدة بنصيب موفور من الأدب شعره ونثره، لم تظفر به معركة منذ شبت الحروب الصليبية، إلى أن وضعت هذه الحروب أوزارها. فأعد كبار الخطباء خطبا يلقونها على منبر المسجد الأقصى، ومضت رسائل البشرى تحمل

(١) الروضتين ٢ : ٨٢ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) الروضتين ٢ : ٨٣ .
(٤) المرجع السابق ص ٨٤

النبأ السعيد إلى جميع أرجاء العالم الإسلامى ، وأقبل الشعر إلى صلاح الدين من جميع الأرجاء ، يمجد هذا النصر ، ويثنى على ذلك الفتح المبين ولا غرو كان بيت المقدس الهدف الذى جمع له الصليبيون كل ما استطاعوا من قوة ، له خرجوا من بلادهم ، ومن أجله حشدوا جموعهم ، وأقبلوا بخيلهم ورجلهم ، فإذا سقط هذا الهدف فى يد المسلمين كان معنى ذلك أن هذه الحروب التى شنها الفرنج ، لم تؤد إلى غاية ، ولم تصل إلى هدف ، وأن بقاء الفرنج فى هذه الديار بقاء محدود الأمد فضلا، عما فى هذا البلد من آثار مقدسة لدى المسلمين ، أهانها الصليبيون عندما استولوا عليها ، وكان تطاول الأمد على امتلاك الصليبيين هذه المدينة زهاء تسعين سنة ، قد خلق فى النفوس استبعاد أن تعود إلى حظيرة الإسلام ، فكان استرجاعها محققا لأمنية كادت تكون فى عداد المستحيل ، ومن أجل هذا ظفر هذا الفتح بتقدير خاص لم يظفر به فتح سواه ، فى تاريخ هذه الحروب الطويلة. ويطول بى وجه القول إذا أنا حاولت، أن أعرض نماذج مطولة ، يظهر فيها أثر هذا الفتح ، وحسبى أن أقول : إن الأدب يومئذ سجل نبضات قلوب المسلمين خير تسجيل ، وتحدث عن آمالهم وأحاسيسهم أصدق حديث وأوفاه ، وانك لتقرؤه فترى فيه صورة العواطف التى كانت تجول يومئذ فى القلوب، وتملك النفوس . وها هو ذا العماد الكاتب يصف لنا مجلس صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس : « وجلس السلطان للهناء ، للقاء الأكابر والأمراء ، والمتصوفة والعلماء ، وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار ، بين الفقهاء ، وأهل العلم جلسائه الأبرار ، ووجهه بنور البشر سافر ، وأمله بعز النجح ظافر ، وبابه مفتوح ، ورفده ممنوح ، وحجابه مرفوع ، وخطابه مسموع ، ونشاطه مقبل ، وبساطه مقبل ، ومحياه يلوح ، ورياه يفوح ، ومحبته تروق ، ومهابته تروع ، وآفاقه تضىء ، وأخلاقه تضوع ... قد حلت له حالة الظفر ، وكان دسته به هالة القمر ، والقراء جلوس يقرءون ويرشدون ، والشعراء وقوف ينشدون ، والأعلام تبرز لتنشر ، والأقلام تبرز لتبشر ، والعيون من فرط المسرة تدمع ، والقلوب للفرح بالنصرة تخشع ، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع ...»[1] ، ومن الرسائل التى تحدثت عن هذا الفتح كتاب أنشىء على لسان صلاح الدين جاء فيه : « فتح بيت الله المقدس ، الذى عجز الملوك عن تمنيه ، فكيف تسنيه ؟ وماتت الأطماع دونه ، فلم تطمع فيه ، فمن الله علينا بتذليل صعبه ، وإعذاب شربه ، وتسهيل وعره ، وتحصيل فخره ، وقضى الملوك فى ليله ، وجئنا نحن عليه بإسفار فجره ، وقد كانت الصخرة مستصرخة ، ومطايا الكفر بكلا كلها عليه منوخة ، فأجيبت دعوتها ، وأصيبت حظوتها ، وتناثرت على صخرتها يواقيت الشفاه ، وقوبلت قبلتها بقبل

(١) الفتح القسى ص ٤٧ .

الأفواه ، ودنا المسجد الأقصى للقاصى والدانى ، وزال رين العائن ، وقرت عين الرانى ، هذا فتح عظيم قدره ، جسيم فخره ، فاضل عصره ، كامل نصره ، غير منسى إلى يوم الحشر ذكره . . . وجاء من نعم الله مالزم على الأبد شكره ، أبينا إلا إحراقهم بنيران الصوارم ، وإغراقهم فى أمواه الطلى والجماجم ، وتسلمنا القدس فى يوم كانت فى مثل ليلته ليلة المعراج ، وحنت الصخرة حنين جذع المعجزة الأولى ، فى ظلمة ليلها إلى ذلك السراج الوهاج ، والحمد لله على سلوك ماوضح من المنهاج . . . وخلا بيت الله لقصد الحاج . . . مبشرة بما فضل الله به عصرنا ، وعجل به نصرنا ، ونظم به سلكنا ، وطرز به ملكنا ، وهو فتح بيت الله المقدس ، الذى غلق رهنه دهراً ، واغتصب من الإسلام قهراً ، وارتد كفرا ، وامتدت به الأيام عمراً فعمرا ، وتقاصرت الهمم عن استفتاحـه ، وأصلد زند الملوك فيه فعجزوا عن اقتداحه ، ونزلوا بالرغم على التماس الكفر واقتراحه ، واحتملوا لحفظ مواضعهم نكاية اجترامه واجتراحه ، فلا جرم أعده الله لأيامنا ، وذخره لمواسم اعتزامنا . . وعلموا أنهم هالكون ، وأنا لهم بالقهر مالكون ، وفى سبيل القتل والأسر والسبى سالكون ، فخرجوا يطلبون الأمان ، ويبذلون الإذعان . حتى يسلموا المكان ، فقيل لهم : الآن وقد عصيتم ، ورضيتم بما فيه هلاككم وأبيتم ، فروعوا بقتل أسارى المسلمين وهم ألوف ، وعرفنا أنهم لا يقصرون فى الشر ، فإن جهلهم معروف ، فتضرعوا ، وتشفعوا ، وتعفروا فى تراب الذل وتوقعوا ، وتقرر عليهم مال اشتروا به أنفسهم ، فنزعوا به من الخوف ملبسهم ، وسلموا القدس ، فأعدناه إلى القدس . وطهرناه من الرجس . . . وهذا فتح لم يكن منذ عصر الصحابة رضى الله عنهم له نظير ، وأفق الدين به منيف منير . . . فما أسر البيت الحرام بفكاك أخيه من الأسر ، وإجراء الإسلام فيه لغسل أوضار الكفر ، وإنقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة ، وإلحافها من البهاء والرونق والعز الإسلامى بكسوة ، ولقد غسلت من أوراق الكفر وأدناسه ، وطهرت من أرجاس أنجاسه ، بمياه العيون التى بها قذيت ، وصقلت بشفاه المؤمنين وطالما بأيدى الشرك صديت ، وأعيد إليها ذكر الله تعالى بعد طول الغربة ، وتذكرت بصحبة الأولياء ما سلف لها فى عهد الصحابة رضى الله عنهم من حسن الصحبة ، وخلصت مواضع المخلصين من أولياء الأمة ، وخرج البطارقة والقسيسون من مساجد الأئمة ، وعادت الكنائس مدارس ، وآيات التثليث بها دوارس ، ووجوه الإيمان

باشرة ، ووجوه أهل الصليب عوابس ، ومحت أيا من هذه الأيام تلك الليالى الدوامس . وقد أقيمت الجمع والجماعات ، ونظفت بل طهرت تلك الساحات ، وصلى فى محرابه المحرب ، ودرّس فيه الخلاف والمذهب ، والحمد لله الذى تسنى بفضله هـذا المطلب ، وتيسر بتأييده الأمر الأصعب[(١)] .

وتنوعت الإشادة فى الأدب بهذه المعركة : فحينا يصفها ، وحينا يتحدث عن نتائجها ، وحينا يصور بهجة المسلمين بها ، وحزن الفرنج على فقدها ، وتغنى الشعراء ، وأطالوا ، وامتلأ العالم الإسلامى كله بنغمات من الطرب والبهجة ، وتدفق الشعر قويا فياضا ، يصف ذلك كله . فمن ذلك قول الشريف محمد بن أسعد بن معمر ، نقيب الأشراف بمصر ، وقد بدأها بما ينم على الدهشة والذهول اللذين ألما بالعالم الإسلامى ، لدى سماع خبر فتح القدس ، إذ قال :

أترى مناما ما بعينى أبصر القدس يفتح ، والفرنجة تكسر
ومليكهم فى القيد مصفود ، ولم يرَ قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى وعد الرسول ، فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم ، وطهر القدس الذى هو فى القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد ماذا يقال له ، وماذا يذكر
ملك غدا الإسلام من عجب به يختال ، والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه فالرمح ينظم ، والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع ، حيث العيون خواشع ، حيث الجباه تعفر
غاراته جمع ، فإن خطبت له فيها السيوف فكل هام منبر[(٢)]

وقول ابن جبير الأندلسى :

أطلت على أفقك الزاهر سعود من الفلك الدائر
فأبشر فإن رقاب العدا تمد إلى سيفك الباتر
وكم لك من فتكة فيهم حكت فتكة الأسد الخادر
كسرت صليبهم عنوة فلله درك من كاسر
وغيرت آثارهم كلها فليس لها الدهر من جابر
وأدبر ملكهم بالشآ م ، وولى كأمسهم الدابر

(١) الروضتين ٢ : ٩٧ . (٢) الروضتين ٢ : ١٠٥ .

جنودك بالرعب منصورة فناجز متى شئت ، أو صابر
فكلهم غارق هـالك بتيار عسكرك الزاخر
ثأرت لدين الهدى فى العدا فآثرك الذى من ثـائر
وقمت بنصر إله الورى فسماك بالملك الناصر
وجاهدت مجتهـداً صابراً فلله أجرك من صابر
تبيت الملوك على فـرشهم وترفل فى الزرد السابرى
وتؤثر جاهد عيش الجهاد على طيب عيشهم الناضر
وتسهر ليلك فى حق من سيرضيك فى جفنك الساهر
فتحت المقـدس من أرضه فعادت إلى وصفها الطاهر
وجئت إلى قدسـه المرتضى فخلصته من يد الكافر
وأعليت فيه منار الهدى وأحييت من رسمه الداثر
لكم ذخر الله هذا الفتو ح من الزمن الأول الغابر
وخصك من بعـد فاروقه بها لاصطناعك فى الآخر
محبتكم ألقيت فى النفو س ، بذكر لكم فى الورى طائر
فكم لهم عند ذكر الملو ك لمثلك من مثـل سائر(١)

وقال ابن الساعاتى ، وهو يرى هذا الفتح خليقا أن يثير العواطف ، فيفيض الشعر والنثر :

أعيا وقد عاينتم الآية العظمى لأية حال تذخر النثر والنظما
وقد ساغ فتح القدس فى كل منطق وشاع إلى أن أسمع الأسل الصما
تحل به الأضداد ، واللفظ واحد فكم سر قلباً فى الأنام ، وكم غما
حبا مكة الحسنى ، وثنى بيثرب وأطرب ذياك الضريح ، وما ضما
فليت فتى الخطاب شاهد فتحها فيشهد أن السهم من يوسف أصمى
وقد أوتى الفتحين : مالا ، وبلدة فلم يبق نصراً ما حواه ، ولا غنما
ففى لهوات الشرك أرسلها شجى وفى جبهة الأيام غادرها وسما

---

(١) المرجع السابق نفسه .

وما كان إلا الداء أعيا دواؤه — وغير الحسام العضب لا يعرف الحسما
سلوا الساحل المخشى عن سطواته — فما كان إلا ساحلا صادف اليما
تجاوزت ما أعيا الجبال منـــاله — فهل يقظة كانت مساعيك أو حلما (١)

أما معركة دمياط فكانت سنة ٦١٥ هـ هاجمها الصليبيون طمعاً فى امتلاك مصر حتى يأمنوا جانبها ، ويستطيعوا الاستيلاء على الشام ، من غير أن تمد مصر يداً إلى معونة أهله ، فيصفو لهم الجو . وتثبت أقدامهم فى الأرض . وقد ظل الحصار مضروبا على المدينة زهاء سبعة عشر شهراً ، حتى قلت الأقوات ، واشتد غلاء الأسعار ، وأنهكت الأمراض أهل المدينة ، وامتلأت الطرقات من الأموات ، وبدأ الجوع يفعل فعله فى أهل المدينة ، فلم يبق من حاميتها التى كانت تقدر بخمسين ألف رجل سوى أربعة آلاف ، بينما كانت الإمدادات تتوالى بكثرة على الصليبيين (٢) ، فلم يستطع أهل دمياط الجياع المنهوكو القوى ولا حاميتهم الضعيفة قتالا ، فسلمت البلد إلى الفرنج فى ٢٧ شعبان سنة ٦١٦ هـ ، ودخل الفرنج دمياط ، بروح كهذه الروح التى دخل بها أجدادهم بيت المقدس ، فوضعوا السيف بدون رحمة فى بقية الحامية البائسة (٣) ، وفى الناس ، حتى إنه لم يعرف عدد من قتل لكثرتهم (٤) .

كان لسقوط دمياط أثر بالغ فى نفس المسلمين، فأعلن الملك الكامل فى مصر الجهاد العام ، وكتب إلى إخوته وأقاربه بالشام يستنجد بهم ، فحضر إليه أخواه : المعظم عيسى ، والأشرف موسى ، وأمراء الشام ، حتى ليقال : إنه منذ معركة عكا فى أيام صلاح الدين لم تتحد الأسرة الأيوبية فى جبهة واحدة ، كاتحادها أمام خطر الفرنج بعد أن أخذوا دمياط (٥) . وكان الكامل قد عسكر على البر الشرقى أمام طلخا ، فى المكان الذى عرف بالمنصورة ، واجتمع لديه من المسلمين عالم لا يقع تحت حصر . ومع ذلك أرسل الكامل إلى الصليبيين يعرض عليهم أن يرد إليهم مملكة بيت المقدس ، وجميع ما فتحه صلاح الدين ، على أن يردوا إليه دمياط فحسب ، ولكن هذا العرض المغرى قوبل بالرفض من جانب الصليبيين ، فلم يجد المسلمون بدأ من القتال ، وانتشرت فرق الجيش الإسلامى خلف العدو وحوله ، وقطعوا سد النيل فانفجر الماء ، وأصبح معسكر العدو كأنه بحيرة ، ووجد الصليبيون أنفسهم فى شبه جزيرة يحيط بهم الماء والأعداء ، لا يستطيعون التقدم ولا التقهقر ، وفى ليلة حاولوا الهرب إلى دمياط ، فحال

---

(١) ديوان ابن الساعاتى ٢ : ٣٨٥ . (٢) Lane pooje P . 221
(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ . (٤) السلوك ١ : ٢٠١ .
(٥) Lane poole p . 223

المسلمون دونه ، فلما رأى الفرنج ذلك سقط فى أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، فأرسلوا إلى الكامل يسألون الأمان لأنفسهم ، وأنهم يسلمون دمياط ، بغير عوض ، فأجابهم الكامل إلى ما طلبوا ، وتسلم المسلمون دمياط ، فى ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ . ودخل الكامل دمياط بعساكره وآله ، وكان لدخوله سرور شامل ، وبهجة مستولية [1] .

كان الاستيلاء على دمياط إذاً يهدد العالم الإسلامى كله ، فلا غرابة إن وجدنا الأدب يحتفل احتفالا قويا بعودتها إلى حظيرة الإسلام ، وإنقاذها من أولئك الغزاة ، ومما زاد من غزارة الشعر الذى تحدث عن هذه المعركة كثرة الملوك الذين شاركوا فيها ، وكان حول كل ملك شعراء ، رأوا من واجبهم تمجيد هذا الجهاد المقدس ، ولعل من خير الشعر الذى يمثل شعور المسلمين لدى هذه الوقعه خير تمثيل ، قصيدة البهاء زهير التى أهداها إلى الملك الكامل ، فقد بدأها مشيداً بفضله فى صيانة الدين ، ورد عادية الفرنج ، إذ قال :

بك اهتز عطف الدين فى حلل النصر ... وردت على أعقابها ملة الكفر
فقد أصبحت ، والحمد لله ، نعمة ... يقصر عنها قدرة الحمد والشكر
يقل لها بذل النفوس بشارة ... ويصغر فيها كل شىء من النذر

وهذان البيتان يدلان على مقدار ضخامة ما كان المسلمون يشعرون به : من نعمة فى رد عادية الفرنج عنهم . ويمضى البهاء فى مدح الكامل ، ثم يتحدث عن الموقعة ، فيذكر أن هذا النصر لم تفرح به مصر وحدها ، ولكن سعد به العالم الإسلامى كله : بغداد ، ومكة ، والمدينة ، ولولا هذا الفوز المبين لسرى الذعر فى أرجائه ونواحيه . يقول البهاء زهير :

وما فرحت مصر بذلك وحدها ... لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
فلولم تقم لله حق قيامه ... لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همه كاملية ... لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء بمكة ... ويثرب ، ينهيه إلى صاحب القبر
فقل لرسول الله : إن سميه ... حمى بيضة الإسلام من نوب الدهر

ويصف طول المعركة وما أبداه الكامل فيها من الثبات والصبر ، وكيف انتهى ذلك بمحاصرة العدو فى البر والبحر ، حصارا دفعه إلى الاستسلام ، إذ يقول :

ثلاثة أعوام أقمت ، وأشهرا ... تجاهد فيهم ، لا بزيد ولا عمرو

---

(١) السلوك ١ . ٩ . ٢ .

صبرت ، إلى أن أنزل الله نصره   لذاك قد استحققت عاقبة الصبر
وليلة غزو للعدو ، كأنهـــا   بكثرة من أرديته ، ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرهـــا   ولا غرو إن سميتها ليلة القدر
سددت سبيل البر والبحر عنهم   بسابحة دهم ، وسانحة غـــر
أساطيل ليست فى أساطير من مضى   بكل غراب (١) راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل : هولا ، وهيبة   وإن زانه ما فيه : من أنجم زهر
وباتت جنود الله فوق ضوامر   بأوضاحها تغنى السراة عن الفجر
فلا زلت حتى أيد الله حزبـــه   وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
فرويت منهم ظامىء البيض والقنا   وأشبعت منهم طاوى الذئب والنسر
وجاءت ملوك الأرض نحوك خضعا   تجرجر أذيال المهانة والصغر
فمن عليهم بالأمان تكرما   على الرغم من بيض الصوارم والسمر

فهو فى هذه الأبيات يصف المعركة ، وكيف استمرت متطاولة ، حتى كانت هذه الليلة السعيدة التى أحيط فيها بالعدو ، وربما أشار الشاعر فى البيت الأخير إلى ما كان من خلف بين الكامل وإخوته وأمرائه على مصير الأعداء ، بعد ان استسلموا ، وطلبوا الأمان ، فقد كان من رأى هؤلاء ألا يعطوهم أمانا حتى يبيدوهم ، عن آخرهم ، بما كان فى أيديهم من قوة . أما الكامل فرأى أن يعطيهم الأمان على أن يسلموه دمياط ، ويغادروا مصر ، وفضل ذلك حسما للشر ، ورغبة فى الوصول إلى الهدف ، من غير إسراف فى إراقة الدماء ، وحتى لا يضطر إلى الدخول فى حرب جديدة ، مع الفرنج المقيمين فى دمياط ، إذا تحصنوا بها ، وأبوا تسليمها .

ثم يتحدث البهاء زهير عن تقدير المسلمين لدمياط ، فيدعو لها ألا تحس بسوء ، ويعلل لعذوبة النيل تعليلا رقيقا ، إذ يقول :

كفى الله دمياط المكاره ، إنها   لمن قبلة الإسلام فى موضع النحر
وما طاب ماء النيل إلا لأنـــه   يحل محل الريق من ذلك الثغر

ويصف هذا اليوم السار الذى دخل فيه الكامل ، وأهله دمياط ، بعد خروج الفرنج منها ، فيقول :

(١) اسم نوع من السفن فى ذلك العصر.

فلله يوم الفتح ، يوم دخولهـــا وقد صارت الأعلام منها على وكـــر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها وأنسى حديثا ، عن حنين ، وعن بدر
وياسعد قوم أدركوا فيه حظهم لقد جمعوا بين الغنيمة والأجـــر

وينتقل بعدئذ ، ليحدثنا عن شوقه وفرحه بسماع أحاديث هذا الفتح ، ولعله يصف بذلك شوق المسلمين جميعهم ، إلى سماع هذا الحديث ، إذ يقول :

وإنى لمرتاح إلى كل قادم إذا كان من ذاك الفتوح على ذكر
فيطربنى ذاك الحديث ، وطيبه ويفعل بى ماليس فى قدرة الخمر
وأصغى إليه مستعيدا حديثـــه كأنى ذو وقر ، ولست بذى وقر
يقوم مقام البارد العذب فى الظما ويغنى عن الأنوار فى البلد القفر

ثم يعود مرة أخرى ، فيتخيل هذا المصير المشئوم على أيدى الفرنج ، إذا كان قد قدر لهم النصر ، فيقول مخاطبا الكامل :

لك الله من أثنى عليك ، فإنما من القتل قد أنجيته ، أو من الأسر
يقصر فيك المدح من كل مادح ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر(١)

وعنى ابن عنين بوجه خاص فى قصائده التى تحدث فيها عن هذه الواقعة ، بالحديث عن جيش الفرنج ، وكيف أقبل لجبا ضخما ، ثم لم يلبث أن انهار تحت ضربات الإسلام، ولم ينس أن يوازن بين ما كان المسلمون يفعلون عندما يملكون : من الرفق ، والصفح ، والعفو ، وبين ما كان الفرنج يأتون : من سفك الدماء ، والإسراف فى القتل ، فقال مبتدئاً بفخر قوى :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا إذا جهلت آياتنا والقنـا اللدنا
غداة لقينـا دون دمياط جحفلا من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا ، وعزما ، وهمة ودينا ، وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت جموع ، كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذى كل مفاضة دلاص ،كقرن الشمس قدأحكمت وضنا
وأطمعهم فينا غرور ، فأرقلوا إلينا سراعا بالجياد ، وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم بأطرافها ، حتى استجاروا بنامنا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ، ودافعوا طويلا ، فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا فألقوا بأيديهم إلينـــا فأحسنا

---

(١) ديوان البهاء زهير ص ٥٢ .

وما برح الإحسان منا سجيـــة ... توارثها عن صـــيد آبائنا الأبنا
منحنا بقاياهم حياة جــــديدة ... فعاشـــوا بأعناق مقـــلدة منا
ولو ملكوا لم يأتلوا فى دمائنــا ... ولوغا ، ولكننا ملكنا فأسجـــحنا
فكم من مليك قد شددنا إساره ... وكم من أسير من شقا الأسر أطلقنا
أسود وغى لولا قـــراع سيوفنا ... لما ركبوا قيداً ، ولا سكنوا سجنا

وبعد حديث عن أحد قواد هذه المعركة ، وهو المعظم عيسى ، وعن أثر فتح دمياط فى بهجة قلوب المسلمين ، ختمها مهدداً بقوله :

وقد عرفت أسيـــافنا ورقابهـــم ... مواقعها فيها ، فإن عاودوا عدنا [1]

أما ابن النبيه فبعد تغنيه بيوم دمياط ، يتخذه فاتحة خير ، تدفع إلى اقتلاع بقايا الفرنج من الشام ، فيقول مخاطباً الأشرف موسى :

عكا وصور إلى رؤياك عاطشة ... فانهض فقد أمكنت منهن خلوات
واستخبر الريح عنهـــا ، إذ تسيره ... إليك فهو سـلام ، أو تحيـــات
الله أكبر أن تمسى مزامرهم ... تتلى ، وتنسى من القرآن آيات
وأن يخور على القـــرآن عجلهمو ... جهراً ، ويخفى أذان ، أو تلاوات
ماكل من طلب العلياء أدركها ... ووافقت سعيه فيها سعادات [2]

هذا وقد كان الملك الكامل حريصاً على تسجيل هـذه المعركة فى النصر ، حتى تضم إلى هذه المعارك الخالدة فى تاريخ هذه الحروب الطويلة . قال صاحب النجوم الزاهرة : وأما الفرنج . . . فلما عاينوا الهلاك ، أرسلوا إلى الملك الكامل ، يطلبون الصلح ، والرهائن ، ويسلمون دمياط ، فمن حرص الكامل على خلاص دمياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذوا برقابهم ... وجاء ملوكهم إلى الكامل ... فالتقاهم ، وأنعم عليهم ، وضرب لهم الخيام ، ووصل المعظم والأشرف فى تلك الحال ، إلى المنصورة فى ثالث رجب ، فجلس الكامل مجلساً عظيما ، فى خيمة كبيرة عالية ، وقد مد سماطاً عظيما ، وأحضر ملوك الفرنج ، والخيالة ، ووقف المعظم ، والأشرف ، والملوك فى خدمته ، وقام الحلى الشاعر ، رحمه الله تعالى ، فأنشد :

---

(١) ديوان ابن عنين ص ٢٩ . (٢) ديوان ابن النبيه ص ٥٦ .

هنيئا ، فإن السعد راح مخـــلدا   وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبـــانا إله الخلق فتحاً بدا لنـــا   مبينا ، وإنعاما ، وعـــزا مؤيدا
تهلل وجه الدهر بعـــد قطوبه   وأصبح وجه الشر بالظلم أســودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الطغـــاة وأضحى بالمـــراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل ســـيفه   صقيلا ، كما سل الحســـام مجردا
فلم ينج إلا كل شـــلو مجدل   ثوى منهم ، أو من تراه مقـــيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعاً   عقيرته فى الخافقين ، ومنشـــدا :
أعباد عيسى ، إن عيسى ، وحزبه   وموسى جميعاً يخدمون محمـــدا

قلت : صح للشاعر فيما قصد من التورية فى المعظم عيسى والأشرف موسى ، لما وقفا فى خدمة الكامل محمد (١) . وكان المعظم عيسى والأشرف موسى حريصين من ناحيتهما كذلك على أن يسجلا دورهما فى هذه المعركة . قيل : إنه لما رحل الفرنج إلى بلادهم ، جلس الكامل بقصره فى المنصورة ، وبين يديه أخواه : المعظم عيسى ، والأشرف موسى ، وغيرهما من أهله ، وخواصه ، فأمر الملك الأشرف جاريته ، فغنت على عودها :

ولمـــا طغى فرعون عكا وقومه   وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى ، وفى يده العصا   فأغرقهم فى الـــيم بعضاً على بعض

فطرب الأشرف ، ثم أمر الكامل جاريته ، فأخذت العود وغنت

أيا أهل دين الكفر ، قوموا ، لتنظروا   لما قد جرى فى وقتنا وتجـــددا
أعباد عيسى ، إن عيسى وحـــزبه   وموسى جميعاً ينصران محمـــدا

فأعجب ذلك الملك الكامل وأمر لكل من الجاريتين بخمسمائة دينار (٢) .

ولا بد أن يكون كلا الملكين قد أعد جاريته لتغنى ، بما يرفع من شأنه ، وبما يسجل بلاءه فى هذه المعركة . وقد نهض شعراؤهم بهذه المهمة وأشبعوا رغبتهم فيها (٣) .

وقد هوجمت دمياط قبل ذلك فى عهد صلاح الدين ، ورجع الفرنج خائبين عنها ، ووصف المعركة فتيان الشاغورى ، إذ قال :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا   وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الأحصاء والعـــد جمعهم   ألوف ألوف خيلهم والرواحل

---

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤١ . (٢) خطط المقريزى ١ : ٢٧٣ .
(٣) راجع ديوان ابن عنين ص ٩ و ١٤ و ١٩ و ٢٩ ، وديوان أيدمر ص ١٣ ، وديوان ابن النبيه ص ٥٥ و ٦٨ والسلوك ١ : ٢٠٩ وما يليها ، والنجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٢ و ٢٤٣ وذيل الروضتين ص ١٢٩ .

رأوا دونهم أسـداً،بأيديهم القنا وبيضا رقاقا ، أحكمتها الصياقل
وداروا بها فى البحر من كل جانب ومن دونها سد من الموت حائل
رجا الكلب ملك الروم إذ ذاك فتحها مخاف ، فأم الملك والروم هابل
فعادوا على الأعقاب منها هزيمة كأنهم ذلا نعام جوافل
ومأملوا أن يلحقوا ببلادهم لتعصمهم مما رأوه المعاقل [1]

كما هوجمت دمياط ، واستولى عليها الفرنج فى عهد الصالح أيوب بن الملك الكامل،وتقدم الفرنج يريدون الاستيلاء على مصر كلها، ولكنهم هزموا فى المكان الذى هزموا فيه أول مرة ، لدى المنصورة ، غير أن هذه المعركة الثانية لم تجد من عناية الأدب ما لقيته المعركة الأولى ، وربما كان مرجع ذلك إلى ما حدث فى المعركة وبعدها : من اضطرابات ، فقد مات الصالح فى أثنائها ، ولم يبق مماليكه على ابنه المعظم توران شاه ، وجلس على العرش شجرة الدر ، من غير سابقة عهد بأن تجلس امرأة على العرش ، فكان ذلك الاضطراب سبباً فى الانصراف إليه ، دون العناية بالتغنى بالمعركة ، وتمجيد أبطالها .

أما معركة عكا فكانت آخر المعارك التى دارت بين المسلمين والفرنج ، ألقى بعدها الصليبيون فى البحر ، وعادت البلاد كلها إلى الإسلام ، كما كانت قبل أن يغزوها العدو ، وكان بطل هذه المعركة الأشرف خليل بن قلاوون،أعد العدة لهذه المعركة ، وهيأ لها جيشاً لجباً ، كى يستأصل شأفة الفرنج به ، فلا جرم كان لهذه المعركة صداها فى الأدب العربى ، وأن يكثر الشعراء من الحديث عن هذا الفتح،وأطال بعضهم إطالة تناسب قيمة هذا الفتح العظيم ، فمن ذلك ما أنشأه شهاب الدين محمود ، وقد بدأ قصيدته شاكرا الله ، متحدثاً عن تحقق أمل ، كان المسلمون يعدونه بعيد التحقق ، عسيراً لا ينال :

الحمد لله زالت [2] دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفى العربى
هذا الذى كانت الآمال لو طلبت رؤياه فى النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا ، وقد هدت قواعدها فى البحر ، للشرك عند البر من أرب
عقيله ذهبت أيدى الخطوب بها دهراً ، وشدت عليها كف مغتصب

---

(١) الروضتين ١ . ١٨٢ . (٢) هذه رواية نهاية الأرب ، وفى فوات الوفيات : ذلت .

لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت في البر والبحر ماينجى سوى الهرب

ثم يصف مناعة عكا قائلا :

كانت تخيلهـا آمالنا ، فـترى أن التفكر فيهـا أعجب العجب
سوران : بر ، وبحر ، حول ساحتها دارا ، وأدناهما أنأى من القطب
مصفح بصفاح ، حولهـا أكم من الرماح ، وأبراج من اليلب
مثل الغمائم ، تهدى من صواعقها بالنبل أضعاف ما يهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فـلك من المجانيق ، يرمى الأرض بالشهب
ففاجأتها جنـود الله يقدمهـا غضبان لله ، لا للملك والنشب
كم رامهـا ورماها قبـله ملك جم الجيوش فلم يظفر ، ولم يصب

ويمضى الشاعر ممجداً الأشرف خليلا وجيشه الباسل ، فيقول :

ليث أبى أن يرد الوجه عن أمم يدعون رب الورى ، سبحانه ، بأب
لم يلهه ملكه ، بل فى أوائـله نال الذى لم ينله الناس فى الحقب
فأصبحت،وهى فى بحرين مائـلة ما بين مضطرم نارا ومضطرب
جيش من الترك ترك الحرب عندهم عار ، وراحتهم ضرب من الوصب
تسنموها ، فلم يترك تسنمهـا فى ذلك الأفق برجا غير منقلب

ويستمر بعدئذ فى وصف آثار هذا الفتح ، فيقول .

يا يوم عكا ، لقد أنسيت ما سبقت به الفتوح ، وما قد خط فى الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك ، فما عسى يقوم به ذو الشعر والخطب
كانت تمنى بك الأيام عن أمم والحمد لله ، شاهدناك عن كثب
أغضبت عباد عيسى ، إذ أبدتهم لله ، أى رضا فى ذلك الغضـب
وأطلع الله جيش النصر ، فابتدرت طلائع النصر بين السمر والقضب
وأشرف المصطفى الهادى البشير على ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقرعينا بهـذا الفتح ، وابتهجت بفتحه الكعبة الغراء فى الحجب
وسار فى الأرض سير الريح سمعته فالبر فى طرب ، والبحر فى حرب

فى هذه الأبيات يتحدث عن يوم فتح عكا وكيف أنسى بعظمة نتائجه وضخامة هدفه، ما سبقه من فتوح، وما حفظه التاريخ من أيام نصر مجيـــدة، ويبين أن الشعر والخطب لا يستطيعان الوفاء بالحديث عن مجد هذا اليوم الخالد، وكيف لا؟ وقد كان أهل الأعصر الأولى يرقبونه، ويرجونه، ولكن الله قد ادخره لهذا العصر السعيد . وقد أغضب هذا اليوم الفرنج بإبادتهم،وبهذا الغضب رضى الله أى رضا، وسر الرسول الكريم، وقرت عينه، وابتهجت الكعبة الغراء طربا فى حجبها، ومضى النبأ السار يجوب أنحاء الأرض، فى البر والبحر .

وانتقل بعدئذ إلى وصف المعركة، وما أبلاه المسلمون فيها، وما أصيب به الصليبيون، فقال مازجا ذلك بمدح الأشرف :

وخاضت البيض فى بحر الدماء، وما أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وخاض زرق القنا فى زرق أعينهم كأنها شطن تهـــوى إلى قلب
توقدت،وهى تروى فى نحـــورهم فزادها الرى فى الإشراق واللهب
أجرت إلى البحر بحراً من دمائهم فراح كالراح، إذ غرقاه كالحبب
وذاب من حرها عنهـــم حديدهم فقيدتهم بهـــا ذعـــراً يد الرهب
كم أبرزت بطلا كالطود، قد بطلت حواسه ، فغدا كالمنزل الخرب
كأنه ، وســـنان الرمح يطلبه برج هوى، ووراه كوكب الذنب
بشراك يا ملك الدنيا، لقد شرفت بك المالك واستعلت على الرتب
ما بعد عكا، وقد لانت عريكتها لديك شىء تلاقيـــه على لغب
فانهض إلى الأرض، فالدنيا بأجمعها مدت إليك نواصيها، بلا نصب
كم قد دعت،وهى فى أسر العدا زمنا صيد الملوك فلم تسمع، ولم تجب
أدركت ثأر صلاح الدين، إذ غضبت منـــه لسر طواه الله فى اللقب
وجئتها بجيوش، كالسيول على أمثالها، بين آجام من القضب
وحطتها بالمجـــانيق التى وقفت إزاء جدرانها فى جحفل لجب
مرفوعة نصبوا أضعافها، فغدا للكسر والحطم منها كل منتصب
ورضتها بنقـــوب ذللت شمما منها، وأبدت محياها بلا نقب

وغنت البيض فى الأعناق ، فارتقصت   أبراجها لعبـا منهن باللعب
وخلقت بالدم الأسوار ، فابتهجت   طيبا ، ولولا دماء القوم لم تطب
ظنوا بروج البيوت الشم معقلهم   فاستعقلتهم .. ولم تطلق ، ولم تهب
فأحرزتهم ، ولكن للسيوف ، لكى   لا يلتجى أحـد منهم إلى هرب
وجالت النار فى أرجائها ، وعلت   فأطفأت ما بصدر الدين من كرب
وأفلت البحر منهم من يخبر من   يلقاه من قومه بالويل والحرب

ويختم القصيدة بمدح الأشرف ، والدعاء له ، إذ يقول :

علا بك الملك ، حتى إن خيمته   على الثريا غدت ممدودة الطنب
فلا برحت عزيز النصر ، مبتهجاً   بكل فتح مبين المنح مرتقب (١)

ولبدر الدين المنبجى التاجر بالقاهرة قصيدة لامية مطولة ، لما فتح الأشرف خليل عكا ، ألم فيها بهذه الخواطر التى ألمت بالشهاب محمود ، وبدأها بقوله .

بلغت فى الملك أقصى غاية الأمل   وفتشأو ملوك الأعصر الأول (٢)

ويطول بى القول إذا أنا عرضت هذه القصيدة التى أشادت بالأشرف خليل ، وصفاته الدينية والحربية ، وبعكا ، وما تمتاز به من حصانة ومنعه ، وبالجيش الذى حارب عكا ، حتى استسلمت ، وتغنت بما أصيب به الفرنج : من ذل ، وانهيار ، وختم القصيدة كذلك بالدعاء للأشرف .

وأنشد غير الشهاب وبدر الدين من الشعراء قصائد ومقطوعات فى فتح عكا ، التى ختم بفتحها عصر الحروب الصليبية . وهكذا سجل الشعر هذه المعارك الكبرى التى كان لها أثرها فى سير الحروب الصليبية ، واتجاهاتها . وينبغى أن يوجه النظر إلى أن الأدب لم يقف عند حد المعارك الكبرى ، يشيد بها ، ويمجد أبطالها ، ولكنه كان يعد كل نصر على العدو ربحاً ، وكل معركة يظفر فيها تقدما وفوزاً ، فيشيد بها ، ويتفاءل بالنجح فيها ، ويعد ذلك فاتحة خير ، ومقدم سعادة . وبهذا يستطيع المؤرخ لهذه الحروب أن يجد فى الشعر صدى ما يتحدث عنه ، من معارك فى نفوس المسلمين يومئذ ، وإن كنت ألحظ أن الشعر الذى قيل فى معارك

---

(١) نهاية الأرب ٢٩ : ٥٧ ، وفوات الوفيات ١ : ١٥٣ .
(٢) نهاية الأرب ٢٩ : ٥٦ .

القرن الأول من قرنى الحروب الصليبية أغزر وأقوى مما قيل فى قرنها الثانى ، وأن ما قيل فى معارك عماد الدين ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، أكثر مما قيل فى غـــيرها ، وبخاصة ما أنشىء فى معارك صلاح الدين ، ولعل عصره أعظم العصور التى اشتبك فيها المسلمون بالفرنج ، وكانت الحروب التى دارت فيه حروب الجبابرة ، وبموته فقدت الحروب الصليبية ما كان لها من شدة وقوة ، فقد أراد فى مدى عمره القصير أن يحطم ما بناه الفرنج فى عقود من السنين طوال .

لم يقف الأدب عند حد تسجيل المعارك الكبرى ، كما ذكرنا ، بل رأيناه يرصد أحداثها إلى درجة أنه أصبح سجلا ، يرصد خطوات هذه الحروب ، وصار من المستطاع اتخاذه مفسراً لأحداث التاريخ ، فقد اتخذ حقائقه ميـــداناً جال فيه ، فسجلها ، وسجل شعور الناس بها .

٥ ــ أسف وحسرة

وكان كثير من الأحداث الجارية فى هذه الحروب يثير الألم ، ويبعث الحسرة والندامة ، فهذا جسم الإسلام يمزق ، ويقتطع العدو منه قطعاً ، وهذه بلاده تحطم ، وتخرب ، ويذبح أهلها ، فى غير رحمة ، ولا إشفاق ، وهؤلاء ملوك المسلمين يتنازعون أمرهم بينهم ، كل يجذب ثياب صاحبه ، بل لقد اضطر المسلمون أنفسهم إلى أن يخربوا بعض البـــلاد بأيديهم ، كى لا تقع فريسة فى يد العدو ، يتقوى بها ويتحصن ، كما كان ضعف المسلمين وتفرقهم مما بعث الأسى فى النفوس ، وأثار كوامن الأحزان ، وقد انطبع كثير من الأدب بهذا اللون ، من الأسف ، الذى كان يتجاوب فى نفوس المسلمين ، لدى هذه الأحداث ، فهذه معرة النعمان لما خربها الفرنج وقف الشاعر يبكيها قائلا :

هذه صاح بـــلدة قد قضى اللـــه عليها ، كما ترى ، بالخـــراب
وقف العيس وقفة ، وابك من كـــان بها : من شيوخها ، والشباب
واعتـــبر إن دخلت يوما إليها فهى كانت منازل الأحباب (١)

ولما سقطت دمياط فى يد العدو بكاها ابن الخيمى فى قوله :

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ : ٢٠٠ .

ولقد بكيت لثغر دمياط دما ووجدت وجد الفاقد المحزون
أرض العبادة ، والزهادة ، والتقى وتـلاوة القرآن ، والتأذين
وبثت ، وبوئها العدو ، فأهلها شهداء بين الطعن والطاعون (١)

وخاف المعظم عيسى بعد سقوط دمياط أن يذهب الفرنج إلى القدس ، ويملكوه ، فمضى إليه ، وخرب المواضع التى يستطيع الفرنج أن يتقووا بالتحصن فيها ، وكان لذلك وقعه الأليم فى نفوس المسلمين ، ورثاه شعراؤهم ، وبكوا عليه ، فممن رثاه شهاب الدين أبو يوسف بن المجاور ، إذ قال :

أعينى ، لا ترقى من العـبرات صلى بالبكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفىء فيضها توقد ما فى القلب من جمـرات
ويا قلب ، أسعر نار وجدك ، كلما خبت ، بادكار يبعث الحسرات
ويا فم ، بح بالشجو منك ، لعله يروح ما ألـقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذى جل قدره على موطن الإخبات والصلوات
على سلم المعراج ، والصخرة التى تفاخر ما فى الأرض من صخرات
على القبلة الأولى التى اتجهت لها صلاة البرايا فى اختلاف جهات
على خير معمور ، وأكرم عامر وأشرف مبنى لخـير بناة
عفا المسجد الأقصى المبارك حوله الرفيع العماد ، العالى الشرفات
عفا ، بعد ما قد كان للخير موسما وللبر ، والإحسان ، والقربات
يوافى إليه كل أشعث ، قانت لمولاه ، بر دائم الخلوات
خلا من صـلاة لا يمل مقيمها توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين ، وحزنهم فمن بين نواح وبين بـكاة
لتبك على القدس البلاد بأسرها وتعلن بالأحـزان والترحات
لتبك عليها مـكة ، فهى أختها وتشكو الذى لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة وتشرحه فى أكرم الحجرات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها وكل اجتماع مـؤذن بشتات

(١) بغية الوعاة ص ٧٨ .

وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها ... وقد كان مجداً باذخ الغرفات
وقد أخمدوا صوتاً، وصيتاً أثاره ... لهم عظم ما والوا من الغزوات
فمن لى بنــواح ينحن على الذى ... شجانى بأصــوات لهن شجاة
يرددن بيتاً للخــزاعى قاله ... يؤبن فيه خيرة الخــيرات :
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات [١]

كما رثاه قاضى الطور بمقطوعة باكية [٢].

وقد عم الحزن والأسف قلوب المسلمين، عندما أعطى الملك الكامل بيت المقدس الفرنج، واشتد تشنيع الملك الناصر داود على عمه الكامل، فنفرت قلوب الرعية، وجلس ابن الجوزى بجامع دمشق، وأطال القول فى شناعة هذا الفعل، وعلا صراخ الناس، واشتد بكاؤهم [٣].

وفى شعر الناصر داود أسف وأسى على ما أصاب الإسلام: من خلل، وما ناله: من ضعف. أرسل مرة إلى عزالدين بن عبدالسلام مقطوعة، يتمنى فيها أن لو لم يكن قد خلق، أو لو لم يتطاول به العمر، حتى يرى ما نزل بالإسلام من خلل، ومحن، إذ يقول.

أيا ليت أمى أيم طول عمرهــا ... فلم يقضها ربى لمولى ولا بعل
ويا ليته لما قضاها لسيــد ... لبيب أريب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتى خلقن عواقراً ... فما بشرت يوماً بأنثى ولا فحــل
ويا ليتها لما غدت بى حاملا ... أصيبت بما ضمت عليه من الحمــل
ويا ليتنى لما ولدت وأصبحت ... تشد إلى الشدقميات بالرحــل
لحقت بأسلافى، فكنت ضجيعهم ... ولم أر فى الإسلام مافيه من خلل [٤]

ويشف أدب هذا العصر فى بعض الأحيان عن الأسى والحسرة، عندما يوازن بين جند الإسلام وجند الصليبين، وربما اتخذ من هذه الموازنة ذريعة لاستنهاض هم المسلمين وحثهم على الجهاد، والصبر. والأدب العربى يسجل حينئذ إعجابه بتضحية الفرنج وإقدامهم، وما

---

(١) الروضتين ٢ : ٢٠٥ .
(٢) النجوم الزاهرة ٦ : ٢٤٥ ، وذيل الروضتين ص ١١٦ .
(٣) السلوك ١ : ٢٣٣ . (٤) المختصر ٣ : ١٩٦ .

فى جند المسلمين من تخاذل وتفرق ، كما تجد ذلك من رسالة كتبت إلى بغداد ، ومنها : « قد بلى الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت ، واستجابوا الصـــوت ، وفارقوا المحبوبين : الأوطان ، والأوطار ، وهجروا المألوفين : الأهل والديار ، وركبوا اللجج ، ووهبوا المهج ، كل ذلك طاعة لقسيسهم ، وامتثالا لأمر مركيسهم ، وغيرة لمتعبدهم ، وتهالكا على مقبرتهم ، وتحرقا على قمامتهم . لا يطلبون مع شدة الإملاق مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظبي تساقط الفراش ، ويقتحمون الردى متدرعين الصبر متثبتى الجأش ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات ، وسرن إلى الشام فى البحـــر والبر متجهزات . . . وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات ، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات ، وقد وجد فى الوقعات التى جرت عدة منهن بين القتلى ، وما عرفن حتى سلبن ، وإن البابا الذى برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم ، وقال : من لا يتوجه إلى القدس مستخلصاً ، فهو عندى محرم : لا منكح له ، ولا مطعم ، فلأجل هذا يتهافتون على الورود ، ويتهالكون على يومهم الموعود . . . فهذا شرح هؤلاء ، وتعصبهم فى ضلالتهم ، ولجاجتهم فى غوايتهم ، بخلاف أهل الإسلام : فإنهم يتضجرون ، ولا يصبرون ، بل يتفللون ، ولا يجتمعون ، ويتسللون ، ولا يرجعون ، وإنما يقيمون ببذل نفقة ، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة [١] . . . » ، كما شكا الأدب مرة أخرى من تفرق كلمة الإسلام حينا [٢] ، ومن أن طائفة من المسلمين تناصر العدو وتتفق معه [٣] . وهكذا عبر الأدب عما كان يشعر به مخلصو المسلمين : من أسى ، وأسف ، لرؤية هؤلاء الغزاة يوطدون أقدامهم فيما اغتصبوه ، من أرض ، وتتضافر جموعهم ، برغم بعد الدار ، وفراق الأهل ، وكان الأدب محقاً فى ألمه وشكواه ، فلم يكن المسلمون فى وضع يغبطون عليه ، وفى كل حين تتجدد عليهم غارات العدو الدخيل ، فتتمزق أوصال بلادهم ، ويقاسون أشد ألوان العذاب ، ولا يجدون من ملوك الإسلام تضافراً يرد بغى العدو وبطشه ، بل مضوا يعنون بمصالحهم الخاصة ، ويكيد بعضهم لبعض ، وينازع أخاه ما تحت يده ، ويتفق بعضهم مع العدو على أخيه ، ولو أن الجهود قد تضافرت ، واتفقت كلمة المسلمين على التضحية والجهاد ، واضعين نصب أعينهم أولا وقبل

---

(١) الروضتين ٢ : ١٦١ . (٢) المرجع السابق ١ : ٤٢ .
(٣) المرجع السابق ٢ : ٩ .

كل شيء إنقاذ البلاد — ما احتاج إخراج العدو إلى قرنين من الزمان، ومما هو جدير بالذكر أن هذا الأدب الشاكي الباكي له أكبر نصيب من الصدق، لأنه يستوحي الشعور وحده، ولم يصدر إلا عن إحساس عميق، وانفعال بالغ، ولا تدفع إليه رغبة ولا رهبة.

٦ - خوف وذعر

وقل هذا اللون فى أدب الحروب الصليبية، فبرغم قسوة الغارات الصليبية، وكثرتها، لم أجد أدبا يعبر عن الفزع والرعب الذى ساد البلاد وملأ القلوب. ويظهر لى أن علة ذلك هو أن النفس غالباً تسجل إحساسها بعد أن تهدأ، فإذا ذهب الخوف عن النفس. انصرفت هذه الطاقة النفسية تلتمس التغلب على هـذا الذعر، بالابتهال إلى الله حيناً، والانصراف إلى التجمع للانتصار عليه، ولهذا نرى الرسائل التى تتحدث عن مقدم العدو، بعد أن تتحدث عن عنفه، وقسوته، وما ينتظر أن يكون منه من ظلم وإرهاق — تدعو إلى اجتماع الكلمة، وتضافر القوى، كى يرد العدو المعتدى على عقبيه، ومن الشعر الذى دفع فيه الخوف إلى الابتهال قول عمارة اليمنى، حين أرجف الناس بقصد الفرنج أرض مصر:

يارب، إنى أرى مصراً قد انتبهت ... لها عيون الأعادى بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقيـــة ... واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عوناً نستجير به ... من فتنة يتلظى جمر وقدتهـــا (١)

ولا يدل الأدب على أن أخبار إمداد العدو كانت تتلق بالخوف والذعر، بل كادت تستقبل بالهدوء والتريث، وأحياناً بالتهديد والوعيد. فن ذلك ما قاله أبو الفضل الجليانى، وقد ورد الخبر بخروج ملك الألمان لحرب مقدسة صليبية، بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس:

يا منقذ القدس من أيدى جبابرة ... قد أقسموا بذراع الرب تدخله
أما رأيت ابن أيوب اســـتقل بما ... يعيي الزمان وأهليـــه تحمله

---

(١) مختار ديوان عمارة ص ١٨٩ — ١٩٠.

هاج الفرنج وقد خاروا لفتكته ... فاستقروا كل مرهوب تغلغله
لما سبى القدس قالوا : كيف نتركها ... والرب فى حفرة منها تمثله
فكم مليك لهم شق البحار سرى ... لينصر القبر ، والأقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بفلا ... إلى الصوامع ألفاه ترحله
استصرخوا الأهل ، والعدوى تمزقهم ... واستكثروا المال ، والهيجا تنفله
سيف أمام فلسطين ، يرى أبدا ... خلف البحار لقد أمهاه (١) صيقله
كم قد أعدوا ، وكم قد فل جمعهم ... من غير ضرب ، ولا طعن يزيله
وإنما اسم صلاح الدين يذكر فى ... جيش العدو فيسبيهم تخيله (٢)

ولا ريب أن شخصية صلاح الدين هى التى أوحت إلى الشاعر بهذه الثقة وذلك الاطمئنان ، برغم الموقف الذى يثير الرهبة والخوف ، كما كانت هذه الشخصية سبب اطمئنان الرشيد بن النابلسى ، عندما قصد الفرنج بيت المقدس ، يريدون استخلاصه ثانية من يد المسلمين ، فقال :

ويح الفرنجة ، بل ويل امهم ، أوما ... فيهم لبيب على العلات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا إذا انتظموا ... وكم نظمتهم طعنا ، إذا انتشروا
كم قد سقيتهم ذلا ، فلا عجب ... إن عربدوا سفها ، فالقوم قد سكروا
إن يمموك فلا بدع لجهلهم ... تسعى إلى الأسد فى غاباتها الحمر
فحام عن حوطة البيت المقدس ، لا ... خوف ، وحاشاك من خوف ، ولا ضرر
هو الشريك ، وقد ناداك معتصما ... فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الأيام هفوتها ... وتحصد الفئة الأوغاد ما بذروا (٣)

فبرغم أخذ العدو لعكا ، واضطرار صلاح الدين إلى تخريب عسقلان ، لا نجد فى الأدب ذعرا ، ولا يحدثنا عن قلق ولا خوف ، بل إن التهديد الذى كان يخيفهم به ملوك الفرنج ، يجل الأدب مقابلته بالثبات ، والثقة الرزينة . كتب لويس التاسع ملك فرنسا الذى قاد الحملة الصليبية إلى مصر رسالة إلى الصالح أيوب ، هذا نصها :

---

(١) أمهى الحديدة : أحدها ، وسقاها الماء .
(٢) الروضتين ٢ : ١٥١ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٤ .

« أما بعد ، فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنه لا يخفى على أنك أمين الأمة المحمدية ، وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس، وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل الرجال ، ونستأثر بالبنات والصبيان ، وتخلى منهم الديار . وأنا قد أبديت لك الكفاية ، وبذلت لك النصيحة إلى الغاية والنهاية ، فلو حلفت لى بكل الأيمان، وأدخلت على القسس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، لكنت واصلا إليك ، وقاتلك فى أعز البقاع عليك ، فإما أن تكون البلاد لى ، فياهدية حصلت فى يدى ، وإما أن تكون البلاد لك ، والغلبة على ، فيدك اليمنى ممتدة إلى، وقد عرفتك وعرفت ما قلت لك . وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى ، تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء [1] » .

فكتب إليه بهاء الدين جواب هذه الرسالة قائلا : « بسم الله الرحمن الرحيم . وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين . أما بعد ، فإنه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، وعدد أبطالك، ونحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه ، فلو رأت عينك أيها المغرور حد سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل ، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم ، فى يوم أوله لنا ، وآخره عليك ، فهنالك تسيء الظنون ، (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) . فإذا قرأت كتابى هذا فتكون منه على أول سورة النحل: (أتى أمر الله فلا تستعجلوه)، وتكون أيضاً على آخر سورة ص : (ولتعلمن نبأه بعد حين)، ونعود إلى قوله تعالى ، وهو أصدق القائلين : (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين) وقول الحكماء : (إن الباغى له مصرع) وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يسلمك ، والسلام [2] » .

ومما يلحظ أن رسالة ملك فرنسا كانت ترمى إلى تحطيم القوة المعنوية فى نفوس المسلمين ، وبث الرعب والخوف فى قلوبهم ، بوضع صورة شوهاء لمسلمى الأندلس أمام أعين المصريين ، تحذر هؤلاء مصيراً مشئوما كمصير أولئك، وبوصف ضخامة الجيش الغازى الذى يملأ السهل والجبل ، وبرغم أن هذه الرسالة أثارت الملك الصالح ، حتى بكى ، كما يقول مؤرخوه ، فإنه لم

---

(١) خطط المقريزى ١ : ٣٥٤ . (٢) المرجع السابق نفسه .

يهن ، وقد كان بكاؤه لهذا المرض الذى أقعده ، فلم يستطع حراكا ، وقد كان بوده أن لو شارك بسيفه فى ميدان القتال ، ولكنه كان كبير الأمل فى النصر . ومع ضخامة أمله كان ينبوع قوته اعتماده على ربه الذى يهزم الفئة الكثيرة بالطائفة القليلة . وكما وضع كتاب ملك فرنسا أمام الصالح صورة مسلمى الأندلس ، وضع الصالح أمام ملك فرنسا صورة المعارك التى هزم فيها الفرنج بالشام ، ودمرت حصونهم، وفتحت بلادهم ، ويستشهد له بآى القرآن ، ليؤكد له صلابة إيمانه ، وقوة يقينه ، وليوحى إليه بأن الكتاب الذى يعتقد صحته يكفل له النصر ، ويضمن له النجاح ، وهو لذلك يتقدم إلى المعركة ثابت الجنان ، مطمئن القلب ، كله ثقة ويقين ، ولا ريب أن ذلك يضعف من القوى المعنوية للعدو ، إذ يرى نفسه أمام خصم عنيد ، واثق بنفسه .

خلا الأدب العربى إذاً من روح الخوف والفزع ، أو كاد ، وإذا كان بعضه قد صور المآسى التى قام بها الفرنج يومئذ ، فلم يكن ذلك لتحطيم الروح المعنوية ، ولا لبث الفشل فى صفوف المسلمين ، ولكن لإثاره الحمية ، وتجمع القوى ، ولم شعث الجهود المتفرقة ، وقد أدى الأدب واجبه فى هذه السبيل ، فعمل بقدر ما يستطيع على حفظ الروح المعنوية قوية عالية ، وتلك إحدى غايات الأدب الاجتماعية .

٧ — تهديد ووعيد

نستطيع أن نلمس فى الأدب صورة لما كان يشعر به الفريقان المتحاربان : من بأس ، وقوة ، يعتدان بها ، ويزهوان بما معهما منها . وشعورهما بالقوة هو الذى يوحى إليهما بالتهديد ، وإرسال الوعيد ، وكان كلا الفريقين يتخذ منه وسيلة لتحطيم القوة المعنوية لدى خصمه ، وكان التهديد فى القرن الأول من قرنى الحروب الصليبية ، والنصف الأول من القرن الثانى ، يأتى من قبل الصليبيين ، وكان وعيدهم مليئاً بالطنطنة والادعاء ، يحيط به الكبرياء والجبروت ، وقد رأينا شيئاً من ذلك فى الكتاب الذى أرسله ملك الفرنج مع رسوله إلى الملك الكامل ، يقول له : الملك يقول لك : كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شىء ، ولا أجىء إليهم ، والآن قد كنتم بذلتم لنائبى فى زمن حصار دمياط الساحل كله ، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية ، وما فعلنا ، وقد فعل الله لكم ما فعل : من ظفركم ، وإعادتها إليكم . ومن نائبى ؟ إن هو إلا أقل غلمانى ، فلا أقل من إعطائى ما كنتم بذلتموه له[١] » .

(١) السلوك ١ : ٢٢٨ .

ولكن يظهر أنه بعد معركة المنصورة الثانية التي انتهت بفوز المصريين سنة ٦٤٨ هـ، وتحطيم جيش الصليبيين تحطيما كاملا، وأسر ملكه وأمرائه، وحبسهم في بيت ابن لقمان — خضدت شوكة هؤلاء الفرنج، وأفل نجمهم في بلاد الشام، وأصبح المسلمون ينظرون إليهم نظرتهم إلى غاصب موقوت الأجل، ضعيف المنة، من المستطاع التغلب عليه في يسر وسهولة، فانتقل المسلمون إلى التهديد والوعيد. ويمتاز تهديد الأدب العربي بالسخرية والتهكم. يبدو ذلك في شعر ابن مطروح، وقد قيل: إن ملك فرنسا يتهيأ لغزو مصر، بعد هزيمته لدى المنصورة، فقال الشاعر [1].

قل للفرنسيس، إذا جئته ... مقال صدق، من قئول فصيح:
آجرك الله على ما مضى: ... من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصرا تبتغي أخذها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
رحت، وأصحابك أودعتهم ... بقبح أفعالك، بطن الضريح
خمسون ألفاً، لا يرى منهم ... إلا قتيل، أو أسير جريح
فردك الله إلى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا، إنه ... أنصح من شق لكم، أو سطيح
وقل لهم، إن أضمروا عودة ... لأخذ ثأر، أو لقصد صحيح:
دار ابن لقمان على عهدها ... والقيد باق، والطواشي صبيح [2]

وهي قطعة مليئة بالتهكم والسخرية والتهديد معاً، فهو يدعو له الله أن يجزيه خير جزاء، عما أسدى: من قتل المشركين عبدة المسيح، يتهكم بسوء ما تعرض له من نتيجة، ما كان ينتظرها، حين قدم إلى مصر، ظانا أنها قريبة المنال، سهلة الأخذ، ولم يكن يدرى أن خاتمة ذلك قيد من حديد يمسكه، فلا يستطيع الانطلاق، فتضيق الدنيا في عهده، ولم يكن يعلم أنه سيعود منهزما وحيداً، قد خلف أصحابه في القبور، تحت ثرى مصر، أما جيشه الضخم اللجب ذو الخمسين

(١) ديوان بن مطروح ص ١٨١ . (٢) خادم كان موكلا بالملك الأسير القيد .

ألفا فلم يفلت منه أحد ، ومضى بين قتيل وأسير أثخن بالجراح ، والشاعر يدعو أن يعود الملك إلى حرب أخرى ، عسى أن يصيبه ما أصابه فى الأولى ، فيستريح عيسى منهم ، ومن دعاواهم ، والبيتان الأخيران فيهما تهديد الواثق المطمئن الذى لا يخاف .

وقال آخر ، وألم بهذا المعنى أيضاً :

قل للفرنسيس : إن كلا ... له من المسلمين شاكر
لأنه محسن إلينا ... بفوده نحونا العساكر
ساق إلى مصر ما اقتنته ... أمة عيسى من الذخائر
وأورد الجمع بحر حرب ... مصدره بالمنون آخر
أوردهم أدهما خضما ... ورابح الشر فهو خاسر
ورام باباهم أموراً ... فأخلفت ظنه المقادر
وأذهل القوم هول حرب ... تشخص من خوفه النواظر
لم تعم أبصارهم ، ولكن ... قد عميت منهم البصائر
فإن يعد طالبا لثأر ... من أرض دمياط ، فليبادر
فذلك البحر تعرفوه ... والسيف ماض ، والجيش حاضر
أعاده الله عن قريب ... لمثلها ، إنه لقادر
بحيث لم يبق للنصارى ... من بعد كسر الصليب جابر
ويستريح المسيح منهم ... من كل علج وكل كافر[1]

وهى قطعة لا تقل فى السخرية والتهكم والتهديد عن سابقتها ، وتكاد تنهج نهجها مما تجعلنا نرجح أن واحدة قد تأثرت بصاحبتها .

أما أكبر سلطان مسلم تهكم بهم فهو الظاهر بيبرس ، الذى توجه إلى الفرنج بكل ما يملك من قوة ، راجياً أن يحطم قواهم ، ويستخلص البلاد من أيديهم ، وكان يشعر بقوته وضعفهم ، فيخاطبهم بلهجة القوى الواثق .[2] وله رسائل كتب بها إلى ملوك الفرنج ، كلها وعيد وسخرية ، فله رسالة كتب بها إلى ملك قبرص يتوعده ، بعد أن تحطمت السفن المصرية على شواطىء

(١) فوات الوفيات ١ : ٨٤ .

(٢) راجع السلوك ١ : ٤٨٣ وما يليها .

الجزيرة ، بعاصفة حطمتها (١) ، كلها تهكم وسخرية ، ورسائل إلى فرسان الاسبتار (٢) . ومن ذلك كتاب أرسله إلى بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس، بعد فتح أنطاكية سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) وفيه :

قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام، الأسد الضرغام : بيمند ، فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية ، المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية منه من البرنسية إلى القوموصية (٣) ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عليه — ما كان من قصدنا طرابلس، وغزونا له فى عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من إخراب العمائر ، وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال ، واستخدمت الأولاد ، وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الأشجار ، ولم يترك إلا مايصلح لأعواد المجانيق إن شاء الله والستائر ، وكيف نهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم ، والأولاد ، والمواشى ، وكيف استغنى الفقير ، وتأهل العازب ، واستخدم الخديم ، وركب الماشى .

هذا وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا قلت فزعا : على هذا الصوت . وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود ،وأخرناك وماكان تأخيرك إلا لأجل معدود، وكيف فارقنا بلادك ، وما بقيت ماشية ، إلا وهى لدينا ماشية، ولا جارية، إلا وهى فى ملكنا جارية ، ولا سارية ، إلا وهى من أيدى المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعتك تلك المغاير التى هى فى رءوس الجبال الشاهقة، ولا تلك الأودية التى هى فى التخوم مخترقة ، وللعقول خارقة ، وكيف سقنا عنك ، ولم يسبقنا إلى مدينتك أنطاكية خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تصدق أننا نبعد عنك ، وإن بعدنا فسنعود على الأثر .

وها نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذى عم ، كان رحيلنا عنك عن طرابلس يوم الأربعاء ، رابع عشر شعبان ، ونزولنا أنطاكية فى مستهل شهر رمضان ،وفى حالة النزول

---

(١) الرسالة فى السلوك ١ : ٥٩٤ . (٢) المرجع السابق ص ٤٩١ .

(٣) أى أنه بعد أن أخذت أنطاكية منه صار يدعى القومس وهو معرب اللفظ اللاتينى (Comes) وفى الفرنسية conte بدل أن كان يدعى وهو مالك أنطاكية بالبرنس، معرب كلمة prince فى الفرنسية والإنجليزية.

خرجت عساكرك المبارزة ، فكسروا ، وتناصروا ، فانصروا ، وأسر من بينهم (كنداسطبل)[١] فسأل مراجعة أصحابك ، فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك ، وأعيان أعوانك ، فتحدثوا معنا ، فرأيناهم على رأيك : من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، وأن رأيهم فى الخير مختلف ، وقولهم فى الشر واحد ، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم ، وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الأول فى الإنذار والآخر ، فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففى بعض ساعة مرشان (المرشان)[٢] وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان[٣] وجاءهم الموت من كل مكان .

وفتحناها بالسيف ، فى الساعة الرابعة من يوم السبت ، رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها ، والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شىء من الدنيا ، فما بقى أحد منا إلا وعنده شىء منهم ومنها .

فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهى توزن بالقنطار ، وداماتك وكل أربع منهن تباع فتشترى من مالك بدينار ، ولو رأيت كنائسك ، وصلبانها قد كسرت ونشرت ، وصحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت ، ولو رأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القداس ، والمذبح وقد ذبح فيه الراهب والقسيس والشماس ، والبطارقة وقد دهموا بطارقة ، وأبناء المملكة ، قد دخلوا فى المملكة ، ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت ، وكنيسة بولص ، وكنيسة القسيان ، وقد ذلت وزالت ، لكنت تقول : ياليتنى كنت ترابا ، وياليتنى لم أوت بهذا الخبر كتابا ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفىء تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك ، وقد أقفرت من معانيك ، ومراكبك وقد أخذت فى السويدية بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقنت أن الله الذى أعطاك أنطاكية منك استرجعها ، والرب الذى أعطاك قلعتها منك قلعها ، ومن الأرض اقتلعها .

(١) معرب اللفظ اللاتينى المركب (comes stabuli) ومعناه فى مصطلح العصور الوسطى الأوربية : حاكم القلعة وحارسها ، ويقابله فى مصطلح الدول الإسلامية لفظا (دزدار) و (مستحفظ) هامش السلوك ١ : ٩٦٧ .

(٢) تعريب لفظ (mareschal) فى الفرنسية القديمة ، ومعناه فى مصطلح التاريخ الأوربى فى العصور الوسطى : « منظم الحفلات والمجالس » هامش السلوك ١ . ٩٦٧ .

(٣) القسطلان معرب اللفظ اللاتينى (castellanus) وهو حارس القصر هامش السلوك ١ : ٩٦٧ .

ولتعلم أنا قد أخذنا بحمدالله منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام ، وهو ديركوش ، وشقيف تلميس ، وشقيف كفردبين . وجميع ما كان فى بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصياصى ، وفرقناهم فى الدانى والقاصى .

وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك ، بما وهبك الله من السلامة ، وطول العمر ، بكونك لم يكن لك فى أنطاكية ، فى هذه المرة إقامة ، وكونك ما كنت بها ، فتكون إما قتيلا ، وإما أسيراً ، وإما جريحا ، وإما كسيراً ، وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحى إذا شاهد الأموات ، ولعل الله ما أخرك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات ، ولما لم يسلم أحد يخبرك بما جرى خبرناك ، ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك ، وهلاك ما سواها ، باشرناك بهذه المفاوضة وبشرناك ، لتتحقق الأمر على ما جرى .

وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تكذب لنا خبراً ، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبراً (١) .

والرسالة طويلة كتبت بأسلوب ينم عن البهجة بما أحرزه الظاهر بيبرس من نصر ، وعن الشعور بقوة الظاهر ، حتى لا يبالى بإثارة عدوه ، ودفعه إلى القتال ، وعن تهكم قاس مر بالأمير ونائبه ، ووعيد ، وتهديد بأنه سيعود إليه فى القريب ، إن لم يفيء إلى الطاعة وظلالها . وكتابه الثانى الذى أرسله إلى بوهمند أيضا بعد فتح بلدة عكار سنة ٦٦٩ ﻫ أصرح من هذا تهديداً ، وأشد وعيداً ، وقد دعاه فى أول هذه الرسالة إلى أن ينظر لنفسه ، ويفكر فى عاقبة أمره من أمسه ، حتى لا يندم حين لا ينفعه ندم . وحدثه فيها عما لديه : من قوة حربية ، يستطيع بها أن ينقل المنجنيقات إلى جبال تستصعبها الطيور ، لاختيار الأوكار ، وينصبها على أمكنة يزلق النمل إذا مشى عليها ، وأخبره أنه أطلق بعض رجاله من الأسر ليحدثوا القومص بما جرى ، ويحذروا أهل طرابلس من أنهم يغترون بحديثك المفترى .... ويفهموكم أنه ما بقى من حياتكم إلا القليل ، وأنهم ما تركونا إلا على رحيل ، فنعرف كنائسك وأسوارك ، أن المنجنيقات تسلم عليها ، إلى حين الاجتماع عن قريب ، ونعلم أجساد فرسانك أن السيوف تقول : إنها عن الضيافة لا تغيب ، لأن أهل عكار ما سدوا لها جوعا . . يعلم القومص هذه

---

(١) السلوك ١ : ٥٦٦ . وفيه : ولما وصل إليه هذا الكتاب اشتد غضبه ، ولم يبلغه خبر أنطاكية إلا من هذا الكتاب .

الجملة ويعمل بها ، وإلا فيجهز مراكبه ، ومراكب أصحابه ، وإلا فقد جهزنا قيودهم وقيوده[1] . وهذا أقصى ماوصل إليه التهديد عند بيبرس ، وليس وراءه من تهديد . وتستطيع بذلك أن توازن بين ما وصل إليه المسلمون : من شعور بالقوة فى عهد بيبرس ، وبين ما كانوا عليه من شعور بالضعف يوم أرسل شاور إلى مرى يحبب إليه الصلح ، ويزينه له ، ويغريه بمال يقدمه إليه ، يحصل له عفوا [2] . وفرح شاور عند ما قبل الملك عقد الهدنة ، على أن يقدم إليه ذليلا ألفى ألف دينار ، كما قيل ، وعجل له منها مائة ألف دينار .

٨ - تهنئة وبشرى وفرح

١ — كان الأدب العربي يرقب عن كثب أحداث الحروب الصليبية ، وأحوال رجالها، فيحيطهم بخير ما يملك من شعر ونثر ، إذا ظفروا وانتصروا . يستقبلهم فرحا ، ويهنئهم ، إذا عادوا ناجحين ، أو إذا خرجوا من شدة ، أو سلموا من مرض ، أو نجحوا فى سياسة . وامتلأت صفحات الكتب بهذه التهنئات المبتهجة التى تسجل فرح العالم الإسلامى بما ينجح فيه هؤلاء الأبطال، أو ينالون من خير ، أو يظفرون به من سعادة ، والأدب حين يحيط هؤلاء الرجال بحبه ، يقدس فيهم أول ما يقدس تكريسهم الجهود لخدمة المسلمين ، وصيانة الإسلام ، ويشيد بما سيكون لأعمالهم من جليل الآثار ، فترى أسامة بن منقذ يهنىء معين الدين أنر ، بما كتب له من ظفر فى جهاد الفرنج ، ويقول له :

كل يوم فتح مبين ونصر ‏ واعتلاء على الأعادى وقهر
صدق النعت فيك ، أنت معين ‏ الدين ، إن النعوت فأل وزجر
أنت سيف الإسلام حقا ، فلافـل غراريك، أيها السيف ، دهر
بك زاد الإسلام ياسيفه المخذم عـزا ، وذل شرك وكفر
ثق بإدراك ما تؤمل ، إن اللـه يجزى العباد عما أسروا
لم تزل تضمر الجهاد مسرا ‏ ثم أعلنت ، حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى ، وذخرا ‏ كهما الباقيان : أجر وشكر[3]

(١) الرسالة كلها فى السلوك ١ : ٩٧٢ . ‏ (٢) الرسالة فى الروضتين ١ : ١٧١ .
(٣) ديوان أسامة بن منقذ ص ٢٠٥ .

ومما قيل فى تهنئة نور الدين بالعافية من مرض نزل به قول ابن منير :

يا شمس ، لا كسف ، ولا تكدار ولا خلت من نورك الأنوار
البدر منقوص ، وأنت كامل لك السرايا ، وله السرار
برؤك للإسلام من أدوائه برء ، وفى أعدائه بوار
ما أنت إلا السيف صد صدأ عن متنه مضربه البتار
لو كان محمولا أذى عن منفس حملته دونك الأبصار
ولو فدت أرض سماء ساقت الملوك فى فدائك الأمصار
أنت غياث محلهم، إن أجدبوا وخيرهم ، إن ذكر الخيار
وفى سرير الملك منها ملك لله فى سرائه أسرار
مد على الدين رواق دولة تنازعت أسمارها السمار
علت بناء ، وحلت فى يده فهى عليه السور والسوار
يا نور دين أظلمت آفاقه لو لم تبلج هذه الآثار
سلمت للإسلام ترعى سرحه إذا عتا رعاته ، وجاروا
شكوت ، فالدنيا على سكانها قرارة جانبها القرار
لا عدمت منك الأمانى ربها معطى من الإقبال ما يختار
ما سمح الدهر بأن تبق لنا فكل جرح مسنا جبار(١)

فهو يهنىء فى شخصه برء الإسلام ، إذا برىء ، ويراه راعيا للدين، يحوطه بعنايته ، ويرعى أهله بالعدل والقسطاس ، وهذه المعانى التى وردت على خاطر الشاعر أثارتها هذه الحروب الصليبية ، التى يحتاج فيها المسلمون إلى من يسهر على حياطتهم ، ويذب عنهم أعداءهم . ومن ذلك ما كتب به القاضى الفاضل من دمشق إلى تقى الدين بمصر ، يهنئه بعافية السلطان من مرض أرجف الناس بموته منه : « إن العافية الناصرية قد استفاضت أخبارها ، وفاضت أنوارها وآثارها ، وولت العلة ، والحمد لله ، وأطفئت نارها ، وانجلى غبارها ، وخمد شرارها وما كانت إلا فلتة ، وقى الله شرها ، وعظيمة كفى الإسلام أمرها ، ونوبة امتحن الله بها

(١) الروضتين ١ : ١١٠ .

نفوسنا ، فرأى أقل ما عندها صبرها ، وما كان الله ليضيع الدعاء وقد أخلصته القلوب ، ولا ليوقف الإجابة ، وإن سدت طريقها الذنوب ، ولا ليخلف وعد فرج وقد أيس الصاحب والمصحوب .

نعى زاد فيـــه الدهر ميما فأصبح بعد بؤســاء نعيما
وما صـــدق النذير به ، لأنى رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة ، والعزمة ماضية حديدة ، والنشاط إلى الجهاد والجنة ، مبسوط البساط ، وقد انقضى الحساب ، وجزنا الصراط ، وعرضنا نحن على الأهوال التى من خوفها كان الجمل يلج فى سم الخياط (١) .

فن أثر الحروب الصليبية فى هذه الرسالة بيان ما كاد يصاب به الإسلام من كارثة ، لو أن الدهر نفذ وعيده فى صلاح الدين ، وليس ذلك إلا لمكانته بطلا من أبطاله ، يرد عنه كيد أعاديه ، وهو لم يستقبل العافية غضة جديدة ، إلا لينشط إلى الجهاد ، ويعد نفسه للنصر فيه. وهكذا كان الأدب يرى من واجبه أن يقف إلى جانب هؤلاء الأبطال ، يسعد بمباهجهم ، ويتغنى بما يسعدهم ، لأن سعادتهم سعادة للإسلام الذى يدافعون عنه .

٢ — ومضى الأدب كذلك مبتهجاً طرباً يذيع أنباء النصر فى أرجاء العالم الإسلامى ، ويحمل بشرى الفتوح إلى الخلفاء والولاة والأمراء ، ليذيع ذلك بين أبناء الشعب ، فتقوى الروح المعنوية فيه ، ويشتد ساعده ، فيسدد سهمه إلى العدو ، وليقضى عليه القضاء الأخير . وإذاعة أخبار النصر كفيلة بحفظ هذه الروح قوية متوثبة ، فبعد النصر يمضى أعاظم كتاب الدولة يؤلفون رسائل ، تحمل إلى القاصى والدانى خبر هذا النصر ، مصورة له ، معظمة من أمره ، شارحة كيف تم ، وما نتائجه ، وكلما كان أمر الفتح عظيما ، مجده كتاب البشرى ، وكثرت لأجله كتب البشائر . قال العماد الكاتب، وهو يتحدث عن فتح بيت المقدس فى عهد صلاح الدين : كتبت فى ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة ، كل كتاب بمعنى بديع وعبارة (٢) .

وكثرت رسائل صلاح الدين إلى بغداد ، تحمل بشرى أنباء فتوحه الكثيرة ، كما كان يرسل إليها من قبله نور الدين محمود ، وكما كان يرسل صلاح الدين إلى أرجاء العالم الإسلامى

---

(١) المرجع السابق ٢ : ٦٦ . (١) الروضتين ٢ : ٩٦

أنباء هذه الفتوح . واقتدى بهما من جاء بعدهما فى ذلك . ومنه ما أرسله المعظم توران شاه إلى جمال الدين يغمور نائب الشام بعد هزيمة الفرنج ، لدى المنصورة سنة ٦٤٨ هـ ، وفيها يقول : « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » ، « وما النصر إلا من عند الله » ، « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » ، « وأما بنعمة ربك فحدث » ، « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » . نبشر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشر الإسلام كافة ، بما من الله به على المسلمين ، من الظفر بعدو الدين ، فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والأولاد ، فنودوا : « ولا تيئسوا من روح الله ؛ إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الفاسقون » . ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة ، تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة ، واجتمع خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى ، فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق ، ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح ، على ما وقع عليه الاتفاق بينهم وبين الملك العادل أبى بكر ، فأبينا ، ولما كان فى الليل تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا فى آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل فيهم عامة الليل ، ويدخل فيهم الخزى والويل ، فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفاً ، غير من ألقى نفسه فى اللجج . وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس إلى المنية ، وطلب الأمان ، فأمناه ، وأخذناه ، وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعونه وقوته ، وجلاله وعظمته (١) . وتجد كثيراً من كتب البشارة فى صبح الأعشى (٢) ، والنجوم الزاهرة (٣) والسلوك (٤) والروضتين (٥) . وتشترك هذه الرسائل فى أنها كتبت بالنثر دون الشعر ، ليكون المجال واسعاً للتفصيل والتوضيح ، من غير أن يكون ثمة قيد يحد دون ذلك ، وقد تأنق الكتاب فيها ، فاقتبسوا من القرآن آيات تزيد الفكرة رسوخاً وقوة ، وتحدث فى النفس أبلغ الأثر ، وكان للقرآن قيمته هنا ؛ لأن المقام مقام انتصار لدين هذا الكتاب ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٦٧ .

(٢) ٦ : ٤٤٩ و٥١٧ و٧ : ٣٥٣ و٣٦٦ و٩٤ : ١٣٩ و٧ : ٢٢ و٢٧ و٨٨ و٣٥٣ و٣٦٦ و٩٤ : ١٣٩ .

(٣) ٦ و٣٦٧ و٧ : ٣٢٢ .

(٤) ١ : ١٠٠٥ و١٠٠٧ .

(٥) ١ : ٢١٥/٢١٨ و٢ : ٣٧/٥٠/٥١/٩٦/٩٩/١٠٠/١٢٨/١٣١/١٣٢/١٣٤/١٣٧/١٧٧ .

(٦) الروضتين ١ : ٢٣٤ .

فضلا عن روعته النفسية ، وتأثيره الروحى ، على قوم فى هذه الحالة الانفعالية . وتمضى الرسالة موجزة حيناً ، ومطنبة حيناً آخر ، وتتسم كلها بالبهجة ، والتفاؤل ، والأمل . وهى صريحة فى وصف نفسية المسلمين ، قبل الفتح وبعده ، فحينا هم شاعرون بقوتهم ، مرجحون النصر والظفر ، وحيناً هم مستكثرون لقوة العدو ، فيلجئون إلى الله ، يستمدون منه قوة معنوية ، تعينهم عليه .

٣ — ولم يقتصر ابتهاج الأدب على النصر فى معارك القتال ، بل ابتهج كذلك بكل ما يسوء الفرنج ، ويؤذن بضعف سلطانهم ، وانهيار قوتهم ، ويعرضهم للمهانة .

كتب القاضى الفاضل رسالة ، لما توفى ملك الفرنج مرى ، جاء فيها : « ورد كتاب من الداروم يذكر أنه لما كان عشية الخميس ، تاسع ذى الحجة،هلك مرى ملك الفرنج ، لعنه الله ، ونقله إلى عذاب مثله مشتقاً ، وأقدمه على نار تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى [٦] » .

وفى يوم وصلت الأسرى من الفرنج ، ورءوس قتلاهم إلى دمشق ، وقد ركبوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ، ومعهما راية من راياتهم منشورة،وفيها من جلود رءوسهم بشعرها عدة ، والمقدمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل منهم على فرس،وعليه الزردية ، والخوذة، وفى يده راية ، والرجال كل ثلاثة أوأربعة وأقل وأ كثرفى حبل ، وخرج من أهل البلد الخلق الذى لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنساء والصبيان ، وأ كثروا شكر الله تعالى ، ووصف بعض الشعراء هذه البهجة الشاملة بقوله :

ما رأينا فيما تقدم يوما ... كامل الحسن غاية فى البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم ... ذلة الأسر والبلا والفناء
وبراياتهم على العيس زفوا ... بين ذل ، وحسرة ، وعناء
بعد عزلهم ، وهيبة ذكر ... فى مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادى ... عند شن الإغارة الشعواء
لا حمى الله شملهم من شتات ... بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر ... وجزاء الشكور خير الجزاء
ولرب العباد حمد وشكر ... دائم مع تواصل النعماء [١]

---

(١) الروضتين ١ : ١٠٨ .

وقد تجمع الفرح الساخر كله فى تصويرهم يزفون على العيس ، يحملون راياتهم التى كانوا يرجون حملها منتصرين ، ثم يأبى القدر الساخر إلا أن يمروا بها منهزمين ، أمام جموع شامتة بهم ، فيشعرون بالذل والحسرة والعناء . وإن هذا المصير المحزن ، بعد ما كان لهم من عز وهيبة ، هو مصدر الفرح الغامر .

وسر ابن يغمور نائب الملك بالشام،عند ما أرسل إليه الملك المعظم بغفارة[١] الفرنسيس، فلبسها ابن يغمور ، فى دست مملكته بدمشق ، وهى أشكر لاط [٢] احمر بفروسنجاب ، فيها بكلة [٣] ذهب . فكتب فى الجواب إلى الملك المعظم المذكور بيتين لابن إسرائيل ، وهما :

أسيد أملاك الزمان بأسرهم   تنجزت من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدا   ويلبس أسلاب الملوك عبيده

٩ ــ سلم ومعاهدات

على أن الأدب يظهر أن الصلة بين الفريقين المتحاربين من المسلمين والصليبيين لم تكن كلها صلة خصومة وقتال ، بل مضت فترات سالم فيها كل صاحبه ، وعقد معه معاهدات صلح محدودة الأجل ، بل أثبت الأدب أن المجاملة قد سادت علاقات الفريقين حيناً من الزمن ، ومع ذلك لم يدع أحدهما الإعداد لصاحبه ، ولا التهيؤ للقائه فى ميدان القتال ، ولأنقل هنا نص رسالتين أوردهما صاحب صبح الأعشى، تبينان بجلاء مدى ما كان يسيطر على العلاقات أحيانا من هذه المجاملة :

كتب القاضى الفاضل عن السلطان صلاح الدين إلى بردويل ، وهو يومئذ مستول على بيت المقدس وما معه معزيا له فى أبيه ، ومهنئاً له بجلوسه فى الملك بعده : « أما بعد، خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد ، والسعد الساعد ، والحظ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهنأه من ملك قومه ماورثه ، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحدثه ، فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصادق [٤] ، والنعى الذى وددنا أن قائله غير صادق ،

---

(١) الغفارة . المعطف .   (٢) نوع من النسيج كان يرد من بلاد إيرلندة لونه قرمزى écarlate .
(٣) معرب الكلمة الفرنسية boucle ومعناها المشبك .
(٤) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٦٧ .
(٥) أصادق : جمع أصدقاء ، وهى جمع صديق .

بالملك العادل الأعز الذى لقاه الله خير ما لقى مثله ، وبلغ الابن سعادته كما بلغه محله ، معز بما يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقده الذى عظمت به الأرزاء ، إلا أن الله سبحانه قد هون الحادث ، بأن جعل ولده الوارث ، وأنسى المصاب ، بأن حفظ به النصاب ، ووهبه النعمتين : الملك ، والشباب . فهنيئاً له ما حاز ، وسقياً لقبر والده ، الذى حق له الفداء لو جاز ، ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين أدام الله سلامته قائم عنا باقامة العزاء من لسانه ، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه . وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، وودنا الذى هو ميراثه عن والده من ودادنا ، فليلق التحية بمثلها ، وليأت الحسنة ليكون من أهلها ، وليعلم أنا له كما كنا لأبيه مودة صافية ، وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدها فى الحياة والوفاة ، وسريرة حكمت فى الدنيا بالموافاة ، مع مافى الدين من المخالفات ، فليسترسل إلينا استرسال الواثق الذى لايخجل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذى لا يحمل عن والده ما تحمل ، والله يديم تعميره ، ويحرس تأميره ، وقضى له بمرافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن الصديق »[١] . فنى الكتاب حديث عن مودة صافية ، ومحبة ثابتة بين الأب وصلاح الدين ، وحديث عن رسول أوفده صلاح الدين ليقوم بتعزية الملك فى وفاة أبيه ، وطلب أن يثق وارث العرش فى صلاح الدين ، كما يثق الابن فى أبيه ، وصدر الكتاب دعاء للملك الجديد بالجد الصاعد ، والسعد والحظ والتوفيق، وختامه دعاء كذلك ، ويضيف إليه الدعاء بطول العمر ، مصحوبا بإمارة محروسة .

والكتاب يطلب من الملك الجديد أن يدوم على العهد الذى كان عليه أبوه من قبل ، وأن يثق بصلاح الدين ، ويعتمد عليه ، وذلك كله يؤكد ما ذهبنا إليه : من أن الصلة بين الفريقين كانت المجاملات تسودها أحيانا ، حين كان السلم يستتب بين الطائفتين .

وهذا كتاب آخر كتبه بعض كتاب الدولة الأيوبية ، عن الملك الجواد أحد ملوكهم فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ، جواب كتاب ورد عليه من فرانك ، أحد ملوك الفرنج ، فى شعبان ، سنة ثلاثين وستمائة : « وردت المكاتبة الكريمة ، الصادرة عن المجلس العالى ، المولى الملك الأجل ، الأعز الكبير ، المؤيد الخطير ، العالم العامل ، الظهير العادل ، الأوحد المجتبى ، شمس الملة النصرانية ، جلال الطائفة الصليبية ، عضد الأمة الفرنجية،

---

(٢) صبح الأعشى ٧ : ١١٥ .

فخر أبناء المعمودية ، عمدة الممالك ، ضابط العساكر المسيحية ، قيصر المعظم فلان ، معز إمام رومية ، ثبت الله لديه نعمه ، وعزز موارد جوده وديمه ، وأمضى صوارم عزائمه ، وأعلى هممه ، ولا برحت أنوار سعده تتلالا ، وأخبار مجده تبسط وتتعالى ، وسحائب الألسنة الناطقة بحمده تستهل وتتوالى ، إلى أن يتحلى جيد الضحى بعقود الليل ، وتطلع الشعرى من مطالع سهيل — تجدد الثناء على جلاله ، وأكد المديح لإحسانه وإفضاله ، وأنفس أسباب المودة والمصافة ، وشدد أواخي الإخلاص والموافاة ، فاستبشرت النفوس بوروده ، وسرت القلوب بوفوده ، ووقف منه على الإحسان الذى نعرفه ، ووجد عقده مشتملا على جواهر الوداد الذى نألفه ، فشكرا لله على هذه الألفة المنتظمة ، والمحبة الصادقة المكرمة . والمجلس العالى الملك الأجل ، أعلى الله قدره ، ونشر بالخير ذكره ، أولى من أهدى المسرات ، بورود المراسم والحاجات ، ووصل الأنس بكريم المكاتبات ، مضمنة السوانح والمهمات ، فأما ما ذكره المقام العالى السلطانى الملكى الكاملى الناصرى ، زاده الله شرفا وعلوا ، من أنه لا فرق بين المملكتين ، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده ، وخالص وده ، ولا زال ملكه عالياً ، وشرفه نامياً ، إن شاء الله تعالى [1] » فهذا الكتاب رد على رسالة لأحد ملوك الصليبيين أكدت ما بين الملكين من أسباب السلام ، ورغبة الملك الفرنجى فى الإبقاء على مظاهر المودة ، وكان الرد استجابة لهذه الرغبة ، وتأكيدا لبقاء تلك الصلة . ومما يلحظ فى هذا الكتاب الدعاء كذلك للملك الصليبى بدوام الملك ، وإشراق نور السعد والمجد ، كما أن فيه شكراً لله على انتظام المودة ، وبقاء شمل الألفة والمحبة الصادقة ، كما أكدت رسالة الملك الصليبى أن لا فرق بين المملكتين ، وهكذا حفظ لنا الأدب صورة للون آخر ، من ألوان العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، رأينا فيه تمجيداً لعاهل الفرنج ، ودعاء له بدوام السلطنة والسعادة . وهذه العلاقة الطيبة بين الفريقين أحيانا قد سجلها أسامة فى كتاب الاعتبار ، الذى يدل على أن كلا الفريقين فى وقت الصلح كان يؤمن بأنه سلام موقوت ، لا يلبث أن ينتهى . وخير ما يمثل ذلك ما رواه أسامة ، إذ قال : « نزل علينا دنكرى ، وهو أول أصحاب أنطاكية بعد ميمون ، فقاتلنا ثم اصطلحنا ، فنفذ يطلب حصانا لغلام لعمى عز الدين رحمه الله ، وكان فرساً جواداً ، فنفذه له عمى ، تحت رجل من أصحابنا كردى ، يقال له حسنون ، وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة ، دقيق ، ليسابق بالحصان بين يدى

---

(١) صبح الأعشى ٧ : ١١٧ .

دنكرى ، فسابق به ، فسبق الخيل المجراة كلها ، وحضر بين يدى دنكرى ، فصار الفرسان يكشفون سواعده ، ويتعجبون من دقته وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع ، فخلع عليه دنكرى ، فقال له حسنون : يا مولاى ، أريدك تعطينى أمانك ، أنك إن ظفرت بى فى القتال ، تصطنعنى ، فأعطاه أمانه على ما توهم حسنون ، فإنهم لا يتكلمون إلا بالإفرنجى ، ما ندرى ما يقولون [١] ... » . وهذه القصة وأمثالها واضحة الدلالة على ما نقوله.

وقد احتفظ التاريخ بكثير من معاهدات الصلح التى أبرمت بين المسلمين والفرنج ، ولعل من أشهر هذه المعاهدات تلك التى أبرمت بين صلاح الدين وريتشار قلب الأسد ملك الإنجليز ، وليس لدينا نصوصها ، وإن احتوت كتب التاريخ على مضمونها . ولست أدرى اكتبت بالعربية وحدها ، أم كتبت بها وبالإنجليزية ، وقد احتفل بتوقيع هذه المعاهدة يومى الأربعاء والخميس ، الثانى والعشرين ، والثالث والعشرين ، من شعبان سنة ٥٨٢ هـ . حضر جماعة من كبار أمراء المسلمين فى اليوم الأول لدى ملك الإنجليز ، وأخذوا يده وعاهدوه ، وحلف جماعة من أمرائه ، وفى ثانى يوم حضر رسل ملك الإنجليز عند السلطان ، وأخذوا بيده ، وعاهدوه على الصلح ، وحلف جماعة من أمرائه كذلك [٢] . كما وقع صلاح الدين كثيراً من معاهدات الصلح مع الفرنج الذين كان يحاصرهم السلطان ، ثم يطلبون الأمان [٣].

وأغلب الظن أن المعارك التى دارت بعد عهد صلاح الدين قد انتهت بعقد معاهدات بين الفريقين ، حفظ لنا التاريخ مضمونها ، وإن لم يحفظ نصوصها . أما ما حفظ نصوصه فمعاهدات عقدت بين بيبرس وقلاوون والأشرف خليل من ناحية، والفرنج من ناحية أخرى [٣]

وتتجلى خصائص هذه المعاهدات فيما ذكره صاحب (التعريف) إذ قال : «وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد البسملة : هذه هدنة استقرت بين السلطان فلان، والسلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء بما عليه ، وأجل له أجلا ينتهى إليه ، لما اقتضته المصلحة الجامعة ، وحسمت به مواد الآمال الطامعة ، تأكدت بينهما أسبابها ، وفتحت بهما أبوابها ، وعليها عهد الله على الوفاء بشرطها ، والانتهاء إلى أمدها ، ومد حبل الموادعة إلى آخر مددها ، ضربا لها أجلا أوله ساعة تاريخه ، وإلى نهاية المدة ، وهى مدة كذا وكذا ، على أن كل واحد منهما يغمد بينه وبين صاحبه سيف الحرب ، ويكف ما بينهما من السهام الراشقة ، وتعقل الرماح الخطارة ، وتقر على مرابطها الخيل المغيرة ، وبلاد السلطان فلان كذا وكذا ... على أن يكون على فلان كذا ، وعلى فلان كذا . ويعين ما يعين من مال ، أو بلاد ، أو مساعدة ،

---

(١) الاعتبار ص ٤٨ .
(٢) راجع النوادر السلطانية ص ٢٣٦ .
(٣) الروضتين ٢ : ٩٠ .
(٤) صبح الأعشى ١٤ : ٥١ .

فى حرب أو غير ذلك، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهض من حقه المقرر بواجبه، وعليهما الوفاء المؤكد المواثيق ، والمحافظة على العهد والتمسك بسببه الوثيق . . . . . .

وعلى أن على كل منهما رعاية ما جاوره من البـــلاد والرعية ، وحملهم فى قضاياهم على الوجوه الشرعية ، ومن نزح من إحدى المملكتين إلى الأخرى أعيد ، وما أخذ منها باليد الغاصبة استعيد ، وبهذا تم الإشهاد ، وقرىء على المسامع على رءوس الأشهاد [1] » .

ولا يختلف نظام المعاهدات التى عقدت فى هذا العصر عن هذه القاعدة التى بينها صاحب (التعريف) إلا ببدئها بعبارة استقرت الهدنة بين . . . .

وقد جرت العادة أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قرينها يمين ، يحلف عليها السلطان أو نائبه القائم عن الملك الصليبي بعقد الهدنة ، أو تجهز نسختها إلى الملك ، ليحلف عليها ، ويكتب خطـــه بذلك [2] . وفى ملحق السلوك [3] . نص اليمينين اللتين حلف عليهما قلاوون والفرنج .

وفى صبح الأعشى [4] نصوص معاهدات عقدها بيبرس مع الفرنج . وجميع هذه المعاهدات تتفق فى تحديد الأماكن الداخلة فى الهدنة تحديداً واضحاً ، حتى لا يقع خلاف على تفسير حدودها . كما تتفق فى أنها تبين بوضوح لا التواء فيه حقوق كل طرف على صاحبه، وواجباته نحوه ، ومثل هذه المعاهدات تحتاج إلى أن تكون العبارة واضحة ، ولهـــذا كان الأسلوب المرسل الطبيعى أوفق أنواع الأساليب لمثل هذه المعاهدات، حتى لا يضطر الكاتب إلى أن يزيد ما ليست المعاهدة فى حاجة إليه ، من ألفاظ جىء بها لنوع من أنواع الزينة والجمال ، بل لقد تطمس هذه الزينة واجباً مفروضاً ، أو شرطاً مقصوداً . غير أن هذه الطبيعية فى الأسلوب لم ترق صبح الأعشى ، فزعم أن هذه المعاهدة وأمثالها ليس منها ما هو حسن الترتيب ، رائق الألفاظ ، بهج المعانى ، وبليغ المقاصد ، بل هى مبتذلة الألفاظ ، غير رائقة الترتيب ، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام. وعجب أن يصدر ذلك فى زمن الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، وهما من هما من عظماء الملوك ، وكتابة الإنشاء يومئذ بيد بنى عبد الظاهر ، الذين هم بيت الفصاحة ، ورءوس أرباب البـــلاغة ،

---

(١) التعريف ص ١٧٠ . (٢) صبح الأعشى ١٤ : ٧١ .
(٣) ١ : ٩٩٥ و ٩٩٦ . (٤) ١٤ : ٣١ وما يليها .

وتلمس لهذه السهولة فى العبارة سبباً ، هو أن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ، ببلاد الشام ، فيقع الاتفاق والتراضى بين الجهتين ، على فصل فصل ، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتى المسلمين والفرنج ، بألفاظ مبتذلة غير رائقة. طلباً للسرعة ، إلى أن ينتهى بهم الحال فى الاتفاق والتراضى ، إلى آخر فصول الهدنة ، فيكتبها كاتب الملك المسلم ، على صورة ما جرى فى المسودة ، ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج ، إذ لو عدل فيها كاتب السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ ، وبلاغة التركيب ، لاختل الحال فيها ، عما وافق عليه كاتب الفرنج أولا ، فينكرونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق لقصورهم فى اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان فى المسودة[1] . ويفهم من ذلك أن المعاهدات كانت تكتب يومئذ باللغة العربية ، وأن الكاتب العربى كان يضطر إلى استخدام الأساليب السهلة ، تجنباً للتأنق الذى يحتاج إلى الوقت الطويل . وهم عند كتابة المعاهدة فى حاجة إلى السرعة، لا إلى الأناقة .

هذا هو السبب الذى أورده صاحب صبح الأعشى، لما نراه فى هذه المعاهدات من السهولة والبساطة ، وهما عيبان لا يغتفران فى عصر كانت الحلى اللفظية فيه هى المثال المحتذى ، والقدوة المثلى ، وفاته أن المعاهدات يراد بها التسجيل لا التأثير ، وهى لذلك تتطلب الدقة والوضوح ؛ حتى لا يكون هناك خلاف على تفسير نصوصها ، ولنتصور معاهدة تمتلىء عباراتها بالطباق والتورية ، والاستخدام ، والجناس ، والسجع ، ولنتخيل كيف تفسر ، وكيف تفهم ، وكيف يختلف على معانى عباراتها ، وكيف تذهب هذه المحسنات بوضوح النص ، بل تقيد الكاتب بغير ما تتجه إليه عنايته : من تحديد الحقوق ، والواجبات ولذا كان خير الطرق لكتابة المعاهدات هو البعد بقدر الطاقة عن الزينة اللفظية ، والزخارف الصناعية .

وهذا المعاهدات أقرب إلى أن تكون معاهدات حسن جوار وعدم اعتداء ، فليس فيها تحالف على الهجوم على عدو مشترك ، أو الاجتماع لدفع عدو مشترك . وهذا إن دل فإنما يدل على أن مدى ما يريده كل من صاحبه هو أن يعيش آمنا بجانبه ، لا أن يستنصر به على عدوه .

---

(١) صبح الأعشى ١٤ : ٧٠ .

ولم يقتصر عقد المعاهدات على فرنج الساحل فحسب ، بل عقدت مع الفرنج غير المجاورين للبلاد ، فعقد قلاوون معاهدة مع صاحب القسطنطينية [١] ، وعقد الأشرف خليل معاهدة بينه وبين صاحب برشلونة بالأندلس [٢] .

١٠ — حماسة وفخر

كان الانتصار فى المعارك الحربية ضد الفرنج مثار غبطة فى نفوس الأبطال ، ومصدر بهجة لهم ، وكان يسرهم أن يستمعوا إلى تسجيل أفعالهم ، وإلى التغنى بهذه الوقائع. وإشباعا لهذه الرغبة فى نفوسهم ، التف حولهم طوائف من الشعراء ، تمجد بطولاتهم ، وتسجل انتصاراتهم ، ولما كانت الغالبية العظمى لهؤلاء الأبطال لا تجيد قول الشعر ، ولا الكتابة الفنية ، حلاهم الاستماع إلى الشعر والنثر ، يتغنيان بهذه المفاخر ، وندر أن كان بين هؤلاء الأبطال من يجيد قول الشعر ، فتغنى بوقائعه ، ووصفها فى شعره . ومن هؤلاء طلائع بن رزيك، وأسامة بن منقذ ، فقد تغنيا فى شعرهما بما جاهدا العدو ، وبما أبليا فى سبيل هذا الجهاد ، فسمعنا طلائع يقول :

جعلنا جبال القدس فيها ، وقد جرت ... عليها عتاق الخيل كالنفنف السهب [٣]
فقد أصبحت أوعارها وحزونها ... سهولا ، توطا للفوارس والركب
ولما غدت لاماء فى جنباتها ... صببنا عليها وابلا من دم سكب
وجادت بها سحب الدموع من العدا ... نجيعا ، فاغنتها الغداة عن السحب
وأجرت بحاراً منه فوق جبالها ... ولكن بحار ليس تعذب للشرب
وقد روعتها خيلنا قبل هذه ... مراراً وكانت قبل آمنة السرب
وأخنى صهيل الخيل أصوات أهلها ... فعاقت نواقيس الفرنج عن الضرب [٤]

ويقول متحدثا عن جيشه الزاحف إلى الشام لحرب الفرنج :

سارت سرايانا لقصد الشام تعتسف الرمالا

---

(١) المرجع السابق ص ٧٥ .
(٢) المرجع السابق ص ٦٣ .
(٣) النفنف : المفازة ، والسهب : المستوى من الأرض .
(٤) الخريدة المطبوعة ٨ : ١٧٩

تزجى إلى الأعداء جرد الخيـــل أتباعا ، توالى
تمضى خفـــافا للمغـــاربهـا ، وتأتينا ثقـــالا
حتى لقـــد رام الأعادى من ديارهـــم ارتحالا
وعلى الوعيرة معشر[1] لم يعهدوا فيها القتالا
لمـــا نأت عما يحف بها يمينـــا أو شمـــالا
نهضت إليهـــا خيلنـــا من مصر تحتمل الرجالا
والبيض لامعة ، وبيض الهنــــد ، والأسل النهـــالا
فغدت كأن لم يعهـــدوا فى أرضها حيـــا حـــلالا
هـــذا وفى تـــل العجول ملأن بالقتـــلى التلالا
إذ مرمرى ليس يـــلوى نحـــو رفقته اشتغـــالا
واستـــاق عسكرنا له أهـــلا يحبهم ومالا
وسرية ابن فريح الطائى طـــال بها ، وصـــالا
سارت إلى أرض الخليل فـــلم تدع فيها خـــلالا[2]

وأرسل إلى أسامة يفتخر بما فعله الأسطول المصرى فى الفرنج ، قائلا :

ذاكرين الفتح الذى فتح الله علينا، فالصنع منه جميل
لم يزل فعلنا له خالصاً ، وهـــو لما شاء فى الأنام فعول
جاءنا بعد ماذكرناه فى كتب أتاكم بهن منا الرسول
أن بعض الأسطول نال من الإفرنج مالا يناله التأميل
سار فى قلة ، وما زال بالله وصدق النيات ينمى القليل
نحوى من عكا وأنطرطوس عـــدة لهم يحط بها التحصيل
جمع ديوية[1] بهم كادت الافرنج تسطو على الورى وتصول

(١) الوعيرة : حصن قرب الـكرك .

(٢) الخلال : جمع خل ، وهو الطريق . أى لم تدع فيها طرقا مسلوكه ، بل ملأتها بالجند . والقصيدة من ديوان أسامه ص ٢٦٣ .

(٣) أطلق المسلمون المؤرخون هذا الاسم على جمعيه فرسان المعبد Templiers كما أطلقوا لفظ الاسبتارية على جمعية فرسان الهسبتاليين Hospitaliers . وقد أسس الجمعيه الأولى Hagh Pe Payns سنه ١١١٩م لحمايه طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس أما الجمعيه الثانية فيرجع تأسيسها الى سنه ١٠٩٩م على يد Blessed gerard بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، وكانت دارها (Hospice) به قبل ذلك بزمن طويل مأوى الحجاج والمرضى من المسيحيين ، ثم تحول كل من الجمعيتين الى هيئة دينية فكان لرؤسائهما وفرسانهما شأن كبير فى تاريخ الامارات الصليبيه بالشام . زيادة فى هامش السلوك ١ : ٦٨ ، نقلا عن .

King : Knights Hospitallers P, P. 1—33

قيد فى وسطهم مقدمهم يهـدى إلينا، وجيده مغـلول
بعد مثوى جماعة هلكت بالسيف، منها الغريق والمقتول
هذه نعمة الإله، وتعديد أيادى الإلـه شيء يطول (١)

ومن أقوى ماكتبه طلائع مفتخراً بغارات جيشه على الفرنج، وقواد هذا الجيش، وما أحرزه من النصر، قوله، وقد أرسل به إلى أسامة، لكى يخبر نور الدين به، رغبة من الصالح فى أن يتفق نور الدين معه، فى الهجوم على العدو، من الشمال والجنوب؛ فيحصر بينهما، ويقضيا عليه:

ألا هكذا فى الله تمضى العـزائم ... وتمضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الأعداء من طود عزهم ... وليس سوى سمر الرماح سـلالم
وتغزى جيوش الكفر فى عقر دارها ... ويوطا حماها، والأنوف رواغـم
ويوفى الكرام الناذرون بنذرهـم ... وإن بذلت فيه النفوس الكرائم
نذرنا مسير الجيش فى صفر، فما ... مضى نصفه، حتى انثنى، وهو غانم
بعثناه من مصر إلى الشام، قاطعاً ... مفاوز، وخـد العيس فيهن دائم
وناهيك من أرض الجفار(٢)، إذا التظى ... بجنبيه مشبوب من القيـظ جاحم
وصارت عيون المـاء كالعين عزة ... إذا ما أتاهـا العسكر المتزاحـم
فما هاله بعـد الديار، ولا ثنى ... عزيمتـه جهد الظما والسمائم
يهجر، والعصفور فى قعر وكره ... ويسرى إلى الأعـداء، والنجم نائم
إذا ما طوى الرايات وقت مسيره ... غدت عوضاً منها الطيور الحوائم
تبارى خيولا، ما تزال كأنها ... إذا ماهى انقضت، نسور قشاعم
فإن طلبت قصـداً تساوين سرعة ... فى جوها، والقـوائم
هى الدهم(٣): ألوانا، وصبغ عجاجة ... فإن طلبت أعـداءها فالأداهـم(٤)
تصاحبها علماً بأن سوف تغتدى ... بهـا، ولها فى الكافرين مطاعم
كما أن وحش القفر ما زال منهـم ... مدى الدهر أعراس لهم وولائم

---

(١) ديوان أسامة ص ٢٦٩.
(٢) الجفار: أرض بين مصر وفلسطين أولها رفح من جهة الشام، وآخرها الخشبى، متصلة برمال تيه بنى إسرائيل. وسميت الجفار، لكثرة الجفار أى الآبار بأرضها، ولا شرب لسكانها إلا منها ـ معجم البلدان.
(٣) الدهم: ثلاث ليال من الشهر. (٤) الأداهم: جمع أدهم، وهو الفرس الأسود.

خيول إذا مافارقت مصر تبتغى عدا فلها النصر المبين ملازم
جيوش أقدناها اعتزاما ، ونجدة فطاعننا منهم ، ومنا العزائم
إذا ما أثاروا النقع فالثغر عابس وإن جردوا الأسياف فالثغر باسم
ولما وطوا أرض الشآم تحالفت فأضحت جميعاً عربها والأعاجم
وواجههم جمع الفرنج بحملة تهون على الشجعان منها الهزائم
فلقوهم زرق الأسنة ، وانطووا عليهم ، فلم ينجم من الكفر ناجم
يشبههم من لاح جمعهم له بلجة بحر موجها متلاطم
وحسبك أن لم يبق فى القوم فارس من الجيش إلا وهو للرمح حاطم
وعادوا إلى سل السيوف ، فقطعت رءوس ، وحزت للفرنج غلاصم
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر ولا قيل : هذا وحده اليوم سالم
كذلك ما تنفك ، تهدى إلى العدا وللوحش أعراس لهم ، ومآتم
وتسرى لهم آراؤنا وجيوشنا بداهية تبيض منها المقادم
نقتلهم بالرأى طوراً ، وتارة تدوسهم منا المذاكى الصلادم
وما العازم المحمود إلا الذى يرى مع العزم فى أحواله ، وهو حازم
وقد غرق الكفار منه بقطرة سحاب انتقام عندنا متراكم
فكيف إذا سالت عليهم سيولنا وجاشت لنا تلك البحار الخضارم
وما نحن بالإسلام للشرك هازم ولكننا الإيمان للكفر هادم(١)

والقصيدة طويلة اكتفينا منها بما ذكرناه ، مما يتحدث عن نذره أن يهاجم العدو ويحطم قواه ، وعن الروح المعنوية القوية التى قطعت الفيافى والقفاز ، مستهينة بالشدائد والصعاب ، مواجهة عدوا مستكمل العدة ، موفور العدد ، لا يجد الشجعان عاراً إذا انهزموا أمامه ، ولكن الجيش يثبت ، حتى ينتصر ، وعن تعاون الرأى والشجاعة فى حرب الفرنج ، حتى أبيد جمعهم ، ويمضى الشاعر مفاخرا بأن ما أصابهم ليس سوى قطرة من بحر انتقامه وغضبه ، ويبدو طلائع غيوراً حقاً على اغتصاب أرض الإسلام تواقا إلى أن تهيأ له الوسائل للقضاء على الصليبيين ، إذا استطاع .

---

(١) ديوان أسامة ص ٢٧٢ .

ومن هؤلاء الذين أبلوا بلاء حسناً فى حروب الصليبيين ابن تقى الدين عمر ، فقد جرت له وقائع مع الفرنج ، وانتصر فيها عليهم ، وظهرت شجاعته وفروسيته ، فكان من فخره بانتصاره عليهم قوله ، بعد أن أشاد بنسبه وأسرته :

كم قد أبدت بسيفى كل مفتخر ... حامى الحقيقة ، يوم الجحفل اللجب
وكم تركت بنى الإفرنج فى رعب ... فصرت أدعى لديهم جالب الرعب
وكم جررت إليهم جحفلا لجبا ... بالسابرية، والماذى، واليلب [1]
كفعل آبائى الغر الذين هم ... كانوا لدين الهدى كالوالد الحدب

أما أسامة بن منقذ ، وقد خاض معارك كثيرة ضد الصليبيين، فله شعر حماسى يفتخر فيه بشجاعته ، فى ميدان القتال ، وصبره ، وبلائه ، فيقول :

سل بى كماة الوغى فى كل معترك ... يضيق بالنفس فيه صدر ذى الباس
ينبئوك بأنى فى مضايقها ... ثبت ، إذا الخوف هز الشاهق الراسى
أخوضها، كشهاب القذف ، يصحبنى ... عضب كبرق سرى ، أو ضوء مقباس
إذا ضربت به قرنا أنازله ... أوحاه [2] عن عائد يغشاه أو آسى [3]

ويقول :

إن يحسدوا فى السلم منزلتى من العز المنيف
فيما أهين النفس فى يوم الوغى ، بين الصفوف
فلطا لما أقدمت إقدام الحتوف على الحتوف
بعزيمة أمضى على حد السيوف من السيوف [4]

ولم يكتف بعض أبطال الحروب الصليبية بما سجله لهم الشعراء فى قصائد تمجيدهم ، فمضوا يطلبون إلى الشعراء أن يقرضوا على ألسنتهم شعراً ، يسجلون فيه معاركهم ، فهذا نور الدين محمود يطلب من أسامة بن منقذ أن ينشىء قصيدة على لسانه ، يفتخر فيها بأمجاده ، ويتحدث عن فتوحاته ، فأنشأ أسامة قصيدة طويلة بلغت عدتها تسعين بيتاً ، أولها :

---

(١) السابرى: درع دقيقة النسج فى إحكام . والماذى : كل سلاح من الحديد. واليلب: الترسة ، أو الدروع من الجلود ، أو جلود يخرز بعضها إلى بعض ، تلبس على الرءوس خاصة ، أو الفولاذ وخالص الحديد .

(٢) أوحاه . أعجله. (٣) لباب الآداب ص ١٩٥ . (٤) ديوان أسامة ص ٢٦٠ .

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر ... لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه ... وينقاد طوعا فى أزمتنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا ... ويرهبها منا على بعدنا الذكر
وما فى ملوك المسلمين مجاهد ... سوانا ، فما يثنيه حر ، ولا قر
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا ... ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر
وثير حشايانا السروج ، وقمصنا الدروع ، ومنصوب الخيام لنا قصر
وهم الملوك البيض ، والسمر كالدمى ... وهمتنا البيض الصوارم ، والسمر
نسير إلى الأعداء ، والطير فوقنا ... لها القوت من أعدائنا ، ولنا النصر
وجيش إذا لاقى العدو ظننتهم ... أسود الشرى عنت لها الأدم[1] والعفر[2]
ترى كل شهم فى الوغى مثل سهمه ... نفوذا ، فما يثنيه خوف ، ولا كثر

ومنها :

بنا أيد الاسلام ، وازداد عزة ... وذل لنا من بعد عزته الكفر
قتلنا البرنس ، حين سار بجهله ... تحف به الفرسان ، والعسكر المجر
وفى سجننا ابن الفنش خير ملوكهم ... وإن لم يكن خير لديهم ، ولا بر
أسرناه من حصن العريمة راغما ... وقد قتلت فرسانه فهم جزر
وسل عنهم الوادى بإقليس ؛ إنه ... إلى اليوم فيه من دمائهم غدر
ونحن أسرنا الجوسلين ، ولم يكن ... ليخشى من الأيام نائبة تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعه ... بمال ، وكم ظن به يهلك الغر
فلما استبحنا ملكه وبلاده ... ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
كحلناه ، نبغى الأجر فى فعلنا به ... وفى مثل ما قد ناله يحرز الأجر[3]

ومضت القصيدة تعدد معارك نور الدين وجهاده للصليبيين . وطلب مرة أخرى إلى العماد أن ينظم قصيدة على لسانه ، مفتخراً بجهاده ضد العدو ، ليرسلها إلى بغداد ، فأنشأ العماد لذلك قصيدة ، منها :

---

(١) جمع أدماء ، وهى الظبية ذات لون مشرب بياضا .
(٢) الأعفر من الظباء : ما يعلو بياضه حمرة .
(٣) ديوان أسامة ص ٢٤٧ .

من ذا الذى سار سيرى فى ولائكم غداة قال العدا : لا سير عند عصا
قد نال عبدك محمود بها ظفراً مازال يرقبه من قبل مرتبصا
من خوف سطوته أن العدو إذا أم الثغور على أعقابه نكصا[1]

أما صلاح الدين فكان إذا اضطر إلى تعداد وقائعه ومآثره ، عددها ، وتغنى بها ، وكان القاضى الفاضل لسانه المفصح ، وقلبه المبين . أرسل صلاح الدين إلى بغداد رسالة ضمنها تعدادا لماله من الأيادى فى جهاد الفرنج ، أيام نور الدين وبعده ، وفى هذه الرسالة يقول للرسول : فإذا قضى التسليم حق اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء ، فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثاً يفترى ، وجوارى أمور إن قال فيها كثيرا فأكثر منه ما قد جرى ، وليشرح صدراً منها لعله يشرح منا صدراً ، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سرا . . . فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير ، ونلق السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ، ولا بد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذى ترد به الغصوب ، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب ، وما كان العائق إلا أنا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة ، يضاهى ابتداءنا بالخدمة ، وإنجابا للحق ، يشاكل إنجابنا للسبق . كان أول أمرنا أنا كنا فى الشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا ، فى أى مدينة فتحت ؛ أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر ، أو مصاف للاسلام معه ضرب ، فما يجهل أحد صنعنا ، ولا يجحد عدونا أنا نصطلى الجمرة ، ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندبر التعبئة ، إلى أن ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرها ، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها ، ... (وتحدث عن فتح مصر) ثم قال : ولما خلا ذرعنا ، ورحب وسعنا ، نظرنا فى الغزوات إلى بلاد الكفار فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها براً وبحراً ، مركبا وظهراً ، إلى أن أوسعناهم قتلا وأسراً ، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها ، مذ أخذت من أيديها ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم ، مذ ملكها أعاديهم ، فنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيلة ، كان العدو قد بناها

---

(١) الروضتين ١ : ٢١٨ .

فى بحر الهند ، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم ، فساء منه خلقاً ، وخرق الكفر فى هذا الجانب خرقا ، فكادت القبلة أن يستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام ، فأخذت هذه القلعة ، وصارت معقلا للجهاد ، وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد . . . فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فنهم صاحب قسطنطينية ، وهو الطاغية الأكبر ، والجالوت الأكفر ، وصاحب المملكة التى أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، جرت لنا معه غزوات بحرية ، ومنا قلات ظاهرة وسرية ، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين ، بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح ، وإلقاء السلاح ، والانتقال من معاداة إلى مهاداة ، ومن مفاضحة إلى مناصحة . . . . ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية ، وقد اجتمعا فى نوبة دمياط ، فغلبا وقسراً ، وهزما وكسر ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولا يستوعب فيه ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تكثر عدته وعدته ، إلى أن وصل منها فى السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع ، وخطب هائل ، وما اثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملا صدره مثل خيله ورجله ، وما هو إلا إقليم نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله ، ومن هؤلاء الجيوش البنادقة ، والبياشنة ، والجنوية ، كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لا تطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا باهداء طرائف أعماله وتلاده . . . . [1] » .

ومما كتب على لسانه بعد أن فتح بيت المقدس : « نصرنا الله بملائكته المسومين ، وأوليائه المؤمنين ، واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها ، وافتضضنا بالبيض الذكور من الحرب العوان أبكار الفتوح وافترعناها ، وهذه موهبة مذهبة ، ومنقبة لا يبلغ إلى وصفها

(١) المرجع السابق ص ٢٤١ .

بلاغة موجزة ولا مسهبة، وتوبة ما بعدها للإسلام نبوة، وحظوة فى مذاق أهل التقوى والمغفرة حلوة، وبشرى تجلو الوجوه ببشرها، وتضوع مهاب المحاب بنشرها، ويعرف أهل الشرق والغرب سجال غربها . . . وقد تملكنا البلاد الساحلية وتسلمناها حصنا حصنا، ونقضنا من الكفر ركنا ركنا، وأجلينا الكفار منها فاجتلينا بها من الحسنى حسنى - فتح شرف الله به هذه الأمة، وجلا به الغمة، وكشف الملمة، بل شرفنا بفخره، وأعدنا لذخره وخصنا بفضيلته فى عصره، وأجرى لنا ما كان قد أبطأ من عادة نصره، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كفره، وقامت بواترنا بوتره، وغرق البلاد الساحلية من دم الكفار ببحره . . . . والحمد لله على هذا الإحسان، حمداً مستمراً على مر الزمان [(١)].

وهناك كثير من الرسائل التى كتبت على لسان صلاح الدين، يفتخر فيها بانتصاراته، ويسجل معاركه، وجرى على نسقه بيبرس حين سجل مفاخره [(٢)].

هذا وإن بين الشعر الحماسى الذى ظهر فى عصر الحروب الصليبية، والشعر الحماسى الذى قاله العرب أنفسهم فى جزيرتهم العربية، لفرقا فى الباعث، والهدف، والروح، والاتجاه، فإذا كان الباعث قبل هذا العصر فى أكثر الأحوال قبليا، أو حوادث لا يسيطر عليها الدين سيطرة كاملة، فإن الباعث على الشعر الحماسى فى هذا العصر هو الدين وحده، ولم يعد ثمة ظهور لنغمة القبيلة، ولا التعصب الجنسى. أما الروح السائدة فى الأدبين فإن البساطة والطبيعية تسودان أدب العصور العربية الأولى، بينما تجد لبعض المبالغة نصيباً فى عصرنا الصليبي. أما الاتجاه فأغلبه فى الشعر القديم تمدح بالشجاعة الفردية، ووصف لها، وحديث عنها ويشبه هذا، الاتجاه أسامة، أما معظم شعر الحماسة فى عصر الحروب الصليبية، فلا يتجه أكثر اتجاه إلى هذه الناحية، بل يتجه إلى التمدح بقوة الجيوش، وحسن إعدادها، وشجاعة أبنائها، وما أصابته من عدوها. وما أتينا به من أمثلة يدل على ما ذكرناه. ومن أمثلة الشعر الحماسى العربى القديم قول ربيعة بن مقروم الضبى، وهو شاعر مخضرم:

ولقد شهدت الخيل، يوم طرادها ... بسليم أوظفة [(٣)] القوائم هيكل [(٤)]
فدعوا: نزال، فكنت أول نازل ... وعلام أركبه إذا لم أنزل؟!

---

(١) المرجع السابق ٢ : ٩٩. (٢) راجع نهاية الأرب ٢٨ : ٨٤.
(٣) جمع وظيف، وهو مستدق الذراع والساق من الخيل. (٤) الهيكل . العظيم .

وألد ذى حنق علــى ، كأنمــا تغلى عداوة صــدره فى مرجل
أرجيته[١] عنى ، فأبصر رشـده وكويته فوق النواظر من عل[٢]

ولا ريب أن لطبيعة الحربين أثراً فى هذين الاتجاهين ، فالشجاعة مطلوبة ، ولكنها فى العصر الصليبى تحتاج إلى العدة والعديد ، مما يجعل شعور الفرد بنفسه فى القديم أقوى من هذا الشعور ، وهو فرد فى جيش ضخم ، مكون من كثير من العناصر ، يجمع بينها دين الإسلام.

١١ — تصوير الفرنج

وصور لنا أدب ذلك العصر كثيراً من سمات الفرنج وصفاتهم فى الشعر والنثر ، كما لمسها المسلمون فيهم ، ويظهر أنه فى أوقات الصلح كان بعضهم يعاشر بعضا ، ويختلط به ، ويصادق بعضهم بعضاً ، فعرف أحدهم صفات الآخر . فصورهم الأدب محترسين لا يغامرون بجندهم ، بل يتريثون منتهزين الفرصة ، حتى تسنح ، وحتى يتأكدوا من مقدرتهم على القتال . وصفهم بذلك : أسامة بن منقذ إذ قال : اجتمع الفرنج لعنهم الله . . . . لمغاداة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا ، فجاءنى فارس منهم يركض ، وقال . قد جاء الإفرنج ، فسرت إلى أصحابنا ، وقد وصلهم أوائل الفرنج ؛ وهم ، لعنهم الله ، أكبر الناس احترازا فى الحرب ، فصعدوا على رابية وقفوا عليها ، وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الرابيتين فضاء . . . وأصحاب الجنائب عبور تحتهم ، لا ينزل إليهم منهم فارس ، خوفا من كمين ، أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم ، ونحن مقابلهم فى قلة . . . وما زال الإفرنج وقوفا على تلك الرابية ، إلى أن انقطع عبور أصحابنا ، ثم ساروا إلينا ، فاندفعنا بين أيديهم ، والقتال بيننا ، لا يجدون فى طلبنا ، ومن وقف فرسه قتلوه ، ومن وقع أخذوه ، ثم عادوا عنا ، وقدر الله سبحانه لنا السلامة باحترازهم . . . .[٣] »

واعترف لهم بالشجاعة ، وتقدير الشجاع ، والإعجاب به ، ورفعه إلى مستوى عال . وهم يعجبون بالفارس ، إذا كان دقيقا ، طويلا ، قال صاحب الاعتبار : « والإفرنج ، خذلهم الله ، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان ، ولا عندهم ناس إلا الفرسان ، فهم أصحاب الرأى ، وهم أصحاب القضاء والحكم ،

---

(١) أرجيته : أخرته وصرفته (٢) ديوان الحماسة ١ : ١٤ .
(٣) الاعتبار ص ١٢ .

وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم، أخذها صاحب بانياس . . . . وبيننا وبينهم صلح . . . . فقلت للملك فلك بن فلك : هذا تعدى علينا، وأخذ دوابنا ، . . فقال الملك لستة سبعة من الفرسان : قوموا اعملوا له حكما ، فخرجوا من مجلسه ، واعتزلوا ، وتشاوروا ، حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد ، وعادوا إلى مجلس الملك ، فقالوا : قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلف من غنمهم ، فأمره الملك بالغرامة . . . وهذا الحكم بعد أن يعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمى الإفرنج يغيره . ولا ينقضه ، فالفارس أمر عظيم عندهم . ولقد قال لى الملك : يافلان ، لقد فرحت البارحة فرحا عظيما ، فقلت : الله يفرح الملك، بماذا فرحت ؟ قال : قالوا لى : إنك فارس عظيم . وماكنت أعتقد أنك فارس : قلت : يامولاى ، إنا فارس من جنسى وقومى . وإذا كان الفارس دقيقاً طويلا كان أعجب لهم . وكان نزل علينا دنكرى ،وهو أول أصحاب أنطاكية بعد ميمون ، فقاتلنا ، ثم اصطلحنا ، فنفذ يطلب حصانا لغلام لعمى عز الدين ، رحمه الله ، وكان فرسا جواداً ، فنفذه له عمى ، تحت رجل من أصحابنا كردى ، يقال له حسنون ، وكان من الفرسان الشجعان ، وهو شاب مقبول الصورة ، دقيق ، ليسابق بالحصان، بين يدى دنكرى ، فسابق به ، فسبق الخيل المجراة كلها، وحضر بين يدى دنكرى ، فصار الفرسان يكشفون سواعده ، ويتعجبون من دقته ، وشبابه ، وقد عرفوا أنه فارس شجاع ، فخلع عليه دنكرى . . . (١) ، ولكن هذه الشجاعة لم تكن لترفعهم إلى مرتبة سامية من الإنسانية ، يقول أسامة : « إذا خبر الإنسان أمور الفرنج سبح الله تعالى ، وقدسه ، ورأى بهائم ، فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما فى البهائم فضيلة القوة والحمل (٢) » .

ووصفهم الأدب جفاة الأخلاق ، وكلما قرب عهدهم ببلادهم الإفرنجية كانوا أشد جفوة ، وأقسى أخلاقا من أولئك الذين عاشروا المسلمين فى الشام ، وضرب لنا أسامة مثلا من جفوة أخلاقهم : « فمن جفاء أخلاقهم ، قبحهم الله ، أننى كنت إذا زرت البيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفى جانبه مسجد صغير، قد جعله الإفرنج كنيسة ، فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية ، وهم أصدقائى ، يخلون لى ذلك المسجد الصغير ، أصلى فيه، فدخلته يوما ، فكبرت ، ووقفت فى الصلاة ، فهجم على واحد من الإفرنج ، مسكنى ،

---

(١) المرجع السابق ص ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٧ .

ورد وجهى إلى الشرق ، وقال : كذا صل ، فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عنى ، وعدت أنا إلى الصلاة ، فاغتفلهم ، وعاد هجم على ذلك نفسه ، ورد وجهى إلى الشرق وقال : كذا صل ، فعاد الداوية دخلوا إليه . وأخرجوه . واعتذروا إلى ، وقالوا : هذا غريب ، وصل من بلاد الإفرنج فى هذه الأيام ، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق ، فقلت : حسبي من الصلاة ، فخرجت ، فكنت أعجب من ذلك الشيطان ، وتغيير وجهه ، ورعدته ، وما لحقه من نظر الصلاة إلى القبلة » .

وصورهم « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر يأخذ يد المرأة ، ويعتزل بها ، ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ، ينتظر فراغها من الحديث ، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى . ومما شاهدت من ذلك أنى كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل فى دار رجل يقال له معز ، داره عمارة المسلمين ، لها طاقات تفتح إلى الطريق ، ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجى ، يبيع الخمر للتجار ، يأخذ فى قنينة من النبيذ وينادى عليه . . . فجاء يوما ، ووجد رجلا مع امرأته فى الفراش ، فقال له : أى شيء أدخلك إلى عند امرأتى ؟ قال تعبان . كنت أستريح ؛ قال : فكيف دخلت إلى فراشى ؟ قال : وجدت فراشا مفروشا نمت فيه ، قال : والمرأة نائمة معك ؟ قال : الفراش لها ، كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ قال : وحق دينى ، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت . فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته[1] » . وفى الاعتبار[2] بعض قصص أخرى تدل على هذا الخلق فيهم .

وصور المرأة منهم لا تحب إلا بنى جنسها ، روى أسامة أن والده حصل عنده عدة من الجوارى المسبيات ، فرأى منهن جارية مليحة شابة ، فأهداها إلى صاحب قلعة جعبر ، وكان صديقه . وكتب إليه يقول : غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفذت لك سهما منها ، فوافقته ، وأعجبته ، واتخذها لنفسه ، فولدت له ولدا ، سماه بدران ، فجعله أبوه ولى عهده ، وكبر ، ومات والده ، وتولى بدران البلد والرعية ، وأمه الآمرة الناهية ، فواعدت قوما . وتدلت من القلعة بحبل ، ومضى بها أولئك إلى سروج ، وهى إذ ذاك للإفرنج ، فتزوجت بإفرنجى إسكاف ، وابنها صاحب قلعة جعبر[3] » .

---

(١) المرجع السابق ص ٠٠٠   (٢) ص ١٠٠ و ١٠١ .

(٣) الاعتبار ص ٩٦ .

وحفظ الأدب صورة لتأخر طبهم ، قال أسامة : « ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب إلى عمى ، يطلب منه إنفاذ طبيب يداوى مرضى من أصحابه ، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً ، يقال له : ثابت . فما غاب عشرة أيام ، حتى عاد ، فقلنا له : ما أسرع ماداويت المرضى ، قال : أحضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخه ، ففتحت الدملة ، وصلحت ، وحميت المرأة ، ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب إفرنجى ، فقال : هذا ما يعرف شيئاً يداويهم ، وقال للفارس : إيما أحب إليك : تعيش برجل واحدة ، أو تموت برجلين ؟ قال : أعيش برجل واحدة . قال : أحضروا لى فارسا قويا ، وفأسا قاطعا ، فحضر الفارس والفأس ، وأنا حاضر ، فحط ساقيه على قرمة خشب ، وقال للفارس : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، اقطعها ، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة . ما انقطعت ، فضربه ثانية ، فسال مخ الساق ومات من ساعته . وأبصر المرأة ، فقال : هذه امرأة فى رأسها شيطان ، وقد عشقها ، احلقوا شعرها ، فحلقوه ، وعادت تأكل من مآكلهم : الثوم ، والخردل ، فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل فى رأسها ؛ فأخذ الموسى ، وشق رأسها صليباً ، وسلخ وسطه ، حتى ظهر عظم الرأس ، وحكه بالملح ، فماتت فى وقتها . فقلت لهم : بقى لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا ، فجئت وقد تعلمت من طبهم مالم أكن أعرفه (١) » . ولكن أسامة لحرصه على الدقة والصدق روى(٢) قصتين نجح فيهما الطبيب الفرنجى .

وتبرأ الأدب من عقيدتهم الدينية ، روى أسامة قال : «رأيت واحدا منهم جاء إلى الأمير معين الدين ، رحمه الله ، وهو فى الصخرة ، فقال : تريد تبصر الله صغيراً ؟ قال : نعم ، فمشى بين أيدينا ، حتى أرانا صورة مريم ، والمسيح عليه السلام صغير فى حجرها ، فقال : هذا الله صغير . تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا (٣) » .

كما روى بعض ما شاهده من القسوة فى أحكامهم ، فمن ذلك قوله : «وشهدت يوما بنابلس ، وقد أحضروا اثنين للمبارزة ، وكان سبب ذلك أن حرامية من المسلمين كبسوا ضيعة من ضياع نابلس ، فاتهموا بها رجلا من الفلاحين ، وقالوا : هو دل الحرامية على الضيعة ، فهرب ، ونفذ الملك ، فقبض أولاده ، فعاد إليه ، وقال : أنصفنى ، أنا أبارز الذى قال عنى : إنى دلت الحرامية على القرية ؛ فقال الملك لصاحب القرية المقطع : أحضر من يبارزه ، فمضى إلى قريته ، وفيها رجل حداد ، فأخذه ... فشاهدت هذا الحداد ، وهو شاب قوى ... وذلك الآخر الذى طلب البراز شيخ ، إلا أنه قوى النفس ، يرتجز وهو غير

(١) المرجع السابق ص ٩٧ .
(٢) الاعتبار ص ٩٨ و ٩٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٩٩ .

محتفل بالمبارزة ، فجاء (البسكند) وهو شحنة[١] البلد ، فأعطى كل واحد منهما العصا والترس، وجعل الناس حولهم حلقة ، والتقوا . . وقد تضاربا حتى بقيا كعود الدم ، فطال الأمر بينهما . . وأعيا ذلك الشيخ ، فضربه الحداد ، فوقع ، ووقعت عصاه تحت ظهره ، فبرك عليه الحداد ، يدخل أصابعه فى عينيه ، ولا يتمكن من كثرة الدم من عينيه، ثم قام عنه، وضرب رأسه بالعصا ، حتى قتله ، فطرحوا فى رقبته فى الوقت حبلا ، وجروه شنقوه . . . وهذا من جملة فقههم وحكمهم . لعنهم الله . ومضيت مرة مع الأمير معين الدين ، رحمه الله ، إلى القدس فنزلنا نابلس ، فخرج إلى عنده رجل أعمى ، وهو شاب ، عليه ملبوس جيد مسلم ، وحمل له فاكهة ، وسأله فى أن يأذن له فى الوصول إلى خدمته إلى دمشق ، ففعل ، وسألت عنه ، فخبرت أن أمه كانت مزوجة لرجل إفرنجى ، فقتلته ، وكان ابنها يحتال على حجاجهم، ويتعاون هو وأمه على قتلهم ، فاتهموه بذلك ، وعملوا له حكم الإفرنج : أجلسوا (بتية) عظيمة ، وملئوها ماء ، وعرضوا عليها دف خشب ، وكتفوا ذلك المتهم ، وربطوا فى أكتافه حبلا ، ورموه فى (البتية) فإن كان بريئاً غاص فى الماء ، فرفعوه بذلك الحبل ، لا يموت فى الماء ، وإن كان له الذنب ما يغوص فى الماء ، فحرص ذلك لما رموه فى الماء أن يغوص ، فما قدر ، فوجب عليه حكمهم ، لعنهم الله ، فكحلوه[٢] ،

وصور الأدب كذلك بعض عاداتهم فى الأعياد : إذ يخرج الفرسان ، يلعبون بالرماح ، ويقيمون بعض المسابقات[٣] . وحفظ أنفة المسلمين من تناول طعام الفرنج ، بل أرانا بعض الفرنج لطول ما عاشر المسلمين يكره طعام الفرنج ، ولا يدخل داره لحم خنزير ، ويستخدم طاهيات مصريات[٤] .

ويجد الأدب العربى فيهم غيرتهم ، وحماستهم ، وإخلاصهم ، وتفانيهم فى استخلاص قبر المسيح ، ومن خير ما يدل على ذلك رسالة للقاضى الفاضل، وفيها يقول : « . . . قوم قد استطابوا الموت،واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين:الأوطان،والأوطار،وهجروا المألوفين: الأهل ،والديار،وركبوا اللجج،ووهبوا المهج، كل ذلك طاعة لقسيسهم، وامتثالا لأمر مركيسهم، وغيرة لمتعبدهم ، وحمية لمعتقدهم ، وتهالكا على مقبرتهم،وتحرقا على قمامتهم ، لا يطلبون مع شدة الإملاق مالا ، ولا يجدون مع كثرة المشاق ملالا ، بل يتساقطون على نيران الظبا

---

(١) رئيس الشرطة
(٢) الاعتبار ص ١٠٢ .
(٣) المرجع السابق ص ١٠١ .
(٤) المرجع السابق ص ١٠٤ .

تساقط الفراش ، ويقتحمون الردى متدرعين الصبر متثبتى الجاش ، حتى خرجت النساء من بلادهن متبرزات ، وسرن إلى الشام فى البحر والبر متجهزات [١] » .

كما أعجب ابن شداد بوضعهم أهدافهم نصب أعينهم ، وعملهم على تحقيق هذه الأهداف، باللين تارة، والخشونة أخرى [٢].

وإلى جانب ذلك سجل عليهم الغدر ، وجعله من سماتهم ، وخصائصهم البينة فيهم ، وأن العهد لا قيمة له عندهم ،فهم يحتفظون به إذا ضعفوا ، ويفسخونه إذا وجدوا أنفسهم قديرين على التحلل من قيوده ، يصف ذلك القاضى الفاضل فى رسالة له ، فيقول : « . . . تشنع ملك بالغدر ، وهو لعنه الله قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه ، فى أهل عكا ، نهاراً ، جهارا ، وشهد فيها بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى ، وغدر الفرنج معلوم .

إذا غدرت حسناء وفت بعهدها ومن عهدها ألا يدوم لها عهد

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفجرون إذا قووا . . . [٣] » .

وسجل عليهم هذا الغدر ابن الساعاتى ، فقال :

أيسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى أيمانها ، وهى تحلف [٤]

ذلك ما وصلنى من وصف المسلمين لصفات الفرنج ، بعد ما تيسر من الاختلاط بهم ، والاتصال بعاداتهم وتقاليدهم .

وأكاد ألمس مما ذكره أسامة صفة أخرى ، تلك هى أنهم كانوا يعتزون بأنفسهم ، ويثقون فى شجاعتهم ، ومقدرتهم العقلية والعلمية ، ولكن المسلمين لم يسلموا لهم بهذه الصفة ، وعدوها دليلا على ضعف عقولهم . روى أسامة قال : كان فى عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم إفرنجى ، قد وصل من بلادهم يحج ، ويعود ، فأنس بى ، وصار ملازمى ، يدعونى أخى ، وبيننا المودة والمعاشرة . فلما عزم على التوجه فى البحر إلى بلاده ، قال لى : يا أخى ، أنا سائر إلى بلادى ، وأريدك تنفذ معى ابنك ، وكان ابنى معى ، وهو ابن أربع عشرة سنة — إلى بلادى ، يبصر الفرسان ، ويتعلم العقل والفروسية ، وإذا رجع كان مثل رجل عاقل ، فطرق سمعى كلام ما يخرج من رأس عاقل ، فإن ابنى لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج ، فقلت : وحياتك هذا الذى كان فى نفسى ، لكن منعنى من ذلك أن جدته أمى

---

(١) الروضتين ٢ : ١٦١ .
(٢) النوادر السلطانية ص ٢١٨ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٠٣.
(٤) ديوان ابن الساعاتى ٢ : ٤٠٩ .

تحبه ، وما تركته ، يخرج معى حتى استحلفتنى أنى أرده إليها ، قال : وأمك تعيش ؟ قلت : نعم ، قال : لا تخالفها[١] » .

هذا ويخيل إلىّ أن الذين تعلموا العربية من الإفرنج كانوا أكثر عدداً ممن تعلموا اللغات الأجنبيـــة من العرب ، وأن بعض عظماء الفرنج درسوا العربية ، وأتقنوها ، فكانوا يستطيعون الحديث بالعربية ، والترجمة منها وإليها ، كما كان ابن الهنفرى ، فإنه كان يترجم بين الملك العادل وملك الإنجليز[٢] ، عند ما كانا يتحدثان فى الصلح ، وهو من إفرنج الساحل ، من كبارهم ، وكان هو المتولى للترجمة يوم عقد الصلح ، بين صلاح الدين والفرنج ، بينما يعلن أمير كأسامة أن الفرنج عند ما يتكلمون لغتهم يبربرون بلسانهم ، ولا يدرى مما يقولون شيئا[٣] » .

١٢ - رثاء الأبطال

كان من الطبيعى أن يقف الأدب حزيناً باكياً ، عند ما يهوى نجم من هذه النجوم التى كانت تلمع أمام المسلمين ، وتضىء قلوبهم ، وتخلق فى نفوسهم الأمل فى حياة ، تتطهر فيها أرضهم من آثام العدو الغاصب ، وأن يسجل لهؤلاء الأبطال ما قدموه فى حياتهم ، مما يخلد ذكرهم ، ويضعهم أمام خلفهم مثلا يقتدى بهم ، وقد قام الأدب بنصيبه فى ذلك ، فرأينا نصر الله الهيتى يرثى طلائع بن رزيك ، وهو بطل من أبطال هذه الحروب[٤] ، كما رثى ابن عنين المعظم عيسى ، وأشاد فى رثائه بوقائعه ضد الفرنج[٥] ، كما رثى الشعراء الصالح أيوب[٦] .

ومن الخير أن أقف عند ثلاثة من أبطال هـــذه الحروب ، لأرى كيف خلد الأدب بطولتهم ، وكيف أشاد بنبوغهم ، ومجد خلالهم وسماتهم ، وهؤلاء الأبطال هم : عماد الدين زنكى ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين يوسف بن أيوب .

أما عماد الدين زنكى فقد صوره لنا الأدب مؤسس ملك ، وبانى سلطان ، غنياً ، جمع ثراء ضخما ، وكنوزا لعله أراد بجمعها أن يستعين بها على ما أعد نفسه له : من تطهير الأرض المقدسة من دنس الفرنج ، فاستطاع أن يستولى على المعاقل والحصون ، وأن يتسع سلطانه ، وأن تملأ هيبته الصدور ، وأذاع جوده فى طالبيه ، وجعل للعدل سلطانا فى أرجاء مملكته ،

---

(١) الاعتبار ص ٩٧ . (٢) النوادر السلطانية ص ١٧٤ . (٣) الاعتبار ص ١٠٤ .
(٤) الخريدة المصورة ١ : ٤٠ . (٥) ديوان ابن عنين ص ٥٩ . (٦) النجوم الزاهرة ٦ : ٣٣٧ .

وتجد فى رثائه روحا دينية ، تسرى فيه ، فهو نجم آفل من نجوم الإسلام ، وركن قد انهدم من أركانه ، شجاع ، فتح ثغور الإسلام ، واسترد إمارة الرها ، من بين الإمارات التى استولى عليها العدو . تجد هـذه الصورة فيما رثاه به بعضهم إذ قال : « أضحى وقد خانه الأمل ، وأدركه الأجل ، وتخلى عنه العبيد والخول ، فأى نجم للإسلام أفل ، وأى ناصر للإيمان رحل ، وأى بحر ندى نضب ، وأى بدر مكارم غرب ، وأى أسد افترس ، ولم ينجه قلة حصن ولا صهوة فرس ، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك ، وسياسته ، وكم أدبها فى حفظه وحراسته »[1].

وفى قول بعض الشعراء :

كذاك عماد الدين زنكى ، تنافرت ... سعادته عنه ، وخرت دعائمه
وكم بيت مال من نضار وجوهر ... وأنواع ديباج حوتها مخاتمه
وأضحت بأعلى كل حصن مصونة ... يحامى عليها جنده وخوادمه
وكم معقل قد رامه بسيوفه ... وشامخ حصن لم تفته غنائمه
وكم ثغر إسلام حواه بسيفه ... من الروم لما أدركته مراحمه[2]

وفى قول الحكيم أبى الحكم المغربى :

لم يهب شخصه الردى ، بعد أن كا ... نت له هيبة على كل تركى
يهب المال ، والجياد ، لمن يمـ ... ـدحه مادحا ، بغير تلكى[3]
أى فتك جرى له فى الأعادى ... بعد ما استفتح (الرها) أى فتك
بعد ما كاد أن تدين له الرو ... م ، ويحوى البلاد من غير شك[4]

وفى رثاء نور الدين محمود يظهر ما كان يراود المسلمين يومئـذ : من آمال كبار فى استرداد بلاد الإسلام ، وإعادة مجد تعاليم محمد رسوله ، فطغت صفته حامياً للإسلام ، وهازماً للفرنج ، على ما عداها : من صفاته ، وفضائله ، ومع ذلك سجل له الأدب صلابة العود ، ونفاذ العزيمة ، ومضاء الرأى ، وسداده ، ورحمته بالرعية ، ورغبته فى إصلاح مملكته بتشييد المساجد ، وبناء المدارس ، ترى هذه الصورة فى قول العماد يرثيه :

الدين فى ظلم ، لغيبة نوره ... والدهر فى غم ، لفقد أميره
فليندب الإسلام حامى أهله ... والشام حافظ ملكه ، وثغوره
ما أعظم المقدار فى أخطاره ... إذ كان هـذا الخطب فى مقدوره
من للمساجد ، والمدارس بانياً ... لله طوعا ، عن خلوص ضميره
من ينصر الإسلام فى غزواته ... فلقد أصيب بركنه وظهيره

(١) الروضتين ١ : ٤٢ . (٢) المرجع السابق ص ٤٥ .
(٣) يريد بغير تلكؤ ، فلم تساعده القافية . (٤) الروضتين ١ : ٤٦ .

من للفرنج ، ومن لأسر ملوكها ... من للهدى يبغى فكاك أسيره
من للخطوب ، مذللا لجماحها ... من للزمان مسهلا لوعوره
من كاشف للمعضلات برأيه ... من مشرق فى الداجيات بنوره
من للكريم ، ومن لنعش عثاره ... من لليتيم ، ومن لجبر كسيره
من للبلاد ، ومن لنصر جيوشها ... من للجهاد ، ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولا أبكارها ... برواحه فى غزوه ، وبكوره
أنت الذى أحييت شرع محمد ... وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أقمت من الشريعة معلماً ... هو ، منذ غبت ، معرض لدثوره
أو ما وعدت القدس أنك منجز ... ميعاده ، فى فتحه ، وظهوره
فتى تجير القدس من دنس العدا ... وتقدس الرحمن فى تطهيره
حياك معتل الصبا بنسيمه ... وسقاك منهل الحيا بدروره
ولبست رضوان المهيمن ساحبا ... أذيال سندس خزه وحريره
وسكنت عليين فى فردوسه ... حلف المسرة ، ظافراً بأجوره

فإذا جئنا إلى رثاء صلاح الدين وجدنا الأدب يعبر عن هذا الذهول الذى أصاب المسلمين بموته ، فهم يستعظمون هذا الموت ، ولا يجدونه فناء فرد ، ولكنه فناء آمال أمة ، وكانت أعمال صلاح الدين الكثيرة مجالا لاتساع نفس القول فيه ، فهذا العماد الكاتب يرثيه بقصيدة تبلغ مائتين واثنين وثلاثين بيتاً ، تحدث فيها عن مآثره ، وسجل أخلاقه وسماته ، وعنى من بين ماعنى به بالإشادة بالدور الخالد الذى قام به صلاح الدين ، مدافعاً عن الإسلام ومحطما قوى أعدائه ، وباذلا فى سبيل ذلك كل ما يستطيع أن يبذله ، مما لو كان فى عصر النبى لنزلت الآيات فى تمجيده ، ويسجل الشعر ما كانت تبذله الرعية له : من طاعة ، لطاعته ربه .

قال العماد يرثيه :

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء ، وأقلعت حسناته
أين الذى مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته وهباته
أين الذى كانت له طاعاتنا ... مبذولة ، ولربه طاعته
بالله أين الناصر الملك الذى ... لله خالصة صفت نياته

أين الذى عنت الفرنج لبأسه ذلا ، ومنها أدركت ثاراته
من فى الجهاد صفاحه ما أغمدت بالنصر ، حتى أغمدت صفحاته
من فى صدور الكفر صدر قناته حتى توارت بالصباح قناته
لذ المتاعب فى الجهاد ، ولم تكن مذ عاش قط لذاته لذاته
فى نصرة الإسلام يسهر دائما ليطول فى روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد فممات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً أبدا ، إذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره لما خلت من بدره داراته
الدين بعد أبى المظفر يوسف أقوت قواه ، وأقفرت ساحاته
من لليتامى والأرامل راحم متعطف مفضوضة صدقاته
لو كان فى عصر النبى لأنزلت فى ذكره من ذكره آياته
من للثغور ، وقد عداها حفظه من للجهاد ، ولم تعد عاداته
بكت الصوارم، والصواهل، إذ خلت من سلها وركوبها غزواته
يا وحشتا للبيض فى أغمادها لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الإسلام ، يوم تمكنت فى كل قلب مؤمن روعاته
ملأت مهابته البلاد ، فإنه أسد ، وإن بلاده غاباته

وعما قاله جعفر بن شمس الخلافة يرثيه :

جزاه عن الإسلام خيرا إلهه فما مل عنه من دفاع ومن ذب
تداركه بعد ابتذال ، فقد غدا وكان شديد الخوف، فى أمنع الحجب
وأصبح للبيت المقدس منقذاً بأصلب عزما من مقارنة الصلب
أذل له الله العدا ، مذ أطاعه وسهل منهم كل ممتنع صعب
سقى الخلد عند الله دار مقره يمتع منه بالجوار ، وبالقرب

وهكذا كان لجهاد الصليبيين أثره الواضح فى رثاء أبطال هذه الحروب .

١٣ مدح الرسول

فى هذا العصر الذى سادته الحروب باسم الدين ، وقف الأدب يدافع عن صاحب هذا

الدين ، الذى يهاجمه الفرنج ، فظهر عند كثير من شعراء هذا العصر ميل إلى مدح الرسول ، وتمجيده ، بقصائد طويلة ، تتحدث عن صفاته ، وتمجد دينه ، وتشيد بفضائله، كما قام رجال أصول الدين بالبرهنة على عقائد الإسلام ، ومناقشة عقيدة الفرنج [١] . وقد سبق أن رأينا بعض الشعراء ينظم من الشعر ما يرد به على عقيدة غير المسلمين [٢] .

وقد رأينا عشرات من الشعراء ، يقرضون الشعر فى مدح صاحب الرسالة ، بل لقد ألف بعض الشعراء ديوانا خاصا بمدح النبى ، وإذا كان قد عاش بعضهم إلى ما بعد هذا العصر ، فقد كان لهذه الحروب أثرها فى هذا التوجيه، ومن ذلك ديوان: بشرى اللبيب بذكرى الحبيب، خصه ناظمه ابن سيد الناس اليعمرى بمدح الرسول[٣] ، وديوان: أهنى المنائح فى أسنى المدائح، للشهاب محمود بن سليمان [٤] . وقد عاش هذان الشاعران حينا طويلا فى عصر الحروب الصليبية نفسها ، وقد يكون الديوانان مما نظما فى العصر نفسه .

وبقى لنا كثير من القصائد التى تضمنت مدح الرسول ، وتأنق الكثير منهم ما شاء له التأنق، فهذا جلال الدين الدشناوى يقرض قصيدة من هذا النوع على حروف المعجم[٥] ، وشارك فى هذا التراث من الأدب النبوى كثير ، منهم أحمد بن عبد القوى ، وعبد الرازق بن حسام ، ومحمد بن حمزة الفرجوتى ، ومحمد بن الحسين ، والأرمنتى ، وحمزة بن محمد بن هبة الله بن عبد المنعم [٦] ، وأبو بكر بن شافع ، وابن جبير[٧] ، وابن بنت الأعز[٨] ، وابن دقيق العيد[٩] وابن الزملكانى [١٠] ، والحسن بن صافى [١١] ، وصفوان بن إدريس [١٢] ، وعلى بن محمد العمرانى [١٣] .

وكان لقصيدة : « بانت سعاد » أثرها فى هذا العصر ، حاول أن يقلدها بعض الشعراء. ومن هؤلاء الذين أعجبوا بهذه القصيدة شبيب بن حمدان ، وقد بقى لنا من قصيدته قوله :

---

(١) راجع فصل (أصول الدين) فى كتاب : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، لصاحب هذا الكتاب (٢) راجع ترجمة البوصيرى. (٣) الديوان مخطوط بدار الكتب رقم ٦٨٩١ ـ أدب .

(٤) مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٩٦ ـ أدب . (٥) الطالع السعيد ص ٢٧٠ .

(٦) راجع الطالع السعيد ص٤٤ و١٦٨ و٢٨٨ و٣٤٩ و٢٨٥ و١٢١ و٢٦ ؛ بترتيب الأسماء .

(٧) رحلة ابن جبير ص ٥ . (٨) فوات الوفيات ١ : ٢٥٦ .

(٩) المرجع السابق ٢ : ٢٤٥ و٢٤٦ . (١٠) المرجع السابق ٢ : ٢٥١.

(١١) وفيات الأعيان ١ : ١٣٥. (١٢) معجم الأدباء ١٢ : ١١.

(١٣) المرجع السابق ١٥ : ٦٢.

إلى النبي رسول الله ، إن له مجدا تسامى ، فلا عرض ، ولا طول
مجدا كبا الوهم عن إدراك غايته ورد عقل البرايا ، وهو معقــول
مطهر ، شرف الله العباد بــه وشاد فخراً به الأملاك جــبريل
طوبى لطيبة ، بل طــوبى لكل فتى له بطيب ثراها الجعــد تقبيــل

لست أخفى ما فى هذه الأبيات من ضعف أسلوب ، يبعدها عن أن تكون فى مستوى القصيدة المعارضة ، فلا معنى لنفى العرض والطول عن المجد المتسامى ، ولا معنى لوصف ثرى طيبة بأنه جعد.

ومنهم ابن الساعاتى ، وقد بقيت لنا قصيدته كاملة ، وربما كانت هى القصيدة التى عنى صاحبها بأن ينهج فيها نهج القصيدة المقلدة ، فى بدئها بالغزل ، وإن اختلف طريقاهما : فبينا كعب بن زهير يتجه إلى وصف من يتغزل بهـا ، ووصف بعدها ، والناقة التى يحتاج إليها ، كى يصل بهـا إلى حبيبته . مما يمكن أن يدور حول الأبيات الآتية .

بانت سعاد فقلبي اليوم متبــول (١) متيم إثرهـا ، لم يفد ، مكبــول
وما سعـاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغن (٢) ، غضيض الطرف ، مكحول

. . . .

أمست سعـاد بأرض لا يبلغهـا إلا العتاق ، النجيبات ، المراسيل
ولن يبلغها إلا عــذافرة لها على الأين إرقال وتبغيل (٣)

ومضى كعب يصف الناقة مستخدما ألفاظا كثيرة نعدها اليوم غريبة عنا .

أما ابن الساعاتى فحدثنا فى غزله عن كثير من إحساسات الحب : فوصف لنا أثر الفراق فى نفسه ، وبكاءه على الأطلال التى فارقها سكانها ، وشكوى من معاملة الحبيبة ، ووصف لهـا . ويسود غزله الشكوى من الفراق ، ومن هذا الغزل قوله :

جد الغرام ، وزاد القـال والقيل وذو الصبـابة معذور ومعذول
يا دميـة الحى ، ما حزنى لفرقتكم دعوى ، ولا وجدى العذرى منحول

---

(١) تبله . ذهب بعقله . (٢) ظبي أغن : يخرج صوته من خياشيمه .

(٣) العذافرة : الناقة العظيمة الشديدة ، والأين . الإعياء ، والإرقال : الإسراع ، وتبغيل الإبل : مشيها بين الهملجة والعنق .

وقفت ، والدمع جار ، يوم بينهم ... وكيف أمضى ، وحد الصبر مفلول
هم المنى ، والأمانى غير صادقة ... وعدا ، وسؤلى هم ، لو يدرك السول
عج بالمنازل ، واسأل عن أوانسها ... فهى المحاريب ، أو هن التماثيل
أبكى ، وأندب رسمها بكاظمة ... وفيهما لعليل الشوق تعليل

وإذا كان غزل كعب يتسم بالوحدة والتناسق وكثرة استخدام الألفاظ التى تعدها اليوم غريبة ، فغزل ابن الساعاتى ليس فيه هذا الترابط القوى ، بل فيه تخلخل ، وحديث عن إحساس ، وانتقال إلى إحساس سواه ، ثم عود إلى الإحساس الأول ، وفيه سهولة ، تناسب العصر الذى أنشىء فيه ، ثم فيه صناعة ، وولوع بالمحسنات البديعية ، والزخارف اللفظية .

وانتقل الشاعران من الغزل إلى المدح . أما كعب بن زهير فقد شغله إهدار النبى دمه ، فجعل الحديث عنه ، والاعتذار إلى الرسول ، وسيلة إلى مدحه ، وفاتحة له ، وقد أجاد فى وصف ما سمعه من هذا النبأ ، وفى حسن اعتذاره ، وحديثه عن الهيبة التى ملأت قلبه ، من الرسول ، وذلك حين يقول :

تسعى الوشاة جنابيها ، وقولهم ... إنك يابن أبى سلمى لمقتول
فقلت : خلوا سبيلى ، لا أبا لكم ... فكل ماقدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى ، وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

وأجاد كعب فى وصف شعوره نحو الرسول فى قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند ، من سيوف الله ، مسلول

فقد كان شعوره بقوة الرسول هو الذى أوحى إليه بتشبيهه بالسيوف ، ومع أنه سيف مهند ، مسلول ، يضىء ، ويستضاء بنوره .

ثم انتقل كعب إلى مدح المهاجرين ، لأنهم قومه ، وعشيرته ، ومنهم يرجو العون والشفاعة عند الرسول .

أما ابن الساعاتى فقد ملكه شعور أن مدحه للرسول وسيلة من وسائل ذيوع صيته ، ونشر شعره على ألسن الناس ، فحدثنا عن هذا الخاطر ، ومضى منه إلى مدح الرسول الذى لم يقف فيه ، عند حد قوة الرسول وهدايته ، بل ألم بغير ذلك من تمجيد صفاته ، إذ قال :

ومن عجائب ما تحدى الركاب به صيت يطير بفضلى ، وهو محمول
وكيف أخمل فى دنيا وآخرة ومنطق ، ورسول الله مأمول
هو البشير ، النذير ، العدل شاهده وللشهادة تجريح وتعديل

ولا ريب أن الحروب الصليبية كان لها أثرها فى النص على أن العالم إنما وجد إكراما لرسول الله ، وأنه سيد الرسل ، وشافع فى الناس جميعاً ، وأن رسالته قد شهد بها وتحدث عنها التوراة والإنجيل ، بما لانجده فى شعر كعب . وهكذا رأينا ابن الساعاتى يقول :

لولاه لم تك شمس ، لا ، ولا قمر ولاالفرات ، وجاراها ، ولا النيل
ولم يجب آدم فى حال دعوته نعم ، ولم يك قابيل وهابيل
فسيد الرسل حقاً ، لاخفاء به وشافع فى جميع الناس مقبول
بشت نبوته الأخبار ، إذ نطقت فحدثت عنه توراة وإنجيل

ولم يغفل ابن الساعاتى نور النبى الهادى ، إذ قال :

أضاء هديا ، وجنح الكفر معتكر ووجه حق ، وستر الشك مسدول

ومضى ابن الساعاتى كابن زهير يمدح صحابة الرسول ، مشيداً بنبلهم ، وخلقهم ، مطيلا فى الحديث عن بسالتهم وشجاعتهم ، وكان أ كثر القصيدة فى هذا المدح الذى ختمه بقوله :

أسد، إذا نازلوا ، شهب، إذا سفروا لد ، إذا جادلوا ، سحب ، إذا سيلوا
فلا مفاريح ، إن نالت رماحهم ولا مجازيع فى البأساء ، إن نيلوا
العالمون بأن النفس هالكة يوماً ، وأن قضاء الله مفعول
فما كواحدهم ، فى فضله ، أحد ولا كجيلهم ، فى فضله ، جيل
وإننى لأرجى أجر حبهم فى يوم حبهم أجر وتنويل

والبيت الثانى هنا مأخوذ من قول كعب :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم قوماً ، وليسوا مجازيعا ، إذا نيلوا

أما قصيدة البوصيرى التى سماها : ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد، فقد بدأها بتوجيه النصيحة أن يسرع المرء إلى التوبة ، وأن ينصرف عن الانهماك فى اللذات ، إذ يقول :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول ؟!
فى كل يوم ترجى أن تتوب غدا وعقد عزمك بالتسويف محلول

ومضى فى إنذاره وتحذيره ، مخوفا المصير فى يوم يبعث فيه الناس ، ويتبين الرابح والخاسر ، وهنا يتجلى أثر العصر ، والنزاع الدينى فى هذه القصيده ، إذ يقول :

فأخسر الناس من كانت عقيدته ... فى طيها للنشور الخلق تعطيل
وأمة زعمت أن المسيح لها ... رب ، غدا وهو مصلوب ، ومقتول
فثلثت واحداً ، فرداً نوحده ... وللبصائر ، كالأبصار ، تخييل
تبارك الله عما قال جاحده ... وجاحد الحق عند النصر مخذول

وحيث يوازن بين كتاب الإسلام ورسوله ، وبين غيره من الكتب والرسل ، فيقول :

والفوز فى أمة فضل الوضوء بها ... قد زانها غرر منه وتحجيل
تظل تتلو كتاب الله ليس به ... كسائر الكتب تحريف وتبديل
فالكتب والرسل من عند الإله أتت ... ومنهم فاضل حقاً ، ومفضول
والمصطفى خير خلق الله كلهم ... له على الرسل ترجيح وتفضيل

وأخذ الشاعر بعدئذ يتحدث عما خص به محمد من الفضل ، وما أوتيه من المعجزات . كما بدا أثر العصر مرة أخرى حين أخذ يبين ظلم النصارى ، إذ أنكروا رسالة محمد ، ويرد عليهم قائلا :

قل للنصارى الألى ساءت مقالتهم ... فما لها غير محض الجهل تعليل:
من اليهود استفدتم ذا الجحود ، كما ... من الغراب استفاد الدفن قابيل
فإن يكن عندكم توراتهم صدقت ... ولم تصدق لكم منهم أناجيل
ظلمتمونا ، فأضحوا ظالمين لكم ... وذاك مثل قصاص فيه تعديل
أما عرفتم نبى الله معرفة الأ ... بناء ؟! لكنكم قوم مثاكيل
هذا الذى كنتم تستفتحون به ... لو اهتدى منكم للرشد ضليل
فلا ترجوا جزيل الأجر من عمل ... إن الرجاء من الكفار مخذول
تبادئون بزى من جهالتكم ... به انتفاخ ، وجسم فيه تهويل
موتوا بغيظ ، كما قد مات قبلكم ... قابيل ، إذ قرب القربان هابيل

ومضى بعدئذ يعدد غزوات الرسول ، وما ظهر فيها من آيات ، تدل على صدق رسالته ، وأشاد طويلا بما ناله المسلمون من إيذاء المشركين ، وما ذاقه هؤلاء من ألوان المر فى القتال ،

وكان ذلك خطوة إلى مدح أصحاب رسول الله ، مطيلا فى هذا المدح الذى كان العنصر الأساسى فيه هو .

قوم لهم فى الوغى من خوف ربهم   حسن ابتلاء ، وفى الطاعات تبتيل
كأنهم فى محاريب ملائكة   وفى حروب أعاديهم رآبيل

وتحدث الشاعر عن معارضته لكعب بن زهير ، معترفاً بفضل كعب ، وغير جاحد لنفسه فضل ما أتى به من شعر ، فقال :

وما على قول كعب أن توازنه   فربما وازن الدر المثاقيل
وهل تعادله حسنا ، ومنطقها   عن منطق العرب العرباء معدول
وحيث كنا معاً نرمى إلى غرض   فحبذا ناضل (١) منا ومنضول
لما غفرت له ذنبا ، وصنت دما   لولا ذمامك أضحى وهو مطلول
رجوت غفران ذنب موجب تلفى   به إلى النفس إملاء وتسويل

والبوصيرى قد اقتبس من كعب بعض أشطار قصيدته . وفضلا عن ذلك تنطق قصيدة البوصيرى عن نفس مؤمنة ، شديدة اليقين فى معجزات الرسول ، لا تناقش فيها ، ولا تمترى فى اليقين بها .

أما أشهر قصيدة فى مدح الرسول بقيت لنا من العصر الصليبى فقصيدة البردة ، التى أنشأها البوصيرى ، ولا أريد أن أطيل فى بيان سبب تسميتها بذلك الاسم . وصاحب فوات الوفيات (٢) يروى أن البوصيرى قال : كنت قد نظمت قصائد فى مدح الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اتفق بعد ذلك أن أصابنى فالج بطل نصفى ، ففكرت فى عمل قصيدتى هذه : البردة ، فعملتها ، واستشفعت به إلى الله تعالى ، فى أن يعافينى ، وكررت إنشادها ، وبكيت ، ودعوت ، وتوسلت ونمت فرأيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فمسح على وجهى بيده المباركة ، وألقى على بردة ، فانتبهت ، ووجدت فى نهضة ، فقمت ، وخرجت من بيتى . . . ولا أنكر صحة هذه الرواية ؛ لما هو ثابت مقرر من تأثير العقيدة فى النفس ، وأثر الإيمان والإيحاء فى دواء الأمراض ، وشفاء الأجسام .

بدأت القصيدة بنقلنا إلى بلاد العرب ، حيث جيران ذى سلم ، وحيث تهب الريح من

---

(١) نضانه : سبقته فى الرمى .   (٢) ٢ : ٢٠٩ .

تلقاء كاظمة ، وإذ كانت القصيدة مدحا للرسول ، منبعثاً عن الحب ، فقد بدأها بالحديث عن الحب الذى لا يستطيع صاحبه إخفاءه ، والذى يثور فى القلب عند رؤية طيف الحبيب :

أيحسب الصب أن الحب منكتم ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حبا ، بعد ما شهدت به عليك عدول الدمع والسقم ؟!
نعم سرى طيف من أهوى ، فأرقنى والحب يعترض اللذات بالألم

وبعد هذا الغزل ، انتقل إلى وجوب استماع نصح الناصح ، وأن الشيب يدفع إلى العمل بالنصح ، لولا أن النفس أمارة بالسوء ، وهنا وجد الشاعر مجالا للتحذير من هوى النفس ، والجد فى كسر جماحها ، فالخير كل الخير فى كسر شهوتها ، وصرف هواها :

والنفس كالطفل : إن تهمله شب على حب الرضاع ، وإن تفطمه ينفطم
فاصرف هواها ، وحاذر أن توليه إن الهوى ، ما تولى ، يصم ، أو يصم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

وكما انتقل انتقالا مستقيما من الغزل إلى استماع النصح فى الحب ، والحديث عن طبيعة النفس ، انتقل كذلك انتقالا طبيعياً إلى مدح الرسول : ذلك أنه اتهم نفسه بأنه ينصح غيره ، ولكنه لا ينتصح ، ولا يأتمر بالخير ، ولا يستقيم ، وفى ذلك كله ظلم لسنن الرسول الكريم ، الذى جعل من أكبر الآثام أمر الناس بالمعروف ، ونسيان النفس أن تأتمر به . وهنا آخذ على البوصيرى أن الوصف الذى كان من اللائق أن يكون للرسول هنا هو هذا الوصف الذى ذكرناه ، لا أن يوصف بما ذكرته القصيدة : من تهجده طول الليل ، حتى اشتكت قدماه من الضر ، فى قوله :

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى أن اشتكت قدماه الضر من ورم

وهنا انتقل انتقالا طبيعياً إلى مدح الرسول ، وكان أول ما سجله من فضائل الرسول زهده ، برغم أنه كان يستطيع الحصول على الغنى والثراء ، وربما كان الدافع له إلى تسجيل هذه الصفة فى المكانة الأولى رغبته فى أن يبين لملوك عصره الذين يحكمون باسمه مدى ما يفرق بينهم وبينه : من شدة زهده ، وشدة جمعهم وحرصهم ، ليكون ذلك أول ما يطرق الأسماع من صفاته المجيدة وسجاياه .

ومضى الشاعر يتحدث عن إعجابه الذى لاحد له بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم. ومن المرجح أن للعصر دخلا فى الحديث عن تقديره هذا التقدير السامى، وعن الإعجاب به هذا الإعجاب الذى لاتقيده حدود، سوى أن محمداً بشر لا إله، وعن الإعجاب بدينه، ووصفه بأنه دين معقول، يدرك المرء أسراره، ويعرف فى سهولة ويسر أسباب أوامره ونواهيه. كان للعصر أثره فى التعبير عن هذا الإعجاب، وإنزاله هذه المنزلة التى لا تساوى به أحدا من الناس، وذلك حين يقول.

محمد سيد الكونين، والثقلين، والفريقين: من عرب، ومن عجم
فاق النبيين فى خلق، وفى خلق ولم يدانوه فى علم، وفى كرم
فهو الذى تم معناه، وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارىء النسم
منزه عن شريك فى محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسم
دع ما ادعته النصارى فى نبيهم واحكم بما شئت مدحا فيه، واحتكم
وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له حد، فيعرب عنه ناطق بفم
لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا، فلم نرتب، ولم نهم
أعيا الورى فهم معناه، فليس يرى فى القرب والبعد منه غير منفحم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم
وكل آى أتى الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهم

أثر العصر واضح فى هذا المدح الحريص على وضع الرسول فوق طبقة الرسل أجمعين، وأنهم كلهم يستمدون فضائلهم منه، ويأخذون عنه العلم والمعرفة، ويبرز بعده عن عقيدة النصارى فى نبيهم. وكل ذلك من وحى العصر الذى جعل الإسلام والمسيحية يقف أحدهما فى وجه صاحبه، ويدعى كل منهما أنه الدين الحق.

ومضى الشاعر بعدئذ يعدد معجزات الرسول، فى ميلاده، وفى رسالته، حتى إذا جاء إلى معجزة القرآن أطال فى الحديث عنها؛ وأوحى إليه العصر بموازنة بين هذه المعجزة ومعجزات غيره من الرسل، وبالرد على من أنكر هذه المعجزة، من هؤلاء الذين جاءوا يحاربون هذه العقيدة الصادقة. وذلك حين يقول:

دامت لدينا ففاقت كل معجزة　　من النبيين ، إذ جاءت ولم تدم
لا تعجبن لحسود راح ينكرها　　تجاهلا ، وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد　　وينكر الفم طعم الماء من سقم

وأطال كذلك فى الحديث عن معجزة الإسراء، ثم مضى إلى مدح الصحابة، والثناء عليهم، مطيلا فى هذا المدح والثناء ، وختم الشاعر قصيدته مستغفرا من آثامه ، ملتجئاً إلى الرسول راجياً أن يأخذ بيده يوم الحساب .

ويظهر أن الشاعر أراد أن يجعل القصيدة خالصة لمدح الرسول ، فلم يشر إلى مرضه ، ولا إلى رجائه فى أن يتخذ الرسول وسيلة إلى الله ، كى ينقذه من هذا المرض .

وبقيت للشاعر نفسه قصيدة ثانية نالت حظا من الشهرة ، وعارضها شوقى ، كما عارض البردة، بقصيدة دعاها : نهج البردة .

هذه القصيدة همزية ، طال نفس الشاعر فيها ، حتى بلغت ستة وخمسين وأربعمائة بيت ، تمتاز بقوة الأسلوب ، ومتانة العبارة ، وقد بدأها مستوحياً روح العصر ، فى رفع محمد فوق جميع الرسل ، حتى أبيه : آدم ، فقال :

كيف ترقى رقيك الأنبياء　　يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك ، وقد حـ　　ال سنامنك دونهم وسناء
إنما مثلوا صفاتك للناس　　كما مثل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل ، فما تصـ　　در إلا عن ضوئك الأضواء
لك ذات العلوم من عالم الغيـ　　ب ، ومنها لآدم الأسماء

وأخذ الشاعر يتحدث عن أمجاد محمد ، منذ كان فى ضمير الكون ، يختار الله له الآباء والأمهات ، وعما صاحب مولده : من آيات ، تدل على أن الكون قد استقبل يوم ولادته نبياً ممتازاً. ثم يعود أثر العصر إلى الظهور مرة أخرى فى هذه الموازنة التى عقدها الشاعر بقوله :

من لحواء أنها حملت أحمـ　　د ، أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب　　من فخار مالم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما　　حملت قبل مريم العذراء

ومضى الشاعر يتتبع حياة محمد مرحلة مرحلة ، وما بدا فى كل منها من معجزات وآيات ،

فى رضاعه، وعند ما شب، وحين جاءه الوحى، ولما أرسل إلى قومه. يتحدث عن هذه المعجزات فى حب وإعجاب.

وبدا أثر العصر كذلك فى هذه القصيدة، فى هذا النقاش الطويل، الذى ناقش به الشاعر عقيدة المسيحيين جاء فيه:

قوم موسى، عاملتم قوم عيسى ... بالذى عاملتكم الحنفاء
صدقوا كتبكم، وكذبتم كتبهم، إن ... ذا لبئس البواء(١)
لو جحدنا جحودكم لاستوينا ... أو للحق بالضلال استواء
ما لكم إخوة الكتاب أناسا ... ليس يرعى للحق منكم إخاء
يحسد الأول الأخير، ومازال كـ ... ـذا المحدثون والقدماء
بينته توراتهم، والأناجيـ ... ـل، وهم فى جحوده شركاء
إن تقولوا: ما بينته، فمازالت بهـ ... ـا عن عيونهم غشواء
أو تقولوا: قد بينته، فما للأ ... ذن عما تقوله صماء
كيف يهدى الإله منهم قلوباً ... حشوها من حبيبه البغضاء
خبرونا أهل الكتابين، من أيـ ... ـن أتاكم تثليثكم والبداء
ما أتى بالعقيدتين كتاب ... واعتقاد لا نص فيه ادعاء
والدعاوى ما لم تقيموا عليها ... بينات أبناؤها أدعياء
كيف وحدتم إلهاً نفى التوحيـ ... ـد عنه الآباء والأبناء
أإله مركب؟ ما سمعنا ... بإله لذاته أجزاء
ألكل منهم نصيب من الملك؟ ... فهلا تميز الأنصباء
أهو الراكب الحمار؟! فيا عجـ ... ـز إله يمسه الإعياء
أم جميع على الحمار؟ لقد جل حما ... ر بجمعهم مشاء
أم أردتم بها الصفات؟ ... فلم خصت ثلاث بوصفه وثناء
أم هو ابن الله ما شاركته ... فى معانى البنوة الأنبياء
قتلته اليهود فيما زعمتم ... ولأمواتكم به إحياء
إن قولا أطلقتموه على الله تعـ ... ـالى ذكراً لقول هراء

---

(١) البواء: السواء والكفء.

وخص البوصيرى صحابة الرسول بجزء كبير من قصيدته ، تحدث فيه عن الخلفاء الراشدين وغيرهم من عظماء صحابه ، ثم اتجه إلى الرسول يناجيه. ويبدو أن الشاعر أنشأ قصيدته بمناسبة زيارته قبر الرسول ، فقد وصف فى القصيدة هذه الزيارة ، وأخذ يستشفع بالرسول ، ويسأل الله أن يغفر له ذنوبه ، وأن يهيء له توبة صالحة .

وهكذا كان للحروب الصليبية أثرها فى كثرة مدح نبى الإسلام ، وفى المعانى التى مدح بها ، وفى مزج هذا المدح أحياناً بمناقشة عقيدة الفرنج ، الذين هاجموا الإسلام ، والانتصار لنبوة محمد ، وتمجيده تمجيداً فوق مستوى الأنبياء أجمعين .

١٤ — عهود وتوصية

ليس بعجيب وقد استوطن عدو أرضاً للإسلام أن يكون من أمنية خلفائه وملوكه الإلقاء بهذا العدو إلى البحر ، وأن يوصى الخلفاء أمراءهم وملوكهم ووزراءهم بأن يكون جهاد هذا العدو ، وإعداد العدة لحربه ، من بين أهدافهم ، التى يتوخونها ويعملون لها ، وأن يكون تقوية الجيش والعناية بأمره مما يذكر فى عهود توليتهم ، ويتواصون به .

وقد ظهر هذا الاتجاه فى وقت مبكر ، فرأينا العهود التى كان الوزراء يولون بها أيام الدولة الفاطمية ، ينص فيها على ذكر الجهاد ، وما له من قيمة فى حياة الأمة ، ويوصى فيها بالجند الذين هم « أشياع الدين ، وأعضاد دولة أمير المؤمنين . . . والقائمون بمدافعة الأعداء عن حوزة الدولة العلوية ، والمدخرون لكفاح المباين للمملكة الفاطمية . . والمعدون للذب عن بيضة المسلمين . . . المصطلون نيران الحرب والكفاح ، فى المواقف التى تهتز فيها السيوف ، وتضطرب كعوب الرماح (١) . . . »

وجاء فى التقليد الذى أرسل به الخليفة العباسى المستضىء ، إلى صلاح الدين ، بتولية مصر والشام : « وقد علمت أن العدو هو جارك الأدنى ، والذى يبلغك وتبلغه عينا وأذنا ، ولا تكون للإسلام نعم الجار ، حتى تكون له بئس الجار ، ولا عذر لك فى ترك جهاده بنفسك ومالك ، إذا قامت لغيرك الأعذار ، وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مصافحاً ، أو تطرق أرضه ممasيا أو مصابحاً ، بل يريد أن تقصد البلاد التى فى يده ، قصد المستغير ، لاقصد

---

(١) من عهد الفائز لوزيره : طلائع بن رزيك — حسن المحاضرة ٢ : ١٣٢ .

المغير ، وأن تحكم فيها بحكم الله الذى قضاه على لسان سعد فى بنى قريظة والنضير [١] ، وعلى الخصوص البيت المقدس ، فإنه بلاد الإسلام القديم ، وأخو البيت الحرام فى شرف التعظيم، والذى توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم ، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة فى أسر رقبته ، وأصبحت كلمة التوحيد وهى تشكو طول الوحشة فى غربتها عنه وغربته ، فانهض إليه نهضة متوغل فى فرحه ، وتبدل صعب قياده بسمحه ، وإن كان له عام حديبية فأتبعه بعام فتحه ، وهذه الاستزادة بعد سداد مافى اليد من ثغر كان مهملا فحميت موارده ، أو مستهدما فرفعت قواعده ، ومن أهمها ماكان حاضر البحر . . . . والعدو قريب منه على بعده ، وكثيرا ما يأتيه فجأة . . . فينبغى أن ترتب بهذه الثغور رابطة يكثر شجعانها ، ويقل أقرانها ، ويكون قتالها لأن تكون كلمة الله العليا ، . . . . ومع هذا لابد له من أسطول يكثر عدده ، ويقوى مدده [٢] . . . .

وكذلك نجد العناية بأمر الثغور ، وإعداد العدة للجهاد ، فى هذا التقليد الذى بعث به المستنصر العباسى ، إلى الملك الكامل بن العادل [٣] . وفى التقليد الذى كتبه بيبرس لابنه بولاية العهد ، أوصاه أن يقتدى به فى الجهاد ، وغزو بلاد الكفر ، فقد جاء فيه : « ومن شيمته الاقتداء فى بسط الإحسان والعدل ، وإحياء سنتنا مما يضفيه على الأولياء من ملابس الفضل ، واقتفاء آثارنا فى غزو بلاد الكفار ، والمجاهد التى تطول بها أيدى الكماة بالسيوف القصار [٤] . . . . » .

وكان الملوك والسلاطين يرسلون إلى ولاتهم ، يعلنون عزمهم على متابعة الجهاد ، حتى ينقذوا البلاد من أيدى أعدائها . كتب المنصور قلاوون إلى نائب دمشق يقول له : « وشرعنا من الآن فى أسباب الجهاد ، وأخذنا فى كل ما يؤذن إن شاء الله تعالى بفتح ما بأيدى العدو من البلاد . . . [٥] » . وهكذا كان لهذه الحروب أثرها فيما أنشىء من عهود وتقاليد ، مما يدل على ماكان لها : من عظيم الأهمية ، وكبير القدر ، لدى أكبر رجال الدولة ، حتى لينص فى عهود ولاة مصر والشام ، على واجبهم إزاءها ، وما يفرضه عليهم الإسلام نحوها .

---

(١) كان الحكم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى .

(٢) حسن المحاضرة ٢ : ٢٣ .

(٣) راجع حسن المحاضرة ٢ :٣١ .

(٤) السلوك ١ :٩٧١ .

(٥) المرجع السابق هامش ص ٦٦٤ .

١٥ — وصف ما يتصل بالحرب

من الطبيعي فى عصر شغل بالحروب والإعداد لها ، أن نجد فى أدبه ما يصور آلات القتال ، ويصف ما يتصل بهذه الحرب : من وسائل فتاكة ، ومعارك رهيبة ، وإن المؤرخ ليستطيع أن يرجع إلى الأدب ، ليتخذ منه معينا يعرف فيه ما كان فى هذه الحرب : من أسباب القتل ، والتدمير ، وما كانت تلجأ إليه المدن : من وسائل الحفظ ، والدفاع عن النفس .

فهذا ابن شداد مثلا يتحدث عن بعض معارك عكا ، واصفاً ما استخدم فيها من آلات من كلا الجانبين ، وقد هاله ما اخترعه العدو من مدمرات ، فإنه « اتخذ من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ، ما هال الناظر إليه . . . فأحدثوا آلة عظيمة ، تسمى دبابة ، يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بفصائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك به من داخل ، وفيها المقاتلة ، حتى ينطح بها السور ، ولها رأس عظيم ، برقبة شديدة من حديد ، وهى تسمى كبشا ، ينطح بها السور بشدة عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم ، فتهدمه ، بتكرار نطحها . وآلة أخرى ، وهى قبو فيه رجال . . . إلا أن رأسها محدد ، على شكل السكة التى يحرث بها ، ورأس البرج مدور ، وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها ، وهى تسمى سنوراً . ومن الستائر والسلالم الكبار الهائلة ، وأعدوا فى البحر بطسة[1] هائلة ، وضعوا فيها برجا بخرطوم ، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات ، ويبقى طريقا إلى المكان الذى ينقلب عليه ، تمشى عليه المقاتلة . . . وزحف العدو على البلد فى خلق لا يحصى عددهم إلا الله ، فأهملهم أهل البلد وشجعان المقاتلة . . . حتى نشبت مخاليب أطماعهم فى البلد ، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسور ، وتحصن منهم فى الخندق جماعة عظيمة ، وأطلقوا عليهم سهام (الجروح) وأحجار المنجنيق ، وأقواس الرمى والنيران ، وصاحوا عليهم صيحة الرجل الواحد ، وفتحوا الأبواب ، وباعوا نفوسهم لخالقها وبارئها ، ورضوا بالصفقة الموعود بها ، وهجموا على العدو من كل جانب ، وكبسوهم فى الخنادق ، وأوقع الله الرعب فى قلب العدو وأخذوا مشتدين هاربين ، يطلبون خيامهم ، والاحتماء بأسوارهم . . . ولما رأى المسلمون ما نزل بالعدو : من الخذلان ، والهزيمة ، هجموا على كبشهم ، فألقوا فيه النار والنفط ، وتمكنوا من حريقه ، فأحرقوه حريقا شنيعاً ، وظهرت له لهبة عظيمة نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل . وسرت نار الكبش بقوتها إلى السنور ، فاحترق وعلق

(١) نوع من سفن ذلك العصر .

المسلمون فى الكبش الكلاليب الحديدية المصنوعة فى السلاسل ، فسحبوه وهو يشتعل ،حتى حصلوه عندهم فى البلد ، وكان مركباً من آلات هائلة عظيمة، ألقى الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام . وبلغنا من (اليزك) أن وزن ما كان عليه من الحديد يبلغ مائة قنطار بالشامى ، والقنطار مائة رطل . . . وخرج أصحابنا فى شوان على بغتة من العدو ، وضربوا البطسة . . . بقوارير نفط ، فاحترقت ، وارتفع لهبها فى البحر ارتفاعا عظيما [1] . . . » .

ويتحدث عن لقاء مع العدو ذاكراً بعض أدوات القتال ، فقد جعل الأعداء رجالتهم سورا لهم، تضرب الناس بالزنبورك ، والنشاب ،حتى لا يترك أحديصل إليهم إلا بالنشاب، فإنه كان يطير إليهم كالجراد . . . والكوسات تخفق ، والبوقات تنعر [2] . . . » .

وهذا القاضى الفاضل يصف حصناً : « وقد عرض حائطه إلى أن زاد على عشر أذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، كل فص منها من سبع أذرع ، إلى ما فوقها ، وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر فى مكانه ، ولا يستقل فى بنيانه ، إلا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سقيته بالكلس الذى إذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز إلى خصمه من الحديد بألا يتعرض لهدمه [3] » .

ومن كتاب له يصف ناراً تلتهم حصناً : « وبات الناس فى ليلة الجمعة مطيفين بالحصن ، والنار به مطيفة ، وعليه مشتملة ، وعذبات ألسنتها على تاجه مسدلة ، ومن خلفه مسبلة ، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة ، ومنعتهم قد أذهبها الله بتلك الأبرجة الساجدة ، وبنفسج الظلماء قد استحال جلنارا ، والشفق قد عم الليلة فلم يختص آصالا ولا أسحاراً ، ونفحاتها حميمة وقودها الناس والحجارة ..: فولجت النار موالج يضيق منها الفكر ، ويعجز عنها الإبر ... وقال الكفر : إنها لإحدى الكبر ، وخولف المثل : إن السعادة لتلحظ الحجر، وأغنى ضوءها لسان كل لمعة أن يسأل هذا وهذا ما الخبر ، وقذفت بشرر كالجمالات الصفر ، وزفرت بغيظ تعفر له خدود الجبال الصعر ، وتلحقها بالكثب العفر ، وبات الليل والنهار

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٢٦ وما يليها . (٢) المرجع السابق ص ١٣٤ .
(٣) الروضتين ٢ : ١٣ .

يشله ، وكلما أغمده جعل الوقود يسله ، إلى أن بدا الصباح كأنه منها أمتار الأنوار ، وانشق الشرق ومن عصفرها صبغ الإزار [١] » .

وحفظ الأدب كثيراً من وصف الأسطول ، وكان للأسطول فى هذه الحروب قيمته وأثره . ومما جاء فى وصفه ، ووصف مجهاته قول ابن الزبير

وكأن بحر الروم خلق وجهه — وطفت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما — لم يأت فى حين من الأحيان
أحبب إلى بها شوانى [٢] أصبحت — من فتكها ولها العداة شوانى
شبهن بالغربان فى ألوانها — وفعلن فعل كواسر العقبان
أوقرتها [٣] عدد القتال ، فقد غدت — فيها القنا عوضاً من الأشطان [٤]
فأتتك موقرة بسبى بينه — أسراهم مغلولة الأذقان
حرب عوان حكمتك من العدا — فى كل بكر عندهم وعوان

وكثر فى أدب هذا العصر وصف الحصون والقلاع، كما تراها العين ، وكما تحس بها النفس، تحدث القاضى الفاضل عن حصن الكرك فقال : « هو شجى فى الحناجر ، وقذى فى المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها ، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها ، وصار ذئباً للدهر فى ذلك الفج، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ، وهو حصن الشوبك ، يسر الله الآخر ، كبيت الواصف للأسدين :

ماهر يوم إلا وعندهما — لحم رجال، أو يولغان دما [٥]

ولما كان الزخرف والزينة من أهداف كتاب هذا العصر ، رأينا المغالاة فيهما قد تفسد الوصف وتضعفه ، كما فى وصف القاضى الفاضل لقلعة حمص ، فى كتاب أرسله إلى زين الدين ابن نجا ، ويقول فيه : « والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهد به من كونها نجما فى سحاب ، وعقابا فى عقاب ، وهامة لها الغمامة عمامة ، وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال منها قلامة، عاقدة حبوة صالحها الدهر على إلا يحلها بقرعه . عاهدة عصمة صافحها الزمن على ألا يروعها بخلعه [٦] » . ففضلا عن التكلف الممجوج فى الأسلوب ، ضعف الكاتب عند ما وازن بين القلعة وبين الأنملة . وأى أنملة هذه التى يصبح الهلال لها قلامة .

ومما يلحظ أن الوصف الذى لجأ إليه الكاتب لم يصور لنا القلعة تصويراً نشاهده

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) الشوانى : نوع من السفن الحربية
(٣) أوقر : حمل .
(٤) الأشطان : الحبال .
(٥) الروضتين ٢ : ٥٥ .
(٦) المرجع السابق ١ : ٢٣٩ .

بعيوننا ، ونحسه بأنفسنا ، وكل ما استطاع أن يجعلنا نشمر به هو ارتفاعها الذى يزاحم السحاب . ووصف القاضى الفاضل أسياف صلاح الدين ، فقال :

ماضيات على الدوام ، دوامى … هى ، فى النصر ، نجدة الإسلام
فى يمين السلطان ، إن جردتها … أشبهتها صواعق فى غمام
تنثر الهام كالحروف ، فما أشـ … ـبه هذى السيوف بالأقلام
فى محاريب حربه البيض صلت … وركوع الظبا سجود الهام[1]

ووصف الأدب حصار المدن والمنجنيقات والرماح والرايات ، وصور التقاء الجموع فى ميادين القتال . قال ابن الساعاتى يصور لقاء بين الفريقين :

وسل ألسن الأعلام عن فتكاته … غداة التقى الجمعان : كفر ، وإيمان
بحيث كلوم الدارعين لدى الوغى … موارد ، والسمر الذوابل أشطان
كأن القنا أغصان بان ، وبيضهم … جداول ، والزغف المضاعف غدران
هناك دماء القوم خمر ، مزاجها … مياه المواضى ، والأسنة ريحان
إذا ما تغنى السيف فى الهام والطلى … خفيفاً تثنى رمحه ، وهو نشوان
ثنى القوس عنه راضياً لبلائه … وكم مر دهر دونه ، وهو غضبان
بأقمار ليل ، والترائك[2] هالها … أسود أقلتها من الخيل عقبان
ولو لم يكن ليلا مثار عجاجه … لما سار فيه صارم وهو عريان[3]

والشاعر يلق من حبه للطبيعة ظلا على وصفه ، فمنها يشتق تشبيهاته ، وفيها يدور خياله ، ويظهر أنه كان بعيداً عن جو المعارك الحربية ، وما يسيطر عليها من خوف ورهبة ، فنظر إليها نظرته إلى عرس يتغنى فيه الأسنة ، وتتثنى الرماح نشوى .

ولكنك تسمع صليل السيوف ، وتحس بالتهاب نيران المعركة ، من هؤلاء الذين شاهدوا ميدان النزال ، ورأوا قسوة الحروب ، وشدتها ، كما تجد ذلك فى وصف العماد الكاتب ، برغم ما أثقل به أسلوبه من محسنات وزخارف ، وهذا جزء من وصفه لمعركة حطين : « وأصبح الجيش على تعبيته . والنصر على تلبيته ، وبرح بالفرنج العطش ، وأبت عثرتها أن تنتعش ، وكان النسيم من أمامها ، والحشيش تحت أقدامها ، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار

---

(١) المرجع السابق ٢ : ١٢١ . (٢) الترائك : جمع تريكة وهى بيضة الحديد .
(٣) ديوان ابن الساعاتى ١ : ١٢٩ .

فى الحشيش ، فتأجج عليهم سعارها . وتوهج أوارها ، فبلوا وهم أهل التثليث ، من نار الدنيا ، بثلاثة أقسام فى الاصطلا والاصطلام : نار الضرام ، ونار الأوام ، ونار السهام ، فرجا الفرنج فرجا ... فكلما خرجوا جرحوا ، وبرح بهم حر الحرب فما برحوا ... فشوتهم نار السهام وأشوتهم ، وصممت عليهم قلوب القسى القاسية وأصمتهم ، وأعجزوا ، وأزعجوا ، وأحرجوا ، وأخرجوا ، وكلما حملوا ردوا وردوا ، وكلما ساروا أو شدوا ، أسروا وشدوا ، وناشبهم النشاب ، فعادت أسودهم قنافذ ، وضايقتهم السهام ، فوسعت فيهم الخرق النافذ ، فأووا إلى جبل حطين ، ليعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار ، ورشقتهم الظبا ، وفرشتهم على الربى ... ووقعنا عليهم وقوع النار فى الحلفاء ، وصببنا ماء الحديد للإطفاء ، فزاد فى الإذكاء ، فحطوا خيامهم على غارب حطين ، حين رأونا بهم محيطين ، فأعجلناهم عن ضرب الخيام ، بضرب الهام ، ثم استحر الحرب ، واستمر الطعن والضرب ، وأحيط بالفرنج من حواليهم ، ودارت الدائرة عليهم ... وقتلوا وأسروا بأسرهم ، فمن شاهد القتلى قال : ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال : ما هناك قتيل . ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفى للسلمين كيوم حطين غليل ... وعبرت بها فألفيتها محل الاعتبار ، وشاهدت ما فعل أهل الإقبال بأهل الإدبار ، وعاينت أعيانهم خبرا من الأخبار ، ورأيت الرءوس طائرة ، والنفوس بائرة ، والعيون غائرة ، والجسوم رسمتها السوافى ، والرسوم درستها العوافى ، وأشلاء المشلولين فى الملتقى ملقاة ، بالعراء عراة ، ممزقة بالمآزق ، مفصلة المفاصل مفرقة المرافق ، مفلقة المفارق ، محذوفة الرقاب ، مقصوفة الأصلاب ، مقطعة الهام ، موزعة الأقدام ، مجدوعة الآناف ، منزوعة الأطراف ، مفقوءة العيون ، مبعوجة البطون ، منصفة الأجساد ، مقصفة الأعضاد ، مقلصة الشفاه ، مخاصة الجباه ، سائلة الأحداق ، مائلة الأعناق ، عديمة الأرواح ، هشمية الأشباح ، كالأحجار بين الأحجار ، عبرة لأولى الأبصار[1] ... ».

والعماد الكاتب يصف ما يصف متأثرا بجو المعركة ، فلم يطف بخياله سوى مناظر الألم ، والبؤس والدمار ، وقد رسم لنا لوحة مؤثرة لسهل حطين ، وما تناثر فوقه : من أجساد مشوهة ، وأشلاء ممزقة ، وقتلى سترت وجه الأرض ، حتى لم يعد يرى سوى هذه المناظر المثيرة المؤلمة .

---

(١) الروضتين ٢ : ٧٧ .

وأكثر الشعراء من وصف الجيوش وصفا يبدو فيه ضخامتها، وكثرة عددها وعددها، فمن ذلك قول ابن سناء الملك، يصف جيش صلاح الدين:

أتى إليها يقود البحر ملتطما ... والبيض كالموج، والبيضات كالحبب
تبدو الفوارس منه فى سوابغها ... بين النقيضين: من ماء، ومن لهب
مستلئمين، ولولا أنهم حفظوا ... عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب[1]

وقوله.

إذا ما صلاح الدين قد سار جيشه ... فليس الحمى إن أمه الجيش بالحمى
تكاثف فيه النقع، واستلت الظبا ... بآفاقه، حتى أضاء، وأظلما
طليعته الوحش الضوارى مصيحة ... وساقته الطير الجوارح حوما
يقول الذى يلقاه: كم فيه فارسا ... فيخبره المهزوم: كم فيه ضيغما
وكم فيه من يلقى الكمى مقنعا ... بفرحة من يلقى الحبيب معمما
وكم فيه من يرمى ببعض سهامه ... فيترك درع القرن بردأ مسهما[2]

ووصف العماد جنوده، بقوله:

جنودك أملاك السماء، وظنهم ... عداتك جن الأرض فى الفتك، لا الإنسا

وقال مهذب الدين الموصلى:

وما خضع الفرنج لديك حتى ... رأوا ما لا يطاق من الكفاح
وما سألوك عقد الصلح ودا ... ولكن خوف معلمة رداح
ملأت بلادهم سهلا وحزناً ... أسودا تحت غابات الرماح

وقال ابن الساعاتى:

فلم يبد وجه الأرض، بل حال دونه ... رجال كآساد الشرى، وهى ترجف
وجرداء سلهوب، ودرع مضاعف ... وأبيض هندى، ولدن مثقف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة ... إلى أن غدت أكبادها السود ترجف[3]

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٣ .   (٢) المرجع السابق ص ١٠١ .
(٣) هذه النصوص من الروضتين ٢ : ١٠١ ، ١٧ ، ١٢ بالترتيب .

١٦ - ابتهـــال ونشيد

لجأ قادة هذه الحروب إلى الله ، مستمدين منه المعونة ، طالبين منه النصرة على عدوهم ، ولا سيما إذا حزب الأمر ، واشتد الخطب ، يذكرون فى هذه الابتهالات ضعفهم ، وأنهم لا يستطيعون دفع العـدو إلا بقوة قاهرة من الله ، وهم حينئذ يقتدون فى ذلك بالرسول الكريم ، وقد أقبلت قريش فى خيلها ورجلها ، تختال عند بدر ، تريد أن تقضى على محمد ودينه ، فاستقبل الرسول القبلة ، وأخذ يدعو الله حتى كاد رداؤه ينحسر عن منكبه .

ومما حفظ من ابتهالات هذا العصر ما قاله نور الدين محمود ، يناجى به ربه ، وقد خرج للجهاد ، وقضى الله بانهزام عسكر المسلمين أولا ، حيث بقى نور الدين فى شرذمة ، وقد قرب عسكر الفرنج ، بحيث اختلط رجالتهم برجالة المسلمين ، فوقف الملك العادل ، موليا وجهه قبلة الدعاء ، مناجياً ربه ، يقول : « يارب العباد ، أنا العبد الضعيف ، ملكتنى هذه الولاية ، وأعطيتنى هذه النيابة ، عمرت بلادك ، ونصحت عبادك ، وأمرتهم بما أمرتنى به ، ونهيتهم عما نهيتنى عنه ، فرفعت المنكرات من بينهم ، وأظهرت شعار دينك فى بلادهم . قد انهزم المسلمون ، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار ، أعداء دينك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أملك إلا نفسى هذه ، وقد سلمتها إليك ، ذابا عن دينك ، وناصرا لنبيك[١] » . وفى هذا الابتهال اعتراف بالضعف ، والتجاء إلى قوة الله ، ثم استدعاء للنصر من الله ، بذكر أن مؤتمر بأوامره ، منته عما نهى عنه .

ومما حفظ من أناشيد ، تشجع على الجهاد فى ذلك العصر ، ما روى من أنه نور الدين سأل العماد الكاتب أن يضع على لسانه دوبيتيات فى معنى الجهاد ، فقال :

للغزو نشاطى ، وإليه طربى   مالى فى العيش غيره من أرب
بالجد ، وبالجهـــاد نجح الطلب   والراحة مستودعة فى التعب

وقال أيضا :

لاراحة فى العيش سوى أن أغزو   ســيفى طربا إلى الطلى يهتز
فى ذل ذوى الكفر يكون العز   والقدرة فى غير جهـــاد عجز

---

(١) المرجع السابق ١ : ١٢١ .

وقال أيضا :

أقسمت سوى الجهاد مالى أرب والراحة فى سواه عندى تعب
إلا بالجـــد لا ينال الطلب والعيش بلا جد جهاد لعب[1]

ولعل السر فى اختيار نور الدين وزن الدوبيت أنه مما يسيغه ذوق نور الدين، فهو من أوزان اللغة الفارسية . وإذا كانت الفكرة المسيطرة على ثلاثة الدوبيتيات واحدة فإن كل واحد منها يدعو إلى معنى جديد، وكل ذلك لتجديد النشاط، ودفع النفس إلى خوض غمرات الجهاد، نشيطة، بل فرحة طروبا، ولست فى حاجة إلى أن أبين ما للأناشيد من أثر، فى دفع النفوس وحفزها إلى العمل .

ومما يوجه إليه النظر فى هذه الدوبيتيات أنها سهلة، وفيها صناعة لفظية لم ينسها العماد، وبخاصة الطباق، وأن فى بعضها ضعف تأليف، إذ قدم أداة الاستثناء والمستثنى على المستثنى منه، فى الشطر الأول من البيت الأخير .

١٧ — كتب جهاد

هذه وسيلة أخرى، عمد إليها مؤلفوها، لحث النفوس على البذل فى سبيل الله، والذود عن أرض الإسلام . واسترجاع ما فقد منها . والجهاد فى سبيل إنقاذ الوطن المغتصب فرض دينى . وقد مجد القرآن الجهاد فى مواضع كثيرة، كما مجده الرسول بأحاديث كثيرة أيضا، وخصه علماء الفقه بباب تحدثوا عن أحكامه وآدابه، واحتل الجهاد فى عصر الحروب الصليبية مكانة مرموقة، يراد به تذكير النفوس بما فرضه الدين، من قيام المسلمين باسترجاع ما اغتصبه العدو منهم .

ولشغف نور الدين بالجهاد وضع فيه كتابا بقلمه، وذكر ابن شداد أن حب الجهاد قد استولى على قلب صلاح الدين، وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا فى آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره، ويحث عليه، ولقد هجر فى محبة الجهاد فى سبيل الله أهله، وأولاده، ووطنه، وسكنه، وسائر بلاده، وقنع من الدنيا بالسكون فى ظل خيمة، تهب بها الرياح ميمنة وميسرة؛ ولقد وقعت الخيمة فى ليلة ريحية على مرج عكا، فلو لم يكن فى البرج لقتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبة، ومصابرة،

(١) المرجع السابق ١ : ٢٠٧ .

واهتماما ، وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد »[١] . ولهذا جمع له ابن شداد كتاباً جمع فيه كل آدابه ، وكل آية وردت فيه ، وكل حديث روى فى فضله ، وشرح غريبه ، وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه ، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل[٢] . ومن هذه الكتب كتاب ألفه محمود بن محمد بن صيتى . أهداه إلى الأشرف موسى ، فأثابه عليه بخمسمائة دينار[٣] . ومنها كتاب لعز الدين بن الأثير[٤] . وكتاب لأبى العوالى ، ألفه للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وفرغ منه فى ربيع الأول ، سنة ٦٤٧ هـ[٥] .

ومما يؤسف له أن كتابا من هذه الكتب لم يبق لنا ، ولا نعرف المنهج الذى قام عليه ، سوى منهج كتاب ابن شداد ، وهو كتاب ، كما وصفه صاحبه ، يستقى من الأدب ،لأنه يغترف من القرآن والحديث ، وربما اتبعت الكتب الأخرى هذا المنهج ، أو تكون قد أضافت إلى ذلك بعض ما قاله العلماء والأوائل ، فى فضل الجهاد ، وربما ضموا إلى ذلك شعراً ، قيل فى الحماسة والجهاد .

١٨ — كتب فضائل البلاد

هذا باب آخر ، اتخذه الأدب وسيلة لإنهاض النفوس ، وحفزها إلى استرداد الأرض المفقودة ، والبلاد المغتصبة . وقد استقى مؤلفو هذه الكتب من معين الدين ، فضوا إلى القرآن والحديث غالبا ، يستشهدون بهما على فضل هذه البلاد . ولما كانت الشام والقدس بوجه خاص الهدف الأساسى من غارة الصليبيين ، رأينا العلماء ينهضون بجمع ما لهما من فضائل ومأثرات .

أما الشام فقد نهض بالكتابة فى فضائله طائفة من الكتابة ، نذكر من بينهم عبدالكريم ابن محمد بن منصور ، المتوفى سنة ٥٦٢ هـ ، وأبا الحسن على بن محمد الربعى ، المتوفى سنة ٨٣ هـ ، وأبا عبد الله السعدى ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، فقد وضع كل منهم كتاباً فى فضائل الشام . وبقى لنا كتابا العالمين الأولين ، وذكر صاحب الفوات أن السعدى وضع كتابه فى ثلاثة مجلدات[٦] .

---

(١) النوادر السلطانية ص ١٦ .
(٢) المرجع السابق ص ١٧ .
(٣) بغية الوعاة ص ٣٨٩ .
(٤) كشف الظنون ٢ : ١٤١٠ .
(٥) المرجع السابق نهر ٩٧٨ .
(٦) فوات الوفيات ٢ : ٢٣٨ .

وأما القدس والكتابة فى فضله فكان لآل عساكر يد طولى فى هذا الميدان :وضع القاسم ابن على فى ذلك كتابامهما ، اتخذه من جاء بعده من المؤلفين مرجعاً ، وسماه : الجامع المستقصى فى فضائل المسجد الأقصى (١) ، وقد اعتمد عليه ابن عمه تاج الأمناء ، عندما وضع كتابه : الأنس فى فضل القدس (٢) ، كما ألف أبو سعد عبد الله بن عساكر كتاب فضل بيت المقدس (٣) ، ولخص برهان الدين الفزارى كتاب الجامع المستقصى وغيره ، فى كتابه : باعث النفوس إلى زيارة القدس الشريف . وقد بقى لنا هذا الكتاب (٤) وإن كنا قدفقدنا أصله الذى اختصر منه.

بدأ المؤلف كتابه ببيان مصدريه اللذين استق منهما كتابه، فذكر أن غالبه من المستقصى ، والقليل منه من كتاب أبى المعالى المشرف بن المرجى المقدسى ، ورتبه على ثلاثة عشر فصلا ، أولها فى ابتداء بنائه ، والثانى فى شد الرحال إليه وفضل إتيانه ، والثالث فى فضل الصلاة فيه ، وفضل الحج ، والصلاة فى مسجد المدينة ، والمسجد الأقصى فى عام واحد ، والرابع فى فضل الإحرام من بيت المقدس وفضل الأذان فيه ، والخامس فى فضائل الصدقة فيه والصيام، والسادس فى فضل الصخرة ، وأنها من الجنة ، والسابع فى فضل البلاطة السوداء ، والثامن فى قبة المعراج ، وقبة النبى عليه السلام و . . . والتاسع فى ماء بيت المقدس و . . . والثانى عشر فى جامع لفضائل بيت المقدس ، والثالث عشر فى فضائل قبر إبراهيم الخليل عليه السلام وما اتصل به .

ومن هذه الفصول يرى تعلق المؤلف ببيت المقدس ، وكأنه يدعو المسلمين إلى أن تتعلق قلوبهم بهذه البقعة ، فلا يفرطوا فيها .

والجامع يروى فى كل فصل الأحاديث والآثار ، التى وردت مرتبطة به ، فمما جاء فى الفصل الثانى منه أن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاتشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجد المدينة ، والمسجد الأقصى ، فصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ، وصلاة فى مسجدى بألف صلاة ، وصلاة فى المسجد الأقصى بعشرة آلاف صلاة .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ببيت المقدس

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٥ : ١٤٨ .
(٢) كشف الظنون ١ : ١٧٨ .
(٣) المرجع السابق ٢ : ١٢٧٨ .
(٤) مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣٣٣ تاريخ .

خمس صلوات نافلة ، كل صلاة أربع ركعات ، يقرأ فى الخمس صلوات عشرة آلاف مرة : قل هو الله أحد ، فقد اشترى نفسه من الله تبارك وتعالى ؛ ليس للنار عليه سلطان.

وعن مكحول رحمه الله أيضاً أنه قال : من زار بيت المقدس شوقا إليها دخل الجنة ، وأيما رفقة خرجوا يريدون بيت المقدس شيعهم عشرة آلاف من الملائكة ، يستغفرون لهم، ويصلون عليهم ، ولهم مثل أعمالهم ، إذا انتهوا إلى بيت المقدس ، ولهم بكل يوم يقيمون فيه صلاة سبعين ملكا . وفى الفصل الذى عقده لبيان فضل الصلاة فى بيت المقدس أورد عن أبى هريرة أنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى فى بيت القدس غفر له ذنوبه كلها . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : من حج وصلى فى مسجد المدينة والمسجد الأقصى فى عام واحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

وفى الفصل الخامس أورد عن البصرى أنه قال : من تصدق بدرهم فى بيت المقدس كان فداه من النار، ومن تصدق برغيف كان كمن تصدق بجبال الأرض ذهباً. وعن مقاتل أنه قال: من صام يوما فى بيت المقدس كان فداه من النار .

ومما أورده فى الفصل السادس عن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيد البقاع بيت المقدس ، وسيد الصخور صخرة بيت المقدس . وعن كعب قال : من أتى بيت المقدس ، فصلى عن يمين الصخرة ، وعن شمالها ، ودعا عند موضع السلسلة ، وتصدق بما قل أو كثر استجيب دعاؤه ، وكشف الله كربه ،وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وإن سأل الله تعالى الشهادة أعطاه إياها .وعن كعب قال :أحب الشام إلى الله تعالى بيت المقدس ، وأحب القدس إلى الله تعالى الصخرة .

وفى فصل آخر روى عن وهب بن منبه رضى الله عنه ، قال : أهل بيت المقدس جيران الله تعالى، وحق على الله تعالى ألا يعذب جيرانه ، والأرض التى ذكرها الله تعالى فى القرآن فقال : «إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين» ، هى بيت المقدس .

ويجرى الكتاب على هذا النسق . من إيراد الحديث والأثر المتعلق بفضل بيت المقدس. ووضع أبو المعالى المشرف بن المرجى بن إبراهيم المقدسى، كتابا فى فضائل بيت المقدس،بوبه، وأورد فى كل باب ما يتعلق به كذلك : من حديث ، أو أثر .

أما كتاب فضائل الشام للحافظ عبد الكريم بن محمد السمعانى (١) المتوفى سنة ٥٦٢ هـ فيروى ، على غير ترتيب ، ما ورد . من أحاديث ، وآثار فى فضل الشام بعامة ، كقوله صلى الله عليه وسلم :الخير عشرة أعشار ، تسعة بالشام ، وواحد فى سائر البلدان ، والشر

(١) مخطوط بدار الكتب رقم ٥١٩ مجاميع .

عشرة أعشار : واحد بالشام ، وتسعة فى سائر البلدان . وإذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم .

وروى عن قتادة فى قوله تعالى : «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » ، قال : هى أرض الشام .

وعن سعيد بن المسيب فى قوله تعالى : « وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين » ، قال : هى دمشق . وأورد كذلك ما قيل من شعر فى مدحها ، والحنين إليها .

وبعد ، فإنه لا يعنينا تمحيص هذه الأحاديث ، والتأكد من صحتها ، ولكن يعيننا دلالتها على ما قلناه : من رغبة مؤلفى هذه الكتب فى بث حب هذه البلاد فى قلوب الناس ، ليستخلصوها من يد العدو .

١٩ – تاريخ أدبى

نقصد بالتاريخ الأدبى هذا اللون من الكتابة ، التى يرمى بها صاحبها إلى أن يضع حوادث التاريخ ، مصوغة فى أسلوب أدبى مؤثر ، ويراعى كاتبها فى صوغها ما يراعى فى الكتابة الفنية : من الالتجاء إلى الخيال فى التصوير ، والاتكاء فى التوضيح على التشبيه ، والمجاز ، والاستعارة ، والتشبث بأذيال الزخارف ، والزينة اللفظية والمعنوية ، أو أن يضع إلى جانب الحقائق التاريخية أثرها فى نفوس أدباء عصرها ، فيرصد أقوال الشعراء ورسائل الكتاب .

وفى هذا العصر الحافل بالانفعالات ، ظهر مؤرخون ، كتبوا تاريخهم بلغة أدبية فنية ، أو جمعوا بين التاريخ والأدب ، ليتم بذلك التأثير الذى رمى المؤلف إليه .

وأظهر هذه الكتب التى نحت هذا المنحى كتاب الفيح القسى فى الفتح القدسى ، وكتاب البرق الشامى ، وكتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين ، وكتاب مفرج الكروب فى أخبار دولة بنى أيوب .

أما الفيح القسى فمؤلفه عماد الدين الكاتب ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، سماه بذلك كاتبه مشيراً إلى أنه نفحة من نفحات قس بن ساعدة الإيادى ، الخطيب الفصيح المشهور . وقد ذكر المؤلف فى أوله الخطة التاريخية الأدبية التى انتهجها فى كتابه ، إذ قال : « هذا كتاب أسهمت فيه بين الأدباء الذين يتطلعون إلى الغرر المتجلية ، وبين المستخبرين الذين يستشرفون إلى السير المتحلية ، يأخذ الفريقان منه على قدر القرائح والعقول ، ويكون حظ المستخبر أن يسمع والأديب أن يقول ، فإن فيه من الألفاظ ما صار معدنا من معادن الجواهر التى نولدها ،

ومن غرائب الوقائع ما صار به لسانا من ألسنة العجائب التى نوردها [١] ».

ولما كان المؤلف قد سار على نهج إيراد الحوادث متتابعة على حسب السنين ، وكان قد بدأ بإيراد الحوادث منذ سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وهى السنة التى فتح فيها بيت المقدس قال ، معللا سبب اختياره البدء بهذا العام : « وأنا أرخت بهجرة ثانية تشهد للهجرة الأولى بأن أمدها بالقيامة معذوق ، وبأن موعدها الموعد الصحيح غير المدفوع والصريح غير الممذوق ، وهذه الهجرة هى هجرة الإسلام إلى البيت المقدس ، وقائمها السلطان صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب ، وعلى عامها يحسن أن يبنى التاريخ ويفسق ، وتسفر عن أهلتها دآدىء المداد وتنشق . . . وهذه الهجرة أبقى الهجرتين ، وهذه الكرة بقوة الله أبقى الكرتين ، فإن العرب كانت إذا تناهت فى وصف الرجل بالقوة قالت : كأنه كسر ثم جبر ، والحق أن نقول : إن أطول الحياتين حياة المرء إذا مات ثم نشر ، والعيان يشهد أن أمنع السورين ما عمر بعد أن ثغر . . . [٢] » .

ويؤكد العماد أنه لم يسجل فى كتابه إلا ما شاهده وعاينه . ثم بدأ بالحوادث التى تتعلق بغزوات صلاح الدين ، وجرت منذ أول عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة ،وارتضى العماد طريقة السجع منهجا له فى كتابه ، فلم يحد عنه من أول سطرفى الكتاب ، إلى آخر سطوره ،ولنعرض نموذجا لمزجه الحقائق التاريخية ، بالعواطف والانفعالات ، وللتعبير عن ذلك تعبيراً فنياً ، فيه صياغة وصناعة ، قال : « دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وكتب الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، إلى الأقطار والبلاد ، يستدعى من جميع الجهات جموع الجهاد ، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد ، واستحضر للغزو ، من الحضر والبدو ، وبرز من دمشق يوم السبت مستهل المحرم قبل استنجاد الجنود ، واستحشاد الحشود ، وإصحار الأسود ، وإحضار البيض والسود ، مضىء العز ماضى العزم ، صائب السهم ، ثاقب الفهم ، ثابت السعود ، كابت الحسود ، وخيم على قصر سلامة من بصرى ، وكفت يد رعبه الطولى من الفرنج اليدالقصرى ، وأقام على ارتقاب الحجاج ، وقد رتب الفرنج من الأرصاد أفواجا على تلك الفجاج ، لاسيما ابرنس الكرك ، فإنه كان حريصاً على الدرك ، ناصبا شر الشرك ، نصب الشرك ، فلما شم ذلك الذئب رائحة الأسد ، عاود دخول حصنه حذار خروج روحه من الجسد [٣] : . . . »

---

(١) الفيح القسى ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٥ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠ .

فأنت ترى الحقيقة التاريخية وهى خروج صلاح الدين من دمشق مترقباً عودة الحاج قد لونت بشعور الكاتب إزاء هذا الخروج ، واستدعاء الجنود ، وإزاء ابرنس الكرك ، من أنه كذئب شم رائحة الأسد . وعلى هذا المنوال يجرى الكاتب ، فى كل ما أورده من حقائق تاريخية ، يضفى عليها شعوره وإحساسه ، وينتقل من عام إلى عام ، متتبعاً حوادث الفتح ، وما تلاه من محاولة استرداد الفرنج لبيت القدس ، إلى أن انتهت هذه الحروب بصلح الرملة سنة ٥٨٨ هـ .

وللعماد الكاتب كتاب تاريخى آخر ، كتبه بلغة أدبية فنية ، دعاه : البرق الشامى ، لم أعثر عليه ، ذكر فيه الوقائع والحوادث فى لغة مسجوعة ، مما وقع من سنة وروده دمشق ، وهى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، إلى وفاة صلاح الدين ، وهى سنة تسع وثمانين .

ومما لا ريب فيه أن العماد كلف نفسه عنتاً فى التزام السجع ، والمحسنات البديعية ، وكلفنا فى كثير من الأحيان عنتاً فى تتبع حوادثه ، واستنباط الحقائق من بين زخارفه وزينته .

أما كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين فمؤلفه شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ، أرخ فيه لبطلين من أكبر أبطال الحروب الصليبية ، وهما : نور الدين ، وصلاح الدين . قدم له صاحبه بمقدمة بين فيها المراجع التى استقى منها كتابه ، ثم بين منهجه فى لغة كتابه ، وعرض الحوادث ، إذ قال بعد أن انتقد العماد فى كتابيه بأنه « طويل النفس فى السجع والوصف ، يمل الناظر فيه ، ويذهل طالب معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه ، فحذفت تلك الأسجاع إلا قليلا منها ، استحسنتها فى مواضعها ، ولم تك خارجة عن الغرض المقصود ، من التعريف بالحوادث والوقائع ، نحو ماستراه فى أخبار فتح البيت المقدس ، شرفه الله تعالى ، وانتزعت المقصود من الأخبار ، من بين تلك الرسائل الطوال ، والأسجاع المفضية إلى الملال ، وأردت أن يفهم الكلام الخاص والعام ، واخترت من تلك الأشعار الكثيرة قليلا ، مما يتعلق بالقصص وشرح الحال ، وما فيه من نكتة غريبة ، وفائدة لطيفة ، ووقفت على مجلدات من الرسائل الفاضلية ، وعلى جملة من الأشعار العمادية ، مما ذكره فى ديوانه ، دون برقه ، وعلى كتب أخرى ، من دواوين ، وغيرها ، فالتقطت منها أشياء مما يتعلق بالدولتين ، أو بإحداهما ، وبعضه سمعته من أفواه الرجال الثقات ، ومن المدركين لتلك الأوقات ، فاختصرت جميع ما فى ذلك من أخبار الدولتين ، وما حدث فى مدتيهما ، من وفاة خليفة ، أو وزير ، أو أمير كبير ، أو ذى قدر خطير ، وغير ذلك ، فجاء مجموعاً لطيفاً ، وكتابا ظريفاً . . . . . »[1] .

(١) الروضتين ١ ، ٥ .

وإذا كان صاحب الروضتين قد تحلل من السجع إلا عند ما ينقل من كتاب مسجوع ، فإن القيمة الأدبية لكتابه تتجلى فى أنه بذكر الحادث التاريخى ، ويذكر الآثار الأدبية ، للكتاب والشعراء ، مما يدور حول هذا الحادث ، وهو بذلك يذكر صدى الحادث فى النفوس ، فهو — مثلا — عند ما يذكر فتح القدس ، يورد أقوال المؤرخين فى وصف هذا الفتح ، ثم ينقل مادار حول هذا الفتح ، من رسائل لكبار كتاب العصر ، وما أنشأه الخطباء من خطب ، وما أثاره هذا الحادث فى نفوس الشعراء من شعر ، فكان بذلك معيناً من ينابيع الأدب الصليبى ، ومن أعظم مراجع مؤرخى هذا الأدب ، فى الفترة التى حكم فيها نور الدين وصلاح الدين ، ولا سيما أن الكثير من هذا الشعر فقد مصدره ، ولولا كتاب الروضتين لضاع فيما ضاع .

وينهج نهج كتاب الروضتين فى الاستشهاد بالشعر على أحداث التاريخ كتاب مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب ، لمؤلفه جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ ، وقد جرى كاتبه على ترتيب السنين ، كما جرى صاحب الروضتين أيضاً وقد بدأه بسنة ثلاثين وخمسمائة ، وانتهى فيه بسنة ثمانين وستمائة ، وتحلل مؤلفه من السجع ، كما تحلل صاحب الروضتين ، وقد يستشهد صاحبا الكتابين بشاهد واحد من الشعر ، وينقل ابن واصل كذلك عن العماد الكاتب ، كما فعل صاحب الروضتين . والكتابان يربطان الشعر بحوادث التاريخ ، وكتاب ابن واصل يبين أثر هذه الأحداث السياسية فى نفوس الشعراء وإنتاجهم ، فى الفترة التى كتب فيها صاحب الروضتين وفيما بعدها ، فهو يكمله من هذه الناحية . وكأن مؤلفى الكتابين أرادا ذكر الحوادث التاريخية ، وبيان أثرها فى النفوس .

٢٠ - خيانة

ومما ينبغى أن يسجل لندرته ، حتى لا يروى تاريخ الأدب له نظيراً ، هذا الشعر الخائن ، الذى يبتهج بهزيمة المسلمين ، ويشمت بما ينالهم من ضر ، ولا يروى التاريخ من هذا النوع سوى بيتين ، قالهما شاعر لم يشأ التاريخ أن يحتفظ باسمه ، بل ذكر فحسب أنه كان عند الفرنج ، وأنه كان ينتجعهم ، ولست أدرى السبب الذى دفعه إلى انتجاع أعداء البلاد ، وفى أمراء البلاد الإسلامية ما كان يغنيه عن هذه الخيانة النكراء ، فهل احتفظ به الفرنج ، وأغدقوا عليه ،

ليكون داعيتهم وليتخذوا لسانه سلاحا لهم ، ينشر فى نفوس المسلمين الرعب من الفرنج ، والرهبة لهم ؟! يقف التاريخ صامتا عن السبب الذى دفع هذا الشاعر إلى هذا الاتجاه ، الذى لم أر له مثيلا . أما البيتان فقد قالهما الشاعر عقب غزاة غير ناجحة ، للأفضل الوزير المصرى ، ابن أمير الجيوش ، فقد كوتب من عسقلان بأن الفرنج قد اجتمعوا للغزو ، فعنى الأفضل بالأمر أيما عناية ، ولم يبق فى مكنته شيئا من مال ، وسلاح ، وخيل ، ورجال ، وأناب أخاه مكانه بين يدى الخليفة ، ومضى لا يريد أن يصد هجومهم المترقب فحسب ، بل أن يستنقذ الساحل كله من أيديهم ، ولكنه لم يوفق فى بلوغ هدفه ، ويقال إن السبب فى ذلك يعود إلى خيانة من الجند ، فعاد الأفضل غاضبا على جنده ، وشيعه هذا الشاعر الخائن بقوله ، يخاطب صنجل ملك الفرنج :

نصرت بسيفك دين المسيح   فلله درك من صنجل

وما سمع الناس فيما رووه   بأقبح من كسرة الأفضل

وقد لقى هذا الشاعر جزاء خيانته ، فقد توصل الأفضل إلى ذبحه . ومما لا ريب فيه أن هذا الشاعر الخائن ندد بالمسلمين فى غير هذا الشعر ، وربما يكون الفرنج قد قصدوا بشعره هذا أن يشيع بين المسلمين ، الذين بقوا تحت سيطرة الفرنج ، إن كان قد بقى منهم أحد .

الباب الخامس

الغزو التترى وأثره فى الأدب العربى

سقطت دمياط فى يد الفرنج، سنة ست عشرة وستمائة هجرية، وكان سقوطها حادثا مفجعا للعالم الإسلامى، وبينما كانت مصر والشام تعدان العدة لطرد العدو من هذا البلد الحصين، إذ ترامت الأنباء إلى الأسماع بخروج التتر فى عاصفة هوجاء، لا تبقى أمامها شيئاً ولا تذر، ولا تسمح لعقبة أن تقف فى طريقها، مقتحمة بلاد الإسلام من مشرقه، وبهذا وقف الإسلام بين عدوين: أحدهما قادم من الغرب، والآخر آت من الشرق، وكلاهما يريد أن يقضى عليه فى غير رحمة ولا إشفاق.

وهكذا حفل هذا العصر إلى جانب الحروب الصليبية بغزو تترى مدمر، كان خليقا أن يمحو الإسلام من فوق البسيطة، لولا أن صد تياره أولئك الأبطال، الذين صدوا كذلك تيار الصليبيين.

فقد مضى التتار من بلادهم فى شمال الصين، كأرجال الجراد، يحطمون فى طريقهم عروش المسلمين، ويحرقون البلاد، ويذبحون سكانها، ويأتون من المنكر بما يندى له جبين التاريخ، وأقبلوا فى جموعهم الحاشدة، حتى حطموا الخلافة العباسية، واستولى ملكهم هولاكو على بغداد، سنة ست وخمسين وستمائة، وقتل الناس ببغداد، وتمزقوا فى البلاد إربا إربا، وخرب التتار المساجد، وأغرقوا الكتب، وحرقوها، وسفكوا الدماء، حتى جرت فى الطرقات واستمروا على ذلك أربعين يوما، حتى تلاشت أحوالها، واضمحل أمرها.

ولم يلبث التتار بعد تخريب بغداد، أن مضوا قاصدين سحق بلاد الشام، فرأى الناصر صاحب الشام أن يسالم هولاكو، فأرسل إليه بهدية مع ولده: الملك العزيز[1]، كان ردها أن أرسل هولاكو إلى الملك الناصر كتابا يهدده به، ويقول فيه: «الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها،

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ٥٦ .

وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « قالت: إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » . واستحضرنا خليفتها ، وسألناه عن كلمات فكذب، فواقعه الندم ، استوجب منا العدم ، وكان قد جمع ذخائر نفيسة ، وكانت نفسه خسيسة ، فجمع المال ، ولم يعبأ بالرجال ، وكان قد نما ذكره ، وعظم قدره ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال :

إذا تم أمر دنا نقصه توق زوالا إذا قيل : تم
إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم
وكم من فتى بات فى نعمة فلم يدر بالموت ، حتى هجم

إذا وقفت على كتابى هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه روى زمين [١] تأمن شره ، وتنل خيره ، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى» . ولا تعوق رسلنا عندك ، كما عوقت رسلنا من قبل ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان ، وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى (كروان سراى)[٢] ، فإن كانوا فى الجبال نسفناها ، وإن كانوا فى الأرض خسفناها .

أين النجاة ، ولا مناص لهارب ولى البسيطان : الثرى ، والماء
ذلت لهيبتنا الأسود ، وأصبحت فى قبضتى الأمراء والوزراء[٣] » .

وهو كتاب يحمل التهديد معرضاً ومصرحا ، ويحمل الإدلال بالقوة ، والاعتزاز بالبأس والسلطان ، ويذكرنا بكتاب ملك فرنسا السابق الذى أرسل إلى الصالح أيوب . وقد أحدث هذا الكتاب أثره المنشود ، فإن المؤرخين يصفون انزعاج الناصر لدى وصوله ، وتسييره الحريم إلى الكرك ، وخوف الناس بدمشق خوفا بالغا ، ومضى الكثير منهم إلى مصر ،

---

(١) معنى ذلك : ملك الملوك على وجه الأرض . زيادة فى هامش السلوك ١ : ٤١٦ .

(٢) يفهم من هذا أن مصر كانت تعرف فى بلاد التتر باسم كروان سراى ، ومعناه محط الرحال ، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها من سائر جهات الشرق والغرب . زيادة . فى المرجع السابق نفسه .

(٣) السلوك ١/٤١٥ .

ولما كان الوقت شتاء ، مات خلق كثير بالطريق ، ونهب أكثرهم ، وبعث الناصر كمال الدين ابن العديم رسولا إلى مصر ، يستنجد بجندها (١) .

وسار هولاكو من بغداد بنفسه ، وأخذ يستولى على ما تحت يد الملك الناصر صاحب الشام ، من بلاد ، حتى استولى على مدينة حلب ، وأطلق فيها يد التخريب ، والتدمير، والقتل ، حتى صارت أطلالا موحشة ، ولما رأى أهل دمشق ما نزل بحلب قرروا تسليم المدينة إلى هولاكو ، ومضت جموع التتر تغير على بلاد الشام ، حتى وصلت إلى أطراف بلاد غزة ، والخليل ، وقتلوا ، وسبوا ، وأخذوا ما قدروا عليه .

وإذا كانت رسالة هولاكو إلى صاحب الشام قد أحدثت أثرها، فى تحطيم الروح المعنوية فى نفوس أهل الشام ، فقد حاول كذلك أن يحطم الروح المعنوية فى نفوس جند مصر ، وسلطانها ، بكتاب تهديد مثله ، ولعله عرف أن سوف يلقى مقاومة أشد فى مصر ، فأطال فى الكتاب ، وتصرف فى وجوه القول ، حين كتب قائلا : « من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم . باسمك اللهم ، باسط الأرض ، ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز ، الذى هو من جنس المماليك ، الذين هربوا من سيوفنا ، إلى هذا الإقليم ، يتنعمون بإنعامه . . . يعلم الملك المظفر قطز ، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته ، بالديار المصرية ، وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله فى أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حل به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسلموا إلينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطاء ، فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا ، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد ، وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، فأى أرض تأويكم ، وأى طريق تنجيكم ، وأى بلاد تحميكم ، فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع ، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لا يسمع ، فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفون عند كلام ، وخنتم العهود والأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان ، فأبشروا بالمذلة والهوان ، « فاليوم تجزون

---

(١) السلوك ١ : ٤١٦ .

عذاب الهون ، بما كنتم تستكبرون فى الأرض ، بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون» . «وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، فمن طلب حربنا ندم ، ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم ، فلكم مالنا ، وعليكم ما علينا ، وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة ، والأحكام المدبرة ، فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، وبغير الإهانة ما لملوككم عندنا سبيل ، فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزاً ، ولا كافياً ولا حرزاً ، وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية ، فقد أنصفناكم ، إذ راسلناكم ، وأيقظناكم ، إذ حذرناكم ، فما بقى لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى ، وخشى عواقب الردى ، وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصر : هاهلاون [١] قداتى ... بحد سيوف تنتضى ، وبواتر
يصير أعز القوم منها أذلة ... ويلحق أطفالا لهم بالأكابر [٢] » .

والكتاب ملىء بالتهديد الذى يرمى إلى تحطيم القوى المعنوية ، ويدعو إلى إلقاء السلاح ، مادامت الحصون لا تمنع ، والعساكر لاتنفع ، والدعاء عليهم لايسمع . ويطرز كتابه بآى القرآن ، والشعر ، التماسا للتأثير فى نفوس المرسل إليهم .

غير أن هذا الكتاب لم يصل إلى هدفه فى تلك المرة ، فإن قطز جمع الأمراء ، واتفقوا على قتل الرسل ، والخروج إلى الجهاد ، ونودى فى أرجاء مصر بالنفير العام ، وخرج قطز على رأس جيش كبير ، جمع أمراءه فى الصالحية ، وخطبهم خطبة قصيرة ، قال فيها : «ياأمراء المسلمين ، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه ، فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته . فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين [٣] » . والخطبة على قصرها مؤثرة ، لأنها تلقى العبء على عاتق الأمراء ، وتجعل خطيئة التقصير فى رقابهم ، وتتهمهم بخيانة الأمانة التى من أجلها أكلوا أموال بيت المال ، وهى خطبة لا زخرف فيها ، ولا صناعة .

وسار الجيش بروح معنوية عالية ، حينما أعلن قطز أنه سيلقى التتار بنفسه ، وفى غزة

---

(١) صيغة لاسم هولاكو .
(٢) السلوك ١ : ٤٢٧ .
(٣) السلوك ١ : ٤٢٩ .

جمع قطز الأمراء مرة أخرى ، علما منه بما للخطابة من تأثير فى النفوس ، فخطبهم ، حاضا لهم على قتال التتار ، مذكراً إياهم بما وقع بأهل الأقاليم : من القتل ، والسبى ، والحريق ، وخوفهم وقوع مثل ذلك ، وحثهم على استنقاذ الشام من التتار ، ونصرة الإسلام والمسلمين ، وحذرهم عقوبة الله . وكان للخطبة أثرها البالغ ، فضج الأمراء بالبكاء ، وتحالفوا على أن يبذلوا أقصى جهودهم فى قتال التتر ، ودفعهم عن البلاد [1].

وانتهت الروح المعنوية بانتصار المسلمين على التتار فى معركة عين جالوت ، فمضت الرسائل تحمل بشرى هذا النصر ، إلى مصر ودمشق ، وأقبل الشعراء ، يمجدون قطز ، ويشيدون بجهاده ، ويشكرون الله على نصره ، فرأينا أبا شامة يقول فيه :

غلب التتار على البلاد ، فجاءهم — من مصر تركى يجود بنفسه
بالشام أهلكهم ، وبدد شملهم — ولكل شىء آفة من جنسه [2]

كما قال بعض شعراء دمشق :

هلك الكفر فى الشآم جميعا — واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الأر — وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم — فاعتززنا بسمره وبيضه
أوجب الله شكر ذاك علينا — دائما مثل واجبات فروضه [3]

كما أقبل الشعراء على من كانوا أعوان قطز ، فهنئوهم بهذا النصر الباهر ، فمن ذلك ما قاله الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ ، يهنىء الملك المنصور ، لما استقر بحماة ، واستعاد المعرة :

رعت العدا ، فضمنت ثل عروشها — ولقيتها ، فأخذت كل جيوشها
نازلت أملاك التتار ، فأنزلت — عن خيلها قسراً ، وعن إكديشها
فغدا لسيفك فى رقاب كماتها — حصد المناجل فى يبيس حشيشها

ومنها :

وطويت عن مصر فسيح مراحل — ما بين بركتها وبين عريشها
حتى حفظت على العباد بلادها — من رومها الأقصى إلى أحبوشها
فرشت حماة لوطء نعلك خدها — فوطئت عين الشمس من مفروشها

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣٠ .
(٢) ذيل الروضتين ص ٢٠٨ .
(٣) المختصر ٣ : ٢٠٦ .

وكذا المعرة ، إذ ملكت قيادها دهشت سرور وآسار فى مدهوشها[1] (؟)

ولما حمل الراية بيبرس بعد قطز ، وأبلى البلاء الحسن فى قتال التتار ، فرح الشعر بما أحرزه من انتصار ، وقام يمجد بطولته ، ويسجل فروسيته ، ولعل من أعظم هذه المعارك وأعجبها تلك التى كان فيها التتار على شاطىء الفرات ، فلكى يهاجم بيبرس العدو ، ويقضى عليه ، خاض الفرات ، على رأس جيشه ، وعبر إلى التتار ، وأبيد منهم عدد عظيم ، ولم ينج سوى القليل ، وأسر منهم زهاء مائتين ، وكان ذلك سنة إحدى وسبعين وستمائة هجرية . وأعجب الشعراء بهذا اللون من الإقدام ، وأشادوا به فى شعرهم ، وأكثروا من الحديث عنه فى إعجاب ، فمن مجده شهاب الدين محمود كاتب الإنشاء ، أنشد قصيدة كبيرة أولها .

سر حيث شئت ، لك المهيمن جار واحكم ، فطوع مرادك الأقدار
لم يبق للدين الذى أظهرته يا ركنه ، عند الأعادى ثار
لما تراقصت الرءوس ، وحركت من مطربات قسيك الأوتار
خضت الفرات بسابح ، أقصى منى هوج الصبا من نعله آثار
حملتك أمواج الفرات ، ومن رأى بحراً سواك تقله الأنهار
وتقطعت فرقا ، ولم يك طودها إذ ذاك إلا جيشك الجرار
رشت دماؤهم الصعيد فلم يطر منهم على الجيش السعيد غبار
شكرت مساعيك المعاقل ، والورى والترب ، والآساد ، والأطيار
هذى منعت ، وهؤلاء حميتهم وسقيت تلك ، وعم ذا الإيسار
فلأملأن الدهر فيك مدائحا تبق ، بقيت ، وتذهب الأعصار[2]

وقال الشيخ ناصر الدين حسن بن النقيب الكنانى الشاعر رحمه الله قصيدة ، وكان حاضر الوقعة منها .

ولما ترامينا الفرات بخيلنا سكرناه[3] منا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه إلى حيث عدنا بالغنى والغنائم[4]

---

(١) المرجع السابق نفسه

(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ١٥٩ .

(٣) سكرناه : حبسنا ماءه .

(٤) النجوم الزاهرة ٧ : ١٦٠ .

وقال الموفق عبد الله بن عمر الأنصارى :

الملك الظاهر سلطاننا ... نفديه بالأموال والأهل
اقتحم الماء ، ليطفى به ... حرارة القلب من المغل[١]

وقال محي الدين بن عبد الظاهر .

تجمع جيش الشرك من كل فرقة ... وظنوا بأنا لا نطيق لهم غلبا
وجاءوا إلى شط الفرات ، ومادروا ... بأن جياد الخيل تقطعها وثبا
وجاءت جنود الله فى العدد التى ... يميس لها الأبطال يوم الوغى عجبا
فعمنا بسد من حديد ، سباحة ... إليهم ، فما اسطاع العدو له نقبا[٢]

وقال بدر الدين يوسف بن المهمندار :

لو عاينت عيناك يوم نزالنا ... والخيل تطفو فى العجاج الأكدر
وقد اطلخم الأمر ، واحتدم الوغى ... ووهى الجبان ، وساء ظن المجترى
لرأيت سداً من حديد ، ما يرى ... فوق الفرات وفوقه نار ترى
ورأيت سيل الخيل قد بلغ الزبى ... ومن الفوارس أبحراً فى أبحر
لما سبقنا أسهما طاشت لنا ... منهم إلينا بالخيول الضمر
لم يفتحوا للرمى منهم أعينا ... حتى كحلن بكل لدن أسمر
فتسابقوا هرباً ، ولكن ردهم ... دون الهزيمة رمح كل غضنفر
ما كان أجرى خيلنا فى إثرهم ... لو أنها برءوسهم لم تعثر
كم قد قلعنا صخرة من صخرة ... ولقد ملأنا محجراً من محجر
وجرت دماؤهم على وجه الثرى ... حتى جرت منها مجارى الأنهر
والظاهر السلطان فى آثارهم ... يذرى الرءوس بكل عضب أبتر
ذهب الغبار مع النجيع بصقله ... فكأنه فى غمده لم يشهر[٣]

وليس بعجيب أن يفوز هذا الضرب من الإقدام بهذا اللون من التقدير السامى ، فمن المألوف أن تقطع الأنهار بالسفن ، لا أن تخاض على صهوات الخيول ، فى العدة السابغة ،

---

(١) المرجع السابق نفسه . (٢) فوات الوفيات ١ : ٨٧ .
(٣) المرجع السابق نفسه

وكأنما عز على الظاهر بيبرس أن يضيع وقتاً ، لا يدركهم فيه ، ولا يشفى ما يضطرم فى نفسه من غل لهم ، فدفعه الشوق إلى لقائهم إلى أن يخوض هو وجيشه لجة الماء . وقد أجاد بعض الشعراء فى تصوير هذا الشوق المضطرم إلى لقاء العدو ، كهذين البيتين للموفق الأنصارى الذى رأى فى اقتحام الماء وسيلة يطفىء بها نيران الغضب على العدو ، بينما تحدث ابن عبد الظاهر عن الغرور الذى كان يملأ صدر العدو ، فقد كان التتار يظنون أن لا شىء يقف فى سبيلهم ، أو يعوقهم عن بلوغ أهدافهم ، وما كان يجول بفكرهم أن تبلغ الحماسة بالمسلمين ما بلغت ، فيقطعوا نهر الفرات وثباً . بينما وقف بعض الشعراء يصف عبور الفرات والمعركة التى دارت بين بيبرس والعدو ، فالجيش يقطع عرض الفرات ، يصطك حديد فرسانه ، حتى ليكون كالسد ، يلتصق الفارس بصاحبه ، وهذا العدد الضخم من الجيش جدير بأن يوقف تيار الفرات المتدفق ، حتى إذا طلع الجيش الجرىء إلى البر ، مضى جيش التتار أمامه ممعنا فى الهرب ، ولكن جيش بيبرس لم يدع له سبيل الإفلات ، فأخذ عليه كل سبيل ، وأجرى من دمائه سيولا تجرى منها مجارى الأنهار . والظاهر بيبرس يتعقبه ، بعضبه الأبتر ، يفصل به الرأس عن جسده .

كانت هذه المعركة سبباً لإثارة هذه الألوان العديدة ، من الإحساسات والمشاعر ، ولا غرابة فى تمجيد الشعر بطلا ، رد عن الديار عدواً ، لايحمل معه سوى ألوان التدمير والهلاك . ويذكر له التاريخ معركة أخرى عند صحراء أبلستين (١) ، سنة ٦٧٣ هـ ، حمل فيها التتار حملة واحدة على جيش الملك الظاهر ، وكاد جيشه يتحطم ، فلما رأى ذلك أمر جماعة من أصحابه الشجعان أن يقدموا ، ثم حمل هو بنفسه ، فلما رآه الجند حملوا نحو عدوهم حملة رجل واحد ، فترجل التتار عن خيولهم ، وقاتلوا قتال الموت ، وصبر لهم الملك الظاهر وجنده ، وهو يكر فى القوم كأسد ضار ، ويقتحم الأهوال بنفسه ، ويشجع أصحابه ، ويطيب لهم الموت فى الجهاد ، إلى أن أنزل الله تعالى نصره ، وانكسر التتار أقبح كسرة ، وقتلوا ، وأسروا ، وفر من نجا منهم ، واعتصموا بالجبال (٢) . وعمل شعراء الإسلام فى هذه الوقعة عدة قصائد ، منها ماقاله شهاب الدين محمود ، فقد أنشأ فى ذلك قصيدة أولها :

كذا ، فلتكن فى الله تمضى العزائم   وإلا فلا تجفو الجفون الصوارم

---

(١) مدينة بآسيا الصغرى .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ١٦٨ .

عزائم حادتها الرياح ، فأصبحت ... مخافة تبكى عليها الغمائم
سرت من حمى مصر ، إلى الروم ، فاحتوت ... عليه وسوراه : الظبا ، واللهاذم
بجيش تظل الأرض منه كأنها ... على سعة الأرجاء فى الضيق خاتم
كتائب كالبحر الخضم ، جيادها ... إذا ماتهادت ، موجه المتلاطم
تحيط بمنصور اللواء ، مظفر ... له النصر والتأييد عبد وخادم
مليك يلوذ الدين من عزماته ... بركن له الفتح المبين دعائم
مليك به للدين فى كل ساعة ... بشائر ، للكفار منها مآتم

ومنها :

غدا ظاهراً بالظاهر النصر فيهم ... تبيد الليالى والعدا ، وهو دائم
فأهووا إلى لثم الأسنة فى الوغى ... كأنهم العشاق ، وهى المباسم
وصافحت البيض الصفاح رقابهم ... وعانقت السمر القدود النواعم
فكم حاكم منهم على ألف دارع ... غدا خاسراً ، والرمح فى فيه حاكم
وكم ملك منهم رأى وهو موثق ... خزائن ما يحويه وهى غنائم

ومنها :

فلا زلت منصور اللواء مؤيداً ... على الكفر ما ناحت وأبكت حمائم (١)

والقصيدة تشيد — كما ترى — بعزيمة الظاهر بيبرس التى لم تلن أمام إقدام العدو ، وتفانيه فى القتال ، وتشيد بمكانته فى صيانة الدين ، وحياطته ، والذياد عنه ، وتصف جيشه الضخم الذى يتخذه بيبرس وسيلة لتحقيق آماله فى نصرة الإسلام ، وتتحدث عما نزل بالعدو ، من هزيمة ، وخذلان ، برغم ما أحس به من ضعف التصوير ، حين صورت لنا القصيدة تساقطهم على الأسنة ، وقطع السيوف لرقابهم لثما ، وعناقا ، ومصافحة .

ولم يقصر الشعراء فى تمجيد المنصور قلاوون عند ما انتصر على التتار انتصاراً حاسما ، فى معركة حمص ، سنة ٦٨٠ هـ ، فقد مجد الشعراء هذا النصر ، وأشادوا بثبات المنصور قلاوون ، ثباتاً قوى الروح المعنوية فى نفوس جنده ، وحول هزيمة جيشه إلى نصر مبين (٢) .

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ١٦٨ .
(٢) كثير من هذه القصائد فى كتاب زبدة الفكرة لبيبرس المنصورى ٩ : ١١٧ ب — ١٢٢ ب.

هذا هو اللون الفرح من ألوان أدب الغزو التترى ، وهو الذى يمجد بطولة أبطال المسلمين ، الذين ردوا عن البلاد هذه الغارات المدمرة ، وهذا اللون ينطق بصلابة العود ، والجرأة التى شعر بها المسلمون ، بعد أن تمكنوا من هزيمة التتار لأول مرة . وتبدو هذه الصلابة كذلك فى هذا الكتاب الذى بعث به المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ ، إلى السلطان إيلخان أحمد ملك المغول بفارس ، وقد أرسل كتاباً يخبر بانتقاله إلى الإسلام هو ومن معه من التتار ، ويقول فيه : « أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا فى عنفوان الصبا ، وريعان الحداثة ، إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة بمحمد عليه أفضل الصلوات والسلام ، بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده فى بريته ، « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » ، ويتحدث عما عزم عليه أمراؤه وقواده وزعماؤه من متابعة سياسة أخيه ، فى قيادة الجيوش ، وشن الغارة على الشام ومصر ، وعما رآه هو من الكف عن هذه السياسة ، وترجيح خطة السلم ، ونشر أسباب الأمن ، إذ يقول : « اجتمع عندنا فى (قوريلتاى) المبارك — وهو المجمع الذى تنقدح فيه الآراء — جميع الإخوان والأولاد ، والأمراء الكبار ، ومقدمى العساكر ، وزعماء البلاد ، واتفقت كلمتهم على تنفيذ ماسبق به حكم أخينا الكبير ، فى إنفاذ الجم الغفير ، من عساكرنا التى ضاقت الأرض برحبها ، من كثرتها ، وامتلأت الأرض رعباً ، لعظيم صولتها ، وشديد بطشتها ، إلى تلك الجهة ، بهمة تخضع لها شم الأطواد ، وعزمة تلين لها صم الصلاد ، ففكرنا فيما تمخضت زبدة عزائمهم عنه ، واجتمعت أهواؤهم وآراؤهم عليه ، فوجدناه مخالفاً لما كان فى ضميرنا ، من اقتناء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام ، وألا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا مايوجب حقن الدماء ، وتسكين الدهماء ، وتجرى به فى الأقطار رخاء نسائم الأمن والأمان ، ويستريح به المسلمون فى سائر الأمصار ، فى مهاد الشفقة والإحسان ، تعظيما لأمر الله ، وشفقة على خلق الله ، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك النائرة ، وتسكين الفتنة الثائرة ، وإعلام من أشار بذلك الرأى بما أرشدنا إليه من تقديم مايرجى به شفاء مزاج العالم ، من الأدواء ، وتأخير مايجب أن يكون آخر الدواء ، وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال ، إلا بعد ايضاح الحجة ، ولا نأذن لها إلا بعد تبيين الحق ووضوح المحجة » .

ومضى الكتاب متحدثا عما ظهر من آثار إسلامه من إقامة نواميس الشرع المحمدى ، على مقتضى قانون العدل الأحمدى ، وضرب أمثلة كثيرة على ذلك ، ثم ختم الكتاب

بلون من التهديد قائلا : « فإن وفق الله سلطان مصر لاختيار مافيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بنى آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثق ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة و الاتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تنعمر تلك المدائن والبلاد ، وتسكن الفتنة الثائرة ، وتغمد السيوف الباترة ، وتحل الكافة أرض الهوينى ، وروض الهدون ، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون ، وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع عن معرفة قدر هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا ، وأبلى عذرنا « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

وجاء رد السلطان عليه مبتدئاً بحمد الله ، والصلاة على رسوله ، ثم هنأه بالإسلام ، وسأل الله أن يثبته عليه . وبين له المنصور قلاوون أن الرأى الذى ارتآه السلطان أحمد ، يعود نفعه على قومه ، قبل أن تحصل لهم المضرة بانسياقهم وراء اندفاعهم ، « فهذا فعل الملك المتق ، المشفق من قومه على من بق ، المفكر فى العواقب بالرأى الثاقب ، وإلا فلو تركوا وآراءهم حتى تحملهم العزة ، لكانت هذه الكرة هى الكرة ، لكن هو كمن خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، ولم يوافق قول من ضل ولا فعل من غوى . ثم يأخذ الكتاب فى لين ، مشوب بالحزم ، حين يبين له أنه « حيث دخل معنا فى الدين هذا الدخول ، فقد ذهبت الأحقاد وزالت الذحول ، وبارتفاع المنافرة ، تحصل المظافرة ، فالإيمان كالبنيان ، يشد بعضه ببعض ، ومن أقام مناره فله أهل بأهل ، فى كل مكان ، وجيران بجيران ، فى كل أرض ، ويحمد له الكتاب ماظهر منه من تطبيق أحكام الدين ، ولكن لا يعجبه التهديد بقوله : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ، فيقول : وأما الإشارة إلى الاستشهاد بقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فما على هذا النسق من الود ينسج ، ولا على هذا السبيل ينهج ، بل الفضل للمتقدم فى الدين ، ونصره عهود ترعى ، وإفادات تستدعى وما برح الفضل للأولوية ، وإن تناهى العدد للواحد الأول ، ولو تأمل مورد هذه الآية فى غير مكانها لتروى وتأول » ويختم المنصور كتابه بالصمود للتهديد ، مستعيناً بالله مستنصرا به قائلا : « ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على ألا تبطل هذه الغارات ، ولا يفتر عن هذه الإثارات ، فتعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ، فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى اتفق فيها ملتق الجمعين مرة ومرة ومرة ، قد عاف مواردها من سلم

من أولئك القوم، وخاف أن يعاودها، فيعاوده مصرع ذلك اليوم، فوقت اللقاء علمه عند الله فلا يقدر، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدر، لا لمن قدر، ولا نحن ممن ينتظر فلتة، ولا له إلى غير ذلك لفتة، وما أمر ساعة النصر إلا كالساعة لا يتأتى إلا بغتة، والله الموفق لما فيه صلاح هذه الأمة، والقادر على إتمام كل خير ونعمة [١]».

هذا لون ثان من ألوان الأدب الذى أنتجه الغزو التترى، وهو الذى عبر عن صلابة الإرادة المصرية، وعن العزم القوى على الثبات والصمود والمقاومة. وهناك لون آخر حزين يتجلى فى البكاء على ما نزل بالمدن من تخريب وتدمير، وعلى من قتل من قادة المهاجرين. فمن بكى المدن كمال الدين بن العديم، كان مقيما بحلب، ثم قدم مصر، لما هرب الناس أمام التتار، ثم عاد إلى مدينته، فلما نظر ما فعله العدو بها من تخريب، وتدمير، وقتل سكانها، بعد ما كان بها: من عمارة، وحضارة — أنشأ قصيدة طويلة منها:

هو الدهر: ما تبنيه كفاك يهدم ... وإن رمت إنصافا لديه فتظلم
أباد ملوك الفرس جمعاً، وقيصراً ... وأصمت لدى فرسانها منه أسهم
وأفنى بنى أيوب، مع كثر جمعهم ... وما منهم إلا مليك معظم
وملك بنى العباس زال، ولم يدع ... لهم أثراً من بعدهم، وهم هم
وأعتابهم أضحت تداس، وعهدها ... تباس بأفواه الملوك، وتلثم
وعن حلب ما شئت قل من عجائب ... أحل بها ياصاح، إن كنت تعلم
فيالك من يوم شديد لغامه [٢] ... وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس، وارتمت ... مصاحفها فوق الثرى، وهى ضخم
ولكنما لله فى ذا مشيئة ... فيفعل فينا ما يشاء ويحكم [٣]

وقال بعض أهل المعرة، وقد رأوا رجال التتر على قلعتها، يسخرون العوام فى تخريب سورها، مضمنا شعره بعض قصيدة المتنبى:

رفقاً عليها قلعة منيعة ... يهدمها من هو من حزبها
فغاية المفرط فى سلمها ... كغاية المفرط فى حربها
تحثنا فى هدمها أعجم ... ونحن مكروبون من كربها

---

(١) الرسالة والرد فى ملاحق السلوك ١: ٩٧٧، نقلا عن زبدة الفكرة ٩: ١٣١ أ، وما بعدها.
(٢) لغام البعير زبده.
(٣) المختصر ٣: ٢١٥، والقصيدة برمتها ٧٥ بيتاً فى مفرج الكروب ٢: ٤٠٧.

تبخل أيدينا بأرواحنا   وتشتكى منا إلى ربها
لما رأوها أسرفت فى العلا   كان علاها منتهى ذنبها (١)

والأبيات تمثل مقدار ما يحمله أهل المعرة : من إعزاز لقلعتهم ، وحب لها، وألم وكرب لهدمها وتدميرها ، مرغمين على ذلك ، وتتحدث عما يحمله التتار من حقد على كل ما يقف فى سبيلهم ، أو يعترض طريق تدميرهم .

ولم يقف بكاء الشعراء عند حدود المدن الشامية والمصرية، بل كان لتخريب بغداد أكبر الأثر فى نفوسهم ، فقرض الشعراء والعلماء قصائد يرثون بها بغداد وأهلها ، ومن ذلك هذه القصيدة المشهورة التى أنشأها مسند الشام : تقى الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبى اليسر ، وقد بدأها بقوله :

لسائل الدمع عن بغداد أخبار   فما وقوفك، والأحباب قد ساروا
يازائرين ، إلى الزوراء لاتفدوا   فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة ، والربع الذى شرفت   به المعالم ، قد عفاه إقفار
أضحى لعطف البلى فى ربعه أثر   وللدموع على الآثار آثار

وبعد هذا البدء الباكى ، أخذ يعد ما صاحب الديار من ألوان الدمار ، فقال :

يا نار قلبى من نار لحرب وغى   شبت عليه ، ووافى الربع إعصار
علا الصليب على أعلى منابرها   وقام بالأمر من يحويه زنار
وكم بدور على البدرية (٢) انخسفت   ولم يعد لبدور منه إبدار
وكم دخائر أضحت وهى شائعة   من النهاب ، وقد حازته كفار

ثم وصف السبى والقتل قائلا :

ناديت ، والسبى مهتوك ، يجرهم   إلى السفاح من الأعداء دعار
وهم يساقون للموت الذى شهدوا   النار ، يارب ، نصلاها ، ولا العار
يا للرجال لأحداث تحدثنا   بما غدا فيه إعذار وإنذار
من بعد أسر بنى العباس كلهم   فلا أنار لوجه الصبح إسفار
ما راق لى قط شىء بعد بينهم   إلا أحاديث أرويها وآثار
لم يبق للدين والدنيا وقد ذهبوا   سوق لمجد ، وقد بانوا ، وقد باروا

(١) تاريخ ابن الوردى ٢ : ٢٠٥ .
(٢) قصر المنصور.

إن القيامة فى بغداد قد وجدت ... وحدها حين للإقبال إدبار
آل النبى وأهل العلم قد سبيوا [١] ... فمن ترى بعدهم تحويه أمصار
ماكنت آمل أن أبقى ، وقد ذهبوا ... لكن أبى دون ما أختار أقدار [٢]

وبغداد جديرة يومئذ بالبكاء ، فقد نزل بها من الدمار مالا يوصف ، وأعمل فيها القتل والأسر ، واستخدم أشد أنواع الوحشية ، فى قتل العباسيين ، وسكان بغداد ، وكانت بغداد الأم الروحية يومئذ للعالم الإسلامى ، فكانت النكبة التى حلت بها مثيرة أشد الآلام فى نفوس المسلمين . وهكذا أحدث الغزو التترى فى الأدب ما أحدثته الحروب الصليبية فيه : من بكاء على تخريب المدن ، وإبادة حضارتها ، وقتل سكانها .

وروى التاريخ أن التتار استولوا على ميافارقين ، بعد حصار سنتين ، حتى فنى أهلها وزادهم ، وظل صاحبها الكامل محمد بن المظفر غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب مصابرا ثابتاً حتى ضعف من عنده عن القتال ، فاستولوا عليها ، وقتلوه ، وطافوا برأسه ، فى البلاد ، يدقون الطبول ، ويغنون ، ثم علقوا رأسه ، على باب الفراديس بدمشق ، وظل معلقاً حتى عادت دمشق إلى المسلمين ، فدفن بمشهد الحسين ، فقال فيه شهاب الدين بن شامة :

ابن غازى غزا ، وجاهد قوما ... أثخنوا فى العراق والمشرقين
ظاهراً عالياً ، ومات شهيداً ... بعد صبر عليهم عامين
لم يشنه إذ طيف بالرأس منه ... وله أسوة برأس الحسين
ثم واروا فى مشهد الرأس ذاك الرأ ... س ، فاستعجبوا من الحالين [٣]

وهكذا كان للغزو التترى أثره فى الأدب العربى فى مصر والشام ، فرأينا أدبا يحث على الجهاد والمصابرة ، ورأيناه يتخذ مادته مما فعله التتر فى البلاد المفتوحة : من ألوان التدمير وسفك الدماء ، فكانت الخطبة تدعو إلى الثبات ، حتى لا يكون المصير كهذا المصير المحزن الأليم . وهى لذلك تتكئ على غريزة حفظ الذات ، التى تدعو الناس إلى أن يذودوا عن أنفسهم ، ويدفعوا عنها كل مايهدد سلامتها ، كما أنه من المؤكد أن اعتمد الخطباء على العاطفة الدينية ، فتحدثوا عن الخطر الذى يهدد الدين من هذا الغزو البربرى المتوحش ، ومن أمثلة هذا الأدب خطب المظفر قطز . ورأينا أدبا يمثل قوة الإرادة أمام هذا الغزو ويتحداه ، وقد وجد هذا الأدب بعد أن استعاد المسلمون قوتهم المعنوية ، وانتصروا على التتار ، ورأينا كذلك أدبا باكياً يرثى البلاد ، والأبطال . أما اللون المبتهج فهو ذلك الذى تغنى بانتصار المسلمين ، وتحطيم جيوش التتر .

(١) هكذا فى الشعر ولعلها محرفة عن قتلوا . أطول من ذلك تبلغ ستة وستين بيتا

(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ٥١ والقصيدة

(٣) المرجع السابق نفسه .

الخـــلاصة

كانت الحروب الصليبية موجة من هذه الموجات التى اندفع فيها الغرب بجحافله نحو الشرق ، يريد فى هذه المرة باسم الدين أن يملكه ، ويسيطر عليه ، كما اندفع من قبل الشرق نحو الغرب يريد حيناً باسم الدين كذلك أن يملكه ، ويسيطر عليه ، وقد صادف الغرب بلادا مفتتة منقسمة ، سهل عليه امتلاكها ، وتأسيس إمارات له فيها ، وظل الفرنج الذين أقاموا هذه الإمارات يوسعونها ، على حساب جيرانهم من المسلمين : وينشرون الرعب فى أطراف ممتلكاتهم ، من غير أن يستطيع المسلمون المتفرقون دفعا لإغارتهم ، أوردا لعدوانهم ، حتى إذا بدأ المسلمون يتجمعون بعد فرقة ، أخذت الكرة تنقلب على الفرنج ، وبدأ المسلمون يهاجمونهم ، ويستردون مافقدوه من بلاد ، حتى استطاعوا ، بعد قرنين من الزمان ، أن يقذفوا إلى البحر بآخر فرنجى مغير .

وإذا كان المسلمون قد انهزموا أمام الفرنج فى أول أمرهم ، فقد دفعتهم الهزيمة إلى أن يروزوا أنفسهم ، لاستخراج ماكمن فيهم من ينابيع القوة ، وكان العلم أحد هذه الينابيع ، فأنشأ ملوك العصر وسلاطينه المدارس ، فى أرجاء البلاد ، تستقبل وفود الطلبة ، تقدم إليهم العلم بالمجان ، وتقدم إليهم فى أحيان كثيرة المسكن ، ومالا يكفى نفقاتهم ، فلا يشغلون أنفسهم بغير العلم ، والبراعة فيه ، ولذا كان هذا العصر من العصور التى ازدهرت فيها الثقافة ، وتنوعت فروعها ، من علوم دينية ، ودنيوية ، ونبغت طائفة كبيرة من العلماء ، برعوا فيما تناولوه ، من مواد ، ومادرسوه ، من ألوان العلوم ، ولا يزال الكثير من آثارهم معيناً نستقى منه المعارف ، ومصدراً من مصادر ثقافتنا .

وارتفع شأن العلماء فى ذلك العصر ، ووصلوا إلى أسمى مناصب الدولة ، وأرفع مكانة لدى الشعب ، وحفظ لنا التاريخ أسماء الكثير من هؤلاء .

ونهض الأدب فى ذلك العصر نهضة تساير نهضة العلم ، وساهم حكام ذلك العصر فى إنهاضه ، بتشجيعهم الأدباء ، ومكافأتهم على مقدار إجادتهم ، بل إن كثيرين منهم قرضوا الشعر ، وجمعوا من شعرهم دواوين ، لايزال بعضهم باقياً إلى يومنا هذا .

فلا غرابة إذا كان الشعر قد غزر إنتاجه ، وكثر قائلوه ، وقد تركت أحداث العصر ، والحياة الاجتماعية التى سادته — آثارها فيه ، فضلا عن أن الشعراء لم يدعوا غرضاً قال فيه من سبقهم من الشعراء إلا قالوا فيه : من مدح ، وهجاء ، وغزل ورثاء ، وغيرها .

ومما يسترعى النظر فى ذلك أن كان من بين أغراض الشعر يومئذ الفكاهة والمجون ، مما يدل على أن العصر لم يكن كله متزمتاً ، على أن قسوة الحياة تدعو إلى التماس الترفيه ، ووجد الشعب فى كثير من الأحيان أوقاتاً للمرح والمجون . ومع أن الشعراء اقتدوا بأسلافهم من قبل ، فإن البيئة التى عاشوا فيها ، والثقافة التى نالوا نصيباً منها ، وجو العصر الدينى ، ترك ذلك كله أثره فى شعر الشعراء ، الذين كثر عددهم ، وتعددت ألوانهم ، ومذاهبهم ، وأصولهم ، وأعمالهم ، ومناصبهم ، وكانوا فى جملتهم ينزعون فى التعبير إلى أن يكون أسلوبهم يضارع الشعر فى العصر العباسى الزاهر . وقد بلغ الشعراء من ذلك حظاً كبيراً ، حتى لنستطيع أن نضع بعضهم فى بعض ما أنشأه ، إلى جوار كبار الشعراء العباسيين ، ولكننا لا نستطيع أن نغفل ما كان فى هذا العصر من اتجاه عام إلى الزخرف والزينة ، يكاد يشترك فيه شعراء هذا العصر جميعاً ، يقوى بعضهم حتى لا تضعف الزينة من أسلوبه ، وحتى تبدو كأنها طبيعية غير متكلفة ، وتقوى هى على الآخر حتى تسقط شعره ، فى تكلف ممقوت ثقيل .

كما نجد شاعراً فذا قد اتخذ من لغة الحديث العادية أداة لشعره ، بعد أن أجراها على قواعد النحو ، واستطاع بذلك أن يكون أقرب إلى الصدق فى التعبير عن عواطفه .

وإذا نحن تتبعنا أسلوب الشعر فى ذلك العصر الطويل ، وجدناه فى القرن السادس أقوى منه فى القرن الذى تلاه ، حتى إذا وصلنا إلى منتهى القرن السابع رأينا بوناً شاسعاً فى القوة بينه وبين شعر القرن السادس ، وربما استطعنا أن نتلمس أسباب ذلك فيما كانت تقوم به الدولة الفاطمية : خلفاؤها ، ووزراؤها . ودولة نور الدين ، وصلاح الدين ، من تشجيع للشعر ، وإنهاض له ، مما جعل هذا القرن بحق من أزهى العصور ، التى مر بها الأدب العربى فى مصر .

ومما هو جدير بالملاحظة أيضاً أن الشعراء كانوا فى مصر أكثر منهم بالشام ، ومن السهل تعليل ذلك بأن رأس الدولة كان فى القاهرة ، معظم هذا العصر ، ولعاصمة الدولة من المزايا ما يمهد أمامها السبيل لكى تبز فى النهوض بالأدب سائر الأمصار .

كما يلحظ كذلك أن الشعر كان فى معظمه (ارستقراطى) النزعة ، لا شعبياً ، ومن أجل هذا قل من ألوان الشعر النوع الاجتماعى ، إلا ما يتصل بذوى السلطان ، وضعف إبراز صورة حية للحياة الاجتماعية ، من بين ثنايا شعر هذا العصر ، وكثر فيه المديح لذوى السلطان ومن يتصل بهم ، وهذا حكم يصدق على معظم شعر هذا العصر ، وإن كان بعض الشعراء

قد وقف بالشعر عند حد التعبير عما يجيش فى صدره ، من عواطف وانفعالات ، كما فى شعر الصوفية وبعض الغزلين فى ذلك العصر .

وتجد أحياناً هنا وهناك عند بعض الشعراء شعراً يتحدث عن جمال الطبيعة ، أو يصف مناظر الكون ، أو ماخلفه الإنسان فوق هذه الأرض من آثار .

أما النثر فقد تعددت نواحيه فى ذلك العصر ، بين كتابة سلطانية ، تتناول شئون الدولة ، وأمور السلطان ، فى داخل البلاد ، وخارجها ، وبين كتابة إخوانية ، وأدب خلقى سياسى ، ينهض فيه الأدب بمهمة الإصلاح الخلقى ، والتوجيه السياسى ، وبين أدب تاريخى ، وقصة .

وقد ساد لغة النثر فى معظم ألوانه استعمال السجع والمحسنات البديعية ، فقد كان المثل الأعلى للكتابة يومئذ مقامات الحريرى ، المليئة بألوان الزخارف اللفظية ، والمعنوية .
ومما ساعد على العناية بالنثر فى ذلك العصر وجود ديوان الإنشاء ، وضرورة أن يكون على رأسه كاتب ممتاز ، مما جعل الكتاب يتنافسون فى الوصول إليه ، أو إلى منصب من مناصب الديوان ، فأخذوا أنفسهم بمنهج عملى ، يتقنون به الإنشاء ، ويجيدون به فنون التعبير ، وألفت فى ذلك كتب تبين طريق الإجادة ، وترسم السبيل للتبريز . ولما كان ديوان الإنشاء فى مصر كان أشهر الكتاب الذين شهدهم هذا العصر ممن نشأ فى مصر ، وتربى فى ديوان إنشائها ، لانستثنى من ذلك إلا القليل ، وكان أعظم الكتاب ممن نشأ فى عصر الدولة الفاطمية ، أو تتلمذ على رجالها .

وكان للخطابة شأنها فى ذلك العصر الذى يحتاج فيه إلى اثارة النفوس ، كى تقبل على الجهاد ، وتندفع إليه ، وهى خطابة دينية ، تعتمد على القرآن ، والحديث ، وآثار السلف . غير أنه مما يلحظ أنه برغم الدوافع الكثيرة التى كانت تدعو إلى إكثار الخطب ، وإجادتها ، وما كان للخطيب من مكانة سامية فى المجتمع ، لم يؤثر عن هذا العصر من الخطب سوى القليل ، وندر أن وصل إلينا خطبة كاملة ، اللهم إلا خطبة فتح بيت المقدس . وقد يشير المؤرخون إلى خطب قيلت ، وكان لها أعظم التأثير فى نفوس سامعيها ، كهذه الخطبة التى قيلت ببغداد فى أول عصر الحروب الصليبية ، لإثارة النفوس ، ضد الغزاة الفاتحين ، وأثرت الخطبة أثرها ، ولكن راوياً لم يروها ، وكالخطبة التى قيلت فى القاهرة ، عقب تحرك الفرنج من دمياط ، يريدون الاستيلاء على مصر ، فلم يحفظ التاريخ سوى أولها ، وكان آية قرآنية . وقد وقفت طويلا عند هذه الظاهرة ، أتبين أسبابها ، فهل كان من بين هذه الأسباب

ضعف الخطابة فى ذلك العصر ضعفاً حمل المؤرخين على إهمال روايتها ؟ إن الرجوع إلى ما أثر من خطب هذا العصر ينفى هذا الضعف ، ويضع هذا المأثور فى صف الرسائل ، لايتأخر عنها ، ولايوضع أسفل منها . كما أن ما أثبته المؤرخون من تأثير هذه الخطب فى النفوس ينفى عنها هذا الضعف ويبرهن على قوتها . غير أننى أرجع سر ذلك إلى أسباب شتى : منها أن جند ذلك العصر لم يكن معظمهم من العرب الذين يخضعهم جيد القول ، فقلت لذلك الخطابة فى الجند ، لتحمسهم وتثيرهم . ومنها أن معظم الخطب التى كانت تلقى يومئذ لم تكن محضرة مكتوبة ، ولكنها كانت تلقى على البديهة ، من غير تحضير ، فلم يهيأ للمؤرخين نقلها وإثباتها . على أن الزمن قدعدا على كثير من آثار خطباء هذا العصر ، فإن المؤرخين يذكرون لكثير من رجالات هذا العصر أنهم خلفوا كثيراً من دواوين الخطب ، يبلغ بعضها مجلدات عدة ، ولكن الزمن لم يبق عليها ، وبادت مع الكثير الذى باد من آثار ذلك العصر ، وربما كان السر فى أن هذه الخطب لم تبق أنها قيلت فى ظروف خاصة ، وفيها إشارات إلى معارك وأماكن خاصة انقضت أهميتها ، بانقضاء الغرض الذى أنشئت من أجله ، فلم يبق ثمة مجال لأن يرددها الخطباء فماتت مع الزمن . وكل ماذكرناه ينفى عن الخطابة فى هذا العصر صفة الضعف أو الركود ، فقد تضافرت العوامل على النهوض بها ، وترقيتها ، وإذا كان الجند من غير العرب لايتأثرون بالعربية الفصيحة ، فإن الشعب ، وإليه كان الملجأ إذا حزب الأمر ، كان يتأثر بالعربية ، وتثيره الخطابة ، فيندفع إلى الجهاد .

وأثرت الحروب الصليبية فى الأدب العربى تأثيراً كبيرا ، فقد مضى الأدب مستنجداً ، طالباً المعونة ممن يراهم أهلا للعون ، وقد استخدم الأدب مهارته فى تصوير وحشية هذا العدو ، كى يكون ذلك أبلغ فى التأثير ، وأدعى إلى سرعة الاستجابة ، وأخذ الأدب شعره ونثره ، يحث المسلمين على قتال الفرنج وطردهم ، من ديار الإسلام ، لايكاد يظفر من هدفه بجزء ، حتى يسعى داعياً إلى تحقيق هدف جديد ، مهونا أمر الصعاب ، مسهلا اجتياز العقبات ، وممجدا أولئك الذين ينهضون بعبء قتال الفرنج ، ومحاولة طردهم ، يتجمع الشعراء حول هؤلاء الأبطال ، ويصوغون لهم قلائد الثناء ، وكأنهم بذلك يغرون غيرهم بالاقتداء بهم ، وكأن الشعراء بالتفافهم حول أولئك الرجال يمثلون الرغبة الكامنة فى الشعب ، والأمل الذى يتردد فى صدره ، أن يجد القائد المحنك الذى يستطيع أن يقوده إلى الظفر والنصر على هؤلاء الغزاة . ولايقف الشعراء غالبا عند حد تصوير بطولة هؤلاء الرجال فى الحرب ،

بل يتجاوزون ذلك إلى تصوير خلال البطل ملكا ، ورسم سماته حاكما ، ونرى غزارة فى الشعر ، وكثرة فى عدد الشعراء ، كلما كان للبطل يد طولى فى حرب الصليبيين ، ومن أجل هذا كان لصلاح الدين الحظ الأوفى من الشعر ، والعدد الأغزر من الشعراء ، من بين أبطال المسلمين جميعاً ، فى الحروب الصليبية، لطول جهاده، وكثرة فتوحه ، وضخامة الجهد الذى بذله فى قتال العدو ، الذى حشد له الجموع ، وجلب له الأمداد ، ويليه فى ذلك نور الدين محمود ، فعماد الدين زنكى ، مما خلد ذكر هؤلاء الرجال على وجه الزمان .

وإذا كان الشعراء قد التفوا حول أولئك الرجال ، يمجدون بطولتهم ، فلقد بكوا عليهم ، عند ما نزل بهم الموت ، معتقدين أن الخسارة فيهم ليست خسارة فى فرد ، ولكنه بنيان قوم تهدم ، والشعراء بذلك يصورون آلام المسلمين ، عندما يندبون بطلا هوى ، كان درعا ورداء يحميهم ، وكان صلاح الدين أوفر هؤلاء الأبطال كذلك حظاً من الرثاء .

وكان للمعارك التى دارت أثرها فى الأدب ، فمضى الأدباء يصورون الوقائع ، وكان لمعارك الرها ، وحطين ، وبيت المقدس ، ودمياط ، وعكا ، أكبر نصيب من شعر الشعراء ، ونثر الكتاب ، وكان للمعارك أثرها أيضا فى التهنئة بها ، إذا كان الفوز والظفر ، والأسف والألم إذا كانت الدائرة على المسلمين ، والأدب فى كلتا الحالتين يبين عما كان يجيش فى النفوس من فرح بالنصر ، ومن مرارة وأسى عند الكسرة والانهزام ، ولكنها مرارة مصحوبة بالتحفز ، والانتظار ، ولم يداخل اليأس نفوس المسلمين فى أنهم سوف يستردون بلادهم ، ولم يظهر فى الأدب يوماً هذا اليأس ، وإن كانت غارات الفرنج قد قوبلت أحياناً بخوف ، دفع الخطباء إلى استثارة النفوس ، لدرء الخطر ، ودفع الشعراء إلى الابتهال إلى الله أن يدرأ الخطر عن البلاد ، ويدفع عنها كيد الأعداء . وإلى جانب ذلك نجد الأدب مهدداً متوعدا ، ولعل الشعراء أنشئوا ذلك التهديد، مؤملين أن يحمله بعض الفرنج إلى ملوكهم ، الذين هددهم الأدب ، ومؤملين أن يذيع هذا التهديد على لسان المسلمين ، فينفخ فيهم قوة وأملا ، كما كانت رسائل البشرى ، والتهنئة ، تذيع فى أرجاء العالم الإسلامى ، حاملة إليه الأمل والرجاء ، وانضم إلى ذلك ما أذاعه الأدب على ألسنة الشعراء ، من فخر بما نالوه من انتصار ، وظفر ، وقد ساهم فى إنشاء هذا الشعر بعض القادة ، الذين كان لهم نصيب فى ميدان الحروب ، وشعراء قالوا شعر الحماسة على ألسنة القادة ، الذين ليس فى مقدورهم أن يقرضوا الشعر .

ولم يقصر الأدب أن يكتب بلغته شئون السياسة وأحداثها ، حتى لنستطيع بالأدب أن نفسر العوامل التى وجهت التاريخ وجهته ، وأن نرى السلم فى قليل من هذه العصور المتطاولة قد ساد العلاقات بين المسلمين والصليبيين ، ولكنه سلم موقوت .

وبرغم أن الأدباء ما كانوا — على ما أرجحه — يعرفون لغة الفرنج ، استطاعوا بقوة ملاحظتهم أن يعرفوا الكثير من أخلاقهم ، وعاداتهم ، فصوروها فى أدبهم .

وكان للطابع الدينى أثره فى توجيه الشعراء ، إلى مدح الرسول صاحب الدين ، الذى هاجمه الفرنج ، فأكثر الشعراء ، وأطالوا فى مدحه ، ممجدين له ، ومثنين على دينه ، ومناقشين عقيدة الصليبيين ، لاجئين أحياناً إلى شرح ما أجملوه فى شعرهم .

ولما كان طرد الفرنج من ديار المسلمين هدفاً من أهداف ذلك العصر ، ظهر فى عهود التوليه ، وفى رسائل الحكام ، والولاة ، التواصى بالجهاد ، حتى صار عنصراً من عناصر عهود تولية الحكام ، فى هذه البقعة ، التى بليت بالغزاة الصليبيين .

ومضى الأدب ينفخ فى روح المجاهدين ، بما يضعه لهم من نشيد يترنمون به ، ومن كتب تجمع ماقيل فى الجهاد ، وتحث عليه ، بما ورد فى القرآن ، والحديث ، ومن مؤلفات تظهر فضائل البلاد ، كى يكون ذلك حافزاً لاستردادها ، والدفاع عنها كما أرخ الأدب بلغته بعض حقب هذه الحروب .

ولم تنكب البلاد حينئذ بهذا الغزو الصليبى المخرب ، بل بليت بغزو آخر مدمر ، لا يقل قسوة عن هذا الغزو ، وأعنى به الغزو التترى ، الذى حطم الخلافة العباسية ، وجعل الدماء تسيل مدراراً فى شوارع بغداد ، ومضى يخرب البلاد ، يريد أن يعفى على الإسلام ، ويمحو آثاره من جميع الديار ، ولم تطل مدة هذا الغزو ، بل قضى عليه أبطال المماليك الذين آل اليهم السلطان بعد الأيوبيين ، وقد أحدث هذا الغزو التترى فى البلاد رعباً وذعراً ، وأنتج ألواناً من الأدب تشبه إلى مدى بعيد بعض الألوان التى رأيناها فى ظل الحروب الصليبية : فمن تمجيد للبطولة ، وإشادة بجهاد الأبطال ، ولاسيما بعد النصر الساحق ، الذى أحرزه المسلمون ، ومن بكاء على ماحل بالبلاد : من هلاك ، وتدمير ، ومانزل بالعباد : من موت ، وأسر ، فى قسوة لاترحم ولاتلين .

هذا ومما هو جدير بالإشارة إليه أن الأدب بمصر والشام فى تلك الفترة من الزمن لم يتبين لى أنه متأثر بأدب الفرنجة ، بل كان أدباً منبثقاً من الأدب العربى القديم ، لم يؤثر

فيه ما جاوره زهاء قرنين من مختلف آداب الصليبيين الغزاة . فلم أعرف أديبا من أدباء هذا العصر عرف لغة من لغات هؤلاء الفرنج ، وعرف أدب هذه اللغة ، حتى يكون من الممكن أن يتأثره ، ويقتدى به ، فيما ينشئه من ألوان الكلام ، ولم أعرف أن أديبا عربيا ترجم يومئذ إلى العربية أثراً فرنجيا أدبيا ، بل اتجه بعضهم إلى دراسة الفارسية وأدبها ، والاقتداء ببعض اتجاهاتها ، فى النظم ، كما فعل ابن سناء الملك ، وكما كان عليه أمر العماد الكاتب .

وإذا نحن تلمسنا الأسباب التى دعت إلى أن يظل الأدب فى مصر والشام بمنأى عن أن يتأثر بالآداب الفرنجية ، وجدنا من أولها أن المسلمين يومئذ ما كانوا يعترفون للفرنج بفضيلة سوى الشجاعة ، التى أقروا لهم بها ، ولم يقروا لهم بفضل عليهم فى علم ولا أدب ، حتى عجب بعض كبار رجال المسلمين عند ما أبدى له بعض الفرنج أن فى أوروبا تفوقا فى علم الطب . وما أثبته مؤرخو المسلمين يدل على أنهم كانوا يستجهلون الفرنج ، ولا يؤمنون لهم بتقدم ، فى حضارة ولا مدنية ، بل كانوا على العكس ، يؤمنون بأنهم أصحاب التفوق والتبريز ، فلم يدفعهم شعورهم بالنقص إلى تلمس أسباب الكمال عند غيرهم .

ومن هذه الأسباب العداوة التى كانت بين الطرفين ، فلم يكن التقاؤهما عن حب وود ، حتى يقف الأدباء فى هدوء وتدبر ، يعرفون ماعند جيرانهم ، من ألوان الفكر ، والثقافة ، بل حال العداء والبغضاء ، دون الرغبة ، فى تعرف أدب الفرنج . وإذا كانت صلات الهدنة تسود العلاقات بين الطائفتين حينا من الزمن ، فلم يكن ذلك إلا ريثما يستعد كل فريق ، ليبدأ القتال من جديد ، فلم يكن ثمة صلح دائم ، يطمئن به كل إلى صاحبه ، ويأخذ عنه .

ومنها أن الأدب العربى لم يجد نفسه مضطراً للون جديد من ألوان الأدب غير ماورثه عن أسلافه الماضين ، فوجد فيها ماهو فى حاجة إليه ولم يفكر فى الاتجاه إلى غير الأدب العربى ، ولهذا كان تطور الأدب العربى فى هذه الحقبة من الزمن تطوراً طبيعيا ، لا أثر فيه لدخيل غير عربى . ومنها التعصب للغة العربية تعصبا جعلها فى نظر أهلها أكمل اللغات وأرفعها فكان نتيجة لذلك نظرهم بعين الاحتقار إلى غيرها من اللغات ، واعتقادهم تبعا لذلك أن غيرها لايستحق عناء معرفته والعناية به . وقد يكون منشأ هذا التعصب دينيا ، لأن اللغة العربية لغة الدين الذى هاجمه الصليبيون ، فالتعصب لها تعصب لهذا الدين المهاجم ، وكما اعتقد المسلمون سمو دينهم حتى لايقاربه فى السمو دين ، اعتقدوا كذلك سمو لغة هذا الدين ، حتى لاتدانيها لغة من اللغات .

وإذا كان ديوان الإنشاء يحتاج إلى كاتب يعرف لغة الفرنج ، ليترجم مايرد من كتبهم ، وليترجم إلى لغتهم ما يرد به على هذه الكتب ، فأغلب الظن أن مهمته لم تتعد هذه الحدود الضيقة ، ولم يحاول هو أن يعرف أكثر مما تحتاج إليه مهنته ، للأسباب التى أشرنا إليها فيما سلف .

وبعد فإن واجب البحث العلمى يقتضى أن أقرر أن كثيراً من أدب عصر الحروب الصليبيةلايزال خبيئا فى الخزائن ، مخطوطا أومصوراً ، لم يحقق تحقيقا علميا ، يظهره فى أكمل صورة ممكنة ، وأن من الواجب تضافر القوى على نشر هذا الأدب وإذاعته ، حتى يكون من الميسور دراسته فى صورة أوسع من هذه الدراسة التى أقدمها . وأنه لما يسهل مهمة الدراسين أن يجمعوا مايتعلق بالأدب الصليبى بعضه إلى جوار بعض ، وأن ينسقوه أبوابا ، وأن يرتبوا مايجمعون ترتيبا تاريخيا ، يتجلى فيه فعل الحوادث وسير الزمن .

وإنه لمن الخير كذلك أن يفردهؤلاء الذين صنعوا الحياة الأدبية فى هذا العصر بدراسة واسعة ، تبين عقولهم ، ونفوسهم ، وميولهم الفنية ، فى جلاء وتفصيل ، ولعل الله يوفقنى إلى أن أشارك فى بعض ذلك ، وأن أساهم فيه . وحسبى الآن أن أقدم هذه الدراسة اليسيرة التى تضع الأسس ، وتعرف بذلك الأدب ، وترسم الخطوط لدراسة أوسع وأعمق .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

مراجع البحث

(أ) المراجع العربية

(١) الآداب النافعة ، بالألفاظ المختارة الجامعة (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٣٩هـ).
لجعفر بن شمس الخلافة الأفضلى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ .

(٢) أبو نواس . (مخطوط بمكتبة الأزهر ، رقم ٤١٩ — أباظة — ٧٠١٥ أدب).
لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ .

(٣) إخبار العلماء بأخبار الحكماء (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ).
لجمال الدين على بن يوسف القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ .

(٤) أخبار مصر (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى سنة ١٩١٩ م بالقاهرة) .
لمحمد بن على بن يوسف بن جلب المعروف بابن ميسر .

(٥) أدب الحروب الصليبية (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٩م) .للدكتور عبد اللطيف حمزة .

(٦) أدب الدنيا والدين (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٤٤ هـ).
لأبى الحسن البصرى الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) .

(٧) الأدب العربى فى مصر من الفتح الإسلامى إلى الفاطميين (مطبعة لجنة البيان العربى بمصر سنة ١٩٥١ م) .
للأستاذ عبد الرزاق حميدة .

(٨) أسرار الحكماء (مخطوط بمكتبة الأزهر رقم ٣٠٠ — أباظة — ٦٩٤٧ — أدب) .
لياقوت بن عبد الله الرومى المستعصمى البغدادى الحموى المتوفى سنة ٦٢٦هـ .

(٩) الإسلام والحضارة العربية (مطبعة دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٢٤ م) .
للأستاذ محمد كرد على .

(١٠) الإشارة إلى من نال الوزارة (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٢٤م).
لأبى القاسم على بن منجب الصيرفى .

(١١) أصول الإسماعيلية (طبع دار الكتاب العربى بمصر).
للدكتور برنارد لويس . وترجمة خليل جلو ، وجاسم محمد الرجب .

(١٢) الأصول الفنية للأدب (مطبعة العلوم بمصر سنة ١٣٦٨ هـ (١٩٤٩ م) .
للأستاذ عبد الحميد حسن .

(١٣) الاعتبار (طبع ليدن سنة ١٨٠٤ م) . لأسامة بن منقذ ، المتوفى سنة ٥٨٤ ﻫ .
(١٤) إعجام الأعلام . (المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٤ ﻫ (١٩٣٥ م) . لمحمود مصطفى .
(١٥) الأعلام (المطبعة العربية بمصر سنة ١٣٤٥ﻫ (١٩٢٧م) . للأستاذ خير الدين الزركلى .
(١٦) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء (المطبعة العلمية بحلب سنة ١٣٤٢ — إلى سنة ١٣٤٥ ﻫ) .
لمحمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي .
(١٧) أعيان العصر وأعوان النصر (مصور بدار الكتب رقم ١٠٩١ تاريخ .
لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ ﻫ .
(١٨) الأغانى (مطبعة دار الكتب) . لأبى الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ ﻫ .
(١٩) الإفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر (طبع حجر) .
لعبد اللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦١٧ ﻫ .
(٢٠) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع من أشهر التآليف العربية فى المطابع الشرقية والغربية .
لإدوارد فنديك (مطبعة الهلال سنة ١٨٩٦ م) .
(٢١) الألفاظ الأيوبية فى كتاب تقويم النديم : محاضرة للدكتور محمد رضا الشبيبى ، ألقيت بمجمع اللغة العربية ، فى ١٩٥١/١/١٥م ، ونشرت بمجلة الرسالة العدد (٩١٦) فى ١٩٥١/١/٢٢م .
(٢٢) أمالى ابن الحاجب (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٠٧ نحو) لعثمان بن عمر بن الحاجب المتوفى سنة ٦٤٦ ﻫ .
(٢٣) أمراء البيان (طبع القاهرة سنة ١٩٣٧ م) . للأستاذ محمد كرد على .
(٢٤) أمنية الألمعى ومنيـة المدعى (مخطوط بالأزهر رقم ٢٢٨٥١ — أدب) .
لأحمد بن على بن الزبير المتوفى سنة ٥٦٣ ﻫ .
(٢٥) أنباه الرواة على أنباء النحاة (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٥٧٩ تاريخ) .
لعلى بن يوسف المعروف بالقفطى المصرى المتوفى سنة ٦٤٦ ﻫ .
(٢٦) الانتصار لواسطة عقد الأمصار (المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٠٣٩ﻫ) .
لإبراهيم بن محمد بن أيدمر ، الشهير بابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ ﻫ .
(٢٧) الأنوار المقتبسة من أوار النار (مصور بدار الكتب رقم ٨٥٠٣ — أدب) .
لعبد المحسن بن حمود التنوخى الحلبى المتوفى سنة ٦٤٣ ﻫ .
(٢٨) أهنى المنائح فى أسمى المدائح (مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٩٦ — أدب) .

لشهاب الدين محمود بن سليمان المتوفى سنة ٧٣٥ هـ .

(٢٩) باعث النفوس إلى زيارة القدس الشريف المحروس (مخطوط بدار الكتب رقم ٥١٤ مجاميع تاريخ) . لبرهان الدين الفزارى .

(٣٠) بدائع البدائه (مطبعة بولاق سنة ١٢٧٨ هـ) .
لعلى بن ظافر الأزدى المتوفى سنة ٦٢٧ هـ .

(٣١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور (مطبعة بولاق سنة ١٣١١ هـ) .
لمحمد بن أحمد المعروف بابن إياس المصرى المتوفى سنة ٩٣٠ هـ .

(٢٢) البداية والنهاية (مطبعة السعادة بالقاهرة) .
لعماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

(٢٣) البديع فى نقد الشعر (مصور بدار الكتب رقم ١٠١٦١ ز) .
لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٨٥٤ هـ .

(٣٤) بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ) .
لجلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ .

(٣٥) البهاء زهير (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥ م) .
لمصطفى عبد الرازق .

(٣٦) تاج التراجم فى طبقات الحنفية (طبع ليبسك سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٦٢ م) .
لقاسم بن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ هـ .

(٣٧) تاريخ آداب اللغة العربية (مطبعة الهلال سنة ١٩٣١ م) . لجرجى زيدان .

(٣٨) تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى (مطبعة العلوم سنة ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧ م) .
للأستاذ السباعى بيومى

(٣٩) تاريخ الأدب العربى بمصر والشام على عهدى الفاطميين والأيوبيين (طبع مصر سنة ١٩٤٦ م) . للأستاذ السباعى بيومى .

(٤٠) تاريخ الأدب العربى بمصر والشام على عهدى المماليك والعثمانيين (طبع مصر سنة ١٩٤٦ م) .
للأستاذ السباعى بيومى .

(٤١) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٥٢ تاريخ).
لشمس الدين أبى عبد الله محمد المعروف بالذهبى ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

(٤٢) تاريخ التمدن الإسلامى، لجورجى زيدان .

(٤٣) تاريخ دولة المماليك فى مصر (مطبعة المعارف سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٤ م) .
للسير وليم موير . ترجمة محمود عابدين ، وسليم حسن .

(٤٤) تاريخ الدول والملوك (مصور بدار الكتب رقم ٣٢٩٧ تاريخ) .
لابن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧ هـ .

(٤٥) تاريخ مصر (طبع المعهد العلمى الفرنسى بمصر) .
لمحمد بن على بن يوسف بن جلب المشهور بابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) .

(٤٦) تاريخ ابن الوردى (المطبعة الوهبية سنة ١٢٨٥ هـ) . لعمر بن الوردى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .

(٤٧) تجريد الأغانى من ذكر المثالث والمثانى (مصور بدار الكتب رقم ٥٠٧١ — أدب)
لمحد بن سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ .

(٤٨) تخميس الكواكب الدرية فى مدح خير البرية (المطبعة العلمية الفطوغرافية سنة ١٣١٩هـ) .
لشمس الدين الفيومى .

(٤٩) التذكرة الصفدية (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٢٠ — أدب) .
لخليل بن أيبك الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ .

(٥٠) تذكرة ابن العديم (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٤٢ — أدب) .
لعمر بن أحمد بن جرادة المتوفى سنة ٦٦٠ هـ .

(٥١) ترجمان الأشواق . لمحيى الدين محمد بن على بن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .

(٥٢) تسبيع الكواكب الدرية فى مدح خير البرية (المطبعة العلمية الفوطوغرافية سنة ١٣١٩ هـ) .
للقاضى البيضاوى .

(٥٣) تطور الأساليب النثرية (مطبعة سركيس سنة ١٩٣٥ م) . للأستاذ أنيس المقدسى .

(٥٤) التعليم فى مصر فى العصر الفاطمى الأول (مطبعة الاعتماد بمصر) للأستاذ عطية على .

(٥٥) تقويم النديم وعقبى النعيم المقيم (مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٠١ — أدب) .
لمحد بن حمويه الدمشقى المتوفى سنة ٦٥١ هـ .

(٥٦) تكملة ديوان شعر عمارة اليمنى (طبع مدينة شالون سنة ١٩٠٢ م) .
اعتنى بتصحيحه هـ . درنبرج .

(٥٧) تيارات أدبية بين الشرق والغرب (مطبعة أحمد مخيمر سنة ١٩٥١ م) .
للدكتور إبراهيم سلامة .

(٥٨) جامع الفنون وسلوة المحزون (مخطوط بدار الكتب رقم ٨٣٢٢ — أدب) .
لنجم الدين أحمد بن حمدان الحرانى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ .

(٥٩) الحاكم بأمر الله (دار النشر الحديث بالقاهرة) . للأستاذ محمد عبد الله عنان .

(٦٠) الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأولى (الطبعة الأولى) .
للدكتور عبد اللطيف حمزة .
(٦١) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (طبع مصر سنة ١٣٢٧ ﻫ) .
لعبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ ﻫ .
(٦٢) الحماسة البصرية (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٠ — أدب) .
لعلى بن أبى الفرج بن الحسن البصرى المتوفى سنة ٦٥٦ ﻫ .
(٦٣) حياة صلاح الدين الأيوبى (مطبعة السعادة) للدكتور أحمد بيلى .
(٦٤) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢م) .
للدكتور أحمد أحمد بدوى .
(٦٥) الحيوان (تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون — مطبعة دار إحياء الكتب العربية) .
لأبى عمرو عثمان بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ﻫ .
(٦٦) خريدة القصر ، وجريدة أهل العصر (مصور بدار الكتب رقم ٤٢٥٥ — أدب) .
وقسم شعراء مصر بتحقيق الأساتذة أحمد أمين وزميليه — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٢ م) .
للعماد الأصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ .
(٦٨) خزانة الأدب وغاية الأرب (المطبعة الأميرية ببولاق) .
لأبى بكر على المعروف بابن حجة الحموى .
(٦٨) الخطط الجديدة لمصر القاهرة (الطبعة الأولى — بولاق سنة ١٣٠٥ ﻫ) لعلى مبارك .
(٦٩) خطط الشام (مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٤٥ ﻫ (١٩٢٦ م) .
للأستاذ محمد كرد على .
(٧٠) خلاصة السيرة الجامعة (مخطوط بدار الكتب رقم ١٦ ش تاريخ) .
بهـا قصيدة لابن المنير .
(٧١) دائرة المعارف الإسلامية قام بترجمتها إلى العربية عبد الحميد يونس وزملاؤه .
(٧٢) دار الطراز (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٣٨ — أدب) .
لهبة الله بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ ﻫ .
(٧٣) دراسات فى علم النفس الأدبى (المطبعة النموذجية . للأستاذ حامد عبد القادر) .
(٧٤) درر التيجان ، وغرر تواريخ الأزمان . (مصور بدار الكتب رقم ٢٦٠٥ — تاريخ) . لأبى بكر بن عبيد الله بن أيبك .

(٧٥) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (طبع الهند سنة ١٣٥٠ ﻫ) .
لأحمد بن على بن حجر الكنانى المتوفى سنة ٨٥٢ ﻫ .
(٧٦) الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم . (مصور بدار الكتب رقم ٢٢٩٤ — أدب) .
اختيار محي الدين بن عبد الظاهر .
(٧٧) دفاع عن البلاغة , مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٥ م) . للأستاذ أحمد حسن الزيات .
(٧٨) الديباج المـــذهب ، فى معرفة علماء أعيان المذهب (طبع فاس سنة ١٣١٦ ﻫ) .
لإبراهيم بن على بن فرحون المتوفى سنة ٧٩٩ ﻫ .
(٧٩) ديوان أسامة بن منقذ (مخطوط بدار الكتب رقم ١٦٩٣٩ ز) .
(٨٠) الديوان الأكبر (بولاق سنة ١٢٧١ ﻫ) .
لمحي الدين بن عربى الحاتمى الأندلسى المتوفى سنة ٦٣٨ ﻫ .
(٨١) ديوان أمية بن أبى الصلت . (طبع ليبزج سنة ١٩١١ م) .
(٨٢) ديوان البهاء زهير . (مصر سنة ١٢٩٧ ﻫ) .
(٨٣) ديوان البوصيرى . (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣١١ — أدب) .
(٨٤) ديوان التلعفرى المتوفى بحماة سنة ٦٧٥ ﻫ . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٣١٣ — أدب) .
(٨٥) ديوان الحاجرى المتوفى سنة ٦٣٢ ﻫ . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٣٠ — أدب) .
(٨٦) ديوان الحماسة . جمع أبى تمام . (مطبعة الجماليه سنة ١٣٣٤ ﻫ) .
(٨٧) ديوان خطب ابن نباتة . (طبع جريدة بيروت ، فى بيروت سنة ١٣١١ ﻫ) .
لأبى يحي عبد الرحيم بن محمد بن نباتة الفارقى المتوفى سنة ٢٧٤ ﻫ .
(٨٨) ديوان ابن الخياط . (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٩٢ — أدب) .
لأحمد بن محمد بن على الدمشقى سنة ٥١٧ ﻫ .
(٨٩) ديوان ابن الساعاتى . (المطبعة الأمريكانية سنة ١٩٣٨ م) . تحقيق أنيس المقدسى .
(٩٠) ديوان سبط ابن التعاويذى .(مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٩٠٣ م) . تحقيق مرجليوث .
(٩١) ديوان ابن سناء الملك . (مصور بدار الكتب رقم ٨٤٠٥ — أدب) .
(٩٢) ديوان الشاب الظريف (المطبعة الأهلية ببيروت) .
(٩٣) ديوان شهاب الدين الفزارى . (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٧٩ — أدب) .

(٩٤) ديوان ابن العربى . (الديوان الصغير) . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٤٤ — أدب) .
(٩٥) ديوان عمر بن أبى ربيعة (مطبعة السعادة بمصر) .
(٩٦) ديوان ابن عنين . (مطبعة دمشق سنة ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م) . بتحقيق خليل مردم بك .
(٩٧) ديوان ابن الفاوض (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٦٦ — أدب) .
(٩٨) ديوان القاضى الفاضل (مكتوب على الآلة الكاتبة ، جمعه وبوبه ورتبه وحققه وشرحه وقدم له — الدكتور أحمد أحمد بدوى) .
(٩٩) ديوان ابن قلاقس . (مطبعة الجوائب بمصر) . بتحقيق خليل مطران .
(١٠٠) ديوان ابن القيسرانى . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٨٤ — أدب) .
(١٠١) ديوان المتنبى . (مطبعة هندية بمصر سنة ١٣٤٢ هـ — سنة ١٩٢٣ م) .
(١٠٢) ديوان ابن مطروح . (طبع القسطنطينية سنة ١٢٩٨ هـ) .
(١٠٣) ديوان ابن النبيه . (مطبعة عبد الغنى فكرى سنة ١٢٨٠ هـ) . بتحقيق عبد الله فكرى .
(١٠٤) ذيل تاريخ دمشق . (طبع بيروت سنة ١٩٠٨ م) . لحمزة بن القلانسى المتوفى سنة ٥٥٥ هـ .
(١٠٥) ذيل الروضتين . (الطبعة الأولى سنة ١٩٤٧ م) . لعبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى أبى شامة المتوفى سنة ٦٦٥ هـ .
(١٠٦) ذيل مرآة الزمان . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٥١٦ تاريخ) . لقطب الدين اليونينى ، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ .
(١٠٧) رحلة ابن جبير . (الطبعة الأولى بمصر سنة ١٩٠٨ م) . لمحمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى المتوفى سنة ٦١٤ هـ .
(١٠٨) الرسائل الأدبية للقاضى الفاضل . (مخطوط بالأزهر رقم ٤٣٩ — أباظة ٧٠٣٥ — أدب) .
(١٠٩) رسائل الحصكفى . (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٦ — أدب) .
(١١٠) رسائل الوهرانى . (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤ — أدب) .

(١١١) رسالة صفى الدين بن ظافر . (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٣٨ — أدب) .
(١١٢) رسالة ابن عبد الظاهر . (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩١١ — أدب) .
(١١٣) الرسالة المصرية . (ضمن نوادر المخطوطات ، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون — القاهرة ، سنة ١٣٧٠ ﻫ (١٩٥١ م)
لأبى الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٨ ﻫ .
(١١٤) روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات : أعيان الشيعة . (طبع فاس سنة ١٣٠٧ ﻫ) . لمحمد باقر الحاجى أمير زين العابدين الموسوى .
(١١٥) الروضتين فى أخبار الدولتين . (مطبعة وادى النيل بمصر سنة ١٢٨٧ ﻫ) .
لعبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ ﻫ .
(١١٦) زهر الآداب . (المطبعة الرحمانية بمصر) . لأبى إسحق الحصرى القيروانى .
(١١٧) سراج الملوك . (المطبعة الوطنية بالإسكندرية سنة ١٢٨٩ ﻫ) .
لمحمد بن الوليد الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ ﻫ .
(١١٨ سفرنامة . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٢٦٤ ﻫ (١٩٤٥ م) .
لناصر خسرو علوى — ترجمة الدكتور يحيى الخشاب .
(١١٩) سلوان المطاع فى عدوان الأتباع (مطبعة الدولة التونسية بتونس سنة ١٢٧٩ ﻫ) .
لمحمد بن ظفر الصقلى .
(١٢٠) السلوك لمعرفة دول الملوك (طبع القاهرة سنة ١٩٣١م) .
لأحمد بن على المقريزى ، تحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة .
(١٢١) السيد البدوى (مطبعة الحرية سنة ١٢٦٧ ﻫ (١٩٤٨ م) .
للأستاذ محمد فهمى عبد اللطيف .
(١٢٢) الشاهنامة . (مطبعة دار الكتب) . نقلها الفتح بن على البندارى إلى العربية .
(١٢٣) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب (طبع القاهرة سنة ١٣٥٠ ﻫ) .
لعبد الحى بن العماد الحنبلى المتوفى سنة ١٠٧٩ ﻫ .
(١٢٤) شرح مقامات الحريرى (مخطوط بدار الكتب رقم ٧٤٣٧ — أدب) .
لسلامة بن عبد الباقى بن سلامة الضرير النحوى المتوفى سنة ٥٩٠ ﻫ .
(١٢٥) الشعر والشعراء (القاهرة سنة ١٣٣٢ ﻫ) .
لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ ﻫ .

(١٢٦) شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، لمؤلف مجهول لعله إبراهيم الحنبلى، كما ذهب إلى ذلك الدكتور مصطفى زيادة (نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٣١) .

(١٢٧) الشيعة وفنون الإسلام : (طبع صيدا سنة ١٣٣١ هـ) . للسيد حسن الصدر .

(١٢٨) صبح الأعشى . (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ — ١٩١٣م) . لأبى العباس أحمد القلقشندى .

(١٠٩) الصعلكة والفتوة فى الإسلام (مطبعة المعارف بمصر) للدكتور أحمد أمين .

(١٣٠) صلاح الدين الأيوبى وعصره (مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) . للأستاذ محمد فريد أبو حديد .

(١٣١) صور البديع — فن الأسجاع . (القاهرة سنة ١٩٥١م) . الأستاذ على الجندى .

(١٢٢) ضبط الأعلام (مطبعة دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) . لأحمد تيمور .

(١ ٣) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد (المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٣٢ هـ) . لكمال الدين بن جعفر بن ثعلب الأدفوى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ .

(١٣٤) طبقات الشافعية الكبرى (المطبعة الحسينية — الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤ هـ) . لعبد الوهاب بن على بن السبكى المتوفى سنة ٧٧١ هـ .

(١٣٥) طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين (مطبعة السعادة بالقاهرة) . لأبى عبد الله بن سلام الجمحى .

(١٣٦) الطبقات الكبرى للشعرانى (طبع الحاج عبد السلام بن محمد بن شقرون) .

(١٣٧) طيف الخيال (دار الكتب رقم ٣٥٥٦ — أدب) . لمحمد بن دانيال الموصلى المتوفى سنة ٧١٠ هـ .

(١٣٨) عبيد الله المهدى (طبع مصر سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) . للدكتورين : حسن إبراهيم حسن ، وطه أحمد شرف .

(١٣٩) عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (مخطوط بدار الكتب رقم ٧١ م تاريخ) . لمحمود بن أحمد المعروف بالعينى الحنفى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ .

(١٤٠) العقد الفريد . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) . لأحمد بن عبد ربه .

(١٤١) العقد الفريد للملك السعيد . (مطبعة الوطن سنة ١٣٠٦ ﻫ) .
لمحمد بن طلحة المتوفى سنة ٦٥٢ ﻫ .
(١٤٢) العمدة فى صناعة الشعر ونقده . (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ ﻫ —١٩٠٧ م) .
للحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٥٦٣ ﻫ .
(١٤٣) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . (الطبعة الأولى سنة ١٢٩٩ ﻫ —١٨٨٢ م) .
لأحمد بن القاسم بن خليفة المعروف بابن أبى أصيبعة المتوفى سنة ٦٨٨ ﻫ .
(١٤٤) عيون التواريخ . (مصور بدار الكتب رقم ٩٤٩ تاريخ) .
لابن شاكر الكتبي الحلبي المتوفى سنة ٧٦٤ ﻫ .
(١٤٥) الفاضل من كلام الفاضل . (مصور بدار الكتب رقم ٣٨٨٢ — أدب) .
اختيار جمال الدين بن نباته .
(١٤٦) الفاطميون فى مصر (المطبعة الأميرية سنة ١٩٣٢ م) للدكتور حسن إبراهيم حسن .
(١٤٧) فجر الإسلام ج ١ (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٢٨ م) . للدكتور أحمد أمين .
(١٤٨) فصوص الفصول وعقود العقول . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٤٠٩ — أدب)
لهبة الله بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ ﻫ .
(١٤٩) فضائل الشام (مخطوط بدار الكتب رقم ٥١٩ مجاميع) .
لعبد الكريم بن محمد بن منصور .
(١٥٠) فضائل الشام (مخطوط بدار الكتب رقم ٧٨١ مجاميع) .
لأبى الحسن على بن محمد الربعى المتوفى سنة ٥٨٣ ﻫ .
(١٥١) الفلك الدائر على المثل السائر (طبع سنة ١٣١٩ ﻫ) .
لعز الدين عبد الحميد بن هبة الله المدائنى المعروف بابن أبى حديد .
(١٥٢) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية . (مطبعة السعادة سنة ١٣٢٤ ﻫ) .
لمحمد عبد الحى اللكنوى الهندى .
(١٥٣) الفوائد الجلية فى الفرائد الناصرية . (مصور بدار الكتب رقم ٢٢٩٣ — أدب) .
للملك الناصر داود بن المعظم عيسى .
(١٥٤) فوات الوفيات . (مطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ ﻫ) .
لمحمد بن أحمد الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ ﻫ .
(١٥٥) فى أدب مصر الفاطمية . (طبع دار الفكر العربى) . للدكتور محمد كامل حسين .
(١٥٦) فى الأدب المصرى . (مطبعة الاعتماد سنة ١٩٤٣ م) للاستاذ أمين الخولى .

(١٥٧) فى الأدب المصرى الإسلامى : من الفتح الإسلامى إلى دخول الفاطميين (مطبعة الاعتماد) .
للدكتور محمد كامل حسين .
(١٥٨) فى أصول الأدب (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٣هـ ، ١٩٣٥م) .
للأستاذ أحمد حسن الزيات .
(١٥٩) فى التصوف الإسلامى وتاريخه (القاهرة سنة ١٣٦٦ هـ — ١٩٤٧ م) .
لرينولد ا . نيكولسون ، وترجمه إلى العربية الدكتور أبو العلا عفيفى .
(١٦٠) الفيح القسى فى الفتح القدسى . (مطبعة الموسوعات بشارع باب الخلق بمصر سنة ١٣٢١ هـ) .
للعماد الأصبهانى الكاتب المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .
(١٦١) قانون ديوان الرسائل (مطبعة الواعظ بمصر سنة ١٩٠٥ م) .
لابن الصيرفى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ .
(١٦٢) قصة الأدب الفارسى . (مطبعة لجنة البيان العربى سنة ١٩٥١ م) .
للأستاذ حامد عبد القادر .
(١٦٣) القصص الحيوانى وكتاب كليلة ودمنة . (مطبعة لجنة البيان العربى) .
للأستاذ حامد عبد القادر .
(١٦٤) قلادة النحر بأعيان وفيات الدهر . (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٤١٠ تاريخ) .
لمحمد الطيب بن عبد الله أحمد .
(١٦٥) الكامل فى التاريخ (الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ) .
لعلى بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .
(١٦٦) كتاب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب النعمان المختار . (مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤ م تاريخ) . لمحمود بن سليمان الشهير بالكفوى الحنفى .
(١٦٧) كتاب العصا، لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ (القاهرة سنة ١٣٧١ هـ ١٩٥١م) .
ضمن نوادر المخطوطات، بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
(١٦٨) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . (طبع الآستانة سنة ١٩٤١ م) .
للكاتب شلبى حاجى خليفة ، المتوفى سنة ١٠٦٧ هـ (١٦٥٧م) .
(١٦٩) كليلة ودمنة ، لابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ هـ .
(١٧٠) لباب الآداب (طبع مصر سنة ١٩٣٠ م) . لأسامة بن منقذ ، المتوفى سنة ٥٨٤ هـ .

(١٧١) لمع القوانين المضيـــة فى دواوين الديار المصرية (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٠٢٢ تاريخ). لعثمان بن إبراهيم النابلسى.

(١٧٢) مؤنس الوحدة. (مصور بدار الكتب رقم ٥٠٧٠ — أدب).
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ.

(١٧٣) مبارز الأقران فى تخميس المعلقات السبع. (مصور بدار الكتب رقم ٧٥٩٩ أدب).
لعلاء الدين على بن محمد.

(١٧٤) مثلث الديرينى المتوفى سنة ٦٩٤هـ. (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٠١ مجاميع أدب).

(١٧٥) المثل الســائر فى أدب الكاتب والشاعر. (المطبعة البهية).
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٢٧ هـ.

(١٧٦) محاضرة الأبرار، ومسامرة الأخيار، فى الأدبيات والنوادر والأخبار. (مخطوط بدار الكتب رقم ٦٨٩٩ — أدب). لمحى الدين بن العربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ.

(١٧٧) المحمدون من الشعراء وأشعارهم. (مصور بدار الكتب رقم ٤٧٢٢ — أدب).
لعلى بن يوسف القفطى المتوفى سنة ٦٤٦ هـ.

(١٧٨) مختارات من ديوان عمارة اليمنى. (طبع مدينة شالون سنة ١٨٩٧م)، مع كتاب النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية.

(١٧٩) مختارات من كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب. (مصور بدار الكتب رقم ٧٤٣٣ — أدب). لمحمد بن يوسف بن محمد بن ميمون.

(١٨٠) مختارات الأغانى فى الأخبار والتهانى. (مصور بدار الكتاب رقم ٤٦٤٦ أدب).
لابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هـ.

(١٨١) مختار ديوان علم الدين أيدمر المحيوى (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٠ هـ، ١٩٣١ م).

(١٨٢) مختار شعر القاضى الفاضل. (مصور بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٣٥٨).
اختيار صلاح الدين الصفدى.

(١٨٣) المختار من إنشاء القاضى الفاضل. (مخطوط بمكتبة الأزهر رقم ٤٦٩ — أباظه ٧٠٦٥ — أدب). اختيار جمال الدين بن نباتة المصرى.

(١٨٤) المختصر فى أخبار البشر. (المطبعة الحسنية المصرية — الطبعة الأولى).
لأبى الفداء صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ.

(١٨٥) مختصر كامة الزهر وخريدة الدهر . (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٢٧٢ أدب) .
لإسماعيل بن أحمد بن الأثير الحلبي المتوفى سنة ٦٩٩ هـ .
(١٨٦) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، لابن الجوزى (مخطوط بدار الكتب رقم ٧٢٨ مجاميع تاريخ) .
(١٨٧) مختصر مناقب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزى (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٣٣٤ تاريخ) . الكتابان لأسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ .
(١٨٨) مرآة الجنان وعبرة اليقظان . (الطبعة الأولى بحيدر أباد الدكن سنة ١٣٣٨ هـ) .
لأبي محمد عبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٨٦٨ هـ .
(١٨٩) مرآة الزمان (مخطوط بدار الكتب رقم ٢١٨١ تاريخ) .
لأبي المظفر يوسف بن قزأوغلي المعروف بسبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ .
(١٩٠) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار (مصور بدار الكتب رقم ٢٥٦٨ تاريخ) .
لابن فضل الله العمرى .
(١٩١) مصارع العشاق . (مخطوط بدار الكتب رقم ١١٤٧ — أدب) .
لأبي محمد جعفر بن أحمد بن السراج .
(١٩٢) مصر فى تاريخ البلاغة . (بحث ألقيت خلاصته بالجمعية الجغرافية فى ٧ مارس سنة ١٩٣٤ م) . للأستاذ أمين الخولى .
(١٩٣) المطرب من أشعار أهل المغرب. (مصور بدار الكتب رقم ز ١٠٣١٠ — أدب).
لعمر بن دحية الكلبي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ .
(١٩٤) معالم الكتابة ومغانم الإصابة . (المطبعة الأدبية ببيروت سنة ١٩١٣ م) .
لعبد الرحيم بن على بن شيث القرشى .
(١٩٥) معاهد التنصيص شرح شواهد التلخيص. (مطبعة دار الطباعة المصرية سنة ١٢٧٤هـ).
لعبد الرحيم بن عبد الرحمن بن أحمد العباسى .
(١٩٦) معجم الأدباء (نشره الدكتور فريد رفاعى سنة ١٩٣٦ م) .
لياقوت الرومى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .
(١٩٧) معجم الأطباء (مصر سنة ١٣٦١ هـ — ١٩٤٢ م) . للدكتور أحمد عيسى .
(١٩٨) معجم البلدان . (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٣ هـ، ١٩٠٦ م) .
لياقوت بن عبد الله الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

(١٩٩) معجم السلفى . (مصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٩٣٢ تاريخ) .

(٢٠٠) المغرب فى محاسن أهل المغرب ، (مخطوط بدار الكتب رقم ١٠٣ - تاريخ) .
لابن سعيد .

(٢٠١) مفتاح الأفراح فى امتداح الراح . (مخطوط بدار الكتب رقم ٦٠٣ — أدب) .
لعبد المحسن بن حمود الحلبى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ .

(٢٠٢) مفتاح السعادة . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٧م معارف عامة) .
لطاش كبرى زاده المتوفى سنة ٩٦٨ هـ .

(٢٠٣) المفتاح المنشا فى حديقة الإنشاء . (مصور بدار الكتب رقم ٤٩٣٤ — أدب) .
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ .

(٢٠٤) مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب . (مصور بدار الكتب رقم ٥٣١٩ تاريخ) .
لجمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ .

(٢٠٥) المفضليات (مطبعة المعارف سنة ١٩٥٢ م) .
للمفضل بن محمد الضبي ، بتحقيق الأستاذين : عبد السلام هارون ، وأحمد شاكر .

(٢٠٦) المقاصد السنية، فى شرح القصائد النبوية . (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٤٧ أدب).
لشهاب الدين المقدسى المتوفى سنة ٦٦٥ هـ .

(٢٠٧) مقامات الحريرى .

(٢٠٨) مقامة الشاب الظريف (طبع مصر) . لمحمد بن سليمان بن على المتوفى سنة ٦٨٨هـ .

(٢٠٩) مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية المصرية) . لعبد الرحمن بن خلدون .

(٢١٠) مقطعات النيل (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٨ أدب) . لابن الساعاتى .

(٢١١) الملامتية والصوفية وأهل الفتوة (طبع دار إحياء الكتاب العربية سنة ١٣٦٤ هـ ، ١٩٤٥ م) .
للدكتور أبى العلا عفيفى .

(٢١٢) منتهى الطلب من أشعار العرب . (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٣ ش — أدب) .
لمحمد بن المبارك بن محمد بن ميمون . كان موجوداً سنة ٥٨٩ هـ .

(٢١٣) المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الإمام أحمد . (مخطوط بالمكتبة التيمورية رقم ٨٢٨ تاريخ) .
لعبد الرحمن بن محمد العمرى .

(٢١٤) المنهل الصافى ، والمستوفى بعد الوافى . (مخطوط بدار الكتب رقم ١١١٣ تاريخ).
لخليل بن أيبك الصفدى

(٢١٥) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . (مطبعة النيل بمصر سنة ١٣٢٤ هـ).
لأحمد بن على المقريزى .

(٢١٦) مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (طبع مصر) للأستاذ محمد عبد الله عنان .

(٢١٧) نثار الأزهار فى الليل والنهار . (مطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٢٩٨ هـ) .
لمحمد بن مكرم المتوفى سنة ٧١١ هـ .

(٢١٨) نثر الجمان فى تراجم الأعيان . (مخطوط بدار الكتب رقم ١٧٤٦ تاريخ) .
لأحمد بن محمد بن على الفيومى المتوفى سنة ٧٧ هـ .

(٢١٩) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (ط مصر سنة ١٣٥٣ هـ ١٩٣٥ م) .
ليوسف بن تغرى بردى الأتابكى .

(٢٢٠) نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب . (مخطوط بمكتبة الازهر رقم ٤٢٣ —
أباظة — ٧٠١٩ — أدب) .
لأحمد بن يوسف التيفاشى المتوفى سنة ٦٥١ هـ .
نظرية المثل والممثول وأثرها فى شعر مصر الفاطمية (مطبعة الفكرة) .
للدكتور محمد كامل حسين .

(٢٢١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب . (طبع ليدن سنة ١٨٥٥ م) .
لأبى العباس أحمد بن محمد الشهير بالمقرى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ) .

(٢٢٢) نقد الشعر . (مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة ١٣٠٢ هـ) .
لأبى الفرج قدامة بن جعفر .

(٢٢٣) النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية . (طبع مدينة شالون سنة ١٨٩٧ م) .
لعمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ هـ .

(٢٢٤) نكت الهميان فى نكت العميان (المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٣٢٩ هـ ، ١٩١١ م) .
لخليل بن أيبك الصفدى .

(٢٢٥) نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبع دار الكتب بالقاهرة ، والجزء ٢٧
مصور بدار الكتب رقم ٥٤٩ معارف عامة) .
لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى .

(٢٢٦) نهاية الرتبة فى طلب الحسبة . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٩ م) .
لعبد الرحمن بن عبد الله بن نصر المتوفى سنة ٥٨٩ ه .

(٢٢٧) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مطبعة الآداب بمصر سنة ١٣١٧ ه) .
ليوسف بن شداد المتوفى سنة ٦٣٢ ه .

(٢٢٨) الوافى بالوفيات (مصور بدار الكتب رقم ١٢١٩ تاريخ)
لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى .

(٢٢٩) الوشى المرقوم فى حل المنظوم . (مطبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ ه) .
لنصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ ه .

(٢٣٠) وفيات الأعيان (المطبعة الميمنية سنة ١٣١٠ ه) .
لأحمد بن محمد بن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ ه .

(١٣١) يتيمة الدهر (مطبعة الصاوى سنة ١٣٥٢ ه . ١٩٤٣ م) الطبعة الأولى .
لأبى منصور عبد الملك الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ ه .

(ب) المراجع الفرنسية

232. La Chanson de Roland. (Paris. Librairie Hatier).
Traduction. Commentaire. Par Mlle A.Perièr.
233. Encyclopedie de L'Islam. (Paris, 1913).
234. Histoire des Croisades.
Par Michaud.
235. Iliade. (Paris. Librairie Hatier).
Traduction Française. par Ch. Georgin).
236. Litterature Arabe. (Librairie Armand Colin).
Par Clement Huart.
237. Uu poète arabe du IVe Siècle de l' Hegire.
(Paris, 1935).
Par R. Blachère.

(ح) المراجع الإنجليزية

238. The Crucades. By Barker.
239. History of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1913) By Lane-Poole.
240. A literary Hisiory of the Arabs.
(London, 1925). By Nicholson (Reynold A.)
241. A Short History of the Saracens.
(London, 1900). By Ameer Ali.

فهرس الكتاب

للمؤلف

في التأليف :

ا ـ في الأدب :

١ ـ نفس تحطمت . (مسرحية مصرية) .

ب ـ في النقد الأدبي :

٢ ـ من بلاغة القرآن . (الطبعة الثانية) . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٣ م)

٣ ـ أسس النقد الأدبي عند العرب . (تحت الطبع) .

جـ ـ عصر الحروب الصليبية بمصر والشام :

٤ ـ الجزء الأول : (في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والحربية) . (تحت الطبع) .

٥ ـ الجزء الثاني : (في الحياة العقلية) . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ م) .

٦ ـ الجزء الثالث : (في الحياة الأدبية) . (مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٤ م) .

٧ ـ الجزء الرابع : (في الحياة الروحية) . (قيد البحث) .

د ـ تراجم :

٨ ـ سيبويه . (بحث مستخرج من صحيفة دار العلوم ـ يناير سنة ١٩٤٨ م) .

٩ ـ شاعر بني حمدان . (الطبعة الثانية) . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٣ م) .

١٠ ـ رفاعة الطهطاوي بك . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٢ م) .

١١ ـ مأمون بني أيوب . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٣ م) .

١٢ ـ حياة البحتري وفنه . (مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٤ م) .

في التحقيق :

١ ـ ديوان القاضي الفاضل . (تحت الطبع) .

٢ ـ ديوان المعتمد بن عباد . (بالاشتراك) . (المطبعة الأميرية سنة ١٩٥١ م) .

٣ ـ ديوان أسامة بن منقذ . (بالاشتراك) . (المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٣ م) .

٤ ـ المطرب . من أشعار أهل المغرب . (بالاشتراك) . (المطبعة الأميرية سنة ١٩٥٤ م) .

٥ — البديع فى نقد الشعر، لأسامة بن منقذ . (بالاشتراك) . (تحت الطبع .

٦ — الدر النظيم، من ترسل عبد الرحيم . (تحت الطبع) .

٧ — شعر طلائع بن رزيك . (تحت الطبع) .

فى الترجمة :

ديوان المتنبي فى العالم العربى وعند المستشرقين . (القسم الثانى من كتاب « المتنبى » للمستشرق الفرنسى : الدكتور بلاشير) .

(مطبعة نهضة مصر سنة ١٩٥٢ م) .

الكتاب التالى للمؤلف بمعونة الله

نفس تحطمت

« رواية تمثيلية مصرية فى ستة فصول »

١٩٠٧